لويزا ماي ألكوت

نساء صَغيرات

Little Women

مكتبة ياسمين

الجزء الأول

ترجمة: سارة شيبان

نساء صَغيرات

t.me/yasmeenbook

العنوان: نساء صَغيرات
المؤلف: لويزا ماي ألكوت
ترجمة: سارة شيبان
عنوان الكتاب باللغة الإنجليزية: *Little Women*
الطبعة الأولى: سبتمبر ـ أيلول، 2023 (1000 نسخة)

HEMINGWAY
BOOKS

hemingway.books@hotmail.com
بيروت / لبنان
تلفون: 0096181816433

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 691 - 21 - 3

لويزا ماي ألكوت

مكتبة ياسمين

نساء صَغيرات

الجزء الأول

ترجمة:

سارة شيبان

t.me/yasmeenbook

رؤية دار همنغواي:

احتفاءً بالأدب، اختِيرَ الأديب الأميركي إرنست همنغواي كاسم لدارنا.

أُسِّست دار همنغواي عام 2023، لإثراء القارئ العربي بأعمال أدبية وفق رؤية خاصة، نصّاً وروحاً، بمعايير فنية حديثة، وذلك ضمن سلاسل ثلاث:

- **كلاسيكيات**: تصدر بعضها بالعربية وبعضها بالإنكليزية، واسم السلسلة: *Classics*.
- **مختصرات**: بترجمة أدبية رفيعة للأعمال الفنية، واسم السلسلة: *Abridged Version*.
- **أفكار عظيمة**: وهي سلسلة لكتب فكرية تركت أثراً إنسانياً كبيراً، واسم السلسلة: *Great Ideas*.

The Hemingway Books House vision:

In honor of literature, the American writer Ernest Hemingway was chosen as the name of our publishing house.

Hemingway Books was established in 2023, to enrich the Arab reader with literary works following a special vision, in text and spirit, with modern artistic standards, within three series:

- Classics: some of them are published in Arabic and some in English. The name of the series is: *Classics*.
- Abridgements with fine translations of literary works. The name of the series is: *Abridged Version*.
- A series of intellectual books that have left a great human impact. The name of the series is: *Great Ideas*.

الفهرس

الفصل الأول: لعبة الحجّاج 7
الفصل الثّاني: عيد الميلاد 31
الفصل الثّالث: الفتى لورانس والعزلة 51
الفصل الرّابع: أعباء ومسؤوليات 69
الفصل الخامس: حُسن الجِوار 89
الفصل السّادس: بيث معجَبةٌ بالقصر الكبير 109
الفصل السّابع: آيمي في وادي الذّل 121
الفصل الثّامن: جو والشّيطان.. شجار عنيف 131
الفصل التّاسع: متاع الغرور 149
الفصل العاشر: نادي بيكويك 181
الفصل الحادي عشر: تجارب واختبارات 203
الفصل الثّاني عشر: لوري ومعسكر التّخييم 229
الفصل الثّالث عشر: قصور في الأحلام 267
الفصل الرّابع عشر: الأسرار 287
الفصل الخامس عشر: برقية 307
الفصل السّادس عشر: رسائل 327
الفصل السّابع عشر: الطّفلة المؤمنة 345

t.me/yasmeenbook

الفصل الثّامن عشر: أوقاتٌ عصيبة 363
الفصل التاسع عشر: وصيّة آيمي 381
الفصل العشرون: ائتمان 399
الفصل الحادي والعشرون: لوري المؤذي وجو رسولة السلام 415
الفصل الثّاني والعشرون: السّعادة تشرق من جديد 443
الفصل الثالث والعشرون: العمّة مارش تحل العقدة 459

الفصل الأول

لعبة الحجّاج

بينما كانت الثّلوج تتساقط بهدوءٍ خارج المنزل، تجمّعت الأخوات الأربع حول الموقد تتدفّأنَ وتستشعِرن نارها في ذهول. اقترب عيد الميلاد، ولم يتبقَ سوى ليلة واحدة للاحتفالِ به، لكنها ستكون مملّة كما يبدو.

ارتمَت جو البالغة من العمر خمسة عشر عامًا على الأرضِ وقالت متذمّرة:

«ما هذا العيد الذي لن تأتينا فيه هدايا كالسّابق؟!»

قالت أختها ميج بحسرةٍ وهي تنظر إلى فستانها القديم:

«من الفظيع أن يكون المرء فقيرًا!»

تأفّفت آيمي الصغيرة التي تبلغ اثني عشر عامًا وقالت بنبرةٍ يخالطها الألم:

«لماذا تحظى بعض الفتيات بكل ما هو جميل، في حين تشتهي الأخريات توافه الأشياء؟»

t.me/yasmeenbook

أمّا بيث، التي كانت تجلس في زاويةِ الغرفة، وشاركتهنّ النقاش بروحٍ مسرورةٍ راضية:

«لدينا أبٌ وأمٌّ يحبّاننا كثيرًا ولطالما قضينا وقتنا معًا، أيوجد أعظم من هذه النعمة؟»

أنارت تلك الكلمات وجوه الشابّات الأربع التي انعكس عليها لهيب النّار، لكنها أظلمت مرّةً أخرى عندما قالت جو بحزنٍ:

«وأين هو أبي الآن؟، إنّه بعيدٌ عنّا ولن يعود قبل وقتٍ طويل».

(وربّما لن يعود) قالتها في سرّها، وقالتها أخواتها أيضاً، وهن تتذكّرن أباهن الحبيب، العزيز على قلوبهنّ، والذي تركهنّ في مهبّ الرّيح يكدحن ويتعبن.

عمّ الصّمت برهةً، ثمّ غيّرت ميج نبرتها وقالت بحزم:

«نحن نعلم سبب رفض أمّي إعطائنا أيّ هدايا في عيد الميلاد هذا. سيكون الشّتاء قاسيًا على الجميع؛ وهي تعتقد أنّنا لا ينبغي أن نبذّر مالنا في سبيل المتعة بينما يعاني الرجال الشّدائد والويلات في الجيش. والحقّ يُقال، نحن صغيرات وليس بمقدورنا فعل الكثير، لكن يمكننا تقديم تضحياتنا الصغيرة هذه بكامل الرّضا والسّرور من أجلهم. إلّا أنني لا زلت أخشى ألّا أقوم بذلك عن طيب خاطر!»

ثم هزّت رأسها بحزن وهي تفكّر بالأشياء الجميلة التي تريدها ولن تحصل عليها.

قالت جو متوجسة، وقد كانت شديدة الشغف بالقراءة والكتابة:

«لكنّني لا أعتقد أنَّ القليل الذي سننفقه قد يفيدهم في أيّ شيء. فإن كل واحدةٍ فينا لا تملك ما يزيد عن دولارٍ واحدٍ، وهذا لن يساعد الجيش كثيرًا. أنا لا أتوقّع أيّ هدايا منكنّ أو من أمّي، لكنّني أتلهّف بشدّة لشراء كتاب طال شوقي لقراءته».

قالت بيث بصوتٍ تملؤه الحسرة:

«كم تمنيّت أن أشتري بنقودي هذه كتابًا جديدًا عن الموسيقا».

أضافت آيمي وكأنّها حسمت أمرها على فعل شيء ما:

«أنا في أمسّ الحاجة إلى أقلام ملوّنة للرسم، وسوف أشتري علبةً منها لا محال».

قالت جو بهدوء:

«يا فتيات، لم تقل أمّي أيّ شيءٍ عن أموالنا، ولن تسعد أبدًا إن أعطيناها كلّ ما نملك. لِمَ كلّ هذا الحرمان؟! لقد تجرّعنا المرّ في جني هذه النقود، لنشتري ما نحب ونريد. هيّا لنتمتّع قليلًا.» ثمّ تفحّصت كعب حذائها كالنّبلاء عندما انتهت من خطابها.

t.me/yasmeenbook

وبتذمر بالغ الحدّة قالت ميج:

«وحده اللّٰه يعلم كم أكابد العناء مع هؤلاء الأطفال المزعِجين. عليّ أن ألازمهم طوال الوقت. إنّهم يستهلكون وقتي وراحتي وسكينتي وعمري بالكامل وكلُّ هذا مقابل مبلغٍ تافه. آه ما أصعب جني المال!»

فقالت جو:

«أوه يا ميج. عن ماذا تتحدّثين، كيف لو كنت مثلي مع سيّدةٍ عجوزٍ هرمة، عدّي على أصابعك، إنّها مزعجةٌ، متذمّرةٌ، ومرهِقة، دائمةُ الشكوى، لا ترضى أبدًا حتى ولو هرولت الدَّهر في سبيلها، صدّقيني، يخيَّل إليَّ في بعض الأحيان أنّني سأشدّها من أذنيها أو ألقي بنفسي من النّافذةِ أمامها».

قالت بيث بعد أن تحسّست يديها الخشنتين:

«لم أكن أنوي الشكوى، لكن أؤكّد لكم أنّني أنا من أقوم بالمهمّة الأسوأ على الإطلاق، غسيل الأطباق ترتّيب الغرف تنظيف البيت بأكمله. اللعنة على هذا العمل لقد خشنت يداي وتصلَّبت أصابِعي. كيف لي أن أتمرَّن على الموسيقا بعد الآن؟»

صرخت آيمي:

«كلّا!!! أنا الأكثر معاناةٍ بينكنّ، تخيَّلن أنفسكنّ

مجبرات على الذهاب إلى المدرسة مع فتياتٍ وقحات، يلُمنَني على جهلي ويعيِّرنني به، ويسخَرن من فساتيني وشكل أنفي المسطَّح، وفوق هذا! يُشهِّرن أبي ويذممنه بسبب الفقر والعوز».

ضحكت جو وقالت:

«قولي تشهّرن بأبي وليس تشهرن أبي، فأبي ليس بضاعةً يتمّ التسويق لها».

انتفضت آيمي قائلةً:

«لا تتلاعبي ولا تزايدي عليّ في الكلام، لا مشكلة ببعض الدمج لأجل تحسين المعنى، أنا أعي تمامًا ما أقول».

هنا تدّخلت ميج بينما تقلّب في رأسها ذكرى سعادةٍ قد ولّت:

«لا تهاجمن بعضكنّ بعضاً يا صغيراتي. ألستِ تتمنّين يا جو لو أنّ أبي استعاد ماله وعشنا جميعًا بترفٍ ورخاء؟»

قالت بيث:

«ألستِ أنتِ من قالت إنّنا أسعد من عائلة كينغ التي تعملين عندها، وقد أزعجك أخلاق هذه العائلة السيئة رغم أنها تملك من ثراءٍ وجاه؟»

أجابتها ميج بثبات:

t.me/yasmeenbook

«وما زلت أصر على هذا. انظرن إلينا، نعيش في بيئةٍ سعيدةٍ ومبهجة، أعتقد أنّنا أفضل حالًا منهم، فنحن نكدّ ونشقى من أجل لقمَتنا، ولعمري إنّ في ذلك لسعادة عظيمةً. كما تقول جو نحن عصابةٌ مرحة».

فاستاءت آيمي ووبّختها بنظراتٍ حادةٍ، ثم قالت:

«لا يجدر بك اقتباس عبارات جو فإنّ حديثها لا يكاد يخلو من الألفاظ العاميّة».

جلست جو فورًا، ووضعت يديها في جيوبها، وأخذت تصفر، فلا بدّ من إغاظة أختها لأنّها انتقدتها.

قالت آيمي:

«لا، يا جو. هذا تصرّف صبيانيٌّ للغاية!»

أجابتها جو باستفزاز:

«صحيح، إنّه كذلك».

قالت آيمي:

«كم أبغض الخشِنات».

فردّت جو:

«وأنا أكره الفتيات الوقحات».

تدخّلت بيث بينهنّ وهي تضحك وكأنها تأخذ دور صانعي السّلام، تطوف بين أخواتها بحركاتٍ مضحكةٍ كي تمتصّ غضبهنّ وترشّ عليهنّ مرحًا وبهجة، لقد كانت تلك عادتها.

قالت آيمي باستنكار:

«الطيور على أشكالها تقع!!».

ضحكن جميعهنّ وأخذن هدنة من تلك المشادّة، قالت خلالها ميج الكبرى، الأعقل بينهنّ بغيّة نصحهن:

«بالله عليكما أيّتها الفتاتان، كلاكما قد أخطأت، أنت يا جوزفين! لقد كبرت وأصبحت شابّة، فدعكِ من تلك التّصرفات الصبيانيّة، عليك تحسين سلوكك. لو أنك ما زلت طفلةً صغيرةً لغضضت عنك الطّرف، لكنّك الآن شابة طويلة يافعة، انظري لشعرك، صرت تصفّفينه كالسيّدات، اكبري وحسب».

صرخت جو وهي تفكّ شعرها:

«أنا لست كبيرة! وإن كان شعري يظهرني هكذا، فسأظفره إلى أن أبلغ العشرين من عمري. أنا أكره أن أكبر وأن أرتدي العباءات الطويلة التي تشبه الأزياء في الصين! إنّه لأمر مقيت، أن تكوني فتاةً تقبع ليلًا نهارًا في المنزل كعجوزٍ متقوقعة. على أيّة حال أنا أحبّ ألعاب الصبيان وأعمالهم وتصرفاتهم! كم كنت أتمنّى أن أسطّر ساحات المعارك مع أبي الحبيب وأشدّ من أزره».

اصطدمت الإبر المعدنيّة التي كانت تستخدمها جو في صناعة الجوارب للجنود، بعد أن هزّتها بيديها وهي تلقي خطبتها تلك، فتدحرجت لفافة الخيطان عبر الغرفة.

t.me/yasmeenbook

رقّ قلب بيث على أختها، ومسحت على رأسها بيديها الحانيتين قائلةً:

«يا لجو المسكينة! إنّه أمرٌ سيئ للغاية، إذ لا نستطيع تغيير الواقع أو تغيير جنسك الآن. ليس أمامك سوى أن تقتنعي باسمك الصبيانيّ وتكتفي به، ومن اليوم أنت أخونا نحن الفتيات».

ثمّ تدخلت ميج، تنصح أختها الغاضبة الأخرى:

«أمّا بالنسبة لك يا آيمي، فأنتِ لا تعرفين شيئًا في هذه الحياة سوى التذمّر والشكوى. إن لم تسارعي في إصلاح ذاتك وسلوكك المُضطّرب فستصبحين مضربًا للمثل بالبلاهة والغباء كالإوزّة المتعجرفة التّافهة. لا تعجبني أساليبك وطرقك المُنمّقة المُبتذلة في الكلام، إنّ مغالاتك في استخدام ألفاظ نحويّة مصطنعة لا تقل قبحًا عن عاميّة وركاكة ألفاظ جو».

قالت بيث مطالبةً بنصيبها من النّصح هي الأخرى:

«وماذا عنّي أنا؟ إن كانت جو صبيانية وآيمي إوزة غبية فماذا أكون أنا، من فضلك؟»

فأجابت ميج بحرارة:

«أنت العزيزة، العزيزة دائمًا».

لم تتلفّظ إحداهنّ بكلمةٍ واحدةٍ، لأن بيث كانت حبيبة الكلّ.

ولنتعرّف أكثر على شخصيّات هذه القصة، فسوف نُقِّدم وصفًا للأخوات الأربع، حيث جلسن في تلك الليلة حول الموقد يتسامرن، بينما تتساقط الثّلوج بغزارةٍ في الخارج.

كنّ يجلسن في غرفةٍ مريحة، سّجادة باهتة على الأرض والأثاث فيها عتيق، لكنّها كانت أنيقة... وعلى جوانبها رفوف خشبيّة تتكدس الكتب فوقها... وعلى الجدران صور معلقة، بالإضافة إلى أزهار الأقحوان التي كانت تغزو النوافذ فتضفي الجمال والسكينة.

كانت مارجريت «ميج»، الأخت الكبرى بين الأربعة، تبلغ من العمر ستّة عشر عامًا، شقراء جميلة، ممتلئة الجسم ومتّسعة العينين، كان شعرها بنّيًا سميكاً، وفمها حلو وناعم ويداها بيضاء جميلة.

أمّا جوزفين «جو» فكانت تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، فارعة الطول، أطرافها نحيلة، فمها حادٌّ وصارمٌ، وأنفها صغيرٌ مضحك. كانت عيناها رماديّتين حادّتين ذات نظراتٍ ثاقبةٍ، تبدو وكأنّها ترى كل شيءٍ مسبقًا، فتجدها تارّةً شرسة أو غاضبة، وتارة أخرى مُضحكة. وكان شعرها البنيّ السميك سرّ جمالها الوحيد، ولكنّها تحرص دائمًا على تجميعه خلف رقبتها وتغطيته بربطة شعرٍ كي لا يتدلّى على كتفيها. سريعة الحركة ومتيقّظة، في طريقها للنّضوج

t.me/yasmeenbook

والتّكامل الأنثويّ، الأمر الذي كان يربكها ويثير غضبها. إنّها مراهقة!

إليزابيث، أو «بيث،» كانت فتاةً حالمةً، ناعمة الشّعر مشرقة العينين في الثالثة عشرة من عمرها، خجولة، خفيفة الصوت ومُسالمة. وقد أطلق عليها والدها اسم «الهادئة الصغيرة»، حيث خلقت عالمها الخاص، وتغلغلت في داخله، دون أن تفصح عنه إلّا لمحبّيهامن ذوي الثقة.

أمّا الصغرى آيمي، فكانت الأكثر أهميّة بينهن، في رأيها الخاص على الأقل. كانت تشبه الدمية، بيضاء ذات عينين زرقاوين، شعرٍ أشقر وجسدٍ نحيل رشيق... لطالما كانت سبّاقةً للنضوج، وتريد أن تكبر بسرعة فتلبس ملابس السّيدات وتتشبّه بصفاتهنّ...

لنعد الآن إلى قصتنا، ونكتشفها سويًا.

عندما دقّت السّاعة السّادسة تمامًا، قامت بيث للموقد فنظّفته ووضعت نعاليّ أمها بالقرب منه معلنةً قرب عودتها إلى المنزل، فانشرحت قلوب الفتيات وابتهجن جميعًا. توقفت ميج عن إلقاء المحاضرات والنّصائح، وبدأت تقلّب حذاء أمّها كي يسخن قليلًا ويصبح جاهزًا لتلبسه فور وصولها.

قالت ميج وهي تحدّق بالحذاء:

أظنّ أنّه اهترأ، يجب أن تحصل أمّي على حذاءٍ آخر».

قالت بيث:

«سأشتري لها زوجًا من مدّخراتي التي جنيتها للعيد».

زمجرت آيمي متأثّرة:

«أنا من ستشتريه».

فقالت ميج من جديد:

«إنّه من حقّي فأنا الأكبر سنًّا».

قالت جو حاسمةً أمر في شرائها الحذاء:

«أنا رجل الأسرة هنا، وقد أوصاني أبي بأمّي قبل رحيله لميدان المعركة، ومن حقّ ربّ العائلة أن يهتمّ بشؤونها».

قالت بيث:

«لا ينبغي أن نختلف في هذه المناسبة السّعيدة، فأنا أرى أنّ كلّ واحدةٍ منّا تمنحها شيئًا في عيد الميلاد».

أُعجبت جو بالفكرة كثيرًا وقالت:

«ماذا سنشتري لها مثلًا؟»

فكّر الجميع بعقلانية لمدّة دقيقة. قالت ميج بعد أن حملقت بيديها الجميلتين:

«سأهديها زوجًا من القفّازات».

صاحت جو:

«من الأفضل شراء حذاء».

t.me/yasmeenbook

قالت بيث:

«ربّما بعض المناديل المطرّزة».

وأخيرًا قالت آيمي:

«سأشتري لها زجاجةً صغيرةً من الكولونيا، أمّي تحبّها ولن تكلّفني الكثير، وبذلك سيتبقّى القليل من المال لشراء بعض الأقلام الملوّنة التي أريدها».

تساءلت ميج:

«تُرى، كيف سنعطيها الأشياء؟»

أجابت جو:

«وكأنّها المرة الأولى التي نهدي فيها والدتنا شيئًا!»

نلفّ الهدايا بأوراق تزيين مزركشة ونضعها على المائدة ثمّ ندعوها لتفتحها أمامنا كما في الأعياد السابقة.

قالت بيث وهي تحمّص الخبز استعدادًا لوجبة الشاي:

«لطالما ارتجفت من تلك المواقف، فما أن أراكنّ تتقدمنّ نحوي وتقدّمن لي الهدايا والقبلات حتى ترتعد جوارحي رهبة، إنّه أمر مروّع».

قالت جو وهي تسطّر الغرفة بخطواتها العشوائيّة:

«سنبتاع الهدايا من السّوق غدًا، سنجعلها مفاجأة، احذرن أيّتها الفتيات أن تعرف أمّنا السّر. ستعتقد أنّنا لا نفكّر إلّا في أنفسنا وهدايانا ثمّ تعرف حقيقة محبّتنا

وإخلاصنا لها. ميج هيّا نتدرب على أدوارنا في الرّواية التي سنمثّلها غدًا».

أطاعتها ميج وقالت بحذر:

«اعلمن أنّها آخر مرّةٍ أمثّل فيها معكنّ، أظنّ أنّني قد كبرت على مثل هذه المسرحيات».

قالت جو:

«بالله عليك، أنت تضيعين فرصتك الذهبيّة. هل هناك أجمل من أن تتبختري وتتمايلي بيننا وكأنك على على المسرح. انظري إلى ثوبك الأبيض وشعرك المتدلّي وتلك المجوهرات الورقيّة الذهبيّة. أنت أفضل ممثّلة لدينا وإن تركتنا فسوف ينتهي أمرنا جميعًا».

ثم توجهت للأخريات قائلة:

«هيّا بنا جميعًا نستذكر أدوارنا».

حذّرت جو أختها آيمي قائلة لها:

«أرجوك، لا داعي لأن تتصلّبي مثل صندوقٍ خشبيٍ عندما يُغمى عليك. بالله عليك أتقني دورك جيّدًا، المطلوب قليلٌ من الرشاقة والليونة فقط».

لم تكن آيمي موهوبة في التّمثيل، لكنّها كانت خفيفة الوزن يسهل حملها والخروج بها من المسرح.

قالت آيمي:

t.me/yasmeenbook

ليذهب العرض للجحيم إن كنت سأصاب بالرضوض والكدمات، ثمّ إنني في حياتي كلّها لم أرَ شخصًا مُغمىً عليه، بالله عليكنّ من منكنّ تستمتع بأن تلقي نفسها على الأرض؟!».

قالت لها جو:

«حسنًا. سأعلّمك؛ استرخي فقط، وأطبقي كفيّك وترنّحي قليلًا، ثمّ اصرخي وقولي النّجدة، أنقذني يا رودريجو».

تقمّصت جو الدّور فعاشته وصرخت بقوة. وبدأت آيمي تقلّدها بتصنّعٍ ملحوظ، فتمادت بصرخاتها كأنّما تشكّها أكوامٌ من الدبابيس.

راحت ميج تقهقه وهي تراقب المشهد الفكاهيّ حتّى أحرقت النار خبزها اللذيذ.

قالت جو:

«لا أمل... أنت ميؤوسٌ منك. لن أبذل المزيد من الجهد. وبالرغم من ذلك أرجوك ضاعفي جهودك أكثر، وإلّا فستعرضيننا للسخرية جميعًا وستأخذين أنت النصيب الأكبر منها».

سارت الأمور بسلاسة، فقد تحدّى «دون بيدرو» العالمَ بصفحتين من خطبته الشّهيرة بدون فاصل واحد. وتمتمت

السّاحرة «هاجار» بتعويذةٍ مرعبةٍ فوق غلّايتها المليئة بالضّفادع. بينما حطّم «رودريجو» سلاسله بقوّةٍ وصلابة، أمّا «هوجو» فقد قاسى العذاب والويلات بعد أن تجرّع السم، وصرَعهُ الموت في النهاية.

جلست ميج التي كانت الشّرير الميّت في المسرحيّة وقالت:

«لقد أبدعنا جميعنا».

صاحت بيث بدهشة:

«إنّك موهوبة فعلاً يا جو، من يؤلّف مسرحية كهذه لا يقلّ شأنًا عن الشّاعر العظيم شكسبير. أنا واثقة من موهبتك يا جو، كما أثق بكنّ جميعًا يا أخواتي».

أجابت جو بتواضع:

«لا تبالغي يا عزيزتي أعتقد أنّ أوبرا «لعنة الساحرات» مأساةً جميلةً إلى حدٍ ما، لكنني أرغب في تمثيل «ماكبث» لأمثّل أنا دور القاتل».

وتقمّصت الدور فورًا وقفزت على الطاولة، ثم أمسكت شوكة الخبز ورفعتها.

«هل ما أراه أمامي خنجر؟»

قالت ميج:

«كلا يا عزيزتي!! ليست بخنجر، فلتتركيها من يدك».

t.me/yasmeenbook

انتهت البروفة وضحكن جميعهنّ.

وارتفع صوتٌ عند الباب يقول ببهجة:

«لا أفرح لشيءٍ في الحياة مثلما أفرح لسعادتكنّ».

وتحوّل الممثّلون والجمهور للترحيب بالسيّدة القادمة. كانت الأمّ طويلةً ممتلئةً ليست فائقة الأناقة، تجملّها ملامحها العطوفة وأمومتها الطاغية. كان مظهرها نبيلًا، وترتدي معطفًا رماديًّا، قالت:

«حسنًا يا عزيزاتي، كيف حالكنّ اليوم؟ كم كنّا مشغولين، فقد جهّزنا صناديق الهدايا لإرسالها. آسفة على التأخير..».

ثمّ بدأت الاستخبارات: «هل جاء أحد يا بيث؟ كيف حالك مع الزكام يا ميج؟ وأنت يا جو، تبدين متعبةً جدًّا».

وخلعت السيدة «مارش» ملابسها المبتلّة، ولبست الحذاء الدافئ وجلست على كرسيٍّ مريحٍ وآيمي الصغيرة في حضنها، تستعدّ للاستمتاع بأجمل جزءٍ من نهارها برفقة الفتيات. طافت الفتيات حولها لخدمتها، كل على طريقتها الخاصة. رتبت ميج طاولة الشّاي، وأحضرت جو الكراسي وقد أوقعت بعضها. هرولت بيث جيئةً وذهابًا بين المطبخ والصّالون، بينما اكتفت آيمي بالأوامر من داخل الحضن الدّافئ. قالت السيدة مارش عندما أصبح الكلّ جاهزًا حول الطّاولة بسعادة:

«هناك خبر سارّ، ستعرفنه بعد العشاء».

أشرقت وجوههنّ كالشّمس وصفّقت بيث فتفتّت البسكويت بين يديها، وألقت جو منديلها وسط صراخ الفتيات، ثم سألنها:

«نشتمّ رائحة أبينا. هل من أخبارٍ عنه؟»

مسحت السيّدة مارش جبين ابنتها آيمي بعطفٍ بالغٍ وقالت:

«نعم. أصبتنّ يا فتيات. إنّها رسالةٌ قال فيها:

«صغيراتي الحبيبات، أنا بصحّةٍ جيدة، ولا تقلقن عليّ من أهوال الشتاء والبرد والحرب، فأنا على ما يرام. وأتمنّى لكنّ عيد ميلاد سعيد».

كم أسعدتهن تلك الكلمات الطيّبة! حمدن اللّٰه على أخبار والدهنّ الحسنة، وارتشفت جو الشّاي بسرعة البرق وغصّت بطعامها حتّى أنها أسقطت خبزها على الأرض، وصاحت بأختها:

«آيمي أسرعي وأنجزي!، كفّي عن تفتيت البسكويت بإصبعك الصغير فقد امتلأ صحنك بالفتات».

انتهت بيث، وكعادتها أخذت ركنًا جانبيًا خافت الإضاءة تنفرد فيه بعالمها الخاص السّاكن، بينما شدّت الأخريات الأحزمة لفيضان البهجة المُنتظَر. قالت ميج بحماسة:

t.me/yasmeenbook

«لم لا يكون أبي قسًّا؟، لقد كبر على المحاربة!»

وحزنت جو وتمنَّت لو كانت قارعة طبول، ممرِّضة، أو مجنَّدة فتساعده وتحظى بقربه. قالت آيمي بامتعاض:

«أوه! ما أبغض النّوم في خيمة، وتناول الطّعام السيِّئ بأوانٍ رديئة. إنّه أمرٌ كريه».

ارتجفت بيث وسألت بلهفة:

«متى سيعود إلى المنزل يا أُمي؟»

قالت أمّهن:

«سيطول الأمر لأشهرٍ كثيرةٍ يا عزيزتي، ما لم يمرض. إنّه واجب مُقدَّس عليه أن يؤدّيه على أفضل وجه. لا نستطيع أن نطلب منه العودة قبل انتهاء الوقت المحدد...

والآن إليكنّ رسالته بالتّفصيل».

فتجمّعن حول النّار، جلست الأمّ على الكرسيّ الكبير وبيث عند قدميها، وميج وآيمي على جنبيّ الكرسيّ... بينما اختبأت جو خلفهنّ جميعًا، فهي لا تطيق أن يرى أحد انفعالاتها العاطفية.

كانت رسالته جافّة خالية من المشاعر الجيّاشة الّتي يغرق الآباء رسائلهم أولادهم بها. كانت وصفًا حيًّا عن المشقّات والأخطار والمسيرات والأخبار العسكرية، وكم أنّه يحنّ إلى وطنه وأولاده. يقول أباكنّ:

«أُرسل لهنّ جميعًا حبّي وقبلاتي، أصلّي لكنّ وأفكر فيكنّ دومًا، راحتي وسلواي في عطفكنّ ومحبّتكن. قد يطول الفراق، لذلك تذكّرن أنّه يجب علينا الآن الانتظار، أتمِمن واجباتكنّ وقاومن الشّرور، وعند اللقاء سأكون فخورًا بنسائي الصّغيرات».

وفيما كنّ يبكين شوقًا ولهفةً لعودته بينهنّ سالمًا غانمًا، أظهرت جو دموعها السّخيّة الضّعيفة أمامهنّ متجاهلةً خشونتها. احتقرت آيمي نفسها لأنها كانت تتصرف بغرور وحضنت أمها وقالت: «فلتذهب التّسريحات للجحيم. تبًا للأنانيّة التي كنت عليها. من اليوم أنا مخلوقةٌ جديدة صالحة. سأبهر أبي وأسعده».

صرخت ميج:

«لا راحة بعد اليوم، سنكون فتياتٍ صالحات. وطالما بإمكاني المساعدة سأساعد. هذه وصيّة أبي».

أضافت جو:

«سأتخلى عن أمنيتي القديمة، وعن كلّ الأفكار الصّبيانيّة. أنا لست ذكرًا، أنا سيّدةٌ صغيرةٌ، هذا ما يريده لي أبي، وهذا ما سأكونه. نعم لن أضيّع الوقت».

أطرقت بيث رأسها ومسحت دموعها بجوربٍ أزرقٍ كانت تطرّزه بيديها، ثمّ تماسكت بكل قوتها، وعادت

t.me/yasmeenbook

للتطريز مجدّدًا. كان ذلك خير برهان على تنفيذ وصيّة والدها الحبيب دون بطءٍ أو تكاسل.

خيّم الحزن والصمت عليهن، فخطر للسيِّدة مارش أن تذكِّرهن بقصصٍ جميلةٍ من طفولتهن:

«من منكنّ تتذكر شيئًا عن لعبة الحجّاج؟ كنت أحمّلكنّ بعض الأغراض الصَّغيرة فتسِرن بها إلى الأعلى، وتلقينها هناك وتعدن خاليات، راضيات، مرتاحات البال».

قالت جو:

«لقد كانت متعة حقيقيّة فيما يسرده خيالنا من معارك وهميّة مع الأسود والشياطين والجن في الصحاري والوديان. كانت سفرًا عبر المنزل، من مدينة الدمار «القبو» إلى المدينة السماوية «السطح» حيث تقبع كل الأشياء الجميلة في سلام ووئام».

قالت ميج:

«وكانت الأشياء تسقط في أغلب الأحيان من على ظهورنا، وتتدحرج على درجات السّلم، فنضطر للنزول مجدّدًا كي ننقلها من جديد».

قالت آيمي وقد سيطرت عليها فكرة أنّها الفتاة الكبيرة التي ما عاد يجدر بها أن تلعب كالأطفال:

«كم كنت أخاف من الظّلام عندما كنّا نسير ليلًا، وكان

عزائي الوحيد هو تلك الوجبات اللذيذة التي كانت تنتظرني في الأعلى. وكانت من الكعك والحليب على ما أتذكّر».

قالت الأمّ:

«كلّا يا عزيزتي. بإمكاننا أن نلعبها متى شئنا... مع بعض التعديلات. ألا ترين يا فتيات أنّنا نفعل الشيء نفسه ولكن بصيغةٍ مختلفة؟ كنّا نحمل الأشياء، والآن نحمل همومنا وأحزاننا. هيّا يا حجّاجي الصّغار لنلعب من جديد، ولنجعل ذلك هدفنا المنشود في حياتنا، ونضعها عقيدة نؤمن بها، وحين يعود أبوكنّ يفرح بكنّ ويفتخر بما صارت عليه فتياته الصغيرات».

وكانت آيمي قليلة البداهة نوعًا ما، فأخذت تسأل حرفيًا عمَّا يجب عليهنَّ أن يحملنه فقالت الأم:

«اعترفتنَّ جميعكنَّ به. ما عدا بيث. أظنّها ملاكًا من السّماء وليس لديها ما يعكّر عليها صفوها».

فقالت بيث وكان اعترافها أشدُّ طرافةً ممَّا اعتقدنه البنات:

«بل يوجد. أنا كلِّي آثام. وأشعر بالخجل الشديد. أنا أكره تنظيف الأطباق. وأغار من الذين يملكون معزفًا جيِّدًا».

استمعت الفتيات إليها بجديّة رغم طرافتها.

فكّرت ميج بكلام أمّها وقالت:

t.me/yasmeenbook

«سننفّذ يا أمّي. لن نجد في الدنيا بأكملها من تخاف علينا وتهمّها مصلحتنا أكثر منك. لكن يؤرّقني أن نواجه الصّعوبات أو الكسل».

قالت جو:

«كلّا. فنحن لم نكن نعلم هذا من قبل، أما الآن فقد ألزمتنا أمّي الحجّة وصرنا على قدرٍ من المسؤوليّة. أظنّ أنّنا ما عدنا صغيرات وصرنا قادرات على المواجهة. أمّي أين الكتاب المقدّس ليرشدنا نحو السبيل الصحيح ويحمينا من الآثام والشّرور؟».

قالت السّيدة مارش:

«سيكون جاهزًا ليلة عيد الميلاد تحت وسائدكن».

ظلّت الفتيات تلك الليلة تتحدثن عن تلك اللعبة المعدّلة، وعن اقتراحات أمّهن، بينما كانت الطّاهية «هانا» تنظف المائدة.

وعندما انتهت أحضرن عدّة الخياطة والتّطريز ليصنعن مفرشًا كبيرًا لعمّتهن السيدة مارش يهدينها إيّاه في العيد. لم تشتكِ أيًا منهنّ، ورحن يقسّمن القماش أربعة أقسام، وأسمين كلّ قسمٍ باسم قارّة؛ أوروبا، أمريكا، آسيا وإفريقيا. ثم راحت كلّ واحدةٍ منهنّ تطرّز قسمًا محدّدًا، وتخبر أخواتها عمّا تعرفه عن تلك البلاد».

عند التاسعة، ومثل كلّ الليالي السّابقة، بدأن طقسهنّ المعتاد ألا وهو أنشودة الختام. بدأت بيث بالعزف، وكانت تملك مقدرةً رهيبة في ترويض أصابع البيانو الصّلبة تحت لمساتها العبقرية الليّنة.

غنّت ميج بصوتٍ ساحرٍ كما النّاي، وغرّدت آيمي برخامة، أمّا جو فأفسدت اللحن والأغنية بارتفاع صوتها وانخفاضه دون أيّ ضرورة لذلك.

وغنّت الفتيات:

«المع.. المع.. أيُّها النَّجم الصَّغير... المع..».

ترعرعت الفتيات على أثير الألحان، وصوت أمهنّ الجميل وغنائها المتكررّ ليلًا وصباحًا بين الغرف والجدران... فكيف سيصبحن كبيرات على الغناء، وهنّ تربَّين على ذلك الصوت الملائكي العذب؟!.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثّاني

عيد الميلاد

بزغ فجر عيد الميلاد، وكانت جو أوّل المستيقظات... هرعت تبحث عن الجورب المعلّق فوق تختها لعلّها تجد فيه هديّتها المعتادة مثل كلّ عيد، فلم تجد إلا خيبة أملها، ثمّ تذكّرت وعدها في الليلة السّابقة. إنّها سيّدةٌ صغيرة الآن. ثمّ خطر لها أن تبحث في مكانٍ آخر، فدسّت يدها تحت المخدَّة ووجدت كتابًا ملوَّن الغلاف، أخذته من تحت فراشها الدافئ. إنّه الكتاب المقدَّس. ستكون تلك النّفحات الإيمانيّة المباركة خير معينٍ لها، وأفضل مؤنسٍ يُفرح قلبها ويُنعش روحها.

أيقظت جو أختها الكبرى ميج، وقالت:

«ميج! هيّا ابحثي عن هديّتك». وأوحت إليها بالبحث أيضًا تحت الوسادة وبالفعل كان هناك كتاب مقدس آخر أخضر اللون، سحبته وفتحته فوجدت إمضاء الأمّ في

t.me/yasmeenbook

الصفحة الأولى، فازداد الكتاب قيمةً وأهميّةً فوق أهميته القدسيَّة... كتابٌ آخرٌ تحت وسادة بيث رماديّ اللون... وآخر أزرق لآيمي تحت وسادتها أيضاً.

بدأت خيوط الشّمس تنسدل رويداً رويداً قرب نافذتهن مبشِّرة بصباحٍ مشرقٍ، بينما لا تزال الفتيات يقرأن ويتصفحن هداياهنّ بشغف.

كانت مارجريت أشدّهن التزامًا دينيًّا وأكثرهنَّ حكمةً، وإن كانت في بعض الأوقات قد يغلب عليها الغرور والكبرياء؛ فهي شابّة صغيرة مقبلة على الحياة... غالباً ما يكون الدّين مُعديًا، خاصّةً إن كانت المتديّنة هي الأخت الكبرى فيتَّخذنَها قدوة. وفعلاً هذا ما حدث، فقد تأثّرت الفتيات بها كثيرًا وخاصّةً جو الأقرب إيلها عمراً وروحاً.

قالت ميج:

«ما بالنا يا فتيات! نسينا الكثير مما علّمنا إيّاه والدنا وقد أهملناه فعلاً. إن ما بين أيدينا..».

وأشارت للكتب الدّينيّة: «...كنوزٌ لا تُقدّر بثمنٍ، إنّها الهداية والسّكينة والطّريق الأمثل للتّخلص من مشاقّ الحياة وهمومها، أمّي على حقٍّ، إذ تريدنا أن نقرأها دائمًا ولا نهملها أبدًا».

حضنتها جو وشدّتها إليها بحنان بالغ، ثم راحت

الاثنتان تقرآن بلهفةٍ كأنّ الوحي السماويّ هبط عليهنّ. ثمّ انضمّت إليهنّ الأختان الصّغيرتان.

طلبت بيث من آيمي أن تبدأ القراءة مثلهنّ، ووعدتها بتفسير وشرح مفرداته الصعبة، فأخذتا تقرآن وخشعت آيمي فعلًا، لكنّ ذلك لم يثنها عن التَّفكير في أمرٍ سطحيٍّ كجمال لون كتابها الأزرق.

وبقيت الصغيرات خاشعاتٍ يقرأن كتبهنّ، لا يكسر الصّمت حولهن إلّا صوت تقلّب صفحات الكتب وحفيف أوراق الشّجر في الخارج، حتى أشرقت الشّمس تمامًا، وشعشعت في أرجاء الغرفة.

نزلت الفتيات إلى الطابق السفليّ ليهنئنّ أمّهن بعيد الميلاد، لكنّها لم تكن موجودة، سألت ميج:

«أين أمي؟»

فأجابت هانا الطاهية ومدبّرة المنزل الّتي كانت بمثابة صديقة لهنّ أكثر من كونها المدبرة:

«حضر فتىً وناداها، فذهبت لترى إن كانت تستطيع تقديم أيّة مساعدة. يا لحنانها وعطفها!!»

أعدّت الفتيات كلّ شيء ليفاجئن والدتهنّ، لبست جو الخفّ الجديد ومشت به ورقصت كي تليّنه ويصبح جاهزًا للأمّ الحنونة، وفي هذه الاثناء تفحّصت ميج سلّة الهدايا.

t.me/yasmeenbook

أمّا بيث فقد تباهت أمام شقيقاتها بالمناديل التي طرّزت عليها بمشقّةٍ وحبٍ كبير كلمة «ماما».

خطفت جو المنديل بسرعةً من بيث وقالت لها:

«عملٌ مباركٌ، ولكن كان يجدر بك أن تكتبي فقط أوّل حرف من اسمها».

بدى الانزعاج على بيث حيث قالت:

«ربّما أخطأت. لم أكن أعرف هذا من قبل، ولكنّني مع ذلك أخشى أن يختلط بمناديل ميج لتشابه الأحرف. لا أريد أن يستخدم أيّ أحد مناديل أمّي».

قالت ميج وقد رقّ قلبها لحزن أختها:

«لا عليك، وهل هناك أجمل من هذه الكلمة في الوجود».

ثم توجهت إلى آيمي:

«أين العطر الذي أحضرته».

أجابتها جو:

«لقد ذهبت للبحث عن شريط زينةٍ لتلفّه حول زجاجة العطر».

طُرق الباب، وسمعت الفتيات صوت خطواتٍ في الرواق.

قالت جو:

«أسرعن لقد حضرت أمّنا، خبّئن السّلة».

لكنّها لم تكن الأمّ بل آيمي وبدا وكأنّ هناك خطبٌ ما.

سألتها ميج:

«ماذا تخفين خلف ظهرك».

قالت إيمي:

«لا تسخرن منّي. فقد استبدلت زجاجة العطر الصّغيرة بواحدةٍ أكبر، لقد دفعت كلّ نقودي».

ثمّ سكتت برهةً وأردفت:

«لقد شعرت بخجلٍ شديد من شدة بخلي في إحضار هديّةٍ رخيصةٍ، وخاصّةً بعد أن قرأت عن ثواب من يبذلون ويضحّون في سبيل الغير في الكتاب المُقدَّس صباحًا، فما بالكنّ لو كانت تلك التّضحية في سبيل الأمّ الرّحيمة. لذا استبدلت هديّتي بأفضل منها».

وأخرجت الزّجاجة من الحقيبة لتريها لأخواتها، فعانقنها بحنانٍ، وهنّأنها على حسن تصرّفها وكرمها ولطفها.

طُرق الباب مرّةً أخرى، فوضعت ميج السلة في مخبئها، وهنا دخلت الأم، فصاحت الفتيات: عيد ميلاد سعيد يا أمي، ثم قالت جو: «شكراً على هداياك الرائعة، ونعدك بأننا لن نهجر قراءتها ما دمنا على قيد الحياة». ثم توجهن إلى المائدة بكل حماسة لتناول فطور عيد الميلاد.

t.me/yasmeenbook

قالت الأمّ:

«عيدٌ سعيدٌ يا فتياتي الصغيرات، وحمدًا للّٰه أنّها أعجبتكنّ، كم أنا فخورةٌ بكن».

لقد اطّلعت اليوم على شيء، وأودّ مشاركتكن إيّاه. تعرّفت على امرأةٍ فقيرةٍ تدعى السّيدة هامل، ولديها طفلٌ رضيعٌ وستّ أطفالٍ آخرين يشكون جميعهم الجوع والبرد. تخيّلن أنّهم لا يملكون إلّا فرشةً واحدةً، وعليها أن تتّسع لثمانية، ليس لديهم لا نار ولا طعام. أرى أن أعطيهم طعامنا هذا كهديّةٍ لهم بمناسبة العيد المجيد؟»

خيّم عليهنّ الذّهول للحظات، فقد كنّ جائعاتٍ ومتحمّساتٍ للطّعام، خاصّةً وقد انتظرن أمّهن لساعةٍ تقريبًا. كسرت جو الصّمت قائلةً:

«حمدًا للّٰه لم نأكله بعد».

وعرضت بيث على الفور مساعدتها في نقل الطّعام لهم بكلّ سرورٍ.

وسارعت آيمي بتهيئة الأطباق التي تحمل أطيب الأطعمة، مثل الكعك والقشدة، ثم بدأن العمل، فجمعت ميج الخبز والصحون كلّها بعد أن غطّتها.

كادت أمّهن السّيدة «مارمي» تدمع وقالت:

«يا لفرحتي بكنّ يا قديساتي الصّغيرات. كنت أعلم

أنّكنّ لن تتباطأن في مساعدة الفقراء المعدمين. سنعدّ الخبز والحليب عندما نعود، ونعوّض فطورنا هذا بعشاءٍ لذيذٍ».

انطلق موكب الرحمة عندما أصبح كلّ شيء جاهزاً، وخرجت الفتيات يحملن الأطعمة، لتلبية هؤلاء الفقراء المنكوبين. وعندما وصلن إلى هناك، شعرن بالصّدمة من الغرفة البائسة والجرداء، والأم المريضة تحمل طفلها الباكي، بينما يجلس حولها بقية أطفالها الجياع يتلحفون بغطاءٍ بالٍ. ماذا يفعل لحافٌ واحدٌ مع هذا البرد القارس؟!.

قالت السّيدة هامل عندما دخلت الفتيات:

«حضرت ملائكة السّماء لإنقاذنا، كنت أعلم أنّ اللّه لن ينسى عباده».

ضحكت جو بخفّةٍ وقالت:

«ملائكة ترتدي الأقمشة ها ها».

ثم بدأن بالعمل، وفي غضون دقائق قلبن الغرفة رأسًا على عقب. أشعلت الطّاهية هانا المدفأة بالحطب الذي كانت تحمله، وقدّمت السيّدة مارمي الشّاي وشطيرة الشوفان للسيّدة هامل، وغطّت الرضيع برفق. أطعمت الشقيقات الأربع الأطفال بجوار المدفأة. ومع مداعباتهنّ وإصغائهنّ للغتهنّ الألمانيّة الملفتة والإنجليزية الركيكة

t.me/yasmeenbook

فكّرن: «إنّه لأمر جدّ عظيم أن تشعر أنك ملاكٌ أو قدّيسٌ. هذه هي المرّة الأولى الّتي يصفهنّ أحدٌ بتلك الصفة العظيمة». كنّ من قبل يقفزن كالقرود والعفاريت في حالة من الشيطنة المرحة. لم يشعرن بتلك الراحة من قبل... إنّه شعور التّضحية والإيثار. ويا له من شعورٍ جليلٍ أن تُنكر نفسك لترحم وتقدّم لغيرك. لا بأس من استبدال الطّعام اللذيذ في كثيرٍ من الأحيان بالطّعام الرّوحي المقدّس. إنها تعاليم الدّين، ويا لها من تعاليمٍ رائعة.

قالت الفتيات:

«يكفينا الخبز والحليب والحمد للّه على النعمة».

لم تتوقّف السيدة مارمي عن التّفكير في طرق للمساعدة، فصعدت تلملم ما تتحصّل عليه من ملابسٍ قديمةٍ، وذهبت لتعطيها للسيّدة هامل. عند عودتها كانت الفتيات قد تجمعن وأحضرن الهدايا

ووضعنها على الطّاولة بجانب المزهريّة الملأى بأزهار الأقحوان البيضاء والورود الحمراء.

قالت جو فرحة:

«افتحي أنت الباب يا آيمي واستعدّي للعزف يا بيث. حيّوا أمنّا».

تأبطت ميج يد أمّها، وقادتها كأنّها تزفّها إلى كرسيّ

العرس ليحتفلن بها. تأثّرت الأمّ بكرم بناتها، لبست الخفّ مسرورة، ورشّت من قارورة العطر، ووضعت المنديل الجديد الرقيق في جيبها، وجرّبت القفازات وأغدقت بوصف جماله وكم يلائمها. طافت الغرفة بالأحضان الدّافئة والقبلات السخيّة.

قالت الأمّ:

«ما أحنّ قلوبكنّ يا صغيراتي الحبيبات».

قالت الفتيات:

«لنتوقف عن اللهو ونبدأ بالعمل».

سيبدأ الآن عشق جو المُقدَّس ألا وهو: التّمثيل، وحتّى أخواتها كنّ يهوين التّمثيل حدّ الشّغف. قلبن كلّ شيء رأسًا على عقب في سبيل العرض، وعمّت الفوضى أرجاء المنزل وكأنّ القيامة قامت فوق رؤوس الجميع.

كنّ فقيرات على أن يعددن عروضًا فخمة، لذا وضعن ألواح رقّ العجين كقيثارات المسرحيّة، وعلب الزبدة الفارغة كمصابيح، وحوّلن الملاءات لملابس أنيقة مطرّزة، واستغللن أيضا قطع الصّفيح فجعلنها دروعاً للفرسان.

لن تتخلص جو أبدًا من الصبيانيّة، حتّى في التّمثيل تؤدي تلك المهمّة على أكمل وجه، فتأخذ دائمًا أدوار الذّكور، ترتدي عباءات طويلة وزوجًا من الأحذية الرجاليّة

t.me/yasmeenbook

كان أحدهم قد أهداها إيّاها، وتتقلّد السّيف القصير المتدلّي.

من لديه عادةً يصعب عليه التخلّص منها، خاصّة وأنّ الذكور قد منعوا من المشاركة معهنّ.

كانت الفتيات تمتلكن حسًّاً عالياً من الاقتصاد والتّدبير، فوصل بهنّ الأمر أن يقتصدن في الممثلين أيضًا، أخذت الكبيرتان أكثر من دور، فأصبحتا كالمكّوك تبدّلان الملابس بين المشاهد بسرعة، فضلًا عن تبديل المناظر وحفظ الأدوار وإنعاش ذاكرتيهما.

لا ريب أن الضغط يولّد المعجزات! وبذلك؛ تتحسّن الذّاكرة في ليلة عيد الميلاد من جهة، ويفرّغن طاقاتهنّ ويمتلئ الوقت بالمتعة المفيدة الهادفة من جهةٍ أخرى، وهل هناك أروع من التمثيل وأنبل هدفاً منه.

جاءت ليلة عيد الميلاد، وتهيّأت الممثّلات خلف السّتائر الصّفراء والزّرقاء، يهمسن ويضحكن ويسترقن النّظر في شغفٍ وحماس، وكانت آيمي الأشدّ إثارة بينهن، تُسمع صوت ضحكاتها بين الفينة والأخرى. جاءت اثنتا عشرة فتاةٍ من الجيران لحضور العرض، وقد انجبرن أن يتكدّسن فوق بعضهنّ بعضاً على السّرير حيث لم يكن هناك ساحةٌ للعرض، وجلسن يترقّبن. فجأةً، رنّ الجرس وفُتحت السّتائر وبدأ المسرحيّة.

بدأ المشهد الأوّل، الذي تعبت الفتيات كثيرًا في تحضيره وإخراجه، فكن قد مددن على الأرض سجّادةً صوفيّة خضراء، وبعض الأواني الفخّارية الممتلئة بالأعشاب، والشجيرات الصّغيرة في الخلف. كان الكّهف عبارة عن طاولتين عليهما خيش مهترئ، وداخله ساحرةٌ شمطاءُ تقف فوق الموقد وقد أشعلت قدرًا يتصاعد البخار منه وسط الظلام الدّامس، كانت تلك النّيران حقيقيّة متوهّجة، أكسبت المكان بعض الواقعيّة.

كان (هوجو) إحدى الشّخصيات في العرض، رجلٌ شرّيرٌ يحبّ امرأةً تدعى زارا. دخل هوجو وبيده سيف لامع وقبّعة متراخية متأرجحة، بلحيته الطويلة السوداء وجزمته الجلدية. عصف بهوجو الغضب وتفتّل في المسرح مرّات ومرّات، وراح يخطّط كيف يعدّ كلّ شيء ليقتل غريمه رودريجو بعد أن علم بحبّه لحبيبته زارا. وزمجر بصوتٍ قويٍّ مؤثّر تغلبه العاطفة، فتأثّر الجمهور وصفّق كلّ من في المنزل بحرارة.

ردّ هوجو التّحية بتفاخرٍ شديد، ثمّ توغّل في الكهف ونادى السّاحرة الشّمطاء وقال:

«تعالي يا صغيرة. فأنا محتاجٌ إليك».

خرجت إليه ميج بشعرٍ رماديٍّ أبيضٍ مُشعّث غطّت به وجهها الجميل، وفستان أسود فوقه عباءة فضفاضة عليها

t.me/yasmeenbook

رسوم غريبة. طلب منها خلطتين سحريتين: إحداهما لتدمير رودريجو والتخلّص من منافسته على قلب زارا، والأخرى كي يفوز بقلبها وحبّها. وعدته أن تلبّي طلبه، وشرعت تغنّي بلحنٍ مثيرٍ مستدعيةً الرّوح الخبيثة الّتي ستساعدها في ذلك.

«تعال إليّ.. تعال..

نفّذ أوامري فقط وتعال من أعشاشك البعيدة..

تعال بالورد والنّدى العذب..

تعال أسرع من الجنّ والعفاريت والبرق..

تعال أريد كأس الحبّ الجميل..

واجعله حلوًا سريعًا قاهرًا..

ها أنا ذا أغني طربًا... فهل من يلبّي النّداء؟!»

وفجأةً ظهر شبحٌ صغيرٌ بأجنحةٍ ذهبيّة، وشعرٍ أصفر لامع يعلوه إكليل من الورد، يلفّ جسده بوشاحٍ أبيضٍ، بينما عُزفت موسيقى هادئة... وغنّى الشّبح ملوّحًا بعصاً كانت بيده وقال:

«هأنذا جئت...

من بيتي فوق الرّيح البعيدة

خلف سماء القمر المضيئة،

أتيتك بما تحبّ وتهوى

شراب المحبّة والهَوى،
اسقِه المحبوبة بعجلة
وإيّاك أن يذهب سحره».

اختفى ذلك الشّبح خلف الكواليس بعد أن ألقى زجاجةً صغيرةً مذهّبةً عند قدمي السّاحرة.

ثمّ انتقلت السّاحرة هاجار لإعداد الخلطة الثانية، وهي السّم لرودريجو، وراحت تغنّي لتستحضر الروح الشّريرة، فظهر عفريت أسود قبيح يغنّي معها بصوتٍ خشنٍ رديء، وألقى زجاجة سوداء على هوجو واختفى بضحكة ساخرة. أخذ هوجو الخلطتين في الزّجاجتين وأخفاهما في جزمته، وشكر السّاحرة هاجار واختفى خلف الكواليس.

توجّهت هاجار للجمهور، وراحت تحكي لهم قصّتها المحزنة، فقد قتل الشّرير هوجو أصدقاءً لها. ومنذ ذلك اليوم صمّمت على أن تنتقم منه، وراحت تعدّ العدّة له، ويبدو أن الوقت حان للبدء بالخطّة.

بدأت الاستراحة وأُنزلت السّتائر وهدأ الجمهور، وأكلت المدعوات الحلوى أثناء مناقشة مزايا المسرحية.

بدأت الممثلات يطرقن بالمطرقاتٍ من خلف السّتارة أثناء فترة الاستراحة، ممّا حمّس الجمهور أكثر. وبدأ فصلٌ جديدٌ يبدو أنّه سينافس سابقه في العظمة، فقد

t.me/yasmeenbook

وضعن برجًا مرتفعًا في الوسط. وفي وسطه فتحةً كبيرةً بها فانوس مضيء. وقفت زارا خلف النّافذة ترتدي فستانًا فضّيًّا، وتحدّق في الطّريق، وتنتظر مجيء حبيبها رودريجو بخوفٍ وقلقٍ.

جاء رودريجو بزيٍّ رائع يضع تاجًا من الرّيش، ويلبس ثوبًا أحمر... كان أجمل ما فيه شعره الكستنائي المُنسدل على كتفيه، يحمل قيثارته بيده، ويرتدي جزمةً حمراء لامعة. ما أن وصل حتّى خرّ راكعًا أمام حبيبته يحيّيها، وتبادلا الحديث على شكل نغمات وأغنيات انتهت بإقناعها أن تهرب معه.

وألقى رودريجو لها سلّمًا صغيرًا له خمس درجاتٍ كان يخفيه خلف ثوبه، وثبّت طرفه عند نافذتها، فتمسّكت به ووضعت قدمها على الدرجة الأولى ويدها على كتف رودريحو لتقفز بسرعةٍ على الأرض، ولكنّ حدث أمر تحولّ كارثة بعد أن علق طرف فستان زارا بالنّافذة، ووقع البرج العالي وتهشّم فوق رؤوس العشّاق.

صرخت جميع الممثلات وصرخ الجمهور معهن، وقد أفزعهنّ منظر قدمي رودريجو وهما تهتزّان تحت المبنى بألمٍ، انفعلت آيمي وصاحت بأختها جو تلومها لأنّها لم تستمع لها وتقول:

«ألم أحذّرك من هذا المبنى اللعين؟ ألم أحذّرك؟!»

دخل «دون بيدرو» والد زارا، وكان حاكمًا قاسيًا، على المسرح، وسحب ابنته وحاول أن يعيد الهدوء للعرض ويخفّف التّوتر، وهمس بأذني الممثّلة قائلًا:

«لا تضحكي فينقلب العرض لكوميديا ساخرة. استمرّي في التّمثيل وكأنّ شيئًا لم يحدث».

ثمّ وجّه الكلام لرودريجو وأمره أن ينهض ويلملم جراحه ويبتعد عن درب زارا ويرحل من المدينة بأكملها، لكنّ الشجاع رودريجو قام وواجهه بالرّغم ممّا حلّ به من ألمٍ بعد وقوع المبنى عليه، ورفض التّخلي عنها وهي رفضت بدورها أوامر أبيها؛ فسُجن الاثنان وأُلقيا في قبو القلعة.

كانت بيث تؤدي دور أحد جنود دون بيدرو، لبست زيّ المجنّدين وحملت الأغلال وكبّلت بها العشيقين. وقد أتمّت دورها على أكمل وجه بالرّغم ممّا انتابها من هلعٍ عند هبوط المبنى فنسيت الحوار بالكامل.

دارت أحداث الفصل الثّالث في فناء القلعة، ومازالت السّاحرة هاجار عازمة على ما نَوَت. حضر خادم هوجو واسمه فيرديناندو حاملًا الزّجاجتين وقد أفرغ محتوياتهما بكأسين فارغين، وقدّمهما للأسيرين في الزّنزانة. ولكن حكمة السّاحرة كانت أقوى لأنّها استبدلتهما مسبقًا بشرابٍ عاديٍّ لا يضرّ ولا ينفع. وصبّت الخلطتين الأساسيّتين ذوات التّأثير الفعليّ في كأسٍ وقرّبته من هوجو.

t.me/yasmeenbook

كان الشّرير فرحًا يغنّي طربًا وينشد انتصاره المأمول، وما إن عطش حتّى شرب من تلك الكأس وتوغّل السّمّ في أحشائه ولقي حتفه على يد هاجار التي ذكّرته بأصدقائها القدامى، وأخبرته بما فعلت وقد لفظ أنفاسه الأخيرة.

تخلّلت المشاهد بعض الهفوات الصّغيرة، لكنّ لكن المسرحية كانت رائعة بحقّ، حيث صفّق الجمهور بعنفٍ وحيّا البطلين هوجو وهاجار.

بدأ الفصل الرّابع، كان مأساويًّا وحزينًا بعض الشّيء لما عانى منه رودريجو من ألم العشق، فقد أحسّ أنّ حبيبته لم تعد تريده، وأوهمه من حوله أنّها ستهجره. فأخذه اليأس وقرّر أن ينتحر، فلم تعد تغريه الحياة بطيب العيش بعد الآن. فتقلّد الخنجر ليغرزه بصدره، ولكنّه سمع فجأةً صوت أحدهم يتمتم بكلامٍ فحواه أنّ زارا في خطر، وعليه أن ينقذها، ثم يلقي له مفاتيح السّجن. يكسر رودريجو أغلاله، ثم يأخذ المفاتيح وينتفض لينقذ زارا من الخطر المحدق بها.

في المشهد الخامس والأخير يفرّق الفقر بين العاشقين المتيّمين، إذ أنه بعد الأوقات العصيبة الّتي مرّ بها رودريجو، قرّر أن يطلب يد زارا من أبيها الذي يفضّل أن تصبح ابنته راهبةً تخدم الرّب في الدّير على أن تتزوّج من فقيرٍ مثله.

لم تحتمل زارا قسوة أبيها، فوقعت وقد أغمي عليها.

لكن يبقى للقدر كلمته، فتتدخّل هاجار السّاحرة وتبعث لهما مع الخادم فيرديناندو كيسًا مليئًا بالذّهب، ورسالة تهدّد بها «دون بيدرو» أن يترك العاشقين وشأنهما، وأن يوافق على ذلك الزّواج وإلّا ستحلّ عليه اللعنة. وما إن يرى الأب تلك الثروة الهائلة أمامه، حتّى يرقّ قلبه وتلين نفسه، ويوافق دون أدنى تردّد ويبارك ذلك الزّواج. ينتهي العرض باجتماع الطّاقم بالكامل لتأدية أغنية مرحة ومعبّرة؛ وتُسدل السّتائر.

أُعجب الجمهور بذلك العرض، وتفاعل بشدّةٍ لتلك التّحفة الفنّيّة الّتي قدّمتها الفتيات، وتعالى الصّخب والتّصفيق والصفير في كلّ أرجاء المنزل، فهبط السّرير بالفتيات لينفجرن بالضحك أكثر فأكثر حتّى كادت تتقطّع أنفاسهنّ، فركض رودريجو ودون بيدرو لإنقاذهنّ.

حان وقت العشاء، فدخلت هانا بعد أن تمالكن أنفسهنّ. ألقت التّحيّة عليهنّ ودعتهنّ للمائدة. وكانت المفاجأة! لقد كانت المائدة عامرة بأصناف الحلوى والمعجّنات والفواكه، بالإضافة لصحنين كبيرين من مثلّجات الفراولة والحليب. تزيّنها أربع باقات من الورود والأزهار الغريبة.

وراحت كلّ فتاةٍ تخمّن هويّة صاحب كلّ ذلك الكرم على هواها. فاعتقدت جو أنّه من عمّتها مارش بعد أن أصابتها حمّى الكرم غير المألوفة، وظنّت ميج أنّ والدها

t.me/yasmeenbook

وراء كلّ ذلك وقد سُرّت لتلك الفكرة كثيرًا، بينما ظنّت بيث أنها من بابا نويل، أمّا الصّغيرة آيمي فلم تتوقّع شيئًا واكتفت بالدّهشة والعجب.

قالت السّيّدة مارش:

«لم تُصب أيًّا منكنّ. فالسيّد لورانس العجوز هو صاحب تلك المكرمة».

قالت ميج:

«لسنا على صلةٍ وثيقة به. ترى لماذا وهبنا ما وهبنا؟»

قالت السيّدة مارش:

«ربّما تكون هانا قد أخبرت أحدًا من خادميه عمّا فعلتنه من تقديم الطّعام لبيت السّيدة هامل. فقد أرسل لي اليوم بعد الظّهر طلباً أن أسمح له بالتّعبير عن عواطفه نحوكنّ فيسعدكنّ ببعض الأشياء البسيطة لما رآه في نفوسكنّ من كرم ونخوة وشهامة. لم أرفض بالطّبع فأولًا هو صديقٌ قديمٌ لوالدي، وثانيًا أردت أن أراكنّ سعيدات.

أرأيتنّ كيف تبرعتنّ صباحًا بالقليل فعوّض اللّٰه معروفكنّ بالكثير الوافر المضاعف؟. وهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان يا عزيزاتي؟!»

تناول كلّ من كان في المنزل الطّعام والحلوى اللّذيذة وقالت جو:

«أعتقد أنّ حفيده هو من أوحى له بالمبادرة. إنّه فتىً خجول ومهذّب، إنني أتوق لأن يصبح صديقنا، وأعتقد أنّه يبادلنا المشاعر نفسها. لو كان الأمر بيدي لكلّمته منذ زمنٍ، ولكنّ ميج توبّخني وتمنعني من ذلك لأنّه مستهجنٌ عندنا».

قالت إحدى الفتيات:

«أتقصدين منزل السيّد لورانس؟، نحن نعرفهم، وتقول والدتي إنّهم متكبّرون، وإن الجدّ يمنع حفيده من كلّ شيءٍ، ويحرمه من الحياة الطّبيعيّة. فلا يخرج إلا برفقة المربي السّيد بروك. إنّه يعزله تمامًا، ويزيد في وحدته لدرجة أنّنا ندعوهم ولا يلبّي أيّ منهم الدّعوة».

قالت جو بعزيمة:

«ولكنّه فتىً مهذّب، وسبق لنا أن تبادلنا أطراف الحديث عندما أعاد لنا القطّة الهاربة، حتّى إننا تحدّثنا عن الألعاب الرياضيّة، ولكنّه خجل وهرب حين أربكه ظهور ميج المفاجئ. ليتني أتعرّف إليه ويصبح صديقنا جميعًا ونسلّيه ونخفّف عنه آلام الوحدة».

قالت الأمّ:

«وأنا موافقة. إنّه كريم النّفس، حسن السّلوك. أترين هذه الزّهور؟، هو من أحضرها. وظننته يتمنّى أن يقضي السّهرة معنا. لكنّني لم أكن أعلم ماذا تفعلن في الأعلى».

t.me/yasmeenbook

قالت جو:

«الحمد للّه أنّك لم تدعيه. فلم تكن المسرحيّة كما أحبّ وأهوى. ربّما ندعوه في المرّة التالية عندما نمثّل مسرحيّة أخرى».

قالت ميج:

«إنها المرة الأولى التي نحصل في حياتنا على مثل هذه الورود».

فقالت السيدة مارمي:

«إنّها رائعة بحق، ولكنّ وردة بيث الذّابلة الّتي أهدتني إيّاها في الصّباح أجمل وأغلى».

اقتربت بيث من أمّها وهمست برقّة لها:

«بودّي لو أبعث هذه الباقة الجميلة إلى والدنا. أخشى ألّا تتاح له فرصة الاحتفال بالعيد».

الفصل الثّالث

الفتى لورانس والعزلة

صعدت جو إلى العليّة، وجلست على الأريكة العتيقة ذات الأرجل الثلاث بجانب النّافذة المشمسة. وكان من عاداتها حرصها الدّائم على إخفاء انفعالاتها عن الجميع، فهي لا تطيق أن يرى أحد دموعها. كانت تلك نقطة ضعفها. أخذت تأكل تفّاحةً بنهم، وتذرف دموعاً سخيّة متأثرةً بقصّةٍ حزينةٍ كانت تقرؤها. لقد اعتادت على القراءة والتأمّل، والتهام التّفاح بجوار فأرها اللطيف «سكرابل» الذي يتودّد إليها ويلاعبها دون أيّ خوف. إلى أن سمعت صوت أختها ميج يناديها.

فتوارى الفأر في حجره، وكأنّه عرف أنّ أحدًا غريبًا قد أتى.

قالت جو:

«أنا هنا في الأعلى».

صعدت إليها ميج بلهفةٍ ومرح تلوّح بورقةٍ كانت بيدها،

t.me/yasmeenbook

كانت سعيدةً للغاية لأنّهما دُعيتا إلى حفل رأس السّنة الرّاقص بمنزل السيدة جاردنير.

قالت ميج:

«وأهمُّ ما في ذلك أنّ والدتي راضيةٌ عن ذهابنا. هيّا أخبريني ماذا سترتدين؟»

أجابت جو وفمها ممتلئٌ بالتّفاح:

«سنرتدي فساتيننا القطنيّة القديمة، فنحن لا نمتلك غيرها».

قالت ميج:

«ليتني أكبُر سنتين في هذه اللحظة، فأرتدي تلك الفساتين الحريريّة، لا أدري لمَ تمانع أمّي إن ارتديها قبل بلوغي سنّ الثّامنة عشرة؟».

قالت جو:

«أختي العزيزة، لا بأس بفساتيننا القطنيّة، خاصّةً أنّ فستانك يبدو جيّدًا، أمّا أنا ففستاني في حالةٍ يرثى لها، جزءٌ ممزقٌ وآخر محروق!. كيف أخفي تلك العيوب؟، ماذا عساي أفعل؟»

نصحتها أختها ميج:

«اجلسي في مكانك قدر المستطاع ولا تتحرّكي كثيرًا، حتّى لا ينتبه أحد لتلك العيوب».

أكملت ميج وهي تفكّر كيف ستنسّق هندامها:

«سأستعير المشبك اللؤلؤيّ من أمّي. وألفّ شريطةً مزركشة على شعري، وأرتدي حذائي الجميل وقفّازاتي الجديدة».

قالت جو:

«لديّ مشكلة أخرى بقفازاتي فقد سكبت عليها العصير، وتصبّغت بلونه وتلفت تمامًا».

فكّرت جو كم سيكلّفها شراء قفّاز آخر وقالت:

«لن أشتري أيّ قفّازات، فأنا لا أملك ثمنها الآن».

انفعلت ميج وصرخت قائلةً:

«يبدو أنّك لا تفقهين شيئًا في اللّياقة الاجتماعيّة. لن تكتمل أناقة هندامك إلّا بالقفّازات، وإن لم تفعلي فلن أذهب معك، يا إلهي لا أريد أن أموت من الإحراج».

قالت جو ببرودٍ تام:

«حسنًا سأرتديه. ولكنني لن أرقص حتى لا يقتلني الحرج من حالة قفّازاتي المزرية. فالرقص لا يستهويني بكلّ الأحوال. سأبقى في مكاني طوال السّهرة. ولن أبالي بكلّ تلك السّخافات والمجاملات».

قالت ميج:

«هذا جزاء الإهمال، كم نصحتك أن تهتمّي بثيابك

t.me/yasmeenbook

وأشيائك، من المستحيل أن تحصلي الآن على قفّاز آخر فثمنه باهظ، حتّى والدتي لن تقدر على شرائه».

توصلت الأختان إلى حلٍّ وافقت عليه ميج على مضض، ألا وهو أن تتقاسما قفازات ميج؛ فترتدي كلّ واحدةٍ منهنّ فردة نظيفة وأخرى متّسخة. وبحيث تُظهران الأولى وتحجبا الأخرى عن الأنظار، وبخاصّةً عند الرّقص، ليس هناك حلٌّ آخر.

وبخطابٍ شديد اللّهجة أوصت ميج أختها جو أن تتصرّف بأنوثةٍ ووعيٍ ورصانة، وأن تبتعد عن كلّ الحركات الصّبيانيّة، وألّا تتفوّه بكلماتٍ عاميّة أو ترتكب حماقاتها المعتادة.

طمأنت جو أختها أنّها ستكون فتاةً مثالية، ولن تحدث المشاكل أبدًا، وطلبت منها أن تكتب خطابًا للسيّد جاردنير تشكره على تلك الدّعوة الكريمة. ثمّ طلبت منها أن تتركها لخلوتها فتكمل قراءة الكتاب إيّاه برفقة فأرها الودود. وكان لها ما طلبت فأنهت الكتاب والتهمت باقي التّفاح ونعمت بخلوةٍ جميلة.

وبدأت ميج بتجهيز وتعديل ملابسها وهي تدندن وتغنّي أجمل الأغاني.

وفي الليلة المنتظرة، أمضت الشقيقتان وقتًا ممتعًا في الإعداد للحفلة، تساعدهنّ الأختان الصغيرتان وتتدرّبان

معهنّ على الرقص. تصعدن وتهبطن وسط ضحكاتهنّ الرنّانة ونصائحهنّ المتناثرة. ثمّ حدث أمرٌ مؤسفٌ بعد أن تطوّعت جو لتصفيف شعر أختها ميج بمكواة الشّعر السّاخنة، فقد أحرقته.

فتساءلت بيث:

«أشمّ رائحة حريق. أهذا أمر طبيعي؟»

فقالت جو:

«نعم. إنّه بسبب رطوبة شعرها».

أردفت بيث:

«كأنّها حفلة شواء إوزّةٍ حيّة، رائحة غريبة!»

قالت جو لميج وقد أوشكت على الانتهاء:

«سترين إبداعي، وتندهشين بشعرك المتموّج على جبينك، وكم ستبدين جميلة».

وما إن سحبت المكواة حتّى تناثر الشّعر متساقطًا على الطّاولة أمامهنّ. صرخت الأخوات مذعورات، وصاحت ميج غاضبةً:

«ماذا فعلت بشعري، لقد أحرقته!!، وأفسدت أجمل ما لديّ!!. كيف سأذهب إلى الحفلة؟!»

ذُهلت جو بسبب ما فعلته، عن دون قصد، بكت كثيرًا وقالت:

t.me/yasmeenbook

«أنا أفسد كلّ شيءٍ جميلٍ. لن أفعل أيّ شيءٍ بعد الآن، أنا فتاة ملعونة!. سامحيني، لم أعلم أنّ المكواة قد تحرق شعركِ إن كانت ساخنة جدًّا. أنا جدّ آسفة، أتمنّى أن تقبلي اعتذاري يا أختي».

تدخّلت آيمي معزّيةً ميج:

«إنّه لا يزال جميلًا حقًّا، بعض التعديل عليه وسيتحسّن الأمر. مثلًا لو تربطينه بعقدٍ كبيرٍ لإخفاء الأطراف المحروقة. كثيرٌ من الفتيات يفعلن هذا».

قالت ميج تلوم نفسها وهي تحضن أختها جو وتواسيها:

«لو أنّني لم أبالغ في التّسريحة لما حدث ما حدث».

قالت بيث:

«حدث ما حدث. لا عليك، ما هي إلّا فترة قصيرة ويعود كل شيء كما كان، وينمو شعركِ ويستعيد رونقه ولمعانه».

أكملت الفتاتان اللّمسات الأخيرة، وتعاونّ جميعهنّ على تصفيف شعر جو الجميل الكثيف، ثم ارتديتا الفساتين، حيث ارتدت ميج قبعةً مخمليةً زرقاء اللون، وفستاناً فضيّاً وضعت على صدره مشبك أمها اللؤلؤي.

أمّا جو فقد ارتدت فستانًا أحمر بربطة عنق أنيقة بيضاء عالية، وعليها زهرتين من الأقحوان الأبيض؛ أنهت الفتاتان

لمساتهنّ الأخيرة وارتديتا القفّازات وفق ما اتفقتا عليه سابقًا. كانتا فاتنتين بحق، على الرغم من أنّ حذاء ميج ذا الكعب العالي كان ضيّقًا للغاية ويعصر قدميها، أمّا دبّوس شعر جو فقد راح يخز فروة رأسها وخزًا مؤلمًا.

لكن، كلّ الصعاب تهون في سبيل طلّتهما الأنيقة الأخّاذة.

ودّعت الفتاتان أمّهما بعد أن تأكّدتا من أناقتهما الكاملة وسألتهما:

«يا فتيات، يا فتيات! هل أخذتما مناديل جيب لطيفة؟»

قالت جو ضاحكةً:

«نعم، أخذنا المناديل».

فالتفتت ميج إلى أختها وقالت لها:

«أمّنا على حقّ، فلا أناقة دون قفّازات ومناديل جميلة».

قالت الأمّ:

«استمتعا بالوقت ولا تأكلا الكثير من الحلويات، ستأتي هانا عند انتهاء الحفل لكي تعيدكما للمنزل».

وصلت الشقيقتان إلى منزل الأسرة المُضيفة، وأمضتا بضعة دقائق تنظران لنفسيهما في المرآة الموجودة في حجرة ملابس منزل السيّدة جاردنير. شعرت ميج بالقلق حيال شعرها المُحترِق، وأحسّت جو بتوتّرٍ شديد مخافة أن

t.me/yasmeenbook

تتصرّف على نحوٍ غير لائق، فاتّفقتا على أمر: إذا تصرّفت جو على نحوٍ غير ملائم، فسترفع ميج حاجبيها وتغمز بعينها، أمّا إذا ما أحسنت السّلوك فستومئ برأسها وتثني على سلوكها.

قالت لها ميج بلهجةٍ جادّة:

«قصرّي من خطواتك وارفعي كتفيك بشكل مستقيم، ولا تُصافحي أحدًا بيدك، فذلك من مساوئ الأفعال».

أجابت جو:

«أحتاج شهورًا على الأقل لأتعلّم كل هذا».

صادفتا السيدة جاردنير بعد أن نزلتا إلى الطابق السفلي، حيَّتهما بلطف وسلّمتهما إلى ابنتها الكبرى سالي التي كانت تعرفهما مسبقًا. ثمّ وجدت ميج مجموعةً من الفتيات في مثل عمرها، فتحدثت معهنّ، ثمّ رقصت وهي تحاول أن تنسى الألم الفظيع الذي سبّبه حذاؤها. أمّا جو فقد وجدت مجموعةً من الشّباب يتحدّثون عن التزلّج، فأحبّت أن تنضمّ إليهم كثيرًا. فجاءها الإنذار من أختها برفع حاجبيها الاثنين معترضةً على ذلك.

تراجعت جو، وحاولت أن تقاوم شعورها بالوحدة والغربة، خاصّةً أنّ البهو قد فرغ من المدعوّين تمامًا، فتمايلت بخفّة ورقصت قليلًا وهي تسند نفسها على

الحائط كي تستر عيوب الفستان. وفجأةً اتّجه نحوها فتىً ضخم أحمر الشعر، فاختبأت في الغرفة الصغيرة المجاورة خشية أن يعرض عليها الرّقص فينفضح أمر الفستان، لكنّها لم تكن وحدها في الغرفة، بل وجدت نفسها أمام الفتى لورانس الذي كان يتوارى أيضًا عن الأنظار لشدّة خجله.

اندفعت جو قائلة:

«ظننت هذا المكان فارغاً، أعتذر منك لأنني أفسدت خلوتك».

وبدأت تتراجع للخروج من الغرفة، لكنّه ضحك وقال لها:

«لا عليك، ابقي إن أردت».

«ألن أضايقك؟»

«على الإطلاق، فأنا لا أعرف الكثير من النّاس خارجًا، وأحسست أنّني غريبٌ في ذلك المكان».

قالت جو:

«وأنا أيضًا».

كان الاثنان مرتبكين نوعًا ما، ثمّ ظنّت أنّها تعرفه أو قد رأته من قبل، فسألته:

«هل تسكن بجوار منزلنا؟».

أجابها:

t.me/yasmeenbook

«نحن أقرب جيران».

فتذّكرته جو، عرفت من يكون وشكرته في الحال على عشاء عيد الميلاد.

قال لورانس:

«على الرّحب والسّعة. إنّها فكرة جدّي على كلّ حال».

وسألها لورانس عن حال قطّتها التي أعادها إليها مرّةً بعد أن ضاعت، فطمأنته أنّها بأفضل حال.

ودعاها باسم: «مارمي»، فصحّحت له قائلةً: «أنا اسمي جو يا سيّد لورانس».

ابتسم وأجابها:

«إذًا فأنا اسمي لوري، وليس السّيد لورانس».

«إنّه اسمٌ غريب».

قال:

«اسمي الحقيقيّ هو ثيودور، لكنّني لا أحبّه لأنّ الأولاد كانوا يزعجونني ويختصرونه فيصبح «دورا» فجعلتهم ينادونني باسم لوري».

وأنا مثلك أحبّ اسم جو أكثر من جوزفين بكثير. أعتقد أنّ اسم جوزفين قد أكل عليه الدهر وشرب.

ثمّ سألها لوري:

«ألا تحبّين الرقص يا جو؟»

أعجبها بما ناداها به وقالت:

«بالطّبع أحبّ، ولكن ليس في الأماكن الضيّقة، فأنا أخاف أن أصطدم بالأشياء، أو أدوس على أقدام الراقصين، وأخاف أيضاً من خشونتي التي ترميني في المتاعب، حسبي أنّ أختي ترقص عنّي وعنها».

وبالمثل سألته جو:

«وأنت لم لا ترقص؟»

قال لها:

«أخاف أيضًا من الخطأ فلا أعرف كيفيرقص الناس هنا، لقد بقيت سنوات في الخارج».

وسرعان ما أصبحا يتحدّثان كصديقين حميمين قديمين، تناثرت أسئلة جو عليه تباعًا فقالت له:

«حدّثني عن كلّ شيء، فأنا شديدة الشغف لسماع أخبار السفر».

ارتبك لوري قليلًا وبدأ يحدّثها عن تلك السنوات، فقال:

«درست في سويسرا في مدرسة تدعى «فيفاي»، لم نكن نرتدي القبّعات هناك، وكنّا نملك أسطولًا من القوارب الشراعيّة ونتنزّه في البحيرة، وننظّم الرّحلات مع أساتذتنا فنزور مختلف المناطق السويسريّة».

t.me/yasmeenbook

«وماذا عن فرنسا؟»

«كنا نقيم فيها الشتاء الماضي».

«وهل تتكلّم الفرنسيّة؟»

«تلك هي لغتنا الوحيدة في تلك البلاد».

«أرجوك قل لي شيئًا بالفرنسية».

فقال باللّغة الفرنسيّة:

(من تكون تلك الحسناء ذات الحذاء الرائع).

«ليتني أتكلم بطلاقة مثلك، لقد فهمت كلّ كلمة قلتها وتلك الحسناء هي أختي مارجريت».

قال لوري:

«تمتلك جمال الألمانيات ونضارتهنّ، وما أجمل رقصتها».

ذهب الارتباك عنهما وزال الخجل تمامًا، كما لو كانا أعزّ الأصدقاء، وبدأ حديثهما يتعمّق أكثر، بينما يراقبان الرّاقصين وهي تراقب تفاصيله كلّها: لقد كان مجعّد الشّعر، أسود العينين، أبيض البشرة متعلّمًا ومثقّفًا، لطيف المعشر لديه أنف حاد وقامة معتدلة.

أعجبت جو بكلّ تلك الصّفات الجميلة، وبدأت تحفظها وتتمتم بها لتروي لأخواتها عنه عند عودتها.

بقي عليها أن تعرف عمره، فهو يمتلك قامة طويلة،

ربّما يكون في السادسة عشرة، إلّا أنّها تردّدت قبل أن تسأله، فأحجمت عن السؤال وبحثت عن طريقةٍ ما لتعرف الجواب حيث قالت له:

«أراك بارعًا في كلّ شيء، هل تبصم دروسك؟!؛ أقصد هل بدأت دراستك الجامعيّة؟»

ثمّ استدركت:

«أظنّك مجتهدًا في دروسك».

فأوضح لها لوري أنّه لايزال في الخامسة عشرة من عمره، ولن يلتحق بالجامعة قبل مضيّ ثلاث سنوات.

قالت جو: «أتمنّى أن أدرس في الجامعة. وماذا عنك؟»

أجابها:

«أنا أفضّل السّفر على الجامعة. للحياة الجّامعيّة أجواء معيّنة لا تناسبني، وأنا لا أحبّ الصّخب والمشاكسات. أتمنّى أن أعيش في إيطاليا الحياة التي أحبّ».

أدركت جو أنّها قد تمادت قليلًا، فتوقفت عند ذلك الحدّ ولم تستطرد أكثر، وغيّرت الحديث.

حيث قالت:

«لم لا ترقص؟ إنّها رقصة البولكا».

فدعاها للرقص بجدّية هذه المرّة، فمانعت بمرحٍ بعد أن تذكّرت وعدها لأختها ميج وقالت له:

t.me/yasmeenbook

«أخبرك السبب إن حفظت لي سرّي؟».

قال لوري:

«بالطبع أحفظه».

قالت:

«ثمّة حرق في ظهر فستاني هذا الذي أرتديه ولم يجدي فيه الإصلاح، وها أنا هنا لهذا السبب، لا أتحرك من مكاني ومقيّدة الحركة».

قال لوري بعد قليل من التفكير، وبكلّ بساطة:

«إذًا نرقص هنا إنّه ممرٌّ طويل يتّسع لكلينا».

رقصا ببراعةٍ ورشاقة على أنغام البلوكا، ثمّ جلسا يستريحان ويتحدّثان عن الأعياد في منطقة هايدلبرج، حتّى أقبلت ميج عليهما واستدعت جو وذهبتا لحجرة جانبية. جلست ميج فوق أريكة وأمسكت بقدمها وبدت منهكة جدًا.

ثم قالت:

«لقد التوى كاحلي وأكاد أموت ألمًا، كيف عساي أن أعود للمنزل؟، وحتّى وإن استأجرت عربة فيجب أن أمشي مسافة».

حزنت جو على ما حلّ بأختها ودلّكت قدمها برفق وقالت لها:

«كنت أتوقّع ذلك».

وهنا اقترحت أن يحضر لهنّ لوري عربة، فلم تقبل أبدًا بتلك الفكرة، وجمعن أغراضهما ولبست ميج خفّها المطاطيّ، ثم جلست تستريح حتى تأتي هانا وتساعدها في العودة.

انشغل جميع المدعوّين بتناول العشاء، وأرسلت ميج أختها أيضًا لكي تأكل، وطلبت منها أن تحضر لها فنجانًا من القهوة. وكعادتها، لم تقم جو بأيّ عملٍ على أكمل وجه، فبعد أن وصلت إلى غرفة المائدة بشقّ الأنفس أخيرًا، أحضرت كوب القهوة، ثمّ أوقعته على الجزء الأمامي من الفستان، فصارت ملابسها في حالةٍ يرثى لها تمامًا. وبدأت تلوم نفسها على غبائها محاولةً تنظيف ما يمكن تنظيفه بفردة القفاز الوحيدة النظيفة لديها.

كانت منهمكة في تلك الحالة المزرية حين التقت بالفتى لوري، أسف لأجلها، وقدّم لها المُثلّجات والقهوة التي كانت بحوزته، ثم توجّها إلى حيث جلست ميج، وأحضر لهما عشاءً لذيذًا ونادى بعض الأصدقاء ليؤنسا الفتاتين ويهوّنا عليهما، إلى أن أقبلت هانا فساعدت الفتاة على النهوض، وقد اشتدّ بها الألم، وقالت لأصدقائها:

«أمضينا وقتًا طيّبًا، إنّه حادثٌ بسيط لا تقلقوا علي».

صعدت الفتاتان وهانا الدّرج بعد أن أكلت ميج نصيبها

t.me/yasmeenbook

من توبيخ هانا. نزلت جو إلى الطّابق السّفلي مسرعةً تبحث عن عربةٍ، وفيما هي تبحث عن المساعدة دون استجابة أحدٍ من الخدم، اقترب منها لوري وعرض أن يوصلهنّ بعربة جدّه التي كانت قد وصلت للتوّ.

ارتاحت جو لهذا الاقتراح، ولكنّها تردّدت في قبوله، فما ذنبه هو كي ينهي سهرته ويُرغَم على الانصراف باكرًا من أجلهنّ؟.

فأكدّ لهنّ أنّه كان بكل الحالات سينصرف في هذا الوقت تقريبًا، فهو عادةً لا يطيل السهر، ولا ينوي أن يبقى أكثر، وقال إنّه لن يتركهنّ يكابدن عناء الطريق وحدهنّ، خاصّةً أنّها تمطر في الخارج.

قبلت جو بامتنان عرض لوري بسبب وضع أختها السيّء، واتجهوا جميعًا إلى العربة الفاخرة. جلس لوري بجانب السّائق، وجلست الفتاتان وهانا في الخلف، وحمدن اللّه جميعهنّ على تلك العودة المريحة المُيسّرة.

قالت جو:

«لقد استمتعنا كثيرًا لولا ما حدث لأختي العزيزة».

فردّت ميج:

«كان كلّ شيءٍ رائعاً، وخاصّةً أنني تعرفت إلى صديقة سالي وتدعى آني موفا، سوف تدعوني لأحضر حفل الأوبّرا، طبعًا إن وافقت أمّي على ذلك».

سألت جو:

«من ذلك الرجل الأحمر الذي كنت تراقصينه؟».

قالت:

«شعره كستنائيّ ألا ترين؟، إنّه شديد الأدب واللباقة».

قالت جو:

«حمدًا للّه أنّك لم تسمعي قهقهتنا أنا ولوري عندما كنت تراقصينه، بدا وكأنّه جرادة حائرة.

وبّختها ميج بصرامة، وحذّرتها من التّقليل من احترام الآخرين أو السّخرية منهم. بدأت جو تحكي لأختها، وبأدّق التفاصيل عن الأحاديث الّتي دارت في الغرفة المنزوية عندما التقت بلوري. حتى وصلت العربة إلى البيت وودّعن لوري وشكرنه كثيرًا، ثم دخلتا بهدوء وظنّتا بأن الجميع نيامًا.

فتحتا الباب وإذا بآيمي وبيث تنتظرانهما على أحرّ من الجمر كي تسمعن نشرة الأخبار المُفصّلة.

بدأت جو تقصّ الأخبار حدثًا تلو الآخر بعد أن أعطتهنّ قطع حلوى التي كانت قد أحضرتها لهنّ من الحفل. لا بدّ لها من بعض التّصرفات الصبيانية، فالطّبع يغلب صاحبه كما يقول المثل.

بينما اعتكفت ميج على كرسيها ومدّت قدمها الملتوية،

t.me/yasmeenbook

ومن فرط التّأثر خُيّل إليها أنّها سيّدةفي المجتمعٍ المخملي، تُدعى إلى الحفلات وتخدمها الخادمات.

ساعدتها جو في تبديل ملابسها، وسرّحت لها شعرها وقالت لها ببهجة:

«لقد كانت سهرةً رائعة لن أنساها. نحن نمتلك أبسط الأشياء وأسوأ الأحذية، ولم يمنعنا ذلك من السّعادة والبهجة لأننا نملك قلوبًا مشرقة بهيجة نابضة بالفرح والأمل».

الفصل الرّابع

أعباء ومسؤوليات

استيقظت الفتيات في صباح اليوم التالي للحفل، وكنّ متثاقلاتٍ مهمومات لأنّهن سيرجعن إلى حياتهنّ المعتادة، فقد انتهى العيد، والحياة ليست كلّها أعياد، وكم تمنين لو كانت كذلك.

قالت ميج متنهّدةً:

«يا للحسرة!، لماذا على الأعياد أن تنتهي؟»

كانت جو أقلّ تثاقلًا وتذمّرًا منها بعض الشيء. ولكنّها أيضًا لم تكن سعيدةً بعودتها لخدمة العمّة مارش التي لا يستطيع أحد في الوجود إرضاءها. كانت معاناة حياتها الأساسيّة، تكمن في ترويض نفسها لاحتمال العمّة مارش وتقبّلها. ولكنّها تؤكّد أنّ ليس هناك أي أمل.

قالت جو لأختها ميج:

«إن تذمّرك هذا لن يزيد الطين إلّا بِلّة، ولن نستفيد شيئًا إن تذمّرنا أو شكونا».

t.me/yasmeenbook

ردّت ميج:

«أظنّ أنني خلقت لأكون سيّدة مجتمعٍ راق، أذهب للحفلات كلّ مساء، وأتناول العشاء والحلويّات اللذيذة، وأركب العربات وأمتطي الجياد الرشيقة... ما أجمل أن يكون المرء مُترفًا!؛ هنيئًا لمن حصل على حياةٍ رائعة كهذه، إنني أحسد الفتيات الثّريّات».

ثمّ بدأت ميج تُحضِّر ماذا ستلبس للعمل، واختارت الفستان الأقل اهتراءً، وإن كان الاثنان مهترئَين.

ثم صاحت جو تحذّرها لتستيقظ وتعود لأرض الواقع، فالأحلام لن توصلهنّ لأيّة نتيجة. فعليهنّ أن يعملن بجدٍ دون أيّ تقصير. فذلك ما وعدن به سابقًا.

تثاءبت جو بعمقٍ، وقالت:

«لننطلق في سبل الحياة، ننهل منها ونسعى في مناكبها. فهناك الكثيرات مثلنا، بل وهناك أيضًا من هنّ أسوأ حالاً منّا».

لم تقتنع ميج بكلّ تلك النّصائح التّي ألقتها جو، فما إن تذكّرت أولئك الأطفال الأربعة المزعجين سيئي التّربية حتّى شقّت عليها المهمة أكثر.

وكان من عادتها أن تُسرِّح شعرها، أو تزيّن رقبتها بشريطٍ ما، لكنّها لم تفعل أيّاً من هذا، بل تركت شعرها كما

هو دونما أيّ عناية فلماذا ستصفّفه؟، إنّه ليس عيدًا كي تهتّم بهندامها.

حدّثت نفسها:

«بالطبع، إن كلّ فتاة لا تملك مالاً أو جاهاً سينتهي المطاف بها عجوزاً عانساً، وستصبح كالمعتوهات الذّميمات، لا ترحم أحدًا من سلاطة لسانها».

وعلى عكسها، انشرحت أسارير جو عندما تصوّرت للحظاتٍ أنّها تمكّنت من إرضاء العمّة مارش، فازداد صدرها رحابةً وسعةً، فهمست في سرّها:

«يا إلهي لو أنّ ذلك يحصل فعلًا لكنت أسعد الفتيات».

نزلت الفتاتان إلى غرفة المائدة. لم يكن الوضع هناك أفضل حالًا، فقد كانت بيث وآيمي أيضًا على الحال نفسها من الضيق والتذمر، إضافةً إلى أنّ صداعاً حادّاً قد أصاب بيث، الأمر الذي زاد من ضيقها، فاستلقت على الأريكة وجعلت تتأوّه من ألمها. وأخذت قططها الثلاثة وأمّهن تنطنطن حولها وتشاكسنها.

كانت الفتيات متوتّراتٍ شاحبات، وكأنهنّ سقطن توّاً من الجنة نحو أرضهنّ اليائسة. حيث كانت آيمي تعاني بصمتٍ، من جهة لأنّها نسيت كلّ ما قد أخذته من دروسٍ في الفترة السابقة، ومن جهةٍ أخرى لأنّها أضاعت حذاءها المطّاطي.

t.me/yasmeenbook

حتّى هانا أخذت نصيبها هي الأخرى من الشّكوى والملامة، فقد ضاقت ذرعًا بتأخرهنّ المعتاد على طاولة الطّعام، الأمر الذي كان يعيقها عن استكمال بقيّة مهامها اليوميّة.

قالت جو بعصبيّة شديدة:

«ما بالكنّ، وكأنّ على رؤوسكنّ الطير، يبدو أنه لن يمضي هذا اليوم على خيرٍ أبدًا».

ثم جلست على قبّعتها فأفسدتها، وأوقعت قنينة الحبر، وقطعت ربّاط حذاءها. فازددن جميعهنّ ارتباكًا وسخطًا أكثر فأكثر.

قالت جو مرّةً أخرى:

«ألم أقل لكنّ إنّه يومٌ عصيب. يا لنا من عائلةٍ بائسة».

ثمّ توالت المشاغبات عندما هجمت قطط بيث على ميج، وسحّبت بعضًا من خيوط فستانها. فصاحت بها ميج مهدّدةً أنّها ستقتل تلك القطط، وبدأت بيث تستسمحها عن إثم القطط تلك، وظلّت جو تضحك وتصفّر، وآيمي تبكي وتئنّ لأنّها حاولت أن تتمرّن على مسألة الرّياضيات «12*9» وعبثًا نجحت في حلّها.

صرخت الأمّ صرخةً عالية بعض الشّيء:

«أرجوكنّ اهدأن قليلًا!، لا أستطيع التّركيز، أريد أن

أنهي هذه الرّسالة لأرسلها في البريد الصّباحي؛ وإلّا نفد الوقت!»

دخلت في تلك اللحظة هانا تحمل الشّطائر اللذيذة المُفضّلة لديهنّ، والتي حرصت دائمًا على تحضيرها صباحًا، فأكلن طعامهن، وأخذن منه ما يردن ليتناولنه في النّهار الطّويل كلّما جعن حتّى تنتهي أعمالهنّ الشاقّة.

ذهبت كلّ واحدة إلى وجهتها، رافقت جو أختها ميج وخرجتا سوية... قالت جو لأمّها وبيث:

«وداعًا أمّي. انعمي بالهدوء فقد ذهبنا وذهبت معنا الضّجّة كلّها والصّخب أيضاً. أراك لاحقًا يا أختي العزيزة بيث».

أرسلت لهنّ أمّهن قبلة في الهواء، ولوّحت لهنّ عندما أصبحن على منعطف الطّريق، وكانت تفعل ذلك كلّ يوم. ظنّت جو أنّهن لا يستحققن ذلك الحنان كلّه من أمّهن بسبب ما أحدثنه صباحًا، وما أمطرن الجوّ به من كآبة وتذمّر وجحود.

على كلّ حال سعدت جو بتحيّة أمّها وكأنّها تجرّعت حبيبات التفاؤل والأمل، وغدت تقفز على الأرض قفزًا.

قالت جو:

«إنها تغدق علينا حنانها ونحن لا نثير إلّا المتاعب والضّجيج والفوضى. أعتقد أنّنا لسنا إلّا صعاليك جاحدة».

t.me/yasmeenbook

ردّت ميج تؤنّبها بشدّة:

«ألم أقل لك كفاك تفوّهًا بتلك الألفاظ السوقيّة؟»

قالت جو:

«أحبّ أن أصدم الجميع بعباراتي لأصنع زوبعةً صغيرة».

قالت ميج:

«ليس لك علاقة بي. إن كنت أنت ترين نفسك كذلك، فأنا لست صعلوكة ولست جاحدة. أنا سأكون من النّبلاء والأرستقراطيّين حتى لو طال الزّمن».

ردّت جو:

«يومًا ما سأجمع لكِ ثروةً طائلة، تُنفقين منها كما تشائين، تركبين العربات الفاخرة وتمتطين الجياد الرشيقة، عندها لا تنسي أن ترقصي مع الرّجال الحمر الماهرين».

انفرجت أسارير ميج أخيرًا، وضحكت من ذلك الهراء، وقالت لجو:

«لا أجد من هو أسخف منك».

قالت جو وهي تربّت على كتفها بلين:

«هل لكِ أن تتخيّلي لو كنت مثلك عابسةً جدّيّةً، ماذا كان حلّ بنا؟، والله كنّا متنا غيظاً. لا عليك يا أختي كلّ صعبٍ في الحياة يهون. هذه الدّنيا ستمرّ بمشقّتها وعذابها، فعلينا أن نتقبّلها ونتعامل معها على أنّها حلوةٌ بهيجة».

ثمّ افترقت الأختان تكابد كلّ منهما البرد والمشقّة.

عندما فقد السيّد مارش أمواله وهو يحاول مساعدة صديق تعثر حظه، توسّلت الفتاتان له أن يسمح لهما بالعمل، لتساعدا نفسيهما وتساعدانه. سمح بذلك بعد طول تفكير، معتبرًا أنّهن سيعتمدن على أنفسهنّ بذلك، وينخرطن في الحياة ويقدّرن صعوبتها.

فبدأتا العمل بهمّةٍ ونشاط. وجدت مارجريت فرصةً للعمل كجليسة أطفال، وشعرت بأنّها مكتفيةٌ براتبها الضئيل تنفق منه على الأشياء الأساسية. كانت ميج في صغرها منعّمة مدلّلة وتحفل بالمسرّات، لذلك قد شقّ عليها تحمّل الفقر وسقمه مثلما تحمّلته بقيّة أخواتها.

وقد زاد الوضع سوءًا ما كانت تراه في بيت مخدومها: «السيد كينج». وما يغدق به على بناته الاثنتين من ترف ورفاهية. كان عندهنّ كلّ ما حلمت به من ملابس ثمينة ومن باقات زهور مزركشة، وكنّ حاضرات دائمات في المسارح والحفلات.

حاولت كثيرًا أن تكون قانعة، ولكنّ من الطبيعيّ لشابّةٍ مثلها، ترى ما تراه، أن تتطلّع إلى مثل تلك الحياة. على الرّغم من أنّها كانت قليلة الشكوى، ولكنّ الشعور بالظلم كان يؤرّقها أحيانًا.

t.me/yasmeenbook

أمّا جو فقد كان عليها أن تعتني بعمّتها مارش العجوز الكسيحة، والتي تحتاج فعلًا إلى تلك الرعاية.

عرضت العجوز العاقر بدايةً أن تتبنّى إحدى الفتيات، ولكنّ طلبها ذلك قوبل بالرّفض.

فليس السيّد مارش من يبيع بناته لأيّ كان، أو مقابل أيّ مبلغ من المال، ومهما لقي من لوم النّاس والأصدقاء، حتى لو اضطر أن ينام على الحصير. كان يردّد دائمًا:

«أنجبت أربع فتيات، وسوف أربّي فتياتي الأربع».

عندها حزنت العمّة حزنًا كثيرًا لرفض طلبها، ثمّ، وبعد مرور الأيام التقت بجو مرّةً واستلطفتها، رقّ قلبها لها وعرضت عليها أن تكون مرافقتها.

لم يرق هذا العمل كثيرًا لجو في البداية، ولكنها قبلت به على مضض، لعدم وجود بديل آخر. كانت تحبّ عمّتها وتداريها على الرغم من سلاطة لسانها وطبعها الحسود، ومزاجها المضطرب، والذي دائمًا ما يجلب المناكفات والمشادّات والزّعل أحيانًا.

وكان أكثر ما يغري جو في العمل لديها هو وجود مكتبة مليئة بالكتب الرائعة في بيت تلك العجوز، كان قد تركها زوجها الرّاحل ضمن مقتنياته. وقبل أن يموت، كان يسمح لها أن تعبث بها، وتلعب بها كيفما تشاء: فتبني بيوتًا

بالكتب. وعندما رحل زوج عمّتها باتت تنهل منها كلّما أتيحت لها الفرصة. كانت جو شديدة الطّموح، وتتطلّع للقيام بأعمالٍ رائعة، ولكنّها كانت صغيرة لا تدري إلى أين يأخذها الزمن.

قسّمت جو وقت العمل عند عمّتها في تلبية طلباتها المملة، مثل لفّ بكرة الخيطان، أو تنظيف كلبها المُدللّ، فإذا ما تنفسّت الصعداء واستراحت قليلًا، هرعت إلى المكتبة المعتمة تقرأ في كتب التّاريخ أو الشّعر، أو تتصفّح مُجسّمات الكّرة الأرضيّة؛ كانت تلك المكتبة ملاذها الآمن.

كانت جو تحبّ ركوب الخيل والقراءة والتسليّة، ولكنّها، وبسبب ظروفها، كانت محرومةً من كلّ ذلك، فالعمل عند عمّتها عبوديّة مُطلقة، ولو أنّها لا تحتاج لذلك الرّاتب لحقّقت ما تحلم به، ولكن لا ينال المرء كل ما يريد!.

أمّا بيث، فقد كانت فتاة شديدةَ الخجل، لدرجة أنّها تركت المدرسة، وحاولت كثيرًا أن تتخلّص من تلك العقدة، لكنّ محاولاتها باءت بالفشل. وتولّى والدها مهمّة تعليمها، ولكنّ كان هذا قبل أن يلتحق بصفوف الجيش المحارب. عندما رحل انشغلت أمّها أيضًا بالعمل لدى جمعيّةٍ مُختصّة بمساعدة الجند، فما كان

t.me/yasmeenbook

على الفتاة الصّغيرة إلّا أن تعتمد على نفسها في تحصيل موادها العلميّة.

وقد ساعد وجودها الدائم في المنزل على مساعدة هانا في كلّ الأعمال المنزليّة دونما أن تطلب أيّ امتنانٍ أو شكر.

وبالرغم من غرابة أطوارها وتقوقعها على نفسها، إلّا أنّها كانت هاويةً للموسيقا والعزف، تتعلّمها وحدها وتدرس بجدّ، ولكن كان ينغّص عليها أنّه ليس في المنزل إلا معزفٌ بالٍ، ولا يكاد يسمع حسيسه ونغماته؛ الأمر الّذي أبكاها مرارًا. لكنها تتحمّل وتصبّر نفسها بأعمالها المعتادة.

كان حبّها لأخواتها شديداً، وكانت قنوعةً معطاءةً مُنكِرةً لذاتها، توفّر لهنّ أسباب الراحة الشاملة، لا تشتكي ولا تكلّ أو تملّ.

عاشت بيث في عالم من الخيال لو اطّلعت عليه لذهلت حقًّا، فجمعت دمىً قديمةً أخذتها من أخواتها، تدلّلها وتتحدّث إليها، وتحيك لها الملابس، حتّى إنّها تعالج السقيمة منها وتأخذها لدور المعالجة والتأهيل، فتداويها من الكسور وتغدق عليها بعطفها وحنانها، وتؤمّن لها الأسرّة الدّافئة. لقد كان عالمًا افتراضيًّا كاملًا عاشت فيه.

كانت تلك نبذة عمّا تعاني منه الفتيات الثلاث، أمّا آيمي فقد كانت معاناتها من نوعٍ آخر، وبالرغم من أنها لا تفتعل

المشاكل مع غيرها، إلّا أنّها كانت تشكل أزمةً لديها، أزمة تكمن في أنفها المسطّح، والذي وبحسب اعتقادها تسببت أختها جو في تسطّحه، إذ أوقعتها عندما كانت صغيرة.

كانت رسّامةً ماهرةً، ترسم كل ما يقع عليه بصرها من زهور، وورود، وحيوانات. الأمر الّذي جعل مدرّسيها يشكون إهمالها في الدّروس الأساسيّة مثل الحساب والعلوم.

ولكنّها بالمقابل كانت تتقن الغناء والتطريز والنطقّ بالفرنسيّة، حتّى أنّها تفوّقت في ذلك على جميع زميلاتها.

كسبت آيمي محبّة والديها ودلالهما وأكثر من ذلك فقد تماديا كثيرًا في دلالها لدرجة الإفراط، وأحبّها الجميع أيضًا لما تتلفظ به من ألفاظٍ نحويّةٍ أنيقة، وما لديها من شغفٍ وكياسة.

فتاة كهذه لو لم تكن فقيرةً لامتلأت غرورًا وأنانيّةً ونقائص عديدة أخرى، ولكن كما يقولون، فالفقر في بعض الأوقات دواء لكثير من الداء. كسر الفقر شوكتها في أغلب الأحيان، وخاصّةً حين كانت تضطّر لأن تأخذ ملابس ابنة خالتها «فلورانس»، والتي غالبًا ما تكون رديئة التنسيق والألوان.

أعطتها مرّةّ ثوبًا أرجوانيّاً عليه نقاط صفراء فاقعة، وقطعة دانتيل وحيدة لا تكاد تقلل من شدّة التباين.

t.me/yasmeenbook

قالت آيمي لأختها ميج:

«أتدرين أنّه يوجد من هو أسوأ منّا حالًا».

وراحت تصف لها ثوب صديقتها «ماريا بارك»، كيف أنّه قصير ولا سبيل لإصلاحه بعد الآن، وأنّها تضطر أن تغيب لأيام عن المدرسة بسببه.

قالت آيمي:

«لطالما كرهت ثوبي حتى رأيت ثوبها، فأحببت ثوبي وأحببت أنفي المفلطح، وهانت عليّ متاعبي وهمومي».

كانت تلك الأسرة مثل أيّ أسرةٍ عادية، حيث يكون فيها بعض الأخوة أقرب لبعضهم من البعض الآخر، لعبت الفتاتان الكبيرتان ميج وجو دور الأمومة مع أختيهما، وتعطفان عليهما بحنان بالغ. فكانت ميج محلّ ثقة آيمي تدلّلها وترعاها، أمّا جو فقد كانت محلّ ثقة بيث، وبالرغم من غرابة طباع جو وخشونتها، إلّا أن بيث كانت تجد لديها المأمن والسّكينة.

عادت كلٌّ من ميج وجو من عملهما، وفي المساء بعد العشاء جلستا تحيكان الملابس، حيث سألت ميج بضجر:

«ألا يوجد لدى إحداكنّ ما ترويه لنا؟، لقد كان يومًا مضجرًا وأنا أتلهف لشيء من التسلية».

قالت جو:

«لقد قضيت وقتًا غريبًا مع عمّتي اليوم، لن تصدّقن أنني جعلتها تتحمّس للقراءة في كتابي المفضل: «قس ويكفيلد». في البداية، جعلتني أقرأ لها كالمعتاد في كتابها الممل الرّتيب، وبضجر شديد رحت أقرأ لها بكل ما أملك من تصنّعٍ ورتابة، ثم بدأت أنعّم صوتي قدر المستطاع وأخفضه كي تشعر بالنّعاس. وبالفعل غفت قليلًا ثمّ فتحت عينيها فجأةً، فأدركت أنني أمثّل كي أخدّرها بصوتي فقالت لي:

«ما بالك يا جو، فمك كأنّه مغارة واسعة؟»

فقلت لها بحذر:

«يا ليته كان كذلك فأبتلع كلّ كتابٍ سخيفٍ لديك».

وبّختني على رذالتي ووقاحتي، ونصحتني أن أتهذّب وأتعقّل. وتركتها تهدأ وتنام، ثم اغتنمت الفرصة لأبدأ بقراءتي الممتعة. ولكن كالعادة أصدرتُ بعض الصخب والضّجيج، ما جعلها تصحو من فورها. وعلى عكس ما توقّعت، طلبت منّي أن تعرف ما فيه، فقرأت لها مسرورةً وأنا ألحّن في صوتي وأحسّنه كي ينال الكتاب إعجابها، ولكن عبثًا لم تفهم منه شيئًا، فاضطررت أن أعيد لها القراءة من البداية.

قلت لها:

t.me/yasmeenbook

«عمّتي أخشى أنّك قد تعبتِ اليوم، هل نتوقّف؟»

فانتفضت العمّة موقعةً ما كان بيديها وقالت:

«لا تتصرفي بوقاحة وأنهي قراءة الفصل بأكمله».

يا لغرور أولئك العجائز!، وخاصّة الأغنياء منهم!، يتمسّكون بأيّ تراثٍ قديم. فبالرغم من أنّ الكتاب الجديد قد نال إعجابها واستحسانها، إلّا أنّها لم تعترف بذلك.

سألَت ميج:

«وهل حقًّا أعجبها؟»

فأخبرتهم جو كيف رأتها تتصفّحه وتسطّر صفحاته بعينيها بشوقٍ بالغٍ دون حتى أن تشعر بوجودها وصخبها ورنين ضحكاتها، وهي تأخذ قفازاتها من الداخل لتنصرف من العمل.

وراحت ميج تقصّ حكايةً محرجة أخرى جرت معها في عملها ذلك النّهار، حيث طرد ربّ الأسرة الّتي تعمل لديها السيد كينج ابنه الشاب، وذلك بسبب ذنبٍ ما قد اقترفه.

قالت ميج:

«الحمد لله، إذ ليس لدينا من يشين عائلتنا بتصرّفاته ويعذّب أبوينا. كم حزنت عليهم، ولكنّني لا أستطيع فعل أيّ شيء، كما لم أقدر حتّى على الاستفسار أكثر عن

الموضوع، أوه لا تزال أصوات صياحهم وبكائهم تدوي في أذنايّ».

قالت آيمي:

«كل ما قصصتنّه يكاد لا يُذكر أمام ما حدث اليوم في مدرستي. اليوم أيقنت أن الأموال والمجوهرات لا تستطيع أن تغني شيئاً عند بعض الناس. فقد حدث ما يوجع الكرامة والكبرياء، وذلك عندما أُجبرت سوزي على الوقوف لمدّة نصف ساعة كعقوبة لها على ما فعلته بحقّ الأستاذ «دافيز»، بعد أن رسمته بأنفٍ كبير وهيئة بشعة وظهر أحدب. كأنّه نوتردام في البندقيّة، ولم تكتف بذلك، بل وكتبت على رسمتها تلك عبارته الشهيرة «عيني عليكنّ أيّتها الفتيات»... يا لسوزي المسكينة! لو ترين كيف كانت هيئتها عندما جُرَّت من أذنها إلى المنصّة وهي تحمل ما اقترفت يداها بيديها. أنا متأكّدة أنّها لن تنسى ما حدث طوال حياتها».

قالت ميج:

«آمل أنّكن لم تضحكن لحال تلك الفتاة المسكينة».

أجابتها آيمي بأسى:

«على العكس، فقد ذُهلنا وخفنا ورثينا لحالها. كنت في السابق أحسدها على خواتمها الجميلة، أمّا الآن فلتذهب تلك الزينة للجحيم إذا ما قورنت بالكرامة والكبرياء».

t.me/yasmeenbook

وتابعن الأحاديث وهنّ يطرّزن جميعهنّ، إلى أن حان الوقت لتكشف بيث عمّا في جعبتها هي أيضًا، وروت لأخواتها واقعة شهدتها هذا الصباح، حيث قالت له:

«عندما أرسلتني هانا لأحضر بعض المحار، كان السيد لورانس في محلٍّ لبيع الأسماك، ولم يكن يراني لأنني كنت خلف برميل، وكان هو مشغولًا بالحديث مع بائع السمك. دخلت امرأةٌ فقيرة بأسمالٍ بالية ودلو ومكنسة، وسألت السمّاك أن تنظّف له محلّه مقابل القليل من السمك لأطفالها الجياع. رفض السّماك عرضها بلهجةٍ جافَّة، وهمّت بالخروج وقد ارتسمت على ملامحها علامات الحزن والجوع... نظر السيّد لورانس إلى سمكةٍ كبيرة وحملها وناولها إيّاها، وكانت سعادتها لا توصف تجاه هذا الإحسان العظيم. احتضنت السمكة بسعادة وخرجت تهرول وتدعو للسيّد لورانس أن يطيل اللّٰه بعمره، ويدخله الجنّة ويبارك له في ماله».

سرّت الفتيات وابتسمن بعد أن سمعن قصّة بيث، وطلبن من أمّهنّ أن تقصّ عليهنّ شيئًا ما.

فقصّت عليهنّ الأمّ كيف كانت تفكّر في أبيهنّ هذا الصباح، وقد انقبض قلبها وشعرت بالهمّ عندما كانت تخيط ملابس الجنود في الجمعيّة، ثمّ دخل عليها عجوزٌ

ارتسمت على وجهه علامات الجهد والإعياء، وطلب منها بعض الملابس. كانت لا تزال مهمومة كظيمة على غير عادتها بسبب تلك الأفكار السّوداويّة.

سألته بلطفٍ:

«هل لديك أولادٌ مجنّدون؟»

فردَّ سارحاً:

«لديّ أربعة... فعليًّا لم يتبقّ إلّا اثنين: أحدهما أسير، والآخر جريح يقبع في مستشفى واشنطن، وأريد أن آخذ له بعض الأغراض من جمعيّتكم».

ثم تأوّه وقال:

«أمّا الآخرَين فقد صعدا إلى السماء وضحّيا بحياتيهما، ومع هذا فأنا سعيدٌ بما قدّمه أولادي في سبيل الدفاع عن وطننا، ولو عاد بي الزّمن إلى الوراء لذهبت أنا أيضًا وضحيّت بنفسي وبكلّ ما أملكه لأدافع عن شرفي وأرضي، ولكنني عجوزٌ ليس أمامي من العمر أكثر ممّا مضى».

أعطته ما تيسر لها من المال وهديّة صغيرة رمزية من الجمعيّة.

أطرقت الأمّ قليلاً وراحت تتذكّر تلك الكلمات الطيبة وذلك العجوز، ثم قالت:

«أنا لديّ بناتي الأربع المطيعات الحنونات، وقدّمت

t.me/yasmeenbook

رجلًا واحدًا وأخاف عليه وأطالب بسلامته، وهو قدّم أربعةً دون منّة، فعلًا كنت أظنّ أنّني أقدّم الغالي والنّفيس حتى رأيت ذلك العم الأسطورة».

طلبت جو من أمّها أن تروي لها مرّةً أخرى روايةً مختلفة تتذكّرها في خلوتها، بشرط أن يكون لها مغزى أخلاقيّ.

بدأت مارمي تقصّ عليهنّ ما ينبغي أن يسمعنه:

«إنّها قصّة أربع فتيات لديهن ما تيسّر من الطّعام والشّراب والملبس، والكثير من الأصدقاء وعائلة تحبّهن كثيرًا ورفاقٌ مخلصون. ولكنّ أولئك الفتيات لم يشعرن بالسعادة ولم يتوقّفن عن الشكوى يردن هذا ويتمنّين ذاك».

شعرت الفتيات الأربع أنهنّ المقصودات بذلك، فسارعن يطرّزن بمهارةٍ وسرعةٍ ليس لها مثيل.

«إنهنّ فتيات طيّبات، ولكن بطريقة ما قد أخذتهنّ ملذّات الحياة ومتعها. هذه الدنيا تغري الكثير وتأسر كل ضعاف النّفوس فتوجّههم للشرور والخبائث، وتصرفهم عن فعل الخير والإحسان حتّى ولو كانت الفطرة تتوق لذلك. فمن استزاد من الدنيا انقلبت أموره رأسًا على عقب».

تابعت الأمّ:

«وتراءى لتلك لفتيات أن يطلبن النّصح من امرأة طاعنة في السن، فقالت لهنّ العجوز:

«تذكّرن نعمة اللّه عليكنّ، وانظرن لمن هنّ أقل منكنّ حظًّا وأكثر حاجةً، فتنفتح لكنّ أبواب السماء وتنعمن بالسلام الداخليّ».

وكعادتها أرادت جو أن تقاطع وتعترض، ولكنّها تذكّرت أنّ أمّها هي التي تتحدّث فتراجعت.

واختتمت مارمي الحديث:

«فلا المال يحمي بيوت الأغنياء من العار مثل أسرة السيّد كينغ، ولا الثراء قادر على أن يجلب لنا الصّحة والشفاء أو حتّى السلام لروحنا كما هو الحال مع العمّة مارش. وإنّ التّعب والشّقاء لأفضل ألف مرّة من السؤال والتّذلل، فبعض النّاس ليس في حياتهم أيّ قيمةٍ سوى بعض المال. أمّا المال والخواتم الحمراء وحتّى أغلى المجوهرات في الدّنيا كلها أشياء لا تسمو لترميم جرح الكرامة والكبرياء».

استمتعن جميعهنّ بسماع قصّة الفتيات والعجوز، وتأمّلن بنصيحتها وأمسين شاكراتٍ لنعم الخالق، الصغيرة منها قبل العظيمة».

قالت ميج:

«ما أروعك يا أمّي وما أشدّ نباهتك. إنّها ليست إلا قصصنا بسردٍ آخر. كما يقولون حقًا وقع السحر على الساحر».

t.me/yasmeenbook

واتفقن أن يعتبرن مما حدث لهنّ اليوم، فالذكيّ من يتعلّم من تجربته، أمّا الأذكى فمن يتعلّم من تجارب الآخرين.

انتهت الأمسية ولا تزال آيمي مأخوذة بكلام أمّها، وبالموقف العصيب الّذي وقع لسوزي اليوم.

وهي تقول في سرّها:

«إنّه درسٌ لن أنساه. لا تذمّر بعد اليوم».

الفصل الخامس

حُسن الجِوار

كانت جو فتاةً نشيطةً مفعمةً وبالحيوية، رشيقة تهوى الرحلات وخوض المخاطر واستكشاف المجهول. فلم تكن تكتفي بما تفعله هي وأختها ميج من رياضة المشي الصباحيّة العسيرة في البرد القارس، بل تعاود الخروج للرياضة من جديد. كانت كتلةً من الطّاقة تدبّ على الأرض.

نصحتها ميج أنّ تبقى معها، وأكّدت لها أنّه لا يوجد شيء مهم في الخارج في مثل هذا الطقس، ولكنّ جو لم تكترث، وضربت بنصيحة اختها عرض الحائط. ارتدت حذاءها المطّاطيّ وتأبّطت مكنسةً في إحدى يديها، ومجرفةً في اليد الأخرى.

جلست ميج بعد أن يئست منها بجوار المدفأة في الدّاخل تتنعم بالدّفء، وتقرأ كتاب «إيفانهو» لوالتر سكوت.

t.me/yasmeenbook

كان شتاءً قاسيًا تساقطت فيه الثلوج بكثافة، لم ترحم الأزهار ولا الأشجار فجرّدها من خضرتها وزهوها. حتى أصبحت كلّ الألوان في الطبيعة بنّيّة جرداء شاحبة. وكان منزل الفتيات أقرب إلى أطراف المدينة، بعيدًا عن مركزها، تلتفّ حوله الأحراش والحدائق والحشائش.

بدأت جو رحلتها، ولحسن الحظّ كانت الثلوجُ طريّةً غير متماسكة، بحيث يسهل عليها جرفها بالمكنسة والمجرفة، فتمهّد الطريق لتواصل الرحلة الصباحيّة. في الواقع، كان جلّ ما تبتغيه جو هو أن تستكشف أكثر عن منزل جارهنّ الفتى لورانس المُنعزِل.

بدأت رحلتها وباشرت الطّواف حول منزله الذي يقع بالقرب من منزلها في نهاية الحديقة، ويفصل بينهما سياجٌ واحد. كان قصرًا جميل البناء، كلّ ما فيه كان يوحي وكأنه قصرٌ للأحلام، فيه ستائر واسعة تحيط بالأثاث الثمين والمفروشات المريحة. وفي الحقيقة لم يكن القصر من الخارج أقل جمالاً عمّا هو في الداخل، إذ تصطفّ العربات في حظائر كبيرة، والبيوت الزّجاجيّة على امتداد الحديقة فيها أجمل الزهور والنباتات.

لكَم تمنّت جو أن تشاهد عن كثبٍ كلّ ما يحتويه القصر من جمالٍ وروعة، ولكنّها تمنت أكثر أن تتعرّف على الفتى لوري. حيث اعتقدت أنّه بائس نوعًا ما لأنّ كلّ

ذلك الجمال والثراء والغلوّ في التنظيم والتنسيق ليس له أيّ قيمة مقابل السكوت الموحش داخل بيتهم، الذي كان مقفرًا لا يسكنه سوى الجدّ وحفيده.

حتّى أنّها اعتقدت أنّه هو الآخر قد اختفى، فمنذ مدّة لم تره أبداً، حتّى خُيّل إليها أنّه سافر إلى مكانٍ بعيد، إلى أن رأته يطلّ من نافذته ويراقب بحسرةٍ أختيها بيث وآيمي تلهوان وتلعبان بكرات الثّلج، أوحى منظره أنه كان يتمنّى لو أخذ هو أيضًا نصيبه من المرح والعبث ولو قليلًا.

شعرت جو بالغضب الشّديد لما يسبّبه ذلك العجوز من وحدةٍ قاتلة وحرمان رهيب من أبسط حقوقه. لو أنّه ترعرع في أسرة أخرى، لتلوّنت حياته وامتلأت بالرفاق وغمرتها البهجة. مضت وهي تفكّر بخطّةٍ ذكيّة تمكنها من اقتحام حياته، وكسر جمودها، وتحطيم قيود وحدته الكئيبة تلك.

هنا تذكّرت جو المثل الشهير: «لن تكون الجنّةُ جنّةً بدون سكّانها».

عزمت جو على تنفيذ خطّتها، تابعت المسير باتجاه منزل لوري، وفكّرت كثيرًا بطريقة تلفت انتباهه؛ وبتصرّفٍ صبيانيّ كوّرت بعضًا من الجليد ورمته على نافذة غرفته. فتح لوري النافذة وحدّق بها وقد بدا مريضًا عبوسًا، قال لها بصوتٍ متقطّعٍ مبحوح:

«آسف لقد كنت شاردًا، هذه أنتِ؟!»

t.me/yasmeenbook

قالت جو ملوّحةً له بمكنستها:

«ما بك؟ أظنّك مريضًا؟»

أخبرها لوري بأنّه اليوم أفضل حالًا بعد أن تمكّن منه البرد الشّديد لأسبوع. ثم قال لها:

«المشكلة ليست في المرض وحده، لكنهم حرموني القراءة والمطالعة أيضاً حتى أشفى تمامًا، لم يتبقّ لي سوى كتب جدّي القديمة المملّة، والتي أكل عليها الدّهر وشرب».

سألت جو:

«لكن أين أصدقاؤك؟»

أجابها:

«إنّهم مزعجون ويسبّبون لي الضيق أكثر ممّا تسبّبه كتب جدي».

حزنت جو على حاله تلك، وواسته لبقائه وحيدًا كل تلك المدّة، فبقائه في منزلٍ موحشٍ كهذا كان أصعب من المرض نفسه.

ثم قالت بمكر، حيث كانت ترغب في أن تعرف إن كان لديه صديقات:

«وأين الصديقات الودودات؟ أظنّ أنّهنّ يجلبن السكون والهدوء بطبيعة الحال».

قال لها لوري:

«أنا لا أعرف أي فتاة».

فقالت جو في محاولةٍ منها أن تضحكه وتسلّيه:

«إذًا ما رأيك أن تعرفني أنا؟»

فرح كثيرًا، وتمنّى فعلًا لو أنّها تأتي لتشاركه الأوقات الطويلة فتخفّف عنه ضيقه ووحدته.

وهنا أحسّت جو بنسمةٍ باردة تلسع وجهها، وطلبت منه أن يغلق نافذته حتى لا يزداد مرضه، ووعدته أن تعود لتراه ولكن بعد أن تستأذن أمّها.

سرعان ما عادت جو للقصر مرّةً أخرى، فتوغّلت فيه لتقابل السّيّد لوري كما وعدته. وسارع هو أيضًا في ترتيب هندامه وتمشيط شعره، وقلب الغرفة رأسًا على عقب يعيد تنظيمها دونما أيّه مساعدة من أيّ من الخدم السّتّة الذين هم تحت تصرّفه في أيّ وقت. لقد كان فعلًا فتىً خلوقًا مهذّباً.

قالت له جو:

«ها قد عدت مجدّدًا، أمّي تُبلغكم تحيّتها، وأختي ميج حملتني لك هذه الشطائر اللّذيذة، وحتى هذه القطيطات أصرّت أن تزورك معي، فنلعب معها وتلاعبنا!، إنّها من بيث الصّغيرة».

t.me/yasmeenbook

أجاب لوري بحبور:

«أهلًا بك وبالقطيطات، أنا مسرور بعودتك آنستي، واشكري لي عائلتك الكريمة على لطفهنّ وكرمهنّ».

شكرها مرّةً أخرى على تلك الشطائر وقال لها:

«ما أجملها وما أشهاها!، أخاف أن آكلها فأفسد زينتها».

قالت جو:

«بالله عليك!، إنّها للأكل!. وأنصحك أن تتناولها مع فنجان من الشّاي السّاخن. فهي شهيّة وخفيفة. وستصير ألذّ مع الشاي».

لاحظت جو أنّ الغرفة وإن كانت مريحةً وجميلة؛ إلّا أنّها بحاجةٍ إلى بعض التنسيق. فسارعت إلى ترتيبها، نظّفت الرماد المتناثر فوق الأثاث، ووضعت كل غرض في موضعه المناسب، فقلبت كلّ الأغراض في الغرفة وأزاحت الأريكة للزّاوية المقابلة، حتى أصبحت الغرفة بأفضل حال.

قال لوري:

«لقد فعلتِ ما تتكاسل عن فعله خادماتنا في هذا المنزل. فهنّ كسولات متثاقلات».

كان لوري سعيدًا جدًّا بما تفعله جو. جلسا على مقعدٍ وثير وراحا يتجاذبان أطراف الحديث.

كان لوري مريضًا ووحيدًا، وقد أحسّ بسعادةٍ كبيرةٍ لما كانت تغمره به جو من حنانٍ كان يفتقر إليه. كما أنها طلبت منه أن يأتي لزيارتهنّ. وأخبرته كم أنّ أمّها إنسانة رائعة وسوف تعامله بكلّ ودٍّ وطيب.

بدأت جو تحدّثه عن أسرتها كي تشجّعه أكثر على المجيء:

«لديّ أخت صغيرة تدعى بيث، وهي ذات خدودٍ ورديّةٍ». ثم أردفت ممازحة: «أمّا أنا فمذياع لا ينطفئ أبدًا».

وسألها من منهنّ بيث:

فأجابته:

«إنّها حشيشة قلبي الصغيرة تلك الّتي لا تغادر المنزل».

وتفاجأت جو عندما أكمل هو الحديث عنها، فحدّثها عن ميج الكبيرة الحسناء، وعن الصغرى آيمي ذات الشعر المجعّد.

قال لوري:

«اعذريني، أنا لم أعرف ذلك إلّا بحكم جيرتنا، حيث كنت أراكنّ تتجوّلن في منزلكن».

استطرد لوري وقال:

«لا أظن أنني سأجد أجمل من تلك اللمّة المؤنسة، وخصوصًا عندما تضمّكنّ أمّكنّ بجناحيها الحانيين،

t.me/yasmeenbook

لعمري إنّها الجنّة بأبهى حلّتها. لقد حُرِمت من والديّ، وحرمت من جَوِّ العائلة الدافئ الحنون، وكنت أعوّض برؤيتكن قليلًا من شوقي».

قالت جو بحنانٍ بالغ:

«من هذه اللحظة عائلتي هي عائلتك. لن نسدل أيّ ستائر بيننا بعد اليوم. يمكنك أن تأتي إلينا متى شئت، وتشاهد العروض المسرحيّة الطّريفة، وتشاركنا الشّطائر اللّذيذة، وتستمع إلى غناء بيث العذب، وتشارك آيمي رقصاتها الرشيقة كالعصافير».

ثم أردفت: «لم يتبق لنا سوى موافقة جدّك. هل تظنّه سيمانع؟»

قال:

«كلّا جدّي حنون القلب، ولا يمنعني من أيّ شيء. شرط ألّا أكون حملًا ثقيلاً على أحدهم».

أكّدت له جو أنّهن سعين منذ زمن أن يتعرّفنّ إليه، ويتودّدن له، وأنهنّ سيفرحن كثيرًا إن تقرّبوا أكثر.

وقالت له:

«ليس بين الجيران أيّ رسميّات، لا سيّما أنّنا أصبحنا أصدقاءً مقربين، أليس كذلك؟»

وأخبرها أنّ بقاءه في المنزل ليس صائبًا على أيّ حال، ولكن ليس هناك حلٌّ آخر، فجدّه يعيش في المكتبة تقريبًا

لأنه يحبّ الكتب حبًّا جمًّا، ويمضي الوقت كلّه بمطالعتها. وهي معبودته الوحيدة.

قالت بلهجة حادّة لا تخلو من عطف:

«لا تلعب هذا الدور يا صديقي، عليك أن تصادق النّاس وتتعرّف على الآخرين. انتفض وثر على خجلك ووحدتك».

وتبادلا الأدوار وسألها هو:

«وماذا عن دراستك؟»

قالت:

«أنا لا أدرس لأنّني أرعى عمّتي العجوز الثّائرة الشّاكية».

ثم أكملت تصف له ما الذي تعايشه عندها:

«لدى عمّتي مكتبة تزخر بكل الكتب والمؤلّفات. ويشاركنا المنزل كلبٌ ممتلئ مدلّل، وببغاء يتكلّم الإسبانيّة، ويبدو أنّه قد أخذ من طباع عمّتي الغاضبة، فلا أنسى عندما أتى أحد العجائز يطلب يدها ليتزوّجها كيف هاجمه وسلبه الشعر المستعار الذي غطّى به صلعته».

قهقه الاثنان ثم انفجرا ضاحكين.

عندما رأته جو سعيدًا ومنفرج الأسارير هكذا، أقحمته أكثر في عالمها الخاص، وقصّت عليه من أنبائها العجيبة الطّريفة.

t.me/yasmeenbook

«لديّ عالمي الخاص الذي أعيشه وأتشاركه مع إخوتي. بالإضافة إلى عالمٍ آخر أعيشه مع نفسي، فأنا أخطّط وحدي لمسرحيّاتي وأكتب السّيناريوهات، وأنظّم المشاهد وأنفّذ الأدوار أيضًا».

عندما علم لوري أنّ جو تحبّ الكتب والأدب مثله اصطحبها إلى مكتبة القراءة، وكان من حسن حظّها أنّ الجدّ ليس في المنزل. وتجوّل الاثنان في القصر الكبير من غرفة لغرفة ينعمان بالدفء. دُهشت جو بكلّ ما رأت أمامها، لكنّ ذهولها الأكبر كان عندما دخلت حجرة المكتبة، كانت منظومة ثقافيّة كاملة تحتوي كتبًا ومؤلّفات، صورًا وتماثيل، نقودًا أثريّة وتحفًا تاريخيّة.

ذاب قلب جو من جمال ما رأت، فتغلغلت في إحدى المقاعد المُخمليّة النّاعمة، وأكّدت له لو أنّ لديها ما لديه لكانت أسعد الناس، ولكنه خيّب أملها عندما قال إنّها ليست محقّة، وإن هناك ما هو أهم.

رنّ جرس المنزل قاطعًا عليهما ما كانا سيكملانه، فإذا بالجد هو القادم، وأصيبت جو بالهلع لأنّها ستقابله وجهًا لوجه، فضحك لوري قائلًا:

«منذ قليلٍ لم تكوني خائفة، ماذا أصابك الآن؟!»

قالت جو:

«لا أدري لماذا توتّرت قليلًا، بالرغم من أنني لم أسبّب أيّ مكروه لأحد».

هدّأ لوري من روعها وهي لا تزال تحدّق في الباب مترقّبةً مجيئه، فأكّد لها أنّه سرّ كثيرًا بتلك الزيارة، وأنّها بخفّة دمّها قد كسرت جليد الرّتابة والخمول الّذي يعيشه.

قال لها:

«توتّرك هذا ليس له داعٍ».

أخبرت الخادمة لوري بوصول الجدّ، فذهب وترك جو للحظات بعد أن استأذن منها ليسلّم على جدّه ويستقبله. فتماسكت وتناست الأمر، وعادت تحدّق في مقتنيات تلك المكتبة الفاتنة، إلى أن اصطدمت بلوحة زيتية عملاقة للسيّد لوري فتأمّلته ودمدمت تقول بصوتٍ خافتٍ إنّ جدّها أجمل منه، ولكنّه جميل بعض الشيء ومع أنّ فمه مروّع إلّا أنّ عينيه حنونتان وتفيضان بالقوّة والصّلابة.

جاء صوتٌ من الخلف:

«شكرًا جزيلًا يا سيّدتي».

فالتفت لتجد السيّد لورانس العجوز. يا له من موقفٍ محرجٍ لجو المسكينة الّتي احمرّت وجنتاها خجلًا، فكّرت للحظةٍ أن تركض بعيدًا، لكنّها ظلّت واقفة. وعندما نظرت

t.me/yasmeenbook

ثانيةً إلى الجدّ العجوز تبيّنت أن عيناه تنمّان عن طيبةٍ أكثر ممّا هو واضحٌ في الصورة.

وبعد فترةٍ من الصّمت الطّويل سألها العجوز بصوتٍ أجش:

«إذًا لست خائفةً منّي؟»

قالت جو بصوت خافت:

«ليس كثيرًا يا سيّدي».

قال الجدّ:

«لكنّك تحبّينني رغم ملامح وجهي القبيحة؟»

أجابته جو:

«أجل يا سيّدي. ولكنّك لست قبيحًا».

حازت إجابتها رضا السيّد لورانس، وفرحت جو حين قال لها إنّها تملك روح جدّها لأبيها من حسن المعشر والأمانة والصدق.

قال الجدّ:

«هيّا أخبريني، ماذا كنتما تفعلان».

فشرحت له جو أنّها كانت تريد أن تكون ودودة مع جيرانها، وأخبرته أنّ لوري بحاجة إلى بعض المرح واللهو، وأبدت نصيحتها التالية:

«سيّد لورانس، إنّ لوري فتىً وحيد، هو بحاجةٍ لبعض الرفاق الشباب. وبالرغم من أنّنا فتيات إلّا أنّنا على استعدادٍ تام كي نرفّه عنه ونسلّيه ما استطعنا».

وتذكّرت جو هديّة هذه العائلة الكريمة لهنّ ليلة عيد الميلاد، وشكرته في الحال.

قال السّيّد لورانس:

«لقد أُعجبت بكنّ أكثر وأكثر عندما بادرتنّ بالمساعدة قبل أن يبادر عليها الأغنياء، ولا زلت أذكر والد أمّك، الرجل المعطاء الذي كان يسارع للخير ويسعد النّاس. وبالمناسبة، أمر الهديّة تلك لم تكن فكرتي، بل فكرة الفتى لوري».

ودعاها الجدّ لتناول الشّاي معهم، حيث اعتادوا أن يتناولوه مبكّرًا كي لا يطيل لوري السّهر.

تأبّطت جو ذراع السيّد لورانس في دعوةٍ لطيفة منه، واتّجها معًا لغرفة المعيشة لاحتساء الشّاي، والتقيا بلوري وقد تسمّرت عيناه ممّا رأى من انسجام الفتاة مع جدّه.

قال لوري في نفسه: «منذ قليلٍ كانت خائفة منه، يا لها من فتاةٍ طيّبة جريئة.

ثم قال لجدّه:

«لم أكن أعلم أنك جئت».

t.me/yasmeenbook

فقال الجدّ:

«حسنًا إذن، هيّا للعشاء وكن كريمًا مع ضيوفك يا عزيزي».

سار ثلاثتهم باتجاه المائدة، وكان لوري في قمّة البهجة يترنّح بمشيته كالسكران من فرط سعادته كي يلفت انتباه جو ويضحكها بتصرفاته. تجاذبت جو ولوري أطراف الحديث كالأصدقاء القدامى، ولاحظ السيّد لورانس ما ل: جو من تأثير إيجابي بالغ على لوري، وقد اكتفى بالاستماع لتلك الأحاديث البريئة المسليّة، واقتنع تمامًا أنّها بخشونتها وجرأتها لا تختلف كثيرًا عن الفتيان.

قالت جو محدّثةً نفسها:

«إنّهم أناس طيّبون، وأبعد ما يكونون عن العجرفة أو التّغطرس، لقد سعدت جدًّا بصحبتهم فمع مثل هذا النّوع من البشر أرى سعادتي واطمئناني وسكينتي».

انتهت وجبة العشاء ونهضت جو تريد الانصراف.

قال لها لوري:

«دعيني أريك بيت الزهور».

كان بيتًا زجاجيًّا فائق الجمال بزهورٍ يانعة وجدرانٍ لامعة وقطوفٍ دانية تنعكس عليها أضواء خافتة، قطف لوري أجمل باقةٍ من الأزهار وقدّمها هديّة لوالدتها

العظيمة السيّدة مارمي التي لولا سماحها لابنتها بالزّيارة، لما نال لوري ما ناله من السّعادة ولما تغيّر مزاجه للأفضل.

عاد الاثنان أدراجهما، دخلا المنزل وجلسا مع السيّد لورانس بجانب المدفأة، لفت نظرها البيانو الذي كان يقف بجانبها، وحملقت فيه كثيرًا ثم سألت لوري:

«هل تجيد العزف؟»

قال:

«ربّما قليلًا».

هنّأته جو على ذلك فهي لم تستطع أن تتعلّم أبدًا.

قالت:

«اعزف لنا قليلًا».

وبالفعل لبّى لوري طلبها وبدأ يعزف، وقد كانت مقطوعةً جميلة وكان عازفًا ماهرًا بحق. وقالت في سرّها:

«لو أنّ بيث هنا الآن لتسمع عزفه المتقن».

أنهى لوري معزوفته ومدحته جو كثيرًا لحسن ما سمعت، فخجل خجلًا مبالغًا فيه، حتّى أوقفها الجدّ عن المديح وودّعها في عجالة، حيث قال:

«هناك ما هو أهمّ من الموسيقا ليتعلّمه أو يبرع به. مع السّلامة يا جو وعمت مساءً، لا تتأخري في العودة لمنزلك، واحملي تحيّاتي للسيّدة مارش والدتك».

t.me/yasmeenbook

اصطحب لوري الفتاة وودّعها بسكون حتّى بلغا ردهة البيت، وأكّد لها أنّ جدّه لا يرتاح للموسيقا ليس أكثر، فسألته جو عن سبب ذلك، فوعدها أنّه ربّما يخبرها في وقتٍ لاحق.

وأرسل معها الخادم جون ليكمل معها المسير حتى تصل إلى منزلها. وقال لها:

«أُفضِّل لو أصحبك أنا، ولكنّني متعب».

شكرته جو على لطفه، وأخبرته أنّه ليس هناك من داعٍ، فالمنزل قريب جدًّا.

وانصرفت وهي تودّعه وقالت له:

«عزيزي لوري أرجو أن تهتم بصحّتك».

قال:

«أمرك مطاع، ستكرّرين الزّيارة، أليس كذلك؟»

أجابته:

«بالطّبع يا صديقي».

وافترق الاثنان بعد أن اتّفقا على تبادل الزّيارات تباعًا: فهو يزورها عندما يشفى وتتحسّن حالته، ثمّ تزوره هي مرّة أخرى.

عادت جو للمنزل حيث تحلّقت الفتيات حولها، وقصّت عليهنّ مطوّلًا كلّ ما حدث دون أن تنسى أيّ

تفصيل، وخاصّة كيف أحسنت لجارها ولاطفته. وأصبح لكلّ واحدة منهنّ سبب مختلف لاكتشاف المنزل القابع بالجوار. فأرادت ميج أن ترى البيت الزجاجيّ، وتمنّت آيمي رؤية اللّوحات والتّماثيل، وتحمّست بيث للعزف على البيانو الكبير.

أما فيما يخص جو فقد كان أكثر ما سعدت به هو إحسانها لجارها، وإخراجه قليلًا ممّا هو فيه.

سألت جو أمّها:

«أمّي، لماذا قد يكره السيّد لورانس الموسيقا؟»

قالت السيّدة مارمي:

«إنّها قصّة طويلة، فقد كانت زوجة ابنه إيطاليّة تحترف الفنّ والموسيقا، وبما أنّه لم يكن راضيًا عن زواجهما، فقد ابتعد ابنه عنه ولم يقبل الجدّ ساعتها بأن يتواصل معه بأي شكل لسنين طوال. ثمّ مات ابنه والد الفتى وماتت زوجته أيضًا، فهرع السيّد لوري ليحضر حفيده كي يعتني به. ولذلك تجدينه يبالغ في الاهتمام به، ويخاف عليه من نسمة الهواء، ويخشى مخالطته النّاس كثيرًا، ويكره الموسيقا الّتي تذكّره بزوجة ابنه التي ابتعد ابنه عنه بسببها، أو لعله كان يخشى أن تعيد له الموسيقا الأزمة نفسها فيسافر حفيده لإيطاليا لدراستها ويترك جدّه، فيعاني البعد والهجران مجدّدًا».

t.me/yasmeenbook

حزنت ميج لتلك القصّة الكئيبة، وقد كانت شابّة لمّاحة، فربطت بين جمال شعره الأسود المجعّد وعينيه اللامعتين السّوداوين وذوقه السليم، وبين سريان الدّم الإيطاليّ في عروقه.

أمّا جو فقد انفعلت وقالت بغضب:

«لِمَ يحرمون ذلك المسكين ممّا يحبّ ويهوى، ومن ثم يجبرونه على ممارسة وفعل ما لا يريد؟»

ثمّ خاطبت ميج: «ومن أين لك أن تعرفي أنّه على خلقٍ عظيم؟»

قالت ميج:

«مساعدته لنا بإحضار العربة، ثمّ إنني رأيته وسمعت ألفاظه وكلماته؛ ألم تري كيف قال إنّك دواء نافع؟».

وضحكت جو وقالت: بأنّه كان يصف الفطائر وليس هي. فسخرت منها ميج وضحكت وأكّدت أنّه قصدها هي ولكنّها ساذجة لا تفرّق بين الإطراء من الكلام العادي البسيط.

انفعلت جو ولو أنّها سُرّت في داخلها وقالت:

«إنّه عمل إنساني بحت. ودعك من التّرهات يا ميج. إنّه فتىً يتيم حزين لم أرَ ألطف منه ولا أحسن سلوكًا وتهذيبًا... وأنا لن أتخلّى عن صحبته، وسأزوره ويزورنا كلما سنحت لنا الفرصة».

ثم نظرت جو لأمّها وكأنّها تأخذ موافقةً سريعة منها على ما عزمت عليه.

قالت لها أمّها:

«بكلّ سرور يا عزيزتي».

وأنّبت الأمّ ميج بلهجة خفيفة:

«لا ترشّي سمًّا في الأجواء يا عزيزتي، إنّها صداقةٌ بريئة حقيقيّة. إنّهم أطفال وهناك الكثير أمامهما ليكبرا ويصبحا راشدين».

وتدخّلت آيمي على فورها التدلي بتصريحها هي الأخرى:

«أنا أصغر منهما وأشعر أنّني شابّة راشدة، فماذا تقولين يا بيث؟»

قالت بيث:

«نعم ولكن عن ماذا كنت تتحدّثين لم أسمع آخر كلماتك؟، أنا لست معكم الآن فقد عاد بي الزّمن للوراء وتذكّرت لعبة الحجاج، كيف كانت تمتصّ منّا غضبنا، وتبعث فينا روح الأمل والصمود. أظنّ أنّ ذلك القصر هو قصر أحلامنا الذي لطالما رسمناه في مخيّلتنا».

قالت جو:

«بالفعل يا حبيبتي، ولكن علينا أن ننهي مشوار طرقنا الوعرة أوّلًا، فسوف يكون مشوارًا طويلًا».

t.me/yasmeenbook

الفصل السّادس

بيث معجبةٌ بالقصر الكبير

لطالما كان الفقر حملًا ثقيلاً على النّاس، يفرّق بينهم أو يعكّر صفوهم، وخاصّةً مع عائلتين أحدهما ثراؤها فاحش؛ والأخرى بالكاد تستطيع أن تؤمّن أبسط احتياجاتها. ربما يكون عائقاً كبيراً، ولكن ليس مع عائلة مثل عائلة السيّدة مارمي وبناتها ذوات النفوس الكريمة، والتي قد تعطي كلّ ما تملك ولا تنظر لما يملكه الآخرون بعين الحسد.

تبادلت العائلتان الهدايا من جهة والمشاعر من جهة، ولو أنّ الفرق بين ما تتبدلانه شاسع جدًّا، ولكنّ ذلك لم يسبّب أيّ إحراج، وإن كانت الفتيات وأمّهنّ في بداية الأمر تتحسّسن من ذلك كثيرًا، لكن يكفي أنه أصبح للسيّدة مارمي ابنٌ عزيز، وصار له منزلٌ وحضنٌ وأخوات عزيزات. وسريعًا ازدهرت صداقتهم ونمت مثلما ينمو ورد الرّبيع.

كانت بيث شديدة الخجل والحياء، تصيبها الرّهبة من

t.me/yasmeenbook

أبسط الأشياء، فما بالك من ذلك السيّد الكبير العجوز حادّ الملامح. ورغم كل محاولاته الحثيثة في استمالتها وملاطفتها ولكن دونما جدوى. أحبّته بقيّة الفتيات وتودّدن إليه، حيث كان الجدّ لورانس يلطفهنّ جميعاً ويسترجع مع أمّهن ذكريات الأيّام الخوالي، ويذكّرها بأبيها العزيز المحترم.

ما أجمل الأوقات التي كنّ يمضينها في القصر الكبير الرّائع. وما أكثر المباهج والمسرّات التي كنّ يتمتّعن بها هناك. حيث كانت كلّ واحدة منهنّ تجد ضالتها فيه. وبقدر ما انجذبن للقصر وللسيد لوري فقد انجذب هو الآخر إليهنّ. فأصبحت الفتيات بيت أسراره، وشُغف بهنّ كثيرًا وبصحبتهنّ الجميلة وبحياة الكدّ والمثابرة في الحصول على احتياجاتهنّ بكلّ عزّةٍ وكرامة، حتّى وصل به التعلّق لأن ينشغل قليلًا عن دروسه، وأن يهجر كتبه وينصرف عنها بعد أن كانت وحدها رفيقة الأيّام الماضية. وجعل ذلك السيّد بروك معلّم لوري يقدم شكاوى متواصلة لجدّه بهذا الشأن، وما كان من جدّه إلا أن يحبط تلك الإنذارات كلها، ويهمل تلك الشكاوى، فقال له ذات مرة:

عمّتي مكتبة تزخر بكل الكتب والمؤلّفات. ويشاركنا المنزل كلبٌ ممتلئ مدلّل، وببغاء يتكلّم الإسبانيّة، ويبدو أنّه قد أخذ من طباع عمّتي الغاضبة، فلا أنسى عندما أتى

أحد العجائز يطلب يدها ليتزوّجها كيف هاجمه وسلبه الشعر المستعار الذي غطّى به صلعته».

تناوبت العائلتان على تبادل الزّيارات، فتارّةً يأتي لوري لمنزلهنّ فيمثّلون المسرحيّات ويقرؤون الكتب ويتنزّهون في الحقول ويتزلّجون على جليد الشتاء الصّلب. وتارّةً تذهب الفتيات لحضور الحفلات الأنيقة التي تقام في قصر السيّد لورانس، حيث كان الفتى يكرمهنّ أحسن إكرام، فتكون خير فرصة لميج لتهنأ بقطف الزّهور من البيت الزجاجيّ، ولجو حتى تعكف على قراءة كلّ ما تحصل عليه من مكتبة القصر، وتأخذ آيمي أيضًا نصيبها من التّسلية في هواية الرّسم، فتنسخ الصور الجميلة من على جدران القصر. كلّهنّ وجدن ضالتهنّ واقتربن منها في ذلك القصر ما عدا بيث، لم تقترب أبدًا ولم تندفع تجاه تلك العائلة مثل بقيّة البنات.

ولكنّ عصفورةً صغيرةً تدعى جو، أخبرت السّيّد لورانس عن حبّ بيث للعزف. فشرع يساعدها في التّغلب على خجلها وبدأ بتنفيذ خطّة ما. أثناء زيارة مارمي في أحد الأيّام لهم، وكانت معها بيث، بدأ الجدّ يتحدّث أمامها عن كبار العازفين والمطربين العظماء الذين شاهدهم، فأثار بكلامه انتباه بيث التي نهضت من حجر والدتها ووقفت تستمع إليه. لكنّه تظاهر أنّه لم يلاحظ الفتاة الصّغيرة

t.me/yasmeenbook

الخجولة. وأردف إنّ لوري يهمل العزف هذه الأيّام، وذلك البيانو الكبير أصبح مهجورًا. قال:

«سأكون ممتنًّا كثيرًا لو تتدرّب الفتيات عليه».

خطت بيث خطوةً بيدين متشابكتين إلى الأمام بحماسةٍ وانفعال، فابتسم السيّد لورانس وأكمل حديثه:

«لسن بحاجة إلى الاستئذان، ولن يزعجهنّ أحد. لذا أخبري الفتيات في حال اهتمام أيّ واحدةٍ منهنّ».

مدّت بيث يدها الصغيرة وسلّمت على السيّد لورانس:

«يا إلهي إنّهنّ يهتممن بالموسيقا كثيرًا يا سيّدي».

سألها السّيد لورانس:

«هل أنت من تهوين الموسيقا؟»

قالت:

«أنا بيث، وأحبّ الموسيقا كثيرًا. وسوف أحضر للعزف على البيانو إذا كان هذا لن يسبّب لك أيّ إزعاج».

أجابها السّيّد لورانس:

«المنزل خالٍ في أغلب أوقات الظهيرة، لذا لن تتسبّبي في إزعاج أيّ أحد، وباستطاعتك أن تعزفي كما تشائين، وسوف أكون فرحًا بذلك».

قالت له بيث:

«كم أنت طيّبٌ يا سيّدي».

احمّرت وجنتاها حيث كانت لا تزال ترهبه، لكنّها اليوم ارتاحت له أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وعبّرت عن امتنانها لهديّته الغالية، وعرضه الثّمين بالضغط على يديه بعد أن ضاعت كلمات الشكر من فمها. مرّر العجوز يده فوق شعرها وقبّل جبينها. قال بصوتٍ منخفض:

«كان لديّ فتاة صغيرة عيناها مثل عينيك، فليباركك اللّٰه».

غادرت الأمّ وابنتها القصر بعد أن ودّعا الجدّ الحنون، وكانت بيث في حالةٍ من النشوة وهي تركض لتخبر أخواتها ودمُاها المحبّبة بما حدث. ولكنّ أحدًا لم يكن في المنزل. غنّت بيث كثيرًا وكأنّها المرّة الأولى، وأخبرت البنات عند عودتهنّ كيف فُتحت لها أبواب الجنّة. نامت بيث وفي حلمها بدأت تمارس أول درس عزفٍ لها بأصابعها على وجه آيمي النائمة.

كان لأسلوب الجدّ العذب الرقيق أقوى تأثير، ففي الأمس كانت تهرب منه كلّما وجدته، خاصّة إذا حدث مرّةً أن ناداها بصوتٍ عالٍ، أو نظر إليها نظرةً حادّة، فتحسّ برعبٍ شديد وترتجف ركبتاها وتهرب لمنزلها وهي تحلف أنّها لن تعود مرّةً أخرى، حتى ولو كان في ذلك القصر معازف الدّنيا كلّها.

أمّا اليوم، فها هي تدخل القصر بعدما تأكّدت أنّه لا

t.me/yasmeenbook

أحد بالمنزل، ولكن بخجلٍ أيضًا، وبعد محاولات عدّة استطاعت الدخول.

تسلّلت بيث إلى غرفة المعيشة، ووقفت في رهبةٍ تحملق بالبيانو العظيم، كان أحد الأشخاص قد ترك نوتة موسيقيّة فوقه، وبأصابع مُرتجفة لمست بيث وأخيرًا الآلة الموسيقية الضّخمة وتبدّد خوفها. جلست وعزفت كيفما شاءت إلى أن أتت هانا لتصحبها للعشاء بعد يومٍ جميل، فجلست إلى المائدة ولم تتناول الطعام، وكأنّ الفرحة قد ملأت بطنها. نعم، لقد كانت في سعادة غامرة.

بعد تلك التّجربة كانت بيث تذهب تقريبًا كلّ يوم للعزف على البيانو، ولم تشكّ أبدًا أنّ السّيّد لورانس هو من كان يترك لها الأغاني الجديدة، ويكتب التّدريبات، وحتى أنه كان يفتح باب المكتبة ليستمع لعزفها، وكان لوري يحرص على عدم مقاطعة أيّ شخصٍ لها فيقف كالحارس الشخصيّ كي يمنع أيّ متطفّل عليها. شعرت بيث بامتنان كبير لتلك النعمة، حتىّ إنّها سألت أمّها إن كان بإمكانها أن تصنع خفًّا جديدًا للسيّد لورانس تعبيرًا عن شكرها.

قبِلت مارمي بالطّبع، وساعدتها جو وميج على اختيار التّصميم والقماش، وبدأت بيث تصنع الخفّ. وبمهارتها الكبيرة في الخياطة أنهته بسرعة، ولفّته بلفافة أنيقة وكتبت رسالة قصيرة وأعطت الخف للوري ليأخذه خلسةً إلى

مكتب الجدّ، بحيث يضعه فوق المنضدة فيتفاجأ به صباحًا عندما يراه.

تمّت المهمّة بنجاح وبسرعة قياسيّة، انتظرت بيث لترى وقع الهديّة على السيّد لورانس، مرّ يوم ونصف دونما أيّة ردّة فعل. ساورها القلق من أن تكون قد أغضبت السيّد العجوز. وفي ظهر اليوم التالي خرجت بيث للقيام بعملٍ ما، وأخذت معها دميتها المقعدة لتفسّحها قليلًا كعادتها، وعندما عادت وجدت الطاهية هانا وشقيقاتها ينتظرنها عند الباب الأماميّ وهنّ متحمسات.

قالت جو:

«تعالي بسرعة ثمّة رسالة لك».

وقالت آيمي:

«أوه بيث لقد أرسلها لك ال..».

فوضعت جو يدها على فمها لتسكتها وتمنعها من إفساد المفاجأة.

دخلت بيث ووراءها أخواتها يثرن الصّخب والضّجيج، فشحب لونها من المفاجأة والدّهشة معًا. إذ وجدت أمامها بيانو صغيراً بغطاء أسود لامع وفوقه خطاب مكتوب عليه «الآنسة إليزابيث مارش».

سألت بيث وهي تلهث:

t.me/yasmeenbook

«أهذا لي؟»

وأمسكت بجو بإحكام، خوفًا من أن تقع مغمى عليها.

أعادت جو الرسالة لأختها بيث وصرخت بانفعال وسرور:

«إنّه لك، يا لكرمه. يا للطفه. إنّه أروع جدٌّ عجوز في العالم».

قالت بيث وهي ترتعد من وقع المفاجأة:

«لا أستطيع أن أمسك الخطاب، اقرئيه أنت يا جو».

فضّت جو الخطاب وبدأت تقرأ:

«الآنسة مارش العزيزة...

لقد حصلت في حياتي على أخفاف عديدة... ولكن لم يناسبني أيّ منها مثل الذي صنعته أنت لي. هذه هي ألواني المفضّلة والنقوش التي أحب. أودّ تقديم شيئ لك مقابل ذلك. كان هذا البيانو لحفيدتي الصغيرة المتوفّاة. فاسمحي لي بإهدائك إيّاه. صديقك وخادمك المخلص العجوز...

جيمس لورانس».

انتهت جو من القراءة ولا زالت بيث ترتجف من السعادة وقالت جو:

«يا له من شرفٍ عظيم إذ أخبرني لوري مسبقًا كم كان الجدّ يحبّ حفيدته التي ماتت، وأنّه يعتني بأغراضها

ويقدّسها، والآن يقدّم لك البيانو خاصتها. حسنًا لعلّك تشبهينها بزرقة عينيك أو بتولّعك الشّديد بالموسيقا».

قالت آيمي:

«والله إنه لشرف عظيم لي بأن يبدأ رسالته بالآنسة مارش العزيزة، ويختمها بصديقك وخادمك المخلص. سأخبر صديقاتي غدًا في المدرسة كي أتفاخر أمامهنّ وأتباهى».

فتحت ميج الغطاء وبدأت تتحسّس جماله، لقد كان بيانو جميلًا مع كرسيّ مستدير أنيق، وفيه مسند للشموع المعدنيّة ومسند آخر للأوراق، وكرّاس النّوتات.

طلبت الفتيات منها أن تبدأ بالعزف، وتحمّست هانا الطّاهية الّتي لا تفوتها أيّ من الأحداث، أصغيرةً كانت أم كبيرةً في منزل تلك الأسرة، وهتفت وسط الجميع:

«هيّا اعزفي لنا يا عزيزتي وأطربينا جميعًا».

جلست بيث على الكرسيّ المستدير وصمت الجميع ينتظرن سحر عزفها، وما أن وضعت أصابعها عليه حتّى انبعثت الأنغام الشّجيّة. لطالما كان عزفها رائعًا، فكيف الآن وقد أصبح لديها معزف فخم وجديد وبأوتار حديثة الضّبط ومشدودة بقوّة.

قالت جو:

«إيّاك أن تنسي الذّهاب إليه لتشكريه».

t.me/yasmeenbook

وقد غاب عن بالها أنّ أختها الخجولة لن تتجرّأ على فعل شيء كهذا.

قالت بيث:

«أجل. أعتقد أنّني سأذهب إليه حالًا قبل أن يأكلني الحياء والخوف لاحقًا».

وحدثت المعجزة الّتي أثارت دهشة العائلة وألزمتها الصّمت، وخاصّةً هانا التي قالت متعجّبة:

«لقد طار عقل الفتاة. لم أر بيث بهذه الجرأة في حياتي. لا أصدّق أنّها ذهبت».

خرجت بيث من منزلها ومرّت بالحديقة، ثم اتجهت نحو منزل السيّد لورانس، دخلته وطرقت باب حجرة المكتب.

صاح بصوتٍ قويّ:

«تفضّل».

توجّهت بيث نحو السيّد ومدّت يدها وقالت بصوتٍ يرتعش:

«جئت لأشكرك على....»

ولكنّها لم تستطع المتابعة بالرّغم من أنّه قد بدا لها حنونًا وودودًا للغاية... فعانقته. وفكرت بيث بحفيدته التي فقدها، فطبعت قبلة على وجنته.

تأثّر السيدِ لورانس كثيرًا بما بدر من الفتاة الصّغيرة الخجولة، لدرجة أنه لو رأى سقف غرفته يهبط لما تعجّب أكثر من تعجبه بتلك القبلة. شعر بدفئها حقًّا حيث أذابت قساوته الظّاهرة، أجلسها على ساقيه وكأنّه استعاد حفيدته مرّةً أخرى. زالت مشاعر الخوف في قلب بيث، فنظرت إليه نظرة العطف والشفقة على من فقد محبوبه. وتحدّثت معه دون تكلّف وكأنّها تعرفه منذ القِدم.

أرادت بيث الانصراف فرافقها السيّد لورانس نحو الباب وودّعها محنيًا أمامها، ولم يكتف بهذا بل ورفع قبّعته عن رأسه إجلالًا لتلك الصغيرة الحنونة.

شاهدت الفتيات بذهولٍ ذلك المشهد العظيم، فصفّقت ميج بيديها بقوّة وصاحت بأعلى صوتها:

«لا بدّ أنّ نهاية العالم قد اقتربت»

ورقصت جو ترفرف من زاوية لأخرى، وكادت آيمي تقع لشدّة انحنائها من النّافذة غير مصدقة ما يحدث في الدّنيا!

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل السّابع

آيمي في وادي الذّل

كثيرًا ما كانت آيمي تنطق بكلماتٍ خاطئة، وكانت تلك إحدى صفاتها المحبّبة والمميّزة. وذات يوم مرّ لوري أمام منزلهنّ، وكان يمتطي حصانًا ويتقلّد سوطًا جديدًا، كانت الفتيات في النافذة فرآهنّ وحيّاهنّ بلباقة، راقبته آيمي ثمّ قالت هازئة:

«إنّه يشبه العملاق تمامًا».

سألتها جو:

«ماذا تقصدين؟، يا لك من فظّة، إنّه ناعم ومتناسق وعيناه جميلتان!»

كانت جو تمقت بشدّةٍ أن يتكلم أحد بسوء عن صديقها.

ردّت آيمي سريعًا:

«أنا لم أتكلم عن عينيه. لماذا أشعلت الحرب هكذا! أنا أبدي إعجابي بمهارته في ركوب الخيل».

t.me/yasmeenbook

ضحكت جو وقالت بصوت عالٍ واصفةً أختها بالغبيّة:

«إذًا تقصدين المخلوق الأسطوري القنطور؟»

تداركت آيمي الوضع وقالت:

«على حدّ تعبير الأستاذ دافيز لقد كانت مجرّد زلّة لسان».

لم تحبّ آيمي استهزاء جو بها، فقطّبت حاجبيها للحظات بسبب الكلمة الخاطئة الّتي تفوّهت بها، ثمّ همست بصوتٍ خافِت لعلّها تلفت انتباههنّ:

«ليتني أملك قليلًا من المال الّذي ينفقه لوري على ذلك الحصان».

سمعتها ميج وسألتها:

«لماذا؟»

فقالت لها:

«نعم أنا غارقة في الدّيون، ويصعب عليّ أن أنتظر حتّى ينتهي الأسبوع لآخذ مصروفي،

وعليّ أن أؤمّن اثنتي عشرة ليمونة مخلّلة على الأقل لزميلاتي في المدرسة».

حاولت ميج أن تتعاطف معها فسألتها:

«هل أصبح اللّيمون عملة شائعة في المدارس هذه الأيّام، ولم ستشترينها لهن؟»

شرحت لها آيمي أنّ الليمون أصبح متداولًا بين الأصدقاء مقابل الأقلام الرصاصيّة والحلي والدّمى الورقيّة. الجميع يشترينه ماعدا البخيلات، وما أن يستدير المعلّم في الصّف أو ينصرف عنّهن، حتّى يخرجنه من أدراجهن ويمتصصنه، وإذا أحبّتك فتاة فشرفٌ كبير أن تضيّفك ليمونة، وإذا لم تحبّك فستأكلها أمامك فحسب.

«لطالما ضيّفتني الفتيات، وقد آن الأوان كي أردّ الضّيافة. لقد مرّ أسبوعٌ كاملٌ لم أقبل فيه منهنّ أيّة ليمونة كي لا يكبر الدين».

أخرجت ميج كيس النقود من جيبها وأعطتها ما تحتاج إليه لشراء الليمون، وشدّدت عليها ألّا تبذّر المال، مؤكّدة أنّه لا يأتي إلّا بشقّ الأنفس.

فقالت آيمي: «أشكرك من كل قلبي، والآن أصبح بمقدوري إثبات أنّني لست أقلّ من صديقاتي».

وفي اليوم التّالي تأخّرت آيمي في الوصول إلى المدرسة، إذ أنها توقّفت لشراء أربعٍ وعشرين ليمونة لذيذة. وفي المدرسة، انتشر خبر اللّيمون الذي أحضرته آيمي، فأغدقتها زميلاتها بالاهتمام، وأغرتها صديقتها ماري كنجزلي بأن تعيرها ساعة يدها لمدّة ساعة، كلّ ذلك كان من أجل الليمون.

وكانت هناك فتاة تدعى جيني سنو، كانت تسخر من

t.me/yasmeenbook

آيمي في السّابق وتعيّرها لأنها لا تجلب معها ليموناً، وتقول إنّه بالرغم من أن أنفها مُفلطح، إلا أنّه يشمّ طعام وحلويات الآخرين. لكن ها هي اليوم تعاملها بلطف، وتعرض عليها المساعدة في الفروض المدرسيّة، لكنّ ذلك لا يعني أنّ الأمر قد مرّ مرور الكرام.

انتقمت آيمي منها، وبعثت لها برسالة سريعة:

«اليوم ستدفعين ثمن ما لسعتني به من عبارات مقيتة. لن تحصلي منّي على شيء».

وليتها لم تفعل ذلك، فسرعان ما ردّت جيني الصاع صاعين، فوشت بها، فبالإضافة إلى مسألة الليمون فإنّ زائراً كان قد أعجب برسوم آيمي؛ فزاد ذلك من حقد جيني عليها، فما كان منها إلّا أن ذهبت للأستاذ دافيز وأخبرته عمّا في حوزة آيمي، فتوعّدها بالعقاب الشّديد.

كان السّيّد دافيز مدرّس رياضياتٍ ممتاز، ويتقن اللّغة اللّاتينيّة، لكنّه كان خشنًا جافًا يفرض سيطرته على خمسمئة فتاة، فقد منع مضغ اللّبان ومصّ السّكاكر. ومنع أيضًا القصص والجرائد والمجلّات وتناول اللّيمون المخلّل أو حتّى مجرّد وجوده في الصّف، ووعد من تسوّل لها نفسها بإحضاره بأشدّ العقاب. ولسوء حظّ آيمي فقد تضاعفت شراسته واشتدّ غضبه بسبب صداع شديد أوجع رأسه، وبسبب تقصير الفتيات في الحصّة

السّابقة أمام موجّه مدرسيّ حضر ليراقب سير الأمور التّدريسيّة.

هاج وثار الأستاذ دافيز أمام الفتيات، وكأنه دبّ ثائر قد هجم عليهنّ، أو مشعوذة شمطاء!!. عمّ الصّمت أرجاء الفصل، وأخذت الفتيات الخمسون يحملقن بالمعلّم خائفات وقال لهن:

«آنساتي أعرنني انتباهكنّ. آنسة مارش، تعالي إلى هنا من فضلك».

نهضت آيمي وكانت تشعر بالخوف الكبير لأنّها خالفت القواعد.

قال:

«أحضري الليمون من تحت مقعدك».

شعرت آيمي بذعرٍ أكبر، همست لها صديقة ذكيّة تنبّهها ألّا تأخذ الليمون كلّه. فذهبت وأخرجت من الكيس ست ليمونات، ووضعتها أسفل مقعدها، وأخذت الباقي إلى السّيّد دافيز الذي لم يكن يحبّ رائحة اللّيمون المخلّل، فازداد غضبًا على غضب.

قال لها:

«هل بقي شيء؟»

ارتبكت وخافت، ثم قالت مُرتعِشة:

t.me/yasmeenbook

«لا يزال هناك القليل».

«أحضري كلّ شيء».

ونفّذت أوامره. وأعاد عليها السّؤال إن كان لا يزال هناك شيء، فأجابته:

«كلا، إنني أقول الصّدق يا سيّدي».

وأمرها الأستاذ أن ترميها جميعها من النّافذة، فشهقت الفتيات حزنًا فقد ضاعت وليمة اللّيمون.

يا للخسارة!!، رمتها كلّها من النّافذة، اثنتين في كلّ مرّة، وتساقط اللّيمون وسالت منه عصارته وملأت رائحته المكان.

لم ينته الأمر هنا، فعندما أنجزت مهمتها أمرها المعلّم:

«مدّي يدك آنسة مارش».

انتفضت آيمي، وبالرغم من أنّها كانت من المُفضّلات عنده، لكنّ ذلك لم يجدها نفعًا، ووضعت يديها خلف ظهرها وتمتمت دونما وعي بسبب الخوف والألم، إلى أن استجمعت قواها ومدّت يديها وتلقّت الضربات بروح أبيّة تواجه المصائب. وعلى الرغم من أنّ هذه كانت المرّة الأولى الّتي تُضرب فيها، لكنها كانت تتلقّى الضّربات واحدة تلو الأخرى دون أن تظهر أي ألم أو خوف. لم يكتف الأستاذ بذلك، بل جعلها تقف على المنصّة إلى أن يحين وقت الاستراحة.

يا للخزي!! يا للعار!! تقف ذليلة أمام الفصل كلّه ويشاهدها أصدقاؤها وأعداؤها. ولكونها المرّة الأولى التي تتعرّض فيها لمثل هذا الموقف، ولشدّة خجلها، فقد ركّزت على الموقد الموجود آخر الفصل، حتى ترتاح من تلك النظرات التي كانت متسلطة عليها، ونالت عقابها بصمت.

كان قلبها ينزف دمًا، ويدها تؤلمها، لكن العذاب الأكبر عندما تعود للمنزل وترى في عيونهن أثر الشعور بالخيبة.

ما يحدث في الصّغر لا تمحوه سنون طوال. مرّت الدقائق العشر الأولى عليها كالدّهر، ورنّ جرس الاستراحة، نظرت آيمي للأستاذ نظرة بألف معنى لن ينساها طول حياته لو أنّ فيه ذرّة رحمة، ثمّ ذهبت لمقعدها وجمعت أغراضها وعزمت على ألّا تعود إلى المدرسة ثانيةً.

عادت آيمي إلى المنزل، ولم تجد المسكينة ما يخفّف عنها الألم ويسكّن من روعها، وكانت لا تزال غاضبة في الظّهيرة. عندما عادت أمّها وأخواتها داوين يدها المتقرّحة وروحها المجروحة. لقد كنّ حزينات لحزنها وقالت هانا:

«ينبغي أن يكون المعلّم فاضلًا وهذا ليس إلّا وغدًا لعيناً».

لم يلحظ أيّ أحد في المدرسة أنّ آيمي قد انصرفت حتّى عادت ترافقها جو، وتحمل معها رسالة من أمّها وأخذت بقيّة حاجات شقيقتها وغادرت بعدما أكّدت لهم

t.me/yasmeenbook

السيّدة مارمي أنّ بإمكان ابنتها الدّراسة وحدها في المنزل مع بيث.

قالت آيمي:

«هذا رائع ليت كلّ من في المدرسة يتركونها وتصبح خاوية على عروشها. وا أسفاه على ذلك اللّيمون الّذي لم أتذوقه وكان سببًا في معاناتي».

قالت لها الأمّ بحكمة:

«لا أريد أن أخيّب أملك، ولكنّك استحققت ذلك، فقد خالفت التعليمات».

فصاحت آيمي:

«هل تشمتين بي لما أصابني يا أمّي؟»

قالت السيّدة مارمي:

«بالطّبع لا يا حبيبتي، أنا ضدّ فكرة الضرب أصلًا، فكلّنا نعلم أنّ القسوة لا تولّد إلّا القسوة، لكنّك تجمحين بغرورك وأرى أنّ نفسك تحتاج إلى القليل من التّرويض والتّقويم».

كان لوري يلعب الشّطرنج مع جو في الغرفة، ويستمع لحديث الأمّ وابنتها، فقال:

«بالضبط أعرف فتاة تتمتّع بموهبة كبيرة في العزف، وتؤلّف الأغاني، ولكنّها تجهل قيمة نفسها».

فكّرت جو للحظة وقالت:

«يا ليتني أعرفها فتعلّمني قليلًا».

قال لوري: «ولكنّك تعرفينها بالفعل، وهي تساعدك أكثر من أيّ أحد». ولمعت عيناه الماكرتان السوداوان، واحمرّت وجنتا بيث خجلًا عندما علمت أنّها هي المقصودة بذلك الإطراء الحسن.

وكمكافاةٍ له على مديح أختها، سمحت له جو بالتغلّب عليها. وبعد ذلك الخجل الذي أحدثه إطراء لوري ومديحه، لم ينجح أيّ أحد بإقناع بيث بالعزف والغناء، فغنّى هو وعزف.

بعد أن غادر لوري سألت آيمي عن سبب تواضعه على الرغم مما أحدثه من إنجازات طيبة وأفعال محمودة. أجابتها السيّدة مارمي إنه فتى جيد لأنه استغلّ مواهبه بصورة متواضعة.

وقالت جو: «إنّ من يتباهى ويتفاخر بما لديه وبما أنعم اللّٰه عليه من وافر النّعم، ما هو إلّا كالمختل الّذي يقلب خزانته رأسا على عقب ليرتديها كلّها دفعةً واحدة فوق بعضها بعضاً. تخيلن المنظر معي».

قهقهن جميعهنّ. وأمعنت آيمي التّفكير طويلًا في ملاحظة أمّها هذه فقد أثّرت فيها كثيرًا.

إنّ الإنسان اللّمّاح هو من يقرأ ما بين السطور.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثّامن

جو والشّيطان.. شجار عنيف

كانت كل من جو وميج تستعدّان للخروج في عصر يوم السّبت لقضاء أمسيتهما في الخارج، وقد اكتظّت غرفة نومهما بالقفّازات والأوشحة والدّبابيس.

دخلت عليهما آيمي التي كانت شديدة الحشريّة وتتدخّل في كل شيء، فما إن رأتهما حتّى انهالت بالأسئلة:

«يبدو أنّكما تنويان الذّهاب إلى مكان ما، أشمّ رائحة حفلةٍ أو أمسية، إلى أين؟»

أجابتها جو بحدّة:

«وما شأنك أنت؟ لا يجب ألّا تطرح الفتيات الصغيرات الأسئلة».

ومع ذلك كانت آيمي تشعر بالفضول الشّديد، ولما كانت جو حادّة الطباع توجّهت آيمي إلى ميج الأكثر مرونة، وقالت لها بدلال:

t.me/yasmeenbook

«رجاءً اسمحي لي بمرافقتكم يا ميج، فبيث تلعب مع دُماها، وليس هناك ما أفعله».

أجابتها ميج: «لا أستطيع اصطحابك لأنّك لست مدعوّة».

ثمّ حسمت لها الأمر جو: «تحلّي باللّياقة يا فتاة، وكفاك إلحاحًا.

ببساطة لا يمكنك المجيء».

وافقت ميج أختها حيث قالت:

«إنّك تؤخّريننا عمّا نريد فعله، هيا كفى إزعاجًا».

جلست آيمي بهدوء، ثمّ شهقت وقالت: «إنّه المسرح؟، أليس كذلك؟، بالله عليكما هل ستذهبان لتحضران تمثيليّة: «القلاع السبع»، أرجوكما خذاني معكما، فمعي مصروفي وأستطيع أن أدفع ثمن البطاقة، وقد سمحت لي أمّي بالذهاب لأرى العروض المسرحيّة!»

ندّدت آيمي بتصرّفهما واصفةً إيّاهما بالخبيثتين. تنفّست ميج الصّعداء وأجلستها وشرحت لها برفق ولين:

«إنّ أمّي لا تريد أن تذهبي اليوم معنا لأنّك لست بخير، ولن تحتمل عيناك ضوء المسرح الشديد، وأؤكّد لك أنّك ستشاهدين المسرحيّة الأسبوع المقبل مع بيث وهانا، وسوف تستمتعين بوقتك دون شك».

صاحت آيمي:

«ولكنّ الأمر لن يكون ممتعًا مثلما سيكون معك ومع لوري وجو. لقد أصبت بنزلة بردٍ منذ أسبوع وضقت ذرعًا من المكوث في المنزل، أريد أن ألهو قليلًا».

لانت ميج قليلًا حيث كانت تحنو عليها دائمًا وتظلّلها بجناحيها، فتوجهت نحو جو قائلة:

«ما رأيك؟، هل نأخذها؟. وطبعًا إن فعلنا سنجعلها ترتدي ملابس كثيرةً كي تقيها البرد».

وهنا ازدادت جو غضبًا وقالت:

«إن ذهبت هي فأنا لن أذهب، وسينزعج لوري إن لم أحضر وألبّي دعوته. إن الدعوة لنا فقط نحن الاثنتين، لِمَ لا تفهم تلك الطّفلة المتطفّلة المدلّلة».

ولكنّ آيمي لم تلق بالًا لكل ذلك الكلام، ولبست حذاءها استعدادًا للحفل.

أصرّت آيمي على الذهاب معهما، وبالمقابل وأصرت جو على قرارها، ومما زاد من غضبها أنّها وخزت إصبعها على إثر ما سبّبته لها آيمي من ضغط وتوتّر.

قالت جو:

«هناك مقعدان واحدٌ لي وآخر لميج، هل فهمتِ؟. لو كان لوري يريدك معنا لابتاع لك بطاقة وحجز مقعدًا، لماذا تفرضين نفسك على الآخرين؟»

t.me/yasmeenbook

بدأت آيمي بالبكاء والعويل مثل الأطفال الصغار لدى وصول لوري لاصطحاب الفتاتين. حاولت ميج امتصاص غضبها وتهدئتها ولكن دون جدوى، ركضت وراءهما وتوعّدت جو:

«سأجعلك تندمين على هذا يا جو».

صاحت جو:

«كفاك سخافة.» وخرجت الفتاتان وبقي الجوّ مشحونًا بما حملته كلٌ من جو وآيمي من مشاعر سلبيّة متأجّجة تجاه بعضهما بعضاً.

وصلت كل من جو وميج إلى المسرح، ولم تلقيا بالًا لذلك الإزعاج الذي سبّبته لهما أختهما الصغيرة، حيث استمتعا بمسرحيّة «القلاع السبع.» وكانت جو تشاهد العرض وتنصت بقلبها، وكان ذلك العرض مسرحيّة بحقّ، وليست مثل الّتي تقدّمها جو وأخواتها، فيها كلّ ما تتمنّى من أمراء وأميرات وأشباح وملابس برّاقة ومناظر خلّابة. وكانت البطلة حسناء رائعة ذات شعر ذهبيٍّ طويل، وهنا تنغّصت فرحة جو عندما تذكّرت أختها آيمي وقالت في سرّها:

«تلك المجنونة هل تراها تفعل حماقةً ما؟»

عادت الفتاتان إلى المنزل بعد انتهاء المسرحيّة، كانت

آيمي تقرأ في غرفة المعيشة وقد عزمت على مخاصمتهما، حيث كان لآيمي سوابق في أعمال الشغب، فذات مرّة جمعت فساتين جو من الأدراج ونثرتها في الغرفة، لذلك هرعت جو لغرفتها لتتأكّد من أنّ كلّ ما في الحجرة بأفضل حال، وقالت لنفسها:

«كلّ شيءٍ يبدو طبيعيًا. الحمد للّٰه أنّ تلك المشاكِسة لم تفعل شيئًا مُخزياً».

ولكن على عكس ما توقّعت جو، فقد كان من المستحيل على آيمي الصّغيرة ذات الطّباع العدوانيّة أن تسكت على منع جو لها من مرافقتهما، أو أن تمرّر الموقف بسلام، خاصّةً أنّ ميج قد لانت وقتها. حيث فقدت جو أحد كتبها القصصيّة، وعلى الفور اقتحمت غرفة المعيشة لتبحث عنه بعد أن ساورتها الظنون فصادفت ميج، وسألتها:

«هل كتيّب القصص معك؟»

قالت ميج:

«كلّا».

ثمّ رأت بيث وسألتها أيضًا:

«وهل هو معك يا بيث؟»

قالت بيث:

«كلا. لم ألمسه حتّى».

t.me/yasmeenbook

فاستدارت ورأت آيمي تلقي أوراقًا في المدفأة فتأكّدت من شكوكها.

«أنت؟، آيمي أجيبي حالًا أين الكتيّب؟».

قال آيمي منكرةً:

«كلّا. لم أرَ شيئًا».

صرخت عليها جو وهزّتها بعنف:

«أيّتها الكاذبة أين هو؟ أين أخفيته؟»

قالت إيمي:

«لا تتعبي نفسك. لقد أصبح من الماضي».

فاستشاطت جو غضبًا وشحب وجهها، أمسكت بكتفي أختها

وهزّتها بقوّة وانفجرت صارخة:

«أحرقته؟!»

«لقد سهرت اللّيالي طوال شّهور وأعوام لكي أنهيه قبل مجيء والدي، وألقيته أنتِ هكذا ببساطة في النّار؟!!»

قالت إيمي:

«قلت لك ستدفعين الثمن».

وانهالت عليها جو وقد تطاير الشرر من عينيها حتّى باتت أسنان آيمي تصطكّ رعبًا:

«أيّتها الشّرّيرة اللّعينة، لم تحرقيه هو فحسب بل أحرقت حلمي، أملي. كيف سأكتب غيره؟، لقد دمّرت تعبي. لن أسامحك أبدًا».

أنقذت ميج أختها من قبضة جو بعد أن لكمتها عند أذنيها، وحاولت بيث تهدئة الجوّ قدر المستطاع، وخفّفت عن جو مصابها وواستها. ولكنّ جو اعتزلت جميع أفراد الأسرة، واعتكفت في العلّية تندب مأساتها وحدها.

عمّ التّوتّر أرجاء المنزل، وعزفت بيث على البيانو لكنّ جو ظلّت صامتة وأخذت الأمّ وميج أيضا موقفًا حادًّا من آيمي ومن فعلتها القبيحة، حتّى أنّ السيّدة مارمي بكت بحسرةٍ على ضياع مجهود ابنتها الحبيبة جو. لم يبق لآيمي أيّ حلفاء، وحزنت كثيرًا على ما اقترفته يداها. فالآن لن يفيد النّدم، وخاصّةً عندما أدركت أنّ أختها جو لم تكن تحتفظ بأيّ نسخ بديلة عن الكتيّب بعد أن ألغت النّسخ القديمة كي تصبّ الأفكار كلّها في كتيب واحد جامع شامل.

فكّرت آيمي مليًّا ماذا عساها تفعل، إلى أن حان وقت العشاء وكانت لحظاتٌ لا تحتمل، رأت جو مقبلة تجرّ أذيال الخيبة تكفي أذيال الخيبة وراءها فتشجّعت قليلًا وطلبت منها السماح.

ولكن محال أن تسامحها جو، ولن تفكّر في ذلك

t.me/yasmeenbook

مطلقًا، فلا يوجد أصعب من أن يدمّر لك أحدهم مجهودك وأحلامك.

قالت السّيدة مارمي ووافقتها ميج الرأي:

«لا فائدة من الاعتذار الآن، وكأنّك بذلك تصبّين الزيت على النّار، ما فعلته لا يُغتفر، وعليك أن تنتظري حتّى يهدّئ الزّمن من غضبها وينسيها مرارة ما ألحقته بها من أذى».

وعندما صعدت جو لغرفتها لحقت بها أمّها وقبّلتها قبل أن تخلد إلى النّوم، وهمست في أذنها:

«لا تخلدي إلى النّوم وأنت غاضبة يا عزيزتي، المسامح هو أكثر الناس كرماً. يحدث الكثير من الأمور بين الأخوة، لا تنسي أنّها أختك وحاولي أن تغفري لها رجاءً».

أرادت جو مسامحتها ولكنّ غضبها وهياجها ما زالا يمنعانها، وحاولت أن تبكي، لكنّ الرّجل القابع بداخلها أبى إلّا أن يحبس دموعه ويكبتها فلا يظهر ضعيفًا أو مكسورًا، وقالت بصوتٍ عالٍ بما يكفي كي تسمع آيمي:

«لقد ارتكبت أشنع خطأ، أنها لا تستحقّ السّماح».

مرّ ذلك الوقت المرير من فصل الشّتاء على نحوٍ سيّء، وزاد من الطين بلّة أنّ البرد كان قارساً يفتك بالأجساد، استيقظت جو تشعر بالبرد ينخر جسدها، أخذت معطفها وتوجّهت لعمّتها لتكابد معها عناءً مريرًا من نوعٍ آخر.

قالت تحدّث نفسها المتعبة:

«إلى متّى عليّ أن أحتمل تلك العجوز؟!!، وكأنّ مصيبةً واحدةً لا تكفي».

ولم تكن الفتيات في حالٍ أفضل من حال جو، فالجميع كان حزينًا لما أصاب أختهم المسكينة، أمّا آيمي المغرورة، وبالرغم من ندمها على فعلتها وحزنها الشّديد لما تسبّبت به، إلّا أنّ بذور الكبرياء عادت لتنمو فيها من جديد، فعزّ عليها ألّا تغفر لها أختها ذنبها، فعادت تستعرض نفسها وفضلها، حتّى إنّها راحت تطعن بجو مدّعية أنّها ليست طيّبة، ولو كانت كذلك لغفرت لها.

عادت جو من عملها كالمعتاد بعد أن لاقت ما لاقته من أسىً مضاعف سبّبته العمّة بطلباتها وملاحظاتها الحادّة، وكان البقاء في المنزل يضاعف من حزنها وضيقها، ولم تكن تحتمل أيّ أحد فيه. ففكّرت في أن تذهب للوري وتدعوه للتزلّج، فسحبت حذاء التّزلج من الخزانة وانطلقت إلى لوري، وعندما رأتها أختها آيمي تحسّرت بشدّة لأنّ جو كانت قد وعدتها أنّها ستأخذها معها، ولكن بالطّبع كان ذلك قبل وقوع تلك المصيبة.

قالت آيمي:

«أتمنّى أن أذهب للتزلّج، ليتني لم أرتكب تلك الحماقة».

t.me/yasmeenbook

قالت لها ميج وقد كانت تحيك وتطرّز شيئًا ما:

«انظري يا آيمي، لديّ فكرةً أظنّها سديدةً وقد تجدي نفعًا، خذي حذاءك الجليديّ أنت أيضًا واذهبي وراءها، واطلبي من لوري أن يتدخّل لمصالحتكما؛ وإن لانت احضنيها وقبّليها بحنان، وسيعود كلّ شيءٍ كما كان».

ثمّ نبّهت أختها أن تكون رقيقةً معها وألّا تبادر تجاهها إلّا إذا وجدتها قد انفرجت أساريرها.

أعجبت آيمي بالفكرة فليس لديها أيّ خيارات أخرى، وقالت لميج:

«سأحاول. سوف أتبعها».

وذهبت آيمي خلفهما، وكانت جو تلعب بالثّلج وتحاول تخفيف وطأة الألم عن نفسها، قال لوري لها بعد ان أجرى جولة تفقّديّة على الجليد ليختبر أيّ المناطق صالحة للتزلّج:

«تزلّجي على الأطراف، أعتقد أنّ منطقة الوسط غير آمنة».

قالت جو:

«حسنًا».

واستدارت جو قليلًا لترى آيمي تعاني مع الثّلج، حيث لم يكن لديها أيّ خبرة في التزلّج سابقًا، ولكنّ جو انصرفت عنها ولم تأبه بها بل وقد سُرّت لما تواجهه أختها

من مصاعبٍ، ولكنّها في النهاية أختها، فامتزج سرورها ببعض الأسى.

حاولت آيمي أن تلفت انتباه أختها، فضربت الأرض بقدميها مصدرةً أصواتًا مرتفعةً بعض الشيء ولكن دون فائدة. ثمّ انشغلت آيمي بارتداء الحذاء ولكن بصعوبةٍ بالغة.

سمعت جو تحذيرًا آخر من لوري، ولكنّ آيمي لم تسمع شيئًا إذ كانت بعيدةً عنهما قليلاً، وقد انشغلت في محاولة الوقوف فوق الجليد المصقول، أمّا جو فقد تمكّنت منها نفسها الشّيطانيّة وسيطرت على الجزء الغاضب داخلها، فجعلها ذلك لا تأبه لما قد تتعرّض له آيمي من خطر بالغ.

ودمدمت بصوتٍ خافتٍ تحدّثها نفسها الأمّارة بالسوء:

«لم ترحمك عندما أحرقت تعب السّنين، لتتدبر أمرها، لا عليك منها».

وفعلاً وقعت المصيبة بسرعة، إذ تزلّجت آيمي في منتصف المنطقة فوق النهر وسقطت فيه لأن الجليد كان لينًا، فانزلقت في المياه، استدارت جو بعد أن سمعت صوت تكسر الجليد لترى أختها تغرق، ذهلت جو وانصدمت وفتحت فمها تستغيث بلوري، ولكنّ الفزع أذهب كلّ حواسها ولم تقوى على النّطق، بينما صرخ لوري وقال:

t.me/yasmeenbook

«أسرعيْ! أحضري لوحًا من الخشب!»

فعلت جو ما أمرها به لوري وأحضرت الخشب، وحاول الاثنان جاهدين إخراج آيمي، وكانت جو مذهولة لا تعلم كيف وماذا تفعل، ولكّن لوري رابط الجأش حازم وقويّ، فتمدّد على حافة النّهر وأمسك يدها كي يرفعها قليلًا لتتمكّن من التّنفس.

تمّت عملية الإنقاذ أخيرًا، وكانت آيمي في حالةٍ مزرية وخائفة ومذعورة، عدا الألم الذي سبّبه الماء المتجمّد لها. رفعها لوري بمساعدة جو وغطّاها بمعطفه الكبير وأرسلها للمنزل مع جو، ثمّ تبعهما بعد جمع أشيائهما.

عادت آيمي إلى المنزل متأبّطةً ذراع جو، وهرع كلّ من فيه يساعدنها على الدخول، وكانت شاحبة اللّون وترتجف وتبكي ويقطر الماء منها. نامت أمام المدفأة بعد أن غطّوها بالبطانيات ونعمت بالدفء والسّكينة، بينما كانت جو تركض هنا وهناك من أجل تأمين كلّ وسائل الرّاحة لأختها آيمي وتضميد جراحها، فلا تزيح نظراتها الحنونة عنها، وقد نسيت نفسها ووضعها الرهيب حتّى أنّها لم تنتبه لثوبها الممزّق ويديها المتقرّحتين.

سألت جو بخوف:

«أهي حقًّا بخير؟»

قالت الأمّ:

«لا تقلقي يا عزيزتي، إنّها بخير وأعتقد أنّك أشدّ إصابةً منها. دعيني أرى يديك المجروحتين».

وأخذت السيّدة مارمي تداوي جروح جو وتثني على حسن تصرّفهما هي ولوري بأن أسرعا في تغطية آيمي. لو لا ذلك لاستبدّ البرد بالجسد الصغير النّاعم وفتك بصحّتها.

قالت جو:

«إنّ لوري يستحقّ الشّكر أكثر منّي بحقّ، فهو من أنقذها حين أسرع باستخدام عقله وقوّته. أمّا أنا فلا أستحقّ الشّكر أبدًا، بل عليك أن تلوميني ولو كانت الصغيرة ماتت لكنت أنا المسؤولة الوحيدة. آه يا أمّي يكاد قلبي ينفطر عليها، لقد خطر لي أنّها قد تنزلق وتغرق ومع ذلك ما حرّكت ساكنًا. لديّ خلق ثائر وقلبُ قاس يرمي بي في الويلات والمصائب، قولي لي ماذا أفعل كي أكبح جماح عقلي وقلبي الثائرين. أمّي أريد أن أقتل شيطان نفسي الّذي قد يهلكني يومًا حيث لا ينفع النّدم ساعتها. يجب أن ترشديني لطريق الخلاص، وإلّا سأذهب للجحيم يومًا، فلا تنفعني توبةً أو ندم».

ارتمت جو في حضن والدتها وبكت بكاءً مرّاً شديدًا، ولم تلق بالًا هذه المرة للرجل السّاكن داخلها الذّي يكبتها دائمًا، فيزيد من عاصفتها وتصلّبها.

t.me/yasmeenbook

عانقت الأمّ ابنتها واحتضنتها بحنانٍ بالغ وقبّلتها على وجنتيها الممتلئة بالدّموع، وقالت لها:

«ما سأقوله قد يصدمك يا عزيزتي، فقد اعتدت أن أكون حادّة الطّباع مثلك تمامًا، ولطالما حاولت أن أتخلّص من ذلك، إلّا أنّ الأمر قد أخذ منّي أربعين عامًا أو أكثر، وبالكاد أنجح بالتّحكم بانفعالاتي».

وأخذت أمّها تصف لها حالتها وكأنّها تصف لها حكمة حياةٍ كاملةٍ وتجربة عظيمة، لا يستلهم منها إلّا الأتقياء الورعين. كانت الأمّ أيضًا تغضب خاصّةً لما تلاقيه من العمّة مارش، ولكن بدل أن تعاندها وتثور فتتأزّم الأمور، كانت تخرج من الغرفة مثلًا لبضع ساعاتٍ، وتترك الصمت والوقت يبرّدان الموقف فينعم الجميع بالسّكينة والهدوء.

قالت مارمي لها ثانيةً:

«من منّا لا يغضب أو يسأم أو تضيق به الحياة؟، ولكن عليك أن تتحلّي دائمًا بالصبر والهدوء. كلّ يوم أستيقظ فيه أجدد العهد لنفسي، فأقتلع شتلة الهيجان من جذرها، ولو أخذ مني الأمر ما تبقى من عمري. إنّ بلوغ الكمال لعمري هو أسمى الغايات، ولا بدّ من الكفاح والنّضال في سبيل تلك الراحة المطلقة».

أحسّت جو بالراحة تغمر قلبها التعيس، واستمدّت من

أمّها شعلة الأمل وحسمت أمرها بأنّ تحذو حذوها من الآن فصاعدًا.

وفتحت الأمّ قلبها لابنتها وحدّثتها عما عانته في صغرها، فقد فقدت أمّها الحنونة المعطاءة في الصّغر لتتحمّل مشاقّ الحياة وحيدةً، قالت:

«لقد كان موتها أوّل انكسار في حياتي، ومضت بي سنينٌ طوال لا أكاد أجد من أعوّل عليه، ولم أُوفّق كثيرًا إلى أن جاء أبوكنّ فقلب حياتي وألبسني ثوب النعمة، وقد كنت أنا للنعمة خير إنسانة فعشت حسنة الخلق والخُلق».

لقد كان السّيّد مارش رجلًا صبورًا مجتهدًا مؤمنًا، ولا ينتظر السعادة أن تأتي إليه بل يذهب هو إليها ويبذل في سبيلها قصارى جهده. كان يعين زوجته ولا يتأخر في تقديم العون لكلّ من يحتاج ذلك، وهو من علّمها الفضائل، وها هي تعلّمها لفتياتها الآن، كي يحملن الراية من بعدها، ثمّ يعلّمنها لأطفالهم. وكان يرشدها دائمًا ويوجّهها بحركات لطيفة قد تفيدها. كأن يضع أصابعه على شفتيها، وينظر إليها بعطفٍ وحنان كي تكبح جماح غضبها إذا ما رآها مقبلةً على ثورةٍ ما.

ثمّ قالت لابنتها بتأثّر مختتمة:

«لقد رزقت بكنّ، ويا لها من نعمةٍ عظيمة، ولكنّني أحزن لحرمانكنّ من متع الحياة بعد أن أفلس والدكنّ».

t.me/yasmeenbook

قالت جو:

«أقسم بالله يا أمّي لو امتلكت نصف ما لديك من حسن الأخلاق لكنت بألف خير».

ضمّتها أمّها ثانيةً وقالت:

«ما عليك إلّا أن تقتلي الوحش الكاسر الّذي بداخلك حتّى لا يخرّب عليك حياتك. ما حدث اليوم كان إنذارًا صغيرًا، والإنسان الصالح والذّكي من يستفيد من دروسه ويقوّم من نفسه. إن فعلت ذلك أضمن لك أنّك قد تفوقينني، وتصبحين مثالًا للصلاح يُحتذى به».

وتأثّرت الأمّ عندما تذكّرت زوجها الحبيب وفاض بها الشّوق إليه.

قالت جو:

«أعتذر أنّني ذكّرتك ببابا وحرّكت مشاعر الحزن والألم في نفسك. أمّا بالنسبة لي فلن أتوانى عن قتل كلّ الوحوش الّتي تبطش بي وتقتل حناني ورحمتي على النّاس، أرجو أن تبقي لي عونًا ورشدًا، وإن تطلّب منك الأمر أن تراقبيني بصمت فلا أبالي، المهم أن أبلغ غايتي وأصل لهدفي المنشود».

وخطر لجو سؤالٌ وجيهٌ: «كيف لأمّها أن تحتمل غياب زوجها». وقالت لها:

«أمّي، ليتك لم تسمحي لأبي بالذهاب للحرب. ليته بقي بيننا. آه يا أمّاه كيف تحتملين فراقه؟»

أجابتها الأم بذكاء حاد كي تعلّمها فضيلةً أخرى ألا؛ وهي التّضحية:

«إن كنت صابرةً على الهجران، فذلك لأن في الحياة ما هو أهمّ وأسمى، لقد تركنا أبوكنّ وضحّى بغيابه، ذلك حتى لا يفقد أطفال آخرين آباءهم، ومن أجل وطنه وكرامته وحقوق من في البلد كلها.

«هناك أشياء مهمّة ولكن هناك ما هو أهمّ، اللّٰه دائمًا معنا وسيعيننا دائمًا ما دمنا في عون إخواننا، الوطن يحتاج رجاله، ولا بدّ من التّضحية في سبيله. لا أنكر أنّكنّ تعانين وتكابدن معي أهوال الحياة ومشقّاتها ومشقّة فراق ربّ هذا المنزل، ولكن هذه هي الحياة يومٌ حلو ويومٌ مرٌّ».

«اجعلي قلبك بحرًا من السلام والعطاء، وساعدي الناس واعطفي عليهم تنعمين بحياةٍ مباركةٍ لا تشوبها شائبة. هذه نصيحتي وكلماتي لك ولن تجدي من يعطيك أفضل منها».

هدأ قلب جو واعتلته السّكينة والوقار، وأخذت عهدًا جديدًا على نفسها أنّها لن تضيّع ما أوصتها به أمّها طوال حياتها. لقد أرشدتها إلى الطريق المستقيم الذي لا يضل من يتبعه أبدًا دونما أن تسألها الأجر على ذلك. هناك الكثير

t.me/yasmeenbook

من النّاس يلقون أنفسهم في الهاوية لأنّهم لا يجدون من يرشدهم أو يدرّبهم بصدق.

قالت جو بحنان وعزم:

«من اليوم لن أعصي لك أمرًا يا أمّاه. أنا جو الجديدة الرقيقة المعطاءة الهادئة الوقورة».

فتحت آيمي عينيها ومدّت يدها إلى جو بابتسامة اخترقت قلب جو على الفور. تعانقتا وسامحت كلّ منهما الأخرى، ونسيتا كلّ شيء بقبلةٍ من القلب، ولم تنطقا بكلمةٍ واحدة ولكنّ قلبيهما نطقا بحبّ وحنان وكأنّ كل واحدةٍ قالت للأخرى:

«هل سامحتني يا أختي؟ سامحتك يا حبيبة قلب أختك!!»

الفصل التّاسع

متاع الغرور

حلّ شهر نيسان على البلدة الخاملة، وتحسّنت الأحوال الجويّة أخيرًا، وكانت ميج تستعدّ لقضاء أسبوعين بمنزل آني موفا بعدما أصيب أطفال أسرة كينج الذين ترعاهم بمرض الحصبة، لذا فقد أشرفت ميج على قضاء عطلةٍ لم تكن بالحسبان، أتتها على طبقٍ من فضّة. في البداية تردّدت السّيدة مارمي في السّماح لها بالذهاب إلى عائلة موفا، خشية أن تعود مارجريت بعد زيارة أولئك الأثرياء أكثر تذمّرًا من أيّ وقتٍ مضى، ولكنّ ميج استعطفتها وتوسّلت إليها كثيرًا، خاصّةً أنّ صديقتها سالي جاردينر قد وعدتها بأن تعتني جيّدًا بميج.

قالت الأمّ أخيرًا:

«إذًا فلتذهبي وترفّهي عن نفسك يا ابنتي».

ساعدت الشّقيقات الثلاث ميج على الاستعداد للرحلة.

t.me/yasmeenbook

أعارتها جو قميصها الجديد وكان الوحيد الصّالح ممّا تملك، فكلّ ملابسها وأدوات الزّينة خاصّتها قد أُفسدت بالكامل بسبب سوء الاستخدام. صاحت جو وهي تطوي تنّانير ميج:

«أسبوعان كاملان من الاستمتاع. يا للعظمة. الحمد للّه أنّ صديقتك أوفت بوعدها الّذي قطعته لك ولم تهمل الأمر. أختي العزيزة خذي قميصي والبسيه تحت فستانك وزيّنيه بحزام أمّي الأنيق. كنت سأعطيك السوار المرجانيّ ولكنّه تلف للأسف».

قالت آيمي:

«ليتني أتلقّى مثل تلك الدّعوة، فأرتدي ما أحبّ من فساتين وزينة».

أمّا بيث فقد أعطت أختها صندوقًا وشرائط ملوّنة، وحمدت اللّه أنّ الطّقس جميل كفاية حتى لا يعكّر صفو أختها برد أو أمطار.

نظرت إليهنّ ميج ببالغ الامتنان والشّكر وقالت:

«ما أكبر حظّي بأخوات مثلكنّ، لن أنسى شيئًا مما قد يحدث معي في هذه الرحلة إلّا سأحفظه وأقصّه عليكنّ عندما أعود، لقد أغدقتن عليّ عطفكنّ ولم تبخلن بشيء. كم كنت أتمنّى لو كان هناك دعوات لكن أيضًا، ولكن للأسف إنّها دعوةٌ واحدة لي فقط».

سألت إيمي:

«ماذا أعطتك أمّي من صندوق الكنوز والتحف خاصّتها؟، فأنا لم أرَ شيئًا لأنّني كنت خارج المنزل».

أجابت:

«الجورب الحريريّ الطويل وذلك الوشاح الأزرق المزخرف والمروحة اليدويّة، ولو كان هناك متّسعٌ من الوقت لأخذت قطعة القماش الحريريّة البنفسجيةِ وخيّطت منها فستانًا جديدًا، ولكنّي تأخّرت وسأبقى بفستاني القديم هذا».

«كان هناك عقد لؤلؤي رائع ولكنّ أمّي لم تقبل أن آخذه، تظنّ أنني ما زلت صغيرة وعليّ أن أتزين بالورود والأزهار. حسنًا حمدًا للّه أنّها متوفرة بكثرة لدى لوري. بالتأكيد سيعطيني ما أريد».

وكان الصّندوق قديمًا جدًّا وأثريًّا من خشب الصنوبر، ولم تفتحه الأمّ منذ أمدٍ بعيد إلى أن جاءت اللحظة وفتحته للمرّة الأولى من أجل ميج، وقد احتفظت الأمّ داخله بكلّ التّحف الغالية والمجوهرات الثّمينة، حتّى توزّعها على بناتها في الأوقات المناسبة.

نظرت ميج بحزن إلى أكوام الزينة والملابس أمامها، فلم يكن من بينها شيء واحد على مستوىً عالٍ من الجمال أو الحداثة والجودة.

t.me/yasmeenbook

وبالرغم من أنّها جمّعت كلّ أغراض إخوتها الجديدة كلها بالإضافة إلى أغراضها، إلّا أنّها كانت غير راضية فريشتها تلفت قليلًا، وفستان البوبلين كان سميكًا نوعًا ما ولا يناسب الطّقس الربيعيّ.

واستها آيمي بعد أن حملقت طويلًا في كلّ ما حصلت عليه ميج وأثنت على فستانها الموسلين الجميل الأبيض قائلة:

«ارتدي هذا الفستان في الحفلات وسوف تنافسين الملائكة بحسنك وجمالك».

ردّت ميج:

لكنّه بحاجة للإصلاح، كما أنه قصير وفتحته ضيّقة، وحقيبتي من طرازٍ قديم وقبّعتي ليست كالتي تملكها سالي، هذا كلّه مشكلة ومظلّتي هي المشكلة الأكبر فأنا أكره لونها الأصفر ومقبضها الأخضر، وإن كنت أصبر عليها فذلك فقط لأنّ أمي من اشترتها، وأذكر كم عانت في تأمين ثمنها.

قالت جو:

«إذًا اتركيها وخذي مظلّة أمّي الحريريّة المذهّبة!»

ولم توافق على هذا الاقتراح، فهي لن تحرج أمّها أو تحزنها وقالت بحزم:

«كفاني هراءً، كلّ هذه قشور بالية، لن أدع الأشياء تعطيني قيمة، بل أنا من يجب أن أعطي قيمةً لكلّ ما أرتدي. ما أعطتني إيّاه أمّي وأنتنّ وأغراضي الخاصّة تكفيني وأفتخر بها؛ ولا أريد أكثر من ذلك».

ودار حديثٌ بين الفتيات بخصوص الشَّرائط الحريريّة التي حضّرتها هانا وكوتها، فقالت لها جو إنها لو وضعتها فوق ثوب النّوم الرّخيص فلن يجدي ذلك نفعًا، بل على العكس، سوف تبين أنّه رخيصاً وليس بالمستوى المطلوب. فتنغّصت فرحة ميج من جديد، ونُسف كلّ ما قالته منذ قليل بخصوص الزّهد والقناعة.

قالت ميج:

«أتساءل: هل سيأتي وقت أمتلك فيه شرائط أنيقة وأضعها على ملابس جميلة، وقبّعات وحقائب ثمينة؟!».

فتدخّل ملاكٌ صغير يدعى بيث على الفور:

«لم أنت حزينة؟ بالأمس كنت تقفزين فرحًا عندما أُرسلت لك الدّعوة، وكانت تلك الدّعوة أكبر أحلامك وطموحاتك».

قالت ميج:

«أنت على حقّ، لقد قلت ذلك بالفعل وأنا جدّ سعيدة».

نظرت ميج إلى الحقيبة الكبيرة الممتلئة وقالت:

t.me/yasmeenbook

«كلّ شيء جاهز عدا فستان الحفل الّذي ستصلحه أمّي. وعلى الرغم من أنّه قد مرّ بالعديد من الإصلاحات، إلّا أنّها كانت سعيدة».

في صباح اليوم التّالي، ارتدت ميج أفضل ثيابها للسفر، ورحلت عن منزلها لإجازة ستستمرّ لأسبوعين. شعرت ميج بالغربة عندما وصلت إلى منزل آل موفا الفاخر الّذي يمتاز ساكنوه بالرّقيّ والأناقة. لكنّها كانت عائلة طيّبة وخيّرة وبسيطة على الرغم من نمط عيشها المترف، فشعرت بالطمأنينة وبالوداعة.

وسرعان ما اعتادت على نمط الحياة الرائع، الطّعام الشّهي، والرّكوب في عربةٍ جميلة وارتداء أفضل ثيابها، كانوا أثرياء بحق ويعيشون في قصرٍ كبير. لم تكن تفعل شيئًا سوى الاستمتاع بوقتها. اتّبعت ميج عادات الوسط الرّاقي كالفتيات الأخريات، فبدأت تتصرّف بكبرياء، وتستخدم عبارات فرنسيّة في كلامها، وتصفّف شعرها مثلهنّ وتحصر أحاديثها في شؤون الأزياء وأخبار المسارح. وكانت كلّما رأت وكانت كلّما رأت أشياء آني الجميلة زاد حسدها، وتعمّقت الفجوة بين فقرها وثرائهم، لتثور أكثر على واقعها المؤلم وعملها الصعب.

عاشت دور الضحيّة بكلّ براعة، ففي نظر الشّابة كان

يجب أن تعيش حياة مختلفة، فما عادت ملابسها أو حقيبتها تعجبها أو تشبع رغبتها حتى ولو كانت ممتلئة.

ولحسن الحظّ لم يكن لدى ميج متّسع من الوقت لتندب حظّها فيه، إذ كانت شديدة الانشغال بقضاء وقتٍ ممتعٍ، فلم تكد تمضي ساعة بدون لهو. تسوّقت الفتاتان وتجوّلتا في المدينة سيرًا على الأقدام وامتطيتا الخيل، وزارتا الأصدقاء معًا. وفي المساء كانتا تذهبان لدار الأوبّرا أو المسرح أو تمرحان في المنزل.

كانت ميج بحسن تربيّتها وأخلاقها الرّفيعة محطّ انتباه كلّ من في المنزل، حتّى أن أختيّ آني تودّدتا لها، «بل» التي كانت مخطوبة و«كلارا»، والوالدان أيضًا أعجبا بجمالها ودلّلها الجميع وأكرّموها وأطروا عليها ونادوها ب «ديزي»، وسرعان ما اعتادت ميج على كل ذلك الاهتمام الكبير فازدادت غروراً.

عندما أقيم أوّل حفل مسائيّ رسميّ، ارتدت الفتيات جميعهنّ فساتين جديدة، أمّا ميج فكانت ترتدي فستان الحفلات الوحيد لديها، والذي بدا قديمًا ورثًّا مقارنةً بفساتينهنّ. لم يعلّق أحدٌ على ثياب ميج، لكنّها شعرت بجرحٍ في كبريائها، واعتراها الخزي والخجل الشديدين عندماً لمحت نظراتهنّ المشفقة لفستانها الرخيص وزينتها المتواضعة. صفّفت بل وكلارك وأختهما شعرها

t.me/yasmeenbook

وساعدنها في ارتداء وشاحها، حتّى أنّهنّ امتدحن ذراعيها البيضاء الجميلة، ولكنّها رأت في ذلك إشفاقًا عليها لفقرها الشّديد.

بقي الحزن مسيطراً عليها إلى أن دخلت الخادمة وهي تحمل صندوقاً فيه زهورٌ جميلةٌ

وقالت آني:

«هذا بالتأكيد لأختي بِل من خطيبها جورج. ولكنّ هديّته هذا اليوم أجمل من كل المرّات».

لكنّ الخادمة قالت:

«هذا الصّندوق للسيّدة مارجريت مارش وهذه رسالةٌ لها».

وتفاجأت الفتيات وسُررن بذلك، وسألنها ثلاثتهنّ بحماسة:

«هل هو حبيبك؟، ما أرفع ذوقه!»

قالت ميج وهي تضع الرّسالة في جيبها:

«الرّسالة من أمّي، أمّا الزهور فهي من لوري».

رفعت كلمات أمّها الحانية من معنويّاتها، وشعرت بسعادةٍ غامرة أنّ لوري يتذكّرها، انتقت لنفسها بعض الزهور، ثمّ صنعت بالباقي أكاليلَ صغيرةً لصديقاتها وهكذا، وبالرغم من فقرها الشّديد، فقد وجدت ما تقدّمه

لغيرها. ملأت السعادة قلبها، ونسيت تمامًا أمر فستانها الرديء واستعادت مرحها وبهجتها وزال عنها خوفها وحياؤها، وازدادت ثقتها بنفسها فأضاءت إشراقًا وجمالًا.

استمتعت ميج بليلتها، ورقصت بكلّ ما أوتيت من رشاقةٍ وخفّة مع كثيرٍ من المدعوّين، حتى أنها رقصت مع السيّد موفا شخصيًا، وطلب منها بعض الحاضرين أن تغنّي لهم فلم تتردّد أبدًا، وكان صوتها رائعاً كصوت الكروان. كان في الحفل رجلٌ نبيلٌ يدعى «الرائد لينكولين»، فُتن بجمالها وسأل عنها بلهفة بعد أن أسرته عيناها الجميلتان.

ولكن هيهات للسعادة أن تدوم، فقد بدأت النفوس المريضة تعكّر صفوها، وذلك عندما سمعت صدفةً حديثًا بصوتٍ خافت دار بين امرأتين على الجانب الآخر من الحديقة، ما جعلها تشعر بغضبٍ شديد.

حيث قالت السيّدة الاولى:

«كم عمرها؟»

ولكن صدمت أكثر عندما كانت المرأة الثانية هي «السّيّدة موفا» سيدة المنزل التي تقيم فيه وأنّ الحديث كان عنها.

قالت السّيّدة موفا:

«ستة عشر عاماً أو سبعة عشر على ما أظنّ».

t.me/yasmeenbook

ردت الأولى:

«أعتقد أنّه سيكون مناسبًا لإحدى الفتيات. أليس كذلك؟، إنّه على وفاقٍ شديدٍ معهنّ، ثمّ إنّ الجدّ يعشقهن ويعاملهنّ كبناته».

قالت السّيّدة موفا:

«لقد أحكمت السّيّدة مارمي وضع خطّتها، وهي تنفّذها على نحوٍ صحيح، بالرغم من أنّ الوقت مازال باكرًا على زواج ميج! ها هو اليوم أرسل لها ورودًا ورسالةً وقد احمرّت خجلًا، وتظاهرت أنّها لم تكن تتوقّع الرّسالة. يا للأسف! كانت ستكون أكثر الشّابات جمالًا لو أنّها حظيت بملابس أنيقة ورفيعة. هل تعتقدين أنّه بإمكاننا أن نعيرها فستانًا لحفلة يوم الخميس؟»

قالت الأولى:

«إنّها أبيّة وشديدة الكبرياء، ولا أعتقد انّها ستوافق على أيّ حال».

ثمّ خطر للسّيّدة موفا أنّ تدعو لوري إلى حفلة ليلة الخميس للقدوم من أجل ميج.

عندما عاد شريك ميج في الرّقص ومعه بعض المثلّجات والعصير البارد، كانت محمرّة الوجنتين لشدّة الخجل والتوتّر، وقد ساعدها كبرياؤها على كتم ما سمعته

وإخفاء غضبها، وحاولت أن تنسى كلّ شيء، ولكنّ الكلام ظلّ يتردّد في أذنيها، وتمنّت لو تغمض عينًا وتفتح أخرى فتجد نفسها في منزلها مع أخواتها، لتخبرهنّ بذلك وترى ماذا ستنصحها أمّها. لكنّ ذلك لم يكن ممكناً، ولذلك فعلت ما بوسعها كي تبدو سعيدة حتّى انقضاء الأمسية. ونجحت في هذا الأمر حين ضبطت أعصابها وتحكّمت بنفسها بشكلٍ مثالي.

وعندما انتهى الحفل وأصبحت في غرفتها، بكت قليلًا، وكان الأصعب عليها أنّها في منزل مضيفتها، فلا تستطيع حتّى أن تردّ على تلك الشائعات لتوقف النّاس عند حدّها، وظلّت مستيقظة طويلًا تفكر جيّدًا فيما حدث. تأكّدت في قرارة نفسها أنّ كلّ ما تعانيه بسبب الفقر، فلولا فقرهنّ ما كانت السيّدتان لتظنّا بأمّها تلك الظنون، يا للغباء!، كيف تستطيعان مجرّد التفكير في أنّها توقع بالفتى الثري في مصيدة الزواج.

حدّثت نفسها:

«كيف سأنظر للوري بعد الآن؟، ويا لخجلتي أنا وأخواتي البريئات كيف ينظر النّاس لنا».

في صباح اليوم التّالي، استيقظت ميج بقلبٍ حزين وعينين متورّمتين، فقد تعكّر مزاجها تمامًا. أدركت أنّه كان عليها أن تتكلم عمّا حدث في اللّيلة الماضية وتصحّح سوء

t.me/yasmeenbook

الفهم. كان كلّ من في المنزل متعبًا، إذ لم يصحين جميعهنّ إلّا بعد الظهر، وجلست الفتيات للخياطة والتّطريز، وعاملن ميج بكلّ احترام، فشعرت بالدّهشة والرّضا.

قالت بِل:

«لقد وُجّهت دعوة لصديقك السّيّد لورانس لحضور حفل يوم الخميس، سيسرّنا التّعرف عليه أكثر، ودار بخلدنا أنّ ذلك الأمر سيسعدك».

احمرّت وجنتا ميج وفكّرت لحظة، ثمّ قالت:

«كم أنت طيبة القلب يا بل، ولكن من المحتمل أنّه لن يقدر على المجيء».

سألتها بل:

«لكن لماذا؟»

أجابت ميج:

«لأنّه طاعن في السّنّ».

قالت بل:

«كم عمره؟»

أجابتها ميج: «أنّه الآن قد بدأ بالسبعين». وحاولت أن تكبت ضحكتها

حتّى لا تحرجها.

قهقهت بِل وقالت:

«أيتها الساذجة نقصد الشّاب».

فردّت ميج:

«إنّه ليس شابًّا. إنّ لوري صبيٌّ صغير».

تبادلت الفتيات النّظرات في استغراب:

«إنّه في مثل سنّك أليس كذلك؟»

أجابت ميج:

«كلّا. إنّه في عمر أختي جو. أنا سأبلغ السابعة عشر في آب القادم».

قالت آني:

«إذا لماذا يرسل إليك الزّهور؟»

أوضحت لهنّ ميج الأمر محاولةً إزالة الغشاوة عن عقولهنّ، حيث قالت:

«إنّه يفعل ذلك مع كلّ عائلتي، هو فقط من باب الملاطفة وحسن الجوار، عدا عن أنّ جدّه وأمي صديقان قديمان، ونحن نلعب معًا».

هزئت منها آني وقالت لأختها:

«ما أغباها!»

دخلت السيدة موفا عليهنّ وسألتهن إن كنّ يحتجن إلى شيء. أخبرتها سالي أنّ ثيابها جاهزة ليوم الخميس وكذلك

t.me/yasmeenbook

أجابت ميج، ولكنّها احتاجت إلى كثيرٍ من الأشياء. ولكن هيهات على الشّابة الأبيّة أن تطلب المعونة من أحد.

وسألت سالي ميج: «ماذا سترتدين يا عزيزتي؟»

أجابت:

«فستاني الأبيض القديم إذا تمكّنت من إصلاحه ليوم الخميس، فقد تمزّق بالأمس».

قالت سالي:

«ولم العناء؟، أرسلي لأمّك كي ترسل لك فستانًا آخر».

أجابت ميج بكل صدق وتقشّف:

«أنا لا أملك غيره».

قالت لها سالي بفظاظة وتسرّع:

«ثوبٌ واحدٌ فقط؟، أكاد لا أصدّق».

ثمّ انتبهت سالي إلى ما أوقعته في قلب الفتاة من إحراج شديد وارتباك وقالت تستدرك ما سبّبته لتلك المسكينة:

«حسنًا عزيزتي، ما فائدة ألف فستان إذا كنّا لا نخرج إلّا في النّوادر. انسي أمر الفستان واقبلي من فضلك أن أعيرك فستاني الحريريّ ذا اللّون الأزرق؟»

رفضت ميج بكلّ أدب، وأوضحت أنّ فستانها قابل للإصلاح وأنّها ترتاح فيه كثيرًا ويناسبها جدًّا.

ولكنّ الفتيات بعطفهنّ توسلن إليها أن تقبله، لأنهنّ يردنها أن تكون حسناء باهرة تفيض رونقًا.

قالت ميج:

«فستاني يناسبني كثيرًا. ولا أعتقد أنني أريد أن أغيّره».

ولكنّ بِل لم ترضَ بقناعة ميج هذه وأصرّت عليها:

«أنت جميلة، ونحن نعلم أنّك جميلة! وفستانك أيضًا جميل! ولكن اسمحي لنا أن نختار لك غيره، فنلبسك من تنسيقنا الخّاص، فذوقنا جميل وجسدك رائع، وستكونين أجمل المتواجدات. وإن لم تكوني مثل ساندريلا عندما التقت الأمير فلك أن تفعلي ما شئت».

لقد كان عرضًا لا يستهان به؛ وكأنّ فرصتها قد أتت على طبق من فضة بعد طول انتظار. فوافقت ميج على استعارة أحد فساتين بِل، ونسيت ما سبّبته لها تلك العائلة يوم أمس من قلق وهَم.

في يوم الخميس، دخلت ميج مع بِل إلى غرفتها. وأغلقتا الباب وبمساعدة خادمةٍ فرنسيّة الأصل أصبحت ميج في كامل أناقتها. لبست فستانًا أزرق ضيَقاً حريرّياً، وصفّفتا لها شعرها ووضعتا المساحيق على رقبتها وذراعيها، وأرادتا وضع أحمر الشّفاه لكنّها رفضت بحزم. ارتدت أيضًا سوارًا وقرطًا وقلادة. شعرت ميج أنّها تحوّلت

t.me/yasmeenbook

إلى فتاةٍ أخرى. فهذه هي المّرة الأولى الّتي تحظى بإطلالة رائعة كاملة متكاملة وبتنسيقٍ مذهلٍ كل ما فيه جديد.

نظرت ميج إلى المرآة فأذهلها ما رأت، لقد كانت فائقة الجمال فعلاً. ولكنّ شيئًا ما أخجلها، فقدكان الفستان الذي استعارته من بِل ضيّقًا جدًّا ومفتوحًا عند الصدر، حتى إنه كشف كلّ كتفيها والجزء الأعلى من صدرها وذلك ما لم تكن قد اعتادته، ولكنّها أمام جمالها الفتّان قد أهملت أمر صدرها البارز المكشوف، ولا سيّما أنّ الخادمة قامت بتغطية هذا الجزء بورودٍ صغيرة ثبّتتها ببعض الدّبابيس من أعلى الفستان.

اتجهت ميج إلى الطّابق السّفلي حيث تنتظرنها الفتيات وهي ترتدي حذاء عالي الكعب، وحاولت جاهدةً ألّا تدوس على طرف فستانها، وحملت مروحةً بمقبض فضيّ ومنديلًا مزركشًا، حتى انبهر كلّ من في المنزل بحسنها وجمالها وأمطرنها بعبارات الثناء والمديح وسُرّت بِل بتلك النتيجة الّتي حصلت عليها، وراحت تعلّمها كيف تسير ووضعت بعض الفراشات الفضية في شعرها، حتّى غارت سالي من إطلالتها الملكيّة الملائكيّة.

كانت هذه الحفلة مختلفةً من حيث معاملة النّاس لها، حيث أحسّت بذلك وعرفت السّبب. يا لذلك المجتمع الأخرق كيف يحكم النّاس على بعضهم البعض من خلال

الملابس الّتي يرتدونها وجودة الأقمشة ونوعيتها. ولا تعرف تلك المجتمعات من الحضارة إلّا قشورها.

أقبلت المدعوات يتحدّثن معها ويلاطفنها الشّابات منهنّ والعجائز، واجتمع الشّبان يطلبون رضاها فتتكرّم عليهن بكلمةٍ أو رقصة، يا للعجب! بالأمس لم يهتمّ أحد لوجودها أو يلق لها بال.

بالأمس فقط كانوا ينتقدونها، وها هم اليوم يثنون عليها ويمدحونها! هل تفعل الملابس كلّ هذا بنفوس البشر؟!

سألت إحدى العجائز بعد أن رفعت نظّارتها لتتفحّص ميج بدقّة:

«من تلك الحسناء؟»

قالت السّيّدة موفا:

«إنّها ديزي مارش، أبوها عقيدٌ في الجيش، تنحدر من عائلة رفيعة المقام، لكنّهم الآن يواجهون أوقاتًا عصيبةً. وهي صديقة مقرّبة لعائلة السّيّد لورانس. إنّها فتاةٌ رائعة لطيفة وودودة، وابني نيد معجبٌ جدًّا بها».

وقفت ميج تحرّك مروحتها وتصغي لشابٍ من المدعوّين أتى إليها لكي ينعم بصحبتها، وبعد أن راحت تنصت إلى نكاته الّتي لم تستظرفها على أيّة حال، ولسوء حظّها سمعت كلّ ما تكلّمت به السّيدتان، وصدمت

t.me/yasmeenbook

عندما سمعت كذب السّيّدة موفا الواضح، وطوال تلك السّهرة كان من الصّعب عليها ألّا تسمع همسات الآخرين وكلامهم عنها. حينها قرّرت ببساطة أن تمضي وقتًا ممتعًا، حيث لعبت دور الفتاة الأرستقراطيّة ببراعة كأنّها تنحدر من أصول ملكيّة لا ترتكب أدنى خطأ، لولا ذلك الحذاء اللّعين الضّيق. يبدو أن مشكلتها مع الأحذية أبديّة!!!.

وفجأةً وصل لوري. رمقته بِل وآني بنظرات ماكرةٍ مترقّبة وكأنّهما تنتظران حدثًا ما.

أمّا هو فقد حدّق بميج في دهشة واستهجان، فاحمرّت وجنتاها من شدّة الخجل. وفي تلك اللّحظة بدأ ندم ميج على مبالغتها في تزيّنها يطوف فوق وجهها، وقالت لنفسها:

«لقد أخطأت خطأً فادحًا، ما كان ينبغي أن أنقلب بهذه الدرجة الكّبيرة».

ونظرت في المرآة وحدّقت بفستانها وزينتها، كأنّها ترى نفسها للمرة الأولى، وقالت:

«أنا فعلًا غريبة».

ولكنّها استعادت غرورها وتكبّرها بسرعة، وقالت في نفسها: «ولكنّني فاتنة جميلة ألفت أنظار الجميع بحسني».

وذهبت لتلقي التّحية على لوري، وقالت له:

«كنت أخشى ألّا تحضر».

رد لوري:

«أرادت جو أن أحضر كي أخبرها كيف تبدين».

سألته ميج:

«وماذا ستجيبها؟»

قال:

«سأخبرها أنّك مختلفة تمامًا عن ميج القديمة. تبدين أكبر سنًّا. أنت تخيفينني إلى حدٍّ ما».

قالت ميج:

«كفّ عن السّخافة. لقد ألبستني الفتيات فستانًا جميلًا وزينةً لائقةً كي أستمتع مثلهنّ تمامًا. قل لي:

«ألن تُذهل جو لو رأتني الآن؟»

قال: «بالطبع، ستصاب بالذهول من هذه الهيئة!»

تأذّت ميج من كلامه القاسي وكأنّها كانت تنتظر العكس تمامًا منه، ثم سألت:

«ألا يعجبك مظهري؟»

قال:

«كلّا».

قالت:

«ولكن كيف لم يعجبك؟!، ما من أحدٍ من الحضور إلّا وسُحِر بي».

t.me/yasmeenbook

نظر لوري إلى فستانها الضّيق وكتفيها العاريين وشعرها الملفوف. ثم قال:

«لا أحبّ هذه المبالغة في الزّينة».

زاد من وقع الأمر عليها أنّ من يتحدث بذلك الكلام هو فتىً أصغر منها سنًّا، إضافةً إلى أنّه يرتدي بذلة تجعله يبدو وكأنّه أصغر وأصغر.

غضبت منه غضبًا شديدًا وقالت:

«يا لك من فتىً وقح ومغرور، أنا لم أرَ مثلك في حياتي».

بعد المشاجرة الصغيرة، مشت ميج نحو النّافذة وأدارت جبهتها للهواء البارد علّها تهدأ قليلًا. وبينما هي تقف هناك رأت «الرائد لينكولن» يمرّ بالجوار، وبعد دقيقة سمعته يقول لوالدته:

«إنهم يجعلون تلك الفتاة الصغيرة تبدو بلهاء. أردت أن تريها، لكنهم أفسدوها تمامًا. إنها تبدو كالدمية الليلة».

«أوه، عزيزي! أتمنى لو أنني تعقّلت وارتديت ملابسي، ربما حينها لم أكن سأحرج الآخرين، أو أشعر بالخزي من نفسي والانزعاج هكذا».

اتّكأت بجبينها على الجدار وحاولت إخفاء نفسها

جزئيًّا خلف السّتار، دون أن تبالي برقصتها المفضلة التي بدأت، إلى أن جاء لوري ومدّ يده قائلًا:

«أرجوك سامحيني على فظاظتي وارقصي معي».

«أخشى أن يصيبك العار من رفقتي!» قالت محاولة أن تبدو منكسرة ومحبطة بالكامل.

«مستحيل! سأموت لأرقص معك. تعالي، سأكون فتىً جيداً، لا أحب فستانك، لكنني أعتقد حقًا أنك مبهرة حقّاً!» ثم لوّح بيده كما لو أن الكلام فشل في التعبير عن تقديره.

«حسنًا انتبه أن تدوس على فستاني الطويل، فهو بليّة حياتي التي جعلتني ساذجة بما يكفي لارتدائه الليلة».

«إذًا ارفعي طرفه على رقبتك وحسب، قد يصبح مفيدًا حينها!»

ورقصا كثيرًا ودارا في سعادة وانسجام، فقد تمرّن الاثنان على الرقص في المنزل، وأعجب كلّ الحاضرين بهما. كانا ثنائيًا رائعًا ومتكافئًا من حيث الجسد والطّول والعمر وحتّى الجمال، وظلّا على تلك الحالة حتّى أنهكتهما أنفاسهما. شعر كلّ منهما بودّ الصداقة تجاه الآخر أكثر من أيّ وقتٍ مضى في تلك الليلة.

قالت له ميج:

«أريد منك خدمة».

قال:

«نعم يا عزيزتي».

قالت:

«لا تخبر أحدًا في المنزل عن فستاني هذا، فلن يفهمن الأمر وستقلق أمي».

سألها لوري:

«ولماذا ارتديته إذا كنت تخجلين منه؟»

قالت: «لا مشكلة لديّ أن يعرفن بأمر الفستان، ولكن ليسالآن أنا سأخبرهنّ بنفسي، هل تسمح؟»

ثمّ صمتت لحظة واستطردت:

«سأقصّ عليهنّ كلّ ما ارتكبته من حماقات».

قال لوري:

«بالطّبع سيسألنني. وبماذا أجيب؟»

قالت ميج:

«قل فقط إنني أستمتع بوقتي كثيرًا وإنني أبدو جميلة».

«سأقول إنك تبدين جميلة لأن هذه هي الحقيقة، ولكن لا يبدو أنك تستمتعين بوقتك كثيرًا أليس كذلك؟»

«ليس بالضبط، لقد أردت أن أحظى ببعض المتعة وحسب، لكن طريقتي لم تنجح، وقد أرهقتني».

«ها هو نيد يتقدم! ترى ماذا يريد؟» رفع لوري حاجبيه ولم يبد مسرورًا بقدوم مضيفه.

«لقد جاء للرقص معي على الأغلب، يا للملل!»

لكنّ الشّابّة كانت قد وعدته بثلاث رقصات وجاء يطلب منها أن تفي بوعدها.

قالت ميج:

«يا إلهي. ليس لديّ رغبةً الآن».

لم يرَ لوري ميج إلّا بعد انتهاء العشاء في تلك اللّيلة، وقد اختفت تمامًا وهو انشغل بشيء آخر. ثمّ رآها بعد ذلك تحتسي الخمر مع صديقها نيد وصديقه فيشر، وكان الاثنان يتصرّفان تصرّفات حمقاء ويشربان بكثرة. فذهب إليها بعد أن رحل فيشر ليحضر لها مروحتها الفضّيّة. همس لها لوري:

«ستعانين صداعًا مروّعًا إذا أفرطت في الشّراب، وقد تسوء الأمور إن ثملت، ولن تحبّ أمّك ذلك!»

أجابت ميج:

«لا يوجد للعقل مكان اليوم، أنا لست إلّا ميج المدلّلة الحمقاء، نعم للأفعال المجنونة!، وغدًا أعود لقوقعتي القديمة وأخلع ثوب البهجة والتّرف».

t.me/yasmeenbook

«إذًا أتمنى أن يأتي ذلك الغد بسرعة!»

حتى نهاية السّهرة، شاهد لوري ميج وهي ترقص وتضحك وتثرثر مثلما تفعل بقية الفتيات المتواجدات، ولكنّها فاقت الجميع بترنّحاتها وتنقّلها بين الفتيان ورقصها معهم جميعًا، بينما لا تكاد ساقاها تحملانها. شعر بالإحراج من سلوكها، وكان يريد أن يتحدّث إليها، لكنّها تجنّبته حتّى حان وقت مغادرته، فأقبلت عليه وودّعته راسمةً ابتسامةً مزيّفةً وقالت له:

«لا تنطق بكلمةٍ واحدة.» ووضعت إصبعها فوق فمه.

أجابها بجدّيّة، بينما يخرج:

«كما طلبت».

كانت الفتيات متحمّسات لمعرفة المزيد عن لوري، ولكنّ ميج كانت متعبة والصّداع يفتك برأسها وكأنها كانت في حفلة تنكريّة، ولم تستمتع بوقتها على الإطلاق. وكانت سعيدة لأنّ يوم السّبت قد اقترب، ولم يعد لها في ذلك المنزل سوى يومين. كانت تشتاق للمنزل ولأمّها وأخواتها الحبيبات، وتشعر بالإنهاك التّام بعد أسبوعين من التّعب.

«رغم أن منزلنا ليس فخمًا كفاية، إلّا أنه ألطف مكان على الأرض!»

قالت ميج وهي تنظر حولها براحة وتجلس مع أمها وجو في أمسية يوم الأحد.

كانت السيّدة مارمي شديدة القلق على ابنتها الكبرى فضلًا عن شوقها الشّديد لها. وكان أكثر ما يقلقها أن ترجع الابنة ساخطة عليهنّ وعلى وضعهنّ وعلى الفقر، فتكون قد نغّصت حياتها وحياة من حولها ودفعت بابنتها بأيديها إلى تلك المتاعب الجديدة.

لكنّ مخاوفها كلها قد تبدّدت، وها هي ابنتها الرزينة تثبت العكس عندما عادت إلى المنزل ولم تؤثّر عليها آثار النّعمة؛ ولم تبدّل معدنها الثّمين.

عدّدت لهن مغامراتها ومخاطراتها بسعادة، وكلّ النّزهات والأمسيات، ولم تترك تفصيلًا واحداً إلّا وقد ذكرته. قالت ميج لهنّ وقد اجتمعن ينصتن بكلّ جوارحهنّ بعد أن تحمّلن مرور الأسبوعين بفارغ الصبر، لكن شيئًا ما كان يثقل روحها، ويؤرق تفكيرها. ذهبت بيث وآيمي للنوم، وجلست تتأمل في النار، لم تتكلم كثيرًا، حيث كان القلق واضحاً على وجهها. ثم استأذنت جو للذهاب إلى النوم، وفي اللحظة نفسها قفزت ميج وجلست فوق كرسي بيث، وأسندت يديها على ركبتي أمها وقالت:

«أريد أن أعترف لك بشيء يا مارمي».

سألت جو بحكمة: «هل أذهب؟»

«بالطبع لا. ألا أخبرك بكل شيء؟ كنت سأشعر

t.me/yasmeenbook

بالخجل لو تحدثت أمام الطفلتين، لكنني أريدك أن تعرفي كل الأمور الفظيعة التي قمت بها في منزل موفا».

شحب وجه السيدة مارش وارتبكت قليلًا، ثمّ تمالكت نفسها وتبسمت قائلة:

«لا تخافي شيئًا وقولي ما تريدين».

«أخبرتكم أنهم ألبسوني فستانًا، لكنني لم أخبركم أنه كان غير محتشم وغير لائق البتّة، وكيف أصبحت أضحوكة الجميع عندما أطللت بإطلالتين، إحداهما صارخة والأخرى بسيطة ملائكية، فاعتقد الجميع أنني أتحوّل وأتبدّل، وكيف وضعوا لي مساحيق التجميل التي جعلتني أبدو كعارضة أزياء ثلاثينيّة».

حزنت السيدة مارش، ولكنّها لم تجد في قلبها ذرة غضب من ابنتها، فسألتها:

«هل هذا كلّ شيء؟»

قالت ميج:

«بل وأيضًا فعلت ما هو الأسوأ، فقد شربت حتى ثملت، وصرت أترنّح وأتمايل وأراقص كلّ من يعترض طريقي».

حزنت ميج كثيرًا عندما تذكّرت كيف أنّ أحد المدعوين قد أحضر أمّه ليريها إيّاها بعد أن أعجب بجمالها الملائكيّ

كثيرًا، إذ رآها للمرة الأولى في الاحتفال الأوّل، ثمّ كيف انصدم بها وارتاب من هيئتها وتصرّفاتها في الحفلة الثّانية، فانصرف بعيدًا عنها حتّى دون أن يكمل الحديث، واصفًا إياها بالدمية.

عطفت أمّها عليها رغم غضبها المكبوت لأنها أساءت التّصرف، ولمست خدودها وقالت:

«أعتقد أن هناك شيئًا آخر».

«أجل، إنه لأمر سخيف جدًا لكنني أريد أن أخبركما به، لأنني لا أحب أن يتحدث الناس بأمور كهذه عنّا أو عن لوري».

ثمّ قصّت على مسامع أمّها وأختها أسوأ ما في الأمر ألا وهو: نظرة النّاس واعتقادهم بأنّهنّ يخططن للإيقاع بالجدّ وحفيده. وروت تفاصيل الأحاديث الّتي كانت تسمعها، والتّلميحات الّتي أثقلن بها على عقلها البريء.

رأت جو انقباض وجه أمها فصاحت:

«ما هذا الكلام الفارغ. لِمَ لم تواجهيهم حينها؟»

قالت ميج:

«لم أستطع أن أشرح لهنّ! لقد كنت مصدومةً وخائفة ومرتبكة».

«فقط انتظري حتى أرى آني موفا، تلك التي تحتضن

t.me/yasmeenbook

الكلام الفارغ في منزلها!، سوف أريها حجمها الحقيقيّ، وأعرّفها من التي تطمع بالثّروات وتفكّر بالأموال والمبهج والتّرف فقط. كيف تنطق ما ليست على علم ولا دراية به؟، سأعطيها درسًا لن تنساه».

ثمّ ضحكت جو بمرارة وقالت ثانيةً:

«سوف يرقص لوري من الغيظ عندما يسمع بهذه المهزلة».

صاحت ميج بتوتر: «إن أخبرتِ لوري لن أسامحك!، لا يجب أن تخبريه!»

قاطعتها السّيّدة مارش:

«إيّاك يا جو، فقد تسبّبين له الأذى من حيث لا تدرين، لقد كان خطأي، وما كان عليّ أن أسمح لك بالذهاب لمنزلٍ كهذا لم يسمع يومًا عن مكارم الأخلاق، ولا يقاس فيه الناس إلّا بما يمتلكون... أنا أشعر بالأسى أكثر لما تسببت به هذه الزيارة».

قالت ميج:

«كلا يا أمّي لا تلومي نفسك، لقد كان درسًا للحياة بأكملها، تعلّمت الكثير وقنعت بما لديّ وأيقنت أنّ القشور لا محال زائلة، وأنّ قيمة المرء بعقله وفكره وطيبة قلبه، وبما يقدّمه من يد العون والسلام للآخرين. وبالرغم من

كل ذاك فقد استمتعت وقضيت أوقاتًا ممتعة لن أنساها أيضًا».

وبدت ميج محرجة من الاعتراف.

قالت الأمّ بحكمةٍ وحنان كي تخفّف حزن ميج وتهدّئ من غضب جو وثورتها:

«لا تدعن حبكن للقيام بأمور سخيفة، تعلّما تقدير الأشياء المهمّة بالفعل. واعلما أنّ الثرثرة يا عزيزاتي أنّ الثّرثرة لا تدوم، وستصبح طيّ النّسيان أسرع ما تتوقعان».

لقد كان لوقع المسألة الأخيرة الّتي قالتها ميج عن «عائلة السيّد لورانس» في نفسها أثرًا كبيرًا لم يزل لبسه بعد، وكانت تلك نتيجةً طبيعيّة لما تسمّمت به أفكارها مما سمعته عند تلك العائلة السّليطة من كلامٍ جاء في الصّميم.

وقد حزنت جو كثيراً لما حلّ بأختها من ألم ومعاناة، وشعرت أنّها قد فقدت ميج القديمة الحكيمة المتّزنة، وراحت تفكّر: ميج لم تكن هكذا، إنّها الآن أكثر جرأة من قبل، لم تكن تتكلّم عن أمور الحبّ أو الشباب دون خجل وشعرت جو للمرّة الأولى أنّ أختها ستذهب بعيدًا عنها، وتشقّ طريق آخر لا تحبّه جو ولا تهواه.

إنّها الحياة بمصاعبها ومتاعها تفرّق النّاس حسب طباعهم وأهوائهم وميولهم.

t.me/yasmeenbook

وتشجّعت ميج لتأخذ الخبر اليقين من أمّها: «أمّاه اعذريني، أحقّاً خطر لك أن تخطّطي من أجلنا؟».

فاجأتها حيث قالت الأم:

«نعم يا عزيزتي، لقد أحكمت الخطط فعلاً، ولكن ليس كما تظنّ السيّدة موفا على الإطلاق. بل أردت أن تكون بناتي ناجحات وطيّبات، وأن يحظين باحترام الجميع ومحبّتهم، وأن يؤسّسن حياةً نافعة وسعيدة. أردتهنّ أن يحظين بالحبّ من أجل الزّواج، وليس أن يتزوّجن من أجل المال، أنت صغيرة يا ميج، لكنك قادرة على فهم ما أقول. وسوف يأتي دورك يا جو مع الوقت، لذا اسمعي وتذكري».

ثمّ دار حديثٌ ليس ببعيدٍ عمّا كانت تشير إليه الأمّ، عندما قالت ميج:

«أمّي؟ هل صحيح أنّ الفقيرات حظوظهنّ ضعيفة في الزواج، أو أنّهن مجبورات على البحث عنه ولو بشقّ الأنفس؟»

ثمّ تأهبت جو لتثور في وجه أختها والحياة:

«إذًا سنظل عازبات مدى الحياة!»

ابتسمت السيدة مارش من ردّة فعل جو تلك، وقالت:

«صحيح يا بنيّتي. عازبات مدى الحياة أفضل من

زوجات تعيسات، دعن الرجال هم من يسعون إليكن، فتكبرن حتّى في أعينهم. عندما يحبّكنّ رجال حقيقيّون سيقطعون الأنهار والوديان سعيًا إليكما. لا تقلقا يا ابنتيّ؛ فما كتبه اللّٰه لكنّ ستأخذنه مهما طال الزمن أو واجهتكنّ المتاعب».

وأضافت:

«وتذكّرا، أمّكما هنا من أجلكما دائمًا، وأبوكما هو صديقكما الأوفى، واتركا الأمور تأخذ مجراها، وسوف يسير كلّ شيء تمامًا كما يجب».

وبعد تلك النّصيحة الرائعة أوت الفتاتان إلى النّوم وهما مرتاحتا البال وقلباهما عامران بالسّرور. وتصالحت ميج مع نفسها وعاهدتها أن تحاول نسيان كلّ ما حدث

t.me/yasmeenbook

الفصل العاشر

نادي بيكويك

حلّ فصل الّربيع، وصار النهار أطول، فصار اللّعب أجمل وامتدّت فترته، وتمّ وضع سياسة تنظيميّة معيّنة للعب والاستجمام من قبل الأخوات. في الأيام المشمسة يولين اهتمامهن لحديقة منزلهنّ، ويجمعن الأزهار وبعض النّباتات أو يقمن برحلات التجذيف الصّغيرة.

أمّا في الأيّام الماطرة فكنّ يعتكفن في منزلهنّ ويخترعن الألعاب أو يكتفين بالقديمة منها. على كلّ حال، كانت الفتيات ذوات خيالٍ واسع ومتّقدات الفكر وعقولهنّ تسبق أعمارهنّ.

وكانت حديقة المنزل كبيرة وتحتاج للكثير الكثير من العناية والاهتمام، فتراءى لهنّ أن يقسمنها لأربعة أجزاء، لكلّ واحدة جزء تزرع به ما تشاء. اعتادت هانا أن تقول: «أستطيع معرفة الجزء الخاصّ بكلّ واحدةٍ منكنّ وأنا مغمضة العينين». وبالفعل، اختلف تنسيق الفتيات تبعًا

t.me/yasmeenbook

لاختلاف أذواقهنّ وشخصياتهنّ، وهذا شيءٌ طبيعيّ فما الخارج إلّا انعكاسٌ للداخل. كانت ميج تهوى الأزهار الجميلة بمختلف ألوانها، أمّا جو فقد كانت غير منحازة للون معين أو صنف محدّد، وكلّ ما اهتمّت به هو أن تزرع فيه شيئًا قد تستفيد منه في إطعام دجاجاتها والكتاكيت، فقررت أن تزرع عبّاد الشّمس. وكانت بيث مثل جو تفضّل أن تزرع شيئًا تطعم منه عصفورها، فاختارت زراعة بعض الخضار، إلى جانب العلّيق والبنفسج، كانت في اختياراتها تشبه العجائز، فركّزت على بعض أنواع التوابل (كالميجنونيت) والعلّيق ونباتات الشّيح. وبالنسبة لآيمي فقد زرعت بعض العرائش الصّغيرة جميلة المظهر، والزنابق البيضاء الطويلة، والسراخس، ونباتات رائعة أخرى، لم تتقصّد ترتيبها ولكنها كانت جميلة وملفتة.

أما في الأيّام الماطرة، فقد اقتصرت تسلية الفتيات على داخل المنزل، وكانت لعبتهنّ المفضّلة آنذاك هي عبارة عن تجمّعات سريّة يقمن بها، ولا يعلم بأمرها أحد آخر غيرهن، كان مقرّ تلك الجمعيّة غرفة في سطح المنزل.

كان في الجمعيّة ثلاثة مقاعد وآخر منفرد، حيث كان للرئيس الّذي لعبت دوره ميج بحكم أنّها أكبرهنّ سنًّا. أمّا الباقيات فكنّ أعضاء عاديّات. كنّ يجتمعن حول الطّاولة وقد ثبّتن فوقها مصباحًا ووضعن شارات حول رؤوسهنّ

مكتوبٌ عليها: (دار النّدوة). كان في تلك الدار صحيفة رسميّة أطلقن عليها اسم: «صوت الأدب». وبما أنّ جو كانت شغوفة بالقراءة والكتابة فقد استلمت مهمّة نسخها واشتركن جميعًا في تحريرها ونشرها.

لا يوجد أجمل من أن تصنع بنفسك الحياة التي تريدها ولو بأبسط الطرق.

كانت الاجتماعات دوريّة تقام كلّ مساء أحد. ولو أنّ أحداً راقبهنّ لما شكّ للحظة أنّ ذلك كله مجرد تمثيل. وكانت كلّ واحدةٍ منهنّ مولعةً بأحد الكتّاب أو الأدباء فتقمّصت شخصيّته.

كانت ميج، أكبرهنّ، تلعب دور «صموئيل بيكويك»

لعبت جو دور الأديب «أوغسطس سنودجراس»

وبيث متورّدة الخدّين «تريسي توبمان»

أمّا آيمي، التي كانت تحاول أن تفعل ما لا تقدر عليه، فكانت «ناثانيال وينكل».

جلست الرئيسة ميج أو «بيكويك» بكل تكبّرٍ وغرور، كأنّها ملكة البلاد برمّتها واضعة نظّارات بلا عدسات، ثم ضربت على الطاولة بقبضتها معلنة بدء الندوة، وقالت لأحد الأعضاء الذي كان يلهو في مكانه:

«يا سيد، نحن في دار الأدباء ولسنا في السيرك!!»

t.me/yasmeenbook

فاعتدل العضو «جو» في مجلسه. وبدأت الجلسة.

قالت ميج: «دعونا نبدأ فوقتنا ثمين للغاية».

وراحت تقرأ:

****

مقدمة بيكويك

20 أيار، **18

ركن الشعراء.

قصيدة الذكرى السنوية.

ونجتمع مجددًا لنحتفل
نحمل شارات طقوسنا الرسمية
في قاعة بيكويك، الليلة
في ذكرانا الثانية والخمسين السنوية

جميعنا هنا سالمون غانمون
نرى وجوهًا مألوفة
ومع أعضاء فرقتنا الصغيرة
نشدّ على أيادٍ ودودة
شاعرنا بيكويك العظيم
نحييه تحيّة تبجيل
يضع نظّاراته الأثرية
ليتفقد نتاجاتنا الأدبية

مرّ رئيسنا بنزلة برد شديدة
ورغم تعبه واختناق صوته
إلّا أنّه لم يحرمنا من طلّته
ورعايته المشكورة وحكمته

يهلّ سنودجراس العجوز
الطويل، بهالته المنمّقة
ويشّع ببهجة على الرفاق
بمعالم وجهه المشرقة

t.me/yasmeenbook

تلتهب نار الشاعرية في عينيه
ويكافح ليغلب مجموعته
انظروا الطموح فوق حاجبيه
والشوائب فوق أنفه

يليه أديبنا توبمان سيد الاطمئنان
متورّد الخدين، ممتلئ وجميل الهندام
تخنقه الضحكات في ألعاب الكلام
حتى تراه يتداعى على كرسيه

ومعنا أيضًا وينكل الصغير الأنيق
كل شعرة على رأسه في مكانه الصحيح
نموذج للياقة والانضباط الدقيق
لكنه يمقت غسل وجهه الرقيق.

انتهت السنة، وبقينا متّحدات
نمرح ونضحك، ونقرأ كل الجمال،
ونخطو في طريق الأدب
الذي نهايته المجد لا محال.

لتحيا كتاباتنا وتلقى الأزدهار
إلى الأبد سيبقى اتّحادنا المجيد
وستسكب السنون القادمة نعمها
على نادي بيكويك السعيد.
بقلم: أوغسطس سنودجراس «جو»

الزواج المقنّع
حكاية البندقية.

جندول بعد جندول توقّفوا عند السلّم الرخامي، منزلين حمولتهم الجميلة لتغزو قاعات الكونت دي أديلون المهيبة. فرسان وسيدات، خدم ورهبان وبائعات زهور، كلهم تمازجوا في رقصةٍ سعيدة. أصوات عذبة وألحان شجية ملأت المكان؛ كانت حفلة تنكريّة تشع بهجةً وحيوية.

تقدّم الفارس المقدام من الملكة الخيالية التي طافت في القاعة متأبطةً ذراعه، وسألها:

«هل رأيتِ سمو الملكة فيولا الليلة؟»

«رأيتها؛ وألا تبدو، برغم كل حزنها، خارقة الجمال؟!، لقد اختير ثوبها بذكاء، ففي غضون أسبوع سوف تُزف عروسًا للكونت أنطونيو، ذاك الذي تكرهه كرهًا عميقاً».

t.me/yasmeenbook

«لعمري إنني أحسده. ها هو ذا قادم، يرتدي ثيابه الفاتنة وكأنه عريس، ولكن ما بال القناع الأسود؟، سوف نكتشف عندما ينزعه عندما سيرى الجميلة التي لن يفوز بقلبها، وبالرغم من موافقة والدها المتزمّت على زواجه بها»

انضمّا إلى الرقصة، وقالت الملكة: «يتهامس القوم أنها مغرمة بالفنّان الإنجليزي الشاب الذي كان يطاردها، ولاقى الرفض القاطع من الكونت العجوز».

كانت الحفلة في أوجها حين تقدّم كاهن، وأخذ الشاب وعروسه إلى غرفةٍ ذات ستائر من المخمل الأرجواني، وركعا أمامه هناك. دبّ الصمت فجأة في المكان، سكت الحشد المتحمّس؛ وعلا صوت الطبيعة من حولهم: تدفّق المياه في النوافير، وتحرّكت الأوراق على الشجر، ثم كسر الصمت صوت الكونت دي أديلون عندما خطب بهم قائلًا:

«أيتها السيدات أيها السادة، اغفروا لنا، فقد خدعناكم اليوم بحضوركم الذي هو في الحقيقة حفل زواج ابنتي. ونحن ننتظر سيادتك يا أبانا».

ومن فرط الدهشة تحوّلت عيون الحشد بأكمله نحو العروسين، وبدأت همهمة الاستغراب تجتاح زوايا القاعة، ذلك أن العروسين لم يزيلا قناعيهما. فسكن الفضول والتشويق قلوب الحاضرين، لكن الاحترام

واجب، فالتزم الجميع الصمت حتى انتهت المراسم المقدّسة. وحينها تجمّع الحضور حول الكونت يمطرونه بالأسئلة.

«المسألة بسيطة يا أعزاءي؛ لقد رضخت لرغبة ابنتي العزيزة فيولا في هذا الأمر، وها قد انتهت المسرحية. انزعا قناعيكما يا ولداي واقتربا حتى أبارككما».

لم ينحنيا أمامه؛ بل تقدّم العريس مجيبًا بنبرة أثارت ذهول الجميع، بينما هو ينزع قناعه، ليكشف عن وجه النبيل فرديناند ديفيرو! الفنان العاشق؛ وعلى صدره حيث تلمع نجمة الإيرل الإنجليزي. كانت فيولا الجميلة تتكئ، تشتعل فرحًا وجمالاً.

«لقد أهنتني يا سيدي، وحرمتني من طلب يد ابنتك، في الوقت الذي كنت أتفوق فيه على الكونت أنطونيو بالمال والنسب. ولدي المزيد مما لا تستطيع حتى روحك الجشعة أن ترفضه، هأنذا إيرل «ديفرو» و«دي فير»، أقدم اسمي العريق وثروتي الهائلة فداء لحبيبتي هذه السيدة الفاتنة، التي أصبحت زوجتي الآن».

تسمّر الكونت في مكانه؛ بينما التفت فيرديناند للحشد وقال:

«أما أنتم يا أصدقائي، فليس أمامي سوى أن أدعو لكم بأن تبلغوا مثلي مسعاكم في هذه الحياة، وأن يحظى كل

t.me/yasmeenbook

كريم منكم بعروس فاتنة كعروسي، والتي حظيت بها في هذا الزواج المُقنَّع».

س. بيكويك. (ميج)

لماذا يشبه نادي بيكويك برج بابل؟، لأنه يعجّ بالأعضاء الجامحين.

سيرة حياة ثمرة القرع.

في يومٍ من الأيّام أخذ مزارع بذرة صغيرة وزرعها في حديقته، مرّ الوقت وكبرت البذرة حتى أصبحت أوراقها متعرّشة، وحملت عدّة ثمرات قرع. جاء شهر تشرين الأول، ونضجت الثمار، فما كان من المزارع إلّا أن اختار واحدة وذهب ليبيعها في السوق. فاشتراها منه بقّال ووضعها في متجره.

دخلت فتاة صغيرة المتجر في ذلك الصباح، كانت تعتمر قبعةً بنيّة وترتدي فستانًا أزرق اللون، ولها وجه ممتلئ وأنف أفطس، فرأت الثمرة واشترتها لأمها.

وبجهدٍ جهيد سحبتها إلى المنزل، قطعتها، ثم وضعتها في قدرٍ كبير على النار حتى غلت، هرست القليل منها، وأضافت إليه الملح والزبدة، وكان ذلك من أجل العشاء؛ لكن تبقت كمية من القرع فأضافت إليها نصف ليتر من الحليب، وبيضتين، وأربع ملاعق من السكر، ومن أجل النكّهة وضعت جوزة الطيب، مع بعض البسكويت؛ ثم سكبت المزيج في وعاءٍ عميق، وخبزته حتى أصبح لونه بنيّاً جميلاً؛ وكان هذا الطعام الذي تناولته في اليوم التالي عائلة تعرف باسم عائلة مارش.

تي. توبمان. (بيث)

حضرة السيد. بيكويك، سيدي:

أكتب إليك بشأن موضوع الخطأ، في الواقع إن المذنب هو رجل يدعى وينكل وهو يتسبّب بالكثير من المتاعب في النادي فيضحك كثيرًا كما أنه لا يكتب ما هو مُكلَّف به أحيانا أرجو أن تتكرم وتصفح عن هذا الذنب وتقبل أن يرسل لكم قطعة من الأدب الفرنسي فالمسكين لا يتمكن من إنتاج الأفكار ولديه دروس مكدّسة عليه أن ينهيها ويعدك أن يعوض عن هذا في المرة القادمة وأن يؤلف قطعة لم تقرأ مثلها من قبل.

t.me/yasmeenbook

. أما الآن فقد حان وقت المدرسة

ن. وينكل (آيمي)

ملحوظة: [في الرسالة السابقة اعتراف صريح بالجريمة المرتكبة. وإذا تدرّب صديقنا الشاب على علامات الترقيم، فستكون كتابته واضحة مستقبلًا.] ميج

حادثٌ محزن.

صرخات ألم اخترقت مسامعنا في يوم الجمعة الماضي، كان مصدرها القبو، صُعقنا فزعًا!؛ كيف لا وقد سبق تلك الصرخات صوت ارتطام جسم بالأرض بعنف. هرعنا إلى القبو لنجد أن رئيسنا العزيز مرتمياً على الأرض، وتعثر وسقط بينما هو في مهمة إحضار الخشب للأغراض المنزلية. كما أن المكان من حوله كان خراباً؛ فالسيّد بيكويك لدى سقوطه كان قد أغرق رأسه وكتفيه في حوض ماء، ورمى برميل صابون ناعم على سيادته المعظّمة، وتمزقت ملابسه بالكامل. خلّصناه من حالته الخطيرة تلك، ورأينا أنه لم يتعرض لإصابة بليغة، كانت فقط بعض الكدمات البسيطة، والحمد للّه أصبح الآن على خير ما يرام.

إد.

مأساة شعبية.

إن المسألة مؤلمة للغاية، لكن يبقى من واجبنا أن نسجّل قضية اختفاء صديقتنا الغالية على قلوبنا، السيدة «سنوبول بات باو»، والتي اختفت فجأةً بطريقة غامضة. كان كثير من الأصدقاء يحبّون ويستلطفون هذه القطة الجميلة؛ فهي تملك جمالًا يأسر الناظرين، وأخلاقًا تخطف القلوب، لهذا وقعت حادثة ضياعها كالمأساة على كل من في الجوار.

شوهدت آخر مرة عند البوابة تراقب عربة الجزار؛ ويُحتمل أن أحداً من الدنيئة نفوسهم رآها وسُحر بجمالها وقرّر خطفها... سرقتها!، لم تظهر وقد مضى على الحادثة أسابيع، لذلك فقدنا الأمل، ربطنا بسلّتها شريطًا أسود، وأزحنا طبقها جانبًا، وها نحن نبكي على السيدة سنوبول فقيدتنا، وسنظل نبكي إلى الأبد.

إن صديقًا علم بما حدث فأرسل هذه الجوهرة متعاطفًا:

رثاء

من أجل سنوبول بات باو.

إننا على فقدان صغيرتنا الأليفة حزينون،

t.me/yasmeenbook

وعلى مصيرها التعيس مضطّربون،
لن تجلس بعد الآن بجانب النار،
ولن تلعب عند البوابة الخضراء في الجوار.
رضيعها ينام في القبر الصغير منذ الشتاء،
تحت شجرة الكستناء؛
لكن على قبرها لن نبكي،
فلا نعرف أين الأيام بها قد تمضي.
لن نراها أبدًا بعد اليوم؛
سريرها فارغ، كرتها في سكون،
لا خرخرة محبة،
ولا في الصالة سوف نسمع نقراتها الحنون.

قطة أخرى تلاحق الفئران
تملك وجه بشع قذر؛
لكن هذه القطة لا تشبهها،
فلا تصطاد أو تلعب بعظمةٍ مثلها.
تخطو بكفوفها خلسة في القاعة
حيث لعبة الكرة أحبّت سنوبول أن تلعبها،
لكنها تكتفي بالبصق على الكلاب

التي كانت عزيزتنا تطاردها بشجاعة

القطة مفيدة لطيفة، وجاهدة تحاول
لكنها لن تبلغ تألقك؛
وأن تأخذ مكانك يا عزيزي، فهذا مُحال،
لأننا لن نعشقها كما نعشقك في الحقيقة والخيال.

س.

إعلانـــــــــــــــــات:

محاضرة شهيرة حول «المرأة ومكانتها» سوف تلقيها الآنسة أورانثي بلاغاج، المحاضِرة الماهرة ذات التفكير القوي، في قاعة بيكويك، مساء السبت القادم، بعد انتهاء العروض المعتادة.

اجتماع أسبوعي في «مركز المطبخ» تترأسه السيدة هانا براون، وغايته تعليم الشابّات فنون الطبخ. الدعوة عامة.

اتُّفق على أن يكون لقاء جمعية داستبان في يوم الأربعاء المقبل، وسيكون النشاط في الطابق العلوي من النادي. على جميع الأعضاء القدوم بالزي الرسمي وإحضار مكانسهم معهم، وذلك في الساعة التاسعة تمامًا.

السيدة بيث باونسر!! سيدة الدُمى... سوف تفتتح

t.me/yasmeenbook

تشكيلتها الجديدة من أزياء الدُمى في الأسبوع المُقبل. فقد وصلت أحدث الأزياء من باريس، كما وردَنا أنها سوف تقبل الطلبات بكل سرور.

ترقّبوا مسرحية جديدة على مسرح بارنفيل، في غضون بضعة أسابيع، مسرحية ستضاهي كل ما رأيتموه حتى الآن على المسرح الأمريكي. واسمها «العبد اليوناني، أو قسطنطين المُنتقِم،» ولكم تخيّل مدى إثارة هذا العرض الدرامي!!!

تلميحات.

ربما إذا اقتصدت ميج في غسل يديها، ولن تتأخر عن طعام الإفطار بعد الآن... حبّذا لو تتوقف جو عن الصفير في الشارع... كما سيكون من الجيّد أن تعيد بيث لآيمي منديلها... ولعلّ آيمي تتوقف عن الغرور، فليس على قبّعتها ريش.

التقرير الأسبوعي.

ميج: جيد.

جو: سيء.

بيث: جيد جدًا.

آيمي: وسط.

****

دوى صوت التصفيق حين انتهى الرئيس من القراءة، ثم ما لبث السيد سنودجراس (جو) أن وقف ليقترح أمرًا هامًا على الرئيس.

قالت بنبرة برلمانية وصوتٍ رخيم: «سيدي الرئيس، حضرات السادة الأفاضل، يشرّفني أن أقترح عليكم قبول عضوٍ جديد، لما يستحقه من شرف الانضمام، وأؤكد لكم أنه سوف يلاقي قبولكم بامتنان شديد، كما سيضيف إلى النادي، الروح والقيمة الأدبية، وسيجلب معه مرحًا ولطفًا لا ينتهيان. أقترح انضمام السيد: «ثيودور لورانس» كعضو فخري في نادي بيكويك!، والآن أرجو أن تقبله».

أضحكت جو الفتيات بتغيير نبرة صوتها الصادمة، لكن اعتلى القلق وجوههن، ولم تكسر إحداهن الصمت الذي خيّم بينما جو تعود لتجلس على كرسيّها.

أعلن الرئيس: «سوف نقوم بالتصويت، يُرجى من مؤيدي هذا الاقتراح قول نعم».

«نعم» قوية من سنودجراس (جو)، تبعها «نعم خجولة من بيث، فاجأت الجميع.

«على الرافضين قول لا».

كانت ميج وإيمي من الرافضين للاقتراح. قام السيّد وينكل (آيمي) ليقول بكبرياء بالغ: «لا نريد لأيٍّ من الصبية أن يشاركونا النادي، فهم لا يعرفون سوى المزاح

t.me/yasmeenbook

والمشاكسة. ونحن نريد أن ننعم بالخصوصية، وأن نكون مثاليّات، فهذا نادٍ للسيّدات فقط».

علّق الرئيس، وهو يسحب خصلة شعر صغيرة عن جبهته، كعادته حين يشكّ في أمر ما: «ما يقلقني هو أن يسخر من كتاباتنا».

وقف سنودجراس بحدّة مبالغ فيها قائلًا: «أنا أعدك يا سيدي، بشرفي وبالدماء النبيلة التي تسري في عروقي، لن يفعل لوري أي شيء قد يثير غضبكم. فهو يحب الكتابة، وسوف يساهم في تدريبنا ويمنعنا عن العاطفية المبالغ فيها، ألا تعتقد ذلك؟، سنقدم له القليل، وسيردّ لنا الكثير في المقابل، إن أقل ما يمكننا فعله هو أن نفسح له مكانًا بيننا، ونرحب بقدومه».

أثارت هذه المناشدات روح توبمان (بيث) فوقف على قدميه، وبدا وكأنه حسم أمره تمامًا. حيث قال:

«صحيح!!، هذا تماماً ما يجب أن نفعله، حتى لو كان الأمر مقلقًا. في رأيي أنه يستطيع القدوم، هو وجدّه إن أراد أيضًا!!»

وهكذا اشتعل النادي بعد هذا التصريح من بيث، وأعادوا التصويت وتمت الموافقة على انضمام لوري أخيرًا.

«هذا جيد!، بوركتم جميعًا!. والآن، اسمحوا لي أن أقدم العضو الجديد».

وهنا حدث ما أثار سخط الأعضاء، فتحت جو باب الخزانة، ليجدون لوري جالسًا على حقيبة، محمرًا وعلى وشك الاختناق بضحكته المكبوتة.

صاحت الفتيات الثلاث: «أيتها المحتالة!، أيتها الخائنة! أوه جو، كيف أمكنك فعل ذلك؟»

أما جو فقد قادت صديقها مُنتصرة، وجلبت له كرسيًا ووضعت على قميصه شارة النادي في لحظة.

قال الرئيس بيكويك: «إن برودة أعصابكما أيها الوغدان مذهلة».

محاولًا التظاهر بالغضب بينما تتسلّل الابتسامات المحِبة من بين شفتيه.

لكن العضو الجديد سوّى الموقف فقال بكل تهذيب واحترام: «سيدي الرئيس والسيدات ـ أرجو من حضراتكم المغفرة ـ والسادة!! دعوني أعرّف عن نفسي، أنا سام ويلر، خادم النادي المتواضع رهن إشارتكم».

صاحت جو: «رائع! عظيم!»

تابع العضو الجديد لوري وهو يحرّك يده يمينًا ويسارًا: «لأصدق القول، الذنب فيما حدث ليس ذنب صديقي المخلص وراعيي النبيل، الذي مدحني وأكرمني منذ قليل. فأنا من خططت لكل ذلك، وهو لم يرضخ لرغبتي إلّا بعد عناء كبير».

t.me/yasmeenbook

«هيا الآن. لا ترمي الأمر كله على نفسك، أنت تعرفين أن فكرة الاختباء في الخزانة كانت فكرتي»، كانت جو مستمتعة بالمقلب بطريقة لا تصدق.

قال العضو الجديد ملتفتًا للرئيس: «لا تهتموا بما قالته يا سيدي بيكويك. أنا الوغد الذي ارتكب الجريمة. لكن أقسم أنني لن أعيدها، وسوف أكرس جهودي من الآن فصاعدًا من أجل مصلحة هذا النادي الأبيّ.

صاحت جو: «اسمعوا! اسمعوا حكمته!»

تحمّست آيمي وبيث: «تابع، تابع!»

بينما انحنى الرئيس برضا.

«أرغب في أن أعلن عن أمرٍ كنت قد قمت به كعربون صداقة وامتنان لقبولي، وأيضًا من أجل تدعيم العلاقات بيننا نحن الدول المتجاورة، لقد أقمت مكتب بريد في الحديقة، في ركنها السفلي، المبنى فاخر وواسع، وعلى أبوابه أقفال مريحة للرسائل والفتيات إذا جاز التعبير. إنه بصراحة منزل الطيور القديم، لكنني أصلحته وجعلت سقفه مفتوحًا، كي يحمل كل أنواع الأشياء، ويوفّر علينا الوقت. يمكننا وضع الرسائل من الأسفل، ولكل دولة مفتاح خاص بها، اسمحوا لي أولًا أن أقدم المفتاح، وثانيًا أن أجلس على كرسي».

ارتفع صوت التصفيق والتهليل حين وضع العضو الجديد مفتاحًا صغيرًا على الطاولة، وظلّ الوضع هكذا فترة من الزمن قبل أن يعود الهدوء. ثم تناقشوا مطولًا، وفي النهاية خرجوا جميعًا مذهولين، فقد بذلوا قصارى جهدهم في ذلك اليوم. ولهذا كان الاجتماع حيويًا بطريقة غير اعتيادية، ولم يطل أكثر مما يجب، فقد انتهى بثلاثة هتافات مبهجة ترحب العضو الجديد.

لم تندم أيّ منهن على قرار ضم سام ويلر إلى النادي، فقد كان عضوًا مخلصًا مهذبًا ولطيفًا يحلم أي نادٍ في الحصول عليه. أضاف حيوية إلى الاجتماعات، وأسهَمَ في الصحيفة، كانت خطبه تهزّ الحضور، ومداخلاته وآراؤه ممتازة، سواء أكانت وطنيّة، أو كلاسيكيّة، أو فكاهيّة أو دراميّة، فقد كانت بعيدة كل البعد عن العاطفيّة. اعتبرتها جو مفيدة، فقد أضافت تأثيرًا جيدًا على أعمالها حين أعادت صياغتها.

وفيما يخصّ صندوق البريد، فقد حقق نجاحًا باهرًا بالفعل، مرّت عبره الكثير من الأشياء المختلفة، كتابات أدبية وربطات عنق وقصائد ومخللات وبذور المزروعات، وأيضاً رسائل طويلة وكلمات أغنيات، وخبز الزنجبيل والمطاط والدعوات والتوبيخ والجراء الصغيرة!

أحب الجدّ أن يشاركهم هذا المرح، فراح يرسل هو

t.me/yasmeenbook

بدوره هدايا للفتيات ورسائل غامضة وبرقيات مضحكة. أمّا البستاني في قصره، وقد كان غارقًا في سحر هانا، فكان يرسل رسائل الحب في ذلك البريد. كم ضحكوا حين اكتشفوا سرّهما، دون أن يعلموا حينها كمّ الرسائل الغرامية التي ستمر عبر صندوق البريد الصغير هذا في الأعوام القادمة.

الفصل الحادي عشر

تجارب واختبارات

عادت جو من منزل العمّة مارش وقد أنهكها التّعب بعد أن هرولت الطّريق كلّه، وكأنّ شبحًا يطاردها، دخلت للمنزل بسرعة، تنفّست الصّعداء وجفّفت عرق جبينها. ولما رأتها بيث على تلك الحالة قالت لها:

«ما بك؟ هل هناك شيء؟»

قالت جو:

«لا أصدّق أنّني لذت بالفرار؟»

خافت بيث وقالت لها:

«ممن؟، هل هل من أحدٍ يطاردك؟»

ضحكت جو وقالت:

«لا يا عزيزتي. إنّها العمّة مارش، وقد ذهبت اليوم إلى المصيف في تلك المدينة البائسة «بلمفيلد» الّتي

t.me/yasmeenbook

تبدو كفناء كنيسةٍ قديمةٍ مهجور، وجلّ ما كنت أخشاه أن تطلب مني مرافقتها، فما إن أخبرتني بأنّها ستذهب حتّى هرعت أوضّب لها حقائبها. كم أتعبتني تلك الحقائب الكبيرة، ولكنّ تلك المهمّة كانت كالعسل على قلبي كلّما تذكّرت أنّني سأتحرّر منها. اللّه وحده يعلم كيف مضت عليّ تلك السّاعات، لقد خفت كثيرًا أن تدعوني للذهاب معها، ويستحيل عليّ الرفض بعد ذلك، ولهذا ما أن رأيتها استوت في عربتها حتّى عقدّت العزم على الانطلاق بسرعة، وأظنّها كانت تريد ذلك منّي إذ همّت لتقول شيئًا فتجاهلتها وركضت مسرعة كالبرق».

أشفقت بيث الصّغيرة على جو، وجلست تخلع لها نعليها الممتلئين بالتّراب وتدلّك قدميها، وقد تورّمتا من كثرة الرّكض:

«لو رأيت نفسك كيف كنت وكأنّ الدّببة تلاحقك!».

قالت جو:

«لا يهم. المهمّ أنّني أفلت منها وزال الخطر».

دخلت ميج بعد أن عادت من عملها، وكانت أيضًا متعبةً، ولكنّها تحمل أخبارًا سارّةً. وجلست بجانب جو المُجهَدة وخلعت حذاءها، ثم طلبت من آيمي مدلّلتها أن تحضر لها عصيرًا باردًا، فقد كانت اليوم الأوّل من شهر حزيران وكان الطّقس حارًّا جدًّا.

أحضرت آيمي كوب العصير وأخذت منه رشفة، ثمّ أعطته لأختها وسألتها:

«وما الأخبار السّارة؟»

قالت ميج:

«لقد بدأ شهر حزيران!، وسيذهب آل كينج غدًا إلى المصيف وسيبقون هناك ثلاثة أشهر، وسأحظى بعطلة كاملة!»

قالت آيمي:

«تخلصت جو أيضًا من العمّة مارش. إنّها تشبه مصّاصي الدّماء. أليس كذلك؟»

قالت جو:

«أنتِ تقصدين مصّاصي الدّماء طبعًا. أخطئي كما شئت اليوم فليس لديّ طاقة لأصحّح لك، ويكفيني ما أعانيه من حرارة الطقس المرتفعة».

غيّرت آيمي الموضوع قبل أن تغيّر جو رأيها وتنتقدها، وقالت:

«إذًا هل وضعتما خططًا لإجازتكما».

وصرّحت كلّ واحدةٍ بما تنوي القيام به، فميج ستفعل عكس عادتها، ستنام متأخّرة وتستيقظ في وقتٍ متأخر أيضاً، وستعتني بنفسها بدل الآخرين؛ إنّه وقتها

t.me/yasmeenbook

والآن ستفعل ما تشاء. أمّا جو فقد عابت على أختها كلّ تلك الأعمال واصفةً إيّاها بالتّفاهات والكسل، فهي قد أحضرت مجموعة من الكتب، وقد عزمت على إنهائها، خاصّةً وأنها قد هيّأت أرجوحة من القماش نصبتها بين شجرتي تفّاح. وقالت إنّها بالطّبع سوف تقضي الكثير من الوقت مع لوري.

قاطعتها آيمي وقالت موجّهةً الكلام لبيث:

«لنأخذ هدنةً نحن أيضًا يا بيث ونلهو قليلًا. ألم نتعب من الدراسة؟»

أجابتها بيث:

«بالطّبع، كم سيكون ذلك ممتعًا!، ولكن طبعًا إذا وافقت أمّي، فأنا أيضًا لديّ الكثير من الأمور لأقوم بها، حيث يجب أن أتدرّب على المعزوفات والأغاني الجديدة، إضافةً إلى أنّ فساتين بعض الدمى قد تمزّقت، وعليّ أن أصلحها وأخيط لها ملابس خفيفة صيفيّة».

كانت مارمي تطرّز قماشًا جديدًا بهدوء في زاوية المنزل، وقد سمعت كل شيء فسألتها ميج:

«أمّي هل تسمحين لنا؟»

أجابتها مارمي:

«يمكنكنّ أن تفعلن ذلك لمدّة أسبوعٍ واحد، ولكنّي

أظنّ أنّكنّ لن تصبرن كثيرًا على تلك الحال، وسترين كيف أنّ اللّهو والخمول لا يختلف عن العمل الشّاق طوال الوقت».

تنهّدت ميج وقالت:

«كلّا. أنا واثقة من أنّنا لن نملّ المتعة وحياة الاسترخاء. لا أشكّ أنّنا سوف نقضي وقتًا ممتعًا للغاية».

رفعت جو كوب الليمون وقالت بعد أن سال بعضٌ منه:

«نخب الاستمتاع طوال الوقت وعدم العمل».

شربت الفتيات شرابهنّ، وأمضين بقيّة النّهار يتسكّعن في المنزل.

وفي اليوم التّالي لم يمرّ أيّ شيء كما هو متوقّع، فلم تنجز الأعمال المنزليّة. حيث عكفت كلّ واحدة منهنّ على ممارسة النّشاط الّذي تحبّه وتهواه، بعد أن غضضن الطّرف عن الأعمال الضّروريّة التي يجب ألّا تُهمَل، حتّى ولو كنّ في إجازة دائمة كالتّنظيف وترتيب المنزل. على الأقلّ في الأماكن الّتي يتواجدن فيها.

وهذه نبذةٌ سريعة عمّا حدث معهنّ:

فعلت ميج ما عزمت عليه، فظلّت في فراشها حتى العاشرة، ولم تنهض حتّى شعرت بالجوع فنزلت إلى غرفة الطّعام، ولكنّها لم تأكل شيئًا، فقد استوحشت المكان. إذ

t.me/yasmeenbook

لم يكن هناك أحدٌ من أفراد عائلتها إضافةً لحالة المنزل الفظيعة وكأنّ انفجارًا قد حدث في الدّاخل، عمّت الفوضى كلّ الأرجاء، ما عدا «مجلس مارمي»، المكان الّذي تجلس فيه الأمّ فقد كان نظيفًا مُلمّعًا ومنسّقًا.

قالت ميج:

«سحقًا لجو!، أين الورود، لماذا لم تحضرها وتضعها في المزهريّات؟. وبيث؛ لمَ لم تنظّف المنزل وتمسح الغبار؟!. آيمي المهملة كيف نثرت كتبها في كلّ مكان؟!».

ولكنّها تذكّرت أنّهن اتفقن أنّه لا أعمال منزليّة اليوم، فقط لهو ولعب.

كانت حالة المنزل كفيلةً أن تُفقدها شهيّتها، كما أن الطّعام لم يكن لذيذًا. فتركت المائدة ومضت. وبعد الظّهر ذهبت لتشتري قماشًا علّها تخيّط فستانًا جميلًا، اشترت قطعة وعادت للمنزل وقصّتها، ولكنّها اكتشفت أنّ نوعيتها سيّئة وستهترئ إذا غسلتها.

بدأت جو بقراءة كتبها، ولكن بشكلٍ مبالغٍ به، حتّى إنّها لم تعد تستطيع أن تفتح عينها وقد لسعت حرارة الشّمس وجهها بعد أن ظلّت تجدّف في النّهر طوال النّهار، وسبّب لها ذلك ضيقًا في الصّدر، فتعاركت مع لوري الطّيب لأبسط الأسباب.

بعد أن سقت عريشتها الجميلة، صففت آيمي شعرها

وارتدت أفضل ثوب لديها وحاولت الرّسم خارج المنزل، علّ أحداً يمرّ ويرى الفنّانة الصغيرة. وحين لم يمر بها سوى عنكبوت صغير فضولي، جمعت ألوانها وريشتها وهمّت بالعودة إلى المنزل، وعلى الطريق باغتتها أمطار مفاجئة بلّلت ملابسها... فأفسدت فستانها تمامًا. تذمّرت:

«يا إلهي إنّه الفستان الجيّد الوحيد. كيف سأحضر حفلة: «كيتي براون» يوم غدٍ؟»

بدأت بيث نهارها بالعزف والتدرب على البيانو، ولكنّها لم تكن جيّدة في العزف ولا الغناء، فخانتها النّوتات والحروف. وحاولت أن تسلّي نفسها بترتيب خزانتها، ولكنّها وجدتها قد قُلبت رأسًا على عقب حتّى إنّ ترتيبها كان أشبه بالأشغال الشّاقّة، فانصرفت عنها.

حان وقت الشّاي، كانت الفتيات متضايقات مهمومات، فكلٌّ واحدة منهنّ قد نالت نصيبها من الهمّ والغمّ، ولكنّهنّ كابرن على ذلك كلّه بحضور والدتهنّ والطّاهية هانا، حيث قلن جميعًا وبصوتٍ واحدٍ أنّهنّ مسرورات جدّاً. وامتدحن تلك الرفاهية والحياة المُمتعة، وطبعًا كان ذلك مخالفاً للحقيقة، لكنّهن اعترفن أنّه بالرّغم من مرور الوقت بشكلٍ بطيء، إلّا أنّ التّجربة تبدو مُبشّرة بالخير.

وبالرغم من ذلك الضيق كلّه، إلّا أنّهنّ لم يعترفن لأمّهنّ بثقل التجربة عليهن، وقلن لها:

t.me/yasmeenbook

«إنها كانت تجربةً لا بأس بها. سارت الأمور على ما يرام».

ضحكت مارمي وقالت غامزة:

«يبدو ذلك لي واضحًا تمامًا!»

ابتسمت مارمي، ثم نهضت هي وهانا تنظّفان المنزل وترتّبان كلّ شيء، فقد كان الوضع مزريًا. وهكذا مرّت أيام متتالية، وما زالت الفتيات تخرجن من مصيبةٍ لتقعن في أخرى أكبر منها. فالحياة بلا عمل، بلا اهتمام، بلا مسؤوليّة حياة فارغة جوفاء، ولا يمكن أن يسعد فيها أحد.

وكان لوقع تلك الحياة الفارغة أشدّ الأثر في نفوسهنّ، فمن كان يتصوّر أنّ بيث الحنونة قد تضرب دماها وتعنّفهنّ وتؤنّبهن. وبالرغم من أنّها أخذت تساعد أمّها وهانا ببعض الأعمال المنزليّة، إلّا أنّها تذكّرت أنّه ليس عليها أن تعمل لأسبوع؛ فاستبدّ بها القليل من الغرور وأقلعت عن المساعدة.

منذ أن تعرّفت جو على الفتى لوري، لم تشب علاقتهما أي شائبة، ولكنّها راحت تصرخ عليه وتوبّخه، وغضبت من الجميع وأغضبتهم. لقد عاد الشيطان يتحكّم بأفعالها وتصرّفاتها، فأخذت تبطش بكلّ من يقف أمامها وتضايقه. كلّ ذلك كان نتيجة الضغط النفسيّ والألم الذي لحق بعينيها بعدما أجهدتها بكثرة القراءة. وظلّت على تلك الحالة طوال الأسبوع.

قالت:

«لو أنّني ذهبت للمصيف مع عمّتي لكنت أفضل حالًا الآن، ولما أزعجت لوري برعونة تصرّفاتي، وكنت بدون شك قضيت أوقاتاً ممتعة.

أمّا ميج فقد ارتكبت أسوأ حماقة عندما تذكّرت جمال الفساتين التي ارتدتها بنات السّيدة موفا، ووسوس لها الشّيطان أن تعيد تنسيق وتخييط فساتينها لتجعلها تبدو رائعة مثل تلك الملابس. فأحضرت مقصّها وعدّة الخياطة وبدأت الكارثة، قالت عندما انتهت:

«لقد أفسدت كلّ شيء. الآن لم يبقَ لي لا جديد ولا قديم».

لم تجد المسكينة آيمي، وقد كانت أشدّهنّ مللًا وسخطًا، وسائل تسلية، لذا لم تفعل أيّ شيء، وحتى أنها هجرت موهبتها في الرّسم وأقلعت معها عن كلّ شيء، وأمضت معظم أوقاتها بالتّمنّي والآمال العظام. فلا الدمى سخيفة، ولا الحكايات الخيالية طفولية، كما حتى إنها لم تعد حفلات الشاي الكبيرة تستهويها، ولا النّزهات تستطيع أن تخفّف عنها؛ خاصّةً بعد أن انشغلت أخواتها عنها تمامًا.

«لو أنّني أعيش في منزل كبير، يعجّ بالفتيات الجميلات. لو أنني أذهب لمصيفٍ ما ألهو وأستجم. ولكن هأنذا عالقة في المنزل مع ثلاث أخوات أنانيات، وصبي كبير».

t.me/yasmeenbook

شعرت جميع الفتيات بعدم الاستقرار، ووجد الشيطان الكثير من السبل ليعكّر عليهنّ حياتهنّ ومزاجهنّ. وظلّت الأمور على هذا النّحو، حيث يمرّ الوقت ببطء شديدٍ، إلاّ وقد نفد صبرهنّ أكثر فأكثر.

وبقيت الأمور هكذا حتى جاء يوم الجمعة وأشرف الأسبوع على الانتهاء، ليتنفّسن جميعهنّ الصّعداء، وكم كنّ سعيداتٍ لانتهاء تلك العزلة، فعيشة لا بذل فيها هي جدول من دون ماء.

وقرّرت السّيدة مارش أن تضفي قليلاً من المتعة والتّشويق، فأعطت إذنًا لهانا كي ترتاح، وتفعل فتياتها كلّ شيءٍ بمفردهنّ، وبذلك تختتم تلك التّجربة فتكون درسًا لهن للأبد.

وفي صباح يوم السّبت، استيقظت الفتيات فنزلن تباعًا ليتناولن فطورهنّ كالمعتاد، ولكنهن لم يجدن شيئًا، لا هانا ولا الفطور ولا والدتهن.

صاحت جو في فزع: «ماذا حدث؟!»

أسرعت ميج تتفقّد أمّها فوجدتها في غرفتها مستلقية وقد دار بينهما حديثٌ جعل ميج تخجل كثيرًا، حيث قالت مارمي لها:

«أنا متعبة يا عزيزتي. لقد كان أسبوعًا صعبًا عليّ، سأستريح اليوم بأكمله، أرجو أن تُحسنّ التّصرف».

نزلت ميج وأخبرت أخواتها ما قالت أمّهن، وطمأنتهنّ أنّها ليست مريضة، لكن كلّ ما في الأمر إرهاق جسدي. فزاد حزنهنّ لأنّهن لم يعتدن عليها إلّا نشيطة ومتوهّجة.

تذمّرت جو بدايةً من تلك الحالة، وخاصّةً أنّهن لا يفقهن في أمور الطبخ إلّا شيئًا يسيرًا، ثمّ بعد دقائق غيّرت رأيها وقالت بمرح:

«حسنًا. أنا أتوق للقيام بشيء ما، فقد مللت من قلّة العمل. أريد القليل من الإثارة».

كان إنجاز بعض الأعمال أمرًا يبعث على الرّاحة والسّرور. وقد قسّمن العمل فتكفلت الصغيرتان بتحضير المائدة وترتيبها، أمّا ميج وجو فقد كان عليهما تحضير الطعام.

حضّرت جو وميج طعام الإفطار وكانتا متحمستين في بداية الأمر، وما إن جدّ الجدّ حتى بردت همّتهما لصعوبة الطّهي، ولأنهما ليستا متعوّدتين على تلك الأعمال.

قالت جو:

«مسكينة هانا! كم تتعب وتعاني من أجلنا».

ردّت عليها ميج:

«صدقت هانا عندما قالت إنّ المنزل يحتاج لعشرات الأيدي، والأمر ليس تسلية أو دعابة».

t.me/yasmeenbook

جهّزت ميج وجبة الفطور لأمّها، حيث وضعت الطعام على صينيّة وبجانبه قدح من الشّاي، وصعدت به إليها، لم يكد يخلو صنف من الطعام من شائبة تشوبه، فقد احترق البيض والتصق بالمقلاة، وكان الشّاي شديد المرارة حيث بقي على النّار لأكثر من عشر دقائقٍ بعد غليانه. أمّا الكعك فقد كان قاسيًا وشديد اللمعان لكثرة ما رشّت عليه ميج الكربونات.

قالت الأمّ:

«شكرًا جزيلًا يا حبيباتي، ولكنّي كنت أنوي أن أتدبّر شؤوني بمفردي».

أكلت مارمي من طعامهنّ ووجدته لذيذًا بالرغم من عيوبه، فقد كان ذلك أوّل إفطارٍ تحضّره فتياتها بحبّ وحنان. وراحت تحدّث نفسها:

«لا مشكلة إن تعبن قليلًا، المهمّ أن يستفدن من درسٍ لا تعطيه الحياة بالمجّان أبدًا».

كان طعام الفطور سيئاً بالفعل، وكان ذلك أمر توقّعته السيّدة مارمي. ولذلك أعدّت مسبقًا قطعةً من اللّحم المقدّد، واحتفظت بها في غرفتها دون أن تنتبه لها الفتيات.

كانت تلك المرّة الأولى الّتي يأكلن بها طعامًا شنيعًا كهذا، تجمّعن وجلسن إلى المائدة لتناول الطّعام سويًا،

ولم تترك الفتيات ملاحظةً إلّا وأدلين بها لكبير الطّهاة ميج، مما أثار حزن شقيقتهنّ التي تعبت فعلًا في تحضير تلك الوجبة، ولما رأتها جو حزينة ومستاءة هكذا، قالت لها:

«لا تحزني، أنا أقدّر تعبك كلّه. وعلى الرّغم من أنّ معرفتي بالطّهي أقلّ منك. سأعمل على تحضير طعام الغذاء بنفسي، وسأكون أنا خادمتك وأنت الحبيبة المدلّلة لدي، اغسلي يديك وأشرفي فقط على ما أقوم به».

قبلت ميج ذلك العرض بكلّ سرور، وانصرفت إلى أعمالٍ منزليّةٍ أخرى وقالت لنفسها:

«من أين أبدأ العمل. لو أنّ قنبلةً انفجرت لما أحدثت هذه الفوضى».

توجهت مارجريت إلى صالة الاستقبال بسرعة، وبدأت عاصفة العمل والنّشاط لديها، لكنّها كانت عاصفة مدمّرة أكثر منها مرتّبة، فقد وضعت كل الأشياء المتناثرة تحت الأريكة دون ترتيب، وبدلًا من أن تمسح الغبار العالق فوق الخشب والمدافئ، أسدلت الستائر لكي تخفي ذلك المشهد المريع.

كان أكثر ما أزعجها عندما علمت أنّ جو قد أرسلت دعوة بالبريد للفتى لوري تدعوه لذلك الغذاء الموعود، علّها تعوّضه عن معاملتها السيّئة الأخيرة له.

t.me/yasmeenbook

قالت ميج:

«أوه جو. لقد تسرّعت كثيرًا. أنا أعلم أنّ ذلك من حسن أخلاقك وكرمك، لكن كان عليك أوّلًا أن تتأكّدي من أنّك سوف تنجحين بالمهمّة. لن أتدخل في هذه الدعوة. أنت من دعوته وعليكِ أن تتكفّلي بالأمر».

أجابتها جو بلهجة الواثق بنفسه:

«عزيزتي ميج لن أحتاج للكثير من المساعدة، فقد جهّزت قائمة بالطّلبات وحضّرت الأصناف التي سأطهوها».

قالت ميج:

«إنّها مغامرة حقيقيّة بل ومجازفة. لو تقبلي أن نصنع بعض الفطائر والمعجّنات وينتهي الأمر على خيرٍ وسلامة».

قالت جو:

«لا تقلقي من شيء بوجود كتاب الطّهي. لا تخافي، لن أفشل أبدًا. ثمّ إنّ الأطعمة التي سأعدّها هي:

البطاطا واللّحم المفروم والهليون والمحّار، بالإضافة لطبقٍ من السّلطة ونختمها بالقهوة. صدّقيني! ستكون دعوةً رائعةً متكاملة نفتخر بها جميعنا. أمّا السَلَطة فسأصنعها حرفيًا كما يقول لي الكتاب. أنا لا أريد منَك سوى إعداد حلوى الزّنجبيل بالسّكر وبعض الإرشادات الخفيفة. أرجوك لا تحبطي من عزيمتي».

قالت ميج بفخر وكأنّ جو منحتها رتبةً عسكريّة:

«حسنًا سأساعدك قدر المستطاع بما أعرفه. ومن الأفضل لك أن تذهبي لتسألي أمّي وتأخذي إذنها قبل أن تشتري الأشياء، وتبدئي تلك المهمّة».

وكانت الصّدمة كبيرةً عندما سألت جو أمّها، وقالت لها أن تفعل ما تريد لأنّها ذاهبة للخارج لتناول الطّعام مع الأصدقاء، وتريد أن تنعم بالهدوء والاستمتاع قليلًا، ثمّ تعود فتقرأ بعض الكتب.

قالت جو بصوتٍ خافت:

«ما خطب أمّي. لم أرها قط على هذا الحال من الكسل والتّثاقل. إنّ ذلك أصعب وأغرب من كسوف القمر».

نزلت جو من عند مارمي وإذ بها تسمع صوت عويل أختها بيث آتٍ من الصّالون، فتحلّفت مباشرةً أنّها ستعاقب آيمي إن كانت هي السّبب في بكائها، وهرعت إليها وإذا بعصفورها الكناري ممدّدٌ في قفصه وقد مات بعد أن فتك به الجوع.

انتحبت بيث وهي تخرجه من قفصه وقالت:

«إنّها غلطتي أنا، لقد نسيته تمامًا. أوه بيب المسكين. ما أقسى قلبي. لو كان هناك بعض البذور لما مات. لن أسامح نفسي أبدًا. انظرن كيف جفّت مخالبه وذاب منقاره تمامًا

t.me/yasmeenbook

وكأنّه كان يستجدي بعض الطّعام والشّراب قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة».

اقتربت جو من العصفور وأخذت تفحصه للمرّة الأخيرة علّه يكون حيًا: نظرت لعينيه المغمضتين واستمعت لضربات قلبه، فتأكّدت أنه قد فارق الحياة وقالت:

«لن يجدي ذلك نفعًا، لقد مات، لنعدّ له نعشًا مناسبًا ونقيم له جنازة».

قالت آيمي:

«يبدو أنّه متخشّب، أو ربّما أصابه البرد، هل نضعه بالقرب من المدفأة علّه ينعم بالدفء فتدبّ به الرّوح من جديد».

شعرت بيث بالمرارةِ والحسرة، وتعهّدت أمام أخواتها أنّها لن تربّي العصافير بعد هذا اليوم، فهي من تسبّبت بما حلّ بذلك المسكين، وقالت لآيمي:

«ألا يكفيني أنّني قتلته جوعًا. تريدينني أن أشويه الآن؟، سأدفنه في الحديقة فحسب، وليسامحني اللّٰه على ما حدث. وداعًا يا بيب المسكين».

قالت جو:

«لقد حدث ما حدث وانتهى الأمر. كفّي يا حبيبتي عن النحيب. لن يجدي ذلك أيّ نفعٍ فقد مات العصفور. ضعيه

في الصندوق الآن، واليوم ندفنه بعد الغذاء ونقيم له جنازة صغيرة. لقد كان أسوأ أسبوعٍ في الحياة، ولم يسر أيّ شيءٍ فيه على ما يرام، وما حدث لبيب كان أسوأ ما فيه لقد دفع أكبر ثمن. ابق الآن مع أخواتك وأنا عليّ أن أبدأ تحضيرات الغذاء».

صعدت جو إلى المطبخ، وبدأت العمل: غسلت الأطباق والأواني وأوقدت النّار ووضعت عليها قدر الماء، ثم ذهبت للسوق لتشتري قليلًا من المحّار والهليون وعلبتين من الفراولة.

وكما وعدتها أختها ميج، حيث ساعدتها بقدر المستطاع، فقامت وأعدّت العجين ووضعته بجانب المدفأة لكي يخمر قليلًا، ولكنّها نسيته عندما أتت سالي صديقتها وانشغلت بها حتّى انساب من القدر، الأمر الذي أغضب جو حقًّا عندما عادت من السّوق ورأت ذلك المشهد، فهاجمتها وقد تغبّرت بالكامل من آثار الطحين المتناثر:

«لماذا نسيت العجين بجانب المدفأة؟، لقد اختمر أكثر مما يجب!!»

ونظرت نحوها ميج وكأنها تقول: لقد حذّرتك من تلك العزيمة.

فانسحبت جو وعادت أدراجها تكمل العمل، وكانت الكارثة الكبرى عندما أصبح ذلك الغذاء أضحوكة

t.me/yasmeenbook

الموسم!! فقد اعتمدت جو على نفسها تمامًا، لتكتشف في نهاية المطاف أن الطعام الجيد يحتاج لأكثر من الإرادة والطاقة، وزاد من الطين بلّة أنّ ضيفةً ثقيلةً حضرت لدى عائلة مارش على الغداء؛ وهي امرأة حادّة الطباع، عانس لا يشغل بالها سوى الغيبة والنّميمة، ولو كان الأمر بأيديهنّ لما استقبلنها، ولكنّ أمّهن كانت تحرص على أن يعاملنها باحترامٍ وطيبٍ وإحسان.

كان اسمها الآنسة كروكر، ذات جسد نحيف، وأنف معقوف، ونظراتٍ حادّة، أتت إليهنّ وفرضت نفسها عليهنّ فرضًا.

قالت ميج:

«أهلًا وسهلًا. تفضّلي سيّدة كروكر».

وأعطتها كرسيًا وأجلستها بجانبها.

كان الطّعام سيئاً للغاية، فقد تُرِك الهليون على النّار أكثر من اللازم حتّى تيبّس بالكامل، احترق الخبز وشاط، وكانت البطاطا ما تزال نيّئة وقد تشرّبت الزيت كله، كان المحار أكبر نكتة، فلم يبقَ منه إلّا الاسم بعد أن ذاب بالكامل. أمّا الكعكة فقد تكتّلت ولم تنضج بما فيه الكفاية، وكانت القشدة حامضة بدلاً من أن تحلّي الكعكة جعلتها حامضة لاذعة. والأسوأ من ذلك كله أنّها وضعت ملحًا بدل السّكر!

قالت جو:

«لو أمّي هنا الآن لكانت أنقذتني من المصاب الذي أنا فيه، ولكنّها اليوم لا تأبه بنا أبدًا فذهبت حتّى دون أن تشرف ولو قليلًا على ما أقوم به. آه، كم أنّ وجودك ضروريٌّ لحياتنا يا أمي».

اجتمع الحشد على الطّاولة بعد أن تأخّر الغداء أكثر من ساعة ونصف. كان الجميع واجمًا مذهولًا من منظر الطّعام العجيب. ومذاقه أسوأ من شكله بكثير. فما أن يتذوقوا شيئًا حتّى يبعدوه من أمامهم على أمل أن يكون التّالي مقبولاً أكثر، ولكن محال. كان كلّ شيء سيء للغاية.

بدا الجميع منزعجًا، لم ترغب السّيّدة كروكر في تناول المزيد، لذا اكتفت ببعض الحلوى، وما أن وضعتها في فمها حتَى بصقتها على الفور، وركضت تشرب الماء. حيث كانت تلك الحلوى شديدة الملوحة. تناولت آيمي قطعةً منها لترى ما خطبها، فأكلت وبسرعة البرق وضعت منديلها على فمها. وعندما جاء دور لوري ليأكل اغرورقت عيناه بالدّموع من شدّة الضحك من ذلك المذاق السيء.

قالت ميج:

«عشتُ وتذوّقت حلوى مالحة!»

حزنت جو بسبب ذلك الطّعام المخزي، وندمت

t.me/yasmeenbook

ندمًا شديدًا على تلك الدّعوة. تمنّت لو أنّ الأرض تنشقّ وتبتلعها، خاصّةً بعد أن ذهبت كلّ جهودها سدىً. لكنّ لوري فائق الأدب ظلّ يضحك ويمرح ويروي أحاديثَ طّريفة كي ينسيهن قليلًا ممّا لاقوه من ذلك الطّعام.

تناول المدعوّون الزّيتون والخبز والزّبدة. وودعتهم السيدة كروكر وانطلقت وفي جعبتها كنز من الأخبار والثرثرة.

قالت جو في سرّها:

«ستفضحني من دون شك».

ثم قالت لأخواتها وهن ينهضن: «لن أنظّف الطاولة الآن، هيّا لندفن العصفور بيب».

وتهيّبت البنات ولوري يشيّعونه إكرامًا له، حفر له لوري حفرةً صغيرةً بين بعض الأزهار، وضعوا فوقه التّراب ورشّوا بعض البنفسج والورد الصّغير، كتبت جو على كرتون صغيرة وضعتها فوق القبر:

«هذا القبر يضمّ جسد العصفور بيب

عصفور آل مارش

مات في السّابع من حزيران

لقد أحببناك وتألمنا من أجلك

ستبقى في قلوبنا. ارقد في سلام».

أمضت جو وميج باقي النّهار في تنظيف المطبخ بعد أن ضربت الفوضى كلّ مكان، كان التّنظيف أصعب عليهنّ من إعداد الطّعام نفسه. أرادت بيث أن تصعد وترتاح قليلًا، ولكنّ الفوضى كانت قد ضربت غرفة النوم أيضًا، فرتّبت الأسرّة ومدّت الشّراشف وحزّمت الوسائد ونفضت الغبار عن الأسرّة والأرض.

أمّا آيمي فقد عانت من آلام في بطنها بسبب تلك القشدة الحامضة، وذهبت لتتنزّه قلّيلًا مع لوري علّه ينسيها ما حلَّ بها فتلهو قليلًا.

تعبن كثيرًا من التّنظيف والعمل، ولمّا فرغنَ منه أكلن بعضًا من التّوست المحمّص وشربن الشّاي السّاخن اللذيذ.

عادت الأمّ وقد وجدت بناتها على تلك الحالة المُزرية من اليأس والإحباط، ونظرت للخزانة فوجدتها مرتّبة نظيفة فاطمأنّت أن تجربتها في طريقها للنجاح.

ثمّ توالى بعض الزّائرين إلى المنزل فسارعت البنات لإكرامهم، فحضّرن الشّاي ورتّبن المنزل من جديد، وذهبت جو وميج للسوق لشراء بعض الأشياء حتى أتى المساء وقد أُنهكهنّ التّعب. فارتمين تارة على المقعد في الحديقة، وأخرى في الشّرفة يلتقطن أنفاسهنّ.

قالت جو:

t.me/yasmeenbook

«لا أصدّق أنّ كابوس العمل قد انتهى».

أردفت ميج:

«كان النّهار طويلًا جدًّا لكنّه انتهى أخيراً».

قالت آيمي:

«ها هو منزلنا استعاد نظافته ورونقه».

فأجابت بيث بحزن:

«لا يوجد للبهجة مكان، وقفصي خالٍ من عصفوري الحبيب بيب. حتّى أمّي ليست معنا وانشغلت عنّا تمامًا».

جاءت مارمي وقد علمت من السّيّدة كروكر بأمر العشاء المحزن، وقالت لبيث بشأن العصفور:

«أشتري لك غيره إن أردت يا حبيبتي».

وابتهجت الفتيات بعودة أمّهن وارتمت بيث في حضنها.

قالت الأمّ بذكاءٍ ودهاء:

«حسنًا يا فتياتي هل اكتفيتنّ بأسبوعٍ من اللهو أم تردن أسبوعًا آخر».

انتفضت الفتيات وكأنّ مصيبةً ستحل بهنّ وصرخت جو قائلةً:

«لا أريد أيّ إجازات».

وافقتها الفتيات وقلن:

«لا نريد مثل تلك العطلة البغيضة، فقد زادتنا همًّا وكآبة».

قالت الأمّ:

«ألا ترين يا جو أنّه عليّ أن أدرّبك على تحضير الطّعام وصنع الحلويات وترتيب المائدة؟»

قالت جو:

«أمّاه أريد أن أتعلّم الطّهي وأقوم بالأعمال المنزليّة على أفضل نحو، ولكنّي أريد أيضًا أن ألهو وأستمتع بوقتي، فلا يكون عملًا طوال الوقت ولا تسلية طوال الوقت».

سألت ميج التي كانت تساورها الشكوك طوال النهار أمها:

«هل تقصدت الذهاب وتركنا بمفردنا لتري كيف سنتصرف؟»

قالت الأمّ:

«أجل، أردت منكن أن تفهمن أن تقسيم الأعمال بالتساوي يعود بالمنفعة على الجميع. هل أقنعتكنّ التّجربة أنّ بعض الأعمال لا يجب أن تهمل، وأنّ السعادة دائمًا تكون بالعطاء والأخذ المتبادل؟. لقد تماديتنّ يا صغيراتي في الاعتماد عليّ وعلى هانا، فعلى الرّغم من أنّ ذلك

t.me/yasmeenbook

يسهّل حياتكنّ، ولكنّه لا يجلب لكنّ السعادة والراحة. ضعن أنفسكنّ دائمًا مكان الآخرين واعلمن أنّ السّعادة بالعطاء والبذل. حبّ النّفس الأنانيّة وعدم الاكتراث للغير صفات تقتل صاحبها وتدمّر الحسّ الإنسانيّ المرهف. إنّ العمل جوهر الحياة ومضمونها».

صاحت الفتيات جميعهنّ بصوتٍ واحد:

«تمامًا. معك كلّ الحقّ يا أمّي».

اجتمعت الفتيات بنفسٍ واحدٍ وقلن أنّهنّ سيقتسمن العمل ويوزّعنه فيما بينهنّ: فجو ستتعلم الطّهي وتتقنه بل وتتفنّن به أيضًا. وأخذت عهدًا على عاتقها إعادة تدبير مأدبة جديدة تجعل أمّها وأخواتها فخوراتٍ بها.

وميج وعدت بأن تحيك ملابس والدها فتريح أمّها من تلك المهمّة بدلًا من الشكوى والتّذمّر.

وبيث ستقلع قليلًا عن اللهو والعزف والغناء، وتنكبّ على دراستها وعلمها فقد أهملت ذلك كثيرًا في الفترة الأخيرة.

أمّا آيمي فعزمت أن تتعلم صنع ثقوب الأزرار، وأن تركّز على تعلم المفردات.

قالت جو: «سنعمل كالنحلات، وسنحب العمل أيضًا!!»

قالت الأمّ:

«أنا سعيدة بنتيجة التجربة!. أصغين إليّ، إن سرّ الحياة في التوازن، فلا تبالغن بالعمل فترهقن أجسادكنّ ولا تبالغن في التّسلية والاستمتاع فتتعب نفوسكنّ وتشعرن بالكآبة والملل. كنّ بين هذا وذلك. نظّمن وقتكن، اعملن وتسلّين. وافهمن قيمة الوقت. حينها يصبح الشباب نعمة، ويأتي العجز مع القليل من الندم، ورغم الفقر تغدو الحياة قصّة نجاح جميلة».

«سوف نتذكّر يا أمي!» ونفّذن ما وعدن به أمّهن.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثّاني عشر

لوري ومعسكر التّخييم

في يومٍ من أيّام شهر تموز دخلت بيث إلى المنزل، وكان بين يديها العديد من الطرود. حيث عُيِّنت مسؤولة عن صندوق البريد الذي أُنشئ بين عائلتها وعائلة السيّد لورانس، كان ذلك من باب المُزاح. وقد أحبّت الفتاة الصغيرة تلك المهمّة كثيرًا، خاصّةً أنّها دائمة التّواجد في المنزل لا تغادره إلّا نادراً

قالت بيث: «ها هي باقة أزهارك يا أمّي! لم ينسها لوري ولو لمرّة،» ووضعتها في المزهرية.

ثمّ حملت الرّسائل والهدايا من الصّندوق الخشبيّ، ودخلت توزّع كلّ غرض لصاحبته. رسالة من نصيب الفتاة الكبرى ميج، مع فردة قفّازٍ واحدة... فتذّكرت ميج أنّها تركت زوجًا من القفّازات بمنزل لوري وقالت:

«ولكن أين الفردة الأخرى يا ترى؟»

t.me/yasmeenbook

تعجّبت ميج كثيرًا فسألتها بيث:

«ربما أوقعتها في الحديقة وأنت عائدة!»

ردّت ميج مستغربة: «كلّا، أنا متأكدة أنّني تركتهما سويّة».

«أؤكّد لك ليس هناك إلّا فردةٌ واحدةٌ في البريد».

قالت ميج:

«كم أكره أن تضيع فردة قفّاز».

توقّفت ميج عن الخياطة والتّطريز على الفور، وكانت تجلس قرب أمّها. فتحت الخطاب وكان يحوي ترجمةً لأغنية ألمانيّة.

قالت بصوتٍ عال: «أعتقد أنّه من السيّد بروك، فهذا ليس خطّ لوري!»

دخلت الغبطة والسّرور إ قلب الفتاة الجميلة، وكانت ترتدي ثوب نومٍ أبيض ناعم وتطرّز ببراعةٍ وخفّة، وبدأت تدندن وتقرأ كلمات الأغنية بحماسة، فتدحرجت كرات الخيوط من بين يديها ووقعت على الأرض، تناولتها ميج فتدلّت خصلات شعرها على وجهها المشرق وجبهتها العالية الجميلة. كانت كالملاك بجسد أنثى.

نظرت الأمّ لابنتها فرأتها بتلك الهيئة الملائكيّة وملأت الفرحة قلبها ورمقتها بنظرة دهاء؛ فقد ظنّت أنّ هناك علاقة عاطفيّة تنمو بين ميج والسيّد بروك.

لم تدر ميج بما تفكّر أمّها، لكنّها كانت سعيدة للغاية.

قالت بيث: «رسالتان للآنسة جو، وكتاب وقبّعة كبيرة متدلّية الأطراف.» وتوجهت نحو المكتب حيث كانت جو تكتب.

ضحكت جو عندما أعطتها بيث إيّاها ووضعتها على رأسها قليلًا لتجرّبها ثمّ وضعتها فوق تمثالٍ صغيرٍ لأفلاطون كان بحجرة المكتبة. وشرحت لها ما دار بينها وبين لوري من حوار، قالت لها:

«أخبرتُ لوري منذُ بضعة أيّام أنّني أتمنّى أن تصبح القبّعات الكبرى موضة اليوم لأنّ الشّمس تسبب لي حروقًا كثيرةً في وجهي، فقال لي:

«لماذا تهتمّين بالموضة؟، أنا أرى أن ترتدي قبّعة كبيرة من أجل راحتك وفقط».

«عندها اضّطررت أن أخبره أنّني أنا أيضًا أعتبر قصّة الموضة تلك مجرّد هراء، ومن باب السّخافات النسائيّة، وأنّ كلّ ما في الأمر أنّني لا أملك واحدةً كبيرة فأرسل لي واحدة!. سوف أرتديها لأريه أنّني لا أهتمّ بأمور الموضة».

فتحت جو الرّسالة الأولى وكانت من أمّها، وما أن قرأتها حتّى احمرّت وجنتاها وانهمرت الدّموع من مقلتيها لتبلّل ورقة الرّسالة، شاكرة اللّه ألف مرّةٍ على وجود أمّها بحياتها.

جاء بالرّسالة:

t.me/yasmeenbook

«أنا أعلم انّك تعانين بصمت، وتحاولين جاهدةً أن تكبحي جماح نفسك وتمتصّي جذور الغضب داخلك بكلّ الوسائل، راقبتك كثيرًا عن كثب وعلمت كم يكلّفك ذلك من قوّة وصبر، والحقّ يقال، لا أحد يقدر على ترويض نفسه بسهولة كما فعلت.

إن كان علينا أن نشكر أحدهم فلن نشكر إلّا كتاب النّصائح الّذي كان رفيق دربك ونوّر لك الطّريق. أنا مسرورةٌ جدًّا بك وسأبقى بجانبك دائمًا وأحبّك. بالتوفيق والسّعادة يا حبيبة قلبي».

«أمّك مارمي»

ما أجمل شعور أن نمضي في الحياة قدمًا ونحن متأكّدين أنّنا لسنا وحيدين في هذا العالم، وأنّ هناك عينًا ترعانا وتحرسنا في غفلتنا قبل صحوتنا، كان ذلك دائمًا أسلوب أمّها مارمي فلا تفوّت مناسبةً إلّا وتخبر بناتها بطريقةٍ غير مباشرةً عن مدى حبّها وحنانها، وتبثّ فيهنّ ما يحتجنه من الرّوح المعنويّة الّتي هي في معظم الأحيان أهمّ من الأمور المادّية.

فرحت كثيرًا لما أحدثته تلك الكلمات الطّيّبة في نفسها من أثرٍ بالغٍ، وطوت الورقة ودسّتها في ثوبها حيث علّقتها بدبّوس كتعويذةٍ على اعتقادها أنّها ستحميها وتمنع عنها الشّرور.

ثمّ فتحت الخطاب الآخر وكان من لوري، حيث عرفت ذلك بسرعةٍ من خطّه الكبير.

عزيزتي جو،

«سيحضر بعض الأصدقاء والصديقات من إنجلترا غدًا، وأريد أن نقضي وقتًا جيّدًا، أملي أن يكون الطّقس صحواً كي أنصب خيمتي في المرج ونستمتع بوقتنا. لا تحضرن أيّ شيءٍ، فقد أعددت ما نريد. سيشرف بروك على كلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ، وستهتمّ كيت فون بالأمور الخاصّة بالفتيات. سنفعل كلّ شيءٍ بأنفسنا ونطهو طعامنا ونشعل الحطب ونلعب كرة اليد، آمل أن تحضر أخواتك جميعهن أيضًا وخاصّةً بيث!! ولن يضايقكن أحد. أعدك أنّنا سنستمتع كثيرًا».

أراكِ قريبًا.

صديقك الأبديّ، لوري.

ذُهلت جو كثيرًا بما قرأته وفي لحظة ملأت الفرحة كيانها، فهرعت إليهنّ تزفّ خبر المخيم ذاك وقالت بحماسة بالغة:

«أمّي. هلّا سمحت لنا بالذهاب؟، أرجوك لا تعارضي. سنلهو ونستجمّ وسنقدّم أنا وميج المساعدة، فمن المؤكّد أنّ لوري سيحتاجنا، عدا عن المتعة التي ستحظى بها كلٌّ من بيث وإيمي».

t.me/yasmeenbook

سألتها ميج:

«هل تعرفين شيئًا عن أسرة فون؟ أخشى أن يكونوا عائلةً متعجرفةً متكبّرة؟»

أجابتها جو:

«إنّهم أصدقاء لوري من الخارج. كيت أكبر منك سنّاً وفرانك وفريد من عمري تقريباً، وجريس تبلغ من العمر نحو تسعة أعوام. إنّه يحبّهم ويحترمهم وكان يمدحهم أمامي، ولكن صراحةً لا أدري إن كان يحبّ كيت أم لا. فأنا أفهمه من نبرة صوته وملامح وجهه!»

قالت الأمّ:

«حسنًا يا فتيات. موافقة».

قفزت جو وعانقت أمّها وطبعت على خدّها قبلة حانية عميقة اختصرت كلّ عبارات الشّكر والمحبّة.

وجاءت آيمي لتريهنّ ما أتاها في صندوق البريد، وقد كان علبةً من كرات الشوكولاتة وصورةً عزمت فورًا أنّ تنسخها.

وجاء دور بيث لتريهنّ هي أيضًا ما جاءها، ولكنّ محتوى صندوقها كان الأغرب بين صناديقهنّ، فلم تأتها دعوة تخييم أو كتاب أو هديّة... بل دعوة من الجدّ العجوز لورانس لتعزف له على البيانو الليلة. لقد كوّنا صداقة من

نوع مختلف. عندما تجتمع الأرواح والسّرائر لن يشكّل العمر أيّ فرق!. فرحت بيث بالدعوة وكانت على قلبها أحلى من السّكر.

قالت ميج التي تهتمّ بمظهرها أشدّ اهتمام معيدة دفّة الحديث إلى الرّحلة المرتقبة:

«الحمد لله أنّني اشتريت فستانًا. هل لديك شيء لائق ترتدينه يا جو؟»

أدارت جو عينيها عنها، وقالت:

«ما هذا الهوس يا ميج؟ إنّها رحلة تخييم!. ثمّ إن حلَّة الإبحار الرمادية خاصتي ستفي بالغرض. بغضّ النظر عن أيّ شيء، سنمضي اليوم في التجديف وتناول الطّعام في الخارج. لا داعي للتكلّف والرّسميّة».

أقبلت جو على بيث وسألتها بلهجة الخائف من الرّفض:

«بيث. هل ستأتين؟»

وضعت شروطًا كعادتها وقالت:

«لا أريد أن أتحدّث مع الصِبية ولا أن ألعب أو أغنّي. ثانيًا أقوم بنصيبي من العمل دون مضايقةٍ من أحد».

«أعدك! لن يزعجك أيّ صبيّ!»

قالت بيث: «إن أصر لوري ووعدت أن تعتني بي يا جو سأذهب».

t.me/yasmeenbook

قالت جو وقد سرّها أنّ أختها سوف تشارك:

«كم أنا فخورةٌ بك يا صغيرتي. كلّما مرّت الأيّام زادت قوّتك وقلّت معاناتك مع الخجل الشّديد الّذي تعانين منه. ثابري على هذا على هذا الأمر وأنا بجانبك وأرعاك دائمًا».

أصغت الأم لما دار من حديث بين جو وبيث وتأكّدت لأوّل مرّةٍ أن نبتتها الصغيرة التي غرستها في نفوس فتياتها قد نضجت وبدأت تثمر. إنّها شجرة التّربية والرّعاية وغرس الفضائل.

وغمرت الفرحة المنزل والحماس وحثّت جو شقيقاتها على إنهاء الأعمال المنزليّة بحيث يتمكّن من قضاء إجازتهنّ وهنّ مطمئنّات.

استيقظت جو صباح اليوم التالي، وكانت الشّمس مشرقةً جميلة والنهار مثاليًّا للتّنزه بالخارج. لاحظت أن آيمي تضع مشبك غسيل حول أنفها كي يستقيم إلى أعلى بغضّ النّظر عن الألم الذي كانت تشعر به، فضحكت منها كثيرًا. وكانت جو لا تقلّ طرافةً عنها بعد أن أغرقت وجهها وجبينها بالمرهم الواقي من حروق الشمس حيث كان لها سوابق عدّة مع الشمس. بينما غرزت ميج الدّبابيس واللّفافات في خصلات شعرها حتى بدت الدّبابيس أكثر من الخصل نفسها. أمّا بيث فقد كان لديها ما يشغلها، حيث إنّها لم تهتمّ بجمال هندامها أو شكلها

بقدر ما الفتت لتوديع اللعبة جوانا حيث ستبتعد عنها لمدّة من الزمن.

ارتدت الفتيات الأربع ملابسهنّ وطرن كالفراشات تزهون بجمالهنّ ونضارتهنّ، بعد أن أعطين لبعضهنّ بعض التّوجيهات والإرشادات.

صاحت ميج: «أوه جو!، هل ستضعين هذه القبّعة الفظيعة فعلاً؟، من الأفضل أن تبدّليها فهي صبيانية ولا تليق بفتاة».

«مالي أنا وللمظاهر؟!، انظري للشمس إنّها لاذعة، إن سلامة وجهي وبشرتي أهمّ من كلّ هذه الأشياء، لا يهمّني إن بدوت كالصبي».

ثمّ دقّقت جو النّظر في ميج وقالت لها:

«وأنت ارفعي ملابسك قليلًا وشدّي إزارك وثبّتي قبّعتك جيّدًا، فإنّ أوّل نسمة هواء سوف توقعها».

فردّت ميج:

«حسنًا. هل أقوم بتعديل شيءٍ شيئًا آخرًا؟، أريد ان أكون فائقة الجمال».

«تبدين كالوردة الجوريّة».

كانت بيث أوّل من انتهت ثمّ سارعت إلى النّافذة لتراقب ما يحدث عند منزل لوري، وتزوّد أخواتها بالمعلومات:

t.me/yasmeenbook

«هناك رجل ينصب الخيمة... السيّدة باركر ترتّب الطّعام بينما السيّد لورانس العجوز يحدّق في السّماء ليتأكّد أنّ الطقس ملائمٌ لمثل ذلك المخيم... أقبلت عربةٌ يجرّها حصان... نزلت منها فتاة، وسيّدة، كبيرة، وصبيّان، أحدهما يعرج... نزلت منها أيضًا سالي موفا صديقتك يا ميج! وأخوها نيد، أليس الرجل نفسه الذي ألقى السلام عليك في السوق ذات مرّة؟»، صرفت نظرها عن كلّ ذاك ونظرت نحو لوري.

سألت ميج: «ما الذي أحضر سالي ونيد إلى هنا؟»

سرعان ما أصبحت الفتيات الأربع جاهزات، قادت جو الطريق أمام أخواتها، وكنّ كما الزهرات تتألقن تحت شمس الصيف. ثم اتّجهن إلى منزل لوري لمقابلة أصدقائه. فقام لوري بتعريفهنّ بهم على نحوٍ لائق.

لاحظت جو أن كيت متحفّظة جداً، وأنّ لديها بعض الغرور والغطرسة، وتذكّرت التواء شفتي لوري تلك، وماذا كان يقصد بها. أمّا ميج فمع اعتراف نيد بحضوره من أجلها فقط، لم تعد تلقي بالًا لا لكيت ولا لتحفّظها بعد أن أُشبِعَت بشعور الفخر ذلك.

وتعرّفت آيمي على فتاةٍ مرحة ولطيفة تدعى جريس. تحدّثتا سويّةً وأصبحتا صديقتين في الحال. أمّا بيث فقد اقتنعت أخيرًا أن النّظرة الأولى قد تكون خادعة، كانت قد

ظنّت أنّ الفتى الصغير فظٌّ، ولكنّها غيّرت رأيها فورًا عندما رأت لطفه وأدبه وعطفت عليه، وعقدت العزم على أن تجعله تحت مسؤوليّتها وإشرافها.

بدأت الرّحلة وانطلقوا، انقسم الحاضرون إلى مجموعتين حيث ركبت كلّ واحدةٍ منهما في قارب. كان في القارب الاوّل لوري وجو وتولّيا معًا مهمّة التّجديف واستلمت جو مهمّة كسر الصّمت وعدم التآلف المبدئيّ بين المجموعة بما تفعله من حركات، وساعدتها في ذلك قبّعتها الطّريفة الّتي جعلت الجميع يضحك من شكلها. أمّا القارب الثّاني فكان فيه ميج والشابّين بروك ونيد وسالي جاردنير، كان بروك عسليّ العينين، خشن الصّوت، كريم النّفس وهادئ الطّباع. ونيد خفيف الظّل تافهٌ بعض الشّيء، لكنّه ودودٌ وجذّاب. ولأنّه يدرس في فرنسا فقد تشرّب من صفات الفرنسيّين وطبائعهم.

أُعجِب الشّابّان ـ وخاصّةً بروك ـ بجمال ميج الأخّاذ، وكانا جاهزَين ومتحمّسَين للقيام بأيّ خدمات طارئة من أجلها. ولكنّ بروك تحديداً كان المهووس الأكبر بها، وكانت عيناه كالرادار لا تنفكّان تنزاحان عنها.

ما إن تحرّك القاربان حتّى صاح الجدّ:

«رافقتكم السّلامة. رحلة سعيدة».

وصل القاربان إلى وجهتهما الأخيرة في المرج، وكان

t.me/yasmeenbook

كلّ شيءٍ جاهزًا ومحضّرًا مسبقًا. نُصبت الخيام وقُسّمت المنطقة إلى ثلاثة أقسام. قسم لوضع الحاجات والطّعام وقسم للطبخ والسّفرة وثالث لاستقبال الضّيوف والزّوار. بدأ لوري رحلة التّخييم بكلمةٍ ترحيبيّة:

«سيّداتي سادتي. فلنعتبر أنفسنا كتيبةً واحدة. سيتولّى بروك القيادة، وسأكون أنا المشرف على تنفيذ المهام. أمّا السّيّدات فهنّ ضيفاتنا الكريمات».

بدؤوا بلعبة كرة اليد قبل أن يشتدّ لهيب الشّمس، وقسّموا أنفسهم إلى فريقين. الأوّل يضمّ الجالية الأميركية وهم: لوري، سالي، جو ونيد. أما الجالية الثانية فكانت ميج وبروك وكيت الإنجليزية.

وجلست كل من بيث وآيمي وفريد وجريس لتشجيع الّلاعبين على العشب المقابل لساحة الّلعب.

بدأت الّلعبة وكان الحظّ بداية الأمر من نصيب الإنجليز، ولكن تغيّر الوضع فيما بعد عندما تغلّب الأمريكيّون عليهم، الأمر الّذي جعل فريد يحاول بكلّ الطّرق أن يغشّ كي تميل الدّفة ناحيته، لكنّ جو كانت بالمرصاد وأحبطت كلّ محاولاته حتّى باءت بالفشل، وبالرّغم من ذلك، غضبت جو وحاولت السّيطرة على انفعالاتها قدر المستطاع.

بقي الفريقان هكذا بين مدٍّ وجزر، وحافظت جو

على أعصابها ورباطة جأشها إلى أن انتهت اللعبة بفوز الأمريكيّين وتعالت الأصوات، أراد لوري أن يصيح معترضاً، ولكنّه تراجع عن ذلك في اللحظة الأخيرة، ففريد ضيفه ومن العيب أن يتباهى أمامه بأنّه هزمه وعلى أرضه وفي ضيافته.

اقترب كلٌّ من ميج ولوري من جو، وكانا شديدَي الفخر بها وبذلك الدّرس الّذي لقّنته لذلك الغشّاش.

قالت جو:

«فبالرغم من أنّها مجرّد لعبة وأنّنا هنا فقط للّهو والاستمتاع، إلّا أنّه هيهات للأمريكيين أن يهزمونا. ربما نُهزَم وقد نضعف؛ ولكنَنا لا نغشّ أبدًا».

تمتمت مرّةً أخرى:

«الحمد للّه أنّها مرّت بسلام. كم راودتني نفسي أن ألقّنه درسًا لا ينساه».

انتهت اللعبة والتقط الفريقان أنفاسهما وجلسوا يستريحون لبعض الوقت إلى أن حان وقت الغداء، وتعاون الجميع في إعداده. جمع المخيّمِون الأصغر سنًّا العصيّ لاحقاً. وأشعل لوري وفريد النّيران وأحضرا دلوًا كبيرًا من الماء. بينما تولّت الفتيات الأكبر سنًّا مع بروك مهمّة إعداد الطّعام وتحضير المائدة، بينما أعدّت جو القهوة متّبعة

t.me/yasmeenbook

تعليمات كتاب الطهو، فكانت النتيجة رائعة مؤكّدة كلام ميج حين امتدحتها واقترحت قيامها بهذا العمل.

كانت الوجبة عامرة والسّفرة غاية في التّنسيق والتّرتيب، صنعت بيث من أوراق الشّجر شرشفًا لطاولة السّفرة وشكّلت بعضها على شكل صحون لتضع الطعام عليها. ثم تناول الجميع الطّعام والتهم الفتيان الأخضر واليابس.

كان الجمع مبتهجًا، وتعالت الضحكات وأثاروا صخبًا وضجّةً كبيرةً فأيقظوا الحشرات والحيوانات من سباتها الطّويل فاستفاقت وشاركتهم الوليمة، إذ تسلّلت الديدان إلى الطعام دونما أيّ دعوة وسرح النّمل فوق الحلويات والفطائر.

كان في الطّرف المجاور كلبٌ وفرسٌ. وكلّما تعالت أصوات الشبّان بالضّحك صهلت الفرس بصوتٍ قوي، ونبح الكلب نباحًا طويلًا غير متقطّع.

أكل كل من لوري وجو في طبقٍ واحدٍ. حيث لم يبق أمامهما غيره، فقال لوري في مكرٍ: «يوجد ملح، إذا أردت وضعه على الفراولة».

ضحكت جو وقد وقع أمامها عنكبوتٌ في الكريمة المخفوقة فالتقطته وأمسكت الحلوى قائلة:

«أظنّ طعمه بالعناكب أطيب. كيف تذكّرني يا لوري بذلك الغداء المروّع في حين أنّ كلّ شيء هنا رائع للغاية؟»

كانت السعادة تقطر من لوري لكثرة ما استمتع هو وأصدقاؤه، وقال لجو موجّهًا الكلام للحشد:

«شكرًا جزيلًا يا أصدقائي الأعزّاء، أنا لم أفعل شيئًا، فأنت وميج والسّيد بروك قمتم بكلّ شيء.» ثم صمت لحظةً وأردف:

«ماذا سنفعل بعد الغداء؟، لقد بدأنا النّهار بنشاطٍ وحيويّة وأرجو أن نستمرّ على هذا المنوال».

أجابته جو:

«سنلعب داخل الخيمة حتّى تهدأ حرارة الجَو. يمكننا أن نلعب «لعبة المؤلّفين» وأعتقد أنّ كيت تعرف ألعابًا جديدة».

ثمّ همست للوري وقالت:

«يجدر بك الاهتمام بكيت أكثر من ذلك، فانظر إليها إنّها تبدو لطيفة ولبقة، ثمّ إنّها هي الأخرى ضيفتك».

احتجّ لوري على كلام جو وأخبرها أنّها أيضًا ضيفة بروك، إلى جانب أنّه ظنّ أنّ كيت والسّيد بروك سيمضيان فترة ما بعد الظهر معًا، ولكنّ السّيد بروك ظل يتحدّث مع ميج وترك كيت. رمقته جو بنظرةٍ حادّة، فتنهّد لوري وفكّر قليلًا ليجد جو على حق فقال:

t.me/yasmeenbook

«حسنًا، سأذهب إليها».

جلست المجموعة كلّها داخل الخيمة بجانب شجرة البلّوط في انتظار انقشاع الحرارة، وكانت جو محقّة فعلاً، إذ ظهر أنّ كيت تعرف بعض الألعاب المنزليّة الممتعة، ومن تلك الألعاب كانت لعبة القصّة الّتي لم تكن تعرفها جو، وبدأت كيت تشرح تفاصيلها، فقالت:

«علينا أن نجمع بعض القصص والأخبار، سواء كانت محزنة، مفرحة أم ساخرة. نجمّعها بحيث يبدأ أحدنا بقصّ أوّل قصّةٍ، وما أن يتوقف عند حدثٍ مفاجئ حتّى يبدأ الآخر بإكمال القصّة من حيث انتهت، ولكن بأسلوبٍ وسردٍ مختلف. وهكذا دواليك إلى أن نكوّن قصة كبيرة شاملة».

وكان لكيت أسلوبٌ ونبرةٌ حادّةٌ بعض الشيء، فما إن انتهت من الشرح حتّى فرضت على بروك أن يبدأ بصيغة الأمر دون أن تتفّق بهذا الشّأن مع بقيّة أفراد الفريق.

ولأنّ بروك شابّ مهذّب، لم يلق بالًا لتلك اللّهجة وبدأ يسرد قصّته بعد أن استلقى على العشب بجوار الشابّات.

قال بروك:

«كان هناك رجلٌ فقير ولكنّه شجاع ومقدام، يكاد لا يملك قوت يومه، يمشي كلّ يومٍ مهمومًا يبحث عن طوق نجاة كي يتخلّص من براثن الفقر والحاجة.

خرج ذلك الفارس ذات يومٍ يطوف في المدينة حتّى وصل إلى قصر أحد الملوك فيها. كان لدى الملك جيادٌ ومهورٌ كثيرة. ومن بينها مهر صغير أهوج قد عجز الجميع عن ترويضه وركوبه. فما كان من الملك إلّا أن قدّم عرضًا سخيًا لمن ينفّذ تلك المهمّة. فكّر الفارس أنّ تلك فرصته وقد قُدّمت على طبقٍ من فضّة، وبالفعل بعد أيّامٍ تروّض المهر ورضخ لأمره. صار يصطحب المهر كلّ يومٍ في نزهةٍ مسائيّة حتى مرّ ذات يوم على قلعةٍ صغيرةٍ فيها العديد من النّوافذ، ورأى عندها فتاة شديدة الجمال تغزل وتنسج الأقمشة كلّ يوم. سأل عنها فعرف أنّها أميرةٌ مسجونةٌ مع أميراتٍ أخريات. وبعد المزيد من الاستفسار والتّدقيق، اكتشف أنّ لعنة حلّت على تلك النّساء بسبب سحرٍ قويٍّ لا سبيل للخلاص منه إلّا بمبلغٍ هائل من المال.

يئس الفارس المغوار من إنقاذهنّ يومًا ممّا هنّ فيه. لكنّه في يومٍ من الأيّام تشجّع وعزم على أن يدخل ويرى ماذا بإمكانه أن يفعل، وبالفعل نفّذ ما نوى وطرق الباب ولمّا فتح......».

وجاء دور كيت بالكلام فورًا بعد توقّفه وقالت:

«تسمّر الفارس الكونت جوستاف لشدّة جمال تلك الفتاة الّتي فتحت له الباب، وركع أمامها يحيّيها على الطّريقة الإنكليزيّة، ففرحت كثيرًا وقالت له بلهفةٍ وحزنٍ:

t.me/yasmeenbook

«كم انتظرت مجيئك أيها الفارس الشجاع، وكنت على ثقةً أنّك سوف تاتي يومًا ما».

ولكن سرعان ما خاب أمله حين قالت له إنّه من المستحيل إنقاذهنّ قبل أن يقتل ذلك الوغد الّذي سحرهنّ وحبسهنّ».

أطرق رأسه قليلًا وقال بعد أن أمسك بيديها البلّوريّتين النّاعمتين:

«سأنقذك مهما كلّفني الأمر. ولو أخذ ذلك منّي حياتي كلّها».

وسألها أين يقبع ذلك الوحش، وكيف السبيل للوصول إليه؟، فأرشدته بقدر ما تعرف، كان ذلك الوغد يقطن في البرج ذي اللون البرتقاليّ المجاور للقلعة.

ذهب الكونت جوستاف مسرعًا حتّى وصل إلى هناك وفتح الأبواب بكلّ عزمٍ وقوّة.....

وتوقّفت كيت وأومأت لنيد كي يكمل بعدها فقال:

«بدأت معركةٌ طاحنةٌ عندما ظهر له عجوزٌ أغبر يحمل بيده مطرقةً كبيرةً هوى بها بضربةٍ ثابتةٍ على رأس الفارس فتأذّى قليلًا، ولكنّه تمالك نفسه وقام مسرعًا للعجوز وضربه وحمله ليعود به إلى الحسناء كي يجبره على فكّ ذلك السّحر اللّعين، ولكنّ باب البرج كان مقفولاً. فكرّ

مليًّا علّه يجد بابًا للخلاص، فمزّق الستائر وربطها ببعضها بعضاً ونزل بها للأسفل. ولكنّ أحدهم قطع له الحبل فسقط في بركةٍ ذات مياه ملوّثةٍ وسخة عمقها عشرون مترًا، سبح بمهارةٍ وخرج منها وإذ به يجد نفسه أمام أحد الأبواب. حاول الدّخول ثانيةً لكنّ حارسين ضخمين اعترضاه فسحقهما بضربة مدويةٍ وفتّتهما أشلاءً، ثم خلع الباب بيديه القويّتين ودخل البهو، كانت الأرض ترابيّةً لزجةً، تمشي فوقها عناكبٌ وعظامٌ تثير الرّعب...» ونظر نيد لميج وقال: «لو رأتها ميج لأغمي عليها...»

«...استمرَ الكونت في البحث عن طريق نجاة، علّ اللّٰه يجد له مخرجًا وبالفعل وجد سلّمًا عاليًا فصعده، فلمّا وصل أعلاه، شاب شعره من هول ما رأى...

وفجأة سكت نيد لتتابع بعده ميج الرّواية، قالت ميج:

رأى الفارس طريقًا طويلةً في نهايتها شبح طويل منقّب وضخم تغطّيه ملابس بيضاء وقد أشار للكونت أن يتبعه. نفّذ ما طُلب منه وسار خلف الشّبح طوال الطّريق. كان مرعوبًا وبالكاد يرى أمامه بسبب الضوء الشحيح، وزادت من ارتجافه برودة الطّقس في الدّاخل ونظرات الشّبح والتماع عينيه.

مشى الفارس خلف الشّبح بحذرٍ تامّ حتّى وصلا لحائط عليه ستارة هائلة وسمعا موسيقا جميلةً ناعمةً،

t.me/yasmeenbook

فأسرع الكونت للأمام ليرى مصدر تلك الأنغام، ولكنّ الشّبح دفعه للخلف بحزمٍ وأعطاه...

جاء دور جو لتكمل حيث اختارت النصيب المحزن من القصة:

«تناول الشّبح علبة النّشوق من داخل السّتارة وأعطاها للفارس وأمره أن يستنشق بعضًا منها، وليته لم يفعل ذلك، فما إن استنشق رشّةً صغيرةً بأنفه من حتّى عطس سبع عطساتٍ متتالياتٍ شديدات القوّة، وطار رأسه من فوق كتفيه.

أخذ الشّبح جثّة الفارس، ومعها جثث فرسان آخرين بلا رؤوس كانوا قد سبقوه إلى حتوفهم، ونظر الشّبح للأميرة في القلعة المقابلة ليجدها تنسج الأقمشة بكدٍّ وجد حتى تستطيع جمع مبلغٍ تفتدي به نفسها، وقهقه عاليًا. وفجأة قام الفرسان من...

بلعت جو لعابها بصعوبة وأخذت نفسًا عميقًا كي تكمل، ولكنّ فريد أكمل عنها ظنًّا منه أنّها انتهت وقال بلهفةٍ:

«قام الفرسان من الموت فجأة وعادت رؤوسهم لأجسادهم وبدأوا بالرقص أجمعين رقصة المزمار، وبقدرةٍ عجيبةٍ تحوّل البرج لسفينة حرب كبيرة تطفو فوق مياه البحر العميق، وكان الجوّ بهيجًا، حتّى الشّبح كان فرحًا.

وفجأة!! أبحرت سفينة مسرعة باتّجاههم، كانت سفينة قراصنة عليها علمهم الأسود المعروف ذو الجماجم، فخاف الرّبان قليلًا وقال لهم:

«غيّروا الدفّة والاتّجاه».

ظلّت المناورات والمطاردات هكذا حتّى حدثت المواجهة، ودارت معركةٌ طاحنةٌ انتصرت بها السّفينة الحربية ومات رجال القراصنة كلّهم ما عدا زعيمهم الأكبر. فأمسكوا به وهدّدوه بالقتل إن لم يكتب اعترافًا بما اقترفته يداه، ولكنّه امتنع عن ذلك وباغتهم وقفز من السّفينة وغاص في العمق وأتى السفينة من أسفلها ثم ثقبها بقطعة معدنيّة كان ممسكًا بها، فغرقت في الحال..».

وجاء دور سالي بعدما سكت فريد، وتأتأت كثيرًا قبل أن يأتيها الإلهام لتروي قصّتها:

«غرقت السّفينة وقُطعت رؤوس الفرسان من جديد عن أعناقهم، واستقرّت أجسادهم في الصّندوق الكبير. وغاص في قاع البحر، فوجدته حوريّةٌ جميلةٌ فتحته ورأت ذلك المنظر المرعب فصُعقت وحزنت كثيرًا. وفكّرت علّها تعيد لهم الحياة، ولكن ليس بيدها حيلةً فالصّندوق ثقيل، أحضرت الملح والخل وغمرت أجسادهم به علّ ذلك يفيد في حفظ تلك الأجساد الممزّقة.

لم تفقد تلك الحوريّة الجميلة الأمل منهم، فظلّت على

t.me/yasmeenbook

هذه الحال تحاول وتحاول إلى أن التقت صيّاداً عجوزاً يبحث عن اللؤلؤ، فأوهمته أنّ في الصّندوق ما يبحث عنه وفرح كثيرًا وحمله إلى الشّاطئ بجهدٍ جهيد.

فتح الصّندوق ورأى تلك الأجساد المقطّعة الرؤوس، فصاح وفزع ورمى الصّندوق في الحقل المجاور و..».

وسكتت سالي وبدأت آيمي:

«كان في الحقل الفسيح فتاةٌ لديها مئة إوزّة ترعاها، وبينما كانت تمشي في الحقل ارتطمت بالصندوق ورأت ما بداخله. حدّقت بتلك الجثث وحزنت لما أصابها واحتارت في أمرها، كيف بإمكانها مساعدتهم. فاستشارت امرأةً طاعنةً في السنّ حكيمةً مقتدرةً فقالت لها:

«اسألي الإوزّ! فهم أعلم منّي ومنك».

وسألت الإوزّ إن كان بالإمكان زرع رؤوسٍ جديدةٍ لهم».

فقالت بمناقيرها..».

وبدأ دور لوري:

«قال الإوز للفتاة إن كنت تريدين أن تعيدي لهم الحياة فعليك أن تضحّي بالملفوف خاصّتك، فوافقت دون أيّ تردّد. قطفت اثنتي عشرة حبّة واختارت أقواها وثبّتت فوق كتف كل فارس ثمرة ملفوف، وما هي إلّا

دقائق حتّى عاد الفرسان للحياة ولكن برؤوس الملفوف، وشكروا الفتاة فرأس ملفوف غير نابض بالحياة أفضل من لا شيء.

أمّا الأسيرات فقد تحرّرن بعد أن عملن لساعاتٍ طوالٍ، وانطلقن في الحياة وتزوجّن جميعهنّ ما عدا امرأةً واحدةً بقيت تنتظر في القلعة، فراود فارسنا المبجّل الشّك أنّها معشوقته وذهب إليها وتسلّق السور بمساعدة فرسه المطيع المخلص له دائمًا، ونظر إليها من بعيد فعرفها وتحدّثا وطلب منها زهرةً ولكنّها مانعت بغنجٍ ودلالٍ، وطلبت منه أن يقطفها بنفسه فذلك أليق وأفضل، وبالفعل همّ لينفّذ ما طلبته ولكنّ شيئًا غريبًا قد حلّ بالسور، إذ بدأ يكبر ويطول ويزداد كثافةً. فكّر فارسنا المغوار بحلٍّ سريعٍ فخطر له أن يحفر حفرةً في الأرض أسفل السّور ليمرّ منها. وقد حدث ذلك بالفعل، ومدّ رأسه طالبًا من معشوقته أن يمرّ، ولكنّها تركته وأخذت ما كان بحوزتها من حشائش وذهبت عائدةً للقلعة.....».

أنهى لوري القصّة الغراميّة بكثيرٍ من التّعقيد والصّعوبة فقد قفلت الحبكة تمامًا، وكان على فرانك أن يتابع من بعده، فكّر كثيرًا فلم يعرف ما يقول وانسحب من اللّعبة تمامًا وادّعى أنّه لم يكن مشاركًا بالأصل.

فانتقل الدّور للمشارك التّالي وكانت جريس الّتي

t.me/yasmeenbook

غطّت في قيلولةٍ مفاجئة، لينتقل بعدها لبيث لكنّها خجلت واختبأت خلف جو لتتمكّن من التّملّص من المهمّة.

كان بروك يداعب بعض الزّهرات العالقة في زر قميصه ويتأمّل الطّبيعة المتوهّجة وقال:

«إنّه من المحزن أن يظلّ فارسنا عالقًا هكذا».

ورماه لوري ببعض العشب بجانبه يداعبه وقال: «أعتقد أن تلك الأميرة الحسناء فتحت له البّاب فأدخلته وصرّت له باقةً من الأزهار الجميلة».

فتعالت ضحكات وقهقهات الموجودين على ما قصّوه من أحداثٍ مفكّكة متراخية.

قالت سالي:

«سنكون يومًا ما رواةً محترفين إذا ما واظبنا على ممارسة هذه الّلعبة والتّدرب عليها جيّدًا، فتجربتنا تلك خير برهان».

ثمّ خطر لسالي أن تبدأ لعبةً جديدة فسألت: «هل تعرفون الصدق؟»

قالت ميج: «آمل أنني أعرفه جيدًا».

فقالت سالي:

«أتحدّث عن الّلعبة إيّاها وليس عنك شخصيًّا».

قال فرانك:

«وما هي هذه اللعبة؟»

فشرحت لهم سالي الشّروط:

«إنّها لعبة أسئلة وأجوبة، وعلى من يقع عليه الاختيار أن يجيب بصدقٍ وبدون حرج، مهما كانت الأسئلة صعبة أو معقّدة، أمّا عن كيفيّة الاختيار فنحضر ورقاتٍ صغيرةً تُكتَب عليها أرقامٌ وتطوى، ونقوم مسبقًا باختيار رقم نتّفق عليه فيما بيننا، ثم تبدأ عمليّة السّحب. فمن تحمل ورقته الرقم الّذي اتّفقنا عليه، يجب عليه الإجابة عن أسئلتنا كلّها».

انقسم الحاضرون بهدوءٍ بين معارضٍ لتلك اللعبة ومؤيّدٍ لها، لما قد تثيره من حساسيّات وحرج، أمّا المتهوّرة جو، فصاحت ما أن انتهت سالي:

«فلنجرّبها! تبدو ممتعة جدّاً».

عارضت كلّ من كيت وبروك وميج ونيد تلك الّلعبة، ورحّب بها فريد، سالي، ولوري.

بدأت اللعبة، ووقع الاختيار على لوري بعد أن سحب ورقةً الرقم نفسه المتّفق عليه سابقًا، وانهال عليه سيلٌ من الأسئلة بدءًا بجو التي قالت له:

«من أبطالك؟»

«جدّي، ونابليون بونابرت».

t.me/yasmeenbook

وسألت سالي:

«من هي أجمل فتاة فينا؟»

قال:

«ميج».

سأله فريد:

«ومن الأحبّ إليك؟»

«جو، بلا أدنى شك».

وهنا طغت نزعة غرورٍ وتكبّرٍ على جو، ورفعت كتفيها باستهزاء وقالت لهم:

«ما أسخف هذا السؤال. وهل توقّعتم أنّه يحبّ أحدًا أكثر منّي؟»

فضحكوا جميعًا حتّى بانت أضراسهم.

وأعجب فريد، الّذي كان له سابقة غشٍّ في لعبة كرة اليد، بهذه اللّعبة كثيرًا، لما فيها من تشويقٍ وإثارة وطلب أن يعيدوها.

فتمتمت جو بصوتٍ خافت:

«إنّك تحتاجها كثيرًا. علّك تصبح نزيهًا ذا مصداقيّة».

وبعد إجراء القرعة مرة ثانية، وقع الاختيار على جو فانقضّ عليها فريد ليختبر صدقها وسرعة بديهتها. حيث كان يرى فيها ما يعجز أن يراه في نفسه، فقال بحزم:

«ما هي أكبر سلبيّاتك؟»

قالت:

«التسرّع والغضب».

سأل لوري ثانيةً:

«سمّي لنا شيئًا تتمنّين أن تحصلي عليه».

قالت:

«ربّاطٌ لحذائي».

قال لوري وقد تضايق بعض الشّيء:

«جواب خاطئ. إنّه ليس كذلك. قولي الحقيقة من فضلك».

ضحكت جو بخبث:

«لن أقول لك كي لا تستغلّ الفرصة وتحضره لي كهديّة يا عزيزي لوري».

سألت سالي:

«ما هي الصّفات الحسنة الّتي تستهويك بالشبّان؟»

أجابت:

«الشّجاعة والصّدق».

ثمّ اقترعوا مرّةً أخرى ووقع الدّور على فريد، فزادت حماسته، واقتنصت جو ولوري الفرصة ليلقّناه درسًا لن ينساه:

t.me/yasmeenbook

سألت جو:

«هل تقصدّت أن تغشّ عندما لعبنا كرة اليد سويًّا؟»

قال:

«بعض الشّيء».

سأله لوري:

«ألم تأخذ قصّة المقطع الّذي رويته لنا منذ قليل من قصّة أسد البحر؟»

قال فريد:

«على الأصحّ. نعم».

سألت سالي:

«ألا تعتقد أنّ الأمّة الإنجليزيّة هي غايةٌ في الكمال من جميع النّواحي؟»

أجاب فريد:

«يجب أن أشعر بالخجل من نفسي إذا لم أكن أعتقد ذلك».

ومدحت جو تلك الصّراحة غير المتوقّعة فيه، فآخر ما توقّعاه هي ولوري أن يكون فريد صريحًا هكذا.

قال لوري:

«أنت إنجليزيٌّ أصيل.

بقيت سالي الوحيدة التي لم تُسأل، فسألوها حتّى دون إجراء القرعة وبدأ لوري قائلاً:

«هل تحبّين أن يغازلك الشّبّان ويتغنّون بجمالك؟»

غضبت سالي وقالت:

«أنت صبيٌّ وقح! بالطبع لست كذلك».

سألها فريد:

«أكثر شيء تكرهينه؟»

«العناكب ومسحوق الأرز».

سألتها جو:

«وما هي أحبّ الأشياء إلى قلبك؟»

قالت سالي:

«الرّقص والقفّازات الفرنسيّة».

قالت جو:

«لقد مللت. لننتقل إلى لعبةٍ أخرى، ما رأيكم بلعبة المؤلّفين؟»

وتحمّس نيد وفرانك والصّغيرات لذلك، بينما انشغلت الآنسة كيت برسم لوحتها وجلست ميج تتأمّلها وبجانبهم بروك مستلقيًا على الحشائش في يده كتاب مفتوح دون أن يقرأ فيه، وبدأ ثلاثتهم بالحديث، قالت ميج:

t.me/yasmeenbook

«ما أجملها! إنّك حقًا ماهرة، ليت لديّ مهارتك الأخّاذة».

أطرت عليها كيت وقالت:

«ولكنّك موهوبةٌ وتملكين حسًّا مرهفًا، لم لا تتعلّمين؟»

قالت ميج:

«ليس لديّ وقتٌ كافٍ».

فقالت كيت:

«ربّما يمانع أهلك ذلك مثلما كانت تمانع والدتي، ولكنّني أخذت بعض الدّروس الخاصّة فآمن الكلّ بموهبتي، وبدأت ممارسة هوايتي وبحريّةٍ تامّة. لماذا لا تفعلين ذلك مع مربّيتك؟»

قالت ميج:

«ليس لديّ مربّية».

ثم سألتها كيت بلهجتها البريطانيّة:

«أوه حسنًا، تذكّرت أنّ الأميركيّين يدرسون في مدارس خاصّةٍ راقيةٍ، بعكسنا، فنحن نتعلّم من منازلنا، ما اسم مدرستك؟»

قالت ميج:

«أوه لا، أنا لا أذهب إلى المدرسة، فأنا أصلًا مربّية أطفال. وهذا هو عملي».

ارتسمت على وجه كيت علامات استنكار فاحمرّ وجه ميج خجلاً. وشرح السيّد بروك

كيف أنّ الفتيات الأمريكيّات يتمتّعن بالاستقلاليّة ويحظين بالإعجاب لأنهنّ يعتمدن على أنفسهن.

غيّرت كيت لهجتها قليلًا ووافقت بروك الرّأي، قائلة إنّها قد قابلت مسبقًا فتيات وقورات مثل ميج يعملن بكلّ فخرٍ ونشاطٍ كمربّيات لدى الأغنياء، فتأثّرت ميج أكثر وأكثر وحقدت على ظروفها التي تُتعسها.

شعر السّيد بروك بتأثر ميج فسألها بسرعة مغيّرًا الحديث:

«هل أعجبتك الأغنية الألمانيّة التي ترجمتها لك؟»

أشرق وجهها، وقالت:

«أجل، أعجبتني كثيرًا. شكرًا لك».

فأقحمت كيت نفسها في الحديث ثانيةً، وسألت ميج إن كانت تجيد الألمانيّة، فأجابتها ميج إنّها بدأت تتعلّمها، ولكنّها توقّفت لأنّ أباها من كان يقوم بتلك المهمّة وقد سافر للحرب، فأقلعت عن ذلك لأنّه لم يعد ثمّة من يشرف على الأمر.

قال السّيد بروك مشيراً إلى كتاب كان بجانبه:

«خذي هذا الكتاب، إنّه بالألمانيّة، اقرئي فيه قدر المستطاع واعتبريني مدرّسك الخاصّ. هيّا جرّبي قليلًا».

t.me/yasmeenbook

تدخّلت كيت وبدأت هي بالقراءة، كي تشجّع ميج التي خافت كثيرًا أن تقرأ فيضحكوا عليها. كان اللّفظ صحيحًا لكنّه مملٌ ورتيبٌ للغاية. ولمّا انتهت أعطت الكتاب لبروك فحمله ووضعه في حجر ميج وطلب منها أن تقرأ المقطوعة الّتي في الصّفحة التّالية. وبالفعل قرأتها وكانت قراءتها مليئة بالأخطاء النّحويّة واللّفظيّة ولكنّها قرأتها بصوتٍ موسيقيٍّ أكسب الكلمات رنينًا حلوًا، وأضافت إليها من أحاسيسها مثبّتة عينيها على الصّفحة، وتشنّجت قليلًا كي تكمل المهمّة، وخاصّةً أنّ الفقرة تتحدّث عن امرأةٍ تتألّم. وبالطبع لم يعلّق السيّد بروك على تلك الأخطاء فتناسى كلّ ذلك وظلّ يحدّق بميج بعينيه العسليّتين وقال:

«رائع».

وجاملتها كيت ببعض العبارات المقتضبة القصيرة، ثم نصحتها أن تتابع التّعلّم لأنّها ستحتاج اللغة الألمانيّة التي أصبحت مطلوبة جدًا، خاصّةً في عملها كمربّية. ثمّ تركتها لتبحث عن جريس وذهبت تتمتم باستهجان:

«مسكين يا لوري آمل ألّا تفسد تلك الصّحبة تربيتك وشخصيتك، لم آتي إلى هنا لأقضي وقتي مع مربيّة! ولو أنّني عرفت هذا لما أتيت أصلاً».

شعرت ميج بالأسى أكثر على حالها لما تسبّبها لها تلك المهنة التي تبغضها كلّ يومٍ أكثر فأكثر، غضبت أيضًا من

تلك الأرستقراطيّة المتكبّرة الّتي لم تحترمها ولم تحترم عملها وندمت أنّها أخبرتها عنه، ولكنّ بروك واساها فمهنتها تلك محلّ فخرٍ وإعجابٍ لديه ولدى الجميع. قال:

«لا تأبهي بها. أنا أقدّس العمل في التّدريس وتربيّة الأطفال».

ردّت ميج قائلة:

«ليس ذنبي إن كان الإنجليز لا يحبّون عمل المربّيات أو يحترمونه، على كلّ حالٍ أنا مجتهدةٌ وأؤدّي عملي بضميرٍ وكفاءة».

وهنا تذكّر بروك فجأةً أنّه سيفتقد لوري هذا العام، لأنّه سيلتحق بالجامعة ولن يجتمعا، وخاصةً أنّه سيترك أيضًا التّدريس ليلتحق بالجيش الوطنيّ، وينضمّ لصفوف المحاربين، فازداد فخر ميج به وحيّته على بسالته وشجاعته، وأثنت على تضحيته بصحبة أهله مقابل تأدية الواجب الوطنيّ. شعر بروك بحزنٍ عندما أخبرها أنّه ليس لديه أهل أو أقارب يبكون عليه، ولكنّه استعاد بهجته وإشراقة وجهه عندما واسته بحنانٍ، وذكّرته بمحبّة لوري وجدّه ومحبّتهنّ هن أيضًا، وتوقّفا عن الكلام عندما قام أمامها نيد وامتطى جواده واستعرض مهارته وفروسيّته أمام الفتيات.

أخبرت آيمي جريس عن شغفها الكبير بامتطاء

t.me/yasmeenbook

الخيل، وروت لها كيف كانت ميج تركب الخيل في الأيّام الخوالي قبل الحرب، ولكنّهم اليوم لا يملكون سوى (إيلينتري).

قالت جريس:

«أهو حصانٌ أم حمار؟»

قالت إيمي:

«لا هذا ولا ذاك فنحن لا نملك جيادًا، كلّ ما في الأمر أنّ لدينا سرجٌ قديمٌ أسميناه هكذا، وعندما نشتاق لركوب الخيل نأخذه للحديقة ونضعه على شجرة التّفاح، ثم نجلس عليه وكأنّنا نركب الخيل».

قالت جريس:

«كم هذا مضحك!، أنا لديّ مهرٌ صغير، وأذهب به كلّ صباح مع كيت وفريد إلى البستان، وفي بعض الأوقات أذهب إلى ميدان الرّماحة».

قالت آيمي بسذاجة:

«أمّا أنا فأحبّ أن أسافر لروما وليس إلى دار الرّماحة».

ولاحظت بيث الّتي كانت تنظّف الأرض من الأوراق والأكياس أنّ فرانك متضايق وقد سئم من الرحلة، فعرضت عليه خدماتها بعطف، حيث قالت له:

«هل تريد شيئًا ما، هل بإمكاني المساعدة؟»

«أريد التّحدّث قليلًا، فقد قتلني الضّجر وأنا جالس هكذا لوحدي!»

هنا غرقت بيث في أعماق الخجل!، أحسّت أنّها ورّطت نفسها بعرضها هذا. أين تفرّ الآن وأختها جو بعيدةٌ عنها؟، وكيف تتخلّص من ذلك المأزق؟! لكنّها تمالكت نفسها وأخذت تحدّثه، سألته في البداية عمّا يريد أن يتحدّث، فكان طلبه ما تتوق إليه نفسه ولا يستطيع إليه سبيلًا بسبب عرجه، حيث قال:

«كلّ ما يخصّ التجديف وكرة اليد والصّيد».

قالت بيث بعصبيّة:

«ألم تجد أفضل من هذه الموضات؟، أنا لم أذهب للصيد قط!، حتّى لم أشاهده من بعيد، أعتقد أنّك تعلم أكثر منّي».

تذكّر فرانك هنا سبب مأساته، وكيف أوقعه الجواد مرّةً عندما قفز فوق حاجزٍ مرتفعٍ، فانكسر ظهره وقدمه، وآل به الحال إلى ذلك العرج. وحُرِم من الرّياضة للأبد.

وبدأت محادثتهما...

جاءت جو وسمعت حديثهما، وكادت لا تصدّق أنّ بيث الخجولة تقف وتدير حوارًا مع فتىً غريب بالكاد تعرفه، بل وتحاول جاهدةً أن تزيح عنه ضيق صدره وترفّه عنه وتنسيه ألمه!

t.me/yasmeenbook

طلبت بيث منه فجأةً أن يصف لها الغزلان في بلده، فهي تحّبها أكثر بكثير من الجواميس الّتي تشتهر بها البلدات عندهم، فبدأ يقصّ عليها كلّ ما يعرفه، فأشغله الحديث عن ذكرياته وواقعه المؤلم ونسي حزنه.

غمرت الفرحة قلب جو وميج لما رأتا من حسن وعظمة صنيع أختهما الطّيّبة، وكيف انتزعت ذلك الصّبيّ من وحدته، وأفرحت قلبه بعطفها وحنانها وقالت ميج:

«إنّها ملاك الرحمة فعلاً».

لم تنسَ ميج ما حدث عند آل موفا وكانت كلّما نظرت إلى نيد تذكّرت تلك الأيّام العصيبة، وكانت تترقّب الفرصة لتردّ له قليلًا ممّا لاقته هناك، ولو على سبيل الدّعابة.

فجاءت فرصتها تلك على طبقٍ من ذهب، عندما كانت تتمشّى ولحق بها نيد وبدأ يدندن أغنيةً حزينة:

«وحيدٌ أنا يا إلهي... وحيدٌ! وحيد..».

وأومأ لها عندما وصل بالأغنية إلى مقطعٍ آخر حزين وكأنّه يقول لها إنّها هي المقصودة:

«لديك قلب يشعر بي ولدي قلب يشعر بك؛

فلِمَ التّجاهل والهجران؟!»

وانفجرت ميج تضحك وتقهقه من طريقته في التّعبير، وبالغت في ذلك بغية إحراجه، الأمر الّذي أغضبه فصاح بحنق:

«كيف يمكنك أن تعامليني بهذه الفظاظة؟»

قالها معاتبًا، في محاولة الاستفسار منها عن سبب ذلك التّجاهل والبعد المُتعمّد، واستنكر طريقتها في تركه وحيدًا ومرافقة أولئك المتعجرفين الذين لا يأبهون بها ولا يهتمّون لأمرها.

قالت ميج:

«أنا آسفة. كلّ ما في الأمر أنّك مضحكٌ للغاية».

فانزعج نيد أكثر وشكاها لسالي:

«لم تسمع هذه الفتاة بالمغازلة قط!»

فردّت سالي تدافع عن صديقتها رغم فظاظتها:

«على الإطلاق، ولكنّها طيّبة ولطيفة للغاية».

وفيما تبقّى من اليوم، تجاذب السّيد بروك وميج أطراف حديثٍ ودود. وانتهى اليوم بمباراة كرة يدٍ جديدة.

عند الغروب، قاموا بفكّ الخيمة، وحزموا أغراضهم، ووضعوها في الزّوارق، ثم أبحروا في النّهر في طريقهم إلى المنزل. وكان الجميع سعيدًا بنجاح مخيّم لورانس.

اختتمت كيت اليوم موجّهة حديثها إلى السيّد بروك:

«لقد استمتعنا كثيرًا بصحبتهنّ، إنّهن لطيفات جدًا حين تتعرّف إليهن، رغم مبالغتهن في إظهار العواطف!. حالهنّ كحال جميع الفتيات الأمريكيّات».

t.me/yasmeenbook

فقال بروك:

معك كلّ الحق».

الفصل الثّالث عشر

قصور في الأحلام

مرّ لوري بيومٍ صعبٍ ومملّ، مليء بالمشاكل والمضايقات. فعلى غير عادته، لم ينهِ واجباته المدرسيّة وسبّب المتاعب للسّيّد بروك، كما لم يترك أحدًا في القصر إلّا وأزعجه بتصرّفاته: فتارةً يجمع الخدم ويتظاهر أنّ كلبه مريض، وتارة أخرى يتّهم سائس الحظيرة بالإهمال في العناية بحصانه. حتّى جدّه لم يسلم من مشاكساته، لأنّ لوري ظلّ يعزف الموسيقا طوال النّهار فسبّب للعجوز المسكين ألمًا في الرأس. أغضبت كلّ تلك الأفعال والتّصرّفات الشّائنة ساكني القصر وأثارت سخطهم.

كان يومًا دافئًا من أيّام شهر أيلول، وأخيرًا ضاق لوري ذرعًا فجلس فوق أرجوحته الشبكيّة وراح يتساءل:

«يا ترى ماذا يفعل الجيران الآن؟»

لكنّه كان يشعر بالكسل، لذا لم يذهب ليستكشف

t.me/yasmeenbook

أخبار البنات، ولحسن الحظّ، غلبه النعاس فنام بعض الوقت فتحسن مزاجه

سمع لوري أصواتًا أيقظته من حلم جميلٍ رأى فيه أنّه يخوض مغامرةً في البحار، حيث سرقته من عالم الملل إلى عالم التّشويق والإثارة. نزل من الأرجوحة ورأى الشقيقات الأربع يخرجن من المنزل. كان شكلهنّ غريبًا، ترتدي كلّ واحدةٍ منهنّ قبّعةً كبيرةً وحقيبة على كتفها، وتمسكن جميعهنّ عكاكيزَ بأيديهن. كانّ مظهرهنّ غريبًا بطريقة واضحة. حملت ميج وسادة كبيرة وجو بعض الكتب، أمّا بيث فحملت مجرفةً بالكاد استطاعت أن تجرّها خلفها لثقلها، بينما تأبطت الصغيرة آيمي حقيبةً كبيرةً مخصّصة للأوراق والأقلام. مرّت الفتيات بالحديقة من أمام لوري، ثمّ صعدن فوق التلّ باتّجاه النهر.

شعر لوري بالتّجاهل والإهمال لأنّهنّ لم يقمن بدعوته للذهاب معهنّ، فقرّر اتّباعهنّ. خطر في ذهنه أوّلًا أنّهن قد تذهبن إلى الزورق للتجديف، وأخذ جولةً في النّهر وكان مفتاح الزّورق معه، هرع بسرعةٍ للدّاخل يبحث عنه إلى أن تذكّر أنّه في جيبه. ضيّع لوري الكثير من الوقت حتّى اختار قبّعةً من بين الدّزينة التي يملكها، وأخيرًا أصبح جاهزًا بعد مضي وقت لا بأس به وخرج فلم يجد لهنّ أثراً. تراءى له

أن يسبقهنّ لضفّة النّهر، وعندما وصل جلس هناك ينتظر ولكن لم تظهر أيّ واحدة منهنّ.

فكّر لوري قليلًا أين يمكن أن يكنّ قد ذهبن؟!!، فخطر له أن يصعد التلّ وبالفعل وجدهنّ هناك بين أشجار الصّنوبر تصدرن أصواتًا خفيفةً ناعمة. كنّ جالسات في ركنٍ ظليل. وبالقرب منهنّ بعض الرّجال يقطعون ويجمعون الحطب، بينما جلست الفتيات وكأنّ أحداً لا يراهنّ.

كانت ميج جالسة على وسادتها تخيط بيديها الجميلتين البيضاوين، وآيمي ترسم ما تراه من نباتات، وجو تَحيك وتقرأ بصوتٍ عال، أمّا بيث فقد كانت تجمع أكواز الصنوبر.

شعر لوري بالاستياء من نفسه لأنّه تلصّص عليهنّ، لكنّه كان يشعر بالوحدة، وكان لا بدّ من متابعتهنّ فهنّ صديقاته الوحيدات. حدّق فيهنّ قليلًا وتساءل بينه وبين نفسه أيقترب أم يتركهنّ ويمضي؟، ظلّ متردّدًا على تلك الحالة إلى أن أصدر سنجابٌ بالقرب منه صوتًا خفيفًا فانتبهت إليه بيث ورحّبت به فاقترب منهنّ.

سأل:

«هل تسمحن لي بالانضمام إليكنّ؟ أم أنّني سأزعجكنّ؟»

رفعت ميج أحد حاجبيها بالمعارضة لكنّ جو عبست في وجهها حيث قاطعتها قائلة:

t.me/yasmeenbook

«بالطبع يمكنك الانضمام إلينا. كان يجدر بي أن أطلب ذلك منك مسبقًا، لكنّي لم أكن واثقةً أنّك ستحبّ ألعاب الفتيات».

قال لوري:

«أنا على ثقةٍ أنّها ستكون ممتعة، لكن إذا أرادت ميج أن أنصرف، فسوف أنصرف».

قالت ميج:

«يمكنك المكوث معنا ما دمت ستفعل شيئًا، فهذا مجتمع الفتيات الكادحات، وغير مسموحٍ بالخمول هنا. لذا عليك الالتزام بالقواعد».

قال لوري:

«ماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟، يمكنني أن أحيك إن أردت، أو أطرّز، أقرأ أو أرسم».

أعطته جو كتابًا ليقرأه بصوتٍ عالٍ أثناء خياطتها لجوربها. انتهى بسرعة من القراءة لأنّ القصّة قصيرة ووضع الكتاب جانبًا وسألهنّ:

«ما اللّعبة التي سنلعبها؟، آسف على تدخّلي ولكن هل باستطاعتي أن أعرف ماذا يحدث، وما السّر في هذه النّزهة الغريبة؟. وهل تقمن بها دائمًا؟»

سألت ميج شقيقاتها:

«هل نخبره؟»

حذَّرتها آيمي:

«سيسخر منا!»

قالت جو:

«ومن يهتمّ إن سخر أم لا».

أضافت بيث:

«كلّا أعتقد أنّه سيرغب في ذلك».

وعدهنّ لوري:

«لا. لا تخفنَ، لن أسخر، هذا وعدٌ.»

قالت جو:

«أأخاف منك؟!!، لا تكن سخيفًا. حسنًا. كلّ ما في الأمر أنّنا كنّا نلعب لعبةً اسمها لعبة الحجّاج صيفًا شتاءً على مدار السّنة».

أومأ لوري رأسه بحكمةٍ وقال:

«أعرف».

طالبته جو بتفسير:

«وكيف عرفت؟»

قال لوري:

«أخبرتني العصفورة».

t.me/yasmeenbook

قالت بيث:

«أنا تلك العصفورة، فقد جاء مرّة إلى منزلنا ولم يكن أحدٌ في البيت غيري وأنت كنت منشغلةً فأسررت له عن تفاصيل لعبتنا المفضّلة. وأظنّ أنّها أعجبته حقًّا. لذا لا توبّخيني».

قالت جو:

«على الرّغم من أنّه ما كان عليك أن تفشي أسرارنا الخاصّة كلّها، إلّا أنّك خدمتنا من حيث لا ندري ووفّرت علينا مشقّة الشّرح».

قال لوري:

«أخبريني يا جو، ما هي خططكنّ وماذا تفعلن هنا؟»

عادت جو للتطريز وقد أغضبها ما فعلته بيث قليلًا ثمّ شرحت:

«نحن نسعى على مدار العام لأن نكون فتياتٍ طيّبات معطاءات، لذا قرّرنا أن نستفيد من العطلة وننجز الأعمال المهمّة. وها نحن ننفّذ ما عزمنا عليه. فما إن تنتهي العطلة حتّى تكون كلّ أعمالنا منتهيةً ومنجزةً على أفضل حال».

قال لوري:

«تلك فكرةٌ سديدة وفي محلّها. لو تعلمن كيف مضت عليّ الأيّام واللّيالي دون أن أتقدّم خطوةً واحدة للأمام».

وتابعت جو تخبره أنّهن يأتين إلى هذه البقعة ليعملن حيث يستمددن الإلهام من منظر النّهر الأزرق العريض، والتّلال الخضراء والسّحب البيضاء التي تتلألأ في سماء المدينة كأبراج كنيسة. قالت:

«على سبيل الاستمتاع، نرتدي القبّعات القديمة، وتجلب كلٌّ منّا أعمالها في هذه الأكياس الكبيرة، ونتكّئ على عصيّنا لأنّ الطّريق في بعض الأوقات تكون وعرة. باختصار نحن نلعب لعبة الحجّاج ولكن بوصفٍ مختلف: فبدل استخدام درجات بيتنا استخدمنا التّل وأطلقنا عليه اسم التلّ الكاشف للأحلام، حيث تقع خلفه القرية الرّيفيّة الجميلة الّتي نتمنّى أن نعيش فيها يومًا ما».

تمعّن لوري بكلّ ذلك الجمال واستشعر ما يحيط به بهدوء، قائلًا:

«من أجمل ما رأت عيناي».

قالت آيمي:

«أترى يا لوري ذلك المنظر وجماله الأخّاذ؟. أجمل ما في الأمر أنّه دائمًا هكذا ولو اختلفت الفصول والأوقات».

قالت بيث بهدوئها المعتاد:

«ولكنّ الرّيف الذي تتحدّث عنه جو ونتمنّى جميعنا أن نعيش فيه هو الرّيف المتمثّل بالحياة وسط الأشجار

والمزروعات، ورعاية الأبقار والخرفان والخنازير، وسقاية الأرض واقتناء الدّجاج. لو أنّ ذلك يصبح واقعًا لنعمنا كلّنا بأجمل عيشة».

قالت ميج بصوتٍ دافئ وعذب:

«هل تعلم أنّ كلّ ما تكلّمت عنه الفتيات موجودٌ، بل وأجمل منه بكثير فوق السّماوات، وستكون من نصيب من يرضي الرّب ويسارع بالخير والأعمال الطيبة».

قالت بيث:

«أخشى أنّني لن أستطيع البقاء إلى ذلك الوقت، لطالما انتظرت وطال الصّبر. كم أتمنّى أن أطير للسّماء الآن وأدخل ذلك العالم المتكامل فورًا».

ارتبكت جو وقالت لأختها الصّغيرة:

«لا تسارعي يا حبيبتي، أنا أضمن لك أنّك ستدخلين الجنّة من أيّ بابٍ شئت. ولكنّ الحسرة عليّ أنا، فأعتقد أنّه يجدر بي العمل بجدٍّ وبالرغم من ذلك قد لا أضمن دخولها!»

قال لوري لجو:

«أعتقد أنّك سوف تدخلينها وسألحق بك أيضًا ونكون أصدقاء، بل وأعزّ الرّفاق، لكنّ ذلك بعد أن أشقّ طريق الحياة وأسطّره سطرًا سطرًا بالحبّ والرحمة والخير».

ثمّ نظر إلى بيث وأوصّاها أن تذكره بالخير فيبدو أنّه قد ضمن لها دخولًا مسبقًا إلى هناك، فارتبكت بيث واستغربت ذلك الكلام وتلك النّظرة من لوري وقالت:

«حسب معرفتي الضئيلة، فإن الأمر أبسط من ذلك بكثير، فالجنّة ليست إلّا حقلًا أخضرَ متوّهّجًا منيرًا فيها ملائكةٌ ترحّب ليل نهار بمن يدخلها ويسكن فيها. هي للجميع وليس، فيها لا شروطٌ ولا أبواب أو قائمون، فمن يعمل صالحًا يره ومن يعمل إثمًا يره أيضًا ومن يُرِد الفوز بها فلا أسهل من ذلك..».

وتخيّلت نفسها تعيش في قصرٍ قد بنته لتوّها في مخيّلتها، تنهّدت وقالت:

«ألن يكون الأمر ممتعًا إذا تحقّقت كلّ أحلام يقظتنا؟»

قال لوري بعد أن رمى سنجابًا كان منشغلًا بقضم حبّة الصّنوبر بحجرٍ صغير:

«من الصعب عليّ السّعي وراء تحقيق حلم واحد، فأنا لديّ الكثير من الأحلام».

قالت ميج:

«في مثل حالتك، عليك أن تضع كلّ أحلامك في غربالٍ واحدٍ وتهزّه جيّدًا ثمّ تبقي على الأخير فقط، حينها سيكون ذلك هو الأقرب لقلبك».

t.me/yasmeenbook

ثمّ سألته عن أعظم أمنياته فقال:

«أصدقك القول إن صدقتني أنت وقلت أفضل أمنيةٍ لديك».

قالت ميج:

«سأخبركم بحلمي إذا أخبرتموني جميعا بأحلامكنّ!»

وافقت الفتيات على ذلك دون استثناء، وطلبن من لوري أن يبدأ الحديث.

قال لوري بنبرةٍ واثقة:

أحلم أن أنتقل إلى ألمانيا فأعيش هناك، وأصبح عازفًا مشهورًا. زرت أغلب البلدان ولكنّها كلّها ليست كألمانيا وخاصّة من ناحية تعلّم الموسيقا. لدينا الأموال وكلّ شيء تقريبًا لكنّ كلّ ذلك لا يهمني. أتمنّى أن أكون فنّانًا مشهورًا يقصده النّاس من كلّ بقاع الأرض ليسمعوه. هذا هو حلم يقظتي الدائم. ثم استدار إلى ميج، وقال لها:

«حان دورك».

قالت ميج بخجلٍ شديد، لبساطة حلمها مقارنةً بحلم لوري:

«أودّ أن أكون ربّة منزلٍ جميل أديره على خير وجه، سيّدة ثريّة أتناول ما لذّ وطاب وألبس الحرير وأقتني أغلى الأثاث وأنعم بأبهى المفروشات الطّريّة والنّاعمة. وأريد أن يكون لدي خدم يسهرون على راحتي وراحة أهل بيتي».

سكتت برهةً ثمّ قالت مرّة ثانية:

«ولكنّي لن أكون عديمة المسؤوليّة أو مهملة، بل سأشرف على أمور بيتي كلّها، وسأنظّم جدولًا لأعمال الخير الدوريّة. يهمّني جدًّا أن أكون محبوبةً وودودة».

مازحها لوري غامزاً:

«محبوبة مع زوج رائع. أليس كذلك؟»

قالت جو بحزم:

«أصلًا، لن يكون حلمك مثاليًّا إلّا بوجود زوجٍ طيّبٍ وملائكةٍ صغار من حولك، وأنت تعلمين ذلك!. لِماذا لم تكملي يا أيّتها السّيّدة!»

أجابتها ميج على الفور وقد احمرّ وجهها وأطرقت رأسها للحظة لتربط حذاءها، فتهرب من نظراتهم:

«وحلمك أنت أن يكون لديك خيول، وأقلام وحبر، وروايات من تأليفك! أليس كذلك؟»

ابتسمت جو وقالت:

«بالضبط!. أنا أحلم بقصرٍ مثلك تمامًا، لكنّه قصرٌ ممتلئ بما قلت، وأيضًا أودّ أن أكتب، وأن تكسبني قصصي شهرةً واسعة كالشهرة التي سيحقّقها لوري من عزفه!. باختصار أنا أريد أن أدخل التّاريخ من أوسع أبوابه، وسأصبح مشهورةً يومًا ما لما سأقدّمه وأدهش العالم به، لا أعلم إلى الآن ما هو، لكنّي سأحقّق شيئًا يومًا ما».

t.me/yasmeenbook

ثم نظروا إلى بيث وقد حان دورها، فقالت بطمأنينة وقناعة:

«كانت لديّ أمنيتان، الأولى تحقّقت وهي اقتناء بيانو صغير. أمّا الأمنية الرئيسيّة فهي الحياة في كنف أبي الوقور وتحت رعاية أمّي العطوفة، أساعدهما فيما يقومان به من أعمالٍ وأرعى معهما شؤون الأسرة. أتمنّى من اللّٰه أن يحفظ لي أبي وأن يحمي لي أمّي وأخواتي ويحميك يا لوري، وأن تظلّ هذه الصّداقة إلى الأبد».

قالت آيمي تتحدّث عن حلمها:

«الرّسم. إنّه حلمي الأبديّ. وأتمنّى أن أسافر إلى روما فهناك أستطيع تعلّم تلك المهنة، وأصبح رسّامة عظيمة».

فكّر لوري في جملة ما قيل، وهو ينكش أسنانه بقشّةٍ صغيرة، وأخيراً قال لهنّ:

«هنيئًا لبيث على حلمها السّامي الذي تودّ أن تحقّقه. إنّ الأحلام موجودةٌ ومتوّفرةٌ ولكن ما السّبيل لتحقيقها؟، فحلمي وحلمكنّ أنتنّ الثّلاثة تحتاج لأعمالٍ شاقّة وجهودٍ جبّارة».

كان في يد آيمي قلمٌ فرفعته بيدها:

«هذا هو سلاحي، وبه سأحقّق هدفي».

قالت جو بطريقة مُريبة:

«لدي كلّ الإمكانيّات والوسائل، ولكن لا أعلم كيف سأستخدمها، أو بالأحرى لا أعلم إن كان بمقدوري ذلك».

وتنفّس لوري الصعداء وكأنّه يحمل جبلًا على صدره:

«أنا لديّ كلّ شيء، وكلّ الأمور التي تخدم حلمي، لكنّ ما يمكن أن يحول دون تحقيقه جدّي وعناده وأنا مجبورٌ أن أطيعه. وليس لديّ خيار آخر».

ولكنّ مارجريت كانت في اتّجاهٍ بعيدٍ عن ذلك كله، حيث كانت تعتقد أنّ الوسائل معدومة، لأنّ حلمها يعتمد على المال وهي لا تملك منه إلّا القروش، فقالت:

«أنا يائسةٌ تمامًا من حلمي. فأنا لا أملك أيّ شيء».

فقال لها لوري فورًا:

«بل تملكين الكثير».

سألته:

«أين؟»

قال:

«وجهك، سيجلب لك ما تتمنّينه».

قالت له:

«هراء. هذا لا جدوى منه».

ضحك لوري بثقةٍ وكأنّه يعلم الغيب ويعلم ما تخبّئه الأيّام لها، وما قد يحدث معها مستقبلًا وقال:

t.me/yasmeenbook

«بلى، وستثبت لك الأيّام أنّني على حقّ».

لم تعر ميج كلام لوري كثيراً من الاهتمام ولم تسّأله عن قصده، ولكنّها خجلت قليلًا من كلامه، وصرفت نظرها بعيدًا عنهم ونظرت باتّجاه النّهر، وراحت تحدّق فيه تمامًا كما فعل بروك من قبل، وتأمّلته بشدّة وكأنّها ترى بداية الحلم يتحقّق.

استحضرت جو خيالها على الفور، وقد كانت متّقدة الذّهن خلّاقة ومبدعة وقالت:

«الآن، وقد صرّحنا جميعنا بأحلامنا!، ما رأيكم أن نجتمع بعد مرور حوالي عشر سنوات لنرى أين وصلنا بها؟. ربّما يكون ذلك دافعًا لتحقيقها».

قالت ميج:

«يا إلهي. سأصبح في السابعة والعشرين. سأصبح عجوزًا هرمة».

قالت جو ثانيةً:

«أنا وأنت يا لوري سنكون في السّادسة والعشرين أمّا الدمية بيث ففي الرابعة والعشرين وآيمي في الثّانية والعشرين. يا لهذه المجموعة الجليلة».

ردّ لوري:

«أرجو أن أصبح شابًّا يرفع الرّأس، وأحقّق ما أتمنّاه، وجلّ ما أخشاه أن أظلّ كسولًا ضالًّا على ما أنا عليه».

قالت له جو:

«كما تقول أمّي دائمًا، لا ينقصك إلاّ بعض التّشجيع. أعتقد أنك إذا حظيت به فسوف تُحلّق عاليًا».

قال: «حقًّا، والله لا أريد إلّا فرصةً واحدة. وسترين ماذا سأفعل».

كان لوري يكبر سريعًا وينمو وتنمو معه آماله العظام وتتغيّر أخلاقه فتتبلور وتُصقل شخصيّته كبرياءً وعنفواناً يومًا بعد يوم، لم يعد ذلك الطّفل الصغير. ولكنّ قد يجعله ذلك العنفوان يرتكب حماقةً في أيّ وقتٍ لشدّة غليانه وحماسته، قال للبنات:

«أنتنّ تعلمن كم يحبّني جدّي، وتعرفن تماماً ما أقاسيه من تحكّمه بي وسيطرته عليّ، حتّى الجامعة، لم أخترها أنا، بل هو من اختار كلّ شيء، والآن يجبرني أن أمارس مهنة التّجارة كي أذرع البحار والمحيطات جيئةً وذهابًا، وأنا محمّلٌ بالتّوابل والبهارات والشاي والحبوب...

لو تعلمن كم أكره هذه المهنة، ليت كلّ تلك السّفن تغرق بين عشيّةٍ وضحاها. لو أنّ لجدّي أحبابًا غيري لتركته منذ زمن بعيد، وشققت دربي بنفسي. ولكن ليس باليد حيلة، فأنا لا أقوى أن أذيقه مأساة والدي ثانيةً».

قالت جو:

«أنصحك إلى ذلك الوقت، أن تبحر بعيدًا في واحدةٍ

t.me/yasmeenbook

من السّفن الخاصّة بك، وأن تباشر في تحقيق أحلامك، وألّا تعود إلى الوطن مرّةً أخرى حتّى تنتهي منها».

صاحت ميج: «جو!!»

وسريعًا وبّختها على هذا الكلام المتهوّر والنّصيحة الفاسدة التي قد تقتل جدّه، خاصّةً أنّها تعلم كم يحبّه الجدّ وتعي مقدار تعلّقه به. ثمّ وجّهت كلامها للوري وحثّته أن يترك عنه الكآبة والحزن ويجتهد ويكدّ في تحصيله العلميّ كي يسعد جدّه، وبالتالي يرضخ شيئًا فشيئًا لرغباته ويتساهل معه قليلًا، وحذّرته من أيّ فعلٍ صبيانيٍّ أحمق قد يدمّر قلب هذا الجدّ العجوز، وختمت نصيحتها بكلمةٍ قالها بروك:

«أجمل ما يفتخر به المرء هو أن يكون محبوبًا وموقّرًا».

كانت محاضرةً إنسانيّة طويلة أضجرته نوعًا ما ولكنّها أثلجت صدره وبثّت فيه أملًا كان مدفونًا. ثمّ قال:

«وماذا تعلمين أنت عن جدّي؟»

قالت ميج:

«يكفيه فخرًا أنّه أفنى حياته يحسن للنّاس، ويغدق على الفقراء، ويصبر على مصائب الدّهر ويحرص دائمًا أن يبقى كلّ شيءٍ سرًّا حتى لا يحرج أحداً أو يجرحه بإحسانه وأفضاله.

لطالما قصّت علينا أمّي ما كان يخبرها به جدّي عن معاملة السّيّد لورانس لوالدته، وكيف أفنى أيّامه في خدمتها، وأيضًا عن رعايته امرأةً عجوزاً كانت تعمل لديه، فعندما كبرت أكرمها واستمرّ في مساعدتها».

صادق لوري على كلّ ما قالته، وزاد عليه أيضًا بعض الخصال الحميدة في الجدّ:

«صحيح يا ميج، إنّ جدّي كذلك، بل وأكثر... جدّي. فإنّه لا يحبّ الرياء ولا النّفاق ولا يطيق أن يجامله أحد على ما يقوم به من أعمالٍ صالحة. إنّه يكره أن تعلم يمينه ما تنفقه شماله، ورغم ذلك، يعلم النّاس كلّهم بما يقوم به ويمتدحونه على الدّوام وأمّك أبرز مثال. لطالما تعجّب السيّد بروك من معاملة السيّدة مارمي له، وترحيبها وتودّدها إليه. آه بروك أقسم أن أمد له يد العون إن تحقّق ما ببالي».

قالت ميج بعصبيّة:

«خير البرّ عاجله، لم لا تبدأ من الآن؟. إنّه يتحمّل منك الكثير».

قال لوري:

«كيف عرفت؟»

قالت:

«الأمر بسيط. فتقلّباتك المزاجيّة تؤثر عليه طردًا. عندما

t.me/yasmeenbook

تكون سعيدًا مرتاحًا يكون هو كذلك. وينقلب حاله رأسًا على عقب وعندما تهوج وتثور بوجهه وتتمرّد عليه. يظنّ نفسه مقصّرًا ويحتار في معاملتك».

قال لوري:

«يبدو أنّكما تثرثران كثيرًا عنّي. كنت أظنّ أنّ ما بينكما مجرّد تحيّات وأحاديث بسيطة، ولكن يبدو أنّ الأمور أكبر من ذلك. كيف لك أن تدرسي سلوكيّاتي من خلال عينيه وتعبيراته».

ارتبكت ميج قليلًا وأحرجها الموقف الذي قد يتّخذه منها لوري، وما أقلقها أكثر هو أن يخبر بروك بما أخبرته به، وقالت:

«عزيزي لوري، كلّ ما في الأمر هو أنّني أهتمّ لأمرك وأتابع أخبارك لمجرّد الاطمئنان عنك».

قاطعها قائلاً:

«لم أتعوّد أن أوقع بين النّاس أو أن أغتابهم، وبما أنّك تقيسين مزاجي وحالتي النفسيّة بمقاييس بروك وحالته النفسيّة، فمن الأفضل أن أحسن صنعًا معه كي لا تأخذي عنّي فكرة خاطئة».

ثمّ تصافح الاثنان بحنانٍ بالغ بعد ذلك الحديث المشحون بالعواطف الجيّاشة، وأكّدت له ميج أنّ كلّ ما قصدته من ذلك هو منعه عن فعل أيّ حماقةٍ قد تؤذي الجدّ

الطّيّب العجوز، فهو جارها وصديقها وصديق العائلة. ووعدته أنّها ستعطيه النّصائح على طبقٍ من فضة، طالما هي حيّة. وتأثّر لوري بما سمع واعتذر لها عن انفعاله معها وقال:

«لا عليك يا ميج، بل أنا من يدين لك بالاعتذار، لقد كنت فظًّا نوعًا ما، فقد أثّر عليّ ما أقاسيه في المنزل من ضيق صدر... أتمنّى أن أحظى دائمًا بنصحك واهتمامك، كلّ ما قلته صحيح، لذا سأحاول جاهدًا أن أتقيّد بمشورتك».

رنّ جرسٌ من بعيد، وكان مصدره هانا الطّاهية تعلن عن وقت العودة للمنزل بسرعة لتناول الشّاي اللّذيذ. كان لوري في تلك الأثناء يساعد الجميع، ويثبت حسن نيّته، مؤكّدًا للفتيات أنّه ذلك الفتى الصّالح مثلهنّ تمامًا، ويكدح معهنّ. يبدو أنّ نصح ميج والفتيات كان ذا مفعول سحريّ.

فقرأ ثانيةً في ذلك الكتاب، ولفّ خيطان الحياكة، وساعد ميج في تنسيق الألوان، ورتّب أكواز الصنوبر مع بيث، كما أسهم أيضًا في إنهاء لوحة آيمي.

قال لوري:

«أريد الذّهاب معكنّ لو تسمحن لي؟»

فقالت ميج بلطف ودعابة:

«دراستك وتحصيلك العلميّ هو من يسمح لك؛ ولسنا نحن. إن وعدتنا بالاجتهاد فسوف نسمح لك».

t.me/yasmeenbook

قال:

«سأعمل على ذلك».

قالت جو له عندما وصلوا للمنزل وهي تودّعه:

«سأعلّمك غزل الصّوف. هذه موضة السّنة».

وعندما حلّ المساء ذهبت بيث إلى الجدّ العجوز، وعزفت له وأبهرته كعادتها. نظر نحوها لوري فرقّ قلبه وحزن على جدّه، عندما تخيّل أنّه قد يتركه وحيدًا ويذهب، أشفق وقال في نفسه:

«سعادتك يا جدّي أهمّ عندي من أيّ أحلام مهما كانت كبيرة. لن أتركك وحيدًا، فأنا كلّ ما لديك وأنتً كلّ ما لديّ

الفصل الرّابع عشر

الأسرار

جاء شهر تشرين الأوّل، وحلّ الخريف وبدأ الطّقس يبرد شيئًا فشيئًا، حيث قصرت فترات ما بعد الظهيرة، وانخفضت حرارة الشمس. كانت جو تدأب على العمل في العليّة، تقف وتمشي، تجلس أحيانًا وتستلقي حينًا آخر، تحاول أن تنهي الأوراق التي بين يديها، تعيد قراءة وتدقيق ما كتبت، تنسّق الخطّ وتمطّر الصّفحات بعلامات استفهامٍ وتعجّبٍ مبالغ فيها.

أنجزت هذا العمل... ثم ضمّت الأوراق إلى بعضها بعضاً ولفّتها كلفافة تبغٍ كبيرة، ثم ربطتها بشريطٍ أحمر ألصقت به ورقةً وقّعتْ على آخرها بخطّ كبير يلفت الانتباه، وكتبت عليها بعنايةٍ بالغة:

((قدّمت هنا أفضل ما لدي!، وإذا كان هذا غير مناسب، فسيتوجب عليّ أن أنتظر حتّى أستطيع القيام بما هو أفضل)).

t.me/yasmeenbook

كانت تلك الأوراق تتضمّن كتاباتٍ كثيرة أمضت جو أيّاماً وليالِيَ حتّى أنجزتها... وكالعادة كان يشاركها فترة الكتابة فأرها سكرابل، مع ابنه الكبير الذي كان فخورًا بشاربيه الطويلين. فيمكث الاثنان معها آمنَين ويلعبان أسفل قدميها.

كان سكرابل فأرًا مشاغبًا لا يترك ورقةً أدبيّة إلّا ويقضمها بأسنانه الحادّة. ربّما كان مثل جو يعشق الكتب لدرجة التهامها، أو أنّه ذو حسٍّ ثقافيٍّ مُرهَف. جعل هذا جو تخبّئ كلّ الكتب والأوراق في درج مكتبها بعيدًا عن أسنان سكرابل.

كان مكتبها عبارةً عن طاولةٍ صغيرة فيها درج مُحكَم الإغلاق. أخرجت مخطوطةً ثانيةً من مجموعة الأعمال خاصّتها من درجها، والذي كان بمثابة مخبئٍ سرّيٍّ تحافظ فيه على نتاجاتها الفكريّة كلّها، ووضعت الاثنتين معًا في حقيبتها، رمت لفأرها قلمًا خشبيًّا ما إن رآه حتّى انقضّ عليه يقضمه، ثمّ تسلّلت إلى الطابق السفليّ في هدوء وذهبت خارج المنزل تشقّ طريقها نحو المدينة.

كانت تحرّكاتها غريبةً كمن يخفي أمرًا بالغ السرّيّة والخطورة، فلم تسلك الطريق الأساسيّ من مدخل منزلها، بل خرجت من شرفةٍ خلفيّة. وصلت تحت سقف مظلّة

الحديقة وهرولت بسرعة إلى أن استقلّت الحافلة، وهناك جلست تلتقط أنفاسها وتنفّست الصعداء.

مضت جو لوجهتها، ونزلت عندما وصلت إلى المكان الذي تقصده. ثم وقفت بعيدًا بعض الشّيء عن مدخل المبنى المنشود. وبعد مناورات عدّة، حاولت الدّخول أوّل مرّة، ولم تتجرّأ!، ثمّ الثّانية فالثالثة وفي كلّ مرّة تعود على أعقابها إلى رأس الشارع، حتّى لفتت أنظار شابٍّ ذي عينين سوداوين، رآها من شرفة الصالة التي كانت تطل على ذلك المبنى.

وبعد عناءٍ شقَّت طريقها عبر السلّم المتّسخ المغطّى بالتراب، بعد أن غطّت وجهها بالكامل بقبّعتها وكأنّها ذاهبةٌ لخلع أسنانها كلّها!

كانت هناك من بين أخريات لافتة مميّزة تزيّن مدخل المبنى، لافتة إعلانيّة لطبيب أسنان، عبارة عن فكّين اصطناعيين ينفتحان ببطء حتّى يكشفان عن صفّ أسنانٍ جميل. بعد أن حدّق في اللافتة للحظات، ارتدى الشابّ معطفه، أخذ قبعته، ونزل إلى الجانب المعاكس من مدخل المبنى، قال وهو يهتزّ مبتسمًا: «ليس غريبًا أن تأتي إلى هنا وحدها. لكنّها ستحتاج إلى من يأخذها إلى المنزل إذا شعرت بالألم».

وفي غضون عشر دقائق، ظهرت جو وقد أصبح وجهها

t.me/yasmeenbook

أحمرَ ويتصبّب عرقًا، بدا وكأنّها تمرّ بمحنةٍ ما. لم تبد عليها أيّ علامة سرور حين رأت الشابّ، فحاولت أن تتجاهله، لكنّه لحق بها، سألها بنبرة عطوفة:

«هل كان الأمر بغيضًا؟»

قالت جو:

«ليس تمامًا».

«لكنّك انتهيت بسرعة».

قالت:

«أجل، الحمد لله».

«لماذا ذهبت وحدك؟»

«لم أشأ أن يعرف أحد بالأمر».

وبّخها لوري:

«أنت أكثر الناس الذين قابلتهم غرابة!. كم واحداً خلعت؟»

حدّقت به وكأنّها لم تفهم قصده، ثم ضحكت جو وكأنها فجأة اكتشفت أمرًا مسليًا.

«عليّ أن أنتظر أسبوعًا من أجل الاثنين اللذين أريدهما أن يخرجا إلى النور».

«ما الذي يضحكك؟، إنّك تخطّطين لشيء مؤذٍ يا جو»، قال لوري الذي بدا محتارًا.

«مثلك تماماً!، ماذا كنت تفعل أنت في صالة البلياردو تلك؟»

أوضح لها أنّها ليست صالة بلياردو، بل هي صالة ألعاب رياضيّة. وأنّه كان يحضر دروسًا للمبارزة بالسيف.

قالت جو:

«رائع! هذه اللّعبة ممتعة!، يمكنك أن تعلّمني إيّاها، وحينها سنؤدّي مسرحيّة هاملت».

ضحك لوري ضحكة جعلت المارّة يبتسمون وقال: «أنا موافق على تعليمك المبارزة بالسّيف حتّى لو لم نؤدِّ المسرحيّة، لما في تلك الرّياضة من تقويةٍ للجسم ولعضلاته»، ثم سألها:

«منذ قليلٍ كنت منزعجةً من وجودي في تلك الصّالة. ما الذي غيّر رأيك الآن؟»

قالت:

«ظننتك تلعب في صالة البلياردو، وأنا لا أحبّ تلك الأماكن. أعتقد أنّها لا تناسبك. أتمنّى ألّا تتردّد عليها أبدًا، هل تفعل ذلك؟»

«في بعض الأوقات».

«أرجو ألا تذهب!»

«باللّه عليك، إنّها مجرّد لعبة، ولا تنسي أنّ لدينا في

t.me/yasmeenbook

منزلنا بلياردو، ولكنّي لا أستعمله فلا أحد يشاركني اللعب فيه، لذلك أذهب لأجد من يسلّيني ويبارزني هناك من الشبّان الذين ألتقي بهم مثل نيد موفا مثلًا. إنّها لعبة ممتعة جدًّا مع لاعبين جيّدين».

«ما أعرفه هو أنّك محترم وأتمنّى أن تظلّ كذلك، وأن تتوقّف عن الذّهاب لأنّني أخشى عليك من إضاعة المال والوقت والجهد في تلك الأماكن، فما هذه إلّا أفعال الطائشين».

«وما دخل الاحترام بممارسة بعض الألعاب المسليّة البريئة؟» بدا لوري مغتاظًا.

قالت جو:

«الرياضة ليست عارًا. ولكنّها تتوقّف على كيف وأين ومع من نلعبها. أنا لا أحبّ نيد ومجموعته، وأمّي أيضًا لا ترتاح لهم وقد عارضت مجيئه لزيارتنا، رغم أنّه يتمنّى أن يأتي إلينا. وبصراحة أنا أخشى أن تتصرّف مثله فتبعدك أمّي عنّا أنت أيضًا».

فقال لوري متعجّبًا:

«أهذا صحيح؟»

قالت جو:

«نعم، إنّها لا تستطيع تحمّل أولئك الشباب المترفين

المدلّلين، وقالت إنّها تفضل أن تحبسنا في المنزل على تلك المخالطات معهم الّتي لا تسمن ولا تغني من جوع».

قال لوري ببراءة كمن يدافع عن أبسط حقوقه:

«عزيزتي، أنا فتىً جدّيٌّ ورزين ولكنّي أفضّل أن أحظى ببعض المتعة أحيانًا. أظنّ أنّك والجميع مثلي».

قالت جو:

«لست مجحفةٌ لذلك الحدّ لأمنعك عن التّسلية والمتعة، لكن لا تبالغ في الأمر وإلّا فقد تخسرنا جميعنا».

قال لوري:

«حسنًا. سأنافس القدّيسين في الطّهارة والنّقاء».

قالت:

«ومن قال لك أنّني قد أتحمّل القدّيسين، فقط كن فتىً بريئًا مخلصًا ومحترماً، وستبقى صديقنا وعزيزًا علينا للأبد، أنا لا أدري ماذا أفعل إن تصرّفت مثل تصرّف ابن السيّد كينغ، ذاك الذي حظي بمشيئة القدر على الكثير من الأموال، ولم يعرف كيف يديرها على نحوٍ سليم، فبذّر المال وقامر وانتحل شخصيّة أبيه ووقّع باسمه على أوراقٍ خطيرة، وهرب من البيت، فدمّر مستقبل تلك العائلة وألقى بأهل بيته وبنفسه إلى التّهلكة».

قال:

t.me/yasmeenbook

«وهل تعتقدين أنّني قد أحذو حذوه وألقي بنفسي في الهاوية؟. شكرًا جزيلًا على حسن ظنّك بي!»

قالت:

«لا، أوه! أنا لا أظنّ ذلك يا عزيزي، لا! ولكن دائمًا أسمع النّاس يتحدّثون عن المال الكثير وكيف بإمكانه أن يلقي بصاحبه في طريق الضّلال. لو كنت فقيرًا لما خفت عليك، كنت سأعلم أنّك لن تتعرّض للإغراء والشّرور».

«هل تقلقين عليّ يا جو؟»

«قليلاً، عندما أرى مزاجك متقلّباً، أو عندما تكون ساخطًا، كما تفعل في بعض الأحيان. أرى أن لديك شخصيّة حادّة وإرادة قويّة، أخاف عليك، لأنّك إن وقعت مرّةً أظنّ أنّك لن تقدر على إنقاذ نفسك مرّةً أخرى، وستتوالى النكبات عليك».

مشى لوري في صمت عدّة دقائق، دون أن يتفوّه بكلمةٍ واحدة، وتلصّصت عليه جو بين الحين والآخر، لترى ردةّ فعله فرأته يستشيط غضبًا رغم تلك الابتسامة المصطنعة على وجهه، والتي لم تتناغم مع حنقه، فندمت على تلك الطّريقة القاسية المبالغ فيها بالنّصح.

تكلّم لوري بعد صمت:

«وهل ستوجّهين النّصح لي طوال الطريق إلى المنزل؟»

أجابته جو:

«بالطبع لا، لماذا تقول ذلك؟»

قال لوري:

«إن كان هذا ما ستفعلينه، فسأشقّ طريقي وحدي. وإن لم يكن ذلك، فسأخبرك شيئًا مثيرًا للاهتمام. واعتبريه سرًّا».

تحمست جو كثيرًا عندما سمعت بأمر السرّ، وقالت:

«لن أسدي إليك أيّ نصائح أخرى، هيّا فلتخبرني بالسر!»

«لكن بشرط، حين أخبرك سرّي سوف تخبرينني ماذا كنت تفعلين في المدينة».

حاولت في البداية التملّص بطريقة ما، لكنّها وجدت أنّه لا مناص من الاعتراف، خاصّةً أنّ في جعبة لوري أخبارًا سرّيةً مشتعلةً، وهي لا تطيق صبرًا على أن تسمعها!

«أخبرني أولًا أهو سر ّجيّد؟»

«أؤكدّ لك أنّه الخير كلّه، ويخصّ أناساً تعرفينهم، وقد صبرت كثيرًا وأنا أخبّئ ذلك الخبر. هيا أخبريني!»

«ولن تخبر أحدًا في المنزل؟، ولن تغيظني فيما بيننا؟»

قال:

«لن أخبر أحدًا بكلمة، وهل سبق لي أن أغظتك؟»

t.me/yasmeenbook

«نعم إنّك تفعل هذا!، أنت تأخذ كلّ ما تريده من الناس بطريقة غامضة!!، سأخبرك بما أنّك شغوفٌ هكذا».

وأخيرًا ألقت ما في جعبتها بعد معاهدة الأمان هذه على أن يحفظ كلّ منهما أسرار الآخر.

«كنت في مكتب الجريدة، وتركت قصّتين من قصصي لدى المحرّر، والآن عليّ الانتظار أسبوعًا لأعرف إن تمّت الموافقة على القصص أم لا».

قذف لوري قبعته في الهواء وصاح:

«مرحى يا جو مارش، أيّتها المؤلّفة المشهورة!»

وأسعد بهذا البطّ والقطط والدجاج والأطفال الصغار على الطريق، وكانا قد خرجا من المدينة الآن.

تجهّمت جو، وقالت:

«توقّف، قد لا يوافق المحرّر على القصّتين معًا، لكنّني لم أكن سأنعم براحة بالٍ إن لم أحاول. إيّاك أن تخبر أحدًا، فأخاف أن أخيّب أمل أهلي بي أو أن أسبّب الحزن لهم إن أخفقت».

أخبرها لوري أنّ قصصها رائعة، وأنّها تضاهي كتابات شكسبير بالمقارنة مع كتّاب اليوم الرّكيكين، وأنّها ستُنشر بالتّأكيد وسيكون الجميع فخورًا بالكاتبة الرّائعة. تخيّلت جو للحظاتٍ كم ستكون تلك اللّحظة عظيمة يوم تكون محلّ إبهار الجميع وفخرهم.

«حان دورك الآن لتخبرني سرّك. هيا لا تغشّ أو لن أصدّقك مجدّدًا أبدًا!»

«لا يسعني سوى إخبارك أمر كلّ تفصيل صغير أعرفه، وأنا الآن أعرف أين توجد فردة قفّاز ميج المفقودة!»

وهمس في أذنها ثلاث كلمات قلبت كيانها وجعلتها تقف محدّقةً به في ذهول واستياء، ثم سألت بحدّة: «وكيف عرفت؟»

«رأيتها».

«أين؟»

«الجيب».

«كلّ هذا الوقت؟»

«أجل! أليس هذا رومانسيًّا؟»

«كلا، إنّه أمرٌ مروّع. هل تراني أرحّب بفكرة أن يأتي شخصٌ ويأخذ ميج بعيدًا عن العائلة. سحقًا لمثل هذه الأسرار المشؤومة، أنا غاضبة لأنّك أخبرتني. ليتك لم تفعل».

أكّدت جو للوري أنّ ميج لن تسمح بذلك، وأنّها ستتضايق من مثل هذه السّخافات. خاف لوري قليلًا أن تفضح أمره وتخبرها بما قاله للتوّ.

«احذري أن تخبري أحداً، لقد وعدتني».

t.me/yasmeenbook

«وعد ماذا؟»

قال لها:

«بالله عليك».

ثمّ عادت جو لهدوئها وحاولت التماسك فقالت له:

«قد أكتمه الآن ولكنّني سأتكلّم عن ذلك الأمر المشين في وقتٍ ما».

قال لها:

«ظننتك تسعدين لذلك؟، فربّما يأخذ بروك ميج وأنت أيضًا ربّما يأتي من يخطفك على حصانه الأبيض في الوقت المناسب».

وقالت بعصبيّة:

«قد أُسرّ إن فعل أحدهم ذلك».

قال لوري:

«كم سأكون سعيدًا من أجلك».

أراد لوري التّخفيف عنها، فقال:

«ما رأيك أن نتسابق أثناء نزول التلّ؟»

وافقت جو على الفكرة وراقت لها فقد تغيّر مزاجها المتعكّر، ركض الاثنان بقوّة عبر المنحدر النّاعم الممهّد، وسقطت قبّعتها ودبابيس شعرها أثناء الركض، ورغم أنّ لوري قد سبقها، إلّا أنّ فورة النّشاط حقّقت هدفه المنشود،

فها هي تنزل التلة وشعرها يتطاير، وعيناها تلمعان، وخدودها متورّدة، وقد تحسّنت حالتها المزاجية.

عندما أدركت لوري عند أسفل التل، كانت منقطعة الأنفاس.

استلقت جو تحت الشّجرة ومدّت أوراقها وجمّعتها على شكل لحاف، وقالت وهي تلهث:

«ليتني كنت حصانًا، حينئذٍ كنت سأتمكن من الركض أميالًا دون أن أشعر بالتّعب. هل من الممكن أن تتصرف بنبلٍ وتحضر لي أشيائي التي سقطت منّي؟»

ذهب لوري ليجمع كلّ أشياء جو الّتي تطايرت، بينما حاولت هي إصلاح تسريحة شعرها قبل أن تقابل أحدًا في الطريق، لكن كان الأوان قد فات بعد أن حضرت ميج وهي ترتدي أفضل فساتينها لدى عودتها من زيارة صديقتها، فنظرت إلى أختها، وقالت:

«يا جو، ماذا تفعلين ومتى ستكفّين عن الركض طوال الوقت؟»

أجابتها جو ببهجة:

«أصنع لحافًا من الورق. ولن أكفّ إلّا عندما أصير عجوزًا بعكّازٍ، بيضاء الشّعر. دعيني أعيش طفولتي يا ميج. ألّا يكفيني ألمًا أنّك تتغيّرين وتكبرين وستبتعدين شيئًا فشيئًا».

t.me/yasmeenbook

استقرّ السرّ في أعماق قلبها فنكّد عليها وقتها، وعضّت على شفتيها لتمنع نفسها من البكاء وأطرقت رأسها. فآخر ما كانت تتمنّاه هو أن تكبر أختها وتتزوّج.

تدخّل لوري في الوقت المناسب، وسأل ميج:

«أين كنت؟، وما سرّ تلك الأناقة».

أجابت ميج:

«كنت في منزل عائلة جاردينر، كانت سالي تخبرني بأدقّ تفاصيل زفاف بيل موفا. هنيئًا لها، ما أعظم حظّها، فقد حظيت بعرسٍ رائعٍ وستمضي الشتاء في باريس».

سألها لوري: «وهل شعرت بالغيرة؟»

أقرّت:

«أجل للأسف».

قالت جو بصوت خافتٍ وهي تحرك قبّعتها:

«أنا سعيدة بذلك».

قالت ميج:

«ولم قد يسعدك ذلك؟»

قالت لها جو:

«إذا كنت تحبّين الثّراء، فلن تتزوّجي رجلًا فقيرًا أبدًا».

قالت ميج بجدّيّة:

«لا أظنّ أنّني سأتزوّج أبدًا».

ثم تركتهما ومضت في طريقها. تصرفّت جو ولوري كالأطفال، وأخذا يقذفان الحجارة وأوراق الأشجار وأغصانها النّاعمة ويضحكان ويتهامسان. أرادت ميج الانضمام إليهما وأن تحظى بالمرح مثلهما، لكنّها لم تكن لتلهو وتركض وهي ترتدي أفضل ثيابها.

على مدى أسبوع، تصرّفت جو على نحوٍ غريب للغاية، فكانت تهرع إلى البآب وقتما يأتي ساعي البريد. وتتعامل مع السّيّد بروك بفظاظة وتحدّق بميج بطريقة غريبة؛ فاحتارت العائلة بأكملها في أمرها، والأغرب من ذلك كلّه تلك النّظرات الغريبة بينها وبين لوري، حتّى ظنّ الجميع أنّ مسّاً قد أصاب جو والفتى.

وعندما حلّ يوم السبت وبينما كانت ميج تؤدّي أعمال الخياطة والتّطريز، نظرت من نافذة غرفة المنزل فرأت لوري يركض وراء جو في جميع أنحاء الحديقة وصراخهما يملأ المكان. قالت في نفسها:

«ماذا نفعل مع تلك الفتاة؟، أما آن لها أن تصبح شابّة مهذّبة رزينة؟!»

قالت بيث التي كانت ما تنفكّ تدافع عن أختها جو رغم أنّها في الآونة الأخيرة قد استاءت منها لأنّها تشعر بأنّها تخفي شيئًا عنها:

t.me/yasmeenbook

«أتمنّى ألّا تغيّر أيًّا من طباعها، فهي مرحةٌ جدّاً وعزيزة كما هي».

وشاركت في ذلك الحديث آيمي الّتي انشغلت بتثبيت بعض الكشاكش والشرائط على فستانها، وقد لفلفت خصل شعرها وجمعتها للخلف ممّا جعلها تبدو سيّدةً صغيرةً حسناء:

«تلك مهمّةٌ مستحيلةٌ. لن تصبح أبدًا سيّدة مهذّبة».

كان لوري يلوّح بصحيفة في يده، حتّى انتزعتها جو منه، واندفعت داخل المنزل. ارتمت فوق الأريكة، وتظاهرت بقراءتها.

سألتها ميج بأدب:

«هل ثمة شيءٌ مشوّقٌ بها قد يسلّينا؟»

رفعت جو عينها، وقالت:

«لا يوجد إلّا قصّةٌ واحدةٌ».

فقالت آيمي بوقار الكبيرات المهّذبات:

«حبّذا لو تقرئينها لنا ودعك من خلق المتاعب».

أرادت بيث معرفة اسم القصة.

أجابتها جو:

«الرسّامون المتنافسون».

شعرت ميج بالفضول، وقالت:

«لماذا لا تقرئينها لنا؟»

أخذت جو نفسًا عميقًا وتنحنحت، ثم قرأت القصّة بسرعة البرق واستمعت الفتيات بانتباه. وقد كانت عاطفيّة حزينة تنتهي بموت كلّ أبطالها. رأت كلّ فتاةٍ القصّة بصورة مختلفةّ، فقالت ميج: «لقد أعجبني الجزء الغراميّ، فيولا وأنجلو من أسمائنا المفضلة، أليس هذا غريبًا؟»

سألت بيث التي لاحظت غرابة وجه جو: «من كتبها؟»

رمت جو المجلّة وجلست فجأة، واستوت في قعدتها وقالت:

«شقيقتكنّ!»

علت أصوات البهجة والدّهشة والفرحة معًا، ووقعت عدّة التّطريز من ميج لشدّة فرحتها وقالت:

«أحقًّا!!؟»

وقالت آيمي بنقدٍ فنيٍّ:

«قصةّ جيّدة جدًا».

وسارعت بيث تحتضن شقيقتها المفضلة وتمطرها بقبلاتها وقالت:

«كنت أعلم!، لقد شعرت بذلك. جو يا عزيزتي! كم أنا فخورة بك».

t.me/yasmeenbook

ثمّ قرأت كلّ واحدةٍ منهنّ اسم ((الآنسة جوزفين مارش)) مطبوعاً بوضوح. ميج لا تزال مندهشة وآيمي تقترح زيادات على القصّة ليس لها أيّ داع، وبيث تحضنها وتقبّلها ثمّ تدور في الغرفة ترقص وتغنّي. أمّا جو فتضحك وتبكي في الوقت نفسه، فأكثر أمنياتها قربًا إلى قلبها هي أن تكون مستقلّة وتحظى بمديح أحبّائها.

ثمّ أتت الطّاهية هانا والأمّ على أصوات الصّخب الّتي أصدرنها، وتنقّلت مجلّة النّسر الطّائر من يدٍ لأخرى. كانت فرحة السّيدة مارمي تفوق الخيال. انقلب البيت إلى حفلة صاخبة.

وانهمر على جو سيلٌ من الأسئلة عن التفاصيل، ما القصة؟، وكيف وصلت لمحرّر المجلّة؟ وكم ستتقاضى ثمنًا للرّواية؟، وماذا سيقول أبوها؟، وألن يفرح لوري؟. صاح الجميع في الوقت نفسه، وصاحت جو وقد تخيّلت نفسها تتربّع على عرش كاتبات أميركا ثمّ قالت لهنّ: سأخبركنّ ولكن توقّفن عن الكلام قليلًا.

«كتبت قصّتين سرًّا وقدّمتهما للمحرّر، عندما ذهبت لمكتبه في المدينة، وطلب منّي أن أمهله فترة ليقرأهما ثمّ يبدي رأيه بعد أسبوع... وبعد أسبوع ردّ عليّ بأنّ القصّتين قد أعجبتاه ولكنّهما ستكونان على سبيل التّجربة والتّمهيد، هذا ما تجري عليه العادة، لكي يعرفني القرّاء، ولكن في

المرات القادمة سيكون لي أجرٌ... واليوم وصلتني هذه، فأمسك بي لوري وأصرّ أن يراها لذا سمحت له، قال إنّها جيدة، وإنّني يجب أن أكتب المزيد... وسأكتب ثانيةً، وأنشر وسأقدم لكُنَّ ما أقدر عليه كي تنعمن بحياةٍ حلوة ممتعة. لست حزينة لأنّها مجانيّة لأنّي متأكّدة أنّي سأصبح ثريّةً عاجلًا أم آجلًا وقلمي هو من سيغنيني».

وبكت جو وأفسدت قصّتها الصغيرة ببعض الدّموع الطّبيعية التي هطلت على المجلّة، ولهثت بأنفاسٍ متقطّعة لما شعرت به من فيض الفرح والسّرور والفخر. كيف لا وها هي تضع قدمها على أوّل درجةٍ من سلّم المجد والنّجاح، وتعتمد على نفسها وتحظى بفخر عائلة آل مارش عن بكرة أبيها. لعمري إنّه مجدٌ عظيم.

t.me/yasmeenbook

الفصل الخامس عشر

بـرقية

بعد ظهيرة يوم غائم من أيّام شهر تشرين الثّاني، جلست الفتيات وقد اعتلاهنّ الهمّ وكنّ في مزاجٍ سيّئ للغاية.

قالت ميج بعد أن حدّقت طويلًا بالحديقة التي فتك بها الصّقيع:

«تشرين الثّاني هو الشّهر الأسوأ في السنة».

تأمّلت جو كلام أختها بعد أن وضعت القلم بالقرب من أنفها، فاصطبغ بالحبر دون أن تشعر، ثمّ نطقت:

«لعلّ السّبب أنّني ولدت فيه».

وكانت بيث الأكثر تفاؤلاً

بينهنّ، وذات نظرةٍ إيجابيّة لكلّ شيءٍ في الحياة حتّى هذا الشّهر الصّاخب:

«لو حدث شيءٌ لطيفٌ الآن لكنّا اعتقدنا أنّه شهر خيرٍ وجمال».

t.me/yasmeenbook

قالت ميج، وقد ضاقت ذرعًا بحياتها وما تلاقيه من تعبٍ وملل وتكرارٍ قاتل:

«ربّما يحدث شيء. لكنّني أرى كلّ ما حولنا كئيبًا مملًّا. نخرج كلّ يومٍ ونكدُّ ونعمل ولا شيء يتغيّر. حتّى التّرفيه والمتعة باتت بعيدةً عنّا كلّ البعد. وكأنّها تركض ونحن نركض خلفها دون جدوى».

قالت جو باندفاع:

«تحلّي بالصّبر يا عزيزتي، لا أدري لِمَ كلّ هذا التشاؤم؟. بالطّبع ستتعسّر عليك عيشتك لأنّك ترين فتياتٍ أخريات يمضين أوقاتًا رائعة ويحظين بكلّ شيء، بينما أنت تقارعين السّنين بالجهد والمشقّة. لو كان بإمكاني أن أعطيك كلّ ما أعطيه لبطلاتي في رواياتي وقصصي، فلن ينقصك لا الجمال ولا الأناقة. لو كان ذلك بالإمكان لأرسلتك كلّ يومٍ للسّفر في رحلاتٍ طويلةٍ وممتعةٍ، ثمّ تعودين لنا وقد بدّل الثّراء كلّ حالتك، وأصبحت ذات شأن».

قالت ميج بأسىً شديد:

«نحن في عالم ظالم بشكلٍ مخيف، لا تهبط الثّروات على النّاس كنوعٍ من السّحر في هذه الأيّام، والسّماء لا تمطر ذهبًا ولاً فضّة. على الرّجال أن يكدّوا ليكسبوا سبل العيش، وعلى النّساء أن يتزوّجنهم من أجل الطّعام والشّراب والملبس».

تدخّلت آيمي في الحديث وكانت تقبع في زاوية الغرفة، تصنع من الصلصال الفخّاريّ بعض التماثيل الصّغيرة المقزّزة على أشكال بعض الوجوه والطّيور والفاكهة فتشكّلها بطريقة بشعة، كما تصفها هانا دائمًا بالفطائر الطينيّة:

«عشر سنواتٍ فقط وأؤكّد لك أنّني وجو سنجني لك ثروةً هائلة».

قالت ميج:

«أشكرك على حسن نيّتك. ولكنّني لا أستطيع الانتظار أكثر. فضلًا عن أنّني لا أؤمن كثيرًا بحبر جو، ولا بأوساخك الطّينية. أشكّ أنّ ذلك قد يغنينا».

تنهّدت ميج واستدارت إلى الحديقة المتجمّدة مرّةً أخرى، واتّكأت جو بمرفقيها على الطاولة بيأس، لكنّ آيمي أكملت رشق الطّين وتشكيله دون أن تتأثّر بطاقة ميج السّلبية. أمّا بيث وقد جلست تنظر من شرفة الغرفة المقابلة، فقد رأت لوري وأمّها مقبلين معًا، كان لوري يهرول مسرعًا وكأنّ في جعبته بعض الأخبار الهامّة. قالت لهنّ بفرح:

«سيحدث شيئان جميلان حالًا، قدوم أمّي ولوري».

دخلت السيّدة مارمي ولوري وطرحت الأمّ سؤالها الرّوتينيّ:

«هل أتت أيّ برقيّاتٍ من والدكنّ يا فتيات!»

t.me/yasmeenbook

أجابت الفتيات:

«لا».

قال لوري يستجدي عطفهنّ:

«لقد أمضيت معظم النّهار في حلّ مسائل الرّياضيّات وإنجاز الحسابات حتّى انفلق رأسي من التّعب والإعياء، وتراءى لي أن أذهب في جولة لأرفّه عن نفسي وأنعش دماغي من جديد، فنتجوّل في المدينة قليلًا، خاصّةً أنّي سأوصل السيّد بروك لمنزله بالعربة»، ثم سألهنّ: «فهل تريد أيٌّ منكنّ أن تأتي معي؟، الطّقس الآن صافٍ وسنستمتع بالرّغم من بعض الغيوم. إن ذهبت أنت يا جو ستذهب بيث».

أجابت جو:

«طبعًا سنفعل».

قالت ميج وقد طلبت مارمي منها مسبقًا أن تخفّف من لقاءاتها مع بروك قدر المستطاع:

«شكرًا يا لوري. لديّ بعض الأعمال فأنا لم أنته من التّطريز بعد».

وبسرعة البرق غسلت آيمي يديها ونظّفتها جيدًا من آثار الطّين وأصبحت على أتمّ الاستعداد.

اتّكأ لوري على مقعد مارمي، وبنظرة حانية ومحترمة سألها:

«هل ثمة شيء يمكنني القيام به لك يا حضرة الوالدة؟»

أجابته:

«لا أريد شيئًا يا عزيزي، لكن من فضلك لو مررت بمكتب البريد أرجو أن تسأل لي إن جاءتنا أيّ برقيّات من والد البنات. هذا يوم استلامها ولم يأت شيء بعد. والدهنّ منتظم في مراسلاتنا ولكنّ ربّما حصل تأخيرٌ لسببٍ ما».

وما زالت مارمي تشرح له حتّى رنّ جرس الباب وقطعها كلامها، ودخلت هانا إلى حجرة المعيشة وعلى وجهها نظرةٌ حائرةٌ، كأنّ الرسالة تحوي انفجارًا ما. قالت:

«لقد وصلت برقيّة من تلك البرقيات المروّعة يا سيدتي».

خطفت مارمي البرقيّة من يد هانا بسرعة وبدأت تقرأها فشحب وجهها وارتمت فوق مقعدها. سارعت ميج وهانا لتسنداها، بينما ركض لوري على الدّرج لإحضار كوب ماء وقرأت جو بصوتٍ خائف:

«السيّدة مارمي، زوجك مريض للغاية. احضري فورًا.

س. هايل

مستشفى بلانك واشنطن».

تبدّل حال العائلة كلّها فجأةً، وصدمت الأنباء المفزعة الجميع. ولعدّة دقائق لم يكن هناك شيء سوى صوت

t.me/yasmeenbook

العويل. ضمّت السّيدة مارمي بناتها اللاتي تجمّعنَ وانتحبن حولها، وأنزل الخوف على قلوبهم ظلّاً ثقيلاً للغاية، فهو كلّ شيء لهن في هذه الحياة ومصدر قوّتهن وأملهنّ ومعيلهنّ الوحيد.

حاولت السّيّدة مارمي جاهدةً أن تتمالك نفسها وأمسكت بالرسالة تقرأها مرّةً أخرى، ثم قالت لهنّ بلهجةٍ لن ينسينها طوال حياتهنّ:

«سوف أذهب إليه حالًا. آه. آمل ألّا يكون قد فات الأوان. ساعدنني على هذا المصاب يا بناتي».

تعالى صوت النّحيب والعويل بطريقة تقطّع نياط القلب لعدّة دقائق في الغرفة، تقطعه كلمات الأسى والحزن أو المواساة الّتي خففن بها على بعضهنّ بعضاً، وكانت هانا أوّل من استعادت وعيها ومسحت دموعها بطرف الفستان وأمسكت بيدي مارمي وقالت لها بحزمٍ وثبات:

«ليحفظه الرّب ويشفه ويُعِدْه لنا سالمًا غانمًا، كفى نحيبًا، علينا أن نسارع بإعداد حقيبة السّفر».

وسارعت هانا تحضّر الأغراض التي قد تحتاجها مارمي وقد دبّ بها نشاطٌ غير مألوف، وكأنّها ثلاث نساءٍ يعملن في وقتٍ واحد.

قالت مارمي:

«إنّها على حقّ، لا وقت للدموع الآن، رجاءً اهدأن قليلًا لأرى ماذا يمكنني أن أفعل».

وامتثلت الفتيات المسكينات لنصح أمهنّ وحاولن أن يكنّ هادئات ويتحلّين ببعض الصّبر، في حين جلست والدتهن، شاحبة اللّون، لا حول لها ولا قوّة. ثمّ جمعت أفكارها وقرّرت المهامّ الأولى التي يتعيّن عليها القيام بها، فسألت عن لوري الذي هرع إليها من الغرفة المجاورة يلبّي نداءها، بعد أن كان جالسًا يبكي فهو لم يقوَ على رؤية دموعهنّ وأحزانهنّ وفُطر قلبه الرقيق، لكن عندما سمع الأمّ تناديه أجاب بسرعة:

«هنا، سيّدتي. أوه، هل عساي أفعل شيئًا!»

قالت مارمي:

«رجاءً أرسل برقيّةً تخبرهم فيها أنّني سأحضر على الفور، وأنّ القطار التّالي المتّجه إلى واشنطن يغادر في الصباح الباكر».

أومأ لوري برأسه وبدا وكأنّه مستعدٌّ للوصول إلى القمر إذا ما استدعى الأمر. وقال:

«هل هناك شيءٌ آخر يمكنني فعله؟ العربةُ جاهزة، يمكنني أن أذهب إلى أيّ مكان أو أفعل أيّ شيء!»

أجابته مارمي:

t.me/yasmeenbook

«لعلّك أيضًا تبعث برسالة إلى العمّة مارش!. يا جو أحضري لي قلمًا وورقة».

فعلت جو ما طلبته أمّها وأحضرت ورقة وقلماً ومنضدة صغيرة، وشعرت بالعجز الشديد لأنّها تعلم أنّها ستقترض ثمن تذكرة القطار من العمّة مارش. وتمنّت لو أنّها استطاعت أن تأتي بمالٍ إضافيٍّ لترسله إلى الأب المسكين الذي لا تعرف ما هي حالته الآن.

أعطت مارمي الرسالة للوري وقالت له:

«اذهب الآن يا عزيزي، لكن لا تقتل نفسك وأنت تقود بسرعةٍ شديدة. لا حاجة لذلك، فما زال أمامنا متّسعٌ من الوقت».

لكنّ لوري لم يأخذ نصيحتها على محمل الجدّ، واندفع نحو الباب الأماميّ يحمل الرسالة في يده، ومضى في طريقه وكأنّ حياته تعتمد على ذلك الأمر.

وسرعان ما طلبت مارمي من بناتها القيام ببعض الأعمال، حيث أرسلت جو لتشتري حاجات التّمريض من أقرب صيدليّة، فهي لا تثق بالمستشفيات العسكريّة تلك. ومن واجبها أن تقدّم له أحسن الأشياء ولو اضطرها الأمر للتسوّل على الطّرقات. وطلبت من آيمي وهانا أن تجلبا لها حقيبة السّفر السّوداء الكبيرة، فسارعتا وميج بتجميع الأشياء الباقية لأنّ الأمّ لم تكن في كامل وعيها.

أمّا بيث فقد ركضت إلى منزل السّيد لورانس لإحضار زجاجات الخمر العتيقة من أجل أبيها.

حضر الرجل العجوز مع بيث، وأحضر كلّ ما رآه مناسبًا لشخص مريض. بل وعرض على السيّدة مارمي أن يرافقها في رحلتها الطويلة، لكنّ مارمي علمت أنّه لن يتحمّل مشقّة السفر، فشكرته وأخبرته أنّها ستكون بخيرٍ حتّى ولو ذهبت وحدها، مع أنّها لم تكن تشعر بذلك. فنزع الجدّ الودود معطفه السّميك وقدّمه لها، علّه يعينها على تحمّل البرد، ووعدها أنّه سيرعى البنات ويهتّم بهنّ طوال فترة سفرها. نزلت تلك الكلمات كالبلسم على قلب الأمّ فاطمأنّت وسكنت روحها قليلًا.

حزن الجدّ لما قد تعانيه الأمّ من مشاقّ الرّحلة الطّويلة وودّعهن وغادر على عجالة كي تستكملن تحضيرات السفر.

توسّلت ميج لأمّها أن تجلس قليلًا كي ترتاح، بينما تكمل الفتيات بقية الأعمال وكان لهنّ ذلك. ثمّ طُرق الباب المنزل وفتحت ميج وفي يديها حذاء أمّها المطّاطيّ وقدحٌ من الشّاي السّاخن كانت قد سكبته لأمّها لعلّها تهدّئ به قليلًا من روعها، فوجدت السّيد بروك على الباب.

قال وقد خفض عينيه البنّيتين الجميلتين للأسفل:

«لقد أحزنتني جدًّا تلك الأخبار عن والدك. حضرت

t.me/yasmeenbook

إلى هنا لأسأل والدتك إن كانت تسمح لي بمرافقتها إلى واشنطن. سأسرّ كثيرًا إن قبلت ذلك».

قالت له ميج وقد اندفعت تجاه ذلك الشّاب بحرارة وودٍّ ورافقته نحو أمّها:

«كم أنتم لطيفون جميعًا!، سيكون من الجيّد أن يرافقها شخصٌ مثلك ليعتني بها. شكرًا جزيلًا لك».

رتّبت البنات كلّ شيءٍ، وعندما شارفن على الانتهاء، عاد لوري وفي يده المبلغ المطلوب وورقة كُتب فيها شيءٌ أزعج الأمّ كثيرًا.

ونصّت الرّسالة على التّالي:

«أوه يا سيّدة مارمي، نصحتك وأخي وقلت لكما مرارًا وتكرارًا أنّ ذهابه للحرب لن يجدي نفعًا، ولكنّكما لا تسمعان النّصيحة أبدًا. تجاهلكما لي ولكلامي لن يجرّ عليكما إلّا الويلات».

وضعت مارمي المال في جيبها وقذفت الرّسالة في موقد النّار على الفور، ولوت بشفتيها؛ فهذا ليس الوقت المناسب لسماع هذه الكلمات السامّة المزعجة.

ثمّ انتهت آخر جولةٍ لتحضيرات ما قبل السّفر، وحاولن جميعهنّ عدم التفكير في أبيهن وحبسن دموعهن كي يتمكنَّ من الوقوف بجانب الأمّ ومساندتها. ومع انقضاء

فترة الظّهيرة أحضرت هانا بعض الأغراض والملابس للأب، وطوت ميج وأمّها بعض الملابس الصوفيّة في الحقيبة وأعدّت بيث وآيمي إبريقًا من الشّاي. أمّا جو فقد كان لها شأنٌ آخر خارج المنزل، وعملٌ مهمٌّ يبدو أنّه لا يحتمل التّأجيل، قلق عليها لوري ومن في المنزل بعدما طال غيابها، ثم خرج ليبحث عنها. ولكنّها وصلت أخيرًا وأتت من النّاحية الثّانية وكان على وجهها تعبيرٌ غريبٌ من اللّهفة والحزن والفرح معًا، ثمّ أعطت أمّها حفنةً من الدولارات، وقالت:

«خذي يا أمي، هذه مساهمتي».

شهقت مارمي، وقالت:

«جو!، من أين لك بخمسة وعشرين دولارًا؟. هل أغضبت الرّب منك في عملٍ طائشٍ فظيع؟!»

أجابتها:

«لا تقلقي يا أمّي، لقد اكتسبتها بطريقٍ مشروع. لست أنا من يقوم بأفعالٍ مشينةٍ تخجلين بها. لقد بعت ما لدي».

ثم خلعت جو قبعتها وكشفت عن شعرها الطويل المتموج وقد قصّته قصيرًا جدًّا!

صاحت مارمي والبنات بغضبٍ شديد:

«شعرك!، ماذا حلّ بشعرك الجميل؟، كيف تفعلين هذا يا جو؟، كيف أمكنك قصُّهُ؟!»

t.me/yasmeenbook

قالت جو بمزيجٍ من الثّقة والدّعابة:

«لقد بعتُه، سيناسبني هكذا، كان يُشعرني بالغرور الشديد. كما أنّه كان يثقل رأسي فيمنع تدفّق الأفكار، أمّا الآن وقد أصبح لدي رأسٌ خفيفٌ فسترين المعجزات».

لم تستطع آيمي تصوّر تلك التّضحية وتنهّدت قائلةً:

«لقد كان أجمل ما فيك!، ما الذي جعلك تفعلين هذا؟»

قالت جو:

«كنت أودّ مساعدة أبي بأيّ وسيلة، وهذا كلّ ما استطعت فعله».

نظرت السيدة مارش إلى ابنتها بحبّ، وقالت:

«آه يا حبيبتي. شكرًا كثيرًا. ولكن ليتك لم تفعلي، لا أريد المال لديّ ما يكفيني».

كانت بيث أشدّ المتأثّرات بما حدث، فتارّةً تبكي وتارّةً تحتضن أختها وتمطّرها بالقبلات الحانية فتمرّر يديها الحانيتين على شعرها لتعبّر لها عن فخرها بما ضحّت به، وجلست جو تقنعها بأنّ ذلك ليس أمرًا بهذه الأهمية، ثمّ إنّ شعرها قويٌّ وسينمو ويطول من جديد، وهذا ما أكّده لها الحلّاق.

قالت جو:

«تلك ليست نهاية العالم. اقبلي يا أمّي المال كتعويضٍ لا يُذكَر لأفضال أبي علينا وهيّا لنتناول العشاء».

قالت أمّها:

«أخبريني كلّ شيءٍ يا جو. أنا لست راضيةً تمامًا عن فعلتك هذه، لكن لا يمكنني إلقاء اللّوم عليك. أنا أعلم كيف ضحّيت عن طيب خاطرٍ بغرورك (كما تسمّينه) من أجل حبّك لنا. لكن يا عزيزتي لم يكن ذلك ضروريًّا، وأخشى أن تندمي على ذلك في أحد الأيّام».

قالت جو وقد ارتاحت نوعًا ما لأنّ ردّة فعل أهلها في البيت اقتصرت على ذلك فحسب:

«كلّا يا أمّي لن أندم أبدًا».

سألتها آيمي:

«ما الّذي جعلك تفعلين هذا؟، قبل فترة كان قصّ رقبتك أهون عليك من قصّ شعرك الجميل الغزير».

قالت جو:

«أعلم جيّدًا أنّنا بحاجةٍ ماسّة إلى المال، ولم أكن واثقة أنّ العمّة مارش ستعيننا فكلّنا نعلم كم هي بخيلة. وأعرف أنّ ميج لا تملك المال بعد أن ساهمت براتبها في دفع أجرة المنزل. وأنا لا أملك شيئًا حاليًا باستثناء بعض الخرق (الملابس) البالية الّتي سأعاني في بيعها. لذا لم يبق أمامي من وسيلةٍ سوى أن أقصّ أنفي وأبيعه!».

قالت مارمي ونظرت إليها نظرةً أثلجت قلب جو:

t.me/yasmeenbook

«دعي عنك تلك الأفكار المرهقة، يا طفلتي!. لو بعت ملابسك الشّتوية كيف كنت ستحصلين على غيرها وراتبك بالكاد يكفيك!»

قالت جو:

«لم أكن أنوي في البداية أن أبيع شعري، وظللت أمشي في الطّريق وأنا حائرة الخطا أمرّ بالمحالّ الكبيرة، وأرى ما فيها من أغراضٍ قد تلزم أبي، وأفكّر كيف يمكنني أن أؤمّن المال، إلى أن مررت بجانب حلّاقٍ يعرض بعض قطع الشّعر الصّناعيّ في الواجهة فتراءى لي أن أبيعه. دخلت للمحلّ وسألت الحلّاق عن التّفاصيل كلّها».

قالت بيث بهلع:

«يا إلهي كيف تجرّأت؟»

أكملت جو: «قال الحلّاق وكان حسن الهندام أنيق الملابس متوسّط الطّول والحجم ويبالغ في دهن شعره بالزّيت: إنّ شعرك بنيّ اللّون، ويوجد في السّوق من أمثاله الكثير، إنّ إعادة تدويره تحتاج الوقت والتكلفة؛ وكأنّني أوّل زبونة تدخل محلّه لذلك الغرض. وبعد مناقشة قصيرة بيني وبينه خفت أن تضعف عزيمتي فأتراجع عن بيعه ولكنّه أصرّ على المجادلة، فأخبرته لماذا أريد النّقود وعن المصيبة الّتي وقعنا بها، وأحرجت نفسي كثيرًا بذلك. وما إن رأى فرط تأثّري حتّى غيّر نبرة حديثه معي وتألّم لألمي

وشاركتنا زوجته الحديث بعد سماعها لمأساتي، وتخيّلت نفسها في مكاني. وطلبت منه أن يشتريه لأنّ فيه خدمةً إنسانيّةً جليلةً. ثم قالت المرأة: لو أنّ جيمي مكانه لبعت شعري وكلّ ما له قيمة عالية من أجله».

سألت آيمي وكانت تعشق أن تغوص في التّفاصيل:

«ومن هذا جيمي؟»

قالت جو:

«ابنها، كان في الجيش. وقد مات في الحرب. قرّبتني إلى قلبها تلك الصدفة فشعرت بي أكثر وتودّدت إليّ من دون أيّ رسميّةٍ أو تكلّف. حتّى إنّني لم أشعر بعمليّة القصّ تلك».

سألتها ميج:

«ألم تشعري بالرّهبة عندما أخذ المقصّ يلتهم خصلاتك الجميلة؟»

«لقد أخذت آخر نظراتٍ لشعري بينما انشغل الحلّاق بتجهيز أغراضه وعدّته. وكان الأمر برمّته غير جديرٍ بالاهتمام لدي. ما الفرق إن كان طويلًا أم قصيرًا، لكنّني حزنت عليه عندما رأيته على الطّاولة أمامي، فشعرت وكأنّي فقدت أحد أطرافي أو أعضائي، وأحسّت بي زوجته فتناولت خصلةً وأهدتني إيّاها على سبيل الذكرى».

t.me/yasmeenbook

مدّت جو يدها وقالت:

«ها هي خذيها يا أمّي. سأهديك إيّاها لتذكّرك بما كان عليه شعري يومًا. أهمّ ما في الأمر أنّي مرتاحةٌ الآن بشعري القصير»

وقامت السّيدة مارمي لتخبّئ تلك الخصلة الغالية على قلبها في درج مكتبها الصّغير بجانب خصلةٍ أخرى بيضاء، ثمّ قالت عبارةً واحدة:

«شكرًا لك عزيزتي».

لكنّ ما في وجهها من حزنٍ وهمّ على ما حلّ بشعر ابنتها الجميل، جعلهنّ يغيّرن الموضوع، ويتحدّثنّ بمرح قدر المستطاع، فذكرن السيّد بروك، وكيف سيكون الغدُ أجمل بإذن اللّه عندما يعود لهنّ أبوهنّ ويرعينه ويطبّبنه.

في الساعة العاشرة، انتهت السيّدة مارش من آخر أعمالها ولم يرغب أحدٌ بالذهاب إلى الفراش فقالت لهنّ:

«تعالين يا فتيات».

قامت بيث للبيانو لتعزف ترنيمة الأب المفضّلة. وكانت الفتيات متماسكاتٍ ولكنهنّ انهرن واحدةً تلو الأخرى، باستثناء بيث حيث كانت وحدها، تغنّي من كلّ قلبها، لأن موسيقاها كانت دائمًا سندًا وعزوة.

قالت الأمّ بعد أن انتهت التّرانيم وتوقّفن عن الغناء جميعهنّ:

«اذهبن إلى الفراش ولا تنشغلن بالحديث، لأنّنا يجب أن نستيقظ مبكّرًا وسنحتاج للراحة. أخشى أن يأخذنا السّهر. طابت ليلتكنّ حبيباتي».

قبّلنها بهدوء، وذهبن إلى الفراش بصمت كما لو أنّ المريض بات عندهنّ ويخشين أن يوقظنه من النّوم. سرعان ما غطّت بيث وآيمي في نوم عميقٍ رغم ذلك اليوم القاسي، أمّا ميج فقد ظلّت مستيقظةً تفكرّ في أهمّ الأمورِ الجدّيّة الّتي لم تخطر على بالها من قبل. واستلقت جو بلا حراك حتّى ظنّتها أختها نائمة، لكنّ نواحًا مكبوتًا تسلل من بين شفتيها جعل أختها تركض نحوها وتلمس خدّيها المبلّلين بالدموع وتسألها:

«جو عزيزتي ما الأمر؟. هل تبكين على والدنا؟»

قالت جو:

«لا. لا أبكي عليه».

قالت ميج:

«ماذا إذًا؟»

وانفجرت المسكينة في البكاء بعد أن فشلت محاولتها في كبت ألمها:

«شعري... شعري!»

واستاءت ميج أكثر عندما رأت أختها على تلك الحالة وحضنتها بين ذراعيها وواستها علّها تخفّف مصابها.

t.me/yasmeenbook

قالت جو معقّبة على سبب بكائها:

«لست نادمة على ما فعلت، ولو اضطّر الأمر سأذهب غدًا أيضاً لأقصّه مرّةً أخرى.

ولكنّني بكيت حيث أخذتني الحسرة على خصلات شعري الّتي فقدتها وفقدت جمالي معها. لكنّني أعدك أنّي لن أبكي مرّة أخرى. ما الّذي أيقظك أنت من النّوم؟»

أجابتها ميج:

«القلق يؤرّقني».

نصحتها جو:

«فكّري بشيءٍ مفرحٍ وستغرقين في النّوم».

قالت ميج:

«حاولت ذلك فازددت أرقًا وسهدًا».

سألتها جو:

«وبم تفكّرين؟»

ابتسمت ميج في داخلها في تلك الظلمة وأجابت:

«في وجوه جميلة وعيون خاصّة حلوة».

قالت جو:

«وأيّ الألوان تفضّلين؟»

أجابت:

«إنّها البنّية. وتعجبني الزّرقاء أيضًا».

ضحكت جو، وأمرتها ميج بحدّةٍ ألّا تتفوّه بحرفٍ واحدٍ، ثم ودّعتها بحبٍ ووعدتها أن تصفّف لها شعرها القصير، ثم ذهبت للنوم وما لبثت أن غطّت بنومٍ عميق وحلمت أنّها تعيش في قصرها الجميل.

وعندما دقت السّاعة منتصف اللّيل، كان أحدهم يمشي بخفّةٍ وهدوء بين أسرّة الفتيات، يغطّي فتاة ويعدّل وسادة الأخرى، ويطبع على وجنة هذه قبلةً ناعمة مباركة ويتأمّل وجه الأخيرة. رفعت مارمي يديها إلى اللّه متضرّعةً بكلّ ما تحمله الأمّهات من حنانٍ ورحمةٍ أن يحميهنّ ويسعدهنّ.

ثم أزاحت طرف السّتارة لتنظر إلى الليل الكئيب، ليطلع القمر فجأة من وراء الغيوم، ويشرق عليها بأنواره الفضّية اللّامعة وكأنّه يواسيها ويخفّف عنها ويقول:

«لا تقلقي يا عزيزتي ولتقرّي عينًا. ستذهب هذه الغمّة ويعمّ الأمل والنّور من جديد».

t.me/yasmeenbook

الفصل السّادس عشر

رسائل

عندما تحيق المصائب بالنّاس تصبح الساعات ثقيلة مريرة، وتتباطأ عجلات الزّمن وكأنّها تسير فوق قلوب المبتلِين. هذا كان حال فتياتنا الأربع، حيث استيقظن في ذلك الفجر الرماديّ البارد وأضأن مصباحهنّ وتلوْنَ صلاتهنّ بجدّية، علّ الدّعاء والابتهال يمتصّ الألم العميق. كانت تلك أوّل محنةٍ حقيقةٍ تلمّ بهنّ، حيث جعلتهنّ يشعرن بنعمة الأيّام السّابقة وكيف كانت الأفراح تغمر أيّامهنّ الخالية.

أجمعن الرّأي وهنّ يرتدين ملابسهنّ أن يودّعن أمّهنّ بمرحٍ وأملٍ، فتمضي في رحلتها المليئة بالقلق بأقلّ تكلفةٍ من الحزن والدموع.

عندما هبطن للأسفل بدا كلّ شيءٍ غريبًا جدًّا وصاخبًا، على عكس السّكون المُخيّم على المدينة. وشعرن بالغرابة

t.me/yasmeenbook

الشّديدة من جهوزيّة مائدة الفطور في تلك السّاعة المبكّرة. ثمّ أقبلت عليهنّ هانا وكانت الأشدّ غرابةً بنشاطها المفرط وملابس النّوم التي ما اعتدن أن يرينها بها. لقد كان أسرع فطورٍ في التّاريخ. ورأين عباءة أمهنّ وقبّعتها على الأريكة جاهزتين وحقيبة سفرها قرب الباب.

جلست الأمّ إلى طاولة الطّعام تحاول أن تتناول بعض الّلقيمات ولكنّها لم تستطع، وكانت شاحبةً وقد أدماها الأرق والحزن. امتلأت عينا ميج بالدّموع السّخية واضطّرت جو لإخفاء وجهها عدّة مرات خلف أدوات الطّعام كي لا يرى أحدٌ دموعها.

أمّا الصّغيرتان بيث وآيمي فقد اعتلى وجهيهما الحزن والمرارة وكأنّهنّ يجربنه للمرة الأولى.

مضى الوقت وهنّ جالساتٍ ينتظرن موعد الذّهاب، لم يتحدّثن إلّا ببعض الكلمات الضّرورية وساعدن مارمي في ترتيب هندامها ولفّ شالها جيّدًا وتثبيت قبّعتها وإلباسها الحذاء وإحكام قفل الحقيبة. قالت الأمّ:

«يا صغيراتي، أتركُكنّ برعاية هانا وحماية السيّد لورانس. هانا أكثر النّاس إخلاصًا وأحسنهم خلقًا، وجارنا الطيّب سيرعاكنّ كما لو كنتنّ بناته. أنا أثقّ بكنّ وأتمنّى أن تكنّ محلًّا وأهلًا لتلك الثّقة، وأن تُحسنّ التّصرف. لا تقلقن عليّ وإيّاكنّ أن تستسلمن لليأس أو الكآبة فتلجأن

للعزلة أو الوحدة. وصيّتي لكنّ أن تقمن بعملكن على أكمل وجه، فالعمل يجوهر النّفس وينسيها همومها وأحزانها. ضعن في بالكنّ أنّه مهما حصل فلن أسمح أن تشعرن باليُتم أو الحرمان يومًا».

قالت الفتيات بصوتٍ واحدٍ:

«أمرًا وطاعةً يا أمّاه».

قالت الأمّ من جديد:

«ميج، عزيزتي، كوني حذرةً، انتبهي لأخواتك، واستشيري هانا في أيّ شيءٍ يستعصي عليك. وأنت يا جو لا تتذمّري أو تفعلي أشياء حمقاء. اكتبي لي دائمًا وكوني فتاتي الشّجاعة الّتي أعرفها. وأنت يا بيث قومي بواجباتك المنزليّة على أكمل وجه واجعلي الموسيقا ملاذك الآمن فهي غذاء الرّوح والجسد. أمّا أنت يا حبيبتي الصّغيرة فعاوني أخواتك وأطيعيهن ولا تثيري المتاعب لأحد وانتبهي لنفسك».

قالت البنات:

«أمرك يا أمّاه. أمرك».

حان وقت الوداع وأتت العربة محدثةً صوت طقطقةٍ في الخارج وبموكب مهيب وقفن جميعهنّ يودّعن الأمّ، دون أيّ دموعٍ أو كلام، ورغم تآكل أرواحهنّ همًّا وغمًّا

t.me/yasmeenbook

بعثن برسائل الحبّ والشوق لوالدهنّ. كم كان خوفهنّ عظيمًا من أنّها قد تصله بعد فوات الأوان!

أقبلن واحدةً تلو الأخرى يقبّلنها قبلة الوداع، حيث كنّ يحاولن قدر الإمكان أن يتماسكن ورفعن أيديهنّ يلوّحن لها أثناء ركوبها العربة.

حضر أيضًا السّيد لورانس ولوري ليودّعا مارمي. وكان السّيّد بروك نموذجًا للشابّ المهذّب الطيّب الورع الذي تستهويه جميع الشّابات.

ثمّ همست السّيدة مارمي وقالت:

«إلى اللّقاء عزيزاتي! ليباركنا اللّه ويحفظنا لبعضنا بعضاً».

انطلقت مارمي في عربتها وظلّت تحدّق بهنّ إلى أن انعطفت بها العربة وغبن عن نظرها تمامًا. كان آخر ما رأته وجوه فتياتها النّضرة وجيرانها الخدومين لوري والجدّ لورانس والأمينة هانا يحيطونهنّ وكأنّهم حرّاسٌ شخصيّون. بزغت الشّمس في السّماء وكأنّها تبثّ في نفوسهنّ أملًا نابضًا.

نظرت مارمي لرفيق رحلتها الّذي لا يبخل عليها بالعطف والحنان وابتسمت له وقالت:

«لقد غمرتمونا بلطفكم».

فابتسم لها بلطفٍ وأدبٍ شديدٍ وقال:

«لم نقم إلّا بالواجب».

عاد الجدّ ولوري إلى منزلهما ليتناولا فطورهما بينما ترتاح الفتيات قليلًا. قالت جو:

«كأنّ زلزالًا ضرب الأرض تحتنا جميعًا».

أردفت ميج بحزنٍ:

«وكأنّ نصف البيت ذهب بذهاب أمّي».

ودخلت الفتيات في نوبة من البكاء الشديد بعد أن لفتت بيث انتباههن إلى شيء، ولأنّها لم تستطع الكلام، أشارت بيديها الصّغيرتين باتجاه كومةٍ من الأحذية المرتّبة والمنسّقة، كانت قد تركتها لهن أمّهن حتّى في أكثر اللحظات فوضوية، وحتّى ولم لو يكن الأمر على غاية من الأهمّية لكن كان له أشدّ الأثر في نفوسهن.

شهدت الطّاهية هانا تلك الدّموع فغضت عنهن الطّرف قليلًا، حتّى يفرغن من البكاء ويُخرجن كلّ ما في قلوبهنّ من أسى، ويغسلن بالدموع أرواحهنّ المتعبة، ثم بعد قليل، أعدّت لهنّ إبريقًا من القهوة السّاخنة، وقالت:

«آنساتي الحبيبات لقد بكيتنّ بما فيه الكفاية، وأرى أن نرمي جميعنا الحزن جانبًا، وننكبّ على العمل؛ فبذلك نسعد السيّدة مارمي في غيابها وننفّذ وصيّتها. هيّا لنرفعِ معاً اسم آل مارش عاليًا».

t.me/yasmeenbook

جلست الفتيات حول الطّاولة ينشّفن دموعهنّ بالمناديل، وقد ملأن أقداحهنّ بالقهوة التي استطاعت بالفعل أن تهدّئ من روعهنّ، كانت رائحتها الشهيّة ودخانها الكثيف كفيلين بالقيام بذلك وتنزل على قلوبهنّ قبل بطونهن كالدّواء الشّافي.

كانت رائحتها الشّهية ودخانها الكثيف كفيلين ليقوما بالمهمّة. وبعد عشر دقائق عادت الأمور لنصابها حيث قالت جو بعد أن هدأ روعها تمامًا:

«الأمل والكدّ بالعمل، سنجعل ذلك شعارنا الدائم. لنرى من ستكون أكثرنا التزامًا. سأعود لرعاية العمّة مارش على الرغم من نقدها الّلاذع ومحاضراتها التي لا تنتهي».

قالت ميج وقد ساءها ما حلّ بعينيها من احمرارٍ وانتفاخ:

«وأنا أيضًا. سوف أذهب لمنزل آل كينج ولو أنّي كنت أتمنّى أن أبقى فأكمل الأعمال المنزليّة».

ردّت عليها آيمي باعتزاز:

«لا حاجة لبقائك. سنتولّى أنا وبيث زمام الأمور كاملة».

أكملت بيث حديث آيمي وهي تعدّ صحون وفناجين القهوة للغسيل، حيث قالت:

«ستخبرنا هانا بكلّ ما نعجز عن فعله أو يصعب علينا. وسيكون كلّ شيءٍ على ما يرام عند عودتكما».

وضعت آيمي قطعة سكّرٍ في فمها وقالت:

«أعتقد أن الأمور المقلقة تثير الاهتمام».

تعجّبت ميج كثيرًا لأمرها كيف حاولت تجاهل الحزن بأكل السّكر، والتفتت إلى بيث وجو وضحكن أخيرًا جميعهنّ ممّا قالته أختهنّ الصّغيرة، مسحت تلك الضّحكات حزنهنّ وأراحت صدورهنّ بعض الشيء.

حضّرت جو وميج نفسيهما للعمل وانصرفتا من المنزل لمهامهما اليوميّة، ثمّ عندما وصلتا لمنعطف الطريق حدّقتا بحسرةٍ مرّةً أخرى في النّافذة، حيث أبصرن وجه بيث المتورّد التي كانت على اطّلاع كاملٍ بكلّ الواجبات المنزليّة الصّغيرة قبل الكبيرة، أومأت لهما برأسها وكأنّ أمّهن لم تغب عن المنزل أبدًا.

رفعت لها جو قبّعتها بوجهٍ يملؤه الامتنان والرّضا، لتردّ لها تحيّتها وتقول:

«تلك الطيبة لا أستغربها أبدًا».

ثمّ قالت لميج:

«وداعًا يا ميجي، آمل ألّا تتعبك تلك العائلة اليوم».

t.me/yasmeenbook

وافترقتا وهي تؤكّد لها أنّ والدهما ستتحسّن صحّته، فلا داعي للقلق.

قالت ميج وهي تحاول أن تكبت ضحكتها عندما نظرت لأكتاف جو العريضة وشعرها القصير:

«آمل ألا تزعجك العمّة مارش بتعليقها ونقدها المعتاد، وخاصّةً عندما ترى ما حلّ بشعرك. لا تكترثي إن قالت لك شيئًا مزعجًا فشعرك جميلٌ ومرتّبٌ ولو أنّه يبدو صبيانيًّا».

طبطبت جو على قبّعتها ومضت في طريقها كالخروف الّذي قُصّ صوفه في يومٍ شتويّ ماطر وقالت:

«لعلّ هذه القبّعة تفي بالغرض».

وجاءت الأخبار عن والدهنّ جيّدة ومُطمئنة بالرغم ممّا يقاسيه من خطورة مرضه، إلّا أنّ وجود مارمي بجانبه وتفانيها في تطبيبه ورعايته كان كفيلًا بأن يحسّن من صحّته ويبدّل أحواله كلّها.

واظب بروك على كتابة نشرةٍ يوميّةٍ لهنّ، كان كلّ يوم يوافيهنّ بكلّ المستجدّات ويطمئن قلوبهنّ.

تولّت ميج قراءة هذه النشرات يوميًّا بحكم أنّها أكبرهنّ سنًّا. وكانت تقرأ بصوتٍ عالٍ فيزددن فرحًا وغبطة مع كل نشرةٍ جديدةٍ تبشّر بتحسّن حالته، فتدبّ فيهنّ شهوة الكتابة ويبعثن لهم إلى مقرّهم في واشنطن نشرات مماثلة دون أن يتركن كبيرةً أو صغيرةً إلّا ويذكرنها.

واحتوت تلك الرّسائل على شروحات نموذجيّة لحياتهنّ وما يمررن به. إحدى تلك الرّسائل كانت لكبيرتهنّ ميج.

أمّي العزيزة:

«من المستحيل أن نصف لك مدى فرحتنا بما أخبرتنا به في آخر رسائلك، حتّى أصبحنا نضحك ونبكي بآنٍ واحد. ومن حسن حظّنا أن اللّه رزقنا جارًا عطوفًا مثل السّيد لورانس، حيث لم يبخل علينا بإرسال معاونه الوحيد السيّد بروك معك ليعينك وأبي في هذه المحنة. أنا والفتيات على ما يرام، فجو تساعدني في الخياطة وتصرّ على القيام بكلّ أنواع الأعمال الصّعبة. أخشى أنّها تبالغ في الأمر، ولكنّي أعرف أن دور البطولة هذا لن يدوم طويلًا. بيث تؤدّي واجباتها وأعمالها التي أوصيتها بها بدقّةٍ متناهيةٍ كما السّاعة، لا تنسى ولا تهمل أيّ تفصيل، ولكنّها حزينةٌ لما حلّ بأبي، وكلّما استبدّ بها الحزن لجأت للبيانو. آيمي هادئةٌ ووديعةٌ مع الجميع وأنا أعتني بها كثيرًا، أصبحت تسرّح شعرها بمفردها وعلّمتها كيف تصنع عروة الأزرار وهي تحسن صنعًا في تلك المهمّة. إنّها تتقدّم كثيرًا وستكونين فخورةً جدًّا بها عندما تأتين. أمّا جيراننا الأعزّاء العطوفين فلم يقصّروا معنا في أيّ شيء، فالجدّ العجوز يرعانا كالدجاجة الهرمة على حدّ تعبير جو، أمّا لوري

t.me/yasmeenbook

الحنون فهو أعطف ما يكون وما إن تلتهمنا الأحزان ونشعر بالانكسار حتّى يقدّم لنا هو وجو عروضًا ترفيهيةً تزيل عنّا الغمّ. أمّا هانا الحبيبة فهي الرحمة بعينها تلبّي لنا احتياجاتنا ولا توبّخنا إن نسينا أو أخطأنا، وأصبحت تناديني بالآنسة ميج لما أبيله من بلاءٍ حسن.

نحن بخير ونؤدّي واجباتنا بهمّة ونفكر بكم في كلّ الأوقات على أمل اللقاء العاجل. بلّغي أبي محبّتنا وشوقنا الملتهب. حفظك اللّه لابنتك.

ميج».

وهذه رسالةٌ أخرى مميّزةٌ كُتبت على ورقةٍ معطّرةٍ على نحوٍ جميلٍ، إذ كُتبت سابقاتها على أوراقٍ كبيرةٍ وبخط كبير مع بعض بقع الحبر وانثناءات كثيرة بشعة في أطرافها.

«مارمي الغالية:

من قلبي ثلاث تحيّاتٍ لأبي. حمدًا للّه أنّه استعاد عافيته، وشكرًا جزيلًا للسيّد بروك الذي لم يبخل علينا بالرسائل وطمأننا فور وصولكما. ولو تعلمين لهفتي عندما وصلت الرّسالة. لقد سجدت أشكر اللّه على لطفه وكرمه علينا، ولكنّي بدلًا من التّراتيل رحت أقول: (أنا سعيدة. أنا سعيدة) ألا تكفي تلك الكلمات بواجب الشّكر!، أشعر وكأنّ قلبي الآن عامرٌ بالإيمان.

نحن نقضي أوقاتًا ممتعة، والكلّ يغمرنا بعطفه ولا يبخل أيّ أحدٍ بالمحبّة والعون.

تحاول ميج في غيابك أن تكون أمًّا لنا جميعًا. لو رأيتها كيف تدير دفّة الأمور وتترأّس مائدة الطّعام لضحكتِ كثيرًا. إنّها تزداد جمالًا وحسنًا كلّ يوم وبتّ أحبّها أكثر من ذي قبل. بيث وآيمي أصبحتا كالملائكة المنزّلة من السّماء. أمّا أنا!؛ فأنا جو تعرفينني وسأبقى على ما أنا عليه ولا أتغيّر.

سأقصّ عليك شيئًا مريعًا حصل معي، نشبت مشكلةٌ حادّةٌ بيني وبين لوري، وكلّ ذلك بسبب رأيٍ شخصيٍّ قلته له في مسألةٍ سخيفةٍ لا تستحقّ الذّكر، ولم أتردّد في قول الحقيقة فأنا لا أحبّ المجاملة، فأخذ منّي موقفًا قويًا وخاصمني وذهب ليعتكف في منزله وأقسم أنّه لن يكلّمني بعدها، وعزم ألّا يعاود زيارتي قبل أن أعتذر له، فزاد ذلك من غضبي، كلانا عنيدٌ ومتشبّث برأيه. مضى النّهار واشتدّ بي الحزن لهجرانه، وتمنّيتك لو كنتِ هنا حتى ترشديني ماذا عليّ أن أفعل. ظننته سوف يعدل عن رأيه ويعلم أنّي محقّة، وتذكرت حادثة آيمي والنّهر تلك، وكيف نصحتني ألّا أنام أو أصبح وفي قلبي مثقال ذرّةٍ من الغضب. احترت في أمري ماذا أفعل، فصعدت إلى الأعلى ورحت أقرأ في الكتاب المقدّس، ارتحت وزال غيظي، ونزلت السّلم

t.me/yasmeenbook

بسرعةٍ عازمةً أن أصالحه وأعتذر منه، فوجدته عند البوّابة قادماً إليّ وقد سبقني لذلك وضحكنا من طيشنا وتصافحنا وعدنا كالسّمن على العسل.

وعلى سبيل الدّعابة، ألّفت أغنيةً لك ولأبي سأكتبها في ذيل الرسالة، فقد نزل عليّ الإلهام البارحة عندما كنت أساعد هانا في الغسيل.

أشواقي وقبلاتي وأحضاني الحارّة لأبي وقبّلي نفسك بالنّيابة عنّي اثنتي عشرة قبلة: المهووسة أبداً جو.

«الأغنية من وحي حوض الغسيل:

يا ملكة الحوض إنّي أغنّي بمرح
ورغوة الصّابون تعلو وتفقع
أفرك البقع، أشطف وأنظّف
وأعلّق الغسيل في الحبال حتّى يجفّ
في الهواء العبق
تحت السّماء المشمسة وتحت الشّفق

ليتني أستطيع غسل تلك الأرواح الكئيبة
وأنظّفها من الآلام والنّدوب
ليت الماء والهواء يصفّيان بسحرهما القلوب

فتصبح عذبة مثله
إن تمّ ذلك فمرحى للدنيا الرحيبة
مرحى لأيّام وقد تخلّصت من كلّ العيوب

هل يا ترى يوجد راحةٌ؟
في دنيا شقيّة وحياة كادحة
ماذا لو امتنع العقل عن التّفكير
في الغمّ والهمّ والتّكدير
ليت السّعادة تغيّر أقدارنا وتمحو أحزاننا
مثلما تفعل مكانسنا فتزيل أقذارنا

أنا سعيدةٌ بما أفعله وأؤدّيه
كلّ يومٍ من عمل إلى عملٍ
هكذا نهاري أقضيه
ففي العمل صحّة.. نشاطٌ وسعادة
تعلّمت أن أقول في الأيّام المعتادة..
يا قلبي اشعر... يا عقلي فكّر...
أمّا أنت يا يديّ فاعملي واعملي واعملي...
وكما جرت العادة...

t.me/yasmeenbook

وكانت رسالة بيث كالتّالي:

«أمّي العزيزة، أنا لا أملك شيئًا أرسله لك ولأبي إلّا قبلاتي وأشواقي الحارّة. لقد اعتنيت ببعض زهور البانسيّه وجفّفتها جيّدًا ووضعتها في ثنايا الرّسالة، وأتمنّى أن تعطيها لأبي الحبيب. كلّ شيءٍ جيّد والكلّ يرعاني وهم لا يبخلون عليّ بشيء، وأنا بدوري أقوم بكلّ واجباتي على أفضل وجه، وأدرس دروسي وأفتح النّوافذ لأجدّد هواء المنزل كلّ يوم وأرتّب كلّ شيء. في المساء أعزف وأُنشد بعض الأناشيد ما عدا تلك المفضّلة لدى أبي لأنّني أبكي على الفور. اطبعي على خدّ أبي قبلاتي الحارّة وعودي لنا سريعًا.

بيث الصّغيرة.

أمّا الصغرى آيمي فقد كتبت:

«ماما الحبيبة. طفلتك الصّغيرة ما عادت صغيرة. فأنا أعتمد على نفسي في كلّ شيءٍ، وأقوم ببعض الواجبات وأدرس دروسي ولا أثير المتاعب أبدًا. كلّ أخواتي يعطفن عليّ، فميج تعطيني الحلوى والشّاي، وجو تغدق عليّ بكلماتها العذبة وتقول إنّ أخلاقي وألفاظي قد تحسّنت. لكنّ لوري أصبح وقحًا معي؛ وكلّما حاولت مخاطبته بما أتعلّمه من ألفاظٍ فرنسيّةٍ أسرع في الذهاب وبالكاد يردّ عليّ بكلماتٍ مغمغمة لا أعرف معناها. أخبرته أنّي في الثّانية عشرة من عمري لكنّه يصرّ على أنّني طفلة.

حزنت كثيرًا فقد أفسدت ميج فستاني الأزرق وكنت قد طلبت منها إصلاح أكمامه المهترئة فوصّلت أكمام فستانٍ آخر به!، وأصبح شكله مضحكًا، الأكمام زرقاء فاتحة والفستان داكن الزّرقة!، لكنّني لم أبكِ ولم أتذمّر فأنا أنفّذ ما وعدتك به.

أريد من هانا أن تسلق لي الحمّص كلّ يوم ولكنّها لا تفعل.

مع أنّني أكتب علامة الاستفهام بروعةٍ، ومع ذلك فميج لا يعجبها العجب وتنتقد كتاباتي. بالله عليك يا ماما كيف أتحمّل كلّ تلك المسؤوليّات؟!. أخبري بابا أنّني أحبّه وقبلاتي وسلامي له.

المخلصة آيمي كورتوس مارش

أما هانا الطاهية المخلصة والوفية فقد كتبت لها:

«سيّدتي الكريمة أودّ أن أطمئنك على حسن سير الأمور في منزلنا الجميل. كلّ شيءٍ على ما يرام، حيث تبذل الفتيات كلّ ما في وسعهنّ ليحافظن على أن يجري كلّ شيء كالمعتاد كلّ يوم بدقّةٍ وكمالية.

ستكون ميج وبكلّ تأكيدٍ يومًا ما ربّة منزلٍ من طرازٍ رفيع. إنّها يدي اليمنى واليسرى وتقدّم لي العون في كلّ شيء. وأيضًا، لا تبخل جو في مساعداتها ولكنّها تتسرّع

t.me/yasmeenbook

بعض الشيء فتفسد الأمور بدلًا من إصلاحها. لقد أفسدت الملاءات الصّفراء عندما غسلتها مع ملابس زرقاء. أوه لو أنّك ترين كيف أصبحت!. وفعلت كارثةً أخرى، عندما نسيت وضع المواد المبيّضة للغسيل فبهت لونها وأصبحت داكنة بعض الشّيء، وإلى الآن لم أتمكّن من تبييضها. بيث ملاكي الحنون، لا أخاف وأنا معها من أيّ شيءٍ. تذهب للسّوق فتتسوّق أفضل البضائع وأجودها وأرخصها، معتمدة على عمليّات حسابيّة ليس فيها أدنى خطأ، وذلك بعد أن علّمتها طريقتنا في التّدبير والاقتصاد. خفّفت آيمي من دلالها وهي تعتمد على نفسها في أغلب الأوقات ولا تثير المتاعب ولكنّها تكثر من أكل الحلوى وترتدي أجدّ ما لديها في المنزل وذلك يزعجني.

لوري لا يتركنا دقيقةً وأنا أحبّه لما يؤنس به فتياتنا وما يزرعه في نفوسهنّ من شجاعةٍ وكرمٍ ووفاء، ولكنّه يبالغ أحياناً فيقلب البيت رأسًا على عقب ويشغل الجميع فور حضوره.

أنا أوفّر قدر المستطاع في المصاريف، فالقهوة مَرّة في الأسبوع، أما الحساء فكل يوم. والجد لورانس العجوز يغرقنا كلّ يوم بالهدايا والمأكولات وأنا أقبل منه كلّ شيء لأنّي أعرف كرمه وطيب نفسه ورغبته في إحاطة البنات برعايته كما لو كنت أنت موجودة.

بلّغي السّيد مارش سلامي وأمنياتي له بالشفاء العاجل والسلامة من كلّ شرٍّ، وعليّ الآن أن أذهب لأخبز الخبز قبل أن يفسد العجين فقد خمر بما فيه الكفاية.

كامل الاحترام والتّقدير.

هانا موليت»

كتب لوري لها أيضا رسالةً جميلةً قال فيها:

«سيادة رئيسة الممرّضات الأولى في المشفى العسكري، استتبّ الأمن في المنطقة كلّها والجوّ هادئٌ ومتوازن. تعمل كلّ العناصر في جدٍّ وكدّ. ويقوم رئيس القلم بمهمّاته على أكمل وجهٍ فينقل الشّاردة والواردة. يرافق الرقيب لوري الحرس الوطنيّ ويشدّ من أزره ليلًا نهارًا. بينما يقوم الجنرال لورانس بمهمّاتٍ تفتيشيّة كلّ صباحٍ ومساء. يحافظ الشّاويش هانا على الأمن والنّظام في الكتيبة بأكملها.

لقد كنّا سعيدين جدًّا بما سمعناه من أخبار طيّبةٍ ومباركةٍ من حضرة جنابكم عن صحّة المندوب السّامي حضرة جناب زوجكم الكريم الموقّر، فلبسنا زيّنا العسكري وقمنا بعرضٍ مميّز مهيب أطلقنا فيه عشرين مفرقعة ناريّة في الهواء تهليلًا. يقرؤك الجنرال لورانس المبجّل السّلام ويتمنّى الرّاحة والسلام لك ولحضرة المندوب السّامي زوجك المقدام.

الرّقيب تيدي».

t.me/yasmeenbook

والآن رسالة الجدّ، كتب لها:

«سيّدتي العزيزة. كلّ من في المنزل بأفضل حال، وأتمنّى ألّا تفكّري بأيّ شيءٍ لأنّنا كلّنا على أحسن ما يكون. يطلعني لوري بكلّ التّفاصيل وتخبرني بيث عن كلّ شيء. الحمد للّه بوجود هانا الوفيّة الطّيبة لا أخاف عليهنّ من أيّ شيء. تعطي ميج من كلّ قلبها أيضًا وترعى المنزل كالتنّين المستميت.

أتمنّى أن تتحسّن صحّة زوجك أكثر وأكثر، وآمل أنّ بروك يقدّم لك العون اللّازم. إيّاك أن تتردّدي في طلب المال لو احتجته، فكلّ ما أملكه تحت أمرك وسيُقدّم في سبيلك وسبيل زوجك الباسل.

صديقك المخلص،

جيمس لورانس

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل السّابع عشر

الطّفلة المؤمنة

كان منزل آل مارش يعمّ بالفضائل والقيم التي تكفي حارةً كاملةً، وخصّيصًا في الأيّام الأولى التي حلّت بها تلك الكربة. وكانت الفتيات تسرعن بأعمال الخير وتتسابقن أيهنّ الأسرع إليها. أمّا عندما ارتاحت نفوسهنّ ومع اطمئنانهنّ على والدهنّ، اضمحلّ الحزن والتّوتّر شيئًا فشيئًا، وعُدن إلى عهودهنّ الأولى. فالطّبع لا مناص يغلب التّطبّع. خفّ حماسهنّ وبردت الهمّة ورأين أن يتمتّعن قليلًا ويرتحن بعد الجهد الجبّار الّذي قدّمنه أوّل الأسبوع.

كانت جو تنسى في أغلب الأحيان أن تتغطّى جيدًا أو تدفّئ جسدها. وكان شعرها أيضًا قصيرًا جدًّا فيتسلّل الهواء لرقبتها وأكتافها بسهولة. وقد ساعد ذلك في إصابتها بنزلة بردٍ أقعدتها في الفراش. لم تكن تستطيع أن تقرأ لعمّتها بصوتها المخنوقٍ والمبحوح، فأعطتها العمّة

t.me/yasmeenbook

إجازةً مرضيّةً لتجلس في البيت وترتاح وتستعيد عافيتها ويتحسّن صوتها. سعدت جو بذلك كثيرًا، وأمضت فترة مرضها بين العليّة والقبو تلتهم الكتب والروايات.

رأت آيمي أنّ الأعمال المنزليّة تأخذ أغلب وقتها فتعطّلها عن الأعمال الطّينيّة والفنّية والرسم، فأهملت بعضاً من واجباتها في سبيل تجديد إبداعها الفنّيّ. وكانت ميج تذهب لعملها كلّ يوم كالمعتاد، وما إن تعود للمنزل حتّى تخيّط وتطرّز أشياءً لاً تكاد تتذكرها، ثمّ ترمي ما في يديها لتكتب الرّسائل الطّوال لأمّها وبروك. فإذا ما انتهت أمضت الأوقات المتبقّية في قراءة رسائل مارمي ولو للمرّة العاشرة.

أمّا بيث فقد كانت تؤدّي أعمالها كاملةً، الصّعبة منها والسّهلة وتتفانى في ذلك، وإذا ما انتهت أنهت أيضًا أعمال أخواتها التي تراكمت عليهنّ أو أهملنها. ظلّت بيث على تلك الحالة كلّ يوم، لا يهدأ لها بال حتّى تصبح أمور البيت منتظمةً كالسّاعة. فإن تحقّق لها ذلك هرعت لركنٍ منعزلٍ في المنزل واعتكفت تخبّئ وجهها في ثوبها وتذرف الدّموع السّاخنات، أو تقرأ ترنيماتها المقدّسة وتقيم صلواتها، من أجل أن يحفظ لها الرّب أمّها ويشفي أباها. حاولت الفتيات أن يخفّفن عنها بكلّ الطّرق لكن دون جدوى، فقد كانت مفعمة بالمشاعر الجيّاشة، ورقيقة عذبة تمنح العون لكلّ من يحتاجه.

كنّ جميعهن يعلمن في قرارة أنفسهنّ أنّ تلك التّجربة كانت اختبارًا لهنّ ولأخلاقهنّ، فلمّا قدّمن أفضل وأروع ما لديهنّ في عزّ أحزانهن شعرن أنّ ذلك يكفي، وليس من الضّروريّ أن يهلكن أرواحهنّ في العمل، فأخطئن خطأً فادحًا وتلقّين الصفعة تلو الأخرى.

بعد حوالي عشرة أيّام من مغيب السيّدة مارمي نظرت بيث لميج وكان الّليل قد أسدل ستائره وقالت لها:

«أتمنّى أن تذهبي وتطمئنّي على السّيّدة هامل فقد أوصتنا أمّنا بها أثناء غيابها».

كانت ميج تطرّز وتترنّح بمقعدها الهزّاز، حين قالت:

«أنا متعبة جدًّا هذا المساء».

فانتقلت بيث لجو وسألتها:

«هل تذهبين أنت يا جو؟»

أجابت جو:

«الطّقس عاصفٌ ولا أستطيع بمرضي هذا».

قالت بيث:

«كنت أعتقد أنّه صحوٌ»

قالت جو بقليلٍ من الاستهتار:

«نعم إنّه جيّد بما فيه الكفاية للتنزّه مع لوري وليس للخروج لمنزل آل هامل».

t.me/yasmeenbook

ثمّ خجلت قليلًا من ذلك الاستهزاء غير المعهود بها.

سألتها ميج:

«لم لا تذهبين وحدك يا بيث؟».

فأجابتها بيث:

«أنا أذهب كلّ يوم، ولكنّ ابن السّيدة هامل مريض جدًا، وقد أُجبرت أمّه على تركه لتذهب للعمل كلّ يوم، فأشرفت على رعايته ابنتها الكبرى لوتشين. لكنّه يزداد مرضًا كلّ يوم. لست أعلم ماذا أفعل وأنا تنقصني الخبرة. أرى أنّ ذهابك أنت أو هانا ضروريٌّ لهم».

فلما رأت ميج نُبل تفكير أختها وتوهّج قلبها وعدتها بالذهاب غدًا.

قالت لها جو معتذرةً:

«اطلبي من هانا أن تعطيك بعض الطّعام لتأخذيه لهم. كنت أودّ الذّهاب ولكنّني مشغولة وعليّ أن أُنهي الكتابة».

قالت بيث:

«لم أكن لأطلب منكنّ أن تذهبن بدلًا منّي، ولكنّني متعبة ولديّ صداعٌ شديدٌ فتك برأسي».

قالت ميج:

«حسنًا. ستأتي آيمي في الحال وسنرسلها بالنّيابة عنّا».

اطمأنّ بال بيث لاقتراح ميج، وجلست مستلقيةً على

الأريكة ريثما تعود آيمي، وتابعت كلٌّ من ميج وجو أعمالهما، ولم يتذكّر أحد تلك العائلة المسكينة. ومضت ساعة وآيمي لم تأت بعد، فاستسلمت بيث للأمر، وقامت تملأ سلّتها بالطّعام والخضار وبعض الهدايا للصغار، ولبست معطفها ووضعت قبّعتها ومشت خارجًا في الهواء البارد بخطواتٍ متعبةٍ وحزينة، وأحسّت برأسها كالجبال.

كان الوقت متأخّرًا جدًّا عندما عادت بيث للمنزل ولم يرها أحد. صعدت إلى غرفة أمّها وأغلقت على نفسها. وبعد حوالي نصف ساعة صعدت جو أيضاً إلى غرفة الأمّ لتأخذ شيئاً ما من خزانتها وتفاجأت ببيث تجلس بجانب خزانة الدّواء وتحمل بيدها محلول الكافور، وقد تسمّرت نظراتها واحمرّت مقلتاها. صاحت بها وقالت:

«أوه. كريستوفر كولومبوس. ماذا حدث؟، هل تبحث عن شيء؟»

فأشّرت لها بيث محذّرةً إيّاها من الاقتراب وسألتها:

«هل سبق وأُصبت بالحمّى القرمزيّة؟»

قالت:

«منذ سنوات. عندما نقلت لي العدوى ميج. ولكن لماذا تسألين؟»

لأنّ الطفل قد مات.

t.me/yasmeenbook

قالت جو:

«أيّ طفل؟»

بكت بيث وهي تشهق ثم قالت:

«ابن السيّدة هامل، وقد مات في حضني قبل وصول أمّه للمنزل».

عانقت جو أختها الصّغيرة بذراعيها وأجلستها في حضنها، ثم قالت بصوتٍ حزين:

«عزيزتي المسكينة. يا لفظاعة ما مررت به».

قالت بيث:

«ليس مروّعًا بل مأساويًّا. كنت أعرف أنّه مريضٌ جدًّا، ولكنّ حالته ساءت بسرعة وقد ذهبت السّيّدة هامل لاستدعاء الطّبيب وأخذته أنا من يدي لوتشين أحمله وأهزّ له في حضني فأريحها قليلًا. كان كالملاك النّائم، ثمّ أفاق من نومه وما هي إلّا صرخةً واحدةً حتّى سكن الطّفل بالكامل. فأسرعت أدفّئ قدميه وأعطته لوتي بعض الحليب فلم يستجب. فعرفت أنّه قد مات».

قالت جو تحاول تهدئتها قليلًا:

«لا تبكي، يا عزيزي! ماذا فعلت بعد ذلك؟»

قالت بيث:

«أبقيته في حضني وأمسكته برقّة، وجلست في هدوءٍ

إلى أن عادت السّيّدة هامل برفقة الطّبيب. فحصه بسرعة ولكنّه كان قد فارق الحياة فعلًا. استاء الطبيب من السّيّدة هامل، ولكنّه أسرع ينظر إلى هينيريش ومينا وفحصهما أيضًا، وتبيّن أنّهما أيضًا مصابان بعدوى الحمّى القرمزيّة. ووبّخ الطّبيب الأمّ على إهمالها في استدعائه لفحص الأطفال، فأخبرته عن حالتها المزرية وفقرها المدقع، وأنّها حاولت أن تعالجه بنفسها ولكن قد فات الأوان على ذلك الطّفل فخسرته للأبد.

بكت بحرقة وتوسّلت إليه أن يهتم بالولدين المصابين، وقالت: إنّ اللّٰه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، فارتسمت على وجهه انفعالاتٌ مريرة، ثمّ استدار نحوي ورآني أبكي فأمرني أن أعود للمنزل وآخذ دواء: (البلادونا) وإلّا أُصبت أنا أيضاً بالحمّى».

خافت جو وارتابت مّما سمعته، وعانقت أختها بشدّة وقالت لها:

«كلّا. لن يحدث ذلك ولن أسمح به. اطمئنّي يا عزيزتي. أوه ربّاه كيف سنتصرّف الآن؟»

قالت بيث وهي تتلمّس جبينها الملتهب بيديها الباردتين:

«لا تخافي.. لن يفتك بي المرض. لكنّني نظرت بكتاب أمّي وقارنت بين الأعراض الّتي أعاني منها الآن من ضعفٍ

t.me/yasmeenbook

عام والتهاب بالحلق وآلام الرأس، فرأيت أنّها ذاتها، لذا تناولت جرعةً كبيرة من الدّواء وسأتحسّن عمّا قريب».

ارتبكت جو ولم تعرف كيف تتصرّف، وخطرت أمّها على بالها وتمنّت لو أنّها تحضر فورًا لتحلّ تلك المشكلة، ولكنّ واشنطن بعيدة بعد السّماء عنها. قالت:

«لو أن أمّي هنا الآن».

بدأت جو تحرّياتها مع بيث، فسألتها عدّة أسئلة، ثمّ قرأت صفحةً من ذلك الكتاب وربطت بين المدّة الّتي تردّدت فيها بيث على تلك العائلة، وبين المدّة الّتي بدأت الأعراض على الطّفلين الباقيين بالظهور، وكانت نفسها فتحسّست جبينها وحدّقت بحلقها فغلب عليها الظنّ أنّها مصابة، وهرولت تطلب مساعدة هانا وتستشيرها فتلك الامرأة العتيقة تعرف كلّ ما يتعلّق بالأمراض.

صاحت بيث بلهفة:

«لا تدعي آيمي تأتي، فأخاف أن أنقل لها العدوى. تُرى هل يصاب المرء بتلك الحمّى أكثر من مرّةٍ؟!. أنا أخشى أن تمرضا أنت وميج بسببي من جديد؟»

هرولت جو لتنادي هانا وهي تتمتم وتؤنّب نفسها:

«لا أعتقد مرّتين. وإن كان مرّتين فلا يهمّني. فما حصل لك كان بسببي، أنا لست إلّا دابّةً أنانيّة. لقد فضّلت

نفسي وكتاباتي السخيفة!، وأرسلت صغيرتي بيديّ للبيت الموبوء».

وأفاقت الطيّبة الأمينة بسرعة البرق، واستلمت زمام الأمور وحاولت أن تطمأنهنّ ابتداءً من أنّه ما من داعٍ للخوف، فالحمى داء غير مميت ولا بدّ أن تصيب كلّ الصغار. وأنّ كلّ ما عليهن هو أن يحسنّ التّصرف ويسرّعن بالعلاج. ارتاحت جو لما سمعته من هانا التي كانت محلّ ثقة المنزل كلّه.

أسرعت جو وهانا تستدعيان ميج.

واستفسرت هانا من بيث عن بعض الأمور، ثمّ قالت:

«سأخبركنّ الآن بما علينا فعله. سنستدعي الطّبيب بانجز ليفحصها، ونتأكّد إن كانت مصابة أم لا، وسوف يرشدنا إلى سبل العلاج السليم. ثمّ نرسل آيمي لمنزل عمتكنّ السيّدة مارش كي تبقى بعيدة عن مخاطر العدوى. أرى أيضًا أن تلازم إحداكنّ بيث لتسليتها ورعايتها».

وبدأ ضمير ميج يؤنّبها فأحسّت أنّها تتحمّل ذنباً كبيراً بما حصل، فقالت:

«أنا كبيرتكنّ وأنا من سوف تبقى هنا».

قالت جو وقد حسمت أمرها:

«بل أنا. لقد قصّرت ولم أفِ بوعدي، وتركت بيث

t.me/yasmeenbook

تؤدّي المهام المنوطة بي، لذا عليّ التكفير عن الذّنب ما استطعت».

قالت هانا:

«لا داعيَ لاثنتين فواحدة تكفي». ثم التفتت نحو بيث وسألتها: «من تريدين أن تبقى معك؟»

أسندت بيث رأسها إلى كتف جو ونظرت إليها بكامل الرّضا، وقالت:

«أريد جو لو تكرّمت».

غصّت ميج قليلًا وحزنت لأنّ أختها لم تخترها بالرغم من كرهها للطبابة والأعمال التمريضيّة، وقالت:

«حسنًا. سأذهب لأخبر آيمي».

رفضت آيمي الذّهاب لبيت العمّة مارش رفضًا قاطعًا، وفضّلت الحمّى على ذلك. وتعبت ميج مع أختها الصّغيرة بعد أن حاولت بكلّ السّبل أن تقنعها، ولم يُجْدِ اللين ولا الشّدّة معها أيّ نفع. وعندما يئست ميج منها تركتها وانصرفت عنها، فأخذت تنوح وتدسّ وجهها بالوسائد، إلى أن جاء لوري فأخبرته ما حدث وظنّت أنّه سيقف بجانبها، فما كان منه إلّا أن أطرق رأسه مفكّرًا، ووضع يديه بجيوبه وأخذ يروح ويجيء ويصفّر، ثمّ قعد بجانبها وقال لها بصوتٍ ناعمٍ وحنون:

«لا تبكي يا عزيزتي. كوني سيّدة ناضجة وامتثلي لأوامرهنّ، واستمعي جيّدًا لهذه الخطّة:

ستذهبين للعمّة مارش وسآتي إليك كلّ يوم، فآخذك بجولة بعربتي. وأطلعك على كلّ أحوال بيث. سوف نقضي كلّ أوقاتنا باللّهو والمرح. ألن يكون ذلك أجمل بكثيرٍ من الكآبة هنا؟»

قالت آيمي بقلبٍ منكسر:

«لن أذهب للعمّة مارش. أشعر أنّهنّ يردن التّخلص منّي كما لو كنت أنغّص عليهنّ حياتهنّ».

قال لوري:

«ليباركك اللّه يا طفلتي. كلّ ما في الأمر أنّهنّ يخفن عليك من العدوى. هل ستفرحين إن أصبت؟»

أجابت إيمي:

«كلّا. بالتّأكيد لا. ولكنّني أظنّ أنّني مصابةٌ بتلك العدوى إن كانت بيث قد أُصيبت بها. أنا ألازمها منذ أسبوع وأمضي كلّ وقتي بجانبها».

حاول لوري أن يسدّ عليها كلّ المنافذ، فقال:

«آنستي آيمي. أتمنّى أن تقدّري الموقف جيّدًا. إنّها ليست مزحة فالحمّى القرمزية قد تكون مرضًا فتّاكًا. وبعد أن سمعت ما قلته للتوّ فأنا مصرٌّ أكثر على أن تغادري إلى

t.me/yasmeenbook

منزل العمّة مارش قبل أن يتفاقم الوضع. إنّ تغيير الهواء هناك كفيلٌ بأن يقضي على تلك الجرثومة إن كانت في بداياتها».

قالت آيمي:

«ولكنّ عمّتي لا تطاق، ولديها مزاجٌ حادٌّ ولسان لاذع وبيتها مخيف كبيت الاشباح».

قال:

«أؤكدّ لك أنّه لن يكون كذلك، خاصّةً أنّي سأكون رهن إشارتك كلّ يوم، وسوف أنسيك ما تلاقينه عندها من همٍّ وغمّ، وأطمئنك عن بيث. فضلًا عن أنّ العجوز تحبّني كثيرًا وأنا سألاطفها ما استطعت كي لا تقف عقبةً في طريقنا عندما نفعل ما يحلو لنا».

قالت وكأنّها قد لانت أمامه:

«سنذهب بتلك العربة والمهر الصّغير؟»

قال:

«وعد شرف».

قالت:

«وستأتي كلّ يوم؟»

قال»

«سترين هذا».

قالت:

«وستعيدني فور شفاء بيث؟»

قال:

«بالدّقيقة نفسها».

قالت مجدداً:

«وسنشاهد المسرح أحيانًا؟»

قال:

«سنشاهد عشرين مسرحيّةٍ إن أردت».

عندها قالت آيمي برويّة:

«أعتقد أنّي موافقة».

ربّت لوري على ظهرها ممّا أزعجها لأنّه عاد يعاملها كطفلة مدلّلة وقال:

«أنت بنتٌ طيّبةٌ ومطيعة. فلتذهبي وتخبري ميج أنّك موافقة».

هرولت كلٌّ من ميج وجو بسرعة على وقع المفاجأة بأنّ آيمي قد وافقت أخيرًا أن تذهب للعمّة إذا ما كانت بيث مصابة حقًّا.

صعد لوري ليسأل عن حال بيث، وكان شديد الحبّ والرأفة بالصّغيرة، وكان يقلق عليها بشكلٍ كبير لاحظه الجميع. قال:

t.me/yasmeenbook

«كيف حال صغيرتي العزيزة».

أجابت ميج:

«تنام في سرير والدتي وقد تحسّنت حالتها الآن. أعتقد أنّها وعكةٌ صحيّةٌ عابرة ليس أكثر، إلّا أنّ موت الطفل بين يديها قد روّعها. وهانا تعتقد ذلك أيضًا، ولكنّ قلقها المبالغ به يخيفني بعض الشّيء».

دسّت جو يديها في شعرها تعبث به لشدّة قلقها وأفسدت تسريحته وقالت:

«سحقًا لأيّامنا هذه ما أشدّ بلاءها، فما إن نخرج من حفرةٍ حتّى نقع في واحدة أكبر. لم يبقَ لنا أيّ أمل. أشعر أنّنا وحدنا في هذا العالم بعد رحيل أمّنا».

نظر لوري لجو واستهجنها بذلك الشّعر القصير، وكيف أنّها أفسدت التّسريحة وكأنّه يراها لأوّل مرّةٍ ولم يعرفها من قبل:

«كفاك عبثًا بشعرك. لقد أصبحت كالقنفذ. اتركيه ينساب على كتفيك ولا تفسدي شكلك أكثر. وقولي لي هل أكتب لأمّك أم لا؟ أم ماذا أفعل؟»

تدخّلت ميج فقالت:

«هذا أكثر شيءٍ يحيّرني الآن. لو كان الأمر بيدي وحدي لكنت أخبرتها لكنّ هانا تمنعني. برأيها إنّ مرض

بيث ليس خطيرًا وهو أمرٌ طبيعيٌّ يحدث للصّغار، وهي تعرف ماذا يجب أن نفعل ولا تريد أن تشغل بال أمّي فتقصّر في رعاية أبينا، فضلا عمّا سيلحق به من حزنٍ إن علم بما حلّ بصغيرته. طلبت أمّي أن نطيعها بكلّ شيء وهأنذا أنفّذ طلباتها».

قال لوري:

«لنترك الطّبيب يقول كلمته ثمّ نستشير جدّي بهذا الأمر».

وطلبت ميج من جو أن تذهب على الفور لتستدعي السيّد بانجز لكي يقوم بفحصها، ثمّ يستشرن الجدّ بناءً على ما يقرّره الطّبيب ويرَين ماذا يفعلن.

أوقف لوري جو ومنعها من الذّهاب بعد أن همّ بالانصراف، وقال لها:

«هذه المهامّ من نصيبي وحدي، وأنا من سيقوم بها».

قالت ميج:

«أخشى أن نعطّلك عن شيءٍ ما؟»

قال:

«كلّا. أنهيت كلّ واجباتي ودروسي اليوم».

قالت:

«هل تدرس في يوم العطلة أيضًا؟»

انعطف في مشيته ليخرج من الغرفة وقال:

t.me/yasmeenbook

«لجيراني الأعزّاء المثل الأعلى».

نظرت جو للفتى من بعيد وكان يجتاز السياج في طريقه لإحضار الطّبيب وقالت:

«سيكون لفتاي مستقبلٌ مشرّفٌ».

قالت ميج بجلافة واضحة وكأنّ الأمر لا يعنيها:

«أغلب الفتيان في عمره هكذا. ذلك أمرٌ عادي».

حضر الطبيب وبعد فحصٍ سريع لبيث تبيّن أنّها مصابة بالحمّى، ولكنّه قدّر أنّها من النّوع الخفيف المحتمل، ولن تتألّم كثيرًا. وكان السّيّد بانجز لا يزال حزينًا على ما حلّ بعائلة السيّدة هامل. على الفور تناولت آيمي جرعةً من الدواء لتحمي نفسها من خطر الإصابة وتحضّرت بأسىً شديدٍ لتنتقل للعمّة مارش.

استقبلتهم العمّة مارش بترحاب، وعلى خلاف ببغائها الفظّ الذي كان يقف خلف مقاعدهم وما لبث أن رآهم حتى صاح:

«غير مسموحٍ للفتيان. اذهب بعيدًا».

وذهب لوري باتّجاه النّافذة وبدأت جو تروي القصّة.

قالت العمّة:

«هذا تمامًا ما يحلّ بالمرء عندما يتوغّل بالبيئات الفقيرة الموبوءة، ويرمي نفسه بالتّهلكة. أوافق أن أُبقي آيمي عندي

إن كانت سليمة وغير مصابة، رغم أنّ حالتها ومظهرها لا يوحيان بذلك أبدًا».

ثمّ نظرت لها فنهتها عن البكاء كي لا يتسبّب ذلك بسيلان مخاطها واختناق صوتها.

كانت آيمي فعلًا على وشك البكاء من أسلوب العمّة الفج وغير المفاجئ، ولكنّ ما لبث أن تبدّل ذلك لضحكٍ وفكاهة، عندما تدخّل لوري ليخفّف من وطأة توتّرها فسحب بمكرٍ ذيل الببغاء، ليتأوّه ويندهش ويصرخ قائلًا:

«آخ ذيلي!»

وقالت العمّة بصوتٍ خشن:

«ماذا سمعتنّ عن أبيكنّ؟»

قالت جو وقد أسبغت على صوتها نغمةً حزينة:

«الحمد لله. إنّه أفضل بكثير».

عقّبت العمّة بسوداويتها الدّائمة:

«حقًّا؟. ولو أنّني لا أعتقد ذلك فأخي رجل ضعيف لا يقدر على التّحمل».

ثمّ أمسك لوري البّبغاء من أذنيه وقعد يدغدغه فقام بحركاتٍ فظيعة لم تتقبّلها العجوز. قال:

«ها ها. لا يأخذك اليأس وشمّ السعوط هذا. إلى اللقاء إلى اللقاء».

t.me/yasmeenbook

فصرخت به:

«اخرس أيّها الطائر الوقح. وأنت يا جو عودي للمنزل فورًا فلا يليق التّسكّع ولا أن تبقي مع هذا الفتى الأنيق الذي...».

وصرخ الببّغاء يقاطع العمّة:

«اخرس أيّها الطائر الوقح».

ثمّ طار الببّغاء باتّجاه المقعد جانب الفتى الأنيق وقد قهقه لوري لما صدر من الطّائر حتّى كاد أن يغشى عليه.

همَّ لوري وجو بالرحيل، ثمّ خلت آيمي بعمّتها وحاولت أن تقنع نفسها بالتّأقلم مع مثل هذا الوضع، وقد شكّت أنّ بمقدورها تحمّل كلّ تلك الجلافة والعجرفة.

بكت آيمي بكاء مرًّا وتفجّرت كلّ أحاسيسها المكبوتة عندما صرخ الببّغاء الوقح بها وقال:

«فارقي هذا المكان. أنت مزعجة... غير مرحّبٍ بك».

الفصل الثّامن عشر

أوقاتٌ عصيبة

أصيبت بيث المسكينة بالمرض فعلاً، وساءت حالتها ونزلت عليها الحمّى بشكلٍ مضاعفٍ عن أمثالها في مثل هذا العمر، بذل الطبيب قصارى جهده في علاجها. لم يستطع لوري أن يراها بعد الآن. وكانت جو وميج مربّطتا الأيدي فلم تعرفا أيّ شيءٍ عن هذا المرض ولم تجيدا التّصرّف، على عكس هانا التي اعتنت بها وأحاطت علمًا بكلّ ما ينبغي عليها أن تفعله وقد كانت وبشهادة الطّبيب بارعةً حقًّا وتُرفع لها القبّعة.

جلست ميج في المنزل لتعتني بكلّ شؤونه المختلفة وقد رأت أن تمتنع عن الذّهاب لمنزل آل كينغ حتى لا تصيب الأطفال بالعدوى. وجّهت هانا تعليماتٍ صارمةً للفتاتين بألّا تخبرا أمّهما بأيّ شيءٍ. فقد يتعرّض والدهما لانتكاسةٍ، ولم تُرد هانا لأيّ شيءٍ أن يؤثّر على شفاء السّيد مارش، خاصة وأنّها تيقّنت أنّ بيث ستتعافى عمّا

t.me/yasmeenbook

قريب. نفّذت ميج تعليمات هانا على الرغم من شعورها بالمخادعة والتّزييف والقلق، فلم يسبق لها أن خبّأت أيّ شيء عن والدتها.

كرّست جو وقتها لبيث ليلًا نهارًا، ولم تكن مهمّةً صعبةً لما تحمله لها جو من حبٍّ عميق. لكن عندما اشتدّت عليها الحمّى وصارت تعاني من حالات هذيانٍ متقطّعة، وتغنّي في منامها بصوتٍ أجشٍّ ومنكسِر وتعزف بأصابعها على غطاء السّرير كما لو أنّها تجلس على البيانو الصّغير تعزف عليه مقطوعاتها. كان كلّ ذلك هيّنًا نوعًا ما بالمقارنة مع أنّها ما عادت تعرف أخواتها ولا تقدر على التّمييز بين أسمائهنّ، هذا فضلًا عن صراخها طوال النّهار مطالبة أن تأتيها أمّها على الحال.

هنا استبدّ الخوف بجو، وتوسّلت ميج لهانا أن تسمح لها بكتابة الحقيقة. فقالت لها هانا إنّها ستفكّر في الأمر رغم أنّ أعصابها لا تزال باردة ولا يوجد خطر كبير حتى الآن. وأتت رسالةٌ من السّيدة مارمي زادت الأمور تعقيدًا وضيّقت عليهم الحال أكثر، وذلك عندما أخبرتهم أنّ حالة الوالد قد تدهورت بعد أن تقدّم خطواتٍ للأمام، وأنّ عليها المكوث معه لمدّةٍ طويلة.

جلست ميج وحيدة تطرّز وتذرف الدّموع السّخية فتبلّل بها قماشها وأشياءها. نظرت للمنزل من حولها وتذكّرت الأيّام الخوالي. فكرت ميج: «أنّ راحة البال وسكينة النّفس

ورضاها ليس بالثراء أو بالمال والجاه والأثاث؛ ولكن بالحبّ والسّلام والأمان والصّحة الجسديّة والروحيّة».

والآن أحسّت بالسّعادة الّتي فقدتها ولم تدرِ إن كانت ستعود لها يومًا ما. كانت أيّامٌ حالكاتٍ ثقال تعجز الجبال عن حملها، واشتدّ الظّلام في المنزل الصّغير، وحام شبح الموت فوق هذا البيت السّعيد الذي كان يدّب النشاط والحياة فيه. وكانت الفتيات تعملن بجدّ وتتحمّلن كلّ أنواع العذاب والخوف والقلق.

تمركزت جو في غرفة بيث العليلة تعيش معها معاناتها لحظة بلحظة وتستمع لصوتها العذب الحنون. الآن شعرت جو بما كانت عليه بيث من حسن الأخلاق وجمال الرّوح وفضائل لا نجدها هذه الأيّام حتّى في البالغين الرّاشدين. لقد كانت عظيمة بمعاملتها المتفانية، وبتضحيتها العميقة من أجل الآخرين. تلك الصّغيرة ملكت حبّ كلّ النّاس دون استثناء.

كانت آيمي تتمنى، وبفارغ الصبر، ترك منفاها البارد والعودة إلى منزلها الدافئ، فتعين بيث وتخدمها ولو قليلًا، وتردّ لها جزءًا بسيطًا من إحسانها السّابق. كانت كلّما تذكّرت ما كانت تقدّمه بيث لها دون أدنى مقابل يعتصر فؤادها الألم ويستبدّ بها الأسى، كانت تتمنى الرجوع لتأخذ عنها الأعمال كلّها دون كللٍ أو ملل.

t.me/yasmeenbook

شعر لوري بالضّياع بسبب ما حلّ بجيرانه عمومًا وببيث خصوصًا وظلّ حائرًا يروح ويجيء كالمكّوك الدّوار، وحزن الجدّ كثيرًا وأغلق المعزف، لأنّه يذّكره بما حلّ بصديقته وجارته الطيّبة الحنونة، والّتي كانت تؤنسه في اللّيالي الطّوال. افتقد النّاسُ بيث، الجزّار، بائع اللّبن، البقّال، والخبّاز؛ وتساءل الجميع عن حالتها وإن كانت تبدي تقدّمًا أم لا. جاءت أيضًا السّيدة هامل وقدّمت اعتذارًا للعائلة لما سبّبته للصغيرة الحنونة، وطلبت بعض المعونة والملابس لابنتها. امتلأ منزل آل مارش بالهدايا والدّعوات والأمنيات بالشّفاء العاجل للقدّيسة الصّغيرة.

في كلّ فترة المرض تلك، رقدت بيث على سريرها بجانب دميتها: العجوز جوانا، ولم يمنعها المرض من تذكّر بقيّة ألعابها وعرائسها حتّى في أشدّ نوبات الهذيان التي كانت تصيبها. وكانت تشتاق لقططها الصغيرة أيضًا، ولكنّها لم تسمح لها بدخول غرفتها لأنّها تخاف أن تنقل الحمّى لها. وكانت كلّما تحسّنت قليلًا تنادي على جو وترسل تحيّاتها ومحبّتها لآيمي، وتطلب من أخواتها أن يخبرن أمّها أنّها بأفضل حالٍ، وفي تقدّم مستمرّ، وأنّها تشتاق إليها وتحبّها كثيرًا.

وإذا ما تحسّنت أكثر طلبت ورقةً وقلمًا لتكتب إلى والدها الحبيب كي لا تأخذه الظّنون أنّ ابنته قد نسيته.

ولكنّ نوبات الحمّى لا تلبث أن تعود لها فتفقدها الوعي، حيث تتقلّب في سريرها لساعاتٍ محاولة النّوم، فإذا نامت كانت كالدّب في سباته الشّتويّ ترقد لساعاتٍ وساعاتٍ لا تتحرّك حركةً واحدةً، ثم تستيقظ على الأنين والهذيان من جديد.

كان الطّبيب يحضر مرتين لزيارتها، وسهرت هانا بجوارها معظم اللّيالي. ولم تتركها جو لحظةً واحدة، وكتبت ميج برقيةً وجهزّتها في درجها لترسلها لأمّها في أيّ لحظة تحسّبًا للظروف.

جاء شهر كانون الأوّل الماطر، ببرده القارس ورياحه العاتية، حاملًا معه البؤس والرّهبة وكأنّ العام يودّع محبّيه. عندما حضر الطبيب في صباح ذلك اليوم، أخبر هانا بعزمٍ وجدّية بأن تبعث رسالة تطلب فيها من السيّدة مارمي الحضور.

أومأت هانا برأسها دون أن تتحدّث، وارتعدت شفتاها بعصبيّة، وما لبثت ميج أن سمعت تلك الكلمات من السيّد بانجز حتّى وقعت على الكرسيّ من فورها. تسمّرت جو في مكانها وشحُب وجهها، ثمّ استعادت وعيها وأخذت البرقيّة وخرجت بسرعة البرق في العاصفة لترسل الخطاب. عندما عادت إلى المنزل، حضر لوري ومعه رسالةً من السّيد بروك يقول فيها إنّ أبيهن يتعافى مجددًا.

t.me/yasmeenbook

شكرته جو على ذلك الخبر، ولكنّها لم تفرح كما يجب ولاحظ لوري على الفور وجهها المكفهرّ الحزين، فسألها:

«ماذا بك؟، هل حالة بيث سيئة؟»

أومأت جو بالإيجاب:

«لقد أرسلت خطابًا لأمّي أطلب حضورها».

وقعدت تخلع حذاءها المطاطيّ بيدين ترتجفان من البرد والخوف وقد ضاق عليها الكون بما رحب. فلمّا رآها لوري على هذه الحال هرع إليها وأخذ يساعدها وسألها:

«هل كانت هذه فكرتك؟»

«كلا، بناءً على طلب الطّبيب».

بدا لوري مرتاعًا:

«إنّ حالتها ليست بذلك السوء، أليس كذلك؟»

قالت جو وهي تنتحب:

«بل نعم، إنّها لا تعرفنا الآن، حتّى إنّها لم تعد تهذي. إنّها لا تشبه حبيبتي بيث أبدًا، ومع غياب أمّي وأبي لم أعد أستطيع تحمّل الأمر. لا أدري لم تخلّى عنّا الرّبّ أيضًا هل أخطأنا؟!».

انهمرت الدموع فوق وجنتيها ومدّت يديها المرتجفتين، وكأنّها تبحث عن خيط أملٍ ضئيلٍ تتمسّك به. فأمسك لوري بيدها، وهمس في أذنها:

«أنا هنا إلى جوارك، ضمّيني إليك يا جو».

ومدّت يديها له بنفسٍ منكسرةٍ وفؤادٍ محطّمٍ فأحسّت به سدًّا وحصنًا منيعًا يقف بجانبها ويعينها على مصائب الدّهر، فسكنت مشاعرها وبرد قلبها قليلًا وقالت:

«شكرًا يا لوري، أنا أفضل حالًا الآن».

عصر الفتى عقله ليجد بعض الكلمات الدّافئة التي يطبطب بها على صديقته المنكوبة، لكنّه لم يجد شيئًا، فاندفع نحوها يربّت على رأسها بحنان الأمّ العطوف مثلما كانت تواسيه أمّها.

قال بصوتٍ خافت:

«تمسكّي بالأمل فيما هو أفضل، ستحضر أمّك عمّا قريب. وستشفى بيث ويعود كلّ شيءٍ لسابق عهده».

مسحت دموعها وفردت المنديل على ركبتيها كي يجفّ قليلًا:

«آه يا لوري! لو تعلم كم أنا مسرورةٌ لتماثل أبي للشفاء، سيهوّن هذا على أمّي العودة. يبدو أنّ المصائب لا تأتي فرادى، فهي تتساقط علينا من كلّ صوب، وقد قصمت ظهري وما عدت قادرةً على تحمّلها وحدي».

قال لوري بحنق:

«وماذا عن ميج؟، ألّا تقف بجانبك؟»

t.me/yasmeenbook

قالت ميج:

«أوه، نعم، إنّها تحاول، لكنّها لا تحبّ بيث كما أحبّها أنا، ولا تفتقدها كما أفتقدها أنا. بيث حبيبة قلبي، ولا أستطيع أن أعيش بدونها أبدًا. لا أستطيع! لا أستطيع!»

خبّأت جو وجهها في منديلها المبلّل مرّةً أخرى. انفجرت باكيةً تنهمر دموعها السّخيّة التي لم يرها أحدٌ يومًا ما. رقّ قلب لوري لها وكاد ينفطر عليها، وخبّأ عينيه بيده حتى لا ترى جو دموعه. ابتلع الغصّة وهدأ روعه وتماسك وكبت تلك الدموع الملتهبة وتحلّى بالشجاعة ليخفّف عنها قدر المستطاع، ويقدّم لها الدّعم الكامل. حيث قال:

«لا أظنّها ستموت، فهي طيّبة للغاية، والكلّ يحبّها كثيرًا».

قالت جو:

«دائمًا يختار اللّٰه الطيّبين والمقرّبين ليصعدوا إليه!»

لكنّها توقّفت عن البكاء لما بثّ فيه صديقها من أملٍ نابض وزرع في نفسها الهدوء والسّكينة.

قال لوري:

«سوف تهلكين نفسك أيّتها المسكينة. انتظريني هنا، سأجعلك تشعرين بتحسّنٍ في دقيقة».

نزل لوري السلّم كلّ درجتين معًا، ووضعت جو رأسها

المرهق على وشاح بيث البنّي الذي ظلّ على المنضدة، ولم تقو أيّ منهنّ على تحريكه من مكانه منذ آخر مرّةٍ تركته عليه. كأنّ كلّ ملائكة الدّنيا قد عشّشت في الوشاح، فبعث في نفس جو الرّضا والأمل والسّكينة. عندما عاد لوري كان يحمل معه كأسًا فيها نبيذ. أمسكت جو بالكأس، ورفعتها، وقالت:

«لنشرب نخب شفاء بيث العزيزة!»

ارتشفت جو بلعةً من الكأس ببطء، وكان ذلك الشّراب وتلك الكلمات كفيلين أن يبرّدا قلبها الملتهب، قالت:

«أنت طبيب ماهر يا لوري، وصديق طيّب أيضًا. كيف لي أن أردّ لك الجميل؟».

قال لوري بوجهٍ راضٍ وقد شُغِفَ بإطلاعها على أمرٍ بالغ الأهمّية:

«ليس ذلك بالأمر الضروريّ، هذا إلى جانب أنّني أحمل مفاجأةً إليك».

تعجّبت جو وصاحت وقد أنساها ذلك حزنها للحظات:

«ماذا؟»

ابتسم لوري:

«لقد أرسلت برقية إلى أمّك بالأمس، وردّ بروك ببرقيّةٍ يقول فيها إنّها ستحضر إلى المنزل على الفور. وستكون

t.me/yasmeenbook

هنا الليلة!، وسيكون كلّ شيءٍ على ما يرام. هل أسعدك ذلك؟»

تكلّم لوري بسرعةٍ وحماسٍ شديدين، وقد احمرّ خجلًا وخوفًا من أن يكون قد خيّب آمال البنات بإفشاء السّرّ فيلمنه على تصرّفه هذا. أو أن يحزن بيث بتصرفه.

انشرح وجه جو وقفزت من مقعدها لشدّة فرحتها، وما إن انتهى من حديثه حتّى عانقته.

«آه يا لوري!، أنا في غاية السّعادة».

نزل هذا الخبر الفجائيّ على جو بأشدّ وقع. لم تبكِ بعد ذلك بل دخلت في نوبةٍ من فرط الانفعال فضحكت، ورقصت، وضمّت إليها الفتى المرتبك بيديها المرتجفتين. حاول لوري أن يسيطر على زمام الأمور وربَّت على ظهرها، ثم قبَّلها قبلةً خجولةً عندما هدأت قليلًا، فعادت إلى الواقع مرّة أخرى فأبعدته قليلًا واستندت إلى الحائط وقالت:

«أنا آسفة، لم أستطع منع نفسي من معانقتك، أوه يا لوري. حسنًا فعلت. وتصرّفت تصرّفًا صحيحًا تراخينا نحن عن فعله. لا تعطني المزيد من الخمر!، فهذا يجعلني أتصرّف على نحوٍ طائش».

صرف لوري نظره عمّا حدث وأخذ يضبط ربطة عنقه:

«لا تقلقي، ليس لديّ أيّ مانعٍ في معانقتي».

عاد لوري يشرح لها ما فكّر به بجدّيّة:

«عزيزتي. كلّ ما في الأمر أنّني وجدّي قلقنا كثيرًا من مجريات الأمور، واعتقدنا أنّ هانا لم تكن على صوابٍ فيما تفعله، وقد بالغت في كتمان الأمر والتّحفظّ عليه. كان ينبغي أن تعلم والدتك ما يجري، تخيّلي لو حدث مكروهًا ل..... حسنًا إن حصل أيّ مكروه؟ هل كانت لتسامحنا؟»

لقد صبرت كثيرًا قبل أن أتصرّف هكذا إلى أن رأيت الذّهول في عيني الطّبيب اليوم، ولمست غضب هانا وخوفك أنت وميج عليها؛ فذهبت للمكتب وأرسلت البرقيّة. سأذهب اليوم لإحضارها فقطارها يصل السّاعة الثّانية صباحًا. كفّي عن الهرج والمرج، وانتبهي لبيث ريثما تصل السيّدة الكريمة».

قالت جو:

«أنت ملاكٌ من السّماء. كيف يمكن أن أعبّر عن امتناني لك يا لوري؟»

نظر لها بنظرةٍ ماكرةٍ لم ترها منذ أسابيع في عينيه:

«يمكنك معانقتي مرّة أخرى، فأنا أحبّ ذلك».

أجابت:

«لا، شكرًا. سوف أفعل، ولكن مع جدّك هذه المرّة عندما يأتي، وبالنّيابة عنك. كفّ عن الشّغب واذهب

t.me/yasmeenbook

إلى المنزل واسترح، لأنّك ستستيقظ في منتصف الليل. فليباركك اللّه يا تيدي، فليباركك اللّه».

التصقت جو بالحائط خلفها عندما أنهت حديثها، واختفت على عجل واختفت في المطبخ وجلست على خزانة الملابس، وراحت تخبر القطيطات الّتي تجمّعت حولها أنّها سعيدةٌ للغاية، سعيدة جدًّا، بينما غادر لوري باعتزازٍ وفخرٍ لأنّه أحسن التصرّف. فرحت هانا بالأخبار الجيّدة وارتاحت لأنّ مارمي ستأتي أخيرًا، وكأنّ جبلًا انزاح عن صدرها، فقالت:

«لم أرَ أحدًا يعين النّاس مثلما يفعل هذا الفتى. وقد سامحته على فعلته فقد هوّن علينا الأمر».

أخبرت هانا ميج، ففرحت به كثيرًا وانقلبت فرحتها لسكينةٍ ووقار وراحت تفكّر ماذا ستكتب في الرّسالة التّالية. هرعت جو لغرفة بيث ترتّبها بنشاطٍ بالغٍ وأعدّت هانا شطيرتين احتياطيّتين لمن قد يحضر مع السّيدة. وأُضيء المنزل بما هو أروع وأفضل من أشعّة الشّمس، حيث شعشع فيه فأنار الغرف المظلمة واحدةً تلو الأخرى. بدأت الحياة تدبّ في كلّ شيءٍ في المنزل وراحت الأمور تتّجه نحو التّغيير المرجوّ، فغرّدت عصافير بيث من جديد، وتفتّحت زهرةٌ بين شجيرات آيمي بالقرب من النّافذة، وتوهّجت نيران الموقد فرحةً طربة بعودة الأمّ. وكلّما

تقابلت الأختان أثناء العمل ابتسم وجهاهما الشّاحبان، وتراقصت أعينهما فرحًا وكأنّهما تهمسان: «يا مرحى يا مرحى ستأتي ماما اليوم. ستأتي اليوم».

كلّ من في المنزل ضجّ بالحياة إلّا بيث الّتي استسلمت في فراشها لغيبوبةٍ عميقةٍ، لا تشعر بشيءٍ ولا حتّى بخطورة وضعها وصعوبة ما تمرّ به. كان مشهدًا بائسًا بحقّ بعد أن تحوّل الوجه الورديّ لأصفرٍ شاحب جفّت فيه العروق. والأيدي التي ساعدت كلّ النّاس باتت ضعيفةً منهكةً لا تقوى حتّى على حمل كوب ماء. والشعر الحريريّ الذي كان ينساب على كتفيها كالشلالات أصبح مبعثرًا جافًّا. وتلك الشفاه الطريّة أصبحت خشنة لا تلفظ إلّا بعض الكلمات الخافتة عندما تستيقظ لتطلب الماء ولا تقوى على لفظها بوضوح.

ظلّت جو وميج طيلة النهار قربها: تراقبان، تنتظران، تأملان، وتثقان برعاية الأمّ القادمة لنجدة صغيرتها بيث ورعاية الله العظمى التي تغمرنا جميعنا. مرّت السّاعات ببطءٍ وتساقط الثّلج طوال النّهار، وهبّت الرّيح المريرة وأتى الّليل أخيرًا وجلست الأختان على جانبي سرير بيث. وكلّما دقّت الساعة اقترب الفرج عليهنّ، وجاء الطّبيب وأخبرهنّ أنّ في منتصف هذه الليلة سيُحسم أمر المريضة.

استلقت هانا على الأريكة عند آخر السّرير وقد أنهكها

t.me/yasmeenbook

التّعب وغطّت في نومٍ عميق. سار السّيد لورانس ذهابًا وإيابًا في الرّدهة، وشعر أنّ أيّ شيءٍ في هذه الحياة، سيكون أهون عليه من مواجهة وجه السيّدة. استلقى لوري على السّجادة، متظاهرًا بالراحة، لكنّه نظر إلى النّار وظلّ يحدّق بها فأصبحت عيناه أصفى وأنقى.

لم تنس الفتيات تلك الليلة العصيبة أبدًا، فلم يشفق عليهنّ نوم أو ترفق بهنّ راحة. كانت ليلة سوداويّة اختلط فيها القلق والحزن والانتظار معًا.

همست ميج بجديّة وقالت:

«إذا شفى الله لنا بيث فلن أشتكي طوال حياتي مهما مرّ بي من أسىً وأحزان».

أردفت جو بالحماس نفسه:

«إذا عافاها الله لنا. فسأكرّس كلّ حياتي في خدمته وطاعته وعبادته».

تنهدت ميج بعد صمتٍ، وقالت:

«أتمنّى لو لم يكن لديّ قلب، إنّه يؤلمني كثيرًا».

عقّبت أختها بيأس:

«لا أعلم كيف سنستمرّ في الحياة إذا ما توالت علينا النكبات».

دقّت السّاعة الثانية عشرة وبدأت الّلحظات الحاسمة.

وكان كلّ ما يمكن للفتاتين فعله هو أن تحدّقا بوجه بيث تنتظران بعض التّغيير، للأفضل أو للأسوأ. كان المنزل كمغارة أشباح، ولا صوت يعلو المكان باستثناء صفير الرّياح العاصفة فتطغى على الجوّ الكآبة والمرارة. وكانت هانا قد استسلمت للنوم تمامًا فظلّت جو وميج تحدّقان بالسّرير فيرين ملك الموت يسنّ أسنانه بانتظار الصّغيرة؛ فتتلوّعان وتنقسم أرواحهما من هول المشهد. ثمّ مضت ساعةٌ وذهب لوري ليحضر الأمّ من محطّة القطار، ثمّ مضت أخرى ولم يأتِ أحد. فزاد ذلك من روعهما وخوفهما وتفجّرت الأفكار السّوداويّة بأنّ مكروهًا قد حلّ بالرّحلة بسبب الجوّ العاصف، أو أنّ أباهنّ قد ساءت حالته فأُجبرت الأمّ على البقاء بجانبه.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا، وكانت جو تنظر من النّافذة إلى الطّبيعة المكفهرّة وترى هطول الثّلج في كلّ مكان، ثمّ التفتت لترى ميج وقد جلست في مكان مارمي السّابق، تركع وتبتهل للّه وتغطّي وجهها بكفّيها. حيث دارت في خلدها الفكرة المروّعة:

«ماتت بيث، وميج تخاف أن تخبرني بذلك».

واندفعت إلى جوار فراش بيث. كانت حمرة الحمى وسحنة الألم قد اختفت من وجه بيث الطفولي، بدت نائمة في سكينةٍ تامّة، انحنت جو فوق أختها الغالية وتحسّست

t.me/yasmeenbook

جبينها الرّطب، وقبّلته وصرخت بحرقةٍ تجمّعت بها كلّ أحزان العالم ونحيبه:

«وداعًا يا حبيبتي، وداعًا».

استيقظت هانا من غفوتها على صراخ جو الممتزج بالدموع، وهرعت إلى فراش بيث وتحسست جبهتها، ولمست يديها واستمعت لأنفاسها ثمّ خلعت مريلتها في عجبٍ وابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت:

«تنفّسها هادئ ومنتظم، والعرق يبلّل جسدها. لقد انقشعت الحمى! إنّها تنام نومًا طبيعيًّا، حمدًا لله!»

لم تصدّق الفتاتان ما تقوله هانا حتّى حضر الطّبيب ليؤكّد الخبر، ويطمئنهنّ على صحّتها وحقيقة أنّها تجاوزت مرحلة الخطر.

كان الطّبيب رجلًا عاديًّا، لكنّهما حسبتاه ملاكًا هبط على الأرض عندما ابتسم ونظر إليهما بتمعّنٍ وقال:

«نعم، يا عزيزتيّ، تحسّنت حالتها وستشفى عمّا قريب، حافظا على هدوء المنزل، ودعاها تنام، وأعطينها..».

لم تصبر جو وميج أن ينهي الطّبيب كلامه حتّى تسلّلتا إلى القاعة المظلمة وجلستا على درج السّلم متقابلتين وقد ملأ الفرح قلبيهما، ولم تقدرا على التّفوّه بأيّ كلمة من فرط ما عانتاه. عادت الفتاتان لتقبّلا هانا الوفيّة وتعانقانها، فرأين

بيث تستلقي كعادتها في سلام وقد انتظمت أنفاسها وتلوّن وجهها نورًا وضياءً، وخفّت أعراض المرض قليلًا وكأنّها قد نامت لتوّها.

قالت جو وقد شارف اللّيل على الانقضاء:

«لو أنّ أمّي تأتي الآن فقط!»

قالت ميج وقد أمسكت وردةً بيضاء اللّون، بالكاد تفتّحت أوراقها الزّهية:

«انظري. أثناء اللّيل تفتّحت، بالأمس كنت أعتقد أنّني سأضعها في يديّ بيث إذا ما..... إذا ما أخذها... انظري. حتّى الزّهر لم يستطع فراق الحنونة بيث. سأضعها في المزهريّة بجانبها لكي تكون أوّل ما تراه عند صحوتها بالإضافة لوجه أمّي».

لم يكن لسعادتهنّ حدود، ولم تشرق الشّمس في يومٍ من الأيّام بمثل تلك الرّوعة كما أشرقت ذلك الصّباح، ولم يبدُ العالم بهيجًا في عيون جو وميج المثقلتين بالنوم والمتعبتين من شدّة ما لاقتاه في الأيّام السّابقة، كما بدا في هذا اليوم.

بقيت الفتاتان تراقبان من خلف النّافذة وصرختا من فرط السّعادة لدى سماعهما صوت الأجراس الرّنّانة تتناغم مع صوت لوري معلنةً وصول العربة التي تقلّ أمهما.

t.me/yasmeenbook

الفصل التاسع عشر

وصيّة آيمي

لم تكن الأخت الصّغرى أفضل حالاً من أخواتها. كانت المسكينة تعاني في صمت وتتجرع كأس المرارة كلّ يوم.

وفيما يلي نبذةٌ مختصرةٌ لما كانت تقاسيه الفتاة:

من جهة، كان عليها احتمال آلام النّفي والهجران بعد أن وجدت نفسها بين ليلة وضحاها مبعدةً عن حضن منزلها وأخواتها. ولو أنّ الأمر اقتصر على ذلك لكان أهون بكثير، لكن من جهةٍ أخرى، كان عليها أيضًا احتمال العمّة ومعاملتها الصّارمة.

الحقّ يقال إنّ السّيدة مارش لم تكن بذلك السّوء، بل كانت تحنّ على آيمي وترعاها، وحاولت جاهدةً أن تؤمّن لها أسباب السّعادة، ولكن على طريقتها هي، طريقة أرهقت نفس الصّغيرة وعذّبتها. فقد نسيت السيدة أنّ الّتي أمامها طفلة لا تملك حكمة الكبار أو وعيهم.

t.me/yasmeenbook

يقال: حين يكبر الإنسان يعود طفلًا. لذلك ينسجم أولئك العجّز مع الصغار، ويعاملونهم بلطفٍ وشفقة، أمّا العمّة مارش فلا ينطبق عليها كلّ ذلك، لأنّها كلّما تقدّم بها العمر زادت خشونةً وعجرفة، وراحت تصدر الأوامر والتّعليمات والمحاضرات الطويلة والممّلة، وكأنّها تخاطب امرأة في الخمسين من عمرها.

استبدّت العجوز بسلوكها معها وحاولت أن تعلّمها ما تعلّمته على مدار عمرها كلّه في ساعةٍ واحدة، وبالطريقة نفسها التي عاملتها بها أمّها منذ أن كانت طفلة. كانت آيمي ودودة وهادئة أكثر من أختها جو، فشعرت السّيدة العجوز أنّ بإمكانها ترويضها وتحسين مسلكها وإصلاح ما أفسدته أمّها من دلالٍ كان بنظرها سخيفاً ومبالغاً به. كلّ ما كانت تشعر به آيمي هو أنّها ذبابة في شبكة عنكبوتٍ مفترس.

ثمّ يبدأ الروتين اليوميّ؛ كان على الطّفلة المسكينة وبشكلٍ يوميٍّ أن تغسل الفناجين والملاعق وتلمّع إبريق الشّاي الفضّي الثّقيل وتمسح زجاج النّوافذ. ثمّ عليها مسح الغبار في الحجرة وما أصعبها من مهامّ. كانت العمّة تراقب سير الأعمال عن كثب ولا تفوتها أيّ غلطة أو تقصير، فنظرة واحدة منها كفيلة أن تكشف على كلّ المفروشات وانثناءاتها وأقمشتها. لذا لم يبق للمسكينة إلّا أن تعمل بجدّ.

ثمّ تأتي الدفعة الثّانية من المهامّ، فعليها إطعام الببغاء بولي، وتمشيط الكلب السّمين المدلّل، وصعود درجات السلّم الاثنتي عشرة وهبوطها لتنفيذ الأوامر، أو توصيلها مع طلبات العجوز العرجاء شبه المقعدة. بعد إتمام كلّ ذلك يأتي وقت الدّرس، وكان هذا شيئًا مقدّسًا بالنسبة للعمّة، فالويل لآيمي إن قصّرت فيه يومًا ما. بعد انتهاء كلّ ذلك، تتنفّس الفتاة الصّعداء ويُسمح لها بساعةٍ للرياضة أو الّلعب.

كان لوري يأتي كلّ يوم ويصرّ على العمّة مارش أن تسمح لهما بالخروج، فيصحبها ويخرجا معًا بالعربة أو يتمشّيان ويقضيان أوقاتًا ممتعة. ثمّ تعود إلى المنزل لتناول الطّعام وتقرأ للعمّة بصوتٍ مرتفعٍ، حتى تنام العجوز ساعةً أو أكثر على كرسيّها، وما إن تصحو من قيلولتها حتّى تبدأ أعمال الخياطة والتّطريز.

وكانت آيمي تعمل برضىً ووداعة ولا تشكو ما تلاقيه أبدًا، ثمّ يحين وقت الشّاي وهي السّاعة المحبّبة لها. أمّا الأمسيات فهي أسوأ الأوقات، إذ كانت العجوز تسرد لها عن شبابها قصصًا طويلة مملّة بشكل لا يوصف. وتظلّ على تلك الحالة المساء كلّه، وفي الليل الكئيب الأسود تدخل غرفتها، وبغصّة ومرارة تحاول البكاء على مصيرها، والحال الّذي آلت إليه. ولكنّها لا تستطيع إليه سبيلًا، فما

t.me/yasmeenbook

أن تلقي بجسدها الصّغير الّذي أنهكه التّعب على السّرير حتّى يغلبها النّوم وتغطّ في سباتٍ عميق.

كان كلّ شيء في ذلك المنزل فظيعًا مروّعًا، ولولا زيارات لوري المتكرّرة وإستر خادمة عمّتها الفرنسيّة العجوز، لكانت انفجرت وما استطاعت أن تتحمّل كلّ ذلك. لم تكن آيمي تعاني من عمّتها فقط، بل كان الجزء الأكبر من المعاناة هو ببغاؤها الفظّ، إذ بيّنت له آيمي كرهها الشّديد منذ اليوم الأوّل، فراح يتفنّن بكلّ وسائل التّعذيب والإزعاج، فيسبّها أمام الزوّار، ويشدّها من شعرها، وينتظرها حتّى تنتهي من تنظيف قفصه فيقلب الماء والطعام لتعاود الكرّة من جديد. ثمّ يبتكر أسلوبًا جديدًا فيتحرّش بالكلب لينبح ويوقظ السّيدة من نومها وتوبّخ آيمي. كان هذا الكلب السّمين مزعجًا بفظاعة، ولا يتوقّف عن المشاكسة فيستلقي على ظهره ويرفع قدميه في الهواء وينبح بإزعاجٍ إذا أراد الطّعام، ويكزّ على أنيابه عندما تنظّفه وتمشّط له شعره. وتتكرّر هذه السّلوكيات عشرات المرّات في النّهار.

وكان من بين الخدم أيضًا الطّاهية الحمقاء المتعجرفة، وسائس العربة. فقط إستر هي من اهتمّت لأمر السّيدة الصّغيرة وعطفت عليها مرارًا.

وإستر امرأةٌ فرنسيّة الأصل ـ كما قلنا سابقاً ـ كان

اسمها إستل، ولكنّها أرادت استبداله بإستر. وطلبت من السّيدة مارش ذلك، فكان لها بشرط ألّا تطلب تغيير دينها بعد ذلك.

عملت إستر في خدمة السّيدة مارش منذ زمن طويل، وكانت تنادي العمّة بالمدام. كانت تقضي أوقاتًا سعيدةً معها ولم تستطع السّيدة مارش أن تستغني عنها، وقرّبتها إليها فاستبدّت الخادمة بها بعض الشيء.

قضت آيمي أوقاتًا سعيدةً مع إستر، تستمع إليها بينما تقصّ بعض قصص حياتها، خاصّةً تلك التي حدثت في فرنسا، وأطلقت عليها لقب مادموزيل. كانت تسمح لها أيضًا بالتجوّل في المنزل وتفحّص أشياء السيّدة مارش الجميلة وحليّها الثّمينة التي أُعجبت بها أيّما إعجاب، وتمنّت لو تحظى بقطعةٍ منها.

كان أكثر ما أعجب آيمي خزانةٌ قديمةٌ هنديّة لها أدراج ورفوف ومخابئ سرّية امتلأت بالتّحف الثّمينة منها والسّخيفة. رتّبت آيمي هذه التّحف وصنّفتها، بالأخصّ الصّندوق المبطّن بالمخمل، وما فيه من حليٍّ وياقوت تتقلّدها العمّة عند خروجها، وعقد اللؤلؤ الذي أهداها إيّاه والدها يوم زواجها، وبعض الماسّات لزوجها الرّاحل وخصلة من شعره وساعة يده، وقد تدلّت منها ماسّةٌ حمراء كانت قد عبثت بها أيادي أطفالٍ كثر. بالإضافة لصور

t.me/yasmeenbook

فوتوغرافيّة لأصدقاءٍ توفّوا. ووضعت خاتم زفافها في صندوقٍ آخر صغير بعد أن ضاق كثيرًا على إصبعها.

جلست إستر بجانب آيمي تراقبها، بينما الصغيرة تحدّق بدهشة وقد فتنتها كلّ تلك المقتنيات، سألت:

«ماذا ستختار المادموزيل إذا ما أُتيحت لها الفرصة؟»

ردّت آيمي، وهي تنظر بإعجاب كبير إلى سلسلة من الذهب وخشب الأبنوس عُلّق فيها صليب ثقيل من المعدن.

«حسنًا، أنا أحبّ الماسّ كثيرًا ولكنّي لن أختاره، فأنا أريد عقدًا كاملًا أتزيّن به، لذلك سأختار هذا العقد الذهبيّ».

قالت إستر وهي تنظر إلى العقد بإعجاب:

«أنا أيضًا أشتهي ذلك، لكن ليس كعقد. آه، لا! بالنسبة لي أفضّل أن أستخدمه للتبرّك والتقديس فأنا امرأة متديّنة».

سألتها آيمي:

«هل تقصدين أنّك تفضلين أن تجعليه كالمسبحة المعلّقة فوق مرآتك؟»

قالت:

«نعم. أقصد أن أصلّي به. سيكون من دواعي سرور القدّيسين أن أستخدمه لذلك الهدف، بدلًا من الزينة والعبث».

قالت آيمي:

«يبدو أنك تجدين الهدوء في الصلاة. ليتني أنعم بهذا مثلك».

قالت إستر:

«لو كانت المادموزيل كاثوليكيّة، لوجدت الراحة الحقيقيّة، لكنّك لست كذلك لذا أنصحك أن تعتكفي كلّ يومٍ للصلاة والتّأمّل، كما كانت تفعل مخدومتي الطيّبة التي كنت عندها قبل المدام، وقد أعدّت ركنًا صغيرًا فيه مذبح ومصلّى تختلي به كلّ يوم فتجدّد إيمانها وروحانيّتها وتتقرّب من اللّه».

شعرت آيمي بالحاجة إلى مساعدةٍ من نوعٍ ما، خاصّةً وقد هجرت قراءة كتاب الإرشادات ونسيت تمامًا أن تطالع فيه كلّ يوم، لم تكن بيث موجودة لتذكّرها بالأمر، ممّا زاد من وحدتها وضيق صدرها. قالت آيمي:

«هل سيكون من الصواب أن أفعل ذلك أنا أيضًا؟»

قالت إستر:

«وهل في هذا من شكّ يا صغيرتي. لديّ فكرة سديدة. سأعدّ لك مذبحًا صغيرًا في غرفة الملابس دون علم عمّتك، فما إن تخلد للنوم حتّى تتوجّهي له فتختلين بنفسك وتصلّين وتدعين اللّه أن يشفي الصغيرة أختك ويبدّد أوجاعها».

t.me/yasmeenbook

كانت إستر تقيّة حقًا، وصادقة تمامًا في نصيحتها، خاصّةً أنّها امتلكت قلبًا حنونًا يحسّ ويشعر بما يقاسيه الإخوة تجاه بعضهم بعضاً، ولهذا السبب قبلت آيمي عرضها على الفور علّ اللّه يهديها للخير ويبدّل أحوالها للأفضل ويشفي لها بيث.

راحت آيمي تعيد التّحف والمجوهرات والعقد الثّمين إلى أماكنها السّابقة واحدًا تلو الآخر، وقالت:

«أتمنّى لو أعرف لمن ستؤول كلّ هذه الأشياء الجميلة عند وفاة العمّة مارش».

همست لها إستر قائلةً:

«لك ولأخواتك يا عزيزتي، وقد كنت شاهدةً على ما أوصت به السّيدة».

اندهشت آيمي وألقت نظراتٍ أخيرةً على تلك المجوهرات، وقالت:

«يا للعظمة! ولكنّي أكره الانتظار! فلم لا نأخذها الآن ونتزيّن بها طالما ستكون من نصيبنا في النّهاية؟»

قالت إستر:

«ما زال أمامكنّ متّسعٌ من الوقت لذلك. أنتنّ صغيرات ولا يجدر بكنّ أن تتزيّن منذ الآن بالحلي الثّمينة. سمعت المدام تقول أنّ أوّل واحدة تتزوّج منكنّ ستحظى بعقد

اللؤلؤ، وستحصلين أنت على الخاتم ذي اللّون الفيروزيّ عندما تعودين إلى المنزل، لأنّك مهذّبة وودودة وخدمتِ في منزلنا خدمةً حسنةً».

انشرحت أسارير آيمي لما سمعت، وجرّبت الخاتم في إصبعها، كما لو أنّه أصبح من ممتلكاتها الخاصّة:

«أحقًّا ما تقولين؟، أوه لو يحدث ذلك حقًّا لأصبح الحِمل عليّ أكثر وداعة وطواعية ولتحمّل أضعاف ما ألاقيه عندها من تعبٍ وبؤسٍ وشقاء. أنا أحبّ عمّتي كثيرًا، ويكفي أنّها ستعطيني خاتمًا أجمل بكثيرٍ ممّا تملكه كيتي باريانت».

كان لتلك الهديّة الموعودة في نفس آيمي أعظم وقع وأثرت بها تأثيرًا رهيبًا، فصارت مثالًا للانقياد والطّاعة، ولو قالت لها عمّتها البحر أسود لوافقتها على ذلك!. فرحت العمّة مارش بذلك كثيرًا ورأت أن تربيتها قد أزهرت وأثمرت. وباشرت إستر بإعداد العدّة لإنشاء مذبحٍ صغيرٍ في حجرة الملابس إيّاها، فأحضرت منضدة صغيرة ووسادة للركوع وصورة للعذراء من بين أغراض العمّة، على أمل ألّا تشعر باختفائها. وقد حسبتها من النّوع الرّخيص، ولكنّها كانت أثمن الموجودات، وأحد النّسخ الأصليّة لرسمة فنّانٍ عظيم ومشهور، الأمر الذي شعرت آيمي به ببداهتها وحسّها الفنّيّ الرّفيع، فظلّت تحدّق بها

t.me/yasmeenbook

لأوقاتٍ طويلة وتناجيها وتتضرّع لها أن تتشفّع لأختها وتنقذها ممّا هي فيه.

وضعت آيمي مزهريّةً ملآى بالزهور الجميلة من عند لوري، وكتابًا للصلاة والإنجيل فوق المنضدة، وعلّقت صليبًا أخذته من إستر على الحائط بدلًا من أن تضعه على صدرها أثناء الصّلاة فعقيدتها البروتستانتية تحرّم عليها ذلك.

كانت تجربة آيمي تلك خير مثالٍ على قوّةٍ عميقةٍ في نفسها، ستتفجّر داخلها وتعيد صقل شخصيتها من جديد وتثمر أفضل ثمارها، فمن كان يتوقّع أنّ فتاةً صغيرةً أُبعدت عن منزلها الدّافئ والآمن ووجدت نفسها بين ليلةٍ وضحاها بين براثن عمّتها المتسلّطة ستكون بهذا الإخلاص، وتقدّم أعمال العبادة على أكمل وجه وتدعو للصغار والكبار!.

ساهمت نصائح والد آيمي الغائب القديمة في ذلك أيضًا وأرشدتها إلى السّبيل في ظلّ غياب أمّها وابتعادها عن عائلتها.

كانت تلك الإرشادات يد الله التي تمسّكت بها وأعانتها في الليالي الصعبة المريرة.

وعلى سبيل الإيمان والإحسان كتبت وصيّتها كما فعلت عمّتها حتّى تقسّم أملاكها على أحبابها بالعدل، ولكن مجرّد فكرة خسران مقتنياتها الثّمينة (على الأقلّ) في نظرها قد أفزعتها وأخافتها.

باشرت آيمي تلك المهمّة بمساعدة السّيّدة الفرنسيّة الطّيبة إستر في وقتها المخصّص للهو. كتبت آيمي المستند ودقّقت إستر الفقرات القانونيّة فيه، ووضعت توقيعها في ذيل المستند كشاهدٍ أوّلٍ على ذلك وهو ما أراح الفتاة كثيرًا وبقي فقط مجيء لوري ليكون الشاهد الثّاني.

كان ذلك في يومٍ ماطر، حيث صعدت إلى الطّابق العلويّ لترفّه عن نفسها بالأزياء القديمة الموجودة في خزانة قديمة. وبدأت هوايتها المفضّلة في ارتداء تلك الملابس الباهتة واستعراضها بعد أن سمحت لها إستر بذلك. راحت تجرّ أذيال الفساتين، وتنحني لتحيّي نفسها صعودًا وهبوطًا، وتغازل معجبيها أمام المرآة الكبيرة، مع أنه لم يكن معها سوى الببّغاء بولي الذي اصطحبته ليسلّيها.

لم تنتبه وسط صخبها ذلك أن لوري وصل وراح يتأمّلها كابتًا ضحكاته، فانزوى يختلس النّظر لرأسها الملفوف بوشاحٍ حريريٍ ورديّ اللون، والعباءة الزرقاء والوشاح الأصفر فوقها، وكعبها العالي الذي راحت ترنّح به يمينًا وشمالًا وهي عرضة للوقوع في أي لحظة. كان منظرًا طريفًا، وخاصّةً الببغاء الذي يحملق بها تارةً يصيح من فوقها تارةً أخرى:

«ألسنا رائعين؟ هيا أيّها المزعج أصمت أعطني قبلة ها ها..».

t.me/yasmeenbook

حافظ لوري على هدوئه مخافة أن ينفجر ضاحكًا ويحرج الفتاة الصّغيرة أو يضايقها، لذا طرق الباب بلطفٍ وحيّاها فقالت له فور رؤيته:

«اجلس واسترح ريثما أرتّب هذه الأشياء وأضعها بعيدًا، ثم أريد استشارتك في أمرٍ ضروريّ».

انهمكت تفكّ العمامة الورديّة وتعيد الببغاء لزاويته المعتادة وهي تتمتم قائلة:

«هذا الطّائر مأساة حياتي».

ثمّ جلس الاثنان على مقعدين متقابلين وقالت له:

«في الأمس كانت عمّتي نائمة وكنت أحاول أن أظلّ ساكنةً كفأرٍ صغير، بدأ بولي في يصيح ويرفرف في قفصه، فذهبت لإخراجه، ووجدت عنكبوتًا كبيرًا هناك. نكزته فركض واختبأ تحت خزانة الكتب، لحقه بولّي، ثم انحنى إلى أسفل واختلس النظر من تحتها، وقال بلهجته المضحكة:

«هيّا يا عزيزي. اخرج لنتمشّى قليلًا».

ممّا أدخلني في نوبة ضحكٍ هستيريّةٍ فغضب بولي وشتمني واستيقظت عمّتي ووبّختنا نحن الاثنين».

تثاءب لوري وقال:

«وهل قبل العنكبوت دعوة الببغاء العجوز؟»

أجابت آيمي:

«نعم، وخرج بالفعل من تحت الخزانة مسرعًا ممّا أرعب بولي وأرهبه فارتدّ على أعقابه مولّيًا الأدبار وارتطم بكرسيّ العمّة وصاح قائلًا:

«أمسكوه.. أمسكوه.. أمسكوه».

«وانطلقت أحاول الإمساك بالعنكبوت».

عندما سمعها بولي تتكلّم عنه انزعج من الأمر ونقر قدمي لوري قائلًا:

«إنّها تكذب. والله.».

قال لوري وهو يكزّ على أسنانه ويتحلّف للطائر الفظّ:

«لو كنت ملكي لجززت عنقك. أيّها العجوز الوقح».

طأطأ الببغاء رأسه وقال:

«هذا هراء».

أخرجت آيمي ورقةً من ثنايا جيبها وهي تغلق باب الخزانة وقالت:

«حان وقت الجدّ. أنا مستعدّةٌ الآن».

وأعطته إيّاها ليقرأها ويرى إن كانت قانونيّة أم لا، فالدنيا حياةٌ وموتٌ وأرادت أن تصفّي ذمّتها علّها تكسب دعاءً صالحًا ومغفرةً إذا ما واراها الثرى.

t.me/yasmeenbook

وفيما يلي الورقة كما كتبتها آيمي تمامًا دون أي تصويب للأخطاء الإملائية:

«رغبتي الأخيرة ووصيّتي..

إنا آيمي كورتوس؛ أصرّح وإنا في كامل قواي العقليّة انني أتنازل عن كامل ممتلكاتي الشّخصيّة أمام الشّهود المذكورين أدناه....

إلى والدي:

أجمل الصّور والرّسومات والخرائط والأعمال الفنية، بما في ذلك الأطر الخشية. أوصي له ايضًا بالمئة دولار الّتي بحوزتي يتصرّف بها كما يشاء.

إلى والدتي:

كلّ ملابسي ما عدا المريلة الزرقاء ذات الجيوب وأيضًا أهديها بكامل حبّي ميداليّتي ووسامي.

إلى أختي العزيزة مارجريت:

الخاتم الفيروزيّ إن حصلت عليه والصّندوق الأخضر وما فيه من حمائم وبقطعة الدّانتيل الحريريةّ تزيّن بها رقبتها وبالرسمتي التخطيطية كذكرى لها من طفلتها الصّغيرة.

إلى جو:

أوصي لها بمشبك الصّدر بعد أن أصلحته بالشّمع الأحمر، وبمحبرتي البرونزيّة وقد أضعت غطاءها

وبالتّمثالي الطّيني الّذي صنعته على هيئة أرنبٍ وهو الأغلى لديّ علّني أكفّر عن ذنبي السّابق عندما أحرقت قصّتها.

إلى بيث إذا ما كتب لها اللّه لها عمرًا جديدًا:

كلّ عرائسي ومنضدتي الصّغيرة ومروحتي وخفّي الجديد وأطواق الكتّان وأعتقد انّها ستسطيع أن تلبسهم لأنّ المرض سيجعلها أنحف. أتمنّى أن تسامحني على سخريتي من جوانا دميتها العجوز.

إلى صديقي وجاري ثيودور لورانس:

محفظة أوراقي وتمثال الحصان الفخّاريّ بالرغم من أنّه بلا رقبة. وأوصي له بأن يختار من بين رسوماتي أيّ واحدةٍ يحبّها علّي أردّ له بعض جمائله علينا وأكافئه على وجوده بجانبنا في أيّام الشّدائد. أعتقد أنّها ستكون نوتردام.

إلى المحسن الموقّر السيد لورانس:

أترك الصّندوق الأرجوانيّ ذي الغطاء الزّجاجيّ سيناسب أقلامه كثيرًا ويذكّره بفقيدته الرّاحلة. أتمنّى ان يعتبره عربون شكرٍ وامتنانٍ لما غمرنا به من أفضال وخاصّةً بيث.

إلى زميلتي المفضّلة كيتي برايانت:

أهديها مرولتي الحريريّة الزّرقاء وخاتمي الذهبيّ المقبّب مع قبلة حارة.

t.me/yasmeenbook

وأوصي لهانا بصندوق عدّة الحياكة الّذي أعجبها مع كامل العدّة علّها تذكرني كلّما استخدمته.

والآن بعد أن وزّعت كلّ ممتلكاتي القيّمة آمل أن يكون الجميع راضٍ عنّي ومقتنعًا بنصيبه من ورثة الميّتة. بقلبٍ طاهرٍ، أصفح عن الجميع على أمل اللّقاء في يومٍ لا ريب فيه عند ديّان الدّيون. آمين.

آيمي كورتوس مارش

الشهود

1 ـ إستل فالنور

2 ـ ثيودور لورانس

كان الاسم الأخير مكتوبًا بالقلم الرصاص، وطلبت منه آيمي أن يعيد كتابته بقلم الحبر وأن يضع الوصيّة في ظرفٍ ويغلقه بإحكام.

ألصقت آيمي شريطًا أحمر على الظّرف بإحكام شديدٍ، أمّا لوري فقد كان مذهولًا ممّا سمع، فسأل:

«من زرع هذه الأفكار في رأسك؟، هل أخبرك أحد عن تبرّعات بيث لأخواتها أيضًا؟»

راحت تشرح له عن دوافعها وراء تلك الوصيّة وما الذي جعلها تفعل ذلك، ثم توقّفت فجأة لتسأل عمّا حلّ ببيث وهل هناك أيّ مكروه، فقال لوري:

«ما كنت أحبّذ أن أتطرق لهذا الموضوع، ولكن وبما أنّه فُتح على أيّة حال، فسأقصّه عليك. عندما استبدّ المرض ببيث كثيرًا وأتتها أفكارٌ سوداويّة، راحت تقسّم أغراضها عليكنّ فأوصت بالبيانو لمبج ولك بالقطيطات وجو أعطتها الدّمية جوانا لأنّها سترعاها وتحبّها من بعدها. ووزعت خصلات شعرها على كامل الأسرة، وأبلغت جدّي بحبّها الذي لا يمكن وصفه. وشعرت المسكينة الطّيبة بالخزي من تلك الأغراض البسيطة. ومع ذلك كلّه لم تكتب ذلك كما فعلت أنت!»

أطرق لوري رأسه فوق الظرف ولم يرفعه إلّا بعد دمعةٍ كبيرةٍ نزلت من مقلتيه وبلّلته، شحب وجه آيمي وامتلأ بألف معنى وقالت:

«هل جرت العادة أن يُكتب شيءٌ إضافيٌّ على الظّرف الخارجيّ في الوصايا؟»

قال:

«نعم، ويسمّى ملحق الوصيّة».

قالت:

«إذًا، أرجو أن تكتب تعديلًا على وصيّتي، فأنا أريد أن أوزّع جميع خصلات شعري على أصدقائي بعد مماتي، وأملي ألّا يكون شكلي مروّعًا فأموت ميتةً ذميمةً».

t.me/yasmeenbook

ابتسم لوري وأُعجب بالصّغيرة وهو يراها كيف تقدّم أعظم أشيائها وتضحّي بأغلى ما يكون على قلب فتاة. جلس لوري يسلّي آيمي ويخفّف عنها قدر المستطاع، وعندما استأذنها بالرّحيل أوقفته وهمست له بفمٍ مرتجفٍ تسأل إن كان هناك حقًا خطرٌ حقيقيٌّ على حياة أختها بيث؟. فربّت على ظهرها وطبطب عليها وقال لها:

«جلُّ ما أخشاه أن يكون الأمر كذلك، ولكنّني أترقب الخير دائمًا، فلن ينسانا اللّه من عظيم كرمه، لا تبكي يا عزيزتي الصّغيرة».

انفطر القلب الصّغيرة وبدموعٍ ساخنةٍ كالمطر، ركضت آيمي لمصلّاها الصّغير وركعتً للّه وتضرعت باسمه الأعظم حتّى الفجر أن يشفي لها بيث وينقذها ممّا هي فيه.

قالت في سرها:

«كلّ ما في الحياة من خواتمٍ فيروزيّةٍ لا تغنيني ولا تعزّيني إذا ما رحلت أختي الحنونةً عن دنياي».

الفصل العشرون

ائتمان

انفرج الكرب وزالت الغمّة، وها هي الأمّ تزيل ستائر الهمّ والضّيق عن قلوب الفتيات الصّغيرات اللاتي ذقن الأمرّين في غيبتها، وتلوّعن من ألم الفراق والهجران.

لو كانت الحروف الأبجدية تكفي لأصف لكم كيف كان ذلك اللقاء لما توانيت عن ذلك، لكنّ الأمر كان أعقد من ذلك بكثير...

تفجّر ذلك المنزل فرحًا وراحةً وطمأنينة، وكما توقّعت ميج كان أوّل ما رأته بيث بعد سباتها الطّويل هو وجه أمّها الحنون، والوردة البيضاء الّتي قطفتها ميج. وأخيرًا نعمت بأحضان من تحبّها وتهواها ولكن، ماذا تفعل تلك اليدان الضعيفتان اللتان ما عادتا تقويان على ردّ أبسط تحيّة؟. استفاقت بيث وأخيرًا..

بعد وقت قليل، عادت بيث لنومها العميق وتهافتت

t.me/yasmeenbook

الفتيات يتناوبن على راحتها. راح كلّ من في المنزل يعبّر عن فرحته بطريقته الخاصّة، فأعدّت هانا وجبة إفطارٍ شهيّةٍ للقادمة، كان من المستحيل التّنفيس عن حماستها بأيّ طريقةٍ أخرى. أطعمت كلٌّ من جو وميج والدتهما مثل طيور اللقلق الصغيرة المطيعة. وأخذت الأمّ تروي أخبارها عن حالة الأب، ووعد السيّد بروك بالبقاء إلى جانبه لرعايته، ووصفت لهنّ كيف عرقلتهم الأحوال الجويّة السّيئة في رحلة العودة، وكم شعرت بالرّاحة والرّضى عندما رأت وجه لوري البشوش المتفائل فزال عنها كلّ القلق والإعياء والبرد.

أشرق فجر اليوم التّالي، وكان الضوء شديدًا وزاد بياض الثّلج من حدّته. نزلت السّكينة على كلّ من في المنزل وكأنّ وقت الرّاحة قد حان بعد زوال تلك الأيّام المريرة. في الليلة السابقة، نامت هانا ناحية باب الغرفة وأغمضت جو وميج أعينهما كقاربين ضربتهما العاصفة ولكنّها رست بأمان في ميناء هادئ. أمّا الأمّ الحنون فلم تتزحزح من جوار بيث، حيث نامت على مقعدها الكبير تتفقّدها وتتلمّس يديها من وقتٍ لآخر مثل بائس وجد كنزاً مدفوناً.

ذهب لوري ليزور آيمي عند العمّة ويزفّ لها الخبر السّار، وراح يقصّ لها أدقّ التّفاصيل بحيث يغلق الطّريق

أمام العمّة مارش فلا تقول أبدًا: (لقد قلت لكم ذلك). كانت آيمي تستمع إليه ولا تفكّر سوى بذلك المعبد الصّغير الذي شيّدته، ونسبت له الفضل الكامل فيما حلّ عليها من نعم ومنحٍ سماويّة. جفّفت دموعها على عجلٍ وتحلّت بالصبر الجميل على أمل اللّقاء المنتظر بينها وبين والدتها العزيزة، وآخر ما فكّرت به كان ذلك الخاتم الفيروزي. لقد تصرّفت حقًّا كامرأةٍ صغيرةٍ خارقة القوى.

حتّى الببغاء بولي الفظّ أُعجب بها وشهد لها بذلك ووصفها بالفتاة الطيّبة، وبارك لها وقال بأسلوبٍ لطيف:

«تعالي يا عزيزتي إليّ. لنتمشّى قليلًا».

كان من دواعي سرورها أن تخرج وتستمتع بالطّقس الشّتوي، فعودة أمّها وشفاء بيث كانا كفيلين بأن يجعلاها ترى العواصف نورًا وسلامًا!، لكنّها امتنعت عندما رأت لوري وقد أعياه الإجهاد وعلى وشك أن يأخذ قيلولة سريعة، رغم مكابرته وإخفائه ذلك ما استطاع. أقنعته آيمي بالاستلقاء على الأريكة ريثما تنتهي من كتابة رسالة ترسلها معه إلى أمّها. استغرقت وقتًا طويلًا لإعداد تلك الرّسالة، وحين انتهت وجدته غارقًا في النوم وقد وضع يديه الاثنتين تحت رأسه، كما أسدلت العمّة السّتائر والتزمت الصّمت في كرمٍ ولطف غير مسبوقين.

بدا لوري منهكًا، ولو رآه أحد لظنّ أنّه سينام حتّى

t.me/yasmeenbook

الصباح ولن يستطيع أيّ شيءٍ إيقاظه، لكنّ صرخةً واحدة من آيمي عندما تفاجأت بأمّها كانت كفيلةً بتلك المهمّة... واستيقظ من نومه. لقد استحوذت آيمي على سعادة الدّنيا، ولو جمعنا فرح الفتيات كلّهنّ في المدينة وما حولها في كفّة، وفرحة آيمي في كفّة أخرى، لرجحت كفّة آيمي عندما جلست في حضن والدتها وراحت تحكي لها حكاياتها، لتتلقّى من الأمّ بسمات التعزيّة والتّهوين والتهليل. ثمّ اصطحبت آيمي والدتها لتريها المذبح فلم تعترض الأمّ عليه لما كان فيه من أهدافٍ نبيلة وغايات سامية.

ألقت الأم نظرة شاملة على المكان: من المسبحة المغبّرة، إلى الكتاب القديم البالي، ولوحة العذراء الجميلة إلى الإكليل الأخضر حولها ثمّ قالت:

«على العكس يا عزيزتي. لقد أحببته كثيرًا. نحن بشر ولكلٍّ منّا لحظات ضعف، وأرى أنّها خطّةٌ ممتازة، أن يكون لنا ملجؤنا الخاصّ الذي نلجأ إليه في أوقات الانكسار والحزن، فتغمرنا السّكينة والأمان. فكما أنّ هناك الجيّد فهناك السّيّء أيضًا، ولكن بإمكاننا جعل السّيء جيّداً بالصبر عليه والتّمكن من هزيمته. إنّها فلسفة عميقة رائعة. أعتقد أن صغيرتي بلغت من ذلك مبلغًا عظيمًا».

قالت آيمي:

«نعم يا أمّي. وعندما أعود إلى المنزل سوف أهيّئ ركنًا في حجرة الملابس الكبيرة، وأضع فيه كتبي ونسخة من تلك الصّورة التي أعمل عليها الآن. يبدو أنّني لم أنجح في رسم وجه المرأة كما في الصورة الأصليّة، لكنّ الطفل لا بأس به وقد أحببته كثيرًا. كم أحبّ فكرة أنّه كان يومًا ما طفلًا مثلي، فهذا يجمع بيني وبينه ويقرّبني منه فألوذ بشكواي له وأرتاح لمناشدته».

أشارت آيمي بإصبعها إلى يسوع الطّفل المبتسم الجالس في حضن والدته، فرأت أمّها ما كان يلمع في إصبعها، واكتفت بابتسامة صغيرةٍ تحمل ألف معنى، وفهمت آيمي على الفور ما يدور في خلد أمّها من أفكار، وقالت لها بعد مضيّ أقلّ من دقيقة بشيءٍ من الجدّيّة:

«بالطّبع كنت سأخبرك، لكنّني نسيت. أعطتني إيّاه العمّة اليوم بعد أن نادتني وقبّلتني ووضعته في إصبعي، وقالت إنّني جدّ مهذّبة ومطيعة، وفخرٌ لها إن بقيت عندها دائمًا. وأرسلت الخاتم للحارس الظريف ليصغّره، إنّه واسعٌ قليلًا على بنصري الصغير لكنّه ثمينٌ جدًّا. هل أستطيع أن أحتفظ به؟»

نظرت السّيدة مارش لليد النّاعمة المدوّرة، وفُتنت بالمعدنين المذهّبين الملتفّان على الحجر الأزرق السّماويّ الكريم وقالت:

t.me/yasmeenbook

«ما أجمله يا صغيرتي، ولكنّي أعتقد أنّك ما زلت صغيرة على هذه الحليّ!»

قالت آيمي:

«لا تخافي يا أمّاه!، فأنا لن تغريني المجوهرات ولا الأموال!، ولا تحسبي أنّني ألبسه لمجرّد أنّه جميل فحسب، بل إنّما لأتذكّر شيئًا ما كما فعلت تلك الفتاة في القصّة».

ضحكت أمّها وقالت:

«هل تقصدين عمّتك؟»

قالت آيمي بصدقٍ وجدّية جعلت الأمّ تتوقف عن الضحك من فورها، وتصغي بكلّ حواسها لما تؤمن به الفتاة الصّغيرة:

«كلّا. ليست عمّتي. بل لأتخلص من تلك الفكرة المسيطرة عليّ بأنّني لا أحبّ إلّا نفسي. لأكون صادقة. أختي بيث المضحيّة المعطاءة، وراء كلّ تلك الفكرة. فما رأيته في الفترة الأخيرة من محبّة النّاس لها وخوفهم عليها، كان فوق الوصف، واتّخذت قراري أن أحذو حذوها، أريد أن يحبّني الناس ويخافوا عليّ، فأنا أيضًا أستحقّ ذلك. لقد ضقت ذرعًا ممّا لاقيته من غرور في نفسي وأخطائي الكبيرة من أنانيّةٍ ومشاغباتٍ وغيرها. سأكون نسخة أخرى من بيث. وسيساعدني هذا الخاتم على التخلّص

من التسلّط والغرور والمراوغة قدر المستطاع. فلنجرّبها وحسب يا أمّي».

أبدت الأمّ رأيها بكلّ ما قالته الصّغيرة، حيث أجابتها:

«حسنًا يا ابنتي هوّني عليك، ولو أنّني أفضّل فكرة المُعتكف أكثر ولكن لا عليك. البسي الخاتم وهنيئًا لك هذا الحسّ الإنسانيّ العالي والرّفيع. امضي قدمًا، وثقي دائمًا أنّ الإرادة القويّة تكسبك نصف المعركة. والآن سأعود لبيث وانتبهي لنفسك يا صغيرتي، وتحلّي بالصبر والشّجاعة وسوف تعودين لنا في أسرع وقت».

كان القلق والوجوم واضحين في عيني جو ولم تعد تستطع أن تخبّئ أكثر، ولمّا رأت أختها ميج منكبّةٌ تخطّ رسالةً لوالدها هبطت بسرعةٍ على السلالم لغرفة بيث وانفردت بأمّها، حيث كانت في مجلسها المعتاد بجانب المريضة وراحت تلفلف خصلات شعرها القصيرة بكلّ أصابعها، فأمسكت بها يد الأمّ الحنون لتشجّعها على البوح والفضفضة:

«ماذا يدور بخلدك يا جو؟»

قالت جو:

«هناك أمرٌ يؤرّقني».

سألت الأمّ من فورها:

t.me/yasmeenbook

«عن ميج؟»

أردفت جو متعجبة:

«كم أنت لمّاحة يا أمّي!، نعم»، سكتت قليلاً ثم أكملت: «نعم، عنها. إنّه أمرٌ صغيرٌ ولكنّه يقضّ عليّ مضجعي ويؤرّقني».

قالت الأمّ بحدة:

«لنخفض صوتنا كي لا تستيقظ بيث. آمل ألّا تكوني أنت وميج قد استقبلتما السّيد موفا؟»

قالت جو:

«لا يا أمّي. لو أتى لأغلقت الباب في وجهه».

ثمّ جلست على الأرض عند قدمي أمّها وكأنّ ما ستقوله ينهك قواها وقالت من جديد:

«أتذكرين يا أمّي في الصيف الماضي عندما ضاعت فردتا قفّازات ميج ووجد لوري فردةً واحدةً وأعادها لنا، ولم نأخذ نحن الموضوع على محمل الجدّ؟. الحقيقة يا أمي أنّ الفردة الأخرى كانت بحوزة السيّد بروك. يبدو أنّه وقع في غرامها وهذا ما أخبرني به تيدي، إلّا أنّ بروك أخفى ذلك لأنّها كانت صغيرة، وهو لا يزال يشقّ طريق مستقبله. الآن، ألا ترين أنّ من واجبي أن أخاف وأقلق؟»

دُهشَت السيّدة مارش وقالت:

«تُرى هل تبادله ميج المشاعر نفسها؟»

خجلت جو من أمّها وصاحت محاولةً أن تتملّص من الإجابة، ولكنّ اهتمامها للأمر غلب حياءها وراحت تفسّر:

«أوه ماما، ارحميني!، لا أعرف شيئًا عن الحبّ ومثل هذا الهراء!، لو كان قد بدا عليها بعض التّصرفات كالاحمرار خجلًا، الإغماء، والنّحافة المفرطة كما في الروايات الرومنسيّة؛ لكنت قلت ذلك ولكنّها تأكل، تشرب وتنام مثل مخلوقٍ عاقلٍ طبيعيّ، وأكثر من ذلك فلا تتأثّر أبدًا لسيرته ولا تبدي أيًّ انفعال، عدا تلك الحمرة الخفيفة الّتي يتلوّن بها وجهها عند ذكر لوري لأحوال أهل الغرام، بالرغم من أنّي منعته من أسلوبه ولكنّه لم يمتثل».

قالت الأمّ:

«إذًا، تعتقدين أنّها لا تأبه لأمر جون».

قالت جو:

«ومن هذا جون؟»

قالت الأمّ:

«السيد بروك. أنا أدعوه «جون» الآن. لقد تآلفنا كثيرًا وانكسر حاجز الرّهبة والخجل وهو مسرورٌ بما أسميته».

انفعلت جو وكادت تقتلع شعرها من جذوره من شدّة غضبها وقالت:

«أوه يا عزيزتي. يا لهذا الرّجل المتسلّق. لقد خطّط ودبّر

t.me/yasmeenbook

ونفّذ كلّ شيء فراح يرعى أبي ولعب دور ملاك الرحمة كي يأسر قلبيكما، فإذا ما تقدّم لخطبتها لن تجرؤا على رفضه زوجًا لابنتكما».

قالت الامّ:

«يا عزيزتي. سأشرح لك الموقف وأحيطك علمًا بكلّ ما حدث فاهدئي ولا تثوري كالمعتاد».

قبل كلّ شيءٍ، لم يحضر بروك إلّا بناءً على طلب السّيد لورانس، وكان مخلصًا لي ولوالدك المسكين طوال الوقت. أخلاقه ومراعاته لنا وحسن معشره، كلّ هذا فرض علينا حبّه فرضًا ويحزنني أنّنا لم نفِّه حقّ الشكر...

إنّه شابٌ ممتازٌ حقًّا وقد صارحني بشأن ميج ولم يكتم حقيقة مشاعره، لكنّه سيؤمن منزلًا مريحًا قبل أن يخطبها وكلّ ما أراده الشاب هو أن نفسح له المجال ليكسب قلب الفتاة، لتحبّه وتهواه مثلما يفعل هو. لقد كان مثاليًا وخلوقًا بما فيه الكفاية لأوافق على طلبه، ولكنّني بالطّبع سأنتظر حتّى تكبر ميج وتقرّر مصيرها بيدها».

قالت جو:

«بالطبع لا. سيكون من الغباء!، كنت أعلم أنّ هناك طبخة تطبخ على نارٍ هادئة، شعرت بذلك ولكنّني لم أتوقّع

أنّ الطريق سيكون سهلًا عليه بهذه البساطة. لو كان الأمر بيدي لخطبتها أنا لنفسي كيلا ترحل عنّا».

ضحكت الأمّ من تعبير جو المفاجئ الغريب، وقالت لها محذّرةً إيّاها:

«إيّاكِ أن تخبري ميج بأيّ شيء. فأنا سأرتب الأمر على طريقتي، وأرى إن كان بإمكان بذرة هذا الحبّ أن تثمر، وأتأكّد من مشاعرهما كليهما تجاه بعضهما بعضاً عند عودة بروك».

قالت جو:

«ولكنّها شابّة ورومانسيّة يا أمي، وما إن ترى عينيه البنّيتين التي تتحدّث عنهما دائمًا، فسوف تقع في غرامه وتستسلم لشغاف قلبها، وتذوب فيه كالزّبدة تحت أشعة الشمس المحرقة. كانت تقرأ رسائله أكثر ممّا تقرأ تلك التي تكتبينها أنت، وكنت أُنكر عليها هذا فتوبّخني، حتّى اسم جون سيستهويها وتحبّه أنا أخبَر النّاس بميج!. إنّي أرى سعادتنا ومرحنا وسلامنا يتلاشى في الأفق. سيجمع بروك المال ويحملها وينتزعها نزعًا ليلقي بها في براثن الهجران، فتنكسر عائلتنا للأبد!!. إن ذهبت ميج، فلن نجد الرّاحة والسّلوان بعد ذلك اليوم. آهٍ يا أمّي لو كنّا جميعًا ذكورًا فلا يتفرّق شملنا ما حيينا».

تنفّست السّيدة مارش الصّعداء، وآلمها قليلًا حالة جو

t.me/yasmeenbook

تلك ومبالغتها وارتابت لمّا أسندت جو ذقنها على ركبتيها في موقفٍ بائسٍ، وكأنّها تعتزم أن تحارب جون بكلّ ما استطاعت من قوّة، ثمّ قطعت جو شرود الأمّ وقالت:

«أراك تتنهّدين يا أمّي!، هل رأيت كيف يحزنك الموضوع!، قولي فقط إنّك غير سعيدة ولا تحبّينه، دعينا نصرف نظرنا عن الموضوع ونتكتّم على كلّ ما ورد ذكره الآن، وننسى كلّ ما حدث ونعود لسعادتنا المعتادة».

كادت جو أن تلطم وتنوح، فقامت الأمّ لتهدّئها، وقالت:

«لقد أسأت فهم سرّ تلك التّنهيدة. عزيزتي جو، عليك أن تتقبّلي فكرة أنّ كلًّا منكنّ ستتزوّج ويكون لها منزلها الخاصّ يومًا ما، فتنسلخ عن الأسرة الكبيرة. هذه هي الحياة. بالطّبع يشقّ عليّ ذلك وأتمنّى أن تبقين أطول وقتٍ ممكنٍ معنا. أعلم أنّ ميج بالكاد تبلغ السّابعة عشرة، لكنّي آخذ بالحسبان أنّ بروك ما زال أمامه وقتٌ طويلٌ ليؤمّن السّكن المناسب. بالطّبع لا أنا ولا والدك سنقدم على مثل هذه الخطوة قبل بلوغها العشرين».

واختتمت الأمّ خطبتها بكلامٍ مترنّحٍ بعض الشّيء:

«إن تبلورت قصّة الحبّ بينهما على نحوٍ جميلٍ وسعيد، فسوف يتمّ هذا الزواج. وأنا واثقة من قلب فتاتي الجميلة ورقّتها وضميرها الحيّ، وأنّها لن تسيء معاملة السيد

جون، وستكون أهلًا لتلك الثقة التي أعطيها إيّاها. أملي أن يتمّم اللّه لها على خيرٍ ويكتب لها السّعادة والهناء».

سألتها جو في مناورة أخرى بائسة منها:

«ألا تفضّلين أن تتزوّج ميج من رجلٍ ثريٍّ؟»

قالت الأمّ:

«من يستطيع أن ينكر أنّ المال زينة الحياة وبهجتها. آمل ألا يدور الزّمن على فتياتي الصّغيرات ويعانين الفاقة والعوز. لكنّني أتأمّل خيرًا ببروك، سيحصل على مكانةٍ مرموقةٍ ودخلٍ جيّد يعيشان به هو وميج ويحصّنان به نفسيهما. لا أريد منك أن تعتقدي أنّني لا أطمح لبناتي برغد العيش من ثروةٍ رائعةٍ أو منصبٍ رفيع. ولكن الأفضل أن يأتي كلّ هذا مع زوجٍ ذي قلب صافٍ طيّبٍ يقدّر زوجته ويحميها. رأيت من خلال تجربتي المتواضعة أنّ السعادة تتغلغل في البيوت الصّغيرة التي بالكاد تجد خبزها الطيّب اللّذيذ. فالحرمان يجعلنا نقدّر قيمة الأشياء من حولنا. ستمتلك ميج ثروةً طائلةً بامتلاكها قلبًا عطوفًا محبًّا مثل بروك..».

غالت جو في ردّة فعلها تجاه الأمر، وراحت تراوغ وتنتهز أيّ فكرةٍ صالحةٍ كانت أم رديئة، كي تبعد فيها الوحش المستميت على الأقلّ في نظرها من حمل أختها وأخذها بعيدًا عنها. ثمّ دار حوارٌ غريب بين الأمّ وابنتها، فقالت جو:

t.me/yasmeenbook

«أمّاه، أفهم موقفك!»

ثمّ سكتت لبرهةٍ وطرحت سؤالها وقد بدأ الارتياح يساورها:

«كنت أخطّط لها أن تتزوّج من لوري، هذا الفتى المنعّم وأن تلوذ بحياة مترفة وكريمة. فما رأيك؟»

أجابتها الأم من فورها:

«لكنّه أصغر منها، كما تعلمين».

ولكنّ جو قاطعتها وقالت:

«ليس كما تعتقدين. إنّه يصغرها بقليل ثمّ إنّه طويل، وملامحه تعطيه عمرًا لا بأس به، ثمّ إنّ كلّ ذاك لا يهمّ مقارنةً بالأخلاق والمعاملة الحسنة. أضيفي إلى ذلك أنّه غنيٌّ وكريمٌ ويحبّنا كثيرًا. أرجو من اللّه ألّا يذهب رجائي سدى».

قالت مارمي:

«ومن قال لك أصلًا أن لوري قد يغرم بها أو يتمنّاها زوجةً له؟!. ما بك؟ كيف تحكمين على الأمور؟!، من الأفضل أن لا تقحمي نفسك في مثل هذه الأمور فهذا سيكلّف كثيرًا. ما زال العمر في أوّله على تلك التّوقّعات المسبقة. أولست أنت من كانت تنهانا عن العواطف المهترئة؟!!».

يبدو أن جو رضخت قليلًا وبدأت تتأقلم مع تلك الفكرة وقالت:

«لن أصرّح بأيّ مقترحاتٍ بعد اليوم. كلّ ما في الأمر أنّني أحاول ألّا أخسر ميج. ربّما درهم وقايةٍ خيرٌ من ألف علاج في المستقبل الذي أظنّه قريبًا جدًا. لو كان الأمر بيدي لأوقفت الزّمن عند هذا الحدّ الّذي لا نكبر فيه ونضطرّ لأن يفارق أحدنا الآخر. ولكنّ ذلك الحلم أقرب على إبليس من بلوغه الجنّة. سيأتي يومٌ وتزهر فيه البراعم، وتغدو القطيطات قططًا. يا للأسف يا للأسف!!».

جاء صوتٌ من الخارج وكانت ميج وقد صعدت لتنضمّ إليهما وبيدها رسالةً لوالدها انتهت للتوّ من كتابتها، وبكلّ براءةٍ راحت تطلب أن تشاركهما الحديث ولم تعلم أنّها كانت الحديث برمّته. قالت:

«ما بها البراعم والقطط؟»

قالت جو بذكاءٍ حذق لا يثير الشكّ أبدًا:

«أحد خطاباتي التّافهة. لا تأبهي للأمر لنذهب للفراش يا ميجي».

سلّمت ميج الرّسالة لوالدتها على أمل أن تنال الإعجاب، حيث قرأتها الأم وقالت:

«جميلةٌ وصحيحة تمامًا، أرجوك أضيفي أيضًا في نهايتها مع خالص محبتي لجون».

t.me/yasmeenbook

حدّقت ميج بأمّها بعينين بريئتين وسألتها:

«هل تسمّينه جون؟»

أجابت الأمّ بحماسٍ شديد وحدّقت بعيني ميج:

«لقد كان مثل الابن بالنسبة لنا، ونحن معجبون به جدًا».

أبدت ميج ردّة فعلٍ طيّبة للغاية وقالت:

«أنا سعيدة لنيله تلك المكانة في قلبيكما يا أمّي، فهو شابّ وحيدٌ ليس له أحد. عمت مساءً. لقد أضفى وجودك بيننا راحةً وسلواناً تعطّشنا لهما طيلة فترة غيابك عنّا».

ثمّ اختُتم الحوار بقبلةٍ حنونة طبعتها الأمّ على خدّي الفتاة قبل ذهابها للنوم، وقالت برضا يخالطه بعض الأسى والنّدم:

«إنّ الأيّام لكفيلةٌ بأن تبدّل هذه اللّا مبالاة إلى محبّةٍ جيّاشة».

الفصل الحادي والعشرون

لوري المؤذي وجو رسولة السلام

ضاقت الأرض بجو وأصبح السرّ ثقيلًا جدًّا على قلبها، وما أصعبه من شعورٍ أن يحيّرك كلّ شيء ويسلب عقلك، بينما يُطلب منك أن تظلّ عاقلًا طبيعيًّا. لاحظت ميج ذلك التغيير المفاجئ. لكنّها التزمت الصّمت، فقد تعلّمت من واقع خبرتها الطّويلة مع أختها أنّ أفضل الطّرق لجعلها تتكلّم ليست في الاستجواب ولا السّؤال!!

ظلّت جو هادئة وباردة كالثّلج، وطال صمتها، الأمر الّذي أشعل نار ميج ووضع في عقلها ألف تساؤلٍ وتساؤل، ممّا جعل جو تتمادى أكثر وأكثر في إساءة التّصرّف.

وساء الوضع أكثر حين زادت شدّة تحكّم جو بميج ما جعلها تختنق بسبب الاهتمام الزّائد، فكرّست وقتها لأمّها، والأمّ بدورها كرّست نفسها لرعاية بيث، وأعفيت جو من تلك المهمّة، وطلبت منها أن تسترخي وتمارس بعض الهوايات بعد أيّام التعب الخالية. فلم يبق أمام الفتاة

t.me/yasmeenbook

المثقلة بالهموم إلّا صديقها الحميم لوري، والذي أصبح ملاذها الآمن وبقدر ما أنِست لصحبته بقدر ما كانت خائفة أن يزلّ لسانها ويُفتضح أمر السّر المكتوم.

أحسّت جو بدايةً أنّ أمرًا كهذا لن يمرّ مرور الكرام على لوري، وسيظلّ يلحّ ويلحّ حتّى يعرف الرّواية كاملةً ممّا زاد من ضيقها وشتات نفسها. راح يراوغ ويناور ويستخدم كلّ أساليب الاستهزاء والرشوة، والسخرية والتهديد، والتوبيخ. تارّةً يدّعي أنّه نسي الأمر ثمّ يباغتها في السّؤال، وتارّةً يحاول أن يوقعها في الكلام وكأنّه يعلم علم اليقين. ومرّةً أخرى يحاول أن يرشوها بالوعود الكّاذبة حتّى وصل به الأمر أن يتوسّل إليها لتنطق الجوهرة ولكن عبثًا كانت كلّ محاولاته.

بقي على ذلك المنوال، وكانت دائرة الشكوك كلّها تحوم حول ميج ومربّيه السّيد بروك، فحلف أن يعرف الأمر بطريقته الخاصّة بكلّ ما أوتي من مكرٍ ودهاء.

على مدى بضعة أيّام، كانت ميج في مزاج سيّءٍ، وافترضت جو أسوأ السّيناريوهات وهو أنّ ميج وقعت في غرام بروك سريعًا. انشغلت العائلة في تلك الأثناء في التّحضيرات لاستقبال ربّ الأسرة بعد طول فراق.

أمّا ميج، فقد نسيت سلوك جو الأخير، وراح يشغلها شأنٌ آخر أطفأ تلك الإشراقة من وجهها، وصارت تخجل

من أيّ شيءٍ عابر، حتّى أعمالها المنزليّة كانت تنجزها دون أن تنبس بحرفٍ واحد، وإذا ما تنفّس أحدٌ في وجهها انفجرت فيه غاضبة، واحتارت جو في أمرها أكثر، وحاولت جاهدةً أن تعرف ما المسألة ولكن ميج صدّتها بعنف.

قالت جو لأمّها:

«يبدو أنّ ناقوس الخطر قد دقّ، ووقعت ميج في شباك الحبّ. كلّ تصرّفاتها توحي بذلك، من سرعة الغضب وفقدان الشهيّة، إلى السّهر والشرود والانزواء. والأهمّ من ذلك أنّني سمعتها تدندن أغنيته المفضّلة. ولأتأكّد أكثر ذكرت اسم جون أمامها فتفتّح وجهها وأشرق مثل نبات الخشخاش. فما سبيل النّجاة بالله عليك؟»

قالت الام:

«سننتظر فحسب. دعيها وشأنها الآن ولا تتطفّلي عليها أو تعانديها ريثما يأتي أبيكنّ، فيعيد لها صفاء نفسها وروحها».

بعد أيّامٍ معدودات، وصلت رسالة غامضة في ظرفٍ مقفلٍ فحسبتها جو لميج، لأنّ رسائلها تأتي دائمًا من لوري ولم تكن مختومةً قط، فهرعت إليها وسلّمتها إيّاها.

بعد برهةٍ قصيرة، دوت صرخةٌ من ميج فركضت أمّها وجو من فورهما وانصرفتا عمّا كان يشغلهما، ليجدا ميج

t.me/yasmeenbook

في حالة صعبةٍ وتغطّي وجهها بكفيها وتبكي بحرقة. صاحت الأمّ:

«طفلتي. لم أنت خائفة؟، ماذا حدث؟!!»

حاولت جو سحب الورقة من يديها لتعرف ماذا يجري فصاحت ميج بقلبٍ محطّمٍ قائلةً:

«هذا خطأٌ فاحش!، لم يكن هو من أرسلها. أوه، جو، كيف يمكنك أن تفعلي ذلك بي؟»

تحيّرت جو كثيرًا لمَ تتّهمها وبماذا؟ فصاحت:

«أنا! لم أفعل شيئًا!. ما الذي تتحدّثين عنه؟»

تطاير الشرر من عيني ميج النّاعمتين، وقذفت في وجهها رسالةً مطويّةً أخرجتها من جيبها وصاحت بها توبّخها:

«أنت من كتبها، بمساعدة لوري الوقح. يا لكما من شرّيرين فظّين كيف تجرّأت على فعل هذا بي؟»

حاولت الأمّ وجو قراءة محتوى الرّسالة الّتي أجّجت النّار في قلب ميج وارتعدت أوصال جو عندما سمعت ميج تتّهمها بأبشع التّهم، ولكنّها استمرّت في قراءة الرسالة ذات الخطّ السّيء.

«إلى أغلى الناس على قلبي مارجريت، لم أعد قادرًا على تحمّل ما أقاسيه من ألم الحبّ الّذي أحمله لك

في فؤادي. منذ أن أعطيتك قلبي وأنا أنتظر كلمةً واحدةً تقولينها لي فيهدأ قلبي المتيّم. أعدك، سأعمل جهدي كي أؤمّن لك أفضل مستوىً وأكرم منزلة. لن أخبر والداك الآن بمكنونات قلبي لأنّي على حسن ظنّي لا أظنّهما يمانعان. أرجوك أبق الأمر سرّيًا وأنا على أحرّ من الجمر. أنتظرك لترسلي لي بموافقتك على طلبي القرب منك مع لوري العزيز. سأجعلك أسعد من في الدّنيا، وستسعدينني أكثر... فتاتي الجميلة..».

يبدو أنّ معركةً حامية الوطيس ستدور بين جو ولوري، فلن تمرّ فعلته هذه مرور الكرام..

غلى الدّم في عروق جو، وركضت لتحضر لوري ويأخذ نصيبه ممّا تنوي فعله به كي تعيد الأمور إلى نصابها، وقالت:

«آه. الشّيطان الصّغير لقد هدّدني أنّه سيقتصّ منّي لتكتّمي على الأمر، وها هو ذا ينفّذ وعيده».

وفي هذه الأثناء اعترضتها أمّها، فأدركت أنّ في الأمر مكيدةً ما، ومنعتها من الذهاب قبل أن توضّح ما حدث وتؤكد نظافة كفّها، قالت:

«توقّفي يا جو، يجب أن تبرّئي نفسك أوّلًا، وجلّ ما أخشاه أنّك شاركته في ذلك المقلب فتاريخك حافل بالألاعيب».

t.me/yasmeenbook

جُنّ جنون جو وتوسّلت لأمّها بلهجة حارّة أن تصدّقها وصاحت:

«أوه يا أمّي... أقسم أنّ ليس لي علاقةً بالأمر. لم أكتب ولا أعرف أيّ شيء عن كلّ هذا. لو كنت أنا لكنت على الأقلّ كتبت بطريقةٍ أفضل من ذلك. كي أجعلها أكثر إقناعًا وتأثيرًا. بالله عليكما انظرا لتلك الورقة المقزّزة!!»

تعثّرت ميج عندما قارنت بين الخطابين:

«أظن أنه الأسلوب نفسه والخط أيضاً. لا أدري لا أدري».

قالت الأمّ بسرعة:

«هل أرسلت له أيّة خطابات؟»

كان الموقف سيتغيّر بالكامل لو أنّ ميج التزمت الصمت وشاورت أمّها في أمرها ولم تتكتّم عليه، ولكن تشاء الأقدار أن تسير بعكس ما يهوى البشر. قالت ميج وقد خبّأت وجهها لشدّة خجلها:

«نعم، حصل ذلك».

وما أن سمعت جو ذلك حتّى اندفعت للباب ثانيةً وصاحت:

«ذلك هو البلاء المبين!!، لن يهدأ لي بالٌ قبل أن أربّيه، وآتي به من رقبته ليشرح لنا كيف فعل ما فعل».

أمسكتها أمّها مرّةً أخرى خشية أن تتصرف بتسرّع وترتكب حماقة فتزيد الطّين بلّةً، قالت:

«اهدئي قليلًا واسكتي لأرى ماذا يمكنني أن أفعل. مارجريت. بالله عليك احكي لي تفاصيل ما حدث منذ البداية».

قالت ميج دون أن تجرؤ على النّظر إليهما:

«أتتني رسالته الأولى من لوري الّذي بدا لا يعرف أيّ شيءٍ عن فحواها. قلقت في البداية وأردت أن أعلمك ولكنّني آثرت ألّا أخبرك لأنّني أعرف مقدار معزّتك للسيّد بروك، فحفظت السرّ في قلبي وقلت إنّ الدّنيا لن تنقلب بسبب سرٍّ صغير. لكنّه عصف بي وبدّل أحوالي مثل بقيّة الفتيات في الروايات الغراميّة. اغفري لي يا أمّي. يا لسخافة موقفي الآن. كيف سأنظر لعينيه بعد هذا اليوم!»

سألتها أمّها:

«بم أجبته؟»

قلت له:

«ما زلت صغيرةً على مثل تلك الأمور، وأنّه ينبغي أن يتحدّث لوالدي. وشكرت حسن معاملته وطلبت منه أن نظلّ أصدقاء لفترة طويلة».

بدأ الجوّ يهدأ تدريجيًّا مع ابتسامةٍ عريضة أشرقت على وجه الأمّ، وصفّقت جو بيديها وضحكت قائلةً:

t.me/yasmeenbook

«يا للحكمة. أنت نموذجٌ حيٌّ للتعقّل تمامًا مثل كارولين بيرسي. قولي الآن، وبماذا أجابك هو بعد ذلك؟»

«كتب لي بطريقةٍ مختلفةٍ تمامًا لا تمتّ للأولى بأيّ صلةٍ يخبرني أنّه لم يرسل أيّ مكاتيب غراميّة. لقد شمّ رائحتك في تلك الرسالة اللّعينة وظنّ أنّك وراء الأمر».

قالت الأمّ:

«جو. ما الذي حدث تكلّمي، وسأعيد سؤالي عليك. هل لك أيّ علاقة بهذا الأمر؟»

تنهّدت ميج بأسى:

«لقد كان غاية في اللطف معنا وأنا الآن في غاية الحرج والنّدم».

لقد توضّح الأمر برمّته بعد أن ربطت جو بين الأمور. وتجوّلت في كلّ أنحاء الغرفة تردّد اسمه وتقول:

«هو من كتب الرسالتين ولم يعلم بروك عنهما أبدًا. كتبهما بنفسه وأرسلهما إليك انتقامًا منّي لتظنّي بي ظنّ السّوء وكلّ ذلك لأنّي لم أشاركه السّر».

تبدّد الغضب قليلًا وسكنت نفوسهنّ ثلاثتهنّ بعض الشّيء، وتغيّرت نبرة الحوار قليلاً..

قالت ميج وقد استندت إلى كتف أمّها وقد غزتها الحسرة:

«حذار يا جو أن تحتفظي بأسرار بعد اليوم. أعلمي أمّك بكلّ شيء كما أفعل أنا».

فقالت جو:

«فليكن اللّه في عونك. أخبرتني أمّي بكلّ شيء».

قالت الام:

«جو لا عليك سأهدّئها. اذهبي وأحضري لوري على الفور. سأضع حدًّا لكل تلك المهزلة فيكفي ما قد حدث إلى الآن».

ركضت جو بسرعة البرق، فقد حان دور لوري لينال العقاب المناسب، بينما انفردت الأمّ بميج علّها تأخذ منها الخبر اليقين:

«والآن يا ابنتي دعيني أسألك. هل تحبّين الفتى وهل بإمكانك أن تنتظريه حتّى يؤمّن مستقبله فيفتح لك منزلًا يليق بكما، أم أنّك ترغبين أن تظلّي عزباء حتّى إشعار آخر؟»

قالت ميج:

«دعيني أستيقظ من الصّدمة الأولى يا أمّي. أظنّ أن ليس لي شان بأمور العشّاق إلى الآن وربّما للأبد. حتّى هذه المهزلة الّتي حدثت الآن، أتمنّى أن ننساها جميعنا ولا تطلعي جون على الأمر، وأخبري لوري وجو أن يبتلعا لسانيهما، ولنجعل الأمر كلّه طيّ النسيان».

t.me/yasmeenbook

أكّدت الأمّ أنّها سوف تمحو الأمر كلّيًا، ولن تسمح لبروك أن يعرف به مطلقًا وواست ابنتها بعباراتٍ مختلفة. ولكن هيهات فالأمر قد طعن كرامتها وأحرجها أيّما حرج!!

بدأت المحاكمة!، وحضر المتّهم لوري مع جو وكانت شديدة الذّكاء عندما امتنعت عن إخباره عن سرّ استدعاء السيّدة مارش له.

لازالت ميج ثائرة، وما إن سمعت وقع أقدامه حتّى توارت في المكتب، وكان لوري ذكيًا كفايةً ليعرف من مجرد النّظر لوجه الأمّ أنّ أمره قد كُشف وتمّ القبض عليه، وأصرّت جو على البقاء معهما ولكنّ مارمي طلبت منها الذهاب. وعلا صوت لوري ومارمي وانخفض تدريجيًّا لأكثر من نصف ساعة ولم تعلم الفتاتان ماذا يحدث في الدّاخل. وكلّ ما حرصت عليه جو في تلك الأثناء حراسة المكان بكلّ ما أوتيت من قوّةٍ كي لا يلوذ المتّهم بالفرار.

نادت الأمّ الفتاتين أخيراً، وقد لبس المتّهم ثوب النّدم والخجل لقبح ما فعل، ما جعل صديقته المفضّلة تفكّر في الإشفاق عليه من فورها ومسامحته، بالرغم من أنّها عادة لا تغفر فعلة الخيانة أبدًا.

أمّا ميج فقد سامحته وقبلت اعتذاره المتواضع، وكان عزاؤها الوحيد وعده لها بكتم أمر المقلب عن بروك، حيث قال:

«حتّى آخر يومٍ في عمري سأحفظ السّر يا ميج. أرجوك سامحيني. أنا رهن إشارتك. سامحيني فحسب».

قالت ميج:

«سأحاول مسامحتك. لكنّ هذا لا يعني أن صورتك لم تهتزّ عندي. وما عدت أراك خلوقًا كالسّابق أبدًا».

أوقع لوري نفسه في موقفٍ فظيع محرجٍ لو عاش ألف مرّةٍ فلن ينسى مرارته. وفكّر بطرقٍ تجعل الشّابّة تسامحه فلم يوفّر كلمةً تجعل الصّخر يلين ويرضى عن الشّابّ البائس الذليل، فراح يصوغ النّص التّالي مع انحناءة ذليلة ويدين متضرّعتين:

«اغفري لي. يا ميج إن أردت خاصميني شهرًا ولكن كلّميني من بعده. أتمنّى أن يجعلني اللّه دودةً حقيرة تدوسينها بقدميك علّك تشفين غليلك، وينتقم مني شرّ انتقام... »

أوقفته ميج عند ذلك الحدّ وسامحته أخيرًا.. أمّا مارمي فعادت لها ابتسامتها لما سمعته من الفتى من أسلوبٍ سلسٍ ومراوغ، وبالطّبع علمت حسن نيته وندمه الحقيقيّ. ثمّ استدار نحو جو مستجدياً عطفها أيضًا. ولكن كان لها شأن آخر معه، فهو صديقها وملجؤها، وأحزنتها تلك التّوسلّات التي غرق بها ورقّ له قلبها. هذا من الداخل أمّا من الخارج فبقيت أمامه كجلمود صخرٍ لا يلين أبدًا ولا يرقّ، وبالكاد

t.me/yasmeenbook

ألقت عليه نظرةً أو نظرتين. وهذا ليس مستغربًا من جو القويّة الحادّة. عندما يئس منها اكتفى بالصّمت وانحنى للجميع مودّعًا، ثم لملم أذيال الانكسار ورحل.

يبدو أنّ جو لم تكن على قدرٍ كافٍ من الصبر لتحتمل إقصاء لوري عنها، فبمجرّد رحيله ومضيّ عدّة ساعات وصعود ميج ووالدتها إلى الطابق العلوي شعرت بالوحدة والتوق للفتى. كابرت وحاولت أن تتوارى خلف التجاهل، لكنّها لم تستطع، فتأبّطت كتابًا وتحجّجت أنّها تريد إعادته لتيدي وذهبت للمنزل الكبير.

سألت جو إحدى الخادمات اللاتي كن يهبطن من السّلالم:

«هل السيد لورانس موجود؟»

قالت الخادمة:

«نعم يا آنسة، لكنّني لا أعتقد أنّه يمكن رؤيته الآن».

قالت جو:

«لم لا؟، هل هو مريض؟»

فقالت الخادمة:

«لا، لا. ولكن حصلت مشادّةً بينه وبين حفيده السّيد لوري وانزعج كثيرًا ودخل في نوبة غضبٍ عارمة، ولست أنوي أن أحتكّ به الآن».

سألت جو ثانيةً:

«وأين السيد لوري؟»

أجابت:

«معتزلٌ في غرفته، ولا يردّ على أيّ أحد. حتّى العشاء لا أظنّ أنّ هناك من سيتناوله».

صعدت جو على السلالم وراحت تتمتم وتقول:

«سأذهب وأرى ما الأمر. أنا لست خائفةً من أيٍّ منهما».

طرقت جو الباب بنعومة ورقّة غير معتادة فجاءتها زمجرةٌ من خلف الباب فارتابت منها قليلًا:

«توقّفي عن ذلك، أو سأفتح الباب وأجعلك..».

لم تلق جو بالًا لتهديدات لوري وواصلت الطرق، ثمّ فتحت الباب وانسلّت إلى داخل الغرفة وبعرضٍ مسرحيٍّ مبالغ فيه انحنت وركعت وقالت له والندم يعتصرها:

«لقد كنت قاسيةً جدًّا معك وبالغت في جبروتي، أرجوك سامحني لن أذهب قبل أن آخذ الرضا».

ربّما كانت الوحيدة الّتي تعرف كيف تتحكّم بالفتى النبيل وتسلب عقله، لشدّة ما كان منبهرًا بها. قال:

«أيّتها الحمقاء، وهل كنت تظنّين غير ذلك؟، لقد سامحتك. هيّا انهضي وتماسكي».

قالت جو:

t.me/yasmeenbook

«حسنًا. أشكرك. هل يمكنني أن أعرف ما بك؟»

تذمّر لوري وقال:

«لقد فاض بي. لن أتحمّل أكثر من ذلك».

سألته:

«من السّبب؟».

وتحلّف الفتى الغاضب وهز بيده اليمنى وقال:

«لو كان غير جدّي لكنت لقنّته درسًا للممات».

قالت جو:

«ها أنا أمامك وغالبًا ما أعكّر عليك صفوك ولا يصدر منك شيء».

قال لوري:

«أنت فتاة. ثمّ إنّ أسلوبك رائع جدًّا. لن أسمح لأيّ شخص آخر أن يضايقني!»

قالت جو:

«لا أظنّ أنّ أحدهم قد يجرؤ عندما يرى ثورة غضبك الآن. ماذا هناك؟، لم عاملك جدّك بهذه الطّريقة؟!»

«فقط لأنّني لم أفصح عن السبب وراء طلب والدتك لي. لقد وعدت بألّا أقول، وبالطبع لن أنقض كلامي».

قالت جو:

«ألم تستطع التّملّص أو المراوغة؟»

أجاب:

«كلّا. أبدًا فجدّي يريد أن يعرف كلّ شيء وكلّ التّفاصيل. كنت سأقصّ عليه الجزء الخاصّ بفعلتي ونذالتي دون ذكر اسم مارجريت، ولكنّي خشيت أن يزلّ لساني وأبوح بكلّ شيء فأنقض عهدي معها، وهذا ما زاد غضبي وهربت خوفًا من أن أتسبّب بكارثةٍ أكبر بعد أن تحمّلت إهاناته وصرخاته».

قالت جو:

«هذا أمرٌ صعبٌ للغاية، وأحسّ بك وأعتقد أنّ جدّك نادمٌ أيضًا. لم لا نذهب فنستسمحه وأكون أنا صلة الخيرِ بينكما؟؟».

قال لوري:

«لن أذهب ولو قُطعت عنقي. لم تكن إلّا مزحةً صغيرةً وانظري كم كلّفتني!. هل عليّ أن أدفع كلّ هذا الثمن الباهظ؟؟، لقد اعتذرت لمن أخطأت في حقّهم بكلّ نبلٍ وكرم. لكنني لن أفعل هذا مع كلّ الناس».

قالت جو:

«ولكنّه لم يعلم شيئاً حول المشكلة».

أجاب لوري ممتعظاً:

t.me/yasmeenbook

«يجب أن يثق بي، وألّا يعاملني كما لو كنت طفلًا صغيراً. لا فائدة، يا جو، عليه أن يعلم أنّني قادرٌ على الاعتناء بنفسي، ولست دميّة يستطيع أيٌّ كان تحريكها كما يشاء».

تنهّدت جو:

«عزيزي لوري اهدأ وتمالك أعصابك. كفاك زمجرةً وغضبًا. وأخبرني كيف تنوي أن تنهي هذه المعضلة بينكما؟»

أجابها لوري:

«على جدّي أن يعتذر منّي. ويقدّر أنّني لا أستطيع أن أقدّم له أيّة مبرّرات عن البلبلة التي حدثت».

قالت له جو:

«ليباركك الرّب. لن يقدّم أيّ اعتذارات».

قال لوري:

«إذا سأعتكف في غرفتي حتّى يحصل هذا».

قالت جو:

«توقّف عن الدراما الآن يا تيدي وكن منطقيًّا ودع الأمر يمرّ بسلام، فبقاؤك هنا ليس له أيّ معنى. سأنزل أنا وأحاول إصلاح ما يمكنني إصلاحه».

قال لوري:

«ومن قال لك أنّي سأظلّ رهين الغرفة فترة طويلة، بل سأتملّص منه وأذهب في رحلةٍ ما، وعندما يفتقدني سيبحث عنّي ويجدني».

عارضته جو:

«ربّما عليّ قول ذلك. لا يجب أن تثير قلقه».

قال لها لوري:

«احتفظي بالنّصح والمواعظ لنفسك. سأذهب إلى واشنطن، وهناك أرى بروك وأرفّه عن نفسي قليلًا لعلّي أنسى ما مررت به من مصائب».

وما إن تخيّلت جو جمال الحياة في العاصمة ومدى المتع التي بها حتّى أقلعت عن نصحه قائلة:

«يا للعظمة. ليتك تأخذني معك».

فكرةٌ جهنّميةٌ جامحةٌ خطرت على بال لوري، وراح فورًا يعرضها على الفتاة:

«ما رأيك أن تأتي معي ونذهب فنفاجئ والدك وأنا أرى بروك. ستكون لفتةً طريفةً، ومن ناحية المصاريف فلديّ ما يكفي من المال. هيّا لنفعلها. وسنكتب رسالةً نطمئنهم أننّا على ما يرام، فلا يقلق أحدٌ علينا. ستكونين مسرورةً خاصّةً أنّك ستقابلين أباك».

عصفت الأفكار في رأس جو تباعًا، وراحت تنظر

t.me/yasmeenbook

من النّافذة فوقعت عيناها على منزلها السّعيد، فارتطمت أحلامها وأفكارها بالجدران عندما تخيّلت ما سوف تسبّبه تلك الفعلة الهوجاء من خضّة عنيفة لأهلها إن هي ذهبت معه. وحتّى وإن كان في السفر متع وملذّات، مثل كسر الروتين، والخروج عن المألوف، وزيارات المستشفيات العسكريّة والأماكن غير المعتادة، لكنّها بالطّبع لن توافق على الاقتراح ولو كان كلّ ما فيها يريده، وتحسّرت وقالت بصوتٍ حزين:

«كفّ عن إغرائي، فأنا ضعيفةٌ جدًّا أمام الهوس والجنون. لو كنت رجلًا لهربت وذهبت معك أينما تريد ولن أسأل عن شيء، ولكنّي فتاةٌ بائسةٌ عليها ملازمة المنزل والتزام الأدب والحشمة في كلّ تصرّفاتها».

كان لوري شديد الشغف لفعل أيّ شيءٍ يكسر الرّتابة ويثير الجدل، فقال لها:

«هذا بالضبط ما يقال عنه، كلّ ما هو ممنوع مرغوب».

وضعت جو إصبعيها في أذنيها وقالت:

«ابتلع لسانك. أنا خلقت للمنزل وهذا قدري. جئت لأنصحك لا لأتبع جنونك فتلقي بي في الهاوية».

قال الفتى الماكر بغرور:

«أنا أتكلّم مع جو وأعرف مدى جرأتها وعنفوانها. لو كانت ميج لكنت سكتّ ولم ألحّ في طلبي».

صاحت جو:

«التزم الأدب أيّها الفتى السّيّء. لم تمض ساعات على فعلتك السّابقة الشّائنة. لا تغوني فأقع في الرذائل مثلك. هل ستعدل عن السّفر إلى واشنطن إذا ما تحدّثت مع جدّك وجعلت قلبه يعطف ويحسن لك؟»

تمنّى لوري لو يحصل ذلك بالفعل، ولكنّ شعوره بالإهانة والتقريع من جدّه قد نغّص عليه عرض جو. قال:

«هه. لن تتمكّني من ذلك».

تمتمت جو بكلماتٍ تعبّر عن شخصيتها وصلابتها، وتركت لوري مطأطئ الرّأس يقلّب خريطةً كانت أمامه:

«إذا كنت قد نجحت في ترويض هذا الفتى الصّغير؛ هل سيصعب عليّ الجدّ العجوز؟»

طرقت جو باب غرفة الجدّ فقال:

«أدخل».

جاءها صوته خشنًا أكثر من أيّ مرّة سابقة، وبدأت تفكّر بحديثٍ تمهيديٍّ لعلّها تجد مدخلًا تباشر من خلاله قضيّتها، قالت:

«هذه أنا. جو. جئت أعيد الكتاب».

وتسلّلت إلى الغرفة بجرأة، وكان الجدّ يحاول جاهدًا كبح جماح غضبه ممّا سبّبه له صديقها لوري:

t.me/yasmeenbook

«أتريدين كتابًا آخر؟».

وكانت فكرة جيّدة بالنسبة لجو، وطرحت اسم مؤلّفٍ يستهويه العجوز فقالت:

«أحببت كتابات صموئيل جونسون كثيرًا. وكانت نصيحتك جدّاً رائعة بخصوص سام العجوز!، لقد أُعجبت كثيرًا بالجزء الأوّل وأريد منك إعارتي الجزء الثّاني لو سمحت».

أوحت له جو أنّها مهتمّة كثيرًا، فتعدّل مزاج الرجل العجوز قليلًا وناولها سلّمًا لتصل للرفوف العلوية وتتناول المجلّد الّذي طلبته منه، لكنّ العجوز الحذق أحسّ في داخله أنّ الموضوع أهمّ من ذلك الكتاب، وخصوصًا في هذا التّوقيت. وراح يسطّر الغرفة جيئةً وذهابًا والتفت إليها ليقول بينما كانت تعصر رأسها علّ فكرةً تخطر لها فتبدأ بها:

«ما الّذي تسبّب به لوري؟، أعلم أنّ هناك أمرًا شائنًا بالغ الاهميّة وقد تكتّم عليه. فلا تحاولي التستّر عليه، لقد حاولت جاهدًا عندما عاد للمنزل أن أستجوبه. ولكن عبثًا، ولمّا هدّدته حبس نفسه في غرفته».

تكلّمت جو على مضض وقالت له:

«ظنّك كان في محلّه فقد ارتكب خطأ ما، ولكنّنا

سامحناه، وتعاهدنا جميعًا أن ننسى الأمر، وألّا نفتح هذا الحديث مرّة أخرى مهما كان».

نظرت جو للجدّ من أعلى السّلالم تتفحّص ملامح وجهه التي كانت حادّة لا تُفسّر، ولو استطاعت الهرب ساعتها لما توانت عن ذلك، لكن لا مناص من المواجهة بجرأة وشجاعة، ثمّ جاءت كلماته لتعقّد الموقف أكثر:

«جو. أخبريني كلّ التّفاصيل فالظّنون أتعبتني!، وهذا لن ينفع. لن يحتمي نفسه بوعد منكنّ أيّتها الفتيات اللطيفات. إذا فعل أيّ شيء خاطئ، فعليه الاعتراف بذنبه قبل كلّ شيء وتلك أحسن الفضائل، ثمّ يستجدي العفو والعطف، ويأخذ عقابه الّذي يستحقّه».

قالت جو:

«في الواقع أمّي قامت بحلِّ الأمر كلّه. وتدخّلك يا سيدي سيعقّد الأمور فقد نهتنا أمّنا عن ذلك. أرجوك يا سيّدي الأمر مَرّ وانتهى، وما عاد يجدي نفعًا أن ننبشه مجدداً. لقد دفع لوري ثمن غلطته، ولو أنّ المذنبة الحقيقيّة هي أنا. ليس غايتنا حمايته هو، ولكنّ مشاعر شخصٍ آخر هي من ستتأذّى. دعنا نغيّر الموضوع ونتكلّم عن شيٍ آخر أكثر طرافة. المتجوّلون مثلًا!»

قال الجدّ:

t.me/yasmeenbook

«دعي المتجوّلين جانبًا. أريد كلمة واحدة تطمئنني أنّ الفتى المتهوّر لم يجرحكنّ أو يسبّب لكنّ الشّر وسأصفح عنه، وإلّا سأبرحه ضربًا بكلتا يدي. هيا انزلي يا ابنتي وأخبريني».

بدا التهديد مروّعًا لكنّه لم يقلق جو، لأنّها تعلم أنّ الرجل العجوز الغاضب لن يرفع إصبعًا بوجه حفيده، مهما زمجر أو توعّد. نزلت جو إليه وجعلت تقصّ عليه رواية سطحيّة قدر استطاعتها بدون أن تزعج ميج أو تزيّف الحقيقة. وكان ذلك أمرًا يسيرًا على ذكاء وفطنة الكاتبة الموهوبة..

فرك الجدّ شعره وتنفّس الصعداء وكأنّ جبلًا انزاح عن صدره وقال:

«همم، حسنًا. إن كان مقصد الفتى أن يلتزم بوعده لمارمي فلا بأس. سوف أسامحه، وعلى العكس فشيءٌ جميل أن يحفظ العهد. آه لعناده وصلابة رأسه».

رقّ قلب جو على لوري المسكين الذي لم ينفكّ يقع في المشاكل والمآزق دون أن يحسّ ويدري، وراحت تصوغ الكلمات الحسنة علّها تستعطف الجدّ عليه أكثر، حيث قالت:

«صدّقني يا سيّدي إن عنادي يفوق عناده، وخشونتي ليس لها مثيل، أنا لا أستكين للقوّة أبدًا. ولكن باستطاعتك أن تملك قلبي وتأخذ منّي كلّ شيء بكلمة واحدة حسنة».

أجابها الجدّ بحدّة:

«هيه جو. هل تعتقدين أنّني لست لطيفًا معه؟»

أجابت جو بلطف:

«كلّا يا سيّدي!، لم يخطر لي هذا أبداً، بل على العكس أنت تحبّه وتعطف عليه كثيرًا، ولكنك تبالغ فتعقّد الأمور عليك وعليه أكثر. ألا تعتقد أن الأمر كذلك؟»

قالت جو في نفسها رغم الموقف المهيب والخوف الّذي اعتراها من إمكانيّة التّصدّي لذلك العجوز:

«إنّها فرصتي. سأحاول معه مهمّا كلّف الأمر فداءً للوري المسكين».

يبدو أنّ العجوز سيحاورها مثل امرأةٍ ناضجة، فما كان منه إلّا أن خلع النظارات وقال:

«نعم يا فتاة. أنا أحبّه كثيرًا وأعترف أنّي أضيّق عليه أحيانًا، ولكنّه يستفزّني فلا أستطيع احتماله. ولا أعرف كيف ستُحلّ الأمور بيننا».

فكّرت جو كيف تخيف العجوز وتحذّره من أنّ مصيبةً قد تحدث فقالت:

«سأقولها لك. سيهرب!، وأنا آسفة على ذلك. أعتقد أنّ صبره قد نفد».

تغيّر وجه السيّد لورانس المتورّد فجأة، وجلس يحدّق

t.me/yasmeenbook

بوجوم في صورة رجلٍ وسيمٍ معلّقة على طاولته. كانت تلك صورة والد لوري الذي هرب في شبابه، وتزوج بخلاف رغبة وإرادة العجوز المستبدّ. ويبدو أنّ شريط الذّكريات قد مشى أمام عينيه ممّا جعل الفتاة تندم وتتمنّى لو أنّها خرست.

أوحت له أنّ الأمر مجرد مزحة. ثمّ أتت نكتةٌ طريفةٌ من جو استحضرتها على الفور لتلطّف الجو وتبدّل حالة البؤس الّتي اعتلت وجه الجدّ الحزين فقالت:

«لو كنت أنا لهربت، وخاصّة بعد أن قُصّ شعري هكذا فأصبحت كالذّكور المشاكسين. فإذا ما افتقدت الغلامين جو ولوري فابحث عنهما بين السّفن المتّجهة نحو الهند».

ولكنّها عادت تقول:

«سيّدي بالتأكيد إنّها مجرد فكرةً تراوده، وعلينا نحن أن ندفنها في أرضها... لن يفعل لوري ذلك طالما أنّه مرتاح ولا تضيّق حضرتك عليه الخناق إذا ما قصّر في دروسه أو أساء بعض التّصرفات».

توتّر الجدّ قليلًا وأمسكها من خدّيها على سبيل الدعابة وقال:

«كنت أحسبك أكثر تهذيبًا واحترامًا!، ألا تراعين كبر سنّي؟. كيف تتصرّفين هكذا وتتفوّهين بتلك الحماقات.

اذهبي وأحضريه لنتشارك العشاء ثلاثتنا، ولكن قولي له أن يغلق الموضوع فلا أريد همًّا أو تكديرًا، يكفيني ما ينتابني من الفتيان والفتيات على السواء».

ابتسمت جو لأنّ خطّتها في طريقتها للنجاح، وقالت:

«لن يأتي يا سيدي. إنّه مستاءٌ حقًّا، فلقد طعنته بكرامته وآذيته أيّما أذى».

كانت جو تحاول بكلّ ما تمكّنت من أساليب المكر أن تستعطف الرجل وتفجّر أحاسيس الحنوّ والشفقة في قلبه، لكنّها كانت تفشل قليلًا في الأمور العاطفية.

مشى الجدّ مع الفتاة وسايرها وقال:

«أعتذر حقًّا!، وهل أشكر اللّٰه أنّه ما يزال يحترمني ولم يضربني!!. ماذا عليّ أن أفعل الآن مع هذا الفتى؟»

قالت جو:

«إنّ اعتذاراً رسميّاً من حضرة جنابكم سوف يجعل الفتى يعرف مدى سخافته. لو كنت مكانك لفعلت هذا، وأعتقد أنّ لوري لن يرضى بغيره. مكتوبٌ واحدٌ منك ويقلع عن أفكاره المجنونة وينسى فكرة واشنطن من جذورها. إنّه شديد المرح واللّطافة وهذا سينسّيه الهمّ والغمّ. سأسلّمه الخطاب أنا وأعلّمه الطّاعة والمسؤوليّة».

خلع النظّارات ثانيةً ونظر إليها بحدّة وقال:

t.me/yasmeenbook

«لم يكن ينقصنا إلّا أن نُدار بواسطة الفتيات، آه منك يا أخت بيث. كم يسعدني أن أفعل ما يجلب لقلبيكما السرور. أحضري الورقة وخلّصيني من هذه التّرهات، علّ النّهار يمضي على خير أيّتها الماكرة القويّة».

عكف العجوز يكتب الرّسالة حقًّا، وقبّلته جو على جبهته قبلة احترامٍ وتقدير، فقد احتوت الرّسالة على اعتذارٍ بأسلوب جميل ونبيل، كما لو كان بين رجلين ناضجين، وبالطّبع تخلّلتها بعض عبارات التّقريع والوعظ.

وما إن أصبحت الرسالة جاهزة حتّى حملتها جو، ووضعتها تحت باب غرفة تيدي، وحثّته على التزام الأدب، ووجهت له بعض النّصح، لكنّه لم يفتح فورًا فغادرت ونزلت السّلالم بخيبة أمل. لتفاجأ بالباب يفتح وينزل أمامها لوري ويلتقيا في الأسفل. ضحك وقال لها ممازحًا:

«ما أكرمك وما أجمل عطفك على صديقك يا جو. قولي ماذا فعل معك جدّي؟، هل صبّ وابل غضبه عليك؟»

قالت:

«على العكس لم يكن رقيقًا في حياته مثلما كان اليوم».

قال لوري:

«آه. لقد ضاقت الدنيا بي. وشعرت أنّني غير مرغوب بي، وأنّني سأنزلق لا محالة في جحيم أخطائي».

قالت له:

«تيدي، يا بني. دع عنك هذه الأفكار واقلب صفحةً جديدة وابدأ من الصّفر يا عزيزي».

قال لوري بيأس:

«كلّما قلبت صفحةً جديدة سوّدتها أكثر بأفعالي وجنوني. لم تنتهِ المحاولات، ودائمًا أبدأ بداية جديدة».

خرجت جو من الباب متوجّهة لمنزلها وقالت:

«يبدو أنّك جائع. لن تعي وتعلم ما تقول ما دام بطنك خاويًا. هيّا للعشاء. آهٍ من الرجال الأطفال الذين لا يريدون أن يكبروا!»

أجابها لوري مقتبسًا عبارة آيمي:

«هذا تشهيرٌ وإسفاف بنا نحن الرجال».

ثمّ ذهب لوري ليشارك جدّه العشاء ومضى اليوم على خيرٍ وسلام، وتحدّث الجد والحفيد بلطف مع بعضهما بعضاً، وأغدق الجدّ بحنانه على الفتى طوال ما تبقّى من اليوم.

زالت الغمّة من منزل العائلتين، وتناسى الجميع ما حدث، عدا ميج التي حدث بينها وبين بروك فجوة غريبة وجميلة زادتها حبًّا له وتعلّقًا به، وأصبح هو حلمها الرئيسيّ في الحياة. لم تكتب له مرّةً ثانية ولكنّها راحت

t.me/yasmeenbook

تخطّ اسمه في ورقة وتحتفظ بها جانبًا، إلى أن اكتشفت جو أمرها عندما كانت تفتّش في مكتبتها على طابعٍ بريديّ، فألقت به في الموقدة وزاد غضبها لأنّ فعلة لوريٍ تلك قد قدّمت ميج لبروك على طبقٍ من فضّة.

الفصل الثّاني والعشرون

السّعادةُ تشرق من جديد

مرّت بعد ذلك أسابيع هادئة مثل شروق الشّمس بعد عواصف جامحة. تعافى الجميع ممّا لحق بهم في الأيّام السابقة، ومارست كلّ واحدة في العائلة طقوس السّعادة على طريقتها، وخاصّةً بعد خطاب السيد مارش الذي قال فيه إنّه سيحضر في وقتٍ باكرٍ من السّنة الجديدة، ليبثّ فيهنّ النشاط والحيوية. كانت صحّة بيث تتحسّن يوماً بعد يوم، وقد عادت لدراستها، كانت تستلقي اليوم كلّه على الأريكة برفقة قططها المحبوبة أو تحيك الملابس لدميتها التي أهملتها كثيرًا.

طرأت التغييرات على الفتيات الثلاث، وكانت واضحةً جليّةً في تصرّفاتهنّ. فما عادت ميج تأبه كثيرًا لمظهرها، وراحت تُعدّ ألذّ المأكولات لحبيبة قلبها بيث، وكان الاهتمام بهندامها أو خشونة يديها آخر ما يمكن أن تفكّر به. أمّا جو فقد استلمتِ مهمّة التّرويح عن بيث وخاصّةً

t.me/yasmeenbook

أنّ قدميها ما زالتا ضعيفتين. فكانت تحملها بقلبها قبل يديها القويّتين وتجول بها في الأرجاء. كما عادت آيمي إلى المنزل، ونفّذت ما تعهّدت به عندما لبست الخاتم في إصبعها، فكان بمثابة مشعل النور الذي يذكّرها دائمًا كيف تكون معطاءة، ونتيجة لذلك تنازلت عن كلّ ممتلكاتها للعائلة الكريمة.

وانشغل كلّ من في المنزل بالاستعداد لعيد الميلاد: راحت جو تزعج الجميع وتقترح احتفالاتٍ غريبة ومستحيلة التّنفيذ، وذلك احتفاءً بهذا العيد المجيد غير العاديّ. بينما بشّرت أيّامٌ عدّةٌ من الطقس اللطيف بعيد ميلاد سعيد. تكلّل المنزل بجوٍّ من الغموض والإثارة ليس غريبًا على تلك العائلة.

حذا لوري حذو جو في التّخطيط لعيد الميلاد، فتفجّرت لديه الأفكار المجنونة مثل: استخدام الألعاب الناريّة أو أقواس النّصر غير المناسبة أصلًا لمثل هذه الأعياد. صدّ جميع من في المنزل أفكار جو ولوري بعد العديد من المناوشات والمناورات، فباءت جهودهما بالفشل، وأحبطت محاولتهما، فأصابهما بعض من الحزن ثم عاد لهما إشراقهما من جديد.

تنبّأت هانا أنّ ذلك العيد سيكون رائعًا. بالطبع سيكون كذلك حيث أنّ الجميع يريدونه أن يكون كذلك. أهمّ ما في

الأمر عودة السيّد مارش المُرتقبة، وقد أدّى ذلك لتحسّنٍ غير مسبوقٍ بصحّة بيث. قامت في الصّباح وارتدت هديّة أمّها: المعطف القرمزيّ الأنيق، وجلست إلى النّافذة تنتظر مجيء لوري وجو. يبدو أنّ هناك هديّةً منتظرة. بذل كلّ من جو ولوري قصارى جهدهما لتعجب الفتاة. وجهّزا لها أجواءً تبعث على الراحة والغبطة.

كانت الهدية عبارة عن تمثال جليديّ لعذراء جميلة تحمل سلّة من الفاكهة والزهور في إحدى اليدين، ونوتةً موسيقيّةً رائعةً في اليد الأخرى، وعلى كتفيها وشاحٌ جميلٌ، وقد علّقا في فمها ورقةً مكتوب عليها:

من عروس الثّلج (جانغفراو) إلى بيث

فليباركك الرب يا بيث العزيزة

أنت ملكة السلام والسكينة

أرجو من اللّه أن يبعد عنك الضّغينة

ويجعلك دائمًا متفائلة وسعيدة

هذه هديّتك المباركة المجيدة

هذه فاكهة لنحلتنا المجتهدة

ووشاح تغطّي به الأقدام المُجهَدة

أزهار تأنسين بها وتشمّينها

t.me/yasmeenbook

ونوتة موسيقيّة تعزفيها

هذه قماشة لدميتك جوانا
صنعناها أفضل صناعة
بالجهد والكدّ والعرق
لتكون بضاعتنا أفضل بضاعة

....

لم ننس قطّتك الحسناء من هدايانا
وجلبنا لها شريطًا أحمر مزركشًا
وهذه المثلّجات من أفضل حلويّاتنا
لذيذة شهيّة باردة من طيّباتنا
صنعتها حبيبتنا وكبيرتنا ميجتنا

....

منّي أنا ولوري ومن أختك جو
جاءا بحبّهما وشوقهما الملهوف
وصنعاني وشكّلاني من الثّلج المغروف
فاقبليني هديّتك وأسدي لهما معروف
..............ترر رم ترر رم تررررر رم ترررررررم
ترررررم........

كم ضحكت بيث عندما رأت ذلك، وكيف شرع لوري يركض بحماسٍ لأعلى ولأسفل لينقل الهدايا، بينما وقفت جو تلقي الكلام المنمّق المضحك وهي تقدمها لها.

انتهى العرض وحملت جو أختها إلى الداخل لتتابع الدّرس بعد ما أغرقاها به من الإثارةٍ والمتعة، أطعمتها جو بعض حبّات العنب اللذيذة التي أرسلتها لها حسناء الثّلج جانغفراو. تنهّدت بيث وقالت:

«كم أنا سعيدة، ولو كان والدي هنا لما كانت ستسقط من عيني دمعةٌ واحدةٌ بعد اليوم، ولملأت السّعادة قلبي مئات الأضعاف».

قالت جو بعد أن وضعت كتابها المفضّل في جيبها:

«ليت ذلك يحدث بالفعل».

ردّدت آيمي وهي تتأمّل صورة العذراء والطّفل ذات الإطار الجميل التي أهدتها إيّاها والدتها.

«وأنا أيضًا أحلم بمجيء بابا».

صاحت ميج مثلهنّ وقالت وهي تتحسّس انثناءات الثّوب الحريريّ، والذي كان لوري قد أهداها إيّاه وأصرّ عليها بقبوله:

«بالطبع فأنا مثلكنّ أتمنّى ذلك من كلّ قلبي».

ثمّ أتت أمّهن لتختم تلك الأمنيات الحارّة بأمنيتها،

t.me/yasmeenbook

فقالت بعد أن تنقّلت عيناها بين رسالة زوجها ووجه بيث الباسم، وهي تلمس بيدها دبوس الزينة (هدية بناتها) المصنوع من الشعر الأبيض والكستنائيّ والذهبيّ والبنّي، وقد ثبّتته لها الفتيات فوق فستانها على منطقة الصّدر، حيث سألت: «وهل يمكن أن تكون لي غير تلك الأمنية؟».

بين الحين والآخر في هذا الزّمن السّريع الصّاخب تحدث الأشياء بطريقة القصص الخياليّة المبهجة. وهذا حرفيًّا ما حدث مع آل مارش؛ ويا لها من سعادة!

كانت الجنّة بعيونهن هي أنّ ينضم أبوهنّ إليهنّ قريبًا، وبعد حوالي نصف ساعة فتح لوري باب الردهة وأومأ برأسه بحذرٍ تامّ، ولو رأيت وجهه لتعجّبت من منظره، كان وكأنّه عاد للتوّ من حفلةٍ هنديّةٍ صاخبة. لهث لوري وصرخ بصوتٍ يرقص بهجةً وحماساً ودهشةً حتّى وقف الجميع:

«لدينا هديّة عيد ميلادٍ إضافيّة لعائلة آل مارش!»

وقبل أن يكمل لوري كلامه بالكامل، ابتعد قليلًا ليفسح المجال ويظهر مكانه رجلٌ طويل القامة، متلحّفًا بغطاء من رأسه حتّى أخمص قدميه، متكئًا على ذراع رجلٍ طويل آخر، حاول أن يقول شيئًا ولكنه لم يستطع...

تخبّطت الأمّ وبناتها بعضهنّ ببعض، حاولن جميعهنّ الوصول للباب ليتأكّدن ممّا تحدّثت به قلوبهنّ. إنّه الأب!، جدار المنزل والسند القويّ... نعم!، ها هو الآن بينهنّ. عاد

قبل الموعد المحدّد، وفجّر في المنزل غبطةً وسعادةً أعتقد أنّها لا تأتي في العمر كثيرًا.

كان الأب في الوسط يكاد لا يرى من بين أحضان البنات الأربع والأمّ. بالكاد تماسكت جو كي لا تفقد وعيها من فرط سعادتها ومفاجأتها برؤية حبيب قلبها، وتشبّث بها لوري كي لا تقع على الأرض، أمّا ميج فقد غمرت الوالد بالقبلات التي لا تعدّ ولا تحصى إلى أن باغتتها قبلة من بروك عن طريق الخطأ، قد كلّفته سيلًا من الاعتذارات. حسنٌ في ذلك الموقف أن تحدث أشياءُ كثيرة، لا بأس.

تعثّرت آيمي الرزينة من على الكرسيّ ولم تقوَ على النّهوض، فاكتفت بالتّشبّث بقدمي الوالد بطريقة مؤثّرة للغاية. كانت الأمّ في تلك الأثناء أوّل من استعادت اتّزانها، ورفعت يدها محذّرة:

«خفّفن من روعكن. أرجوكنّ بهدوء!، تذكّرن أن بيث لا تزال متعبة».

لكن كان قد فات أوان التّحذير، فُتح الباب وظهرت بيث بمعطفها الأحمر وكأنّ اللّه أعطى المريضة قدمين جديدتين قويّتين، ركضت بهما تجاه الأبَ وارتمت في أحضانه في موقفٍ جعل ثورة العواطف والدموع تنبعث من جديد، فتعالى البكاء والضحك والفرح والدهشة.

t.me/yasmeenbook

سيكون ذكر أيّ تفصيل آخر غير ذي معنى، لذا سنكتفي بالقول إنّ تلك القلوب الممتلئة بالشوق قد فاضت وغسّلت مرارة الماضي، ولم يبق إلّا الحاضر الجميل الرائع.

كان العنصر الأخير من عناصر المنزل هو هانا، والتي اختبأت خلف الباب وانسكبت من عينيها دموعٌ سخيّةٌ سقطت فوق الدّيك الرّوميّ، والذي كانت تحمله بيديها عندما أسرعت من المطبخ. ثمّ هدأ الجميع وانخفضت الأصوات وبدأت السيدة مارش تشكر السيّد بروك على رعايته المخلصة لزوجها، وتذكّر السيّد بروك فجأةً أنّ السيد مارش بحاجة إلى الراحة، فاصطحب لوري وهمّ بالانصراف إلى المنزل الآخر.

تجمّعت البنات وأمّهنّ حول الأب العزيز، ورحن ينصتن لكلّ حرفٍ يقصّه عليهنّ بعد أن جلس على كرسيّ كبيرٍ مريح. في البداية أخبرهنّ كيف كان يتوق لمفاجئتهنّ، وكيف ساهم الطّقس في التحضير لهذه المفاجأة، فسمح له طبيبه بالاستفادة من الفرصة وعلى الفور. أخبرهنّ أيضًا عن بروك الودود وإخلاصه الذي جعله يتربّع على عرش قلبه، حتّى صار يهتمّ بالشابّ أيّما اهتمام.

عندما وصل السيد مارش لسيرة بروك تمهّل ليتفحّص عيني ميج، ولكنّها أبعدتهما وراحت تحرّك النّار في

الموقدة، فنظر لزوجته علّه يستشفّ منها أيّ معلومات، ولكنها رفعت حاجبيها بالرفض وسألته:

«هل ترغب في تناول شيءٍ ما يا عزيزي؟»

فهمت جو الحكاية بأكملها، لذا بقيت متكتّمة على الأمر مقطبة حاجبيها، وذهبت لتحضر بعض النّبيذ وشريحةً من لحم البقر، وتمتمت تقول لنفسها وهي تغلق الباب:

«ما أبغضهم، أولئك المحترمين ذوي العيون البنيّة».

لم يكن عشاء عيد الميلاد لذيذًا وفاخرًا قط مثلما كان في تلك الليلة، وعلى المائدة تصدّر الدّيك الروميّ المحمّر الشّهيّ، أمّا الحلوى فقد كان لها حكاية أخرى بطعمها وشكلها الخرافيّ. أختصرها لكم بأنّ آيمي غطست فيها كذبابة فوق العسل.

سارت الأمور بشكلٍ جميل، الأمر الذي أسعد ملكة الطاولة وصاحبة الفضل لتلك المائدة الشّهيّة هانا، حيث قالت:

«كم كان ذلك مربكًا يا سيّدة، مع مفاجآت اليوم وحفلة العيد وكلّ الصّخب هذا!، حمدًا للّه أنّني لم أشوِ حلوى الكراميل أو أحشُ الديك الروميّ بالزبيب والسّكر!»

كان على المائدة السيّد لورانس وحفيده لوري اللذين كانا مدعوّين للعشاء، بالإضافة للسيّد بروك الذي تجهّمت

t.me/yasmeenbook

جو في وجهه كثيرًا. وعلى رأس المائدة جلس الأب وابنته بيث جنبًا إلى جنب على كرسيّين مريحين. تناولا قطعة صغيرة من الدجاج وبعض الفاكهة. شرب الجميع النّبيذ وتبادلوا القصص وغنّوا الأغنيات القديمة والجديدة واستمتعوا بأمسيتهم كثيرًا.

وبعد العشاء، اقترح الجدّ أن تذهب الفتيات في نزهةٍ بعربته مع لوري وبروك، لكنّهن مانعن كيلا يقضين دقيقةً بعيدًا عن أبيهنّ. فانصرف الضيوف وتركوا العائلة تنعم ببعضها بعضاً. وقد تحلّقوا جميعاً حول النّار، وبزغت خيوط الشّفق الأولى، تكلّم الجميع عن كلّ شيء وفي أيّ شيء ولم تسكت واحدةً منهن، ثمّ قالت جو بصوتٍ علا على أصواتهنّ:

«هل تتذكّرن؟، منذ عامٍ فقط كنا نئنّ في عيد الميلاد الكئيب الذي عشناه».

ابتسمت ميج وحدّقت في النار، وهنّأت نفسها على معاملتها للسيّد بروك باحترام وأدب وقالت:

«بل كان عاماً ممتعاً على العموم!»

حدّقت آيمي في الخاتم اللامع في إصبعها وقالت:

«أعتقد أنّه كان مروّعًا».

جلست بيث على ركبتي والدها وهمست:

«الحمد للّٰه مرّ على خير. أجمل ما فيه عودتك يا أبي».

قال السّيّد مارش وهو ينظر برضىً وفخر للوجوه الأربعة الشابّة المتجمّعة حوله:

«يا معشر الحجّاج الصّغيرات عليكنّ مواصلة رحلاتكن، فما زال أمامكنّ طريقٌ شاقّ. ولكنّكنّ أبديتنّ شجاعةً وإقدامًا وافرين وأعتقد أنّ الأعباء في طريقها للانزياح».

سألته جو:

«كيف عرفت يا أبي عن أمر الحجّ هذا؟، هل أخبرتك أمّي عن الأيّام الخوالي؟»

قال الأب:

«يكفيني حدسي لأشعر بكنّ وبما تعانين. ولو أنّني سمعت بعض الأخبار من هنا وهناك».

صاحت ميج:

«أخبرنا عن هذه المعلومات المتراشقة».

وقال وهو يتحسّس يديها الخشنتين المتقرّحتين من آثار الندوب وحروق الطهو:

«هذه أوّل ملاحظة. لا أنسى كم كانتا ناعمتين وجميلتين، وكيف كانت جلّ اهتماماتك أن تعتني بهما وبمظهرهما. إنّهما جميلتان دائمًا، واليوم أقدّرهما أكثر،

t.me/yasmeenbook

فهنيئًا لك بهذه الأيدي العاملة. إنّه نصرٌ عظيم وقد أثبت أنّك ستكونين أنجح ربّات المنزل وأكثرهنّ حكمة. لطالما كرهت النّساء السّخيفات الأنانيّات اللواتي آخر ما قد يفكرن به مراعاة الآخرين وأداء الواجبات. بوركت تضحياتك يا ابنتي. وليعوّضك اللّه الخير دائمًا. أرجو أن تظلّي بقربنا لأطول فترةٍ في منزلنا الدّافئ، ولا يسرقك منّا فارس الأحلام المنتظر!»

وضغط الوالد على يدي ميج وابتسم لها، ولو سأل أحدٌ ميج ما هي أعظم هديّةٍ تلقّيتها حتّى الآن لأجابت: إنّها شهادة والدها هذه.

همست بيث في أذن والدها سائلة:

«وماذا عن جو؟، أرجوك يا والدي أنصفها وأعطها حقّها، فقد راعتني مثل الأمّ الحنون في غيابك».

نظر الوالد لجو وتمعنّ كثيرًا فيها كيف أصبحت شابّة طويلة وابتسمت الفتاة له بالمقابل وقال:

«أنا لم أعد أرى جو غلامي الصّغير الذي تركته منذ عام. أنا اليوم أرى فيها الشابّة الّتي تعرف كيف تلبس وتتحدّث وتمشي وإن كان يقلقني شحوب وجهها ونحافته. يبدو أنّني سأفتقد ابنتي القديمة. ولكن إذا كان اللّه أبدلني بها امرأةً قويّة ومعينة فسأكون في غاية الرّضا. ألا ترين معي كيف أقلعت عن التّصفير والكلام العاميّ؟!، هذا كلّه في

كفّة واعتناؤها بأختها المريضة في كفّةٍ أخرى، يبدو أنّ بيث حظيت بوالدتين فهنيئًا لها. وبالمناسبة، إنّ كلّ ما في واشنطن من أشياء جميلة أو لذيذة لا تستحقّ أن أدفع لها الخمسة والعشرين دولاراً الغالية على قلبي التي أرسلتها فتاتي الطيّبة الحنونة».

لو رأى أحدٌ في العالم كيف احمرّ وجه جو وكيف أزهرت الشفتان والخدّان وانتعشا، لحسب أنّ في كلام الوالد رذاذ سحريّ خارق يفعل ما لا تفعله أيادي ملايين الأطبّاء.

قالت آيمي التي كانت تتوق ليحين دورها فتسمع من الأب مدحه إيّاها وتغنّيه بفضائلها:

«والآن بيث!!»

قال الأب وهو ينظر إلى وجه بيث بحنان وقد التصق الخدّان بعضهما ببعضٍ:

«لو تكلّمت لما انتهيت حتّى الصباح، لكنّني سأختصر قدر المستطاع كي لا تلوذ بالفرار منّي. حمدًا للّه أنّ خجلها قد خفّ. المهمّ أنّ اللّه أعادك لي سالمة يا بيث، وأرجو أن يوفّقني في أن أحافظ عليك وأحميك».

وبعد دقيقة من الصّمت قال وهو يحدّق بآيمي وخاصّةً بشعرها اللامع الذّهبي، وكانت جالسةً عند قدميه تلعب لعبة الكروكريت:

t.me/yasmeenbook

«لقد لاحظت أيضًا أنّ آيمي تؤدّي الكثير من الواجبات المنزليّة، وخاصّةً أثناء الطعام وأصبحت تُعنى بالآخرين، واستنتجتُ أنّها تفكر في الآخرين أكثر من نفسها، حتّى إنّها أقلعت عن الشكوى تمامًا حسبما رأيت، وأنا فخورٌ بذلك. وسأكون فخورًا أكثر عندما أرى ابنتي الموهوبة والمحبوبة تجعل الحياة جميلة لها وللآخرين. عندما رأيت كيف لم تتغنَّ أبدًا بخاتمها الثّمين في إصبعها عرفت أنّ مسلكها وأخلاقها قد تبدّلت تمامًا. وبقدرة اللّه وعزيمتها انغرست أسمى الفضائل في النّفس الصّغيرة بالطريقة نفسها التي تشكّل فيها التماثيل الطينيّة بيديها مثلما تحبّ وتهوى».

ما إن سمعت ذلك آيمي حتّى راحت تقصّ على والدها حكاية الخاتم وتشكره على الإطراء الرّائع، ثمّ اندفعت جو تسأل بيث:

«فيم كنت تفكّرين يا بيث؟»

«كنت أقرأ في كتاب النّصائح الدّينيّة (تقدّم الحجّاج)، وكيف وصل كريستيان وهوبفول بعد متاعب شتّى إلى مرج أخضر مبهج، حيث يزهر الزنبق طوال العام، وعاشا بسعادةٍ غامرةٍ كما نفعل الآن، قبل أن يتابعا رحلتهما إلى غايتهما».

قالت بيث ذلك ثمّ انسلّت من حضن أبيها وخطت خطوات نحو البيانو قائلةً:

«لقد حان وقت الغناء. المكان الذّي أجد نفسي فيه

دائمًا. سأحاول أن أغنّي أغنية ابن الراعي. لقد وضعت اللحن من أجل والدي لأنّه يحبّ كلمات الأغنية».

جلست إلى البيانو الغالي على قلبها، ولمست المفاتيح بلطف، وبصوتٍ أحلى من الكروان لم يسمعوه منها من قبل، غنّت بيت:

من يخفض جناحه للنّاس يعلُ
المتواضع دائمًا في حياته يسمو
يحصّنه اللّه من أي ضررٍ
ويمنحه كلّ ما يرجو

أنا راضٍ بما لدي
قليلًا كان أم كثيرًا علي
ربّي نفسي للقناعة تتوق
لأنّك تهيّئ كلّ السّبل إلي

ربّ لا تحمّلنا أعباءً وهموم
واجعلنا من الذين إليك يسعون
وحولك يطوفون
هنا نتمتّع قليلًا، لكن في الآخرة مخلّدون
وعد اللّه ونحن عباده المطيعون

t.me/yasmeenbook

الفصل الثالث والعشرون

العمّة مارش تحل العقدة

كما تحوم النحلات حول وردة جوريّة، حامت الأمّ وبناتها في اليوم التالي، حول السّيد مارش طوال الليل والنهار. لو كان الإنسان يُقتل من شدّة الحبّ والرّعاية لحدث ذلك مع السيّد مارش في تلك الأثناء. فقد تركن كلّ شيء وأهملن كلّ الواجبات من أجل الاهتمام بالرجل العاجز الذي لا يقوى على فعل شيء.

جلس الأب على كرسيٍّ كبيرٍ بجوار بيث، وتمتّعت الفتيات بإلقاء النّظرات عليه كلّ بضع ثوانٍ. كانت هانا أيضًا تسترق بعض النظرات الخاطفة إلى الرجل العزيز. وكانت علامات القلق ترتسم على وجهَيْ السيّد والسيّدة مارش وهما يتابعان ميج بنظراتهما، وكأنّ ثمّة مسألةٍ معلّقة تحتاج إلى حلّ. يبدو أنّ لهذا القلق سبباً معروفاً: وهل يمكن أن يكون غير بروك؟

حافظت جو قدر المستطاع على هدوئها ورصانتها،

t.me/yasmeenbook

ورأت ضرورة حسم هذه المسألة، لكنّها ظلّت هادئة وادعة، إلى أن رأت بالصدفة مظلّة بروك التي كان قد نسيها فصبّت وابل غضبها عليها.

كان لميج شأن آخر، فهي معظم الأوقات شاردة الذهن، خجولة، وصامتة ويتغيّر كيانها عندما يُلفظ اسمه.

استغربت بيث كثيرًا اختفاء جيرانهم وقطيعتهم المفاجئة وسألت آيمي:

«ما بال الجميع متخبّطٌ وحائر؟، ألا يجدر بنا أن نكون بأفضل حال؟»

أطلّت ميج من النافذة فرأت لوري قادمًا، وما إن رآها حتّى تشقلب في الهواء وكانّ جنّيًا قد تلبّسه، فتارّةً يشدّ شعره وأخرى يتضرّع راكعًا على ركبتيه ويومئ لميج بحركاتٍ وتوسّلاتٍ غير مفهومة، قالت:

«هل جُننت؟، التزم الأدب أيّها الصّبيّ أو عد إلى منزلك».

فأخرج من جيبه منديلًا ومثّل أنّه يسمح دموعه وسار في يأسٍ بعد أن قال:

«أرجوك، لا لا لا».

ضحكت ميج كثيرًا من تصرّفه غير المنطقيّ، قالت:

«هذا الأبله!، هل فقد عقله؟»

أجابت جو وقد ارتابت وتقزّزت من مجرد فكرة تخيّل ذلك:

«ذلك مقتطفّ مما سيحدث والطريقة الّتي يخطّط لها حبيبك جون ليكسب قلبك».

قالت ميج بحزم:

«لا تقولي حبيبي أو ما شابه، أنت تعلمين أنّ ذلك ليس صحيحًا. من فضلك لا تزعجيني يا جو، لقد أخبرتك أنّني لا أهتمّ به. ليس لديّ أيّ شيءٍ لأقوله. كلّ ما في الأمر أنّني أريد أن نكون ودوداتٍ ومحترماتٍ معه كما في السّابق».

تذمّرت جو كثيرًا وقالت:

لم يعد ذلك يجدي نفعًا بعد المصيبة الّتي تسبّب بها لوري وبعد إفصاح أمّي عن الأمر. أنت لست ميج القديمة انظري لنفسك كيف تبتعدين عنّي... يشقّ عليّ ذلك ولكن سأصبر وأتعوّد. لست أقصد إزعاجك أو تأنيبك، لكنّني أتمنّى حلّ هذه المشكلة من جذورها وبأسرع وقتٍ ممكن. فإذا كنت ستوافقين وافقي وسوف أتحمّل هذه البليّة».

انكبّت ميج على عملها وابتسمت وقالت:

«لا أستطيع أن أبدي رأيًا الآن. طالما أنّ السيّد جون لم يتقدّم لخطبتي بعد، فضلًا عن كوني صغيرة، على حدّ زعم والدي».

t.me/yasmeenbook

قالت ميج ذلك وكأنّ في قلبها ريبٌ من رأي الوالد!

قالت جو:

«أظنّ أنّه حتّى ولو تكلّم لن تجيدي التّصرف. يا للعار هل سيغمى عليك؟، أو أظنّك ستنفجرين بكاءً وخجلًا. برأيي أن تتدرّبي من الآن لتتمكّني من رفض طلبه في النّهاية».

أجابتها ميج:

«من يسمعك يظنّك مطّلعة على الغيب!، يبدو أنّك أخذت فكرة خاطئة عنّي. لست سخيفة وضعيفة. أنا واثقة من نفسي وخطّطت لكلّ شيء، لن يأخذني أيّ مخلوقٍ كان على حين غرّة».

شعرت جو بالسعادة من موقف ميج الجدّي، وضحكت من قلبها فاحمرّ خدّاها، إذ إنّ في تلك النبرة بريقًا من الأمل. قالت بنبرةٍ أكثر جدّية:

«ألقي ما في جعبتك يا ميج وأرجوك قولي الحقيقة».

قالت ميج:

«ولم لا أخبرك يا عزيزتي؟. فقد كبرت أيضًا وأصبحت شابّةً في السادسة عشرة من عمرك. أنا أثق بك وبتفكيرك وربّما تستفيدين من تجربتي عندما تصبحين في مثل وضعي».

انتفضت جو مذعورةً لمجرّد التّفكير بأنّها ستلاقي المصير نفسه. وقالت:

«لا تقل يا عزيزتي... لا. أنا أشاهد فقط وأرى كيف يعيش الناس الأدوار الغراميّة والرومانسيّة، ولكن أن أغرم أنا بشخص ما أو أتزوّج!، فهذا مستحيل. يا للحماقة!»

تحدّثت ميج كما لو كانت تخاطب نفسها، ونظرت إلى الممرّ الطّويل الذّي خطت أقدام آلاف العشاق فيه عند الشفق في الأوقات الصيفيّة الدافئة:

«كلّا. لا أعتقد. إن وقعت في الحبّ وبادلك شخصٌ آخر المشاعر نفسها، فسوف يتغيّر مفهومك بالكامل».

غيّرت كلمات ميج الخياليّة الحالمة ونظرتها المثاليّة من نبرة جو فقالت بعصبيّة:

«جلّ ما أخشاه هو أن تقولي ذلك للرجل فيغرق فيك أكثر».

قالت ميج:

«أوه كلّا كلّا. أقول فقط بهدوءٍ وحزم: شكرًا لك يا سيّد بروك، أنت لطيف جدًا، لكنّني أتّفق مع أب أنّني ما زلت صغيرة على أيّة خطوبة في الوقت الحالي. دعنا ننسى هذا الموضوع ونحافظ على صداقتنا المتينة».

قالت جو:

t.me/yasmeenbook

«هممم. لا يبدو لي ذلك على الإطلاق. تلك اللهجة ليست لك ولن تقوليها له، وحتّى لو قلتها فلن ييأس الرجل، وسيحاول كثيرًا الإيقاع بك حتى تضعفي أمام مشاعر العشق وتتعاطفي مع قلبه المكسور. تمامًا مثل الروايات».

اعترضت ميج وقالت:

«لن أفعل. سأقول له إنّني اتّخذت قراري، وسأخرج من المكان الذي يكون فيه بكلّ أدبٍ ولياقة».

ضحكت جو من كلّ قلبها عندما رأت كيف حاولت ميج أن تعيش الدور الذي رسمته في خيالها، ومثّلت أنّها تغادر الغرفة بكلّ أدب ولياقة. وما إن بدأت التمثيليّة حتّى سمعا وقع أقدام شخصٍ آتٍ، فركضت تجلس في مقعدها، وعاودت التطريز بسرعةٍ كبيرةٍ كما لو أنّها ستسلّم الملابس لأحدهم بعد عدّة دقائق.

نُقِر على الباب نقرةً خفيفة بالكاد تُسمع، وقامت جو تفتح للطارق، فتفاجأت ببروك نفسه على الباب!!، قابلته بوجوم وكأنّها تقول له ارحل من حيث أتيت. قال بروك بارتباك كبير وقد راح ينظر للفتاتين:

«مساء الخير. لقد جئت لآخذ مظلّتي، ولأطمئنّ على صحّة السّيّد مارش. هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟»

ومن وقع الصّدمة قالت جو الحوار السخيف التالي، بأسرع ممّا يمكن لتترك ميج تنفرد به وتخبره بما في نفسها، فيبتعد عنها وتنتهي تلك المهزلة الّتي نغّصت عليها حياتها:

«المظلّة جيّدة جدًّا!، وأبي معلّقٌ على الرّف سأحضره وأخبر المظلّة أنّك هنا ليأتي إليك».

لكن أمنية جو قد ضُربت عرض الحائط لأنّ ميج لم تقو على أيّ شيء، فاتّجهت صوبه وغمغمت تقول بخجل:

«تفضّل بالجلوس ستأتي أمّي في الحال. سيسرّها قدومك».

نظر إليها بروك وقد بدا عليه الألم والحزن وكأنّها جرحت أحاسيسه بتصرّفٍ قاسٍ أو فظيع، فقال:

«مارجريت. لا تنصرفي، هل تخافين منّي؟»

تصبّبت ميج عرقاً من رأسها حتّى أخمص قدميها بسبب الخجل، فلم تسمعه مرّةً يناديها باسمها الكامل. لقد خرجت أحرف اسمها عذبة حلوة شهيّة. وحرصت ميج أن تبدو ودودة وطبيعيّة ومدّت يدها باتجاهه بودٍ وطمأنينة وقالت:

«كيف أخاف ممّن أغدق الرعاية والحنان على والدي في أوجّ لحظات ضعفه وانكساره؟، ليتني أستطيع أن أفيك حقّك».

t.me/yasmeenbook

رفرف قلب ميج وكاد يطير من مكانه عندما نظر لها بروك بعينيه البنّيتين الجميلتين، وأمسك يدها الجميلة بكلتا يديه بتوقٍ شديدٍ ولهفة، قال:

«هل أدلّك كيف تشكرينني».

ثمّ سحبت ميج يدها مذعورةً وقالت وهي تحاول الانسحاب:

«لا، أرجوك».

تابع السيّد بروك برقّة:

«لا أريد أن أسبّب لك الإزعاج. كلّ ما أطلبه منك هو أن أعرف إن كنت تهتمّين قليلًا لأمري. فأنا أحبّك كثيرًا يا حبيبتي».

أربكت المفاجأة ميج وارتجف كلّ كيانها، وطارت كلّ الجمل المنمّقة من مخيّلتها، ونسيت كلّ ما حضّرت من كلمات لهذه المناسبة، وألحّ بروك ليعرف رأيها الواضح والصّريح في أمر حبّه.

قال بروك:

«سيّدتي أريد أن أعرف ما تشعرين به تجاهي، هل يمكن أن تبادليني المشاعر نفسها في الحبّ والحنان؟. أريد منك بعض الكلمات ثمّ تعود حياتي هادئة وأزاول عملي وأنا مرتاح البال. أريحيني أرجوك».

سحبت ميج يدها وقالت بتعثّرٍ شديد:

«أنا لا أزال صغيرة».

فكّر في أنّها إجابة تستحقّ العناء، وابتسم في نفسه وقال:

«سأنتظر يا عزيزتي. وفي غضون ذلك ستتعلّمين كيف تحبّينني. هل سيكون من الصّعب عليك أن تحبّينني؟»

قالت:

«إن كنت أريد ذلك. سيكون الصّعب هيّناً.. لكن.».

قال جون بعد أن أمسك يدها الأخرى بحيث لم تستطع إخفاء وجهها من نظراته:

«أرجوك وافقي أن تحبّيني. وسأعلمك يا عزيزتي، إنّ الأمر سهلٌ للغاية. أسهل من دروس اللغة الألمانية».

استرقت ميج نظرة خاطفة على وجهه، لترى تعابيره الحنونة الدافئة، لكنّها لمحت الرضا وكأنّه حصل على ما يريد، فراحت تتّبع مقولة: (يتمنّعنّ وهنّ راغبات!). فهي حين رأت رغبة بروك الكبيرة والجيّاشة تجاهها، واستشفّت مبلغ الإثارة في نفسه من بلوغ مأربه، تفجّرت مكامن الأنانيّة والدلال في قلبها: على مبدأ إن كان يحبني فليتعذب ليصل!

زاد في ذلك ما تعلّمته من دروس بسبب موفا الشابّ السّخيف. ثمّ غالت في تمنّعها وقالت بحزم:

t.me/yasmeenbook

«دعني وشأني أرجوك. فأنا لا أريد ذلك».

شعر السيّد بروك المسكين وكأنّ أحلامه تنهار في الهواء، ولكنّه ظلّ متمسّكًا بخيوط الأمل الرفيعة، قلق وتحيّر أكثر من قساوتها وصرامتها غير المعتادة، فراح يطاردها وهي تفرّ منه وقال:

«هل أنتِ حقًا تعنين ذلك؟»

قالت ميج:

«نعم أعني ذلك بالتّحديد. لا أريد أن ينشغل فكري وما زال الوقت مبكّراً جدًّا وهذا ما وافقني عليه أبي».

قال السيّد بروك:

«ميج. أتمنّى أن تغيّري رأيك. خذي وقتك الكافي ولن أضغط عليك ريثما تبشّرينني بالقبول. أرجوك لا تعبثي بمشاعري. ذلك ليس عادلًا».

قالت ميج وهي تحاول قدر المستطاع اختبار صبره ومدى تمسّكه بها:

«انس أمري على الإطلاق».

بدا السيّد بروك حزينًا شاحبًا وقد كُسر قلبه بالكامل، تمامًا كما يحدث في تلك الحالات مع الفرسان في الروايات الذين يقابَلون بالرفض، والذين طالما قرأت عنهم ميج وأحسّت بعواطفهم. لكنّه كان أكثر تعقّلًا وحكمة، فلم

يرتكب أيّ حماقة ولم تصدر عنه أفعالٌ هوجاء. بل وقف يحدّق في وجهها بحنان، حتّى رقّ قلبها.

وفي تلك اللحظة المثيرة دخلت العمّة مارش عليهما لتباغت العائلة بزيارة مفاجئة، بعد أن عصف بها الشوق لرؤية أخيها المصاب وقد أخبرها لوري بعودته للديار.

وكان لدخولها الفجائيّ فعل الصدمةً، حيث ارتعدت الفتاة والشابّ منها. وراحت تقلّب النّظر بين وجه الشاب المخطوف ووجه ميج المتورّد. ثم دفع الحياء الشابّ أن يتوارى بعيدًا عن نظرات العمّة واختبأ في غرفة المكتب، وصاحت بميج التي تسمّرت أمامها وكأنّ شبحًا جاء لينقضّ عليها:

«ليرحمني الرّب ماذا يحدث هنا؟»

تلعثمت ميج وحسبت أنّ العمّة ستحاضر بها لتعلّمها فنون الأدب والأخلاق وحسن التّصرف وقالت:

«يا للمفاجأة يا عمّتي. مرحبًا بك. إنّه صديق أبي».

جلست العمّة مارش وقالت:

«واضحٌ عليك الارتباك والذّهول. ولكن ما هذا الحديث الذي كان يدور بينك وبين صديق والدك حتّى يجعلك تتورّدين هكذا وتزهرين مثل عشبة الفوانيا؟. يُهيّأ إليّ أنّ أمورًا ما تحدث هنا. فأنا أملك حدسًا قويًّا».

t.me/yasmeenbook

تمنّت ميج لو أنّ السيّد بروك قد لاذ بالفرار الآن هو ومظلّته وقالت:

«إنّه السيّد بروك. نسي مظلّته عندنا وجاء ليأخذها وانشغلنا ببعض الأحاديث».

صاحت العمّة تريد أن تأخذ تفاصيل أكثر عن الموضوع:

«هل تقصدين بروك مربّي الولد الذي يُدعى لوري. الآن فهمت كلّ شيء وزال اللبس، فقد اخطأت جو وفتحت رسالةً كان والدك قد أرسلها. وبعد إلحاحٍ شديدٍ منّي أجبرتها على الاعتراف والبوح بمكنونات الرسالة. هل يا ترى قبلت عرض الخطوبة؟»

قالت ميج باضطراب:

«أرجوك اخفضي صوتك. قد يسمعنا إنّه في الغرفة المجاورة. سأذهب لأخبر أمّي بقدومك».

قالت العجوز:

«دعك من ذلك الآن واستمعي إليّ. لدي ما أقوله لك لأخلّص ضميري. قولي هل ستوافقين على هذا الزواج من هذا الفقير!، إن تمّ هذا الزواج فسأحرمك من الميراث ولن تري فلسًا واحدًا منّي. تذكّري ذلك وكوني فتاة عاقلة واركضي وراء مصلحتك».

كانت العمّة مارش تعرف كيف تثير روح المعارضة لدى الآخرين. وهذا تمامًا ما حدث مع ميج بعد أن استفزّتها لتظهر ميج ثورة غضبها خاصّةً بعد ما رأته من تعنّت عمّتها وإلحاحها. فرفضت بعنادٍ كبير. لو طلبت منها العمّة الموافقة لربّما كان جوابها الرّفض القاطع. زاد من تصميمها على موقفها ميلها الشّديد للفتى، قالت وهي تومئ برأسها بنبرةٍ حازمة:

«سأتزوج ممن أحبّ يا عمة، وبوسعك أن تهبي نقودك لمن تشائين».

«لا تكوني غبية وتتباهي بذلك يا آنسة!، الحبّ لا يكفي وإذا ما دخل الفقر من الباب فسيهرب الحبّ من النوافذ. تعقّلي وخذي بنصيحتي وإلّا ندمت أبد الدّهر».

ردّت ميج ثانيةً:

«إن كوخٍاً فيه الكثير من الحبّ والحنان، لهو أفضل ممّا يلاقيه النّاس في المنازل الكبيرة».

ارتدت العمّة مارش نظارتها وألقت نظرة استهجان على الفتاة، وقالت في سرّها:

«متى أصبحت ميج بهذه القوة؟، من أين لها كلّ تلك المفردات؟»

كانت ميج سعيدةً جدًّا لأنّها شعرت بالشجاعة الكاملة

t.me/yasmeenbook

والاستقلاليّة، وما أسعدها أكثر هو دفاعها عن جون وعن حقّها في حبّه أو الزواج به.

وفي المقابل شعرت العمّة مارش بأنّها أخطأت في معالجة الموضوع، فسكتت لحظةً ثم بدأت بمناورة جديدة غيّرت بها لهجتها ونبرتها. قالت بلينٍ وهدوءٍ قدر استطاعتها:

«عزيزتي ميج اسمعيني بهدوء. وركّزي فيما أقوله، لا أريدك أن تفسدي حياتك كلّها بسبب خطأٍ قاتلٍ وأنت ما زلت في بداية عمرك. إنّكم تعانون الفقر والعوز لذا، اسعي لزواجٍ ينتشلك من بؤرة الحرمان فتمدّي يد العون لعائلتك كلّها».

قالت ميج:

«لا يفكّر والداي مثلما تفكّرين أنت. إنّهما يحبّان بروك على فقره ووضعه».

قالت العمّة:

«والداك!، أوه عزيزتي. إنّهما حالمان سخيفان وينظران للحياة كما ينظر لها الأطفال الصّغار. إنّهما لا يعلمان شيئًا عن مصاعب الحياة ولا فنّ التعامل معها».

صرخت ميج:

«أنا سعيدة أنّهما كذلك».

تجاهلتها العمّة وأصرّت على تعيير الفتى بفقره وحاولت التّقليل من شأنه قالت:

«هل لدى هذا الروك أيّ معارف أو أقارب أغنياء؟»

قالت ميج:

«كلّا ولكن لديه أصدقاء حميمون».

ردّت العمّة:

«أصدقاء؟!، وماذا يفعل بالأصدقاء سيسحب الجميع يده عندما تحتاجان ليد العون إنّ غدًا لناظره قريب. قولي لي، هل لديه أيّ عمل خاصّ إضافيٍّ؟»

«حتّى الآن لا. لكنّ السيّد لورانس سيدعمه ما استطاع».

قالت العمّة:

«لن يدوم له السيد لورانس للأبد. وخاصّةً أنّه عجوزٌ طاعنٌ في السّن. إذًا أنت الآن على مشارف أن تتزوّجي رجلًا خالي الوفاض. لا مال ولا منصب ولا عمل وسيجعلك هذا تكدّين وتتعبين ويزداد الحال بك سوءًا. سوف تسبّبين العناء لنفسك لمجرد معاندتي والاستهتار بنصيحتي يا ميج».

قالت ميج وقد زادتها الجدّية جمالًا ورونقًا:

«لن أفلح إذًا أبدًا إن أضعت نصف عمري وأنا أنتظر ما تغرينني به يا عمّة. جون شخصُ جيّد وحكيم، لديه عدد

t.me/yasmeenbook

هائل من المواهب، إنّه مستعد للعمل فهو شجاع ونشيط للغاية، الكلّ يحبّه ويحترمه، وأنا فخورةٌ به فهو يعتني بي على الرّغم من صغر سنّي وفاقتي وسذاجتي».

قالت العمّة:

«طفلتي. إنّ سرّ هذا الإعجاب الّذي تتحدّثين عنه ما هو إلّا طمعٌ في أقاربك الأغنياء».

زمجرت ميج بوجه عمّتها وقد تألّمت لمدى قساوة ما تتّهم به السيّد جون، قالت:

«عمّتي مارش كيف تجرئين على قول مثل هذا الشيء؟، جون أعلى من هذا القدر والاتّهام، فلنغلق الموضوع ولا أريد الاستماع أكثر! لن يتزوّجني جون من أجل المال ولا أنا أيضًا، أنا لست خائفة من كونه فقيرًا. سنعمل ونؤمّن مستقبلنا سويًّا وهو يحبّني وأنا..».

توقّفت ميج عند ذلك الحدّ وتذكّرت فجأة أنّها لم تتّخذ قرارًا بشأن تلك الخطوبة بعد، وأنّها طلبت من فارس أحلامها أن يبتعد، وأنّه قد يسمع آراءها المتضاربة العشوائيّة.

استشاطت العمّة غضبًا من موقف ابنة أخيها، وزاد من ذلك ما رأته من إشراقٍ في وجهها وحماسة لا تكون إلّا عند العشّاق المتيّمين، قالت بغصّة مرّة:

«حسنًا، أنا أغسل يديّ من القضيّة بالكامل!، أنت طفلة عنيدة، ستكون خسارتك أكبر ممّا تتوقّعين بسبب هذه الحماقة. لا، لن أبذل المزيد من الجهد معك. أنا ذاهبة لأبيك. انسي أنّ لك عمّة لن أمنحك شيئًا وعلى أصدقاء جونك هذا أن يتكفّلوا بكما».

صفعت العمّة الباب في وجه ميج وخرجت تاركةً إيّاها في بحرٍ من الحيرة والضياع. تعثّرت في أحاسيسها وأفكارها أتبكي أم تضحك؟، وقبل أن تستفيق من حالتها، فاجأها جون بأنّه كان يستمع للحوار بالكامل ويشكر لها دفاعها المستميت، قال وهو يحيطها بين ذراعيه:

«تفاجأت بك يا عزيزتي كيف كنت تدافعين عنّي بكلّ شراسة وهذا يعني أنّ لي في قلبك مكانة مهمّة».

قالت ميج:

«وأنا أيضًا لم أكن أعلم ذلك. إلّا بعد أن بدأت العمّة تسيء بالحديث إليك».

قال بروك يستجدي عطفها:

«إذًا لا تحرميني منك يا عزيزتي أعطني فرصةً أخرى أثبت لك فيها قدرتي على إسعادك وبالتالي إسعاد نفسي بكِ».

أتتها فرصة ذهبية لتنفي حبّها وتبعده عن حياتها، كما

t.me/yasmeenbook

وعدت جو، لكنّ الفتاة قلبت الأمور رأسًا على عقب وفجّرت المفاجأة وقالت وهي تخفي وجهها في صدره:

«أقبل يا جون».

بعد خمس عشرة دقيقة من رحيل العمّة مارش، نزلت جو بهدوء إلى الطّابق السّفليّ، وتوقّفت لحظةً عند باب الصّالون، ولم تسمع أيّ صوت في الداخل، وأومأت برأسها وابتسمت برضا وقالت في نفسها:

«لا شكّ أنّ ميج نفّذت ما عزمت عليه. حمدًا للّه تخلّصنا منه. لأدخل وأرى ماذا حدث بالتّفاصيل المملّة».

لكنّ المسكينة جو ذُهلت بما رأت عند باب الصالون وانقلب السّحر على السّاحر، فبعد أن كانت داخلة لتشمت بالفتى وتحتفل بانتصارها عليه غلبها هو وفاز بمحبّة ميج واستحوذ على قلبها وأخذ الموافقة. صدرت عنها صرخةً عندما رأت أختها في جلسةٍ حميمةٍ مع جون، ولهثت حتّى كادت تختنق. وعندما تنبّه العاشقان قفزت ميج من حضنه مبتعدةً عنه في حين اقترب جون من جو قائلًا بسعادة:

«أختي جو! باركي لنا!»

وقع كلامه في قلبها مثلما يقع الملح على الجرح، واختفت جو دون أن تنبس ببنت شفة ولم تستطع أن تتحمّل الموقف وأجفلت مبتعدةً. طلبت من والديها التّدخل بسرعة وقد أجهشت بالبكاء:

«لينقذنا أحدهم ممّا نحن فيه. يبدو أن بروك حصل على موافقة ميج يا للمصيبة!!... يا للمصيبة».

غادر السيّد والسيّدة مارش الغرفة بسرعة إلى موقع الحدث، وألقت جو بنفسها على السرير، وبكت بكاءً مرًّا شديدًا وأخبرت بيث وآيمي بالأخبار الفظيعة. ومع ذلك، اعتبرت الفتيات الصغيرات أنّه حدث ممتعٌ بل وممتعٌ للغاية، ممّا زاد من غصّتها، لذلك ذهبت إلى ملجئها في العلّيّة تبثّ أحزانها ومتاعبها لفئرانها المدلّلة.

وفي حديثٍ مغلقٍ ومطوّل وسرّيٍّ بين الأبوين والحبيبين أمضى جون بقيّة الظهر في إقناع السيّد والسيّدة مارش، وأذهلهم ثلاثتهم في البلاغة والروح المعنويّة العالية الّتي دافع فيها عن حبّه للشابّة، وذهب يرتّب ويخطّط لكلّ شيء مثلما يحبّ ويتمنّى.

مضت ساعة وحان موعد اجتماع العائلة لشرب الشّاي، ومازال بروك يصف جنّة عدنٍ الّتي سيمنحها لحبيبته ثمّ تأبّط ذراعها بفخرٍ واعتزاز وقد أصبحت خطيبته، واصطحبها للطاولة كاسرًا بذلك جموح جو وغيرتها منه وحنقها عليه. تأثرت آيمي كثيرًا بتفاني جون وكرمه في معاملة ميج، وابتسمت بيث لهما من مسافة بعيدة، بينما حدّق السيّد والسيّدة فيهما وباركا لهما كطفلين بريئين تمامًا كما وصفتهما العمّة منذ قليل.

t.me/yasmeenbook

كانت سعادة الأسرة غامرة، فهذه هي المناسبة العاطفيّة الأولى لها ممّا أفقد الجميع شهيّته للطّعام فبقيت الصحون على حالها تقريبًا.

قالت آيمي وهي تفكّر كيف سترسم الخاطبين بلوحة فنيّة تسلب عقول من يرونها:

«هل تذكرين عندما قلت في الأمس إنّه لا يمكن لنا أن نحظى بسعادة تفوق تلك السّابقة؟»

قالت ميج وهي ترى جنّتها أمام عينها وكأنّ الدنيا أعطتها كلّ شيءٍ دفعةً واحدةً:

«الله كريم يبدّل أحوالنا للأجمل والأحسن بين ليلةٍ وضحاها».

قال السيّد مارش:

«مهما طال الليل، لا بد لنور المحبة من البزوغ. لقد كان عامًا مليئًا بالأحداث. انظرن كيف بدّل اللّه أحوالنا للأحسن. لسنا أفضل من غيرنا ولا غيرنا أفضل منّا. في كلّ عائلةٍ هناك أفراح وأتراح».

تمتمت جو وقالت:

«أتمنّى أن يكون القادم أجمل».

يبدو أن جو لم تتقبّل الموقف حتّى الآن. وقد أحزنها أن ترى أختها تغرق في حبّ رجلٍ غريب أمام ناظريها، لأنّ

داخل تلك الفتاة عواطف جيّاشة وقلق دائم من خسران من تحبّهم أو تحوّل مشاعرهم عنها.

ابتسم بروك لميج وقال:

«يا لحظّي الجميل!، فقد فتحت الحياة لي جميع الأبواب على مصراعيها. بعد ثلاث سنوات من الآن ستكون الحياة أجمل بكثير».

سألت آيمي وكانت في عجلة من أمرها لحضور حفل الزفاف:

«ألا يبدو الانتظار طويلًا؟»

أجابت ميج وقد أشرق وجهها جاذبيّةً وفتنةً ليس لها مثيل:

«بل على العكس. أنا أراه قصيرًا جدًّا. لدي الكثير لأتعلّمه قبل أن أصبح جاهزة».

«ما عليك سوى الانتظار. ريثما أنتهي أنا من كلّ شيء».

قال بروك ذلك وقد ناول المنديل لميج ثمّ أعطاها سكّينةً بكلّ لباقة وكانت تصرفاته تلك تزيد من غضب جو، وبعد لحظات جاء لوري فهدأت نفسها قليلًا وارتاحت لمجيء صديقها الحميم. قالت في سرّها:

«أخيرًا سيرحمنا الله من سخافاتهم ونسمع أشياء مثيرة».

لكن حتّى الغلام الودود قد خيّب أملها حيث جاء ينطّ

t.me/yasmeenbook

ويحمل باقة أزهارٍ رائعة للعروسين، وقدّمها لهما بكامل الودّ والغبطة. معتقدًا أنّ له النّصيب الأكبر من نجاح تلك المهمّة وإتمام الخطوبة. حيث قال:

«هذه للعروسين السيّد جون بروك والسيّدة ميج!، لم أشكّ يومًا أن بروك سيصل لميج. لقد كانت حلم حياته وأنا أكثر من يعلم كيف يدافع بروك عن أحلامه ويضحّي من أجلها ولو انقلبت الدنيا رأسًا على عقب».

قال بروك وقد علم حسن نوايا لوري وفرح كثيرًا بلفتته وهديّته تلك وقال:

«الحمد للّٰه أنّ الأمور سارت كما أتمنّى وأشتهي. وشكرًا لتلك الهديّة، وسأدعوك من الآن لحضور حفلة الزّفاف ومشاركتنا فرحتنا الكبيرة».

أجابه لوري:

«سأحضر بالطّبع ولو كنت في بلاد السّند والهند. خاصّةً أنّ رؤية وجه جو المشرق وحده في تلك المناسبة يستحق رحلة طويلة».

دقّق لوري النّظر في وجه جو وقد اعتكفت منزويةً بعيدًا وقال:

«ما الأمر يا سيّدتي؟، تبدين غير مسرورة».

قالت جو بانكسار:

«أنا لست موافقة على الخطبة. لكنّي سألتزم الصّمت وأترك الأمور تسير كما يريد الجميع».

تابعت بصوتٍ مرتعشٍ وحزين:

«لا يمكنني أن أشرح لك مدى صعوبة التخلّي عن ميج».

قال لوري مواسيًا:

«ستأخذين أنت النصف وبروك النّصف الآخر. سيبقى لك نصف ميج».

صاحت جو:

«لن تعود ميج السّابقة الّتي أعرفها، ستغيّرها الأيّام القادمة».

قال لوري:

«أنا هنا. بجانبك وسأقدّم لك كلّ الدعم والحبّ والإخلاص إن ذهبت ميج فأنا باقٍ لك. ربّما لا أكون مثلما تريدين ولكنّني سأحاول بكلّ استطاعتي أن أحسن صنعًا».

لم يكن لوري مرّةً صادقًا وجدّيًا مثلما كان في تلك اللحظات. صافحته جو بحرارة كبيرة وشكرته على كلماته الطّيبة وقالت:

«أنا واثقة من ذلك، وأعلم يا تيدي كيف تزيل حزني وتلوّن لي حياتي بصحبتك الجميلة».

t.me/yasmeenbook

قال لوري:

«حسنًا، الآن، لا تحزني. ألا ترين مدى سعادة ميج ألا تفرحين لفرحتها!، سيذهب بروك ليبحث عن عملٍ جديدٍ ويبني مستقبله، وجدّي سوف يدعمه ليشتري منزلًا جميلًا تحوّله ميج ببراعتها جنّة مصغّرة. أمّا أنا فسألتحق بالجامعة وأستقلّ أيضا وما إن أنتهي حتى أعود وأصحبك في رحلة للخارج، وسألفّ بك العواصم كلّها. ألن يعوّضك ذلك؟»

شردت جو بتفكيرها بعيدًا وقالت:

«كلّ ذلك جيّد وجميل، ولكن ما أدراك أنّ هذا ما سيحدث بالفعل؟ إنّها ثلاث سنوات كاملة».

قال لوري:

«أنت محقّة. ولكن أنا أحبّ ذلك وأحبّ أن أستبق الاحداث. لأتخيل ما سننعم به من سعادة ورفاهيّة. ألا تحبّين ذلك أنت أيضًا؟»

حملقت جو في الوجوه السّعيدة واحدًا تلو الآخر وقالت:

«إذا كنت سأفكّر مثلك في الأيام القادمة، فلن يخطر لي إلّا الأشياء السيّئة وسأدخل في نوبات حزنٍ وكآبة. أفضّل ألّا أفعل ذلك».

جلس كلّ من الأب والأم معًا، يستذكران بهدوء

ورومانسيّة كيف كانا عروسين منذ حوالي عشرين عامًا. بدأت آيمي ترسم العشاق، وقد بدا عالمهما الجميل الخاصّ بهما، يكلّل وجههما نوراً وسعادة لا تستطيع فنّانةٌ صغيرةٌ كآيمي إبرازها بعملٍ فنّي. استلقت بيث على أريكتها تتحدّث بمرح مع والدها العزيز وتشدّ على يده بيدها النحيفة فتحظى بالعطف والحنان.

استرخت جو في مقعدها المنخفض المفضل بهدوءٍ ورصانة وهي تتكئ على ظهر كرسيها، وتوارى لوري خلفها وهو يبتسم بودّ ويحدّق بوجهها المنعكس أمامه على المرآة المقابلة.

وهكذا انسدلت الستارة على نسائنا الصّغيرات الأربع ميج، جو، بيث وآيمي... لنعود مع بقيّة حكاياتهن في الجزء الثّاني.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

لويزا ماي ألكوت

نساء صَغيرات

Little Women

الجزء الثاني

ترجمة: سارة شيبان

العنوان: نساء صَغيرات
المؤلف: لويزا ماي ألكوت
ترجمة: سارة شيبان
عنوان الكتاب باللغة الإنجليزية: *Little Women*
الطبعة الأولى: سبتمبر ـ أيلول، 2023 (1000 نسخة)

HEMINGWAY
BOOKS
hemingway.books@hotmail.com
بيروت / لبنان
تلفون: 0096181816433

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 691 - 21 - 3

t.me/yasmeenbook

لويزا ماي ألكوت

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

نساء صَغيرات

الجزء الثاني

ترجمة:

سارة شيبان

رؤية دار همنغواي:

احتفاءً بالأدب، اختِيرَ الأديب الأميركي إرنست همنغواي كاسم لدارنا.

أُسِّست دار همنغواي عام 2023، لإثراء القارئ العربي بأعمال أدبية وفق رؤية خاصة، نصّاً وروحاً، بمعايير فنية حديثة، وذلك ضمن سلاسل ثلاث:

- **كلاسيكيات**: تصدر بعضها بالعربية وبعضها بالإنكليزية، واسم السلسلة: Classics.
- **مختصرات**: بترجمة أدبية رفيعة للأعمال الفنية، واسم السلسلة: Abridged Version.
- **أفكار عظيمة**: وهي سلسلة لكتب فكرية تركت أثراً إنسانياً كبيراً، واسم السلسلة: Great Ideas.

The Hemingway Books House vision:

In honor of literature, the American writer Ernest Hemingway was chosen as the name of our publishing house.

Hemingway Books was established in 2023, to enrich the Arab reader with literary works following a special vision, in text and spirit, with modern artistic standards, within three series:

- Classics: some of them are published in Arabic and some in English. The name of the series is: *Classics*.
- Abridgements with fine translations of literary works. The name of the series is: *Abridged Version*.
- A series of intellectual books that have left a great human impact. The name of the series is: *Great Ideas*.

t.me/yasmeenbook

الفهرس

الفصل الأول: نميمة بيضاء 7
الفصل الثاني: الزفاف الأوّل في الأسرة 29
الفصل الثالث: طريق آيمي الفنّي 45
الفصل الرابع: دروس أدبيّة 69
الفصل الخامس: تجارب منزليّة 85
الفصل السادس: زيارات غير متوقعة 113
الفصل السابع: نتائج 143
الفصل الثامن: مراسلتنا من الخارج 165
الفصل التاسع: القرار الجريء 185
الفصل العاشر: أخبار جو 209
الفصل الحادي عشر: صديق 233
الفصل الثاني عشر: وجعٌ في قلب 261
الفصل الثالث عشر: سرّ بيث 281
الفصل الرابع عشر: أفكار جديدة 293
الفصل الخامس عشر: على الرف 315

الفصل السادس عشر: لوري البليد 339
الفصل السابع عشر: وادي الظّلال 371
الفصل الثامن عشر: تعلّم النّسيان بالحب 383
الفصل التاسع عشر: وحدة تامّة 407
الفصل العشرون: مفاجآت 423
الفصل الحادي والعشرون: مولاي ومولاتي 457
الفصل الثاني والعشرون: ديمي وديزي 469
الفصل الثالث والعشرون: تحت المظلّة 481
الفصل الرابع والعشرون: موسم الحصاد 509

t.me/yasmeenbook

الفصل الأول

نميمة بيضاء

أفضل ما قد أبدأ فيه هذا الفصل هو أن أسرد لكم بكلّ سعادةٍ ومُتعة تفاصيل حفل زفاف ميج.

سوف أتحدث أوّلاً عن أسرة مارش، فربما أستطيع أن أمحو الأحداث الماضية. أمّا بالنسبة للأجواء السائدة، وفي حال اعتقد أحد الكبار أنّ في هذه القصّة عواطف مُبالغاً فيها، وهذا ما أخشاه (مع العلم أنّ اعتراض الشباب على ذلك أمرٌ لا يؤرّقني)، فلا يسعني إلّا أن أردّد كلام السيّدة مارش المُعتاد: «ما الذي تتوقّعه من منزل فيه أربع فتياتٍ مُشرقات، يجاورهنّ شابٌ مفعمٌ بالحياة؟». طرأت بعض التغييرات في حياة هذه الأسرة الهادِئة خلال السنوات الثلاث الماضية. فقد انتهت الحَرب، وعاد السيّد مارش إلى منزله بأمان، لينشغل بكتبه وبالكنيسة الصّغيرة التي وجدته خير راعٍ لها، فقد

كان هادئًا، مجتهدًا، حكيمًا، صادقًا، وذا طبعٍ تقيّ ورع يجعله مهابًا ومحبوبًا.

لقد حرمه فقرُهُ وعفّته من الاستمتاع بملذّات الحياة، إلاّ أنّه كسب الكثير من المُحبّين بصفاته الجليلة الطيّبة، فقد كان الناس ينجذبون له كما ينجذب النّحل لرحيق الأزهار، ولم يقتّر عليهم بعسله الذي قَطّر فيه خمسين عامًا من خبرته الشاقّة.

رأى الشبّان المتشوّقون أنّ لهذا الرجل المثقّف ذي الشعر الرماديّ، قلباً شابّاً كقلوبِهم. وكانت النساء المهمومات تلجأن إليه واثقات بلطفه وعطفه، ومطمئنّاتٍ إلى أنّه سيقدّم لهنّ نصائح حكيمة تريح قلوبهن. بينما كان المُذنبون يأتون إلى هذا الرجل ليخبروه بخطاياهم، ليس ليعاتبهم وإنما ليحفظ أسرارهم ويرشدهم إلى طريقَ التّوبة، أما أصحاب المواهب فكانوا يجدون فيه خير رفيق. وينهل الطّموحون من آرائه النبيلة، وحتّى الدنيويّون كانوا يعترفون بأنّ معتقداته جميلة وصحيحة، على الرغم من أنّهم لن يكتسبوا شيئًا منها.

كان يبدو للغرباء أنّ النساء الخمس النَشيطات يسيطِرن على المنزل، وأنّهنّ يدِرن أموره بالكامل، ولكنّ الحقيقة هي أنّ ذلك السند الهادئ الذي يمكث بين كتبه هو ربّ الأسرة الحقيقيّ، وضميرها، وملاذها، وعزاؤها. فقد

t.me/yasmeenbook

كنّ يلجأن إليه في حلّ مشاكلهنّ، ويجدن فيه المعنى الحقيقيّ للزوج والأب. لقد وهبت الفتيات قلوبهنّ لأمّهنّ وأرواحهنّ لأبيهنّ. لهذين الوالدين اللذين عاشا وعملا بأمانةٍ من أجلهنّ، ومنحاهنّ حبًّا نما مع نموهنّ ورباطًا مقدسًا حلوًا تنعّمن به في الحياة، وسيستمر أثره إلى ما بعد الحياة.

كانت السيّدة مارش نشيطة ومبهجة، رغم أنّها بدت أكثر كآبة ممّا كانت عليه عندما رأيناها في المرة الأخيرة. ولا شكّ أنّ المستشفيات (التي لا تزال مليئة بالأرامل والجرحى) تفتقد زياراتها الأموميّة الحنونة، فقد كان همّها الوحيد الآن هو استيعاب شؤون ميج.

أمّا بالنسبة لجون بروك فقد أدّى واجبه على أتمّ وجهٍ في الجيش لمدّة عام، لكنّه أصيب بجروحٍ وأُعيد للمنزل، ولم يُسمح له بالعودة ثانية. لهذا السبب لم يحصل على أيّة نجومٍ أو أوسمة، رغم أنّه كان يستحقّها، لأنّه ضحّى بحبّه وحياته اللذين كانا أثمن ما يملك. كرّس جون وقته بعد تسريحه ليتعافى من جروحه ويستعدّ للعمل، ويؤسّس لحياته الزوجيّة مع ميج. رفض عروض السيّد لورانس السخيّة، فقد كان يتميّز باستقلاليةٍ وأخلاقٍ حميدةٍ جعلته يفضّل العمل كمحاسب، وأن يكسب لقمة عيشه براتبٍ صغير، على أن يغامر باقتراض المال من السيّد لورانس.

بينما أمضت ميج وقتها في العمل والانتظار، ونمت داخلها شخصيّة المرأة ربّة المنزل، وجعلها الحبّ تبدو أكثر جمالاً من أيّ وقتٍ مضى، فالحبّ مُجَمِّل عظيم. وكغيرها من الفتيات كان لديها طموحها وآمالها الأنثويّة، فشعرت ببعض الخيبة من الطريقة المتواضعة التي اضطرّت أن تبدأ بها حياتها الجديدة.

تزوج نيد موفا من سالي جاردنير، ممّا جعل ميج تقارن ظروفها وعيشتها بمنزلهما الضخم وعربتهما الفاخرة، وهداياهما التي لا تنتهي، وملابسهما الثمينة. وكانت تتمنّى سرّاً أن تحصل على كل تلك الأشياء. ولكن سرعان ما كان يتلاشى الحسد عندما تُفكّر في كلّ الجهد والصّبر والحبّ الذي يبذله جون في تجهيز المنزل الصغير الذي ينتظرهما. وحين جلسا سويًا ذات مرةٍ في أحد الأمسيات، وتحدّثا عن خططهما الصغيرة، بدا لها المستقبل جميلًا ومشرقًا لدرجة أنّها نسيت روعة حياة سالي، وشعرت أنّها أغنى وأسعد فتاة في العالم.

توقفت جو عن خدمة العمّة مارش، لأنّ السيّدة العجوز أحبت آيمي جدًّا، فأغرتها بالبقاء معها، مقابل أن تقدّم لها دروساً في الرسم بوساطة أمهر الرسّامين في الأنحاء، فما كان من آيمي إلّا أن وافقت على هذا العرض، وعاشت مع السيّدة العجوز. كانت تقضي الصباح في القيام بواجباتها،

t.me/yasmeenbook

لتستمتع في فترة ما بعد الظهيرة بوقتها. ونجحت في ذلك. أمّا جو فقد قسّمت وقتها ما بين دراسة الأدب والاهتمام ببيث، التي أخذت وقتًا حتّى تعافت من مرضها. لم تكن بيث عاجزة عن العمل تمامًا، ولكنّها لم تعد قادرة على النهوض مجدّدًا. ورغم ذلك، فقد كانت تؤدّي واجباتها التي تحبّها، وتظلّ متفائلةً وسعيدةً ورقيقة القلب كعادتها، رفيقةً للجميع وملاكاً حارساً للبيت. أحسّت جو بأنّها فتاة مهمّة، فهي ذات دخل الآن، بفضل ما تنشره في مجلّة «سبريد إيجل» مقابل دولار واحد لكلّ عامود في الصفحة. حيث نسجت رواياتها الغراميّة بجدٍّ ومهارة. وذات مرّة تخمّرت فكرة كبيرة في عقلها المُزدحِم بالأفكار، فراحت تملأ كومة من الأوراق على أمل أن يصير اسم عائلة مارش مشهورًا في يوم من الأيّام.

أما بالنسبة للوري الذي ذهب إلى الكليّة إرضاءً لجده، فقد اجتازها باجتهاد. وكان المفضّل لدى الجميع، لنسَبِه وأخلاقه وقلبه الطيّب الذي طالما أتعبه في محاولته مساعدة الجميع. كان لوري عرضةً لأن يفسده المال كما أفسد الكثير من الشباب الموجودين غيره، ولكنّ الفضل يعود للسيّد العجوز في تحصينه من الشر، وتسهيل طريق النجاح له، وأمومة السيّدة مارش التي عاملته وكأنّه واحدٌ من أولادها. وأخيرًا الفتيات الأربع اللواتي أحببنه وآمنّ به

بكلّ قلوبهن. اعتمد لوري أساليب المُزاح والغزل بحديثه وتصرّفاته، فقد كان يملك روحًا مرحةً عطوفةً متأنّقة. وأفرط في الاستهانة بالأمور، حيث كان يتكلّم بالعاميّة، ممّا جعله عرضةً للطرد أكثر من مرّة. لكنّه كان دائمًا ينقذ نفسه باعترافه بخطئه وطلب المغفرة، ويعتمد بذلك على أسلوبه القوي بالإقناع. في الحقيقة كان فخورًا بنفسه لقدرته على الهروب من كلّ مأزقٍ يتعرّض له، وبذلك يثير إعجاب الفتيات الأربع. كان يحدّثهن قصص انتصاره على أساتذته الغاضبين وقهره لأعدائه. لم تشعر الفتيات بالملل من قصصه أبدًا، فقد اعتبرنه بطلًا هو وأصدقاؤه، حيث كانت وجوههم المبتسمة تملأ صدور الفتيات بالدفء في كلّ مرّة يجلبهم معه إلى المنزل في أيّام العطلة. كانت آيمي أكثرهنّ استمتاعًا بهذه الأحاديث، حتى إنّها أصبحت المحبوبة لديهم. وذلك بفضل فهمها لأسرار الجاذبيّة في سنٍّ صغيرة. فقد كانت ميج منشغلة بحبّها لجون، ولم تعطِ أدنى أهمية لأيّ من هؤلاء الشُبّان. أمّا بيث فكان خجلها أقوى من أن تلقي نظرة واحدة على أحدهم، وكانت متعجّبة دائماً من جرأة آيمي معهم. وبالنسبة لجو، وبطريقتها المعتادة، فقد أخذت تقلّد حركاتهم وعباراتهم وأساليبهم في الحديث. لقد أحبّوا جو كثيرًا، لكنّهم لم يقعوا في غرامها، على عكس آيمي التي دفعتهم لحبّها،

t.me/yasmeenbook

بحُسنها ولطفها. وفي الحديث عن المشاعر لا بدّ أن نتحدّث عن: «برج الحمائم».

«برج الحمائم» هو الاسم الذي أطلقه لوري على البيت البنيّ الصغير الذي أعدّه السيّد بروك ليكون بيت الزوجيّة الأوّل، قائلًا إنّه البيت الأمثل للعاشقين المحبوبين اللذين دخلا معًا كزوجٍ من الحمام. ودعوني أصف لكم المنزل: لقد كان بيتًا صغيرًا له حديقةٍ خلفيّة ومساحة عشبية صغيرة. أرادت ميج أن تقيم نافورة جميلة وتزرع بعض الأشجار والزهور، لكنّها وضعت بدل النافورة حوضًا كبيرًا وبعض العيدان الصغيرة محلّ الأشجار، وغرست عودًا في حوض الزهور ليشير إلى مكان البذور المزروعة. أمّا الداخل فقد كان البيت جذابًا. وبدقّةٍ أكثر، كان البهو ضيّقًا، ولحسن الحظّ فإنّ ميج لم تكن تملك بيانو، وإلاّ فلن يكون هناك مجال لتطأ قدم فيه. كانت غرفة الطعام صغيرة جدًّا لدرجة أنّها لا تتّسع لأكثر من ستّة أشخاص. وأمّا عن سُلّم المطبخ فكان أبعد ما يمكن وصفه بسُلّم. ولكنّ ميج اعتادت على هذا الوضع، وأدركت أنّه لا يوجد شيء كامل في هذه الدنيا. وبشكلٍ عام كانت النتيجة مُرضية نوعًا ما. كانت مفروشات البيت بسيطة، ولم يكن هناك طاولات مغطّاة بالرخام، أو أيّ مرايا عملاقة، ولا ستائر من الدانتيل الفاخر. كان أثاثه متواضعاً، وكان البيت مليئًا بالكثير من

الكتب والصور، والمزهرية قرب النافذة، وبعض الهدايا التي قدّمها الأصدقاء، وكان أجمل ما فيها الرسائل المليئة بالتمنّيات المُحبّة. لا أعتقد أن أيّ صانع مهما كان ماهرًا سيقدر على صنع ستائر كتلك التي حاكتها أيدي آيمي، ولا أن يرتّب أحد ما مخزن الطعام بمهارةٍ كما رتّبته جو وأمّها، وبكلّ هذا الحبّ والتمنيّات السعيدة، والدعوات التي وضعتاها في كلِّ صندوق وكلِّ برميل وكلِّ حزمة. وقد أعدت بيث كميّة من المآزر والحمّالات والأكياس تكفيها لعيد زواجها السبعين. أولئك الذين يستأجرون أشخاصاً ليطرّزوا لهم هذه المفارش لا يشعرون بالفارق بين ما تصنعه الأيدي الأجيرة وما تصنعه الأيدي المُحبّة. فقد وجدت ميج إشارات الحبّ والعطاء في كل زاويّة من كوخِها الصغير، من بكرة المناديل في المطبخ حتّى المزهريّة الفضّية على الطاولة في البهو، كان كلّ شيء فيه يفيض بالحبّ والوفاء.

أمضت الأسرة أوقاتًا سعيدة في رسم خطط المستقبل، انقضت بزيارة الأسواق، والكثير من الأخطاء المضحكة التي ارتكبوها، والكثير من الضحك على طريقة لوري الطريفة في مساومة البائعين على الأسعار... فهو ما يزال يتصرّف بشقاوة كما كان في صباه على الرّغم من أنّه أوشك على التخرّج من الكليّة. وقد واظب هذا الشابّ

t.me/yasmeenbook

على أن يحضر في زيارته الأسبوعيّة أشياءً جديدة ومفيدة لربّة المنزل، منها حقيبة مليئة بمشابك الغسيل، ومنها مبرشة جوزة الطّيب الرائعة التي تكسّرت إلى أشلاء من الاستعمال الأوّل، وأيضًا منظّف السكاكين الذي أفسد كلّ سكاكينها، والمكنسة التي نزعت وبر السجادة بعناية وتركت الأوساخ عليها، ومنها الصابون الخشن الذي كاد يسلخ الجلد عن أيدي من يستعمله، وصمغ لا يُلصِق شيئاً سوى أصابع الزبون المخدوع، وكلّ نوع من أواني الصفيح، الحصّالات والبنسات الغريبة، إلى غلاّية الغسيل التي كان من المحتمل أن تنفجر في أيّة لحظة. لو لم يكن لوري هو من اشتراها لظنّوا أنّه يحاول قتلهم. عبثًا توسلت إليه ميج أن يتوقّف عن شراء هذه الأشياء. كان جون يسخر منه، وكانت جو تدعوه «السيّد تودلز» الذي كان عازمًا على جلب الهدايا لأصدقائه. لذلك شهد كلّ أسبوع شيئًا من هداياه التي لا تجدي نفعًا.

أنجزوا كلّ شيء أخيرًا، بدءًا من الصابون (فقد رتبته آيمي بألوانٍ مختلفةٍ تتناسب مع ألوان الغرف)، حتّى طاولة الطعام التي جهّزتها بيث للوجبة الأولى.

سألت السيّدة مارش ابنتها، بينما كانت تمسك ذراعها للدخول لمملكة ميج الجديدة:

«هل أنتِ راضية عن كلّ شيء؟، هل تشعرين بأنّ

هذا البيت هو بيتك؟، وهل أنت متأكّدة أنّك ستكونين سعيدة هنا؟»

أجابتها ميج بنظرات أعمق من أيّة كلمة: «أجل يا أمي، أشعر بالرضا التامّ، أنا سعيدة جدًّا لدرجة أنّني عاجزة عن وصف شعوري، فشكرًا لكم جميعًا».

قالت آيمي بينما كانت تبحث عن مكان مناسب لتضع فيه التمثال البرونزي: «لو كان لديها خادم أو خادمان فقط، فسيكون كلّ شيء على ما يرام».

أجابت ميج بهدوء: «لقد تحدّثت أنا وأمي عن هذا الأمر، وسأجرّب اقتراحها أوّلًا، لن يكون هناك الكثير من الأعمال بما أن لوتي وعدتني بالقيام بحاجاتي الخارجيّة، ومساعدتي هنا وهناك، وبذلك لن يتبقَّ سوى القليل من العمل الذي سوف يبعد عنّي الملل والكسل».

قالت آيمي: «لكن لدى سالي موفا أربعة خدم!!».

فقاطعتها جو: «تخيّلي أن تجلب ميج أربعة من الخدم!!، لن يتّسع المنزل لهم، وسيضطرّ حينها السيّد والسيّدة إلى التخييم في الحديقة.» وقد كانت ترتدي مئزرها الأزرق الكبير، وتضع آخر طبقةٍ من الطلاء على مقابض الأبواب.

قالت الأم: «ميج تختلف عن سالي كثيرًا يا فتيات،

t.me/yasmeenbook

زوج سالي فاحش الثراء، بينما ميج وجون يؤسّسان بيتًا صغيرًا متواضعًا، لست أشكّ في أنّه سيجمع سعادة لا تقلّ عن السعادة في ذلك المنزل الكبير. من الشائن أن تجلس الفتيات في عمر ميج في منازلهن طوال النهار دون شيء يفعلنه سوى تبديل ثيابهن وإعطاء الأوامر والنميمة!، لا زلت أذكر كيف كنت في بداية زواجي أتوق لأن تهترئ ثيابي أو تتمزّق كي تتسنّى لي فرصة إصلاحها، بدلًا من الانشغال بالأعمال التّافهة».

قالت ميج: «لماذا لم تحاولي الطبخ كما تفعل سالي؟، لقد أخبرتني أنّها حاولت عدّة مرات، وكانت النتيجة أنّها أصبحت أضحوكة الخدم».

«دخلت المطبخ بعد فترة، ليس لأتسبّب بالفوضى بل لأتعلّم من هانا ما يجب فعله وما يجب عدم فعله، حتى لا أصير أضحوكةً لأحد. كانت المسألة لعبة حينها، لكن جاء الوقت الذي صرت أعدّ فيه أشهى المأكولات لفتياتي الصغيرات، وصرت أساعد نفسي حين لا أملك ما أعطيه لمن يمدّ لي يد العون. إنّك تبدئين من النّهاية الأخرى يا عزيزتي ميج، لكنّ الدروس التي ستتعلّمينها ستنفعك حين يغدو جون ثريًّا، ذلك أنّه مهما كانت ربّة المنزل قويّة، ينبغي عليها أن تتعلّم كيف تدير أمور منزلها، هذا إن كانت ترغب في أن تحظى بعيشةٍ كريمة».

ردّت ميج: «كلّ ما تقولينه صحيح يا أمي!»

كانت ميج تستمع إلى أمّها بكلّ احترام، حالها كحال سيّدة مهتمّة بشؤون تدبير المنزل ورعايته. ثم صعدتا الدرج، ونظرت ميج إلى خزانة البياضات المنزليّة، وأضافت: «هذه الغرفة هي الأقرب إلى قلبي في منزلي الصغير».

كانت بيث تُرتّب وتنسّق ما على الرفوف من أكوام الأقمشة القطنيّة البيضاء، «ما أشدّ بعجتها بتلك التنسيقات...» ما إن نطقت ميج بتلك الكلمات حتّى انفجرت ثلاثتهن ضاحكات وكأنّها قالت نكتة!، لا بدّ أنّكم تذكرون تهديد العمّة مارش لميج حين عاندتها وقررت الزواج من بروك، وكيف أقسمت أنّها لن تعطيها قشّة من ثروتها إذا ما تزوّجته، حسنًا، ما هي إلّا فترة قصيرة حتّى ندمت العمّة على ما قالته!، فقد انجلى بركان غضبها... لكنّها لم تكن لتتراجع عن كلامها ولو على قصّ رقبتها، فانتهى بها المطاف ضائعة لا تدري كيف تحلّ المسألة، فكّرت كثيرًا، حتّى وضعت خطّة مُتقَنة تمكّنها من الالتفاف حول الموضوع مع حفظ ماء الوجه. فعهدت إلى السيّدة كارول، أمّ فلورنس، بشراء كمية وافرة من البياضات القطنية وإرسالها كهديّة لميج. تمّ الأمر على أكمل وجه وبأمانة بالغة، ما عدا السرّ الذي لم يمض عليه وقت حتّى انفضح، وكم أمتع العائلة حين علمت بأمره!، وكم

t.me/yasmeenbook

أضحكتهم العمّة حين تابعت التمثيل وكأنّها لم تفعل شيئًا، وأصرّت أنّها لن تعطي ميج شيئًا سوى اللآلئ القديمة وذلك لأنّها العروس الأولى في العائلة.

قالت العمّة مارش وهي تتفحّص المفارش الحريريّة بعينها الخبيرة:

«هذا هو الذوق الذي يسعدني أن أراه. كنت أعرف صديقة اكتفت بستّة أغطية، لكنّها كانت من ناحية أخرى تملك، وقد أسعدتها كثيرًا».

قالت ميج بنبرة العروس الراضية: «ليس لديّ من هذه الأوعية، لكن عندي أشياء ستكفيني أبد الدهر حسبما قالت هانا».

شابّ طويل عريض الكتفين، ذو شعرٍ قصير، يرتدي قبّعةً، ومعطفًا كبيرًا يتطاير مع الهواء، قطع الطريق بخطواتٍ عريضة، مُجتازًا السياج المنخفض مكملًا مسيره نحو البوابة، ثم مباشرةً نحو السيّدة مارش، فاتحًا يديه وبحميميّة من القلب قال:

«لقد جئت يا أمّي!، أجل، كلّ شيء على ما يرام».

كانت كلماته تلك جواب النظرة التي رمقته بها السيّدة، نظرة حانيّة اختتُم اللقاء بعدها بقبلةٍ أموميّةٍ عطوفة.

«أحرّ التهاني للسيّدة بروك. وأنتِ يا بيث، بوركتِ!،

أنت لطيفة على العيون يا جو!، وأوه يا آيمي، إنّك أجمل من أن تكوني فتاة عزباء!!».

أعطى ميج طردًا ورقيًا بُنّيّ اللون بينما كان يتكلّم، وراح يعبث فسحب شريط شعر بيث، ولفت نظره مئزر جو الكبير، واستعرض أمام آيمي نوبة استهزاء بهيجة، ثم صافحهن جميعًا، وأخذوا يتحدّثون.

سألت ميج عن جون وكان القلق باديًا على وجهها.

«ذهب ليحضر ترخيصًا لحفل الغد يا سيّدتي».

سألت جو: «قل لي يا تيدي، أيّ فريق فاز في المباراة الأخيرة؟». أصبحت جو في التاسعة عشرة من عمرها ولا زالت تهتمّ بالرياضات الرجوليّة.

«فريقنا!، ومن دون شكّ!. أوه كم تمنّيت أن تكوني موجودة وتشاهديهم».

حان دور آيمي لتسأل، فرسمت ابتسامة كبيرة على وجهها وقبل أن تسأل: «وما أخبار الآنسة راندال الفاتنة؟».

«لم أرها قط أكثر قسوة من هذه الفترة!،

ألا ترينني أذوب شوقًا؟».

وضرب بيده على صدره مع بعض الحركات الدراميّة.

قالت بيث بفضول: «أخبرنا آخر نكتة، افتحي الطرد يا ميج لنرى ما فيه!»

t.me/yasmeenbook

فُتح الطرد وخرج منه جرس حارس، فانفجرت الفتيات بالضحك، وراح لوري يبرر الغاية من ورائه: «هذه هديّة مفيدة!، ماذا لو نشب حريق في المنزل؟، أو اقتحم المكان لصّ ما؟!»

«لن تخافي بعد اليوم في غياب جون يا ميج، وإن حدث وشعرت بالخوف، فما عليك سوى أن تهزّي هديّتي من النافذة، وسيهبّ الحيّ بأكمله حينها لنجدتك. غاية في الروعة!، ألا توافقون؟»

وأسمعهم لوري قوّة صوته التي كانت ستصيبهن بالصمم: «إنّه عربون امتنان لأفضالك عليّ ياً ميج!. وبالحديث عن الامتنان، يجب أن تشكري هانا، فقد ردعتني عن تدمير كعكة زفافك، لأنّني حين رأيتها وقد مررت بمنزلكم قبل أن آتي إلى هنا، أغراني شكل الكعكة الشّهي حتى هممت بالهجوم عليها، وهنا وقفت هانا كالجدار ومنعتني من الانقضاض المميت».

ردّت ميج على ما قاله بنبرة سيّدة ناضجة:

«متى ستكبر يا لوري؟، أن أنك سوف تبقى طفلاً؟»

أجاب الشابّ، الذي كان رأسه على وشك الارتطام بالثريّا الصغيرة المعلّقة في السقف:

«إنّني أفعل كلّ ما بوسعي من أجل هذه القضيّة يا سيّدتي، لكنّني لا أظنّ أن طولي سيزيد عن هذا كثيراً، ففي

هذه الأيّام العصيبة إنّ ستّة أقدام هي كلّ ما يمكن للرجل أن يصل إليه».

وأضاف: «أقترح تأجيل الجلسة، فأنا سوف أنهار من الجوع، وسيكون تناول الطعام هنا انتهاكًا لقداسة المكان».

قالت ميج: «سوف أبقى أنا وأمي وننتظر جون. وهناك بضع أمور أخيرة يجب الانتهاء منها».

وأضافت آيمي: «أمّا أنا وبيث فسنذهب إلى منزل كيتي براينت لنحضر زهورًا من أجل الغد.» ووضعت قبعتها الجميلة فوق شعرها الذهبي المجعّد اللامع!.

«بربّك يا جو، لا تخذلي صديقك الذي أضناه التعب!، أوه، أشعر وكأنّني لن أبلغ المنزل إن لم يساعدني أحد. اسمعي: لا تخلعي المئزر، تبدين غريبة وأنتِ ترتدينه».

لم تأبه جو لكلامه، ومدّت للمُنهك المُضنى ذراعها ليستند عليها في طريقه.

وبينما هما يمشيان قالت جو: «حان وقت الجِدّ، عليك أن تعدني يا تيدي ألّا تسيء التصرّف غدًا، ولا تفسد ما سهرنا الليالي في تحضيره، فلا مشاكسات ولا حيل!».

«أعدك!... ولا حيلة!».

«كما يجب أن نكون مثالًا في الرزانة والتهذيب، لذا لا تتفوّه بالسخافات!!»

t.me/yasmeenbook

«أنا لا أفعل ذلك!، إنّها أنت ملكة السخافات!»

«أوه وأيضًا!، أتوسّل إليك ألّا تنظر إليّ في الحفل!، سأنفجر ضحكًا حتى ولو لم يكن هناك سبب للضحك».

«أوه لا تقلقي!، لن تتمكّني من رؤيتي، لأنّك حين تبكين ستحيط بك هالة ضبابيّة ولن تري أحدًا».

«أنا لا أبكي إلّا عند الفواجع».

«أتقصدين بالفاجعة ذهاب صديقك إلى الكليّة؟»، قاطعها غامزاً.

«لا تغترّ بنفسك، لقد بكيت قليلًا فقط حتى أشارك أخواتي حزنهن».

«صحيح، صحيح. أخبريني يا جو، ما أخبار جدّي هذا الأسبوع؟، أكان ودودًا؟».

«ودودًا للغاية!، لِمَ تسأل؟، هل ارتكبت حماقة وتريد أن تعرف كيف سيتلقّاها؟»، كانت نبرتها حادّة.

«أوه أرجوك يا جو!، هل كنت سأنظر في عيني والدتك وأقول: كلّ شيء على ما يرام، إن لم يكن الأمر كذلك بالفعل؟»، ثم توقّف وكأنّه قد خاب أمله.

«معك حق».

أشعرته نبرتها الصادقة بالرضا، فأكمل:

«جيّد إذًا!، لا ترميني بالشكوك!، كلّ ما أريده هو بعض المال».

«لكن هذا كثير يا تيدي!، أنت تسرف المال».

«لست أنا من أسرفه، إنّه يتبخر وحده، ودائمًا ما يفاجئني بنفاده».

«عزيزي لوري، إنّك سخيّ وتملك قلبًا طيّبًا لا يردّ سائلًا، أعرف أنّك لا تقوى على رفض طلب المحتاج، لكنّك تقرض الناس كثيرًا. لقد سمعنا عمّا فعلته لصديقك هنشو. والحقّ إنّك لن تُلام إذا أنفقت مالك في هذه السبل».

«أوه، لقد ضخّم هنشو المسألة، لن يرضى أحد أن أترك هذا الشابّ المثاليّ يرهق نفسه في العمل حدّ الموت، وأنا يمكنني مدّ يد العون!، إنّه ذكيّ ونشيط ويساوي عشرة منّا نحن الكسالى!».

«فهمت، لكن أخبرني ما حاجتك للسبع عشرة صدريّة؟، وأكوام ربطات العنق؟. والأفظع أنّك تعود في كلّ مرّة إلى المنزل بقبّعة جديدة!، ألم تتخطَّ فترة الابتذال والتفاخر بالمظاهر؟. لا أظنّ، فحضرتك لا تنفكّ تعود لها بين الفينة والأخرى. والمزعج في الأمر أن هذه الصيحات قبيحة، فتارةً تحلق شعرك ليبدو رأسك كفرشاة تنظيف، وتارةً أخرى ترتدي سترة ضيّقة مشدودة، أوه!، والقفازات البرتقاليّة والحذاء مربع الأصابع!!. لو كانت هذه الأشياء رخيصة، فلا حرج، لكنّها باهظة الثمن وقبيحة بحقّ السماء!!»

t.me/yasmeenbook

كان هجومًا حادًّا، حتّى إنّ قبّعة لوري سقطت بسبب موجة الضحك الحارّة التي انتابته، لتدوس جو عليها!. وهنا أُتيحت له فرصة الاسترسال بمدح الملابس الخشنة، فتناول القبّعة التي أُهينت كرامتها، وحشاها في جيب معطفه.

«لا تُمطرني بالمحاضرات مجدّدًا، أخذت كفايتي منها على مدار الأسبوع، وأتيت بنوايا طيّبة!، أريد أن أحظى بوقتٍ ممتعٍ في المنزل كلّما عدت. سأكون فتى مثاليًّا في الغد وأرضي الأصدقاء بتصرّفاتي».

«سأريحك من النقد اللاذع إن تركت شعرك ينمو. نعم لست فتاة أرستقراطيّة، لكنّني لن أقبل أن يراني الناس معك وأنت تبدو كمصارع».

كانت نبرة جو قاسية وحادّة.

لم يكن لوري ليقبل أن يُتّهم بالغرور، خاصة بعد أن ضحّى بكامل إرادته بشعره المجعّد الجذّاب، ليحصل على رأس القش هذا، فقال مُدافعًا:

«نحن نقصّ شعرنا قصيرًا لأنه يتناسب مع الحياة الدراسيّة».

ثم أضاف بنبرة منخفضة: «دعيني أخبرك هذا الأمر، إنّ باركر الصغير غارق في حبّ آيمي، فهو يتحدّث عنها باستمرار، ويكتب الشعر، ويسرح في خياله بطريقةٍ مقلقة.

يستحسن أن نقصّ جذور الأمل قبل أن تنمو، ألست محقًّا؟»

«بالطبع أنت محقّ!، لا زواج في عائلتنا لسنوات بعد الآن. ارحمنا يا ربّ، بم يفكر الأطفال؟». بدت جو مصدومة وكأنّها نسيت أن باركر وآيمي أصبحا في سن المراهقة.

«لا أعرف إلى أين ستأخذنا هذه الأيام. لا زلت طفلةً يا جو، لكن سيحين دورك قريبًا، وسوف ترحلين وتتركينا للشقاء من بعدك».

«لا تقلق يا عزيزي. نا لست من النوع المُفضّل لدى الرجال. لن يرغب أحد بي، الحمد للّه على هذه النعمة، وكما تعلم لا بد أن تبقى عانس واحدة في كلّ أسرة».

رمقها بنظرة جانبيّة، وكانت الشمس قد لفحت وجهه فصار أكثر سمرة، فقال:

«لن تمنحي أحدًا الفرصة. لن تظهري أبدًا جانبك اللّين، وإذا حدث ولمس أحدهم النعومة داخلك وأنا واثق أنّه لن يقاوم في أن إظهار حبّه، فإنّك ستعاملينه كما فعلت السيّدة جوميدج بحبيبها، سكبت عليه ماء باردا!، ستنشرين أشواكك حتّى لا يجرؤ أحد على لمسك أو حتّى النظر إليك».

t.me/yasmeenbook

«أنا لا أضيّع وقتي في هذه الأشياء. لدي ما يشغل تفكيري عن القلق بشأن هذه السخافات، إنّ تفريق العائلات لجريمة عظيمة. لذا توقّف عن التكلّم في هذا الأمر. ألا يكفي ما فعله زواج ميج بنا؟، لقد أصبح الحديث عن حفلات الزفاف والحبّ والعشّاق شغلنا الشاغل!. دعنا نتحدّث في أمر آخر».

وبدت في أتمّ الاستعداد لسكبِ الماء البارد في وجه أحدهم.

صفّر لوري طويلًا لينفّس عن مشاعره أيًّا كانت، ثمّ قال حين افترقا عند البوابة:

«تذكّري كلامي يا جو، ستكونين التالية».

t.me/yasmeenbook

الفصل الثاني

الزفاف الأوّل في الأسرة

حلّ شهر حزيران، تفتّحت الأزهار وزهت، وكانت في أوجّ جمالها، وكأن الندى العذب يقطر منها في فترات الصّباح الباكر. وكأنّ الزهر أيضًا يشعر بفرح أصحابه وجيرانه؛ لقد كانت تلك الأزهار نِعمَ الصحبةُ للعائلة الكريمة، فما إن حان الموعد المحدّد للزفاف، حتّى انسلّت من كلّ حدبٍ وصوب لتشاهد ما يحدث خلف النوافذ والأبواب والجدران.

وكان أهمّ حدث في تلك الأوقات هو تحضير العروس للحفلة، لذا اجتمعت الأخوات يُلبسنها الفستان ويساعدنها في بقية امور.

ولمّا فكّرت تلك الأزهار والورود في ردّ الجميل ومكافأة السيّدة النّبيلة، التي لم تبخل عليها بالعناية والاهتمام حتّى في أهمّ يومٍ من حياتها، راحت توزّع المهامّ

فيما بينها، فكان لكلّ منهن زهرة مهمّة نشر رائحة عطرها الفوّاحة في المنزل والحديقة، كما راحت بعضها تحيّي الضّيوف والحاضرين. بينما ظلّت المهمّة الأبرز هي تزيين المكان وتلوينه بأبهى حلّة.

أمّا في غرفة تجهيز العروس، فلو اجتمعت أزهار الحديقة كلّها في تلك اللحظة لما فاقت جمال ميج في ذلك اليوم، وقد أضفت عليها السعادة التي كانت تشعر بها جمالًا وحسنًا لا يضاهى. لقد كانت ساحرة بكلّ ما في الكلمة من معنى.

ابتعدت العروس عن الأشياء التقليديّة في تلك المناسبة، فتجنّبت الحرير والدانتيل أو الزهور البرتقاليّة، قالت:

«لا أريد ثيابًا زاهية ولا زفافًا فخمًا تقليديًّا كالمتعارف عليه. أريد حفلًا يجمع من أحبّهم وأشعر بنفسي بينهم فقط».

لذلك صمّمت فستان عرسها بنفسها، وقامت بخياطته بالآمال العظام واللفتات الرومانسيّة والعواطف الجيّاشة، وضفرت أخواتها شعرها الجميل، وكانت الحلية الوحيدة التي تقلّدتها هي زنابق الوادي التي يحبّها جون أكثر من أيّة أزهارٍ أخرى.

تجهّزت العروس ووضعت اللمسات الأخيرة البسيطة، قالت آيمي وهي تتأمّل أختها وتقلّب عينيها بإعجاب:

t.me/yasmeenbook

«لم تختلف أبدًا عن ميج التي عهدناها دومًا، الفارق البسيط هو أنّك اليوم أكثر تألقاً وجمالاً. كلّي شوق لمعانقتك لكنّني أخشى أن أفسد الفستان».

تأثّرت ميج وتفجّرت أحاسيسها وقالت:

«لا تبالي بفستاني، لا أهتمّ إن فسد، تعالين إليّ يا أخواتي أريد أن تحضنّني اليوم وتقبّلنني أكثر من أيّ وقتٍ مضى في حياتي».

وفتحت ميج ذراعيها لأخواتها اللواتي تشبّثن بها بوجوه أجمل من تهاليل نيسان لمدّة دقيقة، وشعرن أنّ الحبّ المعهود لن يتبدّل ولن يتغيّر للأبد.

ثمّ تملّصت الفتاة من أحضان أخواتها الثلاثة، لتؤدّي بعض الأعمال الصغيرة، فقامت لتسوّي ربطة عنق جون، ثمّ لحقت بأبيها في غرفة المكتب وجلست معه عدّة دقائق، ثمّ راحت تتبع أمّها كيف تتحرك، فتبتسم لها كلّ لحظةٍ، وفي داخلها غصّة لا تشعر بها إلّا الأمّ التي لم يتبقّ إلّا ساعات وتتخلّى عن طيرها الأوّل، لتضعه في عشٍّ آخر غريب عنها..

ولننتقل الآن لشأنٍ آخر، دعوني أقصّ عليكم ما فعلته تلك السنوات الثلاث بنسائنا الصّغيرات الثلاث: جو، بيث، وآيمي. ريثما ينتهين من إضفاء اللمسات الأخيرة أمام منضدة الزّينة ليظهرن بأجمل طلّة.

جو:

طالت خصل شعرها وزادت غزارةً، فساعدتها على تحسين معالم وجهها النحيف وباتت تلائمه أكثر. أمّا العينان فلبريقهما حكاية أخرى، فيما ازداد انتفاخ خدّيها. كما أصبحت ألفاظها جميلة مُنمّقة، وابتعدت عن الحدّة والسّلاطة؛ وخاصّة في مثل هذه المناسبة.

أما بالنسبة للجسد، أصبحت أطرافها قويّة وعودها متين، ولكنّها لم تمتلك رشاقة الفتيات وخفّتهن ودلالهنّ، وخاصّةً في طريقة المشي!.

بيث: ازدادت نحافتها وبرزت عظامها نوعًا ما، لكن في المقابل ازداد جمال ودفء عينيها الرحيمتين. ولو نظرت إليها لشعرت بالحزن عليها، حتى ولو أنّها لم تكن أبدًا حزينة، وهذا ما كانت تؤكّده لأخواتها على الدوام، لأنّها نادرًا ما تشتكي وتتحدّث دائمًا على أمل أن تتحسّن قريبًا. فقد كانت مُستبشرة مُتفائلة، وراضية بما قسمه اللّٰه لها، ولا تعترض على أيّ شيء.

آيمي:

الوردة اليانعة وزينة العائلة، ذات الستّة عشر عامًا، نضجت وصارت كلّها أنوثة. لو نظرنا إلى مقاييس الجمال لوجدناها تفتقر إليها نوعًا ما، لكنها كانت تمتلك جاذبيّة لا توصف، تجسّدت في شخصيّتها وحركة يديها وملابسها

t.me/yasmeenbook

الفاتنة. أما بالنسبة لأنفها فلا يزال مفلطحًا، كما وأصبح فمها وفكّاها عريضين بالمثل، مما خلق لها مشكلةً جديدة. وكانت تُعزّي نفسها بعينيها الزّرقاوين وشعرها الذّهبيّ الغزير اللامع.

بدت الشقيقات الثّلاث في أبهى حلّة وأجمل زينة، بفساتينهنّ الفضيّة ووجوههنّ النّضرة المُستبشرة. تزيّنّ بورودٍ حمراء وضعنها على منطقة الصدر والرقبة وفوق شعورهنّ. كانت نشوة السّعادة واضحة جليّة في ملامحهن. وزادتهن البساطة تألّقًا لتشهدن على هذا الحدث الرومنسيّ الأوّل المُهيب في تاريخ العائلة.

افتقر عرس مارجريت وجون إلى المظاهر الاحتفاليّة والعروض الاستهلاليّة، وكان كلّ شيء يبدو طبيعيًّا، وكما يقال: (أهليًّا). استهجنت العمّة مارش عندما وصلت ما رأته من ابنة أخيها، وكيف هرعت لترحّب بها، وما رأته من العريس أيضاً، كيف قام بنفسه ليثبّت إكليلًا من الورد في زاوية الصّالة، كما أنّ أخاها لم يسلم من انتقادها، فقد استهجنت سلوكه عندما رأته يتأبّط زجاجتي نبيذ، وغير ذلك من تصرّفات وصفتها بالفاضحة.

جلست العجوز في مقعدٍ أُعدّ خصّيصًا لها، وصاحت قائلةً:

«ما هذه التّصرّفات!، يا للخزي، ألم تسمعوا يومًا عن

أصول الإتيكيت من قبل؟. وأنت أيّتها العروس، كان عليك أن تبقي في الأعلى، وألّا تنزلي إلّا في اللحظة الأخيرة ريثما يحضر المدعوّون جميعًا».

أجابت العروس بحِدّة:

«أوه عمّتي، هذا يوم زفافي!. سيتّم كلّ شيء كما أحبّه وأهواه، ولا آبه لما يقوله الناس أو بما يفكّرون فيه، ولا أقيم أيّ وزن لتلك العادات والتّقاليد البالية. الناس الذين يريدون أن يأتوا ليحدّقوا بي وينتقدوني ويعيبوا علينا بساطتنا وقدراتنا المحدودة؛ لا أريدهم أبدًا وغير مرحّبٍ بهم أصلًا... عزيزي جون خذ المطرقة».

وذهبت لتساعد «ذلك الرجل» في عمله «غير اللائق» كما وصفته العمّة العجوز.

راحت العجوز تحدّق بها وهي تناوله المطرقة ليكمل تثبيت الإكليل، فحاصرها خلف الباب، وأخذ قبلة خاطفة، فغضبت العمّة أكثر، وأخرجت منديلها لتمسح عينيها اللتين اغرورقتا بالدموع.

وصل مدعوّون آخرون وأقارب، فصاحت بيث بطفوليّة:

«جاءت الحفلة!، جاءت الحفلة».

فجأة سُمعت صرخة عالية من لوري تنذر بخطرٍ وشيك بعد سماع قرقعة في الردهة، حيث قال:

t.me/yasmeenbook

«فليرحمنا الرّب منك يا جو، لقد أفسدتِ الكعكة للمرة الثّانية».

وعمّت الفوضى في أرجاء المنزل، كلّ منهم كان يحاول الإصلاح أو إبداء رأيه.

عندما رأت العجوز لوري، وقد لمع رأسه الأسود وبرز من بين جموع الشبّان، همست في أذن ابنة أخيها آيمي وقالت لها:

«حذّري هذا الشاب العملاق من الاقتراب منّي، فانا أبغضه وأبغض تصرّفاته أكثر ممّا أكره البعوض».

أسرعت آيمي لتحذّر لوري من ارتكاب أيّ حماقة لا تُحمد عقباها، ثمّ طمأنتها وقالت لها:

«لا عليك يا عمّة لن يسبّب أيّ إزعاج، فقد حذّرناه جميعنا سابقًا، ولوري من النّوع الذي يلتزم إذا أراد ذلك».

لكن منذ أن عرف الفتى بقلقها منه، زاد من مناوراته، ممّا زاد من توتّرها.

خيّم الصّمت والسّكون فجأةً على الأسرة، ووقف السيّد مارش والعروسان تحت القوس الأخضر، وتحلّقت الأمّ وبناتها حول العروس وكأنهنّ متألّمات لفكرة التخلّي عنها بعد عدّة ساعات.

بدأ الأب يُرتّل ويمارس الطّقوس المُعتادة، وكان صوته

مُختنقًا ومُتأثرًا بالموقف المهيب المُبهج، مما زاده وقارًا وجلالًا.

لم يسمع أحدٌ تقريبًا، لا من المدعوّين ولا من أهل العروس، صوت العريس المُرتعش في حين قالت العروس بثقة وثبات، وبصوت واضح وهي تنظر مباشرةً في عينيّ عريسها:

«أنا موافقة».

رفرف قلب الأم فرحةً بصغيرتها، والتي تشرف الآن على دخول مرحلة جديدة من عمرها، وبكلّ قوّة وشجاعة. وتأثّرت العمّة أيضًا ورقّت للعروس.

التصقت جو بالعروس طوال الحفل، وقد وقفت الدّموع في عينيّها واختنقت تمامًا، ربّما يكون الشيء الوحيد الذي منعها هو مراقبة لوري الماكر لها، الذي خلط بين الدعابة والمكر في عينيه السّوداوين، وبالطّبع كلّ ذلك كان بهدف التخفيف عن جو مصيبتها. خبّأت بيث وجهها خلف كتف والدتها لتخفي أيضًا تأثّرها، أمّا آيمي فقد وقفت مثل تمثالٍ رشيق، وانعكست أشعّة الشّمس فوق بشرتها البيضاء وأزهارها العبقة التي غرستها في شعرها، فزادتها حسنًا على حسن.

وما إن تمّت آخر خطوة من إجراءات عقد القران حتّى صاحت ميج قائلة:

t.me/yasmeenbook

«القبلة الأولى ستكون لمارمي».

انحنت وطبعت على خدّها قبلةً حارّة، وقد تألّقت ميج وزادها الارتباط حُسنًا ونضوجًا وقد أصبحت سيّدة، ثم تلقّت التّهاني والمباركات من جميع الموجودين في المنزل، ولم يبخل أحد عليها بالحبّ الصّادق والقبل الحارّة، بدءاً من الجدّ لورانس، إلى هانا التي ارتدت أجمل ما لديها. قبّلتها بحرارة، والدموع تبلّل وجنتيها وقالت وهي تنوح:

«باركك اللّه يا عزيزتي، مئة مرّة ومرّة. الكعكة لذيذة وعلى ألف ما يرام، فلا تفكّري بشيء».

غمر الفرح والسرور الحاضرين كلّهم، وحرصت ميج على ألّا ينشغل المدعوّون بموضوع الهدايا، فاستلمت هداياها قبل الحفل، ونُقلت لعشّ الزّوجيّة، ولم يكن ثمّة إفطارٌ، بل مائدة عامرة بالفاكهة والحلوى، بالإضافة للكعكة التي تحيط بها الزّهور من كلّ جانب.

ثمّ بدأت المشروبات تُقدّم للمدعوين، فاندهش السيّد لورانس والعمّة لأنّها كانت عبارة عن عصير الليمون والقهوة فقط، ابتسما وأومأ بنظرات، متيقّنان أنّ هناك حكمةً من الموضوع. أشرف لوري على تفاصيل العرس وقدّم خدمات جليلة، وراح يدقّق على كلّ كبيرة وصغيرة. فلمّا رأى أنّ الضّيافة تفتقر للنبيذ سأل العروس:

«أظنّ أنّني رأيت بعض زجاجات النبيذ هذا الصباح، أم أنّ عينيّ تخونانني؟، وثمّة احتمال أخير وهو أن تكون قد حطّمَتها بالخطأ. هذا ليس غريبًا عنها».

قالت ميج:

«صحيح ما رأيته. فقد أهدانا جدّك كميّة وافرة، وبالمثل فعلت العمّة مارش، لكنّ والديّ لهما نظرتهما الخاصّة في هذا الشّأن، فأخذ والدي زجاجة أو زجاجتين بغيّة علاج بيث، وتبرّع بالباقي لمعسكرات الجند. أمّا والدتي فصرّحت أنّها لن تقدم النّبيذ تحت سقف منزلها، لا هي ولا بناتها لأيّ شبّانٍ صغار».

على الرّغم من الجدّية التي تكلّمت بها ميج، إلاّ أنّها توقّعت أن ينفجر لوري ضاحكًا، أو أن تكدّره مثل تلك الأخلاقيات التي باتت نادرة، لكنّ الفتى فاجأها عندما قال:

«يا لعظمة أبويك يا ميج، ليت كلّ الناس يفكرون مثلما تفكران. بالفعل قد يؤذي النبيذ حياة البعض، أو قد يسبب كوارث وخيمة».

قالت ميج وقد قلقت من الطّريقة التي تكلّم بها الفتى:

«أرجو ألّا تكون شخصيًّا قد عانيت من أضراره، وأن يكون كلامك هذا من وحي اعتقادك».

قال لوري:

«لأكون صريحًا معك، ليس هذا من ناحية اعتقادية

t.me/yasmeenbook

أو ما شابه، لكنّ كلّ ما في الأمر أنني لا أحبّه ولا يعجبني مذاقه. لو كانت أريد أن أشرب فلا شيء يمنعني، لدينا نبيذ أكثر ممّا لدينا ماء، لكنّني لم أشتهه يومًا، المسألة أنّه إذا أتت شابّةٌ جميلة وأعطتني لأشرب فلن أردّها خائبة».

قالت ميج:

«عزيزي تيدي، إن كنت تشرب أم لا، أرجو الابتعاد عن هذه العادة السيّئة، حتى يكون هذا النهار الأجمل في عمري».

كانت ميج على ثقةٍ تامّةٍ أنّه إذا أعطى وعدًا، فسوف يفي به بأيّ ثمن. وأحسّت أنّها قد سيطرت على الفتى وتملّكته بقوّة شخصيّتها وطريقة تودّدها إليه. ولكن لا بأس من استخدامها تلك الأساليب ما دامت تصبّ في صالحه. قالت وهي تستميله بعينيها الدافئتين:

«من يستطيع أن يرفض للعروس طلبًا؟!»

بالطّبع لن يقوى على ذلك فوافق فورًا وبابتسامة غامرة، صافحها وقال:

«أعدك. سيّدة بروك».

«من كلّ قلبي، شكرًا جزيلًا لك».

لوّحت جو له وكأنّها تُعمّده بكوبٍ من الليموناضة، وصاحت تقول:

«باركَ اللّه فيك وفي قرارك أبد الدّهر يا صديقي الحميم تيدي».

اغتنمت الفتاتان بحكمةٍ فطريّة تلك اللحظة السعيدة لتقديم خدمة لصديقهما، شكرهما عليها طوال حياته، وراحوا يشربون العصير على شرف ذلك الوعد.

بعد الغداء، تجوّل الناس في أرجاء المنزل والحديقة، كمجموعات صغيرة مستمتعين بأشعة الشمس في الداخل والخارج. استوحى لوري أن يضع اللمسة الأخيرة لهذا الزفاف البسيط بعد أن ألهمته بعض الأفكار في مخيّلته، فصاح قائلًا:

«فلتتشابك أيدي كلّ المتزوجين والخاطبين، وليتجمّعوا ليرقصوا حول العروسين ميج وبروك في دائرة كبيرة كما يفعل الألمان، بينما نحن العازبون والعازبات نصطفّ، ونرقص حول الدائرة الكبيرة!»

دائمًا يقال إن الأمور العفويّة والبسيطة تنجح أكثر من الأمور التي يُخطَّط لها، إذ كان مشهد الرقص رائعًا بحق، حيث تحلّق الأزواج حول العروسين وراحوا يرقصون وقد تشابكت أيديهم، وكان من ضمن الأزواج مارمي والوالد، والعمّ والعمّة كارول وغيرهما، وكان العازبون هم لوري الذي رقص مع آيمي بخفّة ورشاقة، وسالي التي رقصت مع نيد في الحلقة، والشيء الأبهر من ذلك كلّه، والذي

t.me/yasmeenbook

اعتُبر بحقّ أجمل حدثٍ في الحفل: الجدّ لورانس والعمّة مارش، حيث دعاها الجدّ للرقص، وبتردّدٍ شديد ضربت العمّة العصا في الأرض، ولبّت الدعوة، فابتهج الجميع وهلّل للموقف الطريف. ودار الرقص حلقة داخل حلقة كفراشات جميلة ملوّنة في فصل الربيع المعتدل، حتّى تعب الجميع وجلسوا يلتقطون أنفاسهم.

هنّأت العمّة مارش ابنة أخيها وقالت:

«لا يسعني الآن إلّا أن أبارك لك يا عزيزتي، وأتمنّى أن تسعدي بهذا الزّواج. ولو أنّني لا زلت مصرّة أنّك ستندمين، ولن تحصدي إلّا خيبتك».

ثم أردفت موجّهةً الحديث للعريسّ

الذي اصطحبها للعربة:

«لقد أخذت جوهرةً ثمينة، أرجو أن تراعيها جيّدًا وتعتني بها».

وبدأ المدعوّون يغادرون واحدًا تلو الآخر، وقالت سالي لزوجها نيد عندما همّا بالرحيل:

«ربّما أبالغ إذا قلت لك، لكن هذا يا نيد هو أجمل حفل زفاف أحضره منذ زمن، ولا أعرف السبب. لقد زادته البساطة والعفويّة جمالًا ومتعة».

قال السيّد لورانس بعد أن جلس يستريح في المقعد الكبير المريح بعد كلّ تلك الإثارة:

«لوري أيّها الفتى، إذا كنت تريد أن تحظى بعيشة جميلة، وتهنأ في حياتك، فاختر واحدةً من أولئك الفتيات لأخطبها لك. ولو تمّ ذلك سأكون الأسعد على الإطلاق».

قال لوري بكلّ أدبٍ وتهذيب:

«سوف أفعل كلّ ما بوسعي لأسعدك وأرضيك يا جدّي».

ثمّ راح يفكّ الوردة التي وضعتها له جو في عروة السترة. وكان في أسلوبه خضوعٌ بالغٌ للجدّ.

لم يكن منزل الزوجيّة بعيدًا عن بيت أسرة مارش. فما كان أمام العروسين إلّا خطواتٍ قليلةٍ يمشيانها في الممرّ العشبيّ حتّى يصلا إلى عشّ الزوجيّة. وبهذا كانت تلك رحلة الزّفاف الوحيدة التي عاشها العروسان يومها. عندما وصلت العروس إلى الباب بثوبها الأبيض الرائع التفّ الجميع حولها لوداعها، وكأنّ هناك رحلة طويلة في انتظارها.

تشبّثت ميج بوالدتها وقد امتلأت عيناها بدموع ساخنة، حاولت كبتها وقالت:

«لا تظنّي يا أمي الغالية أنّني سأبتعد عنكم بزواجي أو سأنساكم!، أو أنّ حبّي لكم سينقص إذا ما زاد حبّي لزوجي جون».

t.me/yasmeenbook

ثمّ استدارت نحو أبيها وقالت:

«سوف آتي كلّ يوم يا والدي، على أمل ألّا تتغيّر مكانتي في قلوبكم جميعًا، ويبقى حبّكم لي كما هو في السابق على الرغم من زواجي. سأظلّ أقضي أوقاتاً طويلة مع بيث، وستتردّد عليّ أخواتي الآن وغدًا وفي كلّ الأوقات، ليسخرن منّي عندما أغوص في تدبير أمور المنزل، وأعاني مع التفاصيل الصّغيرة. شكرًا لكم على كلّ ما قدّمتموه لي. شكرًا على الزفاف الرّائع. الوداع، الوداع».

كانوا يتابعونها بوجوهٍ ملؤها الحبّ والفخر والأمل، وهي تبتعد متّكئةً على ذراع زوجها، ويداها ممتلئتان بالورود، بينما تضيء شمس حزيران وجهها السّعيد، وهكذا بدأت ميج حياتها الجديدة.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثالث

طريق آيمي الفنّي

يستغرق النّاس وقتًا طويلًا ليميّزوا بين الموهبة والإلهام، وهذا تمامًا ما حدث مع آيمي. فقد كلّفتها التجارب الطويلة الصعبة ثمنًا باهظًا، وأخذت من وقتها الكثير حتى تصل لنتائج مرضية.

تجربةٌ تلو تجربة، ومرحلةٌ بعد مرحلة، راحت تخطّ دربها الوعر في عالم الفنّ والفنّانين.

في بداياتها؛ اتّخذت من نحت التّماثيل الطينيّة خطوةً أولى، ثمّ تركتها لتنتقل للرسم بأقلام الحبر السائلة والجافّة، أظهرت في هذا مهارة وذوقًا عاليين، وأثبتت للجميع أنّ عملها اليدويّ الفنّان ممتعٌ ومربحٌ على حدّ سواء.

ثم أتت الخطوة التالية؛ عندما انتقلت للرسم على الخشب بالمكواة الحارقة. لتسبّب بذلك أزمة حقيقيّة للعائلة التي ظلّت طوال الليل والنّهار على أهبة الاستعداد،

مخافة أن تلتهم ألسنة النيران المنزل. ذلك لأنّ رائحة الخشب المحترق كانت تملأ البيت طوال الوقت، بينما كان الدخان المتصاعد من العليّة والمكواة المشتعلة ينذران دائمًا بالخطر. كلّ هذا جعل هانا لا تذهب إلى الفراش أبدًا بدون دلوٍ من الماء وصفّارة كبيرة عند باب غرفتها تحسّباً لنشوب حريق.

كان من نتاج الرسم بالمكواة على الخشب عدّة أعمال اعتزّت بها الفنّانة ومنها:

صورٌ كثيرةٌ لروميو وجولييت بإمكاننا اعتبارها مسودّات تجريبيّة.

صورة للرسام العالميّ الكبير روفائيل رسمته على خشبة العجين.

صورة لباخوس إله الخمر على غطاء جرّة النبيذ المعتّق.

صورة لطفل يغنّي على غطاء جرّة السكّر.

وبالرغم من النتاج الفنّي الباهر إلّا أنّ الفتاة أحرقت أصابعها بفظاعة، ولم تعد تحتمل حروقاً جديدة. فاضّطرت إلى تغيير الأسلوب واستخدام موادّ جديدة وشاءت المصادفة في ذلك الوقت أن تتعرف إلى صديقٍ كان يحترف الفنّ أيضًا، فأعارها بعض الفراشي والأوراق والألواح والألوان الزيتيّة، لتبدأ رحلةً أخرى.

t.me/yasmeenbook

صارت تمزج الألوان وترسم مشاهد طبيعيّة خضراء. ثمّ انتقلت للمواشي، ولو رأى رسوماتها تجار ماشية لسعدوا بها كثيرًا لما كانت تبالغ به في تكبير أجسامها وتضخيم سيقانها. كان للبحر أيضًا من رسوماتها نصيب، فرسمته وكأنّه سيبتلع كلّ من حوله، لو رأيته لولّيت منه فرارًا، ناهيك عن رسومات السّفن الرّديئة التي قد تصيب أهمّ البحّارة والقراصنة بدوّار البحر الرهيب.

الحمد للّه أنّ سفنها مجرّد رسومات، فلو كانت حقيقيّة لغرق كلّ من يركبها، لما فيها من أخطاء فظيعة.

كانت تجربة مُريعة بالفعل، فقد جعلت الصيف يبدو شتاءً، والشتاء صيفًا لأخطائها الفادحة في مزج الألوان ورسم الظّلال. فانصرفت عن هذا وخطرت لها فكرةً أخرى.

وما كانت تلك الفكرة إلاّ الفحم، وبالفعل باشرت به وكان أوّل ما رسمته صورًا فرديّة لكلّ أفراد أسرتها، وعلّقتها جنبًا إلى جنب، كانت مريعة أيضاً وكأنّها أشباح خاوية. فالأعين زائغة، والوجوه مغبرّة وشاحبة. فكّرت كثيرًا كيف تتخلّص من مشكلة الفحم، فعادت مرّةً أخرى للألوان الزيتيّة. وأعادت ترميم الصّور فحسّنت من شعر بيث وعيني لوري وأنف جو وفم ميج.

رأت أنّ الفحم لن يجدي نفعًا، فخطر لها أن تعود

لسيرتها الأولى، لذا رجعت للتماثيل الطّينيّة وملأت بها أرجاء المنزل، غالبًا ما كانت تماثيلها مُتزعزعة غير ثابتة وكثيرًا ما وقعت على النّاس. هذا عدا قبح الأشكال المريبة للأشخاص الذين تجسّدهم. وعندما يضيق بها الحال ترسل في طلب جيرانها من الأطفال لتجسدهم على هيئة تماثيل فتكون النتائج حدّث ولا حرج. كلّ ذلك دفعهم أن يطلقوا عليها لقب (الغولة الصغيرة).

ولما كادت تتقطّع بها السّبل، لم يعد أمامها سوى أن تصنع تمثالاً لنفسها، فصعدت ذات يوم للعليّة وعجنت الكثير من الصلصال، ووضعت فيه قدمها الجميلة علّها تحصل على تحفةٍ فنيّةٍ رائعة، وما هي إلّا دقائق معدودة حتّى دوّت صرخةٌ منها، وركض كلّ من في المنزل بهلعٍ شديد لدى سماع صوتها. وعندما صعدوا إلى العليّة وجدوا فنّانتنا الغريبة تركض وتثب وفي قدمها الجصّ الملتصق، وهي ترتعد محاولةً أن تفكّها.

هرعت إليها جو لتنقذها وكاد يغمى عليها من شدّة الضحك. أخذت سكّينها وغرستها في الجصّ فسبّبت جروحًا كثيرةً في القدم النّاعمة، قالت جو:

«ستكون هذه الجروح ذكرى أبدية للمحاولات الفنّية الفاشلة».

أخذت الفتاة فترة هدنة، استعادت فيها نشاطها وهمّتها،

t.me/yasmeenbook

وما لبثت أن أعادت النّظر فيما تصنع، فربّما يكون سبب الفشل قلّة الخبرة والحيلة لا أكثر، فانطلقت للحقول والوديان ترسم الطّبيعة والنهر والصخور وكلّ النباتات المختلفة.

ثمّ رسمت الغيوم المُتلبّدة في السماء، ولم تكترث لرداءة المناخ فكانت تقضي كلّ الأوقات جالسةً على العشب النديّ، حتّى أصابتها نزلات برد كبيرة وضربتها الحمّى. وسبّب ذلك لها اسمرارًا وحروقًا في بشرتها الناعمة الجميلة لكثرة ما جلست في قاربها تجدّف في النهر، وتقتنص الفرصة لتعلّم قواعد رسم الضوء والظّلال.

إذا كانت العبقرية لا تُكسب إلّا بالصّبر كما قال مايكل إنجلو، فستأخذ آيمي النصيب الأكبر من تلك المنح الإلهيّة لأنّها كافحت وثابرت على الرغم من كلّ العقبات والإخفاقات والإحباط، إيمانًا راسخًا منها أنّه في الوقت المناسب يجب أن تفعل شيئًا عظيمًا يطلق عليه (الفنّ الراقي).

في غضون ذلك كانت تتعلّم وتفعل وتستمتع بأشياء أخرى أيضًا غير الفنّ، لأنّها عقدت العزم على أن تكون امرأةً جذّابة وملفتة للأنظار، حتّى لو لم تصبح فنّانة رائعة. وهنا نجحت بشكلٍ أفضلٍ لأنّها كانت تتعلّم كيف تتكلّم ومتى تصمت، وكيف تختار المكان والزمان المناسبين.

وكانت تنشّر السعادة والبهجة في قلوب كلّ المحيطين بها دون أدنى جهدٍ، لأنّها كانت تعلم كيف تسعد وترضي الجميع بسهولة. كانت تكوّن صداقات في كلّ مكان، وتأخذ الحياة بسلاسة وليونة بحيث تغري النفوس المحيطة بها أنّهم قد ولدوا وفي فمهم ملعقة من ذهب. لدرجة أنّ أخواتها اعتدن أن يقلن:

(لو ذهبت آيمي إلى المحكمة دون أيّ استعداد مسبق، فإنّها تعرف بالضبط ماذا يجب أن تفعل.)

كان المال، الجاه، اللطافة، الأناقة، والتصرّفات الأرستقراطيّة النبيلة أكثر ما يهمّها في الحياة، وكانت حريصة كلّ الحرص أن تظلّ برفقة من ينعمون بتلك الميّزات.

لم تنسَ أبدًا أنّها كانت سيّدةً لطيفةً منذ ولادتها، فقد عزّزت هذا الشعور ونمّته كي تكون مستعدّة لتتمركز في المكان الذي صنعته في مخيّلتها، بدل الفقر اللعين الذي خطفها منه.

كانت كلمة: (سيّدتي) كما دعاها أصدقاؤها الكلمة الأحبّ على قلبها. وهذا ما أرادته وما طمحت له منذ البداية. لكن غاب عن عقلها أو نقصتها الحكمة لتدرك أنّ المال إن المال لا يستطيع السعادة دائماً.

وذات يوم، اقتنصت الفتاة الفرصة المناسبة لتتكلّم مع

t.me/yasmeenbook

أمّها في موضوع ذي أهميّة (بالنسبة لها على الأقلّ):

«أريد منك خدمةً يا ماما».

قالت الأمّ:

«ما هي يا طفلتي؟»

وبالرغم من أنّ الفتاة أصلًا ما عادت طفلة إلّا أنّها تظلّ هكذا في عيون الأمّ الرؤوم مهما بلغت من العمر.

قالت آيمي:

«أمّي، باتت العطلة قريبة جدًا، وأريد أن أدعو صديقاتي إلى هنا في منزلنا في أحد الأيّام قبل ابتداء العطلة، أي خلال أسبوع. تتوق الفتيات لرؤية النّهر والجسر المكسور، ونقل بعض رسوماتي من دفتر الرسم. إنّهن مثاليات، لم تشعرنني مرّةً بالفرق بيننا وبينهنّ، وأريد أن أكافئهنّ على كرمهنّ وأخلاقهن معي، لو كان لديّ أصدقاء غيرهنّ ربما عايروني بفقري وحاجتي».

سألت السيّدة مارش بحزم وكبرياء:

«ومن قال إنّ هناك فوارقَ أو اختلافات بيننا وبينهنّ؟»

قالت آيمي بجرأةٍ:

«حسنًا أمّي دعينا لا نختبئ خلف أصابعنا. يوجد دائمًا فروقات بين الناس، ليس الغنيّ كالفقير ولا الفقير كالغنيّ. فحتّى في مجتمع الدجاجات، لن تسلم الكتاكيت

الصغيرة الضّعيفة من تلك القويّة، وستنقرها وتستهدفها تمامًا مثل مجتمع البشر، وستغضب الدّجاجة الأمّ وتحزن على صغارها تمامًا مثلما غضبت أنتِ الآن. كما تعلمين، البجعة الصغيرة الجميلة كانت نفسها تلك البطة الصغيرة الدميمة».

ضحكت آيمي ضحكةً مريحة، ولم تتنغّص بالرغم من أنّ الموقف يستدعي تلك الغصّة والمرارة؛ كانت ذات مزاج متفائل وروح مفعمة بالأمل متصالحة مع ذاتها تمامًا.

ضحكت الأمّ أيضًا من طريقة تصوير آيمي للموقف وطرافة حديثها، ممّا جعلها تغضّ الطّرف عن تلك الأفكار المقيتة الّتي ما تبنّتها يومًا، فظلّت ترى أنّ المال وسيلة وليس هدفًا بذاته، قالت:

«حسنًا يا بجعتي الجميلة. هل خطّطت لشيء ما؟»

قالت آيمي:

«دعوةٌ على الغذاء، وبعد الانتهاء آخذهنّ في جولة إلى كلّ الأماكن التي يريدن أن يتفسّحن فيها. ثمّ نستمتع في جولةٍ بالقارب، ونجذّف في النّهر. حسنًا بإمكانك القول إنّها رحلةٌ فنيّة، لن ينسينها أبدًا».

قالت الأم:

«حسنًا هذا يبدو جيّدًا. ماذا تريدين على الغذاء؟، ربّما الكيك، السندويشات، الفاكهة والقهوة».

t.me/yasmeenbook

قالت آيمي بلهجةٍ معترضة:

«أوه، عزيزتي، لا!. يجب أن نعدّ لسانًا باردًا مقدّدًا، وبجانبه الصوص السائل ودجاجاً وشوكولاتة فرنسيّة ومثلّجات، فقد اعتادت الفتيات على مثل هذه الأشياء، وأريد أن يكون غدائي مناسبًا وشهيًّا، على الرغم من ظروفنا الصعبة».

سألت الأمّ:

«وكم عدد البنات؟»

أجابت آيمي:

«لا يتجاوز اثنتي عشرة أو أربعة عشرة. لكنّني أعتقد أن لا تأتين جميعهنّ».

قالت الأم:

«فليرحمني اللّٰه يا ابنتي، ستدفعين مصروفك لسنة كاملة!، وسيكون عليك استئجار عدّة عربات لنقل هذا الحشد».

قالت آيمي:

«لماذا يا أمّي؟، كيف تفكّرين بهذه الطّريقة؟، من المحتمل ألّا يأتي أكثر من ستّةٍ أو ثمانية، لذلك سأستأجر عربة شاطئ، أو أستعير عربة السيّد لورانس».

قالت الأمّ:

«سيكلّفك هذا كثيرًا يا آيمي».

أجابتها آيمي على الفور:

«ليس كثيرًا. لقد حسبت التكلفة وسأدفعها بنفسي».

قالت الأمّ:

«ألا تعتقدين يا عزيزتي أنّ هؤلاء الفتيات معتادات على مثل هذه الأشياء، وأن أفضل ما يمكننا فعله لن يكون جديدًا عليهنّ؟. بعض الخطط الأبسط ستكون مرضية أكثر لهن فتخرجهن عن نطاق المألوف، كتغيير إن لم يكن أكثر. ألا ترين أنّ هذا أفضل بكثير من شراء أو استعارة ما لا نحتاج إليه؟، لا أظنّ أنّ من الصّواب أن نسلك طريقًا لا يتماشى مع ظروفنا ولا أساليبنا».

قالت آيمي بعنادٍ أكثر لما رأته من محاولة الأمّ التملّص من تلك الدعوة، وحتّى ولو كانت لأسباب تبدو محقّة:

«أمّي، أريد أن تظهر وليمتي بالمظهر اللائق. إن لم تكن كما أتمنّى وأهوى فلا أريدها بتاتًا، وسألغي الفكرة من أصلها. أنا سأتكفّل بكلّ شيء وسأدفع من جيبي الخاصّ، وما عليك أنت وأخواتي إلّا أن تقدّمن لي بعض العون والمساعدة، والقليل من الإشراف وسيكون كلّ شيء على ما يرام».

كانت السيدة مارش تعي تماماً بأن التجربة خير مُعلّم.

t.me/yasmeenbook

وبعد برهة من التفكير، وجدت أن تترك ابنتها تخوض تجربتها، وتتعلّم الدروس الثمينة من كيسها الخاص كما يُقال، لأنّ النّفس البشريّة تميل للمعارضة والمكابرة، وهي تعلم أطباع فتياتها جيّدًا، وتعرف كيف تعطي لكلٍّ منهنّ دواءها الشّافي. فقالت:

«حسناً يا عزيزتي آيمي. سأوافق على الأمر شريطة ألّا يكلّفك الكثير من المال والعَزيمة والوقت. كوني معتدلة واحسبي لكلّ شيءٍ حسابه، وسأساندك في تلك المهمّة ما استطعت. استشيري أخواتك في الأمر كلّه، وانظري ماذا ينصحنك».

قالت آيمي:

«لقد غمرتني بعطفك وكرمك يا أمّي أشكرك كثيرًا».

وسرعان ما راحت آيمي تقصّ على أخواتها وتلقي ما في جعبتها. وافقت ميج في الحال، وأبدت استعدادها لتقديم كلّ مساعدة ممكنة. لكنّ جو امتعضت من الفكرة، ووجدتها مضيعةً للوقت والمال من دون أيّ طائل، وصرّحت أنّها لن تتدخّل في شيء منذ البداية. وزاد من حدّة جواب جو الّلاذع أنّها كانت تعصر رأسها لتجد مخرجًا للرواية وحبكة مناسبة تختم بها قصّتها الدراميّة التراجيديّة، فتجعلها أكثر ألمًا وسوداويّة.

قالت جو:

«واللّه إنّك فقدت عقلك، وأنا التي كنت أحسبك العاقلة الواعية!، قولي لي: ما الّذي ستجنينه من تلك الوليمة غير التعب والعذاب؟. فضلاً عن التّكاليف الماديّة وأنت بالكاد تجمعين قوت عيشك!. وكلّ هذا لماذا؟، هل تستحقّ تلك الفتيات اللاتي لا يعرفن شيئًا في الحياة سوى ارتداء الأحذية الفاخرة وركوب العربات المقفلة، أن تقلبي لأجلهنّ بيتنا رأسًا على عقب!»

غضبت آيمي، وكان هذا أمراً غير مستهجن بين الفتاتين، إذ كانتا مثل الزيت والنار، ما إن تحتكّا حتّى تشتعلان بقوّة، قالت:

«ومن قال إنّني أستجدي عطف أولئك الفتيات!، إنّهن صديقاتي ويحببنني مثلما أحبّهنَ. بيننا مزايا مشتركة من الحسّ المرهف والذّوق الرفيع، وإن كنت أصلًا تعتبرينه سخفًا!. طباعك غير طباعي، فأنا أحبّ أن أختلط بالمجتمعات الرّاقية، لأهذّب ذوقي وأنمّي قدراتي وأقصد الاستفادة القصوى من كلّ فرصة تأتيني. وأرجو أن تنتبهي لأسلوبك معي مرّةً أخرى!، اهتمّي بشؤونك وانتبهي كيف تهيمين في الحياة وحدك بلا سند ولا رفيق أو خطّة حتّى، واعتزّي بنفسك وسمّيه استقلالًا كما شئت. أمّا أنا فلن أتبّع نهجك أبدًا».

ما إن سمعت بيث وميج تعريف آيمي المبدع

t.me/yasmeenbook

للاستقلال، حتّى انفجرتا ضاحكتين، وتغيّر منحى الحديث ليصبح أكثر لطافةً وهدوءاً. إذ إنّ آيمي بقوّتها ومنطقها السّليم، والطريقة الّتي سنّت بها لسانها للمواجهة والتّحدي، أسكتت جو التي لم يكن يعنيها هذا النقاش أصلًا. وافقت جو على مساعدة أختها على مضض، بعد إلحاح وإقناع كبيرين من الموجودات، وضحّت بيومٍ كامل للسيّدة (جراندي) كما كانت تدعوها، ولكنّها ظلّت مصرّة على أنّ كلّ ذلك عبث لا معنى له.

سرعان ما أرسلت الدّعوات، وتفاجأت آيمي بأنّ واحدةٌ منهنّ لم ترفض المجيء، وكان الموعد يوم الاثنين. ثمّ بدأت النّكبات تتوالى واحدةً تلو الأخرى.

ابتداءً ببيث التي تعرّضت لنزلة برد أقعدتها في الفراش، فاعتذرت عن المساعدة، ثم ضيوف ميج المفاجئين، الذين جعلوها تضطرّ لأن تلزم منزلها معهم. وجو التي ساعدت، ويا ليتها لم تساعد، فقد كسرت الأطباق من شدّة شرودها، وارتكبت أخطاء فادحة عجزت الأمّ وهانا عن إصلاحها... يبدو أنّها كانت تفكّر بحبكاتٍ معقّدة!.

أمّا بالنسبة للطاهية هانا المسكينة، فمجرد فكرة الضغط الذي سينهال عليها جعلتها لا تحسن الطبخ، فأفسدت الدجاج بكثرة السّلق، وملّحت اللسان حتّى أصبح طعمه قبيحاً، ولم تصبر على المثلّجات حتّى تتجمّد تمامًا. هذا

عدا التأفّف والتّذمّر من تأجيل الغسيل والكيّ وتوضيب الخزائن بسبب العزيمة الكبيرة. أمّا وجهها العابس الكئيب، فقد كان له حكايةٌ أخرى!.

كانت تكاليف الحلوى والكعك مرتفعة، وزاد الطين بلّة أنّ أجرة العربة كانت ضعفي ما حسبت له آيمي، وأتت مصاريف صغيرة لم تخطر ببالها فزادت من أعبائها، وفاض بها الأمر واضطّرت للاستدانة، ومع هذا لم تيأس وكان شعارها أنّ كلّ مشكلة لها حلّ، وأنّها لن تستسلم أبدًا لأيّ عقبات. أمّا البقيّة فأطلقن على هذه العزيمة (نكتة العام!).

ثمّ أتى الموعد المحدّد، وحدث تبدّل طفيف في الطقس جعلهنّ يتخذن قرارًا بالتأجيل ليوم الثلاثاء إذا ما زاد الطّقس سوءًا، فزادت مشقّة الأمر على جو هانا.

استيقظت آيمي عند الفجر ونظرت مطوّلًا من النّافذة، فكان الطقس محيّرًا؛ تارةً تمطر وأخرى تصحو. فلم تدرِ ماذا تفعل، ثمّ أيقظت أخواتها لتناول وجبة إفطار سريعة، ريثما ترتّب المنزل.

نظرةٌ خاطفةٌ على الصّالون كانت كفيلة لتشعرها بمدى فقرهم وقلّة حيلتهم، ولكن لا يأس مع آيمي، وليس ذلك وقت التأفّف والتحسّر. ركضت وأحضرت الكراسي ووضعتها فوق أطراف السجادة المهترئة، وغطّت البقع على الجدران بلوحاتها الزيتيّة، وملأت الرفوف الفارغة

t.me/yasmeenbook

والخزائن القديمة بتماثيلها الطينيّة، وساهمت جو أيضًا بتلك المهمّة فنشرت باقات الأزهار في كلّ مكان فازداد المنزل جمالًا ورونقًا.

تجهّز كلّ شيء وألقت سيّدة العزيمة نظرة خاطفة على كلّ شيء وقالت:

«رائع».

وكانت أقصى أمنياتها ألّا تنكسر الأواني الخزفيّة والزّجاجية، كي تعيد كلّ ما استعارته للناس سالمًا مسلّمًا، ولا تتكلّف فوق تكاليفها الباهظة. وانطلقت العربات تجرّها الأحصنة لتحضر المدعوّات، وتعهّدت الأمّ وميج بمهمّة استقبال الضيوف، في حين تطوّعت بيث لمساعدة هانا من وراء الكواليس. أمّا جو فقد لبست ملابسها بملل، وتعهّدت أن تكون بشوشة لطيفة المعشر مع الجميع. راحت آيمي تهنّئ نفسها وتتخيّل كيف ستمضي أوقاتًا سعيدةً بعد الغداء حين تبدأ التّجوّل حول المنزل في نزهة فنّية.

خفّت الحماسة مع هطول الأمطار وقت الطعام، وتعبت آيمي لكثرة ما تنقّلت بين الغرفة والصالة بانتظار المدعوّات، وفي الساعة الحادية عشر اشتدّ المطر وزاد غزارةً وراحت الفتيات تعقدن العزم أنّ الدعوة ستؤجل للثلاثاء. وتأكّد لهنّ ذلك عندما أصبحت الساعة الثانية

ظهرًا ولم تأت ضيفة واحدة. جلست الأمّ والبنات يأكلن بعض الأصناف الّتي لا تصمد ليوم آخر، وتأجلت العزيمة إلى يوم الثلاثاء.

في صباح الثلاثاء استيقظت آيمي بنشاط علّها تفرح بهذا اليوم وتأتي ضيفاتها. قالت:

«الشمس ساطعة والطقس معتدل ودافئ، ستأتي الفتيات اليوم وسأحظى بيوم ممتع. يا إلهي ليتني لم أخيّرهنّ بين اليومين، لكنّ حضرن بالأمس ولبقي الطعام طازجاً وكذلك الحلوى. ولما بردت حماستي وهمّتي».

بعد حوالي نصف ساعة خاطب السيّد مارش زوجته بيأسٍ بعد أن عاد من السّوق:

«لم أتمكّن من إحضار الكركند، لذلك سيكون عليك الاستغناء عن سلطة المايونيز اليوم».

قالت مارمي:

«لا عليك يا عزيزي سأستخدم الدجاج، وإن كان قاسيًا بعض الشيء فلا يهمّ».

تدخّلت بيث في الحديث، وكانت لا تزال متيّمة بالقطط ولديها الكثير منها:

«تركت هانا الدجاج على منضدة المطبخ دقيقة، فأكلتها القطط. أنا آسفة جدًا يا آيمي».

t.me/yasmeenbook

قالت آيمي بانزعاج:

«إذًا عليّ أن أذهب فأدبّر كركند آخر من السّوق، فاللسان وحده لا يكفي».

قالت جو بشهامتها المعهودة:

«هل أذهب أنا وأحضر ما تريدين؟»

أجابتها آيمي وقد توتّرت أعصابها وبدأت تفقد هدوءها:

«كالعادة، سوف تتأبّطينه وتأتين به دون تغليف أو تعليب، وسوف تزعجيني بدل أن تريحيني، لذا سأذهب بنفسي».

بسرعة البرق تجهّزت آيمي ووضعت قبّعة رقيقةً تتدلّى منها قطعة دانتيل شفافة تغطّي نصف عينيها الجميلتين، وأخذت سلّتها وذهبت للسوق تتبضّع. تبدّل الطقس ومال للبرودة أكثر، وبالكاد استطاعت برودته أن تخفّف من حرارة الفتاة المنفعلة.

أحضرت حاجيّاتها واشترت علبة مايونيز جاهزة لتختصر الوقت في المنزل، وجلست في العربة وعادت لها بعض الحماسة للدعوة.

كانت في العربة راكبةٌ واحدةٌ فقط، وهي سيّدة عجوز نائمة، فرفعت آيمي قطعة الدانتيل عن عينيها، وراحت

تسلّي نفسها في الطريق من خلال محاولة معرفة أين ذهبت كلّ أموالها، وانشغلت أكثر فراحت تجمع رقمًا وتطرح رقمًا ولم تلاحظ الرّاكب الجديد في العربة، والذي صعد أصلًا دون أن تتوقّف. قال الشّابّ:

«صباح الخير يا آنسة مارش».

ونظرت إليه وإذ به أحد أصدقاء لوري الأكثر أناقة في الكلّية.

ردّت الفتاة التّحية بلطف وعذوبة.

تأمّلت آيمي بشدّة أن ينزل الفتى قبلها، فلا يلمح سلّتها المتواضعة وما فيها من طعام. وأزاحت السلّة بخفّة عند قدميها باتجاه العجوز وتجاهلتها تمامًا، وهنّأت نفسها على أنّها ارتدت فستان الرّحلات الجديد، وظلّت تتحدّث إليه بنبرةٍ متعالية.

لم تتحقّق أمنيتها، فنزلت العجوز قبله، وارتطمت بالسلّة وهي تمرّ، فأوقعتها وظهر ما فيها، واستقرّ الكركند عند قدمي الفتاة.

قالت آيمي في سرّها:

«يا للخزي أمام صديق آل تيودور يا إلهي».

صاح الفتى بعد أن أعاد الكركند للسلّة دون أن يلمسه، بعصًا كانت بيده وهمّ بمناولة السلّة للعجوز:

t.me/yasmeenbook

«مهلًا، لقد نسيت طعامها».

غمغمت آيمي واحمرّ وجهها ربما أكثر من احمرار الكركند الذي كان بحوزتها:

«من فضلك لا، لا، إنّه لي أنا وليس للعجوز».

بكثيرٍ من الأدب واللباقة الدّالين على عراقة ونبل أصله، قال:

«أوه، حقًا، أستميحك العفو. إنّه جميل جدًّا وغريب، أليس كذلك؟»

هدأت نفسها وارتاحت لعذوبة كلماته، ووضعت سلّتها بجرأة على المقعد وقالت ضاحكةً:

«ألا تتمنّى تناول بعض السلطة التي سينغمس فيها هذا الكركند؟، والاستمتاع برفقة الحسناوات اللواتي سيأكلنه؟».

لم تكن تلك الدعوة عن عبث، فقد أرادت آيمي أن تضرب عصفورين بحجر واحدٍ؛ الأوّل، أن تجعل الموقف أكثر طرافةً فتنسيه قليلًا من الإحراج الّذي أصابها. أمّا الثّاني؛ فأرادت أن ترفع من شان السّمكة فتضيف عليها معاني رومانسيّة لطيفة بوجود الفتيات الجميلات والدّعوة المنشودة.

شكر لها الشابّ لباقتها وحسن دعوتها، ثم انحنى لها ونزل من العربة، قالت في سرّها بعد مغادرته:

«كم سيضحك هو ولوري من الموقف، وكم سيكون ذلك محرجًا، ولكن بما أنّي لست معهما فلم أبالي؟»

وصلت إلى لمنزل فنزلت من العربة، وتذمّرت عندما رأت بقعةً من الزيت متفشّية في أحد جيوبها، بسبب سيلانها من علبة المايونيز الّتي نسيت أن تعيدها للسلة. قالت:

«هذه ليست أهمّ مصائبي».

تكتّمت على كلّ ما حدث معها، وبدّلت ملابسها وراحت تعدّ الطعام من جديد.

شعرت أنّ الجيران كانوا مهتمّين بحركاتها ويراقبونها، فتمنّت طمس ذكرى فشل الأمس بنجاح كبير اليوم، لذلك ركبت العربة من جديد وذهبت لإحضار ضيوفها إلى المأدبة.

قالت السيّدة مارش المضيافة، التي تمنّت من كلّ قلبها أن تقضي آيمي وقتًا ممتعًا بعد كلّ ما تعرّضت له من مشاكل:

«هناك ضجيج، إنّهنّ قادمات! سأذهب إلى الشرفة وألتقي بهنّ».

ولكن بعد نظرة واحدة، تقاعست الأمّ وبردت همّتها بتعبير لا يوصف عندما رأت ابنتها ضائعة تمامًا في العربة الكبيرة، وبجوارها شابّة واحدة فقط.

t.me/yasmeenbook

صاحت جو بلهفة وهي بالكاد تمنع نفسها من الضحك:

«بيث بسرعة ساعدي هانا في إعادة ترتيب المائدة، إذ سيكون من السّخف وضع كلّ هذه الصّحون والطّعام لضيفة واحدة».

دخلت آيمي والضيفة بهدوء، وبالرغم من كلّ هذا فقد كانت آيمي سعيدةً برفيقتها الوحيدة التي لبّت الدعوة، وسرّت الآنسة إليوت بجو الأسرة البهيج من حولها، وتناولن الطعام بسرور وأغدقن على الضيفة كلّ كرمهنّ ودلالهن.

ناقشت الفتاتان أمورًا فنّيةً كثيرة، وأمضتا وقتًا مهمًّا في المرسم، وطلبت آيمي عربةً صغيرةً بحصان واحد، وقادت صديقتها بهدوء بجولةٍ حول الحيّ وظلّت تتنزّه معها حتّى غروب الشّمس.

عندما عادت في المساء وهي تمشي، بدت متعبةً جدًا ولكنّها سعيدة، لاحظت أنّ كلّ ما بقي من الحادثة المؤسفة قد اختفى، باستثناء تكشيرة مريبة حول زوايا فم جو تنذر بغضب شديد.

قالت لها أمّها بكلّ رقّةٍ وعطف، كما لو أنّ شيئًا لم يحصل:

«آمل أن تكوني قد استمتعت حقًّا يا ابنتي».

وقالت بيث:

«الآنسة إليوت فتاة لطيفة للغاية، ويبدو أنّها تعتزّ بنفسها».

سألتها ميج بجدّية:

«هل يمكنك أن تعطيني نصف قالب الحلوى؟، سوف يزورني ضيوف في الغد، ولن أستطيع أن أصنع قالبًا لذيذًا مثله».

قالت آيمي بحسرة على ما آلت إليه الأمور، وكلّ ما خسرته على تلك العزيمة المريرة:

«خذيه كلّه يا ميج، فلن يأكل منه أحدٌ سواي، فأنا أكثر من يحبّ الحلوى هنا، وسيفسد خلال يومين إن لم آكله».

ثمّ تجمّعن يتناولن ما استطعن من المثلّجات وسلطة المايونيز، قالت جو:

«إنّه أمرٌ مؤسفٌ أنّ لوري ليس هنا لمساعدتنا ومشاركتنا في طعامنا اللّذيذ».

نظرةٌ واحدةٌ من أمّها كانت كفيلة لأن تصمت، وواصلن أكلهنّ بجوٍّ من الصّمت الثقيل، قال الأب:

«كانت السلطة من الأطباق المفضّلة لدى القدماء و.».

تعالت القهقهات من الفتيات والأمّ على محاولة الأبّ تلطيف الجوّ بشكل كوميديّ عن تاريخ السّلطات.

t.me/yasmeenbook

بلّلت الدموع وجنتي آيمي وقالت بانكسار:

«أمّاه. أرجوك ضعي كلّ هذا الطعام في أكياسٍ وأرسليه للسيّدة هامل. سيفرح أولئك الألمان بهذه الكمّية الهائلة. لا داعي لأن يتلف في المنزل، وهم بحاجة للطعام، أخشى عليكم إن ظللتم تتناولون منه أن تصيبكم التّخمة أو سوء الهضم».

صاحت جو:

«انكسر قلبي وحزنت عندما رأيت العربة تفيض بك وبصديقتك. ثمّ ضحكت عندما رأيت كيف أسرعت أمّي لاستقبال حشد الضّيوف».

رقّ قلب الأمّ وقالت بأسفٍ شديد:

«أنا آسفة لأنّك أحبطت يا عزيزتي، لكنّنا بذلنا قصارى جهدنا لإرضائك».

قالت آيمي وفي صوتها رعشةٌ:

«أنا راضية. لقد قمت بما التزمت به، وليس خطئي أن حدث ما حدث وهذا عزائي. أشكركنّ جميعًا على مساعدتي. وسأشكركنّ أكثر وأكثر إن لم تلمّحن إلى هذا الموضوع طوال شهر كامل. من فضلكنّ اجعلنه طيّ الكتمان».

لم يُثر أحدٌ الموضوع طوال شهور، ولكنّ كلمة وليمة

وحدها كانت تبعث على الابتسام بين الجميع... وكانت هديّة لوري لآيمي في عيد ميلادها قلادة صغيرة حمراء اللون على شكل كركند البحر!

t.me/yasmeenbook

الفصل الرابع

دروس أدبيّة

جميلٌ أن يضحك الحظّ في وجهِك، لكنّ الأجمل أن يحصل هذا فجأةً دون أيّ حسبان، وهذا تمامًا ما حدث مع جو، وقد كان وقعه عليها أجمل من نصف مليون دولار تسقط فجأةً في حضنها.

كانت جو مثل أكثر الكتّاب لها طقوسها الخاصّة، وروحٌ معنويّةٌ تحمل طاقةً دائمة التدفّق، إن أقبلت على العمل لا تتوقّف حتّى تعطيه من قلبها وتغذّيه من روحها. وكان من طقوسها العجيبة ملابسها، فعندما يشتدّ الضغط عليها وتنخرط في العمل أكثر تحبس نفسها في غرفتها مطوّلًا، وترتدي بدلة خاصّة، إن أمكن أن يكون لها اسم، فسوف نسميها: بدلة الإلهام، وهي عبارة عن ثوب من الصوف الممتلئ بالبقع تمسح الأقلام فيه طوال الوقت، مع قبّعة من نوعية القماش نفسه ولكنّها مزركشة وملوّنة.

كلّ يوم تلفّ جو خصل شعرها بالقبّعة وتبدأ العمل، ولطريقة وضع الطاقية عدّة معاني تستدلّ بها العائلة الفضوليّة على وضع جو الإنتاجي، سأذكرها هنا على عجل:

- إذا كانت مشدودة للأسفل فهذا يعني أنّ جو في قمّة الجهد والعطاء، وأن الوحيّ يخيّم فوق رأسها.
- إذا حرفتها قليلًا عن جبهتها باتّجاه الأذن، فهذا يعنيّ أنّها ثائرة ومنفعلة.
- عندما لا تلبسها أصلًا: هنا يكون اليأس قد استولى على الكاتبة، وعجزت عن إيجاد الحبكة المناسبة، واضمحلّت عبقريتها تمامًا، فترميها على الأرض.

وفي مثل تلك الأوقات الصّعبة يتجنّب كلّ من في المنزل إلقاء أيّ كلمةٍ في وجهها، مخافة أن تثور عاصفةٌ لا تحمد عقباها، إلى أن يلهمها اللّٰه وتلبسها من جديد فتعود الأمور إلى نصابها.

وكان من طقوس العائلة أن يسترقوا النظر من فتحة الباب، أو يشقّوه قليلًا ليروا في أيّة وضعية هي قبعة جو، وفي بعض الأحيان يسألونها:

«كيف حال عبقريّة عائلتنا؟»

t.me/yasmeenbook

كانت تعتكف كلّيًا عندما ينزل الوحي عليها، وتنكبّ على أعمالها فتنسى الطّعام والشراب والنوم، وأيّ متعٍ أخرى وتصدّ عنها، فلا تجد لأيّ شيء معنى إلّا الكتابة. ولا تهتّم إلاّ بأولئك الأشخاص الذين تكتب عنهم فتغالي في الأمر لدرجة أن تتخيّل نفسها تعيش معهم تحدّثهم وتسمعهم وترشدهم.

كلّ هذا ولم تعتبر جو نفسها عبقريّة، بل كانت ترى أنّ الفضل للإلهام فقط. وتبقى على تلك الحالة إلى أن تضيق بها السبل ويختفي الوحي، فتعود للبحث عن الطعام والشراب وتغطّ في نومٍ عميق أو تعود لبعض الهوايات السابقة.

وفي إحدى فترات الراحة تلك، أُجبرت جو على مرافقة السيّدة كروكر إلى ندوةٍ اجتماعيّة تاريخيّة، وكانت فكرة سديدة لأنّ شيئًا ما قد ساعدها وأعطاها إلهامًا جديدًا.

كانت محاضرةٌ عن الأهرامات المصريّة، وتساءلت جو عن سرّ اختيار مثل هذا الموضوع لمثل هكذا جمهور، لكنّ الأستاذ المُحاضر اعتبر أنّ في ذلك إصلاحًا اجتماعيًّا بالكشف عن أمجاد الفراعنة. لكنّه أخطأ التقدير لأنّ أغلب الحضور هنا مشغولين بسعر الفحم والطحين، وتضخيم مسائل وأمور بسيطة، وجعلها لغزًا أصعب من ذلك الذي في أبي الهول نفسه.

مرّ الوقت ببطء على جو، فراحت تحدّق في الناس من حولها، أوّل ما سقطت عيناها عليه كان امرأتين بدينتين نبيلتين تعتمران قبّعتين كبيرتين، وتتحدّثان عن المرأة وحقوقها. ورأت رجلًا عجوزًا يأخذ قيلولة بعد الظهر، وقد غطّى وجهه بالكامل بمنشفة صفراء مزركشة، وعجوزًا بائسًا آخر حزينًا يأكل حلوى النعناع من كيسٍ ورقي. وفي الجهة المقابلة جلس زوجان متواضعان يبدوان كعاشقين، يمسكان بيدي بعضهما بعضاً غير آبهين بمن حولهما.

وفي قاعة المحاضرات تعرّفت إلى شابّ كان يجلس بجوارها من جهة اليمين، ومستغرقًا في قراءة جريدة.

لقد كانت قصّة مصوّرة، ودقّقت جو في اللمسات الفنّية فيها، متسائلةً ما هذا التسلسل العرضي الرّكيك، ولاحظت تصويراً ميلودرامياً رديئاً لرجل هنديّ يرتدي زيّ الحرب الكامل، يتدحرج على حافة الهاوية والذئب في قاعها، مع شابّين غاضبين صغيري الحجم بعيون مدوّرة وأطراف طويلة، عجيبة وغير متناسقة. وفي رسمةٍ أخرى كانا يطعنان بعضهما بعضاً.

كانت ثمة شابّة تتمايل في مشهد آخر وفمها مفتوح على مصراعيه.

ولمّا وجدها الشّاب مهتمّةً بما يقرأ، توقّف عن تقليب الصّفحات، وأعطاها نصف الجريدة وقال:

t.me/yasmeenbook

«هل تريدين قراءتها؟ هذه قصة ممتازة».

«قبلتها جو بابتسامة، وكانت الفتاة ما زالت تميل للتشبّه بالذّكور، فتعاملت مع الشّاب بأريحيّة مُطلقة، وغاصت في القصّة فكانت متاهة في الحبّ والغموض والقتل المعتاد، ولأنّ القصة تنتمي إلى تلك الفئة من الأدب الخفيف الذي يحقن العواطف ويجيّشها ويصل بك لقمة الانفعال، إلى أن يتخلّص الكاتب من نصف الأبطال تاركًا النصف الآخر ينعمون بنهايات جميلة دراميّة.

سأل عندما رآها تنتهي من القراءة:

«عظيمة؟ أليس كذلك؟».

أجابت جو وقد تقزّزت من هذا اللون التّافه في نظرها من الأدب:

«أعتقد أنّك وأنا يمكن أن نكتب أفضل منها إذا حاولنا».

قال مندهشًا:

«أعتقد أنّني سأكون محظوظًا جدًّا إذا استطعت».

ثمّ أشار الشابّ إلى اسم نورثبوري تحت عنوان القصّة:

«هذا هو اسم الكاتبة، إنّ في مثل هذه القصص مورد رزق كبير، كما يقولون. إنّها تكسب الكثير فعلًا».

سألت جو بلهفة كبيرة:

«وهل تعرفها؟»

أجاب:

«لا، ليس معرفةً شخصيّة. لكنّني قرأت كلّ مقالاتها، وأعرف زميلًا يعمل في دار النّشر حيث تطبع رواياتها وقصصها».

أعادت جو النظر ثانيةً للقصّة والصور التعبيريّة فيها، ولكن هذه المرّة باهتمام أكبر، ورشّت علامات تعجب كثيفة على الصفحة، وسألت:

«هل قلت إنّها تكسب الكثير منها؟»

قال:

«نعم، أظنّ ذلك، فهي تعرف الذوق العامّ وتؤلّف كما يريد القرّاء».

بدأت المحاضرة، وعلا صوتُ عزفٍ جميلٍ على آلة البلوز، ولكنّ جو لم تُلق بالًا لها. فبينما كانت الأستاذة ساندز تغوص في أعماق خوفو، والجدران الهيروغليفيّة الفرعونيّة، كانت جو منشغلةً بالتّفكير في الكتابة إلى الصّحيفة، وفي الجائزة التي يمكن أن تحصل عليها لقاء قصّة عاطفيّة مثيرة. وما إن انتهت المحاضرة ونهض الموجودون، حتّى كانت عناصر القصّة العميقة قد تجمّعت في مخيّلتها، وراحت تستعرضها في ذاكرتها، لا بل وتعدّ المئة دولار في خيالها الواسع دولارًا دولارًا.

t.me/yasmeenbook

لم تنبّئ جو أحدًا عن خطّتها، بل انكبّت على كتابتها في اليوم التّالي، ممّا أثار قلق والدتها، ولكنّ اعتكافها في كهفها الأدبيّ أصبح أمرًا روتينيًّا.

قالت الأم:

«يبدو أنّ العبقريّ في أوجّ إبداعاته الآن».

وبدأت روايتها، وكان ذلك نوعًا جديدًا غير محبّب بالنسبة لها، إذ في السابق ركّزت على الروايات العاطفيّة الكلاسيكيّة، لكنّ تاريخها وسجلّها الحافل بالأعمال المسرحيّة والمطالعة ساعدها كثيرًا وسهّل عليها الأمر. كانت القصّة حزينة وكئيبة وختمتها بزلزالٍ مدمّرٍ واختارت أرض لشبونة في إسبانيا مسرحًا للأحداث، ثم أضافت إليها بعض المنكّهات الأدبيّة. وعندما فرغت أرسلتها بالبريد إلى الصّحيفة، مشفوعةً بملاحظة:

«إن لم تنل القصّة الجائزة، فسأكون سعيدةً بأيّة مكافأةٍ تستحقّها ولكم جزيل الشّكر».

كانت الأسابيع السّتة الموالية فترة طويلة، والأطول من ذلك صعوبة التكتّم على الأمر، وصبرت جو على الأمرين ولكنّ الصبر طال حتّى كادت تفقد الأمل في نشر قصّتها. ولكنّ رسالةً وصلتها أحيته في نفسها من جديد، وما إن فتحتها حتى رأت ما تمنّت، وجلست على الكرسيّ تلقط أنفاسها، وتمسك المئة دولار في يدها غير مصدّقةً لما ترى.

وكان مع المئة دولار خطاب فتحته ببالغ التأثّر والسعادة.

إنّه لفخرٌ عظيم أن تقرأ عبارات مدحك بنفسك وتتمتّع بها، غسلت تلك الكلمات أثر السنين العجاف التي أرهقت الفتاة ولوّعتها بانتظار أن تحصد ما تزرع.

بفخر الدنيا كلّها واعتزازها دخلت جو على أفراد الأسرة وفاجأتهم بالخطاب في إحدى يديها، والشيك باليد الأخرى معلنةً فوزها بالجائزة. عمّت البشائر جميع من في المنزل، وراحت أختاها تتخاطفان الجريدة لقراءة القصّة، أخبرها والدها أنّ اللغة جيّدة، والرومانسيّة فيها منعشة، والمأساة مثيرة للغاية ثمّ هزّ رأسه قائلًا:

«الأيّامُ طويلةٌ أمامك يا جو، تستطيعين تقديم ما هو أفضل، ولكن أرجو أن تنظري نحو الأسمى ولّا تفكّري بالمال».

قالت آيمي:

«لقد حصلت على الجائزة وهذا هو الأهمّ».

ثمّ سألتها وهي تتأمّل القصة بكلّ خشوع، وكأنّها مخطوطة مقدّسة:

«ماذا ستفعلين بالمال إذًا؟».

وضعت جو الشّيك بيد بيث وأجابت على الفور:

t.me/yasmeenbook

«سأرسل بيث وأمي في رحلة إلى شاطئ البحر لمدّة شهر أو شهرين».

صاحت بيث:

«أوه يا لها من فكرة رائعة. ولكن محال أن أقبل بهذا، إنّه تعبك فاصرفيه أنت كما شئت. لن أكون أنانيّة».

ثمّ أعادت الشيك لجو.

قالت جو بعد أن أعادته لها وضغطت على يدها بقرارٍ حاسمٍ ليس فيه رجعة:

«بل ستذهبان، من أجل هذا بالضبط تعبت وفزت بالجائزة. وانتبهي، لا أريدك أن تعودي لنا إلّا وقد كسبت بعض الوزن وانتفخ خدّاك».

أخيرًا، ذهبت الأمّ وابنتها بيث إلى شاطئ البحر، وكانت جو سعيدةً راضيةً عن الوجه الذي أنفقت فيه جائزتها. كان لتلك النّزهة بالغ الأثر على بيث، بالرغم من أنّها لا زالت هزيلة ولم ينتفخ وجهها أبدًا، إلّا أنّها كانت سعيدة، والأمّ أيضًا شعرت وكأنّ الزمن قد عاد بها عشر سنين للوراء بتلك الرحلة الجميلة.

انصرفت جو إلى العمل مستبشرة، وربحت الكثير من الجوائز التي كانت تنفقها في شراء بعض الحاجات المهمّة للمنزل، ودفع الكثير من الفواتير والنفقات في تلك السّنة. سأذكر بعضًا منها:

- دفعت من ثمن رواية: (ابنة الدوق) فاتورة الجزّار.
- اشترت من قصّة: (اليد السّحرية) سجّادة جديدة.
- ثمّ ألّفت رواية تدعى: (لعنة كوفنتري). استلمت ثمنها واشترت للعائلة ملابس جديدة ودفعت حساب البقّال.

لكلّ شيء في الحياة وجهان متقابلان لا يكتمل أحدهما من دون الآخر، وبنظرة سريعة نرى أنّ الغنى والفقر ما هما إلاّ المكمّلين الضروريّين للحياة، فالثروة شيء رائع، لكنّ الفقر يشعرنا بمدى جمال الثروة إذا ما اكتسبناها.

تذوّقت جو هذا الشّعور ومزجته بالرضا الدائم في كلتا الحالتين. وتوقّفت عن حسد الفتيات الأكثر ثراءً، وخاصّةً بعد أن اطمأنّت عندما أثبتت لنفسها أنّها تستطيع توفير احتياجاتها الخاصّة وكسب المال، ولا تحتاج لأن تطلب من أيّ شخص أن يعطيها دولاراً واحداً.

لم تلفت قصص جو الأنظار كثيرًا، ولكنّها كانت تجد سوقًا رائجًا للنّشر، وهذا ما شجّعها على إعادة نشر روايتها، وتقديمها إلى إحدى دور النّشر التي اشترطت أن تختصرها إلى الثلث، وأن تحذف جميع الأجزاء التي أعجبتها بشكل خاصّ.

لذا جمعت الأسرة بأكملها لتستشيرها في هذا الأمر الهامّ وقالت:

t.me/yasmeenbook

«لقد احترت في أمري. تشترط دار النشر عليّ أن تنشر روايتي، ولكن بعد تقسيمها ليستطيع النّاس شراءها، فأحصل على مبلغ مُعتبَر. أو يتوجّب عليّ أن أطبعها على نفقتي الخاصّة مثلما هي، فلا ينقص منها حرفٌ، أو الاحتمال الأكثر بغضًا وهو ألّا أختار شيئًا، وأكدّس الأوراق في المنزل لترثّ وتبلى. هيّا يا مجلس العائلة، أفتوني في أمري!».

فنصحها الأب ابتداءً وقال:

«لا تفسدي كتابك يا فتاتي، لأنّه يحتوي على أكثر ممّا تقدّرين، لا تتنازلي عن أيّ فقرة منه، فهذه ليست للبيع او الاقتصاص. تحلّي بالصبر فالقادم أفضل».

كانت نصيحته لها من صميم قلبه، وجاءت عن خبرةٍ طويلةٍ متراكمة.

قالت الأمّ:

«أنا أنحاز للرأي الآخر، وحتّى ولو قُسّم الكتاب، فالأفكار التي سيناقش بها الناس ما هي إلّا أفكارك وكتاباتك، لا بأس من مدح الغرباء ونقدهم. سيكون ذلك مفيدًا وصريحًا أكثر من مدحنا نحن وثنائنا، حتّى لو لم تحصلي إلّا على القليل من المال».

قطّبت جو حاجبيها وقالت:

«هذا ما أفكّر فيه، سيكون من المفيد للغاية أن يقرأه أشخاص لطيفون وغير متحيزين، ويخبروني بما يفكّرون فيه».

قالت ميج التي كانت مؤمنةً إيمانًا راسخًا بأنّ هذا الكتاب هو أكثر رواية تعبت من أجلها، وراهنت عليها في تحديد مستقبلها المهنيّ:

«لا يا جو، فجمال القصّة ليس بأحداثها، بل بروح الكاتب ومهارته في السرد والوصف والحوار. لا تتنازلي عن حرفٍ منها. لو كنت أنا الكاتبة لحرصت على ذلك. إن اجتزأت منها قد تؤثّرين على ترابط الأفكار ويضيع القارئ إذا ما أحسّ أنّ أحداثًا ما قد فاتته».

قاطعتها جو لتشير لملاحظة النّاشر وتوصياته وقالت:

«الرجل لم يقل إلّا أن أترك التّفسيرات الشخصيّة جانبًا، فأجعلها مختصرة ودراميّة، وأدع الشخصيّات تحكي القصّة بلسانها».

قالت آيمي العقلانيّة التي تبنّت وجهة نظر عمليّة بحتة عن الأمر:

«افعلي ما يخبرك به. إنّه يعرف ما يُباع، أمّا نحن فلا. ألّفي كتابًا جيّدًا ومرغوبًا لدى القرّاء، واحصلي على أكبر قدر ممكن من المال».

t.me/yasmeenbook

أدارت جو نظرها باتّجاه بيث وقالت:

«وأنت يا بيث ماذا تقولين؟»

تبسّمت، وقالت باختصار شديد:

«كلّ ما أتمنّاه وأحبّه أن أراه مطبوعًا وفي فترة قريبة».

يبدو أنّ هناك لغةً مشتركةً بين بيث وجو جعلت جو تستنبط مأرب أختها، وماذا قصدت عندما شدّدت على كلمة قريبًا، وعرفت أنّها تريد الموافقة، فجاءت كلمتها تلك بمثابة قرار حاسم على القبول بعرض النّاشر، فاطمأنّت جوارحها للفكرة بعد الخوف الشّديد وقالت:

«إذًا سأوافق».

أسرعت جو، وأحضرت القصّة وكأنّها تمدّ جثّةً وتريد تشريحها وتقطيعها، كانت حزينة عليها كما لو كان ما بين يديها وليدها الأول، دعت الجميع، وقالت:

«هيّا إلى الحوار وشاركوني الأفكار».

بعد الجدل البيزنطيّ العقيم، لم يرض أحد برأي أحد، ولم ترض هي إلّا بأفكارها وتشبّثت بها. في البداية أصرّ والدها على الجانب الميتافيزيقيّ الخياليّ في القصة، لم يقنع ذلك جو، ولكنّها جاملته بعض الشّيء. أمّا أمّها فقد لفتت انتباهها إلى كثرة الوصف المبالغ به، والتفصيلات المملّة الطويلة التي وصفتها بالتّافهة.

كان لكلّ من ميج وآيمي رأي منفصل، فميج فضّلت أن تبقي على المآسي، وآيمي كرهت الجانب الكوميديّ ووجدته غير مناسب. فقصّت جو أيضًا كلّ المشاهد المساعدة للقصّة. وظلّت جو تلغي وتحذف إلى أن اختصرت الكتاب إلى الثّلث، وأصبح كالحمل الصغير الذي قصّوا له صوفه وأرسلوه للعالم ليواجه متاعب الحياة.

تمّت المهمّة وطُبعت القصّة واستلمت الثلاثمئة دولار المتّفق عليها، وبدأت المتاعب من جديد عندما انهال الثناء والإطراء والنّقد، وكان النقد أكبر بكثير ممّا توقّعت، فوقعت في دائرة القلق والحيرة، واستغرقت بعض الوقت لتتعافى منها.

قالت جو ما يدور في خلدها لأمّها بصوتٍ عالٍ:

«قلت يا أمي إنّ هذا النقد سيساعدني ولكن كيف ذلك؟. وقد جاءني متناقضًا بحدّ ذاته. لا أعرف ما إذا كنت قد كتبت كتابًا، أو كسرت الأصول والتقاليد، أو ربّما أكون قد أسقطت جميع الوصايا العشر؟»

ثمّ صرخت جو المسكينة وهي تقلّب كومةً من الأوراق ملأها الاطّلاع عليها جميع المشاعر من فخر، فرح، غضب وفزع في دقيقة واحدة:

«يقول هذا الرجل إنّه كتاب رائع ومليء بالحقيقة والجمال والجدّ، وكلّ شيء جميل ومتناسق.

t.me/yasmeenbook

وتابعت الكاتبة الحائرة:

«والآخر يقول إنّ نظرية الكتاب سيّئة، ومليئة بالخيالات المرعبة، والأفكار الروحيّة، والشخصيّات غير الطبيعيّة، مع أنّني حذفت الأفكار الخياليّة ولا أؤمن بالروحانيّة أصلًا، ونسخت شخصياتي من الحياة والواقع، لست أرى كيف يمكن أن يكون هذا الناقد على صواب. ثمّ يقول آخر إنّها واحدة من أفضل الروايات الأمريكيّة التي ظهرت منذ سنوات، ولكنّ ذلك غير صحيح فأنا أعرف الكثير أفضل منها. ثمّ يأتيني أغرب النقّاد ويؤكّد أنّه على الرغم من أنّ الكتاب غير جدير بالاهتمام، إلّا أنّ الكاتبة قد ألّفته بتمكّن وصبّت فيه كلّ مشاعرها وأحاسيسها، فصنعت منه كتابًا عظيمًا. والأغرب من كلّ ما سبق أنّ الجميع تقريبًا يصرّون على أن لديّ نظرية عميقة أطرحها بينما أنا كنت أكتبها فقط من أجل المتعة والمال».

أمعنت التّفكير قليلًا ثم خلصت إلى قناعة:

«أتمنّى لو كنت قد طبعته بالكامل، أو لم أطبعه على الإطلاق. لقد أسيء الحكم على كتابي الأوّل».

كانت تلك الأيّام ثقيلةً جدًّا على جو، وشعرت أنّها بيديها سبّبت لنفسها ما سبّبته، وبدل الإصلاح قد أفسدت الأمر. ولكن مع وجود الأهل والأصدقاء كلّ مُرٍّ سيمر وبالفعل. مَرَّ الأمر عليها واستفادت من الأخطاء

ومن تجربتها، وبفضل النقد ابتعدت عن أسلوبها القديم وحسّنت من مستواها أكثر فأكثر. فالنقد دائمًا يصنع الكتّاب الحقيقيّين. لأيّام طويلة ظلّت تنظر لكتابها الصغير على أنّه طرفة الطرفات وعجيبة من عجائب الدّنيا.

قالت وقد ملأها الفخر والاعتزاز:

«حسنًا، أنا لست عبقريّةً مثل شاعرنا العظيم جون كيتس. لن أموت بسبب ذلك!. يكفيني أنّي كسبت أطروحات طريفة تضحكني كلّما تذكّرتها؛ فكلّ الأجزاء التي أخذتها مباشرةً من الحياة الواقعيّة استنكرت على أنّها مستحيلة وعبثيّة. والمشاهد السّخيفة التي صنعتها من رأسي أعجبت الجميع، وقيل عنها إنّها واقعيّة وجاءت حقيقيّة بطريقة ساحرة ورقيقة.

أليست تلك نكتة الموسم؟، بل وكلّ المواسم!».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل الخامس

تجارب منزليّة

بدأت ميج حياتها الزوجيّة بإصرارٍ كبير على أن تكون ربّة منزلٍ مثاليّة، مثل أي عروس حديثة العهد. ففي نظرها يجب أن تجعل البيت جنّةً لجون، وأن تبتسم دائمًا في وجهه، وأن تطهو له أشهى الطعام يوميًّا، وألّا يضيع أيّ زر من أزراره. كانت تؤدّي مهامها بحبٍّ وبهجةٍ وحيويّة. ونجحت في ذلك، رغم كلّ العقبات التي واجهتها. ولكن لم تكن جنّتها بذلك الهدوء. فقد كانت ربّة البيت الصغيرة بحالةِ توتّرٍ دائم، قلقةً طوال الوقت وصعبة الإرضاء، كثيرة الحركة، وتثقلها الهموم إلى أن تتعب ويصيبها الإرهاق، فلا تستطيع حتّى أن تبتسم.

كما أصيب زوجها بعسر هضم، بسبب كثرة الأطباق الشهيّة، فراح يطلب منها طعامًا خفيفًا. وبالنسبة للأزرار فقد كانت تضيع دائمًا، ممّا جعل ميج تهزّ رأسها حسرة

من إهمال الرجال، وتهدّد جون بأنّها ستترك مهمّة خياطة الأزرار له في المرّة القادمة، ولترى ما إذا كان سيقوم بذلك بإتقان كما تفعل هي.

كان الزوجان سعيدين بالفعل، رغم إدراكهما أنّهما لن يستطيعا العيش بالحبّ وحده. لم ينقص جمال ميج في نظر جون، على الرغم من انشغالها بأعمال المنزل، وبالمقابل لم تشعر هي أنّ انشغال زوجها بسؤالها عن نوع اللحم الذي تريده للعشاء قد خفّف من حرارة قبلاته.

لم يعد البيت الصغير عشّاً للغرام، أصبح مجرّد بيت للسكن، وشعر الزوجان الشابّان أنّ هذا كان تغييرًا للأفضل. ففي البداية كان الأمر وكأنه لعبة يلعبانها كالأطفال الصغار. ثم انشغل جون بالعمل وشعر بالمسؤوليّة تجاه عائلته الجديدة التي شعر بمسؤوليته عنها. وخلعت ميج ثيابها الفاخرة لترتدي مئزرًا كبيرًا، وراحت تنهمك في عملها بطاقة كبيرة.

وكانت ميج مهووسة بالطبخ، فانهمكت بقراءة كتاب (كورنيليوس)، تدقّق فيه وتحلّل وكأنّها تحلّ معادلة رياضية بصبرٍ وإمعان. كانت تدعو عائلتها إلى العشاء في كلّ مرّة تنجح في الطبخ، وحين تفشل ترسل الطعام سرًّا مع لوتي إلى بيت هامل، حيث يختفي الطعام في بطون لا تعرف الشبع. وفي المساء كانت تحسب نفقاتها بجانب

t.me/yasmeenbook

جون، فترى أحيانًا أنّها أسرفت في النفقات فتعقد هدنة مؤقّتة مع حماسها في الطهي، يأكل خلالها المسكين جون السجق الجافّ والقهوة والسمك المحفوظ، فترهق روحه، لكن رغم ذلك كان يتحمّل بصبرٍ والثناء على عملها.

كانت ميج كجميع ربّات البيوت، تتمنّى أن تملأ خزانة الطعام بمُعلّباتٍ من المُربّى التي تصنعها ومنها مربّى العنب، فطلبت من جون أن يجلب لها العديد من العلب الصغيرة والمزيد من السكر، لكي تصنع المربّى من عناقيد العنب التي نضجت في حديقتها. كان جون يؤمن بمهارات زوجته، وأراد أن يرضيها ويلبّي طلباتها، لحفظ ثمار الحديقة بأحسن طريقة للشتاء. فجلب لها أربع دزينات من العلب، ونصف برميل من السكّر، وأيضًا صبيّاً صغيراً ليجمع حبّات العنب لأجلها. حين وصلت هذه الأشياء راحت ميج تستعدّ للعمل بجدّ، غطّت شعرها الجميل بقلنسوة، وشمّرت عن ذراعيها، وارتدت مئزر الطبخ، وباشرت العمل. ولم تشكّ أبدًا في أدائها، فقد رأت هانا تفعل ذلك مئات المرّات. ذُهلت بدايةً من عدد العلب المصفوفة، ولكنّ جون كان مولعًا بالمربّى اللذيذ، فقررت أن تملأها كلّها لأنّ منظرها سيكون لطيفًا على الرفّ العلويّ. وأمضت يومًا كاملًا في قطف العنب وتنظيفه ومن ثم غليه وتصفيته، كانت تبذل قصارى جهدها، وعادت

لموسوعة الطبخ، وعصرت ذهنها لتتذكّر طريقة هانا لكن دون جدوى، فعادت للمزيج تقلّبه وتغليه من جديد، وأضافت إليه بعض السكر، لكنّ المزيج رفض أن يتماسك كما هو مفترض.

أرادت أن تلجأ إلى بيت أهلها لتطلب المساعدة من أمّها، لكنها تراجعت. فقد كانت قد اتفقت مع جون بألّا يزعجا أيّ شخص بهمومهما الخاصّة أو تجاربهما أو خلافاتهما. وقد ضحكا في ذلك اليوم عند ذكر الخلاف، فقد كان احتمال الخلاف شبه مستحيل، وقد تمسّكا ببعضهما، ومضيا قدمًا دون مساعدة أحد، كان ذلك بالعودة لنصيحة السيّدة الطيّبة مارش. راحت ميج تعالج الأمور بمفردها طوال ذلك اليوم الحارّ، وحين حلّت الساعة الخامسة دون أن يتماسك المزيج، غمرها اليأس وجلست في المطبخ المليء بالفوضى، وعصرت يدها المليئة بالعنب، وراحت تبكي بصوتٍ عالٍ.

كانت ميج في بداية حياتها الزوجيّة تقول: «يجب أن يشعر زوجي بحرّيّة تامّة ليستطيع إحضار أيّ شخص من أصدقائه إلى البيت في أيّ وقتٍ يريده، وعليَّ أن أكون مستعدّة دائمًا، ولن أوبّخه أو أزعجه، ولن أدعه يشعر بأيّ ضيق، بل يجب أن أبدو مبتهجة، وأن يكون البيت نظيفًا، وأن أحضّر عشاءً جيدًا».

t.me/yasmeenbook

«عزيزي جون، ادعُ من تريد ولا تتردّد في ذلك، وتأكّد أنّك ستجدني مرحِّبة بضيوفك على الدوام».

كم كان هذا ساحرًا!، تألّق جون بفخر لسماعه كلمة (تأكّد)، وشعر بنعمة اللّٰه عليه بهذه الزوجة الطيّبة. ورغم أنّهما كانا يدعوان رفاقهما من وقت لآخر، إلّا أنّه لم يحدث قط أن جاءتهما زيارة غير متوقّعة، وبذلك لم تتح الفرصة لميج لتميز نفسها. كان يجب أن يحدث في هذا اليوم ما لم يحدث من قبل.

ففي ذلك اليوم، عاد جون إلى البيت برفقة صديقه الذي دعاه للعشاء. الأمر الوحيد الذي يغفر لجون اختياره هذا اليوم بالتحديد لدعوة صديقه بشكلٍ مفاجئ، هو أنّه كان قد نسي تمامًا أمر المربّى، فالشيء الوحيد الذي كان يذكره هو أنّه جلب طعامًا شهيًّا في الصباح؛ فأحبّ أن يدعو صديقه. كان متأكّدًا من أنّها مستعدّة لهذه اللحظة دائمًا، وراح يترقّب ببهجة استقبال زوجته الجميلة له ولصديقه، وترحيبها بهما وتقديم أشهى الأطباق.

لكنّه عالم مليء بخيبات الأمل، وقد اكتشف جون ذلك عندما وصل إلى برج الحمائم، ووجد الباب الأماميّ مغلقاً، فعادة ما يكون الباب الأماميّ مفتوحًا بشكل مضياف، أمّا الآن فلم يكن كذلك وحسب بل كان مقفلًا

أيضًا، وما زال طين الأمس يلطّخ الدرجات. كانت نوافذ غرفة الاستقبال أيضًا مغلقة والستائر منسدلة، ولا يوجد أثر للزوجة الجميلة ولا لإشراقة وجهها، ولا لشعرها المتموّج ولا لعينيها المشرقة المرحّبة التي تبتسم خجلًا وهي ترحّب بضيفها. لا شيء من هذا القبيل، لم يكن هناك إلاّ صبيٌّ صغيرٌ نائمٌ تحت عرائش العنب.

قال السيّد جون منزعجًا من هذا الصمت: «أخشى أنّ شيئًا ما قد حدث. ادخل إلى الحديقة يا سكوت، بينما أبحث عن السيّدة بروك».

سارع بالبحث حول المنزل، وهو يشمّ رائحة نفّاذة من السكّر المُحترق، ومشى خلفه السيّد سكوت بنظرات غريبة تطوف وجهه، وتوقّف بصمت في الخارج عندما دخل بروك إلى المنزل، لكنّه كان بإمكانه رؤية وسماع ما يدور بين الزوجين، وكونه أعزبَ، فقد استمتع بهذا الحديث الطريف.

دخل جون إلى المطبخ فوجده في حالة فوضى وكأنّ انفجارًا حدث في عشّ الزوجين. كان هناك بقع من الجيلي تتقاطر من قدرٍ إلى قدر، وقدر آخر ملقى على الأرض، وثالث يحترق ابتهاجًا على الموقد. وكانت لوتي تجلس بهدوئها المعتاد تأكل الخبز ومربّى العنب الذي لا يزال سائلًا رغم كلّ المحاولات في جعله متماسكاً. بينما كانت

t.me/yasmeenbook

السيّدة بروك تجلس بجانبها، مريلتها فوق رأسها وهي تبكي بشدّة.

أسرع جون إلى جانب زوجته بشيءٍ من الفزع، وراح ينظر ليديها ظنًّا منه أنّها أحرقتها، أو أنّه أصابها مكروه ما، وكانت فكرة ضيفه الذي ينتظره في الحديقة تزيده قلقًا.

وصاح قائلًا: «ما الأمر يا عزيزتي؟!!».

رحّبت الزوجة المرهقة ترحيبًا حلوًا بكلّ معنى الكلمة، وألقت بنفسها على صدره، وقالت له:

«أوه جون، أنا متعبة جدًّا وأشعر بالغضب، لقد أمضيت اليوم كلّه في صنع المربّى حتى أنهك جسدي من الإرهاق، تعال ساعدني وإلاّ متُّ حرقة».

وكانت الأرضيّة مليئة بالسكر.

سألها جون بقلق، بينما طبع قبلةً لطيفةً على جبينها وقد كان مظهرها فوضويًّا للغاية:

«ما الذي يقلقك يا عزيزتي؟، هل حدث شيء مروع؟!».

ردّت ميج باكية بيأس:

«نعم».

«أخبريني بسرعة ماذا حدث، وتوقّفي عن البكاء. يمكنني أن أتحمّل أيّ شيء إلاّ أن أراك تبكين».

ردّت ميج بارتباك:

«ال... المربّى رفض أن يتجمّد، ولا أدري ماذا أفعل»!.

ضحك جون بروك حينها لأنّه لم يجرؤ على الضحك بعد ذلك، وابتسم سكوت بسخرية لا إراديّة عندما سمع ضحكته.

«هل هذا هو كلّ ما في الأمر؟. ارمي به من النافذة ولا تهتمّي يا عزيزتي. سأشتري لك مصنع مربّى إذا كنت تريدين ذلك، ولكن بحقّ السماء توقّفي عن البكاء الآن، لأنني أحضرت جاك سكوت إلى المنزل لتناول العشاء، و..».

قاطعته ميج بأن دفعته عنها، وشبكت يديها بصدمة... ثم جلست على الكرسيّ، وصرخت بنبرة تمتزج غضبًا وعتابًا وفزع...

«دعوت رجلًا إلى العشاء، وكلّ شيء في حالة من الفوضى!. كيف استطعت فعل شيء كهذا يا جون بروك؟»

قال جون بصوت منخفض، وهو ينظر بعين قلقة:

«اخفضي صوتك، إنّه في الحديقة!. لقد غاب عن بالي أمر المربّى، ولا شيء يمكن أن يسعفنا الآن».

تابعت ميج كلامها بفظاظة:

«كان ينبغي أن تعلمني بقدومه، أو تخبرني هذا الصباح، كان عليك أن تقدّر كم كنت مشغولة».

t.me/yasmeenbook

ولم تكن ميج تتصنّع هذا الغضب، فحتّى اليمام اللطيف ينقر حين يغضب.

قال جون بحزن وربتاك:

«لم أنوِ دعوته في الصباح، ولم يكن هناك وقت لأعلمك بقدومه، لأنّني التقيت به أثناء خروجي، ولم أفكّر مطلقًا في سؤالك بعد أن أكدّتِ لي كثيرًا أن أدعو من أشاء، وفي أيّ وقتٍ كان. ولن أكرّر ذلك بعد الآن، اشنقيني إذا فعلت ذلك مرّة أخرى!»

ردّت ميج:

«آمل ذلك!، خذه من هنا في الحال. فلا يمكنني مقابلته، وليس هناك عشاء».

صاح جون وهو يركض مسرعًا نحو مخزن الطعام:

«حسنًا، ولكن أين اللحم والخضروات التي أرسلتها إلى المنزل، وأين البودينغ الذي وعدت به؟».

بدأت ميج تبكي مرّة أخرى، وقالت:

«لم يكن لدي وقت لطهي أيّ شيء. وودت أن نتناول العشاء عند أمّي. أنا آسفة، لكنّني كنت مشغولةً للغاية».

وبالرغم من أن جون كان رجلاً لطيفًا، لكنّه كان إنسانًا أيضًا، وهو لأمر مروّع أن تأتي إلى البيت بعد يوم طويل من العمل متعبًا، وجائعًا، ومتفائلًا، فتجد منزلًا فوضويًّا،

ومائدة فارغة، وزوجة غاضبة، وفوق كل ذلك بصحبة ضيف؛ إنّه أمرٌ لا يدعو لراحة البال أو السكوت. ومع ذلك، كبح جماح نفسه، وكان من الممكن أن ينتهي الأمر بشكلٍ سيّئ بسبب كلمة واحدة خرجت منه عن غير قصد:

«أعترف بأنّه موقف مخجل، لكن إذا قدمت يد المساعدة، فسننجح في الخروج من هذا المأزق. توقّفي عن البكاء يا عزيزتي، وأجهدي نفسك قليلاً وأعدّي لنا شيئًا لنأكله. فكلانا يتضوّر جوعًا مثل القراصنة، وأيّ شيء تقدّمينه سيكفينا. اطهي اللحم البارد والخبز والجبن. وأعدك بأنّنا لن نطلب المربّى».

كان يقصد أن تكون مزحة حسنة، لكنّ تلك الكلمة هي التي حسمت مصيره. اعتقدت ميج أنّه كان شديد القسوة، وأنّه يلّمح إلى فشلها المحزن.

وفقدت آخر ذرة من الصبر بينما كان يتكلّم، فقالت:

«يجب أن تخرج نفسك من هذه الورطة بقدر ما تستطيع. وبالنسبة لي فقد نفد صبري، ولن أجهد نفسي من أجل أيّ شخص. ولا يوجد في البيت شيء من هذا الذي تقترحه، لا يوجد سوى العظام والخبز اليابس. خذ صديقك هذا إلى بيت أمّي وأخبره أنّني غير موجودة، أو مريضة، أو ميتة، أو أيّ شيء. أنا لن أراه، ويمكنكما أن تسخرا مني ومن المربّى بقدر ما تريدان. لكنّكما لن تأكلا شيئًا هنا».

t.me/yasmeenbook

ألقت تهديدها هذا بنَفَسٍ واحد، وغادرت المكان على عجل، وراحت تتحسّر على نفسها في غرفة نومها.

ولم تعرف ما فعله هذان المخلوقان في غيابها، لكنّ السيّد سكوت لم يذهب إلى منزل أمّها، وعندما نزلت ميج إلى المطبخ بعد أن غادرا معًا، وجدت آثارًا لوجبة غداء ممّا أثارها اشمئزازًا. قالت لها لوتي: «لقد أكلا كثيرًا، وضحكا كثيرًا، وطلب منها السيّد التخلّص من المربّى في النفايات، وإخفاء جميع العلب».

كانت ميج تتوق للذهاب وإخبار أمّها بكلّ شيء، ولكنّ شعورها بالخزي من أن تنقض العهد الذي قطعته لجون منعها من ذلك. قد يكون قاسيًا، لكن لا أحد يجب أن يعرف ذلك، وبعد أن نظفت المطبخ سريعًا، ارتدت ملابسها بأناقة، وجلست تنتظر أن يأتي لتغفر له.

لكنّ جون لم يأتِ لسوء الحظّ، فقد حمل الأمر على أنّه مزحة جيّدة مع صديقه سكوت، وقدّم الأعذار لزوجته الصغيرة بقدر ما يمكن، ولعب دور المُضيف بشكلٍ جيّد لدرجة أنّ صديقه استمتع بالعشاء المفاجئ، ووعد بالمجيء مرّة أخرى، وكان جون غاضبًا على الرغم من أنّه لم يُظهر ذلك أبدًا، إلّا أنّه شعر أن ميج قد تخلّت عنه عندما كان في أمسّ حاجته إليها. قال في نفسه: «لم يكن من العدل أن تؤكّد لي بأن أدعو من أريد إلى المنزل وفي أيّ

وقت، وبحرّيّة تامّة، وعندما آخذ بكلامها، تخذلني وتلقي عليَّ اللوم، وتتركني في حالة حرجة، ليضحك الناس منّي أو يشفقوا عليّ. لا، هذا لا يجوز!، ويجب أن تعرف ميج ذلك».

كان قد غضب من الداخل أثناء المأدبة، ولكن عندما ذهب سكوت وانتهى الهيجان وعاد إلى المنزل، اعتدل مزاجه وحدّث نفسه قائلًا:

«تلك الصغيرة المسكينة!، كان أمراً صعباً عليها بعد أن حاولت بشدّة ارضائي. لقد أخطأت بالطبع، لكنّها ماتزال صغيرة، يجب أن أتحلّى بالصبر وأعلّمها.» كان يأمل ألّا تكون قد ذهبت إلى منزل أمّها، فكان يكره الثرثرة والتدخّل.

انزعج مرّة أخرى لمجرّد التفكير في الأمر لدقيقة، ثم قلق بأن يكون بكاء ميج قد أضرّها، وهرع مسرعًا إلى البيت، مصمّمًا على أن يكون هادئًا ولطيفًا، وأن يدلّها على خطئها، ويظهر لها كيف فشلت في أداء واجبها تجاه زوجها.

كانت ميج قد قرّرت الامر نفسه، وذلك في أن تكون هادئة ولطيفة، ولكن مع بعض الحزم، وأن تظهر له واجبه تجاهها. وحين رأت زوجها آتيًا، كانت تتوق لأن تركض إليه وتستميحه عذرًا، ويقبّلها ويراضيها، ولكن بالتأكيد لم تفعل شيئًا من هذا القبيل. فعندما رأته، بقيت في مكانها،

t.me/yasmeenbook

وراحت تهمهم بشكل طبيعيّ، وتهز كرسيّها وهي تخيط، ككلّ سيّدة تستمتع بوقتها في غرفة الاستقبال.

شعر جون بخيبة الأمل، لأنّه لم يجد زوجته سعيدة بقدومه كما كان يتوقّع. بالنسبة له كان ينتظر منها أن تعتذر له أولًا، لذلك لم يُقبل على الاعتذار، بل دخل مبتسمًا وجلس على الأريكة دون أن يتفوّه بحرف، سوى ملاحظة عابرة.

«سوف نستقبل قمرًا جديدًا يا عزيزتي».

أجابت ميج:

«ليس عندي أيّ اعتراض».

وتبادل الاثنان أحاديث قليلة، كان السيّد بروك يتحدّث بأمور ذات أهميّة، ولكن ميج لم تُبدِ أيّ حماس للحديث، فصمت الاثنان. واتّجه جون لإحدى النوافذ وأخذ جريدته واختفى وراءها. وراحت ميج نحو النافذة الأخرى وبدأت تحيك باهتمام مضاعف، رغم أنّهما كانا يشعران بالضيق إلّا أنّهما التزما الصمت.

راحت ميج تبوح بما تفكر به بصوت عالٍ:

«إنّ الحياة الزوجيّة متعبة جدًا، وتحتاج الصبر بقدر ما تحتاج الحبّ، كما تقول أمّي».

وراحت تفكّر بالنصائح التي كانت تعطيها إيّاها أمّها

منذ زمن طويل، والتي كانت تستمع إليها دون مبالاة أو إيمان.

كانت أمّها تقول: «إنّ جون رجلٌ طيّب، ولكن لا شكّ أنّ له عيوبه وأخطاءه، ويجب عليك أن تتعلّمي الطريقة الصحيحة لتتعاملي معها، وتتحمّليها. بإمكانك ذلك إذا تذكّرتِ أنّ لكِ عيوباً وأخطاء أيضًا. إنّه ذو رأي حازم، ولكنّه لن يعاندك أبدًا إذا كان جدالك لطيفًا وهادئًا.

قالت ميج: «لكن يا أمي...».

قاطعتها الأم: «إنّه دقيق جدًّا وخاصّةً في موضوع الحقّ، وهذه صفة حسنة حتّى إذا كنتِ ترفضينها. لا تخدعيه يومًا بكلمة أو بنظرة يا عزيزتي ميج، وتأكّدي بأنّه سوف يعطيك الثقة والدعم الذي تستحقينه. إنّ طباعه لا تشبه طباعنا أبدًا، فنحن نغضب بلحظة ولكن سرعان ما نهدأ، أمّا هو فنادرًا ما يغضب، لذا كوني حذرة، حذرة جدًّا بألّا تثيري هذا الغضب تجاهك، فالسعادة والسلام يعتمدان على مدى احترامك له. راقبي نفسك، وكوني أوّل من يطلب السماح إذا أخطأتما، واحذري من آثار الحقد، وسوء الفهم، والكلمات المتسرّعة، فهي غالبًا ما تفتح طريقًا للندم والحزن».

عادت هذه الكلمات لذاكرة ميج بينما كانت تجلس

t.me/yasmeenbook

وتراقب غروب الشمس. كانت هذه المشكلة الأولى بينهما، وحين استعادت تفاصيل الخلاف، شعرت بأنّ كلماتها المُتسرِّعة كانت قاسية ووقحة. وبدا غضبها تصرّفًا أحمق الآن. وما أذاب قلبها كان مشهد المسكين جون حين عاد إلى المنزل. فألقت نظرة سريعة إليه والدموع تملأ عينيها، ووجدته غارقًا في قراءة الجريدة، فلم يرها. وضعت ميج ما بيديها جانبًا، وفكّرت بأنّها ستعتذر أولًا، فاتّجهت إليه وقالت:

«سأكون المبادرة بقول سامحني».

ولكن يبدو أنّه لم يسمعها، فتقدّمت نحوه ببطء، وتوقّفت بجانبه. لكنّه لم يحرّك رأسه ناحيتها ولم يلتفت. شعرت ميج للحظة بأنّها لا تستطيع القيام بذلك، وثم فكّرت: «هذه البداية، وعليَّ أن أقوم بواجبي، حتّى لا ألوم نفسي على أيّ شيء فيما بعد».

وهكذا انحنت أمام زوجها، وطبعت قبلة لطيفة على جبينه وبالتأكيد كانت هذه القبلة كفيلة بأن تحلّ المشكلة، كانت أفضل من بحر كلمات. وأخذها جون بحضنه، وقال لها بلطف:

«كان من السيّء أن أسخر من المربّى، سامحيني يا عزيزتي. أعدك بأنّي لن أكرّرها ثانية».

لكنّه كرّرها كثيرًا فيما بعد، حتّى إنّ ميج نفسها سخرت

منه، وقالت إنّه أفضل مربّى تصنعه على الإطلاق، فقد قدّم لهم أمان العائلة والهدوء بكلّ عبوة.

وبعد ذلك، تقدّمت ميج بدعوة خاصّة إلى السيّد سكوت، وأعدّت له وليمة شهيّةً مبهجةً. وأمضوا وقتًا ممتعاً، وعملت ميج على أن يكون هذا العشاء ساحرًا، ممّا جعل السيّد سكوت يهنّئ جون على حظّه السعيد. وظلّ يهزّ برأسه ندمًا على صعوبة الوحدة طوال طريق العودة للبيت.

وخاض الزوجان تجارب جديدة بقدوم الخريف. جدّدت سالي صداقتها لميج، فكانت تأتي إلى البيت الصغير وتمضيان وقتًا في الثرثرة، وأحيانًا، كانت تدعو عزيزتها ميج لقضاء يوم في بيتها الكبير. وكانت ميج تفرح بذلك، فقد سئمت من الشعور بالوحدة. أخواتها مشغولات دائمًا، وزوجها لا يأتي حتّى المساء. ولم يكن هناك أيّ تسلية سوى الخياطة أو القراءة، فكانت الثرثرة والانشغال في القيل والقال مع الأصدقاء وسيلة للتسلية. كانت ميج تنظر لتحف سالي، وتتمنّى أن تحظى بمثلها وتتحسّر على نفسها. وكانت سالي لطيفة جدًا، فعرضت عليها بعض الأشياء الجميلة، لكنّ ميج رفضت أن تأخذها، لأنّها تعرف أنّ جون لا يرضى بذلك، لكن تلك الفتاة الطائشة فعلت مراراً أسوأ ما يكرهه زوجها.

t.me/yasmeenbook

كانت ميج تعرف دخل زوجها، وكانت تحبّ بأن يشعرها بثقته، ليس فقط في أمور السعادة، بل في الأمور الماديّة أيضًا. كانت تعرف المكان الذي يحفظ فيه جون نقوده، وأعطاها الحرّيّة التامّة لتنفق منها ما تشاء. ولكن، طلب منها أن تدير نفقاتها، وتسدّد فواتير آخر الشهر، وتتذكّر دائمًا بأنّها زوجة رجل فقير. ومنذ بداية حياتهما الزوجيّة أدّت ميج أداءً رائعًا، كانت تنفق المال بدقّة وحكمة، وتسجّل نفقاتها كلّها في دفتر صغير، وتعرض عليه الدفتر شهريًّا دون أيّ خوف. ولكن في ذاك الخريف، تسلّل شيطان إلى جنّة ميج، وأغراها كما أغرى الكثير من فتيات حوّاء الشابّات، لكن لم يغرها بشجرة التفّاح، بل بالثياب. لم تحبّ ميج أن تكون مثيرة للشفقة بسبب فقرها. كانت الفكرة تغيظها، وشعرت بالعار من أن تعترف بحقيقة حالها، وحاولت أن تواسي نفسها بين الحين والآخر بشراء بعض الأشياء الجميلة، لتثبت لسالي أنّها غير مضطرة للاقتصاد والتوفير. وكانت دائمًا تشعر بأنّها أخطأت، وجلبت أشياء غير ضروريّة، رغم أنّها كانت تدفع فيها ثمنًا قليلًا لا يدعو للقلق. وبذلك زادت من شراء الأشياء التافهة دون أن تشعر، لم تعد ميج تذهب للسوق متفرّجة فقط، بل ومشترية أيضًا.

كانت تلك الأشياء التافهة تكلّف أكثر ممّا تتصوّر،

وعندما راحت تحسب نفقاتها آخر الشهر، أفزعها المجموع. وكان جون مشغولاً جدًّا ذاك الشهر، وترك مهامّ النفقات لها، وفي الشهر التالي كان غائبًا عن البيت، وأمّا الشهر الثالث فقد قام بتسوية نفقات الشهور الثلاثة، ولن تنسى ميج هذه الأوقات في حياتها. كانت قبل نهاية الشهر ببضعة أيّام قد أفرطت في إنفاق نقود زوجها، وعذّبها ضميرها آنذاك... اشترت سالي بعض الأقمشة الحريريّة، أحبّت ميج أن تشتري بعضًا من الحرير الخفيف المناسب للحفلات، فقد كان فستانها الأسود عاديًّا. كانت العمّة مارش معتادة أن تعطي كلّاً من الأخوات خمسة وعشرين دولارًا في عيد رأس السنة، وكان موعد هذه المناسبة في الشهر التالي. وكان ثمن القطعة الحريريّة التي أعجبتها خمسين دولارًا. فدفعت ثمنه كلّه من نقود زوجها، على أن تردّ إليه نصف المبلغ من نقود عمّتها. وكان جون يؤكّد لها دائمًا بأنّ ماله هو مالها. ففكّرت في نفسها: هل سيكون من الجيّد أن تنفق خمسةً وعشرين دولارًا على رفاهيتها من ميزانيّة المنزل؟، وظلّ السؤال يحيّرها، لكن سالي ألحّت عليها أن تشتري ما تريد، وعرضت عليها أن تعيرها ثمنه، وأغرتها بكلّ طيبة، حتّى استسلمت لها. وفي لحظة شيطانيّة قال لها البائع: «إنّها فرصة ثمينة، ولا شكّ في ذلك،»

رضخت ميج قائلة: «سآخذها.»

t.me/yasmeenbook

وقصّ لها البائع قطعة القماش المطلوبة، ودفعت ثمنها، ففرحت سالي وضحكت وكأنّ ما حدث شيء ليس له عواقب، لكنّ ميج خرجت من المحلّ وكأنّها قد سرقت شيئًا ما، والشرطة تلاحقها.

وحين وصلت إلى البيت، جربّت أن تُخفّف من ندمها، ونشرت قطعة القماش أمامها وراحت تتأمّلها، لكنّها بدت أقلّ جمالًا. وشعرت بأنّها لا تستحق ثمنها، وتهيّأ لها بأن كلمة خمسين دولاراً مطبوعةٌ عليها، فأزاحتها جانبًا، ولكنّها ظلت تلاحقها مثل شبح لا تعرف كيف تتخلّص منه. وعندما عاد جون تلك الليلة وتفقّد دفتر النفقات، خفق قلب ميج بسرعة، وللمرة الأولى منذ زواجها تشعر بالخوف من زوجها. فقد بدت عيناه البنيّتان قاسيتين جدًّا، ورغم أنّه كان مرحًا جدًّا، فقد خيّل إليها بأنّه اكتشف أمرها. ولكنّه لا يقصد أن يعلمها بذلك. كان دفْعُ الفواتير، وكلّ شيء في الدفتر منظّماً. وراح جون يراجع صندوق النقود الذي كانا يسميانه (البنك)، في حين أنّ ميج كانت تعلم بأنّه فارغ تمامًا، فأوقفت يده وقالت بعصبيّة:

«إنّك لم تراجع إلى الآن دفتر نفقاتي».

لم يطلب جون أن يراجعه قط، لكنّها كانت تلحّ عليه دائمًا ليفعل ذلك، وكانت دائمًا تستمتع برؤية نظرات الدهشة في عينيه حين يرى الأشياء التي تشتريها المرأة،

وكانت تدعه يخمّن أسماء بعض الأشياء، فينصدم حين يعلم أن القلنسوة تتألّف من ثلاثة ورود وقطعة من المخمل وشريطتين، وتكلّف ستّة دولارات.

وفي تلك الليلة أراد أن يستمتع بالنظر الى الدفتر، ويتظاهر بالتعجّب من إسرافها كعادته، رغم أنّه كان في قرارة نفسه معجبًا جدًّا بحرص زوجته. أخرجت ميج دفترها ببطءٍ وتردّد ووضعته أمامه، ثم وقفت وراء كرسيّه وأخذت تدلّك له رأسه، وقالت بتوتّر:

«عزيزي جون، أشعر بالخجل من أن أريك دفتر حساباتي، لأنّني أسرفت كثيرًا مؤخّرًا، لقد جلبت الكثير من الأغراض التي أحتاجها، نصحتني سالي بشرائها. ولكن عندما أحصل على النقود التي ستعطيني إيّاها عمّتي في رأس السنة سأدفع لك جزءًا من الثمن، لقد شعرت بالأسف الشديد بعد أن فعلت ذلك، فأنا أعلم بأنّك ستعتبر ما فعلته خطأً».

ضحك جون ضحكة خفيفة وجذبها إلى جواره، وقال لها بلطف:

«لا تختبئي، لن أضربك لأنّك جلبت زوجًا من الأحذية، فأنا فخور جدًّا بأقدام زوجتي، ولن أمانع إذا أنفقت ثماني أو تسعة دولارات على حذاء، إذا كان جيّداً».

كانت هذه واحدة من آخر «التفاهات» التي اشترتها

t.me/yasmeenbook

ميج، وقد وقعت عينا جون على ثمنها في الدفتر بينما كان يتكلّم. فكّرت ميج وقد بدأت ترتجف: «يا إلهي، ماذا سيقول عن الخمسين دولاراً تلك؟!»

ثم قالت بهدوءٍ قلق، وهي تفكّر بأنّ القادم هو الأسوأ: «هناك شيء أفظع من الحذاء، جلبت فستانًا من الحرير».

قال جون: «حسنًا يا عزيزتي، ما هو المجموع الإجماليّ كما تقول السيّدة مانتاليني؟»

لم يبدُ جون كعادته أي انفعال، وكانت تعلم بأنّه ينظر إليها نظرات حادّة ومباشرة، وبالمقابل كانت هي متأهّبة لتواجهه وتجيبه بصراحة تامّة.

قلبت الصفحة وأشارت برأسها إلى المبلغ، والذي كان مرهقاً بما يكفي حتّى دون الخمسين دولار. سكنت الغرفة لدقيقة، ثم قال جون ببطء: «حسنًا، خمسون دولارًا سعر جيّد بالنسبة لثوب من الحرير، لكنّه سيكلّفك أكثر لخياطته وتزيينه».

شعرت ميج أنّ الأمر قد كلّفه الكثير حتى يتمالك نفسه. تنهّدت بعمق، فقد تذكّرت التكاليف التي لا يزال عليها إنفاقها على الثوب: «لم يصنع الثوب بعد».

قال جون ببعض من الجفاء: «أظنّ أن خمسًا وعشرين ياردة من الحرير تكفي لخياطة ثوب لامرأة صغيرة الجسم،

ولا شكّ بأن زوجتي ستبدو رائعة تمامًا مثل نيد موفا عندما ترتديه».

قالت ميج: «أعلم بأنّك غاضب يا جون، ولكنّني لا يمكنني فعل أيّ شيء الآن. لم أقصد أن أسرف أموالك، لم يخطر لي أنّ هذه الأشياء الصغيرة ستكلّف الكثير، وأيضًا لم أستطع المقاومة حين رأيت سالي تشتري كلّ ما تريده، وتنظر إليّ بعين الشفقة لأنّني لا أستطيع شراء ما يحلو لي. أحاول بأن أرضى بما لدي، ولكنّه أمر صعب، وقد مللت من كوني فقيرة».

قالت آخر كلماتها بصوت خافت ظنًّا منها أنّه لم يسمعها، ولكنّه سمع. وشعر بالألم، فقد كان يحرم نفسه من الكثير من الأشياء من أجل ميج. ندمت ميج جدًّا على ما قالت، وتمنّت لو أنّ لسانها قُطِع قبل أن تتفوّه بأيّة كلمة، غضب جون الآن، ألقى الدفتر بعيدًا، ثم نهض وقال بصوت مرتجف:

«هذا ما كنت أخشاه، وأنا أبذل قصارى جهدي لأجلك يا ميج».

لو أنّه وبخها أو حتى هزّها بعنف آنذاك، لم يكن قلبها سينكسر مثلما فعلت بها تلك الكلمات. فركضت نحوه وضمّته إليها وهي تبكي ندمًا، وقالت: «عزيزي جون، لم أقصد أبدًا ما قلت!!، لقد خرجت منّي هذه الكلمات

t.me/yasmeenbook

القاسية الكاذبة دون إرادتي، لا أدري كيف استطعت التفوّه بها، يا إلهي، كيف قلت ذلك!!!»

لقد كان جون إنسانًا طيبًا جدًا، فسامحها على الفور، ولكنّ ميج كانت تعي أنّها تفوّهت بما يصعُب نسيانه. ورغم ذلك، لم يوجّه لها أيّ تلميح أو عتاب.

كانت ميج قد وعدته بأن تحبّه في السرّاء والضرّاء، ولكن ها هي الآن تلومه على فقره وتنفق دخله كلّه بتهوّر. كان ذلك مروّعًا، وأسوأ ما في الأمر هو أنّ جون بقي هادئًا وكأنّ شيئًا لم يحدث، إلّا أنّه مكث في المدينة فيما بعد، وبقي يعمل لوقتٍ متأخّرٍ من الليل، بينما كانت هي تبكي حتّى تنام. ساءت حال ميج بعد ذلك جدًّا، وعاشت أسبوعًا من الألم، خاصّةً عندما اكتشفت أنّ جون لم يشترِ المعطف الجديد الذي كان يحتاج إليه.

لم تتفوّه ميج بعد ذلك بأيّة كلمة، ولكن بعد دقائق وجدها في الصالة تبكي بحرقة وكأنّ قلبها سينفجر، وتحضن معطفه القديم. ودار بينهما حديث طويل تلك الليلة، تعلّمت ميج من خلاله أن تحبّ زوجها كما هو، بفقره الذي جعل منه رجلًا شجاعًا وقويًّا بما يكفي ليقاتل بطريقته الخاصّة، وعلّمه الصبر الذي يواجه به مشاكل من يحبّهم ويساندهم على تخطّي فشلهم.

وفي اليوم التالي وضعت ميج كرامتها بجيبها وذهبت

إلى بيت سالي، وأخبرتها ما جرى، وطلبت منها شراء قطعة القماش الحريريّة تلك كمعروف لها. وبما أنّ السيّدة موفا طيّبة القلب فقد قبلت طلب ميج. ثم ذهبت واشترت المعطف الذي كان جون يريده وعادت به إلى المنزل، وعندما وصل جون، ارتدته وسألته عن رأيه في ثوبها الحريريّ الجديد.

ويمكن لأيّ شخص أن يتخيّل ما كان ردّه حينها، وما دار بينهما من حديث بعد ذلك، وكلّ اللحظات السعيدة التي جمعت الزوجين بعد ذلك الحدث. وعاد كلّ شيء لما كان عليه مسبقًا، توقّف جون عن التأخّر ليلًا، وتوقّفت ميج عن التصرّف بجدّية. وراح الزوج السعيد يرتدي معطفه صباحًا، وتساعده زوجته المحبّة الصغيرة على خلعه مساءً.

خاضت ميج تجربة جديدة في منتصف الصيف، واحدة من أعمق التجارب أثرًا في حياة المرأة.

تسلّل لوري إلى المطبخ في برج الحمائم ذات نهار سبت، بوجهه المتحمّس. فاستقبلته هانا بدقّات، لأنّها كانت تحمل قدرًا في يدها وغطاء في اليد الأخرى. همس لوري بصوت خفيف:» كيف حال الماما الصغيرة؟، وأين الجميع؟. ولماذا لم يدعُني أحد إلى البيت من قبل؟»

قالت له هانا: «الأمّ سعيدة جدًا، والجميع في الطابق العلويّ يصلّون لله، ولا نريد أيّة فوضى هنا، والآن اذهب

t.me/yasmeenbook

إلى غرفة الاستقبال، وسأخبرهم بأنّك هنا.» واختفت مباشرةً عندما أنهت كلامها.

وجاءت جو بعد لحظة، وكانت تحمل رزمة من صوف الفانيلا في فَخَار، وضعته على وسادة كبيرة. ورغم أنّ وجهها كان رصينًا جدًّا، إلّا أنّ عينيها كانتا تلمعان، وصوتها يُظهر عاطفة مكبوتة. وقالت: «هيّا يا تيدي مدّ يديك».

«بربّك يا جو!، لا لن أفعل، ماذا لو أوقعته؟».

استدارت وكأنّها تريد الخروج وهي تقول: «إذًا لن ترى ابن أختك».

قال لوري:» حسنًا سأفعل، لكن عليك أن تتحمّلي مسؤوليّة الأضرار».

أغمض عينيه بطريقة بطوليّة، بينما وُضع شيء بين ذراعيه. وعلت جلجلة الضحكات من جو وآيمي والسيّدة مارش وهانا وجون، ما جعل لوري يفتح عينيه في الدقيقة التالية ليجد نفسه حاملًا طفلين لا طفلًا واحدًا.

ولو رأيتم وجه لوري حينها لم تكونوا لتلوموهم على الضحك، مزيجٌ من الرعب والدهشة والضياع علا وجهه، بدا وكأنّه مهرج أتقن دوره!. حتّى إن جو لم تتمالك أعصابها من مظهره، فوقعت على الأرض وراحت تصرخ.

وظلّ يقول ويردّد: «توأم!!، يا للهول!». حتّى التفت

إليهم بطريقة تثير الشفقة وقال: «بسرعة!، هيا خذوهما منّي قبل أن أضحك وأسقطهما!»

انطلق جون الأب الجديد ولبّى نداء الواجب، حمل طفليه واحداً في كلّ ذراع وراح يتمشّى فيهما، وكأنّه صار فجأة خبيرًا في التعامل مع الأطفال، بينما غرق لوري في الضحك.

التقطت جو أنفاسها وقالت:

«نكتة الموسم الأولى!، لم أكن سأخبرك لأنّي قررت أن أجعلها مفاجأة، وأشعر بالفخر لأنّني نجحت».

«هذا أكثر أمر ارتبكت فيه على الإطلاق. يا لروعتهما!، هل هما صبيّان؟، هل سميّتموهما؟، أعطني لأراهما مجدّدًا. لا تفلتيني يا جو، أقسم إنّ واحدًا فقط كثير علي!؛ فكيف وثمة اثنان!».

قال الأب وهو ينظر إلى الملاكين الصغيرين بفخر وعاطفة:

«بنت وصبيّ. يا لجمالهما!»

«بالفعل!، أجمل طفلين رأيتهما في حياتي» ثم راح يكتشف المخلوقين المبهرين باهتمام.

قالت جو المشاكسة: «ألبستهما آيمي على الطريقة الفرنسيّة، شريط أزرق للصبيّ وآخر وردي للبنت. لذلك

t.me/yasmeenbook

لن نضيع بينهما. كما إنّ أحدهما يملك عينان بنيّتان والآخر زرقاوان، والآن أيّها العمّ تيدي، هيا قبّل الصغيرين!»

خجل لوري على غير عادته: «أخشى أن أؤذي بشرتهما الرقيقة».

«سوف يحبّان الأمر، اعتادا القبلات. هيا افعلها يا سيّد!»

قالت جو كلامها آمرة كي لا يتسنّى له الوقت لطلب مساعدة الفتيات.

نفّذ لوري الأمر وطبع قبلةً خفيفةً بحذرٍ تامّ على خدود الصغيرين، ما جعل المتفرجين يضحكون مجدّدًا والطفلين يصرخان.

صرخ لوري: «أرأيت!، قلت لك إنّهما سينزعجان، أوه، انظروا الصبيّ يركل، يا لها من قبضة قويّة يلوّح بها، هذا جيّد يا بروك الصغير، لكن جد لنفسك رجلًا بحجمك في المرّة القادمة».

أبهجته القبضة الصغيرة التي راحت ترفرف في وجهه بلا أيّ معنى.

قالت الخالة آيمي: «سوف نسمّيه جون لورانس، لكنّنا سنناديه جاك إلى أن نجد له اسمًا أجمل. أما الفتاة فستكون مارجريت، مثل الأمّ والجدّة، لكنّنا سندعوها ديزي، كيلا يصبح عندنا ميج أخرى».

قال لوري بعد تفكير: «فليكن الصبيّ ديميجون، ونناديه ديمي».

صفّقت جو بيديها وقالت بحماس: «هذا هو!، ديزي وديمي!، كنت متأكّدة أنّك ستحلّ المعضلة».

وهكذا نال الطفلان الاسمين اللذين اختارهما العمّ تيدي.

t.me/yasmeenbook

الفصل السادس

زيارات غير متوقعة

صاحت آيمي:

«هيّا يا جو. لقد حان الوقت».

ردّت جو:

«وقت ماذا؟، ماذا هناك؟».

قالت آيمي:

«قولي أيّ شيء، ولكن حذار أن تكوني نسيت ما وعدتني به من ستّ زياراتٍ كاملة».

قالت جو:

«لقد قمت بالكثير من الحماقات والمبالغات في حياتي، لكنّني لا أعتقد أن يصل بي السّخف والجنون لأن أعدك بستّ زياراتٍ، وأنا زيارةٌ واحدةٌ كفيلةٌ بأن تعكّر مزاجي لأسبوع كامل».

قالت آيمي:

«جو!، لقد عقدنا صفقةً فيما بيننا. أنا وعدت برسم صورة لبيث ووفيت بوعدي وأنهيتها لك على أكمل وجه، وأنت وعدت بمرافقتي لمنزل جيراننا لنردّ لهم زياراتهم».

قالت جو:

«لا أنكر، لقد وعدتّك حقًّا، وأنا أفي بوعودي، ولكنّنا اتّفقنا أن يكون الطقس صحوًا وجميلاً، انظري كيف تلبّدت الغيوم وأنزلت الشّمس أسدالها، لذا اتّفاقنا باطل ولن تنفعك خُدع شيلوك ماكر البندقية».

قالت آيمي:

«هذه مراوغة. وعذرك غير مقبول، ما هذه إلّا حجّة للتهرّب. الطقس جميلٌ ولا يوجد أدنى احتمال لسقوط الأمطار، وأنت تفتخرين بوفائك بالوعود دائمًا، لذا تحمّلي المسؤولية، وقومي بواجبك، وسأتركك بعدها لمدّة ستّة أشهرٍ كاملة لا أزعجك ولا أطلب منك أيّ شيء».

عمّ الصّمت قليلًا وكانت جو منغمسة في خياطة الملابس، كانت مبدعةً في هذا الشّأن، حتّى إنّ العائلة كانت تستشيرها في كلّ صغيرةٍ وكبيرة. ولربما يمكننا إيعاز السبب لوجه الشبه بين القلم والإبرة فأبدعت في الإثنين.

لطالما كرهت جو الأسلوب الّذي تتبعه آيمي بعض

t.me/yasmeenbook

الأوقات في الابتزاز واستغلال ظروف الغير. ومن حسن حظّ آيمي أنّ الحرارة قد ارتفعت ثانيةً، وظلّت على إلحاحها وإصرارها على هذه الزّيارات الرسميّة، والتي تكرهها جو ولا تطيقها بتاتًا.

كانت تلك ورطةً حقيقيّةً بالفعل بالنسبة لجو، حيث لم تستطع التهرّب. فاستسلمت وقذفت المقصّ الذي كان بيدها بعصبيّة، توقّفت عن العمل ولبست قبّعتها، وقفّازاتها بخضوعٍ تامّ وقالت لآيمي:

«حسنًا، أنا جاهزة».

صرخت آيمي، وهي تستطلعها بذهول:

«حبًّا باللّه يا جو مارش. سوف تستفزّين بمنظرك هذا حتّى الملائكة، آمل أنّك لا تنوين الذهاب بهذه الهيئة؟!»

أجابت جو:

«ولم لا؟، أنا أنيقةٌ ومرتاحةٌ جدًّا. إنّه مناسبٌ تمامًا للنزهة المتربة في هذا اليوم الدافئ. انظري، إذا كان الناس يهتمّون بملابسي أكثر منّي. وإذا كانت تهمّك المظاهر لتلك الدّرجة فتأنّقي والبسي عنك وعنّي. يمكنك أن تفعلي ما يحلو لك، أمّا أنا فآخر ما أفكر به هو ملاحقة المظاهر الخدّاعة والمقزّزة».

تنهدت آيمي وقالت:

«أوه، يا عزيزتي!، تريد تلك الفتاة المشاكِسة أن تفتتح معي معركةً محتدمةً من المناوشات!، وسوف تشتت انتباهي قبل أن أتمكّن من تجهيزها بطريقة لائقة. عزيزتي جو؛ أنا لست مسرورةٌ جدًّا بتلك الزّيارات ولكنّ هذا دينٌ ندين به للمجتمع، وليس هناك من يؤدّيه إلّا أنا وأنت. سأفعل أيّ شيءٍ من أجلك يا جو إن طاوعتني وارتديت أفضل ملابس لديك، وساعدتني في إتمام تلك المهمّة. يمكنك التحدّث جيّدًا والتّصرّف بشكلٍ جميل، وأنا متأكّدةٌ أنّك ستكونين أجمل (من) السيّدات الأرستقراطيّات إذا حاولت وأنا فخورةٌ بك. أرجوك يا جو، أخشى أن أذهب وحدي تعالي وقفي بجانبي».

قالت جو وقد تغيّرت نبرتها تمامًا، وكأنّ الأسد المزمجر قد تحوّل لخروفٍ وديع:

«أنت مثل القطط الماكرة الصغيرة، لا أصدّق كيف تستطيعين السّيطرة والمراوغة بهذا الشكل، بل وتؤثّرين على أختك العجوز المخضرمة بتلك الطّريقة!، أنا أعلم أنّك لا تخافين الذهاب وحدك، وبالرغم من أنّني أمقت فكرة الزينة والزخارف والبهرج الخدّاعة، إلّا أنّني سأبذل قصارى جهدي إذا كان لا بدّ لي من ذلك. ستستلمين أنت القيادة والتنظيم وسأطيعك طاعةً عمياء، فهل يرضيك ذلك؟»

t.me/yasmeenbook

قالت آيمي:

«يا ملاكي الوديع ما أحلاك وأنت هادئة، والآن البسي أفضل ما لديك، وسأخبرك كيف تتصرّفين في كلّ مكان حتّى تتركي انطباعًا جيدًّا. أريد أن يحبّك الناس وسيفعلون ذلك إذا حاولت فقط أن تكوني أكثر ليونةً وتودّدًا. والآن لفّي شعرك بطريقةٍ جميلةٍ، وضعي الوردة الحمراء في القبّعة على الجانب. أرأيت كيف أصبحت ببعض التّفاصيل الصّغيرة فقط في غاية الأناقة والرّصانة. خذي قفّازك الفاتح اللون والمنديل المُطرّز، وسنتوقّف قليلًا عند ميج لنستعير المظلّة البيضاء خاصّتها. وبعد ذلك يمكنك الحصول على مظلّتي ذات اللون الحمامي».

بدأت الفتاتان بالتّحضيرات الشاملة، راحت آيمي تصدر تعليماتها كاملةً وجو تنفّذ دون أيّ اعتراض. أو دون التّدخل باحتجاجاتها، ولكنّها كانت تمرّر بعض التّنهيدات تعبيرًا عن ضيق صدرها. وبيأسٍ شديدٍ حشرت جسمها في فستانها الأرجوانيّ الضّيّق، وشدّت الأربطة في قبّعتها بعنفٍ وقسوة وكأنّها تشنّ حربًا عليها. ثمّ راحت تصارع بضراوة الدّبابيس وهي تضع طوقها، حتّى استخدام المنديل كانت مهمّة عسيرة عليها لما فيه من خيوطٍ غزيرةٍ خشنةٍ تخدش أنفها. فازدادت غضبًا فوق غضبها وكانت بالكاد تتمالك أعصابها. ثمّ لبست قفّازها الذي يبدو أنّه قد

ضاق على يديها فجأةً. وما إن أنهت آخر اللّمسات حتّى باتت السّيّدة جاهزة.

قالت جو بخضوع واستكانة وقد ابتسمت ابتسامة بلهاء:

«يا لبؤسي!، ما هذه الحالة المريبة!. إيّاك أن تقولي إنّي جميلة وملفتة وإلّا سأموت من الفرحة، وحالًا».

قالت آيمي:

«تبدو طلّتك أنيقة وجميلة للغاية، استديري ببطء لأرى بوضوحٍ أكبر».

استدارت جو وراحت آيمي تدقّق مليًّا في كلّ تفصيل مهما كان صغيرًا، وتتفحّص الإطلالة، ثمّ طلبت منها أن تعود للخلف بضعة أمتار لتتمكّن من الحكم وقالت:

«حسنًا. كلّ شيء جميل وفتّان، أحسنت صنعًا باختيارك هذه القبّعة البيضاء، فقد تناسبت مع الوردة بشكل رائع، وتألّق وجهك للغاية. والآن يا عزيزتي اسمحي لي بإعطائك بعض التوجيهات والإرشادات.

- أوّلًا: ارفعي رأسك عاليا لتبرزي جمال القبّعة.
- ثانيًا: استقيمي أثناء الجلوس والوقوف وابقي ظهرك مشدودًا.
- ثالثًا: حرّكي يديك بخفّة وليونة وتناسي أمر القفّاز الضّيّق القارص».

t.me/yasmeenbook

نفخت جو بضيق، لكن أيمي أكملت: «ويبقى أن أقترح عليك شيئًا مهمًا، إن فعلته ستصبحين ساحرةً فاتنة ألا وهو أن تضعي شالًا فوق فستانك، لن يليق الشال بملابسي ولكنّه سيكون على فستانك غايةً في الروعة، وأنا سعيدةٌ جدًّا أنّ العمّة مارش أعطتك هذا الشال الجميل. إنّه بسيط، لكنّه أنيق، وتلك الطيّات فوق الذراعين مبهجة حقًّا».

ثمّ سألتها آيمي:

«والآن دورك، انظري إليّ وأعطني رأيك، هل فستاني لائق ومرتّب؟ ما رأيك في الأزرار؟ كم كنت أودّ أن ألبس حذاءً مكشوفًا لإبراز جمال أقدامي. وكم أودّ بالمقابل أن أخبّئ أنفي الكبير البشع».

تأمّلتها جو وأمعنت النظر كخبيرة أزياء في طلّتها الحلوة والمشبك الأزرق الجميل الذي يحتضن شعرها الذهبيّ اللامع، فقالت:

«لست جميلة وحسب، بل تشعّين جمالًا وبهجةً».

ثمّ سألتها:

«من فضلك يا سيّدتي، هل أمسك بذيل الفستان الطويل بكلتا يديّ أم أتركه يجرّ خلفي أثناء المشي؟»

أجابت آيمي:

«ارفعيه بيديك أثناء المشي واتركيه عند الدخول

إلى منزل مضيفينا. كم يناسبك هذا النوع من الفساتين، انظري كيف أبرز قامتك الجميلة وأعطاك مظهرًا أنثويًا. وأكرّر على مسمعك: كوني رشيقة واعلمي كيف تتمايلي، ودعي الفستان يتمايل بموازاتك خطوة بخطوة. وانتبهي لأزرار الفستان وأدخليها بالعُرى جيّدًا. ما كان ينبغي لك أن تهملي هذا، فمن تلك التّفاصيل الصّغيرة تتربّعين على عرش الأناقة والجمال».

تنهّدت جو وشرعت في تزرير الأزرار وكادت تقطّع بعضها لكثرة ما شعرت بالضّيق والإرباك، تجهّزت الاثنتان وانطلقتا مبتعدتين، قالت هانا وهي تتدلّى من النافذة العلوية لمشاهدتهما:

«تبدوان رائعتين مثل عارضات الأزياء في المجلّات تمامًا!»

مرّت الفتاتان عند ميج مثلما اتفقتا لتستعيرا المظلّة، وهناك كانت ميج تحمل كلّ توأم من التوأمين في يد فداعبتا التّوأمين قليلًا، ثمّ واصلتا المسير، وقالت آيمي عندما اقتربتا من المنزل الأول:

«عزيزتي جو، أريدك أن تعلمي أنّ آل تشيستر يعتبرون أنفسهم من صفوة المجتمع وصنّاع الأناقة؛ هذا على الأقلّ بنظرهم، ولذلك أريدك أن تلاطفيهم ما أمكنك. لا تدلي بأيٍّ من ملاحظاتك المفاجئة الفظّة، ولا تفعلي

t.me/yasmeenbook

أيّ تصرّفاتٍ مستهجنة، كوني هادئة ورزينة بما يتّفق مع أنوثتك وجمالك. هذا ليس صعبًا عليك، أريدك أن تبهريني حقًّا. لن نمكث عندهم أكثر من ربع ساعة».

قالت جو:

«إذًا تريدينني هادئة ومتّزنة ولطيفة، دعيني أرى، حسنًا، أعتقد بأنني أستطيع أن أعدك بذلك، فقد لعبت مرّة دور الفتاة الأنيقة على المسرح، وسأجرب ذلك من جديد. إنّ موهبتي في التمثيل خارقة كما تعلمين، لذلك استرخي يا طفلتي».

بدت آيمي مرتاحة لما سمعت. لكنّ جو المشاغبة نفّذت كلامها حرفيًا، فقد جلست في أول زيارة وكلّ عضو من جسدها يعبر عن الرشاقة، وكلّ ثنية كانت صحيحة. كانت هادئة مثل بحر الصيف، وباردة مثل كتلة ثلج، وصامتة مثل أبي الهول. عبثًا حاولت السيّدة تشيستر أن تحدّثها معبّرة عن إعجابها بروايتها الساحرة، وعبثًا حاولت فتيات تشيستر أن يحدثنها عن الحفلات والنزهات وعالم الأزياء والأوبرا، ولكنّها كانت تردّ عليهن بابتسامة ورزانة وبرود يتبعه كلمة «لا» أو «نعم»، حاولت آيمي أن تُلمِّح لها بأن تكرر كلمة: «تحدثي» في كلامها لكن دون جدوى، حتى أنها وخزتها قليلًا بقدمها، ولكنّ جو كانت تجلس بجمود كما لو أنّها فاقدة للوعي.

حين خرجنا من المنزل سمعتا إحدى الفتيات تقول:

«تلك الآنسة مارش، يا لها من فتاة متعجرفة ومملّة».

ضحكت جو بصوت منخفض في أنحاء البهو، لكن آيمي نظرت نحوها باشمئزاز لأن تعليماتها قد فشلت، وبطبيعة الحال ألقت اللوم على جو.

قالت آيمي:

«كيف أمكنك أن تخطئي في ذلك؟، لقد قصدتُ أن تكوني محترمة ولبقة، وليس أن تجلسي هناك كتمثال متحجّر من المثاليّة. جرّبي أن تكوني اجتماعيّة في زيارتنا لعائلة (لام)، انشغلي بالأحاديث والثرثرة كما تفعل بقية الفتيات، أظهري أنّك مهتمّة بالأزياء والمغازلات. عائلة لام لهم قيمتهم في المجتمع، ومن الأفضل لنا أن نكسب ودّهم، ولن نفشل في ذلك مهما كلّفنا الأمر».

«حسنًا إذًا، سأكون لبقة، سأثرثر وأضحك، سأشارك بكلّ الأحاديث، حتّى التافهة. فأنا أحبّ القيام بذلك، سأريك الآن المعنى الحقيقيّ للفتاة المرحة، وسآخذ من ماي تشيستر مثالًا أقتدي به، بل سأكون أفضل منها. أعدك بأنّ عائلة لام ستقول يا لها من فتاة!، جو مارش تلك، إنّها مليئة بالحيوية واللباقة».

رغم ذلك، شعرت آيمي بالقلق، لأنّ جو حين تقرر أن

t.me/yasmeenbook

تمشي وراء حماسها، لا تقف عند حدود. وراحت تدقّق النظر في أختها عندما نهضتا للزيارة التالية، وراحت جو تقبّل جميع السيّدات الشابّات بإسراف، وتسلّم على الشبّان بابتسامة زائدة، وتشارك بكلّ الأحاديث بلباقة ولطافة. كانت السيّدة لام تحبّ آيمي، وتفضّلها على بقيّة أخواتها، فراحت توجّه الحديث إليها. فأجبرتها على سماع قصّة طويلة. بينما وقف ثلاث شبّان يحومون بقربها، في انتظار أن تنتهي القصة ليتقدّموا وينقذوها. كانت بمثابة حاجز لآيمي تحجبها عن مراقبة أختها جو، التي بدت وكأنّها ممسوسة بروح شرّيرة. فأخذت تتكلّم بسرعة شديدة كالسيّدة لام العجوز. ولكن ملأها الفضول حين رأت الرؤوس كلّها متّجهة نحو جو، والجميع مندهش ومعجب ويقهقه بصوتٍ عال. بذلت آيمي جهدًا لتصغي لما تقوله جو. ولمعت أذناها حين سمعتها تقول:

«إنّها ماهرة بركوب الخيل،»

فسأل أحدهم: «ومن علّمها ذلك؟»

ردّت: «لا أحد!، لقد كانت تمتطي سرجًا قديمًا كان لدينا، والآن هي تركب كلّ شيء، فهي لا تعرف الخوف. وصاحب الحظيرة يسمح لها بأن تأخذ أيّ جوادٍ تريده، فهي تدرّب الخيول جيّدًا، ثم إنّها تحبّ الفروسية، وأنا

أقول لها في الكثير من الأحيان، تستطيعين أن تكسبي لقمة عيشك بهذه الطريقة، إذا فشلتِ بالأمور الأخرى».

شعرت آيمي بالغضب لما سمعت، وسيطرت على نفسها بصعوبة، فهذا يعطي انطباعًا سيّئاً عنها، ولكن ماذا عساها تفعل؟، فالسيّدة العجوز لا تزال في منتصف حديثها، وقبل أن تنتهي السيّدة من حديثها بمدّة طويلة، عادت جو للحديث، وراحت تكشف المزيد، وترتكب الأخطاء.

حيث قالت:

«نعم، لقد كانت آيمي في حالة من اليأس ذلك النهار. لأنّ جميع الخيول الجيّدة كانت في الخارج، ولم يبقَ في الحظيرة سوى ثلاثة، واحدٌ منها أعرج، والثاني أعمى، والثالث شاحبٌ جدًّا لا يتحرّك إلاّ إذا ملأت فمه ترابًا».

سألها أحد الشباب الذين كانوا يضحكون:

«وأيّها اختارت؟»

قالت جو:

«لم تختر أيّاً منها، لكنّها سمعت أنّ هناك حصانًا جيّدًا في مزرعة وراء النهر، ولم تمتطِهِ السيّدة من قبل، رغم ذلك قرّرت آيمي المحاولة، لأنّه كان جميلًا ونشيطًا. كانت جهودها مثيرة حقّاً، فلم يكن هناك من يعدّ لها السرج،

t.me/yasmeenbook

حملت سرجًا وضعته في القارب، وراحت تجذف في المياه حتى وصلت إلى البرّ، وهناك وضعت السرج فوق رأسها، وسارت به إلى الحظيرة، وأثارت دهشة الرجل العجوز حين رآها!»

سألها أحدهم:

«وهل ركبت الحصان؟»

«بالطبع فعلت!، كما أنّها حظيت بوقت جميل، وظننت حينها أنّها ستصل إلى البيت مرهقة، ولكنّها تمكّنت من امتطاء الخيل بمهارة، وكانت حديث الجميع حينها».

قال السيّد لام، موجهًا نظرات الإعجاب لآيمي:

«إنّك جسورة يا آنستي».

فتساءل الشباب ترى ما الذي قالته أمّه لها حتّى جعلت وجهها أحمر بهذا الشكل؟.

وراح وجه آيمي يحمرّ أكثر وازداد معه قلقها، حين تحوّل الحديث إلى الأزياء، وسمعت إحدى الفتيات تسأل جو عن المكان الذي اشترت منه قبعتها السمراء الجميلة، وبدل أن تذكر جو اسم المحلّ الذي اشترت منه القبّعة منذ سنتين، أجابت ببلاهة وصراحة لا داعي لها:

«لقد لوّنتها آيمي بهذا اللون، فهو لا يوجد في أيّ مكان، ونحن معتادون أن نلون قبعاتنا بأيّ لون نريده، لحسن حظّي أنّي أملك أختاً فنّانة كآيمي».

قالت السيّدة لام، التي وجدت أنّ حديث جو ممتعٌ:

«أليست هذه فكرة مبدعة».

قالت جو بنبرة تعبّر عن الفخر بمهارة أختها، ممّا جعل آيمي تودّ لو تقذف جو بحقيبة يدها، لتنفّس عن غيظها:

«هذا يعدّ لا شيء مقارنة بالأشياء المبهرة الأخرى التي تفعلها، فلا يوجد شيء صعب على هذه الفتاة الصغيرة. في إحدى المرّات احتاجت حذاءً أزرق فدهنت حذاءها الموحل بلون السماء الصافية، ليبدو وكأنّه مصنوع من الحرير».

قالت السيّدة لام الكبيرة، وهي تمدح موهبة جو في الكتابة، معترفة بأنّها لم ترها بهذه الشخصية من قبل:

«لقد قرأنا إحدى قصصك منذ أيام، وقد استمتعنا بها كثيرًا يا جو».

كان ذكر مؤلّفاتها يشعرها بالضيق، فأحيانًا تتجمّد وكأنّها أهينت، أو تغيّر الموضوع، كما فعلت حينها، فقالت:

«يؤسفني أنّك لم تجدي شيئًا أفضل لتقرئيه، فأنا أقوم بكتابة هذه المهملات لأنّها تباع، وتعجب العالم، هل ستذهبين إلى نيويورك هذا الشتاء؟»

كانت السيّدة لام واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين

t.me/yasmeenbook

أعجبوا حقًّا بالقصة، فرأت أن كلام جو كان قاسيًا ووقحًا. وأدركت جو ذلك ولكن بعد فوات الأوان، وخشيت أن تزيد الموقف سوءًا بكلام آخر، لكنّها تذكّرت أنّه قد حان الوقت للذهاب، فقاطعت حديث الشبان الثلاثة قائلة:

«هيا يا آيمي حان وقت الذهاب، إلى اللقاء يا عزيزتي، آمل أن تتفضّلي بزيارتنا قريبًا، ويسرّنا ذلك، أمّا بالنسبة لك يا سيّد لام فلا أستطيع أن أطالبك بزيارتنا، ولكن سيسرّنا إن جئت».

وكانت بكلامها هذا تحاول تقليد دلال ماي تشيستر، فبدت مضحكة، ما جعل آيمي تخرج بسرعة من الغرفة، وشعرت أنها تودّ أن تضحك وتصرخ في آن واحد.

سألت جو أختها بكلّ ارتياح:

«هل أبليت بلاءً حسنًا هذه المرّة؟»

ردّت آيمي:

«لا يمكن أن يكون هناك أسوأ من ذلك، أخبريني ما الذي دفعك لسرد تلك القصص الساذجة عن السرج والقبّعات والأحذية وكلّ ما تبقّى؟»

قالت جو:

«إنّها قصص لطيفة، وقد أمتعت الحاضرين. الجميع يعلم بأنّنا فقراء، فلا داعي بأن نتظاهر بأنّنا نملك حظائر

خيول، ونشتري ثلاث أو أربع قبّعات كلّ موسم، ونملك أشياء جميلة مثلهم».

قالت آيمي بيأس:

«ما كان عليك أن تخبريهم بأشياءٍ عن خصوصياتنا، وتظهري لهم فقرنا بهذه الطريقة. أنت لا تتمتّعين بذرّة كبرياء، ولن تتعلّمي أبدًا متى عليك أن تصمتي ومتى يجب أن تتحدّثي».

شعرت جو بالخجل، وراحت تحكّ أنفها بمنديلها الخشن، وكأنّها تراجع سلوكها البشع. وسألت أختها وهما تقتربان من البيت الثالث:

«كيف علي أن أتصرّف هنا؟».

قالت آيمي:

«تصرّفي كما تشائين، فقد طفح الكيل».

فقالت جو بصلابة:

«إذًا سأمتّع نفسي كيفما أريد، فالأطفال في المنزل، وسأقضي وقتًا جيّدًا معهم، إنّ الرزانة تضايقني، واللّه وحده يعلم كم أحتاج للترفيه».

وعند الباب، لاقاها بعض الأطفال الصّغار وثلاثة من الكبار، فتحوّلت رتابتها إلى حماسٍ جامح، وانشغلت معهم تاركةً آيمي وحدها تؤدّي واجب التحيّة مع

t.me/yasmeenbook

مضيفتها والسيّد تيودور الذي جاء مصادفةً لزيارة العائلة نفسها.

راحت جو تنصت بكلتا أذنيها لحكايات الأطفال، وتوافق على كلّ الكلام الذي يقولونه، وتطبطب على كلابهم الصّغيرة. ثمّ طلب منها أحد الأطفال أن يصحبها لرؤية السّلحفاة، فتبعته دون أيّ اعتراض، وراحت تعيد تثبيت قبّعتها بعد أن عبثت بها أيدي الأطفال الصّغار، ممّا أثار ضحك صاحبة المنزل.

أطلقت جو العنان لنفسها لتستمتع بزيارتها مثلما تريد، وتركت الذّوق واللباقة لأهلها، راحت تستمتع بكلّ لحظةٍ دون أيّ قيدٍ أو التزام. وقد انبهرت آيمي كثيرًا بزوجة السيّد تيودور التي كانت إحدى سليلات الأشراف الإنكليز، والابنة الثالثة للورد معروف، فزاد ذلك من احترام آيمي لها وتبجيلها، فهي على الرغم من نشأتها الديمقراطيّة السائدة في أميركا، إلّا أنّ الولاء الملكيّ لا زال قائمًا لا تغيّره السنون.

ولم يكن هذا حال آيمي وحدها فقط، بل حال أغلب الأمريكيّن الذين ظلّوا يقدّمون الولاء والحبّ للدولة الإنكليزيّة العجوز. إن أمكننا أن نشبّه الأمر فيمكننا القول:

إنّ الابن الأمريكيّ الشابّ يأبى أن يثور على أمّه

الإنكليزيّة العجوز لفرط شغفه وحبّه لها، وبالتالي فإنّها تقدّم له الرعاية والحنوّ كي لا يثور عليها.

ووسط هذه المتعة الحقيقيّة التي حازت عليها آيمي من محادثة الأشراف، انتبهت أنّ وقت الزيارة قد انتهى. فاستأذنت بالانصراف وراحت تبحث عن أختها راجيةً من اللّه ألّا تكون قد تسبّبت بكارثة ما، أو أساءت التّصرّف.

وعندما رأت ذلك المنظر قالت في نفسها:

«أظنّ أنّه لا يوجد أكثر سخفاً من هذا، لكنّي سأعتبره سيّئاً فحسب لأهوّن الأمر على نفسي».

رأت جو، وقد جلست على العشب وخيّم الأولاد من حولها، وقد اندفع تجاهها كلب قذر القدمين، واستلقى على ذيل فستانها المزركش، وراحت تقصّ على الأولاد المتجمهرين حولها بإعجاب أحد مقالب لوري. أطعم أحد الأطفال سلحفاته وهو يستظلّ مظلّة آيمي الأنيقة، وراح الثّاني يأكل كعك الزّنجبيل فوق قبّعتها بعد أن خلعتها ورمتها على الأرض. أمّا الأخير فراح يلوّح بقفّازها في الهواء عاليًا.

واستمتع الجميع بوقتهم، وراحت جو تجمع أغراضها المتناثرة، التي وسّختها من هنا وهناك استعدادًا للانصراف.

ودّعها الأطفال متوسّلين أن تعاود زيارتهم مرّةً أخرى لكثرة ما استمتعوا برفقتها، وقالوا:

t.me/yasmeenbook

«كم أنت ودودة، وكم استمتعنا بالاستماع إلى طرائف لوري».

قالت جو وهي تحاول إخفاء مظلّتها المتّسخة خلف ظهرها مخافة أن تلومها آيمي:

«ألا تظنّين مثلي أنّهم أطفال رائعون. هؤلاء الصّغار!، كم يمدّونني بالطاقة والحيويّة».

أشاحت آيمي بنظرها بعيدًا، وامتنعت بتحفّظٍ شديد عن أيّ تعليق على مظهر جو المُبعثَر، وسألتها:

«لماذا تتجنّبين السيّد تيودور دائمًا؟»

أجابت جو:

«لا أحبّه، فهو فظٌّ وغليظ، يحتقر أخواته، ويثير المتاعب لأبيه، ولا يتحدّث باحترام عن والدته. إضافةً لما يقوله لوري عن كونه فاسداً وغير محترم، وأنا لا أعتبره أحد المعارف المرغوب فيهم أو المرحّب بهم، لذلك أتجنّبه ولا أخالطه أبدًا».

قالت آيمي بنبرة توبيخ:

«على الأقلّ، يمكنك معاملته بطريقةٍ ألطف من هذه. رأيتك تومئين له بنشاف وعبوس، بينما ترحّبين بحفاوة بتومي تشامبرلين ابن مالك محلّ البقالة المجاور. كان يجدر بك على الأقلّ أن تبتسمي للسيّد تيودور ولو ابتسامة خفيفة. لو فعلت ذلك لكان الأمر أكثر لباقة».

ردّت جو:

«كلّا، لا أحبّ هذا ولن يحدث. أنا لا أحبّه ولا أحترمه ولو كان من سلالة الأشراف أو ينحدر من العائلة الملكيّة. أمّا تومي فهو شابٌّ صالحٌ وذكيٌّ للغاية، بالرغم من فقره وخجله الشّديدين، وأنا معجبةٌ جدًّا به وأحبّ أن أبيّن له ذلك، باختصار، إنّه في نظري أنبل النّبلاء بالرغم من مهنة أبيه المتواضعة».

قالت آيمي:

«عبث. النقاش معك عقيمٌ».

قاطعتها جو:

«على العكس يا عزيزتي. لِمَ تبالغين هكذا؟. الآن دعينا من العراك لنهدأ ولنضع بطاقة هنا لآل كينج، إذ يبدو أنّهم ليسوا في المنزل. وشكرًا للّه على ذلك».

وبالفعل تركتا البطاقة، وأكملت الفتاتان مسيرتهما وانطلقتا نحو البيت الخامس، كانت العائلة منشغلة باستقبال عريس لابنتهم، فاعتذروا عن مقابلتهما، فشكرت اللّٰه شكرًا حميدًا على تلك الأقدار.

بقيت لهما الزيارة السّادسة، وكانت من نصيب العمّة مارش، وهذا ما حاولت جو أن تتملّص منه:

«دعينا نؤجّل زيارة العمّة ولنعد إلى المنزل الآن يا

t.me/yasmeenbook

آيمي، ثمّ نأتي في يوم آخر لزيارة العمّة مارش. أخاف على ملابسنا الأنيقة أن تتّسخ بهذا الطّقس المُغبَرّ ثمّ إنّ المسافة بعيدة».

«تحدّثي عن نفسك ولا عليك منّي لو سمحت. أعلم تمامًا ما تحبّه عمّتنا، وكم ستُسرّ إذا ما رأتنا بهذه الحلّة البهيّة والطلّة الأنيقة، فلِمَ نحرمها من ذلك؟. ولا أظنّ بتاتًا أنّ عناء الطّريق سيفسد ملابسك بقدر ما أفسدته الكلاب المُتّسخة، واستلقاء الأطفال على ذيل فستانك. توقّفي قليلًا لأزيل فتات الكعك عن قبّعتك».

ونقّلت جو نظرها بين ملابسها الملوّثة والمبقّعة، وثياب أختها البهيّة النّظيفة، وندمت على استهتارها بالعناية بمظهرها وقالت:

«يا لك من فتاة طيّبة يا آيمي. أنا أعترف تمامًا بما تتركه هذه اللفتات من أثرٍ طيّبٍ ومباركٍ في نفوس الذين تقدّمينها إليهم، ولا تظنّي أنّني لا أتمنّى أن أكون مثلك، أخدم الناس وأقدّم لهم ما يليق بهم من إحسان وحسن معاملة، لكنّ صبري محدود ولا أطيق الانتظار، لذلك دائمًا ما أعمد إلى تحيّن الفرص المناسبة لأقدّم أشياء أكبر وخدمات أجلّ لا تُنسى بسهولة، وأكفّر بذلك عن الإهمال السابق».

تبسّمت آيمي بعذوبة وتحدّثت لأختها بحنان الأمّ الغامر:

«يجب على النساء أن تتعلّمن كيف تكنّ ودودات لطيفات، خاصّةً إن كنّ فقيرات وليس لديهن أيّ سبيل لأيّ خدماتٍ أخرى، فلا يبادلن اللطف إلّا باللطف. إن جرّبت ذلك سيحبّك النّاس أكثر ممّا يحبونني، وسيكون الأمر أسهل عليك لما وهبك اللّٰه إيّاه من رقّة قلب وذكاء».

أجابتها جو:

«معك كلّ الحقّ. ولكن ماذا أفعل إن كان لديّ عقلٌ متحجّرٌ بعض الشيء، وغرابة في الأطوار؟! الأمر ليس بيدي. ولتعلمي أنّني مستعدّةٌ لأن أضحّي بحياتي من أجل أحدهم، على أن أُجبَر على مجالسته مرغمةً لأبرهن على حسن مسلكي ومعشري. ما أبشع أن يكون الإنسان مزاجيّاً انفعاليّاً. أليس كذلك؟!»

قالت آيمي:

«بالطّبع هذا صعب للغاية، والأصعب هو المقدرة على إخفاء ذلك وعدم إظهاره للناس. لا أنكر أنّني لا أوافق على مسلك تيودور وأكره رعونته وسوء معاملته، ولكنّني غير مجبرة على جرح إحساسه وإظهار الكراهية له مثلما فعلت أنت؟. قولي لي ماذا حصدت من ذلك؟»

قالت جو:

«أظنّ أنّ العكس هو الصحيح. على الفتيات أن

t.me/yasmeenbook

يظهرن امتعاضهنّ من سلوكيّات بعض الشّباب المقزّزة، وكيف يمكنهنّ فعل ذلك إلّا بصمتٍ وبكثيرٍ من التجاهل المؤدّب؟. الوعظ لا يجدي نفعًا. وقد برهنت على ذلك في معاملتي للوري وعشرتي معه، هناك العديد من الطرق الصغيرة التي يمكنني من خلالها التأثير عليه دون أن أنطق بكلمة واحدة، وبرأيي فإنّ علينا أن نتّبع هذه الطّريقة مع الآخرين؛ وسوف تنجح».

قالت آيمي بقناعة تامّة وبثقة ليس لها مثيل، ولو سمعها لوري لأغمي عليه من شدّة الضّحك:

«تيدي شابٌّ رائع، ولا أظنّ أنّه يمكننا وضعه في المرتبة نفسها مع تلك الزمرة التي نتناقش عنها».

ثم تابعت:

«نحن فقراء ولسنا على مستوىً عالٍ من الجمال والأناقة، لذا أظنّ أنّه من غير الحكمة أن نمدح بعض النّاس ونعيب على البعض الآخر، ونسقط عليهم أحكامنا. فهذا سيعرّضنا للسخرية، وسيقال عنّا إنّنا متشدّدات وحسودات وتنقصنا اللباقة. ربّما لو كنّا ثريّات وذوات مناصب مرموقة لتغيّر الأمر برمّته».

اندهشت جو لما سمعته وقالت:

«وهل علينا أن نجامل الأشخاص الذين نبغضهم

ونبغض سلوكهم لمجرّد أنّنا لسنا ثريّات أو جميلات؟!!. ما هذا المنطق الذي تحدّثيني به؟، هل هذا منطقيّ؟، أم أنّها صيحة جديدة تكتسح الأسواق؟»

قالت آيمي:

«أعلم أنّه يصعب عليك استيعاب الأمر، ولن أستطيع إقناعك أنّ هذه هي حياتنا وهذا ما اعتاد الناس عليه. لِمَ تحاولين دائمًا أن تخرجي عن القطيع، وأن تتسبّبي لنفسك بالمتاعب لتصبحي محطّ سخريةٍ واستهزاءٍ من قبل النّاس؟. أنا أكره الإصلاح والإصلاحيّين، وأرجو أن تبتعدي عن هذا النهج وإلّا سيضحك الناس عليك أخيرًا».

انفعلت جو وقالت:

«أنا أحبّهم، وسأكون واحدةً منهم إذا استطعت، لأنّه على الرغم من الضحك، فإن العالم لن يستمرّ من دونهم فهم الأمل للناس، والعبرة فيمن يضحك أخيرًا».

تابعت جو:

«لا يمكننا الاتّفاق على ذلك، فأنت تنتمين إلى الكلاسيكيّة النمطيّة، وأنا لديّ نظرة تجديديّة إصلاحيّة. ربّما تحصدين ثمارًا أكثر منّي، لكنّني سأكون أكثر استمتاعًا وحيويّةً في حياتي. سوف أبقى صامدةً أمام سخريتكم وضحككم».

t.me/yasmeenbook

قالت آيمي:

«حسنًا. توقّفي عن الحديث الآن، ولا تزعجي العمّة مارش بأفكارك الجديدة الغريبة».

«سأحاول ذلك ما استطعت، ولكنّ لا أخفي عنك، تستحوذ عليّ رغبةٌ كبيرةٌ دائمًا بأن أنفجر أمامها بخطابٍ فظٍّ، أو أن أشنّ ثورةً لاذعةً في وجهها. ولكن للأسف هذا هو قدري وليس من القدر مهرب».

وصلت الفتاتان ووجدتا العمّة كارول مع العمّة مارش، وكلتاهما منغمسٌة في موضوع مثير للغاية، لكنّهما سكتتا ونظرتا للفتاتين بنظرة ثاقبة تدلّ أنّ الحديث كان عنهما وأخواتهما. وكانت آيمي كالملاك في حسن تصرّفها ولباقتها وأدّت واجب الزّيارة على أكمل وجه، فأثلجت قلب العجوزين. أمّا جو فلم تنل ذلك الإعجاب الذي حظيت به آيمي، بسبب تبدّل مزاجها وغرابة تصرّفاتها وطريقتها في التّحدّث عن نفسها والآخرين.

جلست آيمي بجانب العمّة كارول بعزّة وتفاخر، والابتسامة الرقيقة لا تفارق شفتيها، فسألتها العمّة:

«هل تساهمين في الجمعيّات الخيريّة يا عزيزتي؟»

أجابت آيمي:

«نعم يا عمّتي. سألتني السيّدة تشيستر عمّا إذا كنت

سأفعل، وعرضت أن أستلم المبيعات على إحدى الطّاولات، لأنّني لا أملك شيئًا سوى وقتي لأقدّمه».

انفعلت جو وقالت بعصبيّة:

«أكره أن أتلقّى الرعاية من أحد. آل تشيستر يعتقدون أنّهم يمنّون على الناس بإشراكهم بذلك العمل، ولو أنّه لا يعود على المتطوّعين إلّا بالتعب والإجهاد. وأتساءل كيف قبلتِ يا آيمي وهم يريدون استغلالك فحسب».

قالت آيمي لجو بحزم:

«أنا لا آبه إن كانوا هم رؤساء الجمعية أم غيرهم ما دام ذلك عن حسن نيّة، وإن كانت الأرباح تعود للفقراء والمحتاجين والمنكوبين، ثمّ لا تنسي ما أجنيه من متعةٍ وراحةٍ نفسيّةٍ لقاء مشاركتي معهم. أنا ممتنّة لهم لأنّهم اختاروني للمشاركة».

أزاحت العمّة مارش النّظارات عن عينيها، وحدّقت بجو بعبوسٍ وتجهّم وقد اغتاظت من طريقتها وأسلوبها الفظّ:

«كم أنت لبقة يا آيمي. أنت محقّةٌ وتعجبني روحك الممتنّة يا عزيزتي. إنّه لمن دواعي سروري مساعدة الأشخاص الذين يقدّرون جهودنا. حتّى وإن لم نلقَ من يقدّرها، فيكفينا شرف المحاولة».

t.me/yasmeenbook

لو كنّا على اطّلاعٍ بالقدَر لصنعنا حياتنا بأنفسنا، ولو علمت جو ماذا كانت تدبّر إحدى العمّتين لبنات أخيها من خيرٍ وافرٍ لتحوّلت لحمامة وديعة في دقيقةٍ واحدة، لكن لسوء الحظّ، القدر علبةٌ مغلقةٌ لا تطلعنا على خباياها إلّا بعد فوات الأوان.

تنطّحت جو في الكلام، وتسرّعت كعادتها وحرمت نفسها من عدّة سنوات من المتعة، وتلقّت درسًا في الوقت المناسب في فنّ الإمساك بلسانها بسبب ما قالته:

«لا أحبّ أن يخدمني أحد، ولا أن أتلقّى المعونة أصلًا. فأنا أكره أن يضطهدني النّاس ويشعرونني أنّني عبدة. أفضّل أن أفعل كلّ شيءٍ لنفسي، وأكون مستقلّةً تمامًا».

نظرت العمّة كارول إلى العمّة مارش وكأنّها تريد أن تثبت لها شيئًا ما، ثم سعلت وتنحنحت:

«احم، احم».

ثمّ أومأت العمّة مارش بنظرات مشابهة وقالت بحسم:

«لقد أخبرتك بذلك».

وجلست جو بشموخٍ وعزّةٍ في الهواء وكأنّها ستشنّ حربًا على العمّتين، أو على أيّة فكرةٍ تعارض أفكارها، فزادتها تلك الحدّة جمالًا ورونقًا.

سألت العمّة كارول ابنة أخيها آيمي بعد أن ربّتت على كتفها ورأسها:

«هل تتكلّمين الفرنسيّة عزيزتي؟»

نظرت آيمي للعمّة مارش نظرة حبٍّ وامتنان وقالت:

«شكرًا للعمة مارش الّتي مدّت لي يد العون، وسمحت لإستير بالتحدّث معي بالقدر الذي جعلني أتقن أغلب المفردات وأتحدّث بمستوى لا يستهان به».

استدارت العمّة كارول نحو جو لتسألها:

«كيف حالك مع اللغات؟»

ردّت جو بطريقةٍ فظّة، وليتها لم تردّ:

«لا أعرف كلمةً واحدة. ليس لديّ الذكاء الكافي لحفظ أيّ شيءٍ جديد، ولا أستطيع تحمّل الفرنسيّة، إنّها لغةٌ مملّةٌ وسخيفة».

تبادلت العمّتان النظرات مرّةً أخرى، ثمّ قالت العمّة مارش:

«أرى أنّ صحّتك قد تحسّنت وعينيك في أفضل حال؟، أليس كذلك يا عزيزتي؟»

أجابت آيمي ببالغ الرّقّة والعذوبة:

«أجل، شكرًا لك سيّدتي. أنا بأفضل حال، وأعتزم القيام بأشياءٍ رائعةٍ في الشتاء المقبل، حتّى أكون مستعدّة لروما، عندما يحين ذلك الوقت الممتع».

هزّت العمّة مارش رأسها بإشارة على الموافقة والتّرحيب بالفكرة وقالت لآيمي:

t.me/yasmeenbook

«فتاةٌ جيّدةٌ! أنت تستحقّين الذهاب، ومتأكّدةٌ أنّك ستفعلينها يومًا ما».

ثمّ انحنت آيمي لتناولها كرة الصوف.

وصاح الببّغاء المشاكس بولي وغنّى هذه الأغنية:

«كروس باتش، ارسم المزلاج، اجلس بجانب النار ودُر...

أصلحي الثياب البالية.. واغلقي الأبواب العالية..

أشعلي حطب النيران.. وانسجي الأسدال للجيران.».

قالت السيّدة العجوز:

«أكثر الطيور تلصّصًا ومراقبةً».

صرخ بولي مرّةً ثانيةً، وقفز نحو الخزانة بنظرة توحي أنّه يريد قطعة من السكر:

«تعالي يا عزيزتي، واسمحي لي بأن أتمشّى معك قليلًا؟»

وفي هذه الأثناء شعرت جو أنّ صدرها قد ضاق بتلك الزّيارات أكثر من ذي قبل، وأنّها ستختنق لو بقيت دقيقة أخرى، فأنهت الزيارة:

«شكرًا لك بولي، سنفعل ذلك في الحال. تعالي يا آيمي».

ودّعت جو العمّتين وصافحتهما باليد أمّا آيمي

فقبّلتهما... وانصرفت الفتاتان تاركتين وراءهما انطباعين مختلفين اختلاف السّماء عن الأرض، أو الظلّ عن أشعّة الشّمس، قالت العمّة مارش عندما اختفيتا تمامًا عن ناظريها:

«من الأفضل أن تفعليها يا ماري. وسأوفّر كلّ المال اللازم».

ردّت العمة كارول بحزم:

«بالتأكيد سأفعل. هذا إن وافق والداها بالطّبع».

t.me/yasmeenbook

الفصل السابع

نتائج

كان معرض السيّدة تشيستر أنيقًا للغاية وراقيًا، لدرجة أنّ السيّدات الشابّات في الحيّ اعتبرن أنّه لشرفٌ كبيرٌ لهنّ أن تتمّ دعوتهنّ إليه، وكانت جميعهنّ مهتمّات بالحدث. دُعيت آيمي فقط، أمّا جو فلم توجه لها أية دعوة، وكان ذلك من حسن حظّ النساء، لأنّها كانت في هذه الفترة من حياتها ذات كبرياءٍ عظيم، والأمر يتطلّب الكثير من الضربات القاسية لتعليمها كيفيّة المضي قدمًا بسهولة. تُركت «المخلوقة المتغطرسة والمشاكسة» بمفردها، أمّا آيمي فقد مُدح ذوقها على النحو المناسب، حيث عُرِض عليها الإشراف على طاولة الفنون، لذا بذلت جهدها لإعدادها وضمان مشاركتها في هذا العمل الخيريّ.

سارت الأمور بسلاسة حتّى اليوم السابق لافتتاح المعرض، عندما حدثت إحدى المناوشات الصغيرة التي كان لا بدّ من حدوثها، حيث كانت حوالي خمس وعشرين

امرأة تعملْنَ على الرغم من اختلاف أعمارهنّ واهتماماتهنّ في مكانٍ واحد.

كانت ماي تشيستر تشعر بالغيرة من آيمي لأنّ الأخيرة كانت محبوبةً أكثر منها، وفي هذا الوقت بالضبط حدثت عدّة أمور تافهة زادت من شعور الغيرة لدى ماي، أوّلها أنّ لوحات آيمي الجميلة طغت على المزهريّات التي زخرفتها ماي. أمّا ثانيها فكان رقص آيمي مع تيودور أربع مرات في حفلةٍ أُقيمت في وقتٍ متأخّر، في حين أنّه رقص مرّةً واحدة فقط مع ماي. لكنّ الحزن الأكبر الذي أشعل قلبها، وأعطاها عذرًا لتصرّفها بلؤم، كانت شائعةً قد همستها لها إحدى النساء، تقضي بأنّ فتيات مارش سخرن منها في منزل آل لام. هنا تقع الملامة كلها في هذا على جو، لأنّ تقليدها لماي كان نابضًا بالحياة لدرجة أنّه لم يخفَ على أحد، وقد نشر آل لام المزحة حتّى وصلت إلى أذني ماي.

ومع ذلك، لم يشعر آل مارش بحقد ماي، وفي ليلة المعرض، حين كانت السيّدة تشيستر، والتي أغاظتها السخرية من ابنتها، تضع اللمسات الأخيرة على طاولتها الجميلة، قالت بلهجةٍ لطيفة مصحوبةٍ بنظرةٍ باردة أثارت رعب آيمي:

«أجد يا عزيزتي أنّ فتيات كثيرات تضايقن بسبب

t.me/yasmeenbook

إعطائي هذه الطاولة لواحدةٍ من غير فتياتي، فهي الطاولة الأبرز، والبعض يقول إنّها الأكثر جاذبيّة، وبما أنّ بناتي أفضل المنظِّمات لهذا المعرض، فلقد رأين أنّه من الأفضل أن نعهد إليهنّ بالإشراف على الطاولة. أنا آسفة على هذا، لكنّني أعلم أنّكِ مهتمّةٌ بمبدأ هذا المعرض أكثر من أن تكترثي بخيبة أملٍ شخصيّةٍ صغيرة كهذه، وستكون لديكِ طاولةٌ أخرى إذا أردتِ».

تخيّلت السيدة تشيستر مسبقًا أنّه سيكون من السهل إلقاء هذا الخطاب الصغير، ولكن عندما حان الوقت، وجدت صعوبةً في الكلام إثر توتّرها بسبب نظرات آيمي المُباشرة نحو عينيها المليئتين بالدهشة والهمّ.

شعرت آيمي أنّ هناك أمرًا وراء هذا، لكنّها لم تستطع تخمينه، وقالت بهدوء مُظهرةً شعورها بالأذى: «ربّما كنتِ تفضّلين ألّا آخذ أيّة طاولةٍ على الإطلاق؟».

«أرجوكِ يا عزيزتي لا تسيئي الظنّ بي، إنّها مجرّد مسألة نفعيّة، فكما ترين، من الطبيعيّ أن تتسلّم فتياتي القيادة، وهذه الطاولة هي الأنسب لهنّ. أحببتُ أن أوضّح لكِ هذا بطريقةٍ لطيفة، وأشعر بالامتنان الشديد لجهودك في جعلها بهذا الجمال، لكن ينبغي أن نتخلّى عن رغباتنا الخاصة، كما أنّني أرى أنّك ستحظين بمكان جيّد آخر. ألا تحبّين طاولة الأزهار؟، تعهّدت الفتيات بها، لكنّهن بحاجةٍ

للمساعدة. يمكنكِ أن تجعليها ساحرة المظهر، ودائمًا ما تبدو طاولة الأزهار جذّابة كما تعلمين».

أضافت ماي: «وتجذب الرجال على وجه الخصوص».

علمت آيمي من كلام ماي ونظرتها إليها أحد الأسباب التي جعلتها تفقد أفضليّتها، فاحمرّ وجهها غضبًا وغيظاً، لكنّها لم تعر سخرية الفتاة اهتمامًا كبيرًا، وأجابت بطريقةٍ لطيفة غير متوقّعة:

«سأفعل ما يحلو لك يا سيّدة تشيستر، سأتخلّى عن مكاني هنا فورًا، وسأهتمّ بطاولة الأزهار إذا أردتِ ذلك».

شعرت ماي بتأنيب الضمير وهي تنظر إلى الرفوف الجميلة، والأصداف المطليّة، والأضواء المميّزة التي صنعتها آيمي بعنايةٍ فائقة ورتّبتها بطريقةٍ أنيقة فقالت: «يمكنك وضع أغراضك الخاصّة على طاولتك إن كنتِ تفضّلين ذلك».

لم يكن وراء كلام ماي نيّةٌ سيّئة، لكنّ آيمي أساءت فهمها فأجابت بسرعة: «بالتأكيد سآخذها إذا كانت تقف في طريقك».

أخذت تجمع أشياءها في مئزرها، ثم غادرت بشعور من تعرضت وأعمالها الفنية لإهانةٍ لا تُغتفر.

وعندما ابتعدت، قالت ماي لأمّها وهي تنظر بقلقٍ

t.me/yasmeenbook

إلى المساحات الفارغة، والتي سبّبها نقل أشياء آيمي عن طاولتها: «يا إلهي لقد غضبت!، ليتني لم أطلب منكِ التحدّث معها يا أمّي».

ردّت الأمّ وهي تشعر بالخجل كونها جزءًا من هذه المشاجرة: «سرعان ما تنتهي مشاجرات الفتيات».

عندما ذهبت آيمي إلى طاولة الأزهار، أشادت الفتيات الصغيرات بها وبكنوزها الفنيّة بسعادة، ما جعل روحها المضطربة تهدأ قليلًا. باشرت العمل وهي مصمّمةٌ على تحقيق النجاح بأزهارها، حتى وإن لم تستطع ذلك فنيًّا. لكنّها أحسّت بأن كلّ شيء كان ضدّها، فالوقت متأخّر، وهي متعبة. كان الجميع مشغولين جدًّا بشؤونهم الخاصّة فلم يستطيعوا مساعدتها، وكانت الفتيات الصغيرات مجرّد عوائق بالنسبة إليها، بسبب ضجيجهنّ وثرثرتهنّ، وجهودهنّ الفاشلة للحفاظ على النظام الأمثل.

لم يبقَ القوس دائم الخضرة ثابتًا بعد أن نهضت، بل تمايل وهدّد بالسقوط على رأسها عندما امتلأت السلال المعلّقة. وتلطّخ أفضل أنبوبٍ فخاريٍّ صنعته برذاذٍ من الماء، ما رسم دمعةً على خدّ كيوبيد. كما أُصيبت يداها بجروحٍ لكثرة الطرق، وأصابتها نزلة بردٍ أثناء العمل، فانتابها القلق خوفًا من عدم قدرتها على حضور الافتتاح في اليوم التالي. ولعلّ كلّ قارئ مرّ بمثل هذه المحنة

سوف، تتعاطف مع المسكينة آيمي وتتمنّى لها التوفيق في مهمّتها.

سادت المنزل حالةٌ من الغضب الشديد عندما روت آيمي قصّتها في ذلك المساء. وقالت والدتها إنّ ما فعلته عائلة تشيستر أمرٌ مهين، لكنّها أخبرت آيمي أنّها فعلت الصواب. أعلنت بيث أنّها لن تذهب إلى المعرض على الإطلاق، وأخبرتها جو بأنّه كان ينبغي عليها أخذُ كلّ أشياءها الجميلة وترك أولئك الأشخاص اللئام.

«لا ينبغي لي أن أكون لئيمةً مثلهنّ، هذا ليس من شيمي، وعلى الرغم من أنّني أعتقد أنّه من حقّي أن أثور وأغضب، إلّا أنّني لا أنوي إظهار هذه المشاعر. فبهذه الطريقة سيشعرن بالندم أكثر من مجرّد خطاباتٍ ثائرة أو أفعالٍ قاسية، أليس كذلك يا مارمي؟».

أجابت الأمّ بنبرةٍ حكيمة: «أحسنتِ صنعًا يا عزيزتي. أقوى انتقام هو مقابلة الإساءة بالإحسان، رغم أنّ مسامحة من أساؤوا إلينا أمر صعب في بعض الأحيان.»

التزمت آيمي بقرارها طوال اليوم التالي، عازمةً على قهر عدوّتها بحسن المعاملة، على الرغم من العوامل المتنوّعة التي تغريها بالغضب والانتقام. وسار الأمر بشكلٍ جيّد بفضل صدفةٍ صغيرة جاءتها في الوقت المناسب. فعندما كانت ترتّب طاولتها في ذلك الصباح، وكانت الفتيات

t.me/yasmeenbook

الصغيرات في غرفة الجلوس يملأن السلال. لفتت انتباهها رسوماتها الحبيبة، ورأت بينها كتابًا صغيرًا بغلافٍ قديمٍ وجده والدها بين كنوزه، يحوي أوراقًا كانت قد كُتبت عليها بطريقةٍ جميلة نصوصًا مختلفة. وبينما كانت تقلّب بفخرٍ الصفحات الغنيّة بالنصائح الرائعة، وقعت عيناها على عبرة جعلتها تقف عنده وتفكّر. وكانت الكلمات مخطوطةً بين نقوشٍ ورسوماتٍ رائعة بألوانٍ متعدّدة وسط الأشواك والزهور: «أحِبَّ لجارك ما تُحبّ لنفسك».

كانت آيمي تنقّل بصرها بين الكتيّب ووجه ماي الذي بدت عليه علامات الغضب من وراء المزهريّات الكبيرة، لأنّها لم تستطع إخفاء المساحات الفارغة التي كانت تملؤها لوحات غريمتها قبل سحبها، فقالت آيمي لنفسها: «نعم، كان يجب أن أحبّ لجاري ما أحبّ لنفسي، لكنّني لم أفعل».

وقفت آيمي دقيقةً تقلّب الأوراق في يدها، وتقرأ في كلٍّ منها لومًا على كلّ حرقة قلبٍ للنفوس وقسوتها. نسمع بالكثير من المواعظ الحكيمة كلّ يومٍ في الشوارع، أو المدرسة، أو المكتب، أو المنزل. وحتّى أمام طاولات المعارض، ويمكن أن نسمع بمثل هذه الكلمات الطيّبة التي لا تبلى حكمتها مهما مرّ عليها من زمن. وهذا ما حدث لآيمي حين وعظها ضميرها بما استوحاه من

نصوص الكتيّب، ففعلت ما لا يفعله الكثير منّا عادةً، وهو أنّها أخذت الموعظة على محمل الجدّ، ووضعتها موضع التنفيذ على الفور.

كانت مجموعةٌ من الفتيات تقفن حول طاولة ماي، وتنظرن بإعجابٍ إلى الأعمال الجميلة، وتتحدّثن عن انضمام آيمي لهنّ. حاولت الفتيات التكلّم بصوتٍ منخفضٍ بحيث لا تسمعهنّ آيمي، لكنّ الأخيرة كانت تعلم أنّهنّ يتحدّثن عنها، بعد أن سمعن القصّة من جانب واحد فكان حكمهن غير منصفٍ

. لم تكن آيمي راضية بهذا، لكنّها لم تستسلم لغضبها بل غلبها الجانب الجيّد من شخصيّتها، وأتيحت لها فرصة لإثبات ذلك حين سمعت ماي تقول بحزن:

«الوضع سيءٌ للغاية، فليس لديّ وقت كاف لصناعة أعمالٍ أخرى، ولا أريد ملء الفراغات بأشياء غير جميلة أو تافهة. كانت الطاولة كاملة ومثاليّة، أمّا الآن فلقد فسدت».

اقترحت إحداهنّ: «أظنّ أنها ستعيدها إذا طلبتِ منها ذلك».

ردّت ماي: «كيف لي أن أطلب منها ذلك بعد كلّ هذه الجلبة؟» لكنّ آيمي قاطعتها وقالت بسرور:

«يمكنكِ أخذها إن أردتِ دون أن تسأليني، وسأكون

t.me/yasmeenbook

مسرورة. كنت من تلقاء نفسي أفكّر في إعادتها، لأنّها تنتمي لطاولتك وليست لطاولتي. ها هي، من فضلكِ خذيها وسامحيني إن تسرّعتُ في سحبها الليلة الماضية.»

أعادت آيمي بسرورٍ أعمالها الخيريّة أثناء كلامها، ثمّ ابتعدت، لأنّها شعرت أنّ إسداء الجميل أسهل من طلب الشكر».

قالت إحدى الفتيات: «أراها مبادرةً جميلةً منها، ألا تعتقدن ذلك؟».

لكنّ شابّةً أخرى أضافت بضحكةٍ خبيثة: «لقد جاءت بهذه المبادرة الجميلة لأنّها تعلم بأنّها لن تستطيع بيعها على طاولتها».

إنّه لأمرٌ صعبٌ أن يُساء فهمنا، فعندما نقدّم القليل من التضحيات، نودّ على الأقلّ أن يتمّ تقديرها وللحظة، شعرت آيمي بالأسف لما قدّمته، وشعرت أيضاً أنّ الفضيلة لم تكن دائمًا ما نكافأ به مقابل إحساننا. ولكنّها اكتشفت أنّ معنوياتها بدأت في الارتفاع، وطاولتها بدأت تتألّق بفضلِ مهاراتها، وكانت الفتيات لطيفات للغاية، وبدا أنّ تلك المبادرة الصغيرة قد لطّفت الجوّ بطريقةٍ مذهلة.

كان يومًا طويلًا جدًّا وصعبًا على آيمي، حيث جلست خلف طاولتها، غالبًا بمفردها تمامًا لأنّ الفتيات الصغيرات سرعان ما هجرن الطاولة. قلّةٌ هم الذين اهتمّوا بشراء

الزهور في الصيف، وبدأت باقاتها تذبل قبل وقتٍ طويلٍ من الليل.

كانت طاولة الفنّ هي الأكثر جاذبيّةً في الغرفة، وكان هناك حشدٌ من الناس حولها طوال اليوم، وكان أصحاب المناقصات والوجوه المهمّة ينتقلون باستمرار ذهابًا وإيابًا بصناديق النقود. كانت آيمي تنظر إلى تلك الطاولة بحزنٍ، وتتوق لأن تكون هناك، حيث كانت ستشعر بأنّها سعيدةٌ في مكانها المناسب، بدلًا من أن تكون جالسةً في زاويةٍ لا تحرّك ساكنًا. قد لا يبدو الأمر صعبًا بالنسبة للبعض منّا، ولكن لم يكن الأمر مملّاً فحسب بالنسبة لفتاةٍ شابّةٍ جميلةٍ ومرحة، بل كان شاقّاً للغاية، والتفكير في لوري وأصدقائه كان عذابًا آخر.

لم تعد إلى المنزل حتّى هبط الليل، وبدت شاحبة وهادئة لدرجة أنّ عائلتها أدركت أنّ يومها كان شاقًّا دون أن تشكو ذلك، ولم تخبر أحدًا بما فعلته. قدّمت لها والدتها كوبًا إضافيًّا من الشاي، وساعدتها بيث في تغيير ملابسها، وصنعت لشعرها إكليلًا رائعًا من الزهور الصغيرة، بينما أذهلت جو عائلتها من خلال نهوضها واهتمامها على غير العادة، والتلميح بغموضٍ إلى أنّ الطاولات على وشك الانقلاب.

غادرت آيمي بهدف البحث عن زهورٍ أخرى لتعزيز

t.me/yasmeenbook

طاولتها، آملةً أن يجعلها ذلك تهدأ قليلًا، لكن قبل رحيلها توسّلت لجو، فقالت لها: «أرجوك لا تكوني وقحةً معهم يا جو، لا أريد التسبّب في أيّة مشاكل، لذا أحسني التصرّف ودعي الأمور تسير على ما يرام».

ردّت جو وهي تميل برأسها من فوق البوابة منتظرةً لوري: «أعتزم فقط أن أكون لطيفةً وهادئة مع كلّ شخصٍ أعرفه، وسأحاول أن أبقيهم على طاولتك لأطول فترةٍ ممكنة. سيساعدني تيدي وفتيانه في ذلك، وأملي في أن نقضي وقتًا ممتعًا».

في ذلك الوقت، تعالى وقع أقدام لوري قادمًا مع ضوء الصباح، فركضت جو لمقابلته.

«أهذا أنتَ يا صديقي؟»

وضع لوري يدها تحت ذراعه، وقال كرجلٍ تحقّقت كلّ أمنياته: «نعم هذا أنا يا صديقتي!»

«آه يا تيدي لو تعلم ما حدث!».

قال لوري بحماس: «ستمرّ مجموعاتٌ من أصدقائنا إلى طاولتها واحدةً تلو الأخرى، وأنا متأكّدٌ أنّني سوف أجعلهم يشترون كلّ زهرةٍ لديها، وبعدها سأجعلهم يقفون أمام الطاولة».

علّقت جو بنبرةٍ توحي بتشاؤمها: «تقول آيمي إنّ

الزهور ليست جميلةً على الإطلاق، وقد لا تصل الزهور الجديدة في الوقت المناسب. لا أريد أن أكون ظالمة أو شكّاكة، لكنّني أتوقّع ألّا تصل على الإطلاق. فمن يؤذيك مرّة، سوف يؤذيك مرّتين».

«طلبتُ من هايز أن يعطيك أفضل أزهار حدائقنا، ألم يفعل ذلك؟»

«لم أكن أعرف ذلك، أفترض أنّه نسي، ولم أشأ أن أزعجه بطلب الزهور على الرغم من أنّني كنت أريد بعضًا منها».

قال لوري بلهجته اللطيفة والمؤثّرة: «لا داعي لأن تطلبيها منه، إن كانت ملكي فهي ملكٌ لكِ أيضًا. ألسنا نتقاسم كلّ شيءٍ دائمًا؟»

«يا إلهي، آمل ألّا نفعل ذلك!. فنصف أشيائك لن تناسبني على الإطلاق، ولكن يجب ألّا نتعمّق في هذا الموضوع. يجب أن أساعد آيمي، لذلك اذهب وافعل ما قلت أنّك ستفعله، وإذا كنت لطيفًا جدًّا لدرجة السماح لهايز بأخذ بعض الزهور الجميلة إلى القاعة، سأكون ممتنّةً لك إلى الأبد».

سألها لوري بطريقةٍ ماكرة: «ولِما لا تردّين الجميل الآن؟»

t.me/yasmeenbook

أغلقت جو البوابة في وجهه بسرعة، وصرخت من بين القضبان: «ابتعد يا تيدي، أنا مشغولة».

بفضل المتآمرين، انقلبت الطاولات في تلك الليلة، لأنّ هايز أحضر الكثير من الزهور المتنوّعة، مع سلّةٍ جميلة مرتّبة بطريقةٍ رائعة لوضعها وسط الطاولة. وأتت عائلة مارش بكامل هيئتها، وبذلت جو ما في وسعها لتحقيق هدفها، فلم يأتِ الناس فحسب، بل ظلّوا يضحكون على مزاحها، ويبدون إعجابهم بذوق آيمي، وبدا أنّهم قضوا وقتًا ممتعًا. كما أقبل لوري وأصدقاؤه واشتروا باقات الزهور، ووقفوا أمام الطاولة، وحوّلوا تلك الزاوية إلى أكثر بقعةٍ تنبض بالحياة في الغرفة. شعرت آيمي أنّها الآن في مكانها المناسب، وتأثرت كثيرًا بما فعله لوري وأصدقاؤه، وكانت ممتنّةً لهم وأخذت تفكّر في مبادرتها، مستنتجةً أنّ ما فعلته لم يذهب سُدىً، وأنّها كوفئت خير مكافأة على تلك المبادرة الجميلة.

أما جو فقد أحسنت التصرّف طوال اليوم، وعندما كانت آيمي محاطةً بسعادةٍ بحرس الشرف الخاصّ بها، جابت جو القاعة، وسمعت أطرافًا مختلفة من القيل والقال، والتي أرستها على موضوع تغيير تشيستر للبائعات. لامت نفسها وعقدت العزم على تبرئة آيمي في أسرع وقتٍ ممكن. واكتشفت أيضًا أنّ أختها أعادت أشياءها في

الصباح إلى طاولة الفنّ، واعتبرتها مثالًا للشهامة. وأثناء مرورها بجانب طاولة الفنّ، ألقت نظرةً خاطفة بحثًا عن أشياء آيمي التي لم يكن لها أيّ أثرٍ على الطاولة. دار في عقلِ جو أنّ الأشياء قد أُبعِدت عمدًا عن الأنظار. كانت جو متسامحة مع من يخطئون في حقّها، لكنّها لا تغفر لمن يهين فردًا من أسرتها.

سألتها ماي بنبرةٍ تبيّن أنّها تطلب المسامحة: «مساء الخير آنسة جو. كيف تسير الأمور مع آيمي؟». كانت تريد إظهار أنّها كريمةٌ تمامًا مثل آيمي.

لم تستطع جو مقاومة نفسها فقالت: «لقد باعت كلّ ما كان يستحقّ البيع، وهي الآن تستمتع بوقتها. فكما تعلمين، مائدة الزهور جذّابةٌ دائمًا، وخاصة للرجال».

أخذت ماي تلك الصفعة بخنوعٍ بغيظٍ واستكانة شديدة، ما جعل جو تندم على كلامها. وصارت تمدح المزهريّات الرائعة التي لم تكن قد بيعت بعد.

قالت جو الحريصة كل الحرص على معرفة مصير أعمال أختها: «أين هي أعمال آيمي؟، لقد أردتُ شراء بعضٍ منها لوالدي».

ردّت ماي التي تجاهلت في ذلك اليوم الكثير من التحريضات الصغيرة مثلها مثل آيمي: «بيعت جميع أعمال آيمي منذ وقتٍ طويل. لقد حرصتُ على رؤية الأشخاص

t.me/yasmeenbook

المناسبين لها، أناسٌ يقدّرون الأعمال الفنيّة، وجنينا الكثير من المال بفضلهم».

وبالكثير من الامتنان، هرعت جو للإعلان عن الأخبار السارّة، وبدت آيمي متأثّرةً ومتفاجئة عندما علمت بما قالته ماي وبما فعلته.

فقالت لتيدي وأصدقائه: «الآن أيّها السّادة، أريدكم أن تذهبوا وتنهوا واجبكم أمام الطاولات الأخرى بسخاء كما فعلتم أمام طاولتي، وخاصّةً أمام طاولة الفنّ».

وعندما بدأ الفتيان يتحرّكون قالت جو: «قوموا بواجبكم مثل الرجال، وستحصلون على أعمالٍ فنيّةٍ تستحقّ نقودكم بكلّ معنى الكلمة».

قال باركر الصغير بطريقةٍ ظريفة: «سمعًا وطاعة، ولكنّني أفضّل عائلة مارش على ماي».

أسكته لوري فورًا، وقال مربّتًا على رأسه: «عبارةٌ جيّدة بالنسبةِ لطفلٍ صغير».

أرادت آيمي أن تجرّد غريمتها من آخر سلاحٍ لها، فهمست في أذن لوري: «اشترِ المزهريّات».

لم يشترِ السيّد لورانس المزهريّات فقط، ولكنّه سار أيضًا في البهو يتأبّط مزهريّةً تحت كلّ ذراعٍ من ذراعيه، واشترك السادة الآخرون باندفاعٍ كبير في مزايداتٍ حامية

لشراء بقيّة المعروضات، وابتاعوا الكثير من الأشياء التافهة، ثمّ جابوا البهو محمّلين بالزهور الصناعيّة، والمراوح الملوّنة، والمحافظ المزركشة، وغيرها من المشتريات المفيدة والمناسبة.

كانت العمّة كارول هناك وسمعت القصة، وبدت سعيدة، وهمست أمرًا ما للسيّدة مارش في الزاوية، ما جعل الأخيرة تشعر بالراحة والرضا، فأخذت تنظر إلى آيمي بفخرٍ ولكن بقلقٍ أيضًا، لكنّها لم تبح بسرّ سعادتها إلّا بعد عدّة أيّام.

كان المعرض ناجحًا، وعندما كانت آيمي على وشك الذهاب قالت لها ماي: «ليلةً سعيدة».

لم تتكلّم معها بحماسها وشغفها كالمعتاد، لكنّها قبّلتها قبلةً صغيرة، ونظرت إليها ولسان حالها يقول: «سامحيني وانسي ما حدث».

شعرت آيمي بالرضا، وعندما عادت إلى المنزل وجدت المزهريّات معروضةً على مدخنة الردهة مع باقة أزهارٍ رائعة في كلٍّ منها.

قال لوري: «جائزة الاستحقاق لآيمي مارش الشهمة».

وفي وقتٍ متأخّرٍ من هذه الليلة، وبينما كانت جو وآيمي تسرّحان شعرهما معًا، قالت جو بحرارة: «لم أكن

t.me/yasmeenbook

أتوقّع أنّكِ كريمةٌ ونبيلةٌ وشهمةٌ لتلك الدرجة يا آيمي. لقد تصرّفتِ بلطف بالغ، وأنا أحترمك من كلّ قلبي».

علّقت بيث: «نعم، كلّنا نحترمها ونحبّها لكونها على استعدادٍ تامٍّ للتسامح. لا بدّ أنّ العمل لفترةٍ طويلةٍ والقدرة على بيعِ الأشياء الجميلة الخاصّة بك كان صعبًا للغاية. لا أعتقد أنّ بإمكاني فعل ذلك بلطفٍ كما فعلتِ أنتِ».

«لماذا تمدحانني هكذا يا فتيات؟، لقد قمتُ فقط بما ينبغي لي القيام به. تضحكان منّي عندما أقول إنّني أريد أن أكون سيّدة، لكنّني أعني أنّني أريد أن أكون امرأةً نبيلةً ولطيفة وذات أخلاقٍ حميدة، وأحاول أن أكون كذلك طالما أعرف كيف. لا أستطيع أن أشرح لكما بالضبط ما أقصده وما يجول في ذهني، لكنّني لا أريد أن أقترف الحماقات والأخطاء الصغيرة التي تفسد الكثير من النساء. أنا بعيدةٌ كلّ البعد عن ذلك الآن، لكنّني أفعل ما في وسعي، وأملي في أن أصبح مثل أمّي يومًا ما».

كانت آيمي تتحدّث بجديّة، فقالت جو وهي تضمّها: «أنا أفهم الآن ما تعنينه، ولن أضحك منك بعد اليوم. إنّك تتقدّمين بسرعةٍ أكثر ممّا تتصوّرين، وسآخذ دروسًا منكِ في اللباقة، لأنّك تعلّمتِ السرّ على ما أعتقد. جرّبي يا عزيزتي، وستنالين مكافأتك يومًا ما، وعندئذٍ لن تجدي أسعد منّي بنجاحك».

بعد أسبوع حصلت آيمي على مكافأتها، ووجدت جو المسكينة صعوبةً في أن تكون مسرورة، فلقد وصلت رسالةٌ من العمّة كارول، وكان وجه السيّدة مارش يشعّ فرحًا عندما قرأتها. حتّى إنّ جو وبيث اللتين كانتا معها طلبتا البشارة.

«العمّة كارول ستسافر الشهر المقبل وتريد..».

لم تكمل السيّدة مارش جملتها بسبب مقاطعة جو التي قفزت من كرسيّها وقالت بحماسٍ لا يوصف: «أن أذهب معها!»

«لا عزيزتي، لا تريدكِ أنتِ بل تريد آيمي».

«لكن يا أمّي، آيمي صغيرةٌ جدًّا، ينبغي أن أذهب أنا أوّلًا. لقد أردت لفترةٍ طويلة الذهاب. لا بدّ أنّ الأمر سيكون مذهلًا ورائعًا. يجب أن أذهب!»

«أخشى أن يكون ذلك مستحيلًا يا جو. تقول العمّة إنّها تريد آيمي، وليس لنا أن نملي عليها من تأخذ معها عندما تقدّم لنا مثل هذه الخدمة».

صرخت جو من أعماق قلبها، والدموع تنهمر من عينيها: «دائمًا تحظى آيمي بكلّ المرح، أمّا أنا فكلّ ما أفعله هو العمل. هذا ليس عدلًا، ليس عدلًا أبدًا!»

«أخشى أن اللّوم يقع عليكِ نوعًا ما يا عزيزتي. عندما تحدّثت العمّة إليّ في اليوم الماضي، أعربت عن أسفها

t.me/yasmeenbook

لأخلاقك الفظّة ونزعتك الاستقلاليّة، وهنا تكتب كما لو كانت تقتبس شيئًا قلتِه: خطّطتُ في البداية أن أسأل جو، ولكن باعتبارها لا تحبّ أفضال الناس، وتكره اللغة الفرنسيّة، أعتقد أنّني لن أجرؤ على دعوتها. آيمي أكثر قابليّةً للانقياد، وستكون رفيقةً جيّدةً لفلو، وستتلقّى بامتنانٍ وشكر أيّة فائدةٍ تنالها من هذه الرحلة».

تذكّرت جو تفاصيل الحديث الذي تسبّب في عدم ذهابها مع عمّتها وتأوّهت: «آهٍ من لساني!، لساني اللّاذع!. لماذا لا أعرف كيفيّة السيطرة عليه؟»

شرحت جو العبارات المُقتبسة لأمّها التي قالت بحزن:

«أتمنى لو كنت تستطيعين الذهاب، لكن ليس هناك أملٌ هذه المرّة، لذا حاولي أن تتعاملي مع الأمر بشجاعة، ولا تفسدي فرحة آيمي بالتوبيخ أو الندم».

كانت جو قد أسقطت سلّة الورود عندما قفزت أثناء فرحتها، فقالت وهي تجثو على ركبتيها لالتقاطها وإعادتها إلى مكانها: «سأحاول ذلك، وسأفعل مثلما فعلت، ولن أحاول أن أبدو مسرورة فقط، ولكن أن أكون سعيدة بحق. وسأحاول ألّا أحقد عليها مطلقًا. لكنّ ذلك لن يكون سهلًا، فلقد خاب أملي بشكلٍ كبير».

وغمرت المسكينة وجهها بالوسادة الصغيرة، وصارت تعضّها وتبلّلها بدموع الحزن والألم.

همست بيث وهي تضمّها بلمسةٍ دافئةٍ ووجهٍ حنون: «عزيزتي جو، أنا أنانيّةٌ جدًا، لكن لا يمكنني أن أتخلّى عنكِ، وأنا سعيدةٌ لأنّكِ لن تذهبي».

شعرت جو بالراحة على الرغم من حزنها الشديد الذي جعلها ترغب في الذهاب إلى العمّة كارول، لتتوسّل إليها وتثبت لها كيف يكون العرفان بالجميل.

بحلول الوقت الذي جاءت فيه آيمي، كانت جو قادرةً على المشاركة في ابتهاج العائلة، ربّما لم تكن مبتهجةً كالمعتاد، ولكنّها لم تبدِ أيّ شعورٍ بالحقد أو الحسد تجاه حظّ آيمي الجيّد. تلقّت آيمي الأخبار التي كانت بالنسبة لها بشرى بفرحٍ عظيم، واحتفلت مع العائلة، وبدأت بفرز الألوان وتوضيب الأقلام الخاصّة بها في ذلك المساء، وتركت أشياء تافهة كالملابس، والمال، وجوازات السفر لمن هم دونها انغماسًا في عالم الفنّ.

قالت بطريقةٍ مثيرة للإعجاب: «إنّها ليست مجرّد رحلة ممتعة لي يا فتيات، هذه الرحلة ستحدّد مسيرتي المهنيّة، فإن كنتُ حقًّا عبقريّةً في الفنّ، فسوف أكتشف ذلك في روما، وسوف أثبت ذلك بطريقةٍ ما».

قالت جو بعينين حمراوين وهي تخيط الباقات الجديدة التي ستأخذها آيمي: «وماذا لو لم تستطيعي إثبات ذلك؟»

بدت علامات القلق على وجه آيمي لمجرّد التفكير في

t.me/yasmeenbook

ذلك الاحتمال، لكنّها قالت بهدوء: «عندها سأعود إلى الوطن وأكسب الرزق من خلال تدريس الفنّ.» وأخذت لوح ألوانها بعيدًا كما لو كانت عازمةً على اتّخاذ إجراءاتٍ صارمة قبل أن تتخلّى عن آمالها.

قالت جو: «لا، لن تفعلي ذلك. أنتِ تكرهين العمل الجادّ، وأعتقد أنّك ستتزوّجين رجلًا ثريًّا، وتعودي إلى المنزل لتجلسي في حضن الرفاهيّة طوال أيّام حياتك».

قالت آيمي مبتسمة كما لو أنّ دور الفتاة النبيلة يلائمها أكثر من دور معلّمة فنٍّ فقيرة: «تتحقّق توقّعاتك أحيانًا، لكنّني لا أعتقد أنّ هذا سيحدث. بالطبع أتمنّى أن يصحّ كلامك، لأنّه في حال لم أنجح في أن أصبح فنّانة، أودّ أن أكون قادرةً على مساعدة الفنّانين».

قالت جو بحسرة: «حسنًا، إذا تمنّيتِ الحصول على شيء فسوف تحصلين عليه، لأنّ أمنياتكِ تتحقّق دائمًا بعكسِ أمنياتي».

سألتها آيمي: «وهل تودّين الذهاب؟».

«دون شكّ!»

«حسنًا، في غضون عامٍ أو عامين سأرسل لك دعوةً لتحضري، وسنذهب معًا إلى موطن الآثار، وسنحضّر بحثًا عن بعض الآثار الثمينة المدفونة، وننفّذ جميع الخطط التي وضعناها مرّاتٍ كثيرة».

ردّت جو قابلةً العرض بامتنان: «شكرًا لك، سوف أذكّرك بوعدك عندما يأتي ذلك اليوم، هذا أتى أصلاً».

لم يكن هناك متّسعٌ من الوقت للتحضير، وظلّ المنزل في حالة فوضى إلى أن سافرت آيمي. كبتت جو حزنها جيّدًا حتّى اختفت الباخرة تمامًا، وعندما عادت إلى المنزل، لجأت إلى حجرتها، وبكت حتّى أرهقها البكاء. وتحمّلت آيمي بدورها الوداع بشجاعة حتّى أبحرت الباخرة، ولكن عندما كان البحّارة على وشك الانسحاب، اتضحّ لها فجأةً أنّ محيطًا كاملًا، كان قريبًا سيفصل بينها وبين أسرتها، أحبّ الناس إلى قلبها، وتشبّثت بلوري آخر المودّعين قائلة: «اعتني بهم من أجلي، وإذا حدث أيّ مكروه..».

همس لوري في أذنها وهو يرجو أن تمكّنه الظروف من تحقيق وعده: «سأعتني بهم يا عزيزتي، وإذا حدث أيّ مكروه، فسوف آتي وأطمئنك».

وهكذا أبحرت آيمي بعيدًا لتجد العالم القديم الذي يبدو دائمًا جديدًا وجميلًا في عيون الشباب، بينما كان والدها وصديقها يشاهدانها وهما على الشاطئ، يرسلان معها دعواتهما ألّا تنال الفتاة الغالية إلّا الحظّ الطيّب، وراحت تلوّح لهما بيدها حتّى لم يعد بإمكانهم رؤية سوى شمس الصيف المتلألئة على البحر.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثامن

مراسلتنا من الخارج

لندن

أعزّائي، أجلس هنا عند النافذة الأماميّة في فندق باث، بيكاديللي. إنّه ليس فندقًا عصريًّا، لكنّ زوج عمّتي يأبى إلا النزول فيه، لأنّه سبق أن أقام فيه منذ سنوات. ومع ذلك، فنحن لا ننوي البقاء طويلًا، لذا هذه ليست بمشكلةٍ بالنسبة إليّ. لا أعلم كيف أبدأ بإخباركم عن مدى استمتاعي بكلّ شيء هنا!. لا أستطيع أبدًا، لذلك سأعطيكم فقط أجزاءً صغيرةً من دفتر ملاحظاتي، لأنّني لم أقم بشيء سوى الرسم والخربشة منذ أن بدأت الرحلة.

لقد أرسلت رسالة من هاليفاكس، وكنت يومها حزينةً لفراقكم، ولكن سرعان ما تغلّبت على أحزاني، وقضيت بقيّة الرحلة على ما يرام فلم أتأذّى من دوار البحر، وكنت على ظهر السفينة مع الكثير من

الأشخاص اللطفاء الذين تسلّيت معهم كثيرًا طوال اليوم. كان الجميع لطفاء جدًّا معي، وخاصة الضبّاط. لا تضحكي يا جو، الرجال ضروريّون جدًّا على متن السفينة، ومهمّتهم أن يعنوا بالمسافرين ويؤنسوهم، وهذا العمل رحمةٌ بهم ونفعٌ لهم، فلولاه لأمضوا وقتهم في التدخين المُضرّ لصحتّهم.

كانت حالة العمّة وفلو سيّئة بسبب دوار البحر، ورغبتا في تركهم قليلاً، لذلك فعلت ما بوسعي من أجلهما، فذهبت واستمتعت بوقتي. تمشّيتُ على سطح السفينة، وشاهدتُ غروب الشمس، واستمتعتُ بالهواء الرائع والأمواج!. لقد كان الأمر مشوّقًا مثل ركوب حصانٍ سريع. أتمنّى لو أتت بيث، كانت سترتاح كثيرًا. أمّا بالنسبة لجو، فلو كانت هنا لتسلّقت الصواري وجلست أعلاها، وربّما صادقت المهندسين، أو نفخت في بوق القبطان، أو غير ذلك من المتع التي تبعث في نفسها النشوة.

كان كلّ شيءٍ مذهلًا، وكنت سعيدةً برؤية الساحل الأيرلنديّ، ووجدته جميلًا جدًّا ومشمسًا، تغطّيه المساحات الخضراء، مع أكواخ بنيّةٍ هنا وهناك، وأطلالٌ على بعض التلال، ومنازلٌ ريفيّةٌ في الوديان، وغزلانٌ تأكل في الحدائق. لم أندم على الاستيقاظ باكرًا، فقد كان المنظر مذهلًا في الصباح حين كان الخليج مليئًا بالقوارب

t.me/yasmeenbook

الصغيرة، وكان الشاطئ خلّابًا للغاية، وكانت السماء ورديّة اللّون. لن أنسى هذا المشهد ما حييت.

في بلدة كوينز، تركنا أحد معارفي الجدد، وكان يُدعى السيّد لينوكس، وعندما ذكرتُ بحيرات كيلارني، تنهّد وغنّى الأبيات التالية وهو ينظر إليّ:

«آه، هل سمعت عن كيت كيرني؟، تعيش على ضفاف كيلارني،

إن نظرت إليكِ اهربي فقاتلةٌ هي نظرة كيت كيرني».

ألم يكن ذلك كلامٌ غير منطقيّ ولا معنى له؟

توقفت سفينتنا في ليفربول بضع ساعات، إنّها مدينةٌ قذرة وصاخبة، وكنتُ سعيدةً بمغادرتها. هرع زوج عمّتي إلى خارج السفينة واشترى زوجًا من القفّازات المصنوعة من جلد الكلاب، وبعض الأحذية القبيحة السميكة، ومظلّة، وأوّل ما فعله بعد ذلك هو أن قصّ شعره على الطريقة الإنجليزيّة ليقنع نفسه بأنّه يبدو مواطنًا بريطانيًّا حقًّا، ولكن في المرّة الأولى التي طلب من أحد ماسحي الأحذية تنظيف حذائه من الطين، علم الصبيّ الصغير أنّ صاحب الحذاء أمريكيّ الجنسيّة، وقال بابتسامة:

«هاك يا سيّدي، لقد نظّفتها على آخر طرازٍ أمريكيّ.» كان زوج عمّتي مسليًّا للغاية. عليّ أن أخبركم بما فعله لينوكس

السخيف!، طلب من صديقه وارد الذي جاء معنا، أن يطلب باقة زهورٍ لي، وأوّل شيءٍ رأيته في غرفتي كانت تلك الباقة الجميلة مع بطاقةٍ كُتب عليها: «مع تحيّات روبرت لينوكس». ألم يكن هذا ممتعًا يا فتيات؟، أنا أحبّ السفر.

لن أطيل عليكم الحديث وإلّا لن أصل إلى الجزء المتعلّق بلندن. كانت الرحلة أشبه بالذهاب إلى متحفٍ مليءٍ بلوحات الطبيعة الخلّابة. استمتعتُ برؤية الأكواخ الريفيّة المسقوفة بالقشّ، والتي تغطّيها أشجار اللبلاب العالية. كانت نوافذها تشبه المشربيّات، ووقفت على أبوابها نساءٌ بدينات مع أطفالهنّ الظرفاء. رأيت المواشي تقف في الحقول وقد طالت الحشائش ركبها، والعجيب أنّها أكثر هدوءًا من حيواناتنا، وحتّى الدجاجات بدت هادئةً بأصواتها التي لم تزعج أذنيّ، على عكس دجاجنا الأمريكيّ الغاضب. ولم أر في حياتي مثل هذه الألوان المثاليّة، حيث كان العشب شديد الخضرة، والسماء زرقاء صافية، والحبوب صفراء كالشمس، والغابة داكنة جدًّا، كنت مذهولةً طوال الطريق، وكذلك كانت فلو، فواصلنا التنقّل من جانبٍ إلى آخر كي لا يفوتنا أيّ منظرٍ أثناء سيرنا بسرعة ستّين ميلًا في الساعة. كانت العمّة متعبةً وذهبت إلى النوم، لكنّ زوجها بقي يقرأ دليله غير مهتمٍّ بما حولنا. وهكذا مضى بنا السفر حتّى رأيت أبنيةً عاليةً وسط بعض

t.me/yasmeenbook

الأشجار، فصحت: «لا بدّ أنّ تلك هي مدينة كينيلوورث!».
قالت فلو وهي تنظر من نافذتي: «ما أجملها!، يجب أن نذهب إليها في وقتٍ ما يا والدي.» فأجاب زوج عمّتي وهو ينظر إلى حذائه بإعجاب: «لا يا عزيزتي، إلّا إذا كنتِ تريدين شرب الجعة، فهذا هو مصنعها!».

سكتنا قليلًا ثمّ صرخت فلو: «يا إلهي!، انظروا، هناك مشنقة وأرى رجلًا يصعد إليها.» صرختُ أسألها: «أين؟... أين؟!»، ثمّ حدّقت في عمودين طويلين تصل بينهما عارضةٌ خشبيّة تتدلّى منها بعض السلاسل. قال زوج عمّتي وقد لمعت عيناه: «إنّه منجم فحم».

قُلت لفلو: «انظري إلى هذا القطيع الجميل من الحملان المُستلقية».

«انظر يا بابا أليست جميلة؟»

أجاب عمّي: «هذا إوزٌّ يا فتيات.» أوحت نبرة صوته بأنّه مُنزعج، لذلك بقينا هادئتين حتّى بدأت فلو في قراءة كتابها، ورحت أنا أستمتع بالمشاهد كلّها في صمت.

هطل المطر عندما وصلنا إلى لندن، ولم نرَ سوى الضباب والمظلّات. استرحنا قليلًا ثمّ قمنا بتفريغ أمتعتنا وذهبنا بعدها للتسوّق تحت أمطارٍ متقطّعة. وكنت في عجلةٍ من أمري حين كنت أحزم أمتعتي، لذلك كانت تنقصني بعض الأشياء، فأعطتني العمّة ماري قبّعةً بيضاء،

وريشةً زرقاء، وثوبًا من الموسلين، وأجمل وشاحٍ رأيته على الإطلاق. التسوّق في شارع ريجنت أمرٌ ممتعٌ للغاية، والسلع زهيدة الأثمان، فرأيت شرائط جميلة لا تزيد عن ستّ بنسات، لذلك اشتريت كميّةً كبيرةً منها، لكنّني سأشتري القفّازات من باريس. أليس هذا دليلًا على الأناقة والثراء؟.

بينما ذهبت العمّة وزوجها في جولةٍ بالسيّارة، انتهزنا أنا وفلو الفرصة فطلبنا عربةً جميلة، على الرغم من أنّنا علمنا بعد ذلك أنّه لم يكن ملائمًا أن تركب النساء العربات بمفردهن. عندما أقفل علينا السائق باب العربة، انطلق بسرعةٍ كبيرة أخافت فلو، فطلبت منّي أن أوقفه، لكنّه كان في مقعدٍ عالٍ، ولم أستطع الوصول إليه. كان الأمر مضحكًا للغاية!، لم يسمع مناداتي، ولم يرني أطرق بالمظلّة على باب العربة، فكنّا عاجزتين تمامًا نهتزّ بالكامل بسبب سرعة العربة، ونلتفّ حول الزوايا بوتيرةٍ سريعة. أخيرًا، رأيت فتحةً في السقف، وعندما فتحتها رأيت السائق ينظر إليّ بعينيه الحمراوين، وقال بصوتٍ مخمور: «ماذا تريدين سيّدتي؟».

أعطيت أمري برصانةٍ قدر المستطاع، فقال هو يغلق الباب: «حسنًا، حسنًا سيّدتي.» جعل السائق حصانه يمشي ببطءٍ شديدٍ كما لو كان ذاهبًا إلى جنازة. نقرت مرّة أخرى

t.me/yasmeenbook

وطلبت منه أن يسرع قليلًا، فانطلق متهوّرًا كما كان من قبل واستسلمنا لمصيرنا.

كان الطقس جميلًا اليوم، ولذلك قرّرنا الذهاب إلى حديقة هايد بارك التي تُعتبر متنزّه الطبقة الراقية، لأنّنا نبلاء أكثر ممّا نبدو. يعيش بالقرب منّا الدوق: ديفون شاير. غالبًا ما أرى رجاله يتسكّعون عند البوّابة الخلفيّة، ومنزل دوق ولنجتون ليس بعيدًا. رأيتُ في هايد بارك مناظر مدهشة!. كانت هناك أرامل سمينات يركبن عرباتهنّ الحمراء والصفراء، والتي يقف في نهايتها حرّاسٌ جذّابون بثيابٍ حريريّة ومعاطف مخمليّة، ويقودها سائقون في أبهى زينة. ورأيت خادماتٍ جميلات مع أطفالٍ أصحّاء بخدودٍ ورديّةٍ لم أرَ مثلهم قطّ، وفتياتٍ حسناوات يمشين بدلالٍ فبدَينَ نصف نائمات، وفتياناً يرتدون قبّعاتٍ إنجليزيّةٍ غريبة الشكل وأطفالاً ظرفاء، وجنوداً طويلي القامة يرتدون ستراتٍ حمراء قصيرة وقبّعاتٍ مستديرة تميل نحو جانبٍ واحدٍ من رؤوسهم بطريقة مضحكة، وددتُ لو كان باستطاعتي رسم هذه المشاهد.

«روتن رو» تعني طريق الملك، لكنّها الآن أشبه بمدرسةٍ للفروسيّة، الخيول فيها رائعة، والرجال ماهرون وخاصّةً المدرّبون، لكنّ النساء يجلسن مُتصلّبات، ويهتززن، وهذا لا يتوافق مع قواعد ركوب الخيل في بلادنا. كنت أتوق

إلى أن أريهنّ فارسًا أمريكيًّا ليتعلّمن كيف تكون الفروسيّة، لأنهنّ كنّ يركبن بكبرياء، بملابسهنّ القصيرة وقبعاتهنّ العالية، كنّ أشبه بالتماثيل. الجميع يركب الخيول، الرجال العجائز، والنساء القويّات، والأطفال الصغار، والشباب هنا يغازلون بكثرة حتّى إنّني رأيت ثنائيًّا يتبادلان براعمَ من الورود، لأنّ وضعها على سترة ركوب الخيل يُعتبر عادة، ورأيتُ أنّها فكرةٌ جميلة.

في المساء ذهبنا إلى كنيسة وستمنسر التي لا أستطيع وصفها بالكلمات. وسوف نرى هذا المساء فيشتر، لتكون خاتمة مناسبة لأسعد يوم في حياتي.

الوقت متأخّرٌ جدًا، لكن لا يمكنني الانتظار لإكمال رسالتي في الصباح دون إخباركم بما حدث الليلة الماضية. احزرن من جاء أثناء احتسائنا الشاي!، أصدقاء لوري الإنجليز، فريد وفرانك فون!. كنت مندهشةً للغاية، لأنّني لم أكن لأعرفهما لولا البطاقات. أصبحا طويلَي القامة، وفريد وسيمٌ للغاية ويرتدي ملابسَ على الطراز الإنجليزيّ، ولم يعد فرانك يستعمل عكّازًا، لكنّه يعرج قليلًا. أخبرهما لوري أين سنكون، لذلك جاءا يطلبان منّا الذهاب إلى منزلهما، لكنّ زوج عمّتي لم يقبل الذهاب، لذلك سنردّ لهما الزيارة ونراهما قدر الإمكان. ذهبا إلى المسرح معنا، وقضينا وقتًا ممتعًا. اهتمّ فرانك بفلو كثيرًا،

t.me/yasmeenbook

وتحدّثنا أنا وفريد عن متعة الماضي والحاضر والمستقبل، كما لو كنّا نعرف بعضنا بعضاً منذ زمنٍ طويل. أخبِرن بيث أنّ فرانك سألني عنها، وشعر بالأسف لسماع خبر مرضها. ضحك فريد عندما تحدّثتُ عن جو، وطلب منّي أن أرسل ب: «تحيّاته المحترمة إلى القبّعة الكبيرة.» لم ينس أيٌّ منهما مخيّم لورانس ولا الوقت الممتع الذي حظينا به هناك. لقد مضت سنون طويلة منذ تلك الأيّام!.

إنّ العمّة تنقر على الحائط الذي يفصل بين غرفنا للمرّة الثالثة لتنبّهني أنّ وقت النوم قد حان، لذا عليّ أن أتوقّف عن الكتابة. أشعر حقًّا كأنّني واحدةٌ من سيّدات لندن الثريّات، لأنّني أكتب في وقتٍ متأخّر في غرفتي المليئة بالأشياء الجميلة، ولا يشغل رأسي سوى الحدائق والمسارح والملابس الجديدة، والرجال الشجعان الذين يتأوّهون ويلفّون شواربهم الشقراء بعظمة الإنجليز. أتوق لرؤيتكنّ جميعًا، وعلى الرغم من الهراء الذي أكتبه، فسأبقى أختكنّ المحبّة دائمًا.

آيمي

باريس

عزيزاتي...

أخبرتكن في آخر رسالةٍ كتبتها عن زيارتنا للندن،

ومدى لطف عائلة فون، وعن الحفلات الرائعة التي أقاموها لنا. أكثر ما استمتعت به كانت الرحلات إلى قصر هامبتون كورت وقصر كنسينغتون، لأنّني رأيت في هامبتون رسوم رافائيل الكرتونيّة، ورأيت في كنسينغتون غرفًا مليئةً بصور تورنر ولورنس ورينولدز وهوجارث، ورجالٍ عظام آخرين. كان اليوم في ريتشموند بارك مذهلًا، فلقد ذهبنا في نزهةٍ إنجليزيّة، ورأيتُ الكثير من أشجار البلّوط ومجموعاتٍ من الغزلان الرائعة التي لم أرَ مثيلًا لها قطّ، وسمعت أيضًا صوت العندليب يغرد، والعصافير تحلّق عاليًا. لقد فعلنا في لندن ما يرضي قلوبنا ويسرّها، والفضل يعود لفريد وفرانك، وشعرنا بالأسف لمغادرتها، فعلى الرغم من بطء الإنجليز في استقبال زوّارهم، إلّا أنّهم حين يستقبلون الضيف، لا يمكن لأحدٍ التفوّق عليهم في حسن الضيافة والكرم. يأمل آل فون لقاءنا في روما الشتاء المقبل، وسأصاب بخيبة أملٍ شديدة إذا لم نلتقِ بهم، لأنّ جريس صديقةٌ مقرّبة بالنسبة إليّ، والصبيّين رفيقان طيّبان وخاصّةً فريد.

لم نكد نصل إلى باريس حتّى جاء فريد مرّةً أخرى قائلًا إنّه جاء لقضاء عطلة، وأنّه ذاهب إلى سويسرا. بدت عمّتي جديّةً في البداية، لكنّه لم يتأثّر بذلك، وكان لطيفًا جدًّا معها لدرجة أنّها لم تستطع التفوّه بكلمةٍ واحدة. ثمّ سادت روح

t.me/yasmeenbook

المودّة وكنّا سعداء جدًّا بمجيئه، فهو يتحدّث الفرنسيّة بطلاقة، ولست أدري ما كنّا سنفعله بدونه. لا يعرف زوج عمّتي من اللغة الفرنسيّة سوى كلماتٍ تُحصى، وهو يصرّ على التحدّث باللغة الإنجليزيّة بصوت عالٍ كأنّ الناس سيفهمون كلامه بتلك الطريقة. لهجة العمّة قديمة، أمّا أنا وفلو، فعلى الرغم من أنّنا كنّا مقتنعتين بأنّنا نعرف قدرًا لا بأس به في اللغة، وجدنا أنّنا لسنا كذلك، ولذلك شعرنا بالامتنان الشديد كلّما تولّى فريد مهمّة الحديث والتفاهم مع الناس بدلًا منّا.

إنّنا نقضي أوقاتًا مذهلة!، شاهدنا المعالم من الصباح حتّى اللّيل، وتوقّفنا لتناول وجبات غداء لذيذة في المقاهي المبهجة، ومررنا بالكثير من المواقف المضحكة. وفي الأيّام الممطرة أقضي معظم وقتي في متحف اللوفر، أتأمّل اللوحات الجميلة. لم تكن جو لتهتمّ ببعض أفضل اللوحات، لأنّها لا تفهم في الفنّ، أمّا أنا فأمتّع قلبي وعينيّ بما ينسجم مع ذوقي وفنّي. لكنّ جو رغم عدم اهتمامها بالفنّ، إلّا أنّها كانت ستستمتع بمشاهدة آثار العظماء، لأنّني رأيت قبّعة نابليون وصدريته، مهد طفولته وفرشاة أسنانه القديمة، وكذلك حذاء ماري أنطوانيت الصغير، وخاتم سان دينيس، وسيف شارلمان، والكثير من الأشياء الأخرى المثيرة

للاهتمام. أشياء سأتحدّث عنها لساعات عندما آتي، لكن ليس لديّ وقتٌ للكتابة.

أمّا «الباليه رويال»، فهو مكانٌ ساحرٌ مليءٌ بالمجوهرات والأشياء الجميلة التي كدتُ أصاب بالجنون لأنّني لا أستطيع شراءها. أراد فريد أن يجلب لي بعضًا منها، لكنّني بالطبع لم أقبل بذلك. ثمّ إنّ غابة بولونيا والشانزيلزيه مذهلان، ولقد رأيت العائلة الإمبراطوريّة عدّة مرّات، وكان الإمبراطور رجلًا قبيح المظهر ويبدو صارمًا، أمّا الإمبراطورة فكانت شاحبة اللون وجميلة، لكنّني رأيت أنّ ذوقها في الملابس بدا سيئًا، فلقد كانت ترتدي فستانًا أرجوانيًّا وقبّعةً خضراء اللون وقفّازاتٍ لونها أصفر. أمّا بالنسبة للإمبراطور الصغير فهو فتى وسيم، يجلس ويتحدّث مع معلّمه، ويرسل بيده قبلاتٍ للناس وهو يمرّ في عربته التي تقودها أربعة أحصنة، مع سائقين بستراتٍ حمراء مصنوعةٍ من الساتان، وحرّاسٍ أمام العربة وخلفها.

نسير عادةً في حدائق التويلري لأنّها جميلة، رغم أنّني أفضّل حدائق لوكسمبورغ. إنّ مقبرة: «بير لاشيز» غريبةٌ للغاية، حيث إنّ الكثير من المقابر تشبه الغرف الصغيرة، وعند النظر داخل إحداها، يرى المرء طاولةً عليها صورة للميت، وكراسي لجلوس المعزّين عندما يأتون للرثاء. هذه العادة حتمًا تتماشى مع تصرّفات الفرنسيّين!.

t.me/yasmeenbook

تقع غرفنا في شارع ريفولي، وحين نجلس على الشرفة، يمكننا رؤية الشارع الطويل بأكمله. إنّه لمن دواعي سرورنا أن نقضي أمسياتنا نتحدّث هناك عندما لا يمكننا الخروج، كوننا متعبين جدًّا من العمل. فريد شابٌّ مسلٍّ للغاية، وإجمالًا هو ألطف شاب عرفته على الإطلاق، بعد لوري بالطبع، حيث إنّ لوري خلوقٌ أكثر منه. أتمنّى لو كان فريد أسمر اللون، لأنّني لا أحبّ أصحاب البشرة البيضاء، ومع ذلك، فإنّ آل فون أغنياءُ جدًّا وينتمون إلى عائلةٍ راقية، لذلك لن أجد عيبًا في شعرهم الأشقر، فشعري أكثر شُقرةً.

في الأسبوع المقبل سنسافر إلى ألمانيا وسويسرا، وبما أنّنا سوف نسافر بسرعة، فلن يسعني إلّا كتابة رسائل مختصرة. أحتفظ بمذكّراتي وأحاول أن أتذكّر بدقّةٍ وأصف بوضوحٍ كلّ ما أراه، وأعجب به كما نصحني والدي. إنّها هوايةٌ جيّدة بالنسبة إليّ، وسيمنحكم دفتر رسوماتي فكرةً أفضل عن جولتي، أكثر من هذه الخربشات التي أكتبها في الرسائل.

إلى اللّقاء، أحضاني وقبلاتي لكنّ.

صديقتكنّ: آيمي.

أمّي العزيزة،

أنتهز هذه الساعة قبل مغادرتنا إلى برن، لأكتب لكِ أخباري، فبعضها مهمٌّ كما سترين.

كان الإبحار فوق نهر الراين مثاليًّا، وقد جلست واستمتعت من أعماق قلبي. جِدي كتيبات والدي الإرشاديّة القديمة واقرئي عنه. أعجز عن وصفه بالكلمات. قضينا وقتًا رائعًا في كوبلنتز، حيث عزف لنا بعض الطلاب من بون، كان فريد قد تعرّف عليهم على متن القارب. كانت ليلةً مضاءةً بضوء القمر، وحوالي الساعة الواحدة، استيقظت أنا وفلو على أنغام موسيقيّةٍ مطرِبة من تحت نوافذنا. هرعنا واختبأنا خلف السّتائر، لننظر خلسةً ونكتشف أنّ فريد والطلّاب يغنّون في الأسفل. كان أكثر مشهدٍ رومانسيٍّ رأيته على الإطلاق: النهر والجسر القديم، والقوارب السارية والحصن الكبير وضوء القمر الذي أنار المدينة كلّها، والموسيقا الساحرة التي جعلت الأجواء شاعريّة، وكانت تليّن أقسى القلوب أمام عذوبتها.

عندما انتهوا من الغناء، ألقينا لهم بعض الزهور، ورأيناهم يتدافعون من أجلها، ويرسلون بأيديهم قبلاتٍ لنا دون أن يتمكّنوا من رؤيتنا بسبب الظلام، ثمّ ذهبوا ضاحكين، ليدخّنوا ويشربوا الجعة على ما أظنّ. في صباح

t.me/yasmeenbook

اليوم التالي، أظهر لي فريد إحدى الزهور المجعّدة في جيب سترته، وبدا عاطفيًّا للغاية. ضحكت منه وقلت إنّني لم أرمها، لكنّ فلو فعلت ذلك، فألقى الوردة من النافذة، وعاد إلى رشده مرّةً أخرى، حينها اكتشفتُ أنّ فلو تثير اشمئزازه نوعًا ما. أخشى أنّني سأواجه مشكلةً مع ذلك الفتى، فالبوادر كلّها تدلّ على ذلك. كانت الحمّامات في ناسو مبهجةً للغاية، وكذلك الحال في بادن، حيث أضاع فريد بعض المال فما كان عليّ سوى أن أوبّخه لأجل ذلك، إنّه يحتاج لشخصٍ يعتني به عندما لا يكون فرانك معه. قالت كيت ذات مرة إنّها تأمل أن يتزوّج قريبًا، وأنا أتّفق معها تمامًا في أنّ الزواج سيكون مناسبًا له. كانت مدينة فرانكفورت رائعة، رأيت منزل جوته وتمثال شيللر، وأريادن المشهورة لدانيكر. كان الأمر جميلًا جدًّا، على الرغم من أنّني كنت سأستمتع به أكثر لو كنت أعرف قصّة أريادن أكثر. لم أشأ أن أسأل أحدًا، لأنّ الجميع يعرفون القصّة أو أنهم يتظاهرون بذلك. أتمنّى لو كانت جو هنا لتخبرني بجميع تفاصيلها. كان عليّ أن أقرأ أكثر، أجد أنّني لا أعرف شيئًا، وهذا يزعجني.

الآن جاء الوقت لأكتب عن الجزء المهمّ، لأنّه حدث هنا، وقد ذهب فريد للتو. لقد كان لطيفًا وممتعًا لدرجة أنّنا جميعًا مغرمون به. لم أفكّر في أيّ شيءٍ تجاهه سوى أنّه

صديقي المخلص في رحلتي هذه حتّى ليلة الغناء. منذ ذلك الحين، بدأت أشعر أنّ المشي تحت ضوء القمر، والمحادثات في الشرفة، والمغامرات اليوميّة كانت تشكّل أهميّةً بالنسبة له أكثر من كونها ممتعة. صدّقيني لم أغازله يا أمّي، لأنّني تذكّرت ما قلته لي، وبذلت قصارى جهدي في ذلك. ليست مشكلتي إن كان الناس يعجَبون بي، ليس بيدي حيلة. أنا لا أحاول أن أكسب إعجابهم، وأشعر بالقلق إذا لم أهتمّ بهم، رغم أنّ جو تقول إنّني قاسية القلب. الآن أعلم أنّ أمّي ستهزّ رأسها، وأنّ الفتيات سيصفنني بأنّني فاجرةٌ بائسة، لكنّني اتّخذت قراري، وإذا طلب منّي فريد الزواج منه، فسأقبل رغم أنّني لست أعشقه بجنون. أنا أحبّه، ونحن متفاهمان. إنّه شابٌّ وسيم وذكيّ بما فيه الكفاية، وغنيٌّ جدًا، حتّى إنّه أكثر ثراءً من عائلة لورانس. لا أعتقد أنّ عائلته ستعارض زواجنا، ويجب أن أكون سعيدةً جدًّا، لأنّهم جميعًا طيّبون ومهذّبون وكرماء، كما أنّهم يحبّونني أيضاً. وأعتقد أنّ المنزل سيكون من نصيب فريد بصفته التوءم الأكبر وهذا رائع!. لديهم منزلٌ في المدينة في شارع عصريّ، ليس مبهرجًا مثل منازلنا الكبيرة، ولكنّه مريحٌ وكامل، كما يحبّ الإنجليز، وأحببته أنا أيضًا. لقد رأيت أطباق الموائد الفاخرة، ومجوهرات العائلة، والخدم العجائز، وصور المناظر الريفيّة، والحدائق والمنازل

t.me/yasmeenbook

الفخمة والأراضي الجميلة، والخيول الأصيلة. هذا كلّ ما أريده!، وأنا أفضّل أن أحصل عليه على أن أحصل على لقبٍ خالٍ من الثراء. قد أكون امرأةً ماديّة تحبّ المال، لكنّني أكره الفقر، ولا أستطيع أن أتحمّله دقيقة أخرى. يجب على إحدانا أن تتزوّج رجلًا ثريًّا، وميج لم تفعل ذلك، وجو لن تتزوّج، أمّا بيث فلا تستطيع الزواج الآن، ولهذا سأفعل، وسأجعل كلّ شيءٍ على ما يرام من جميع النواحي. كوني متأكّدة أنّني لن أتزوّج رجلًا أكرهه أو أحتقره. وعلى الرغم من أنّ فريد ليس فارس أحلامي، إلّا أنّه يبذل ما في وسعه، وفي الوقت المناسب سأكون مغرمةً به إذا كان يبادلني المشاعر نفسها، ويعاملني معاملةً حسنة. لذلك كنت أفكّر مليًّا في الأسبوع الماضي، لأنّني لم أستطع تصديق فكرة أنّ فريد معجبٌ بي. صحيحٌ أنّه لم يعبّر عن إعجابه بالكلمات، لكنّ المواقف الصغيرة أظهرت ذلك. لم يذهب مع فلو أبدًا، ودائمًا ما يجلس بجانبي في العربة، أو الطاولة، أو في المتنزّه، ويبدو عاطفيًّا عندما نكون بمفردنا، وينزعج من أيّ شخصٍ آخر يغامر بالتحدّث إليّ. بالأمس كنّا نتناول العشاء في أحد المطاعم، وكان في المطعم ضابطٌ نمساويّ حدّق فينا، ثمّ قال لصديقه باللّغة الألمانيّة: «يا لجمال هذه الشقراء!». وما إن سمع فريد تلك العبارة حتّى زمجر بشراسةٍ مثل الأسد، وقطّع اللّحم الذي في صحنه بوحشيّة

لدرجةِ أنّ الطبق كاد أن يطير من مكانه. إنّه ليس واحدًا من أولئك الرجال الإنجليز الباردين، بل طباعه حادّة ربّما لأنّ في عروقه دمٌ اسكتلنديّ كما قد يخمّن البعض من خلال عينيه الزرقاوين الجذّابتين.

حسنًا، صعدنا جميعنا الليلة الماضية إلى القلعة عند غروب الشمس باستثناء فريد، الذي كان سيقابلنا بعد أن يأتي من مركز البريد ليسأل عن رسائله. لقد قضينا وقتًا رائعًا في استكشاف الأنقاض، والأقبية حيث تكمن الوحوش، والحدائق الجميلة التي صنعها الأمير منذ فترةٍ طويلة لزوجته الإنجليزيّة. أحببت الشرفة الرائعة كثيرًا، لأنّها تطلّ على منظرٍ خلّاب، لذلك بينما ذهب البقية لرؤية الغرف في الداخل، جلست هناك أحاول رسم تمثال رأس الأسد الحجريّ الرماديّ على الحائط، والأغصان الحمراء المتدليّة حوله. كنت أجلس هناك أمام الوادي، وأستمع إلى موسيقا الفرقة النمساويّة التي تعزف في الأسفل، وأنتظر حبيبي، فشعرت أنّني بطلة إحدى القصص الرومانسيّة. أحسستُ بأنّ أمرًا ما سيحدث وكنتُ مستعدّةً له. لم أشعر بالخجل أو القلق، بل كنتُ هادئةً ومتحمّسةً قليلًا.

سمعتُ مرارًا وتكرارًا صوت فريد، الذي جاء مسرعًا عبر القوس العظيم ليجدني هنا. بدا مضطربًا لدرجة أنّني تركتُ كلّ شيءٍ وسألته عمّا يقلقه. قال إنّه تلقّى للتوّ رسالةً

t.me/yasmeenbook

تطلب منه العودة إلى المنزل، لأنّ فرانك مرض مرضًا شديدًا. لذلك كان سيسافر فورًا في القطار، ولم يكن لديه سوى القليل من الوقت ليودّعني. شعرتُ بالأسف، وخاب أملي، ولكن سرعان ما أحسستُ بالراحة لأنّه صافحني وقال بنبرةٍ جذّابة: «سأعود قريبًا، أرجو ألّا تنسيني يا آيمي».

لم أعده، لكنّني نظرت إليه، وبدا أنّه راضٍ، ولم يكن هناك وقت لأيّ شيء سوى الوداع، لأنّه كان سيذهب خلال ساعة، ونحن جميعًا نفتقده كثيرًا بعد سفره. أعلم أنّه أراد التحدّث عن الزواج، لكنّني أعتقد أنّه وعد والده بعدم فتح الموضوع الآن، فلقد ألمح لي ذات مرّةٍ في أحد أحاديثنا، أنّه لن يقوم بفعل ذلك، لأنّه صبيٌّ متهوّر، ولأنّ الرجل العجوز يخشى أن يتزوّج ابنه فتاةً أجنبيّة. على كلّ حال، سنلتقي قريبًا في روما، وبعد ذلك، إن طلب منّي الزواج ولم أكن قد غيّرت رأيي فسأقبل به.

بالطبع كلّ ما أكتبه الآن هو سريّ، لكنّني تمنّيت أن تعرفي ما يحدث. لا تقلقي بشأني، تذكّري أنّني آيمي الحكيمة، وتأكّدي من أنّني لن أتهوّر. أرسلي نصائح بقدر ما تشائين، سأعمل بها إن أمكنني ذلك. أتمنّى لو كان باستطاعتي رؤيتك والتحدّث معك يا مارمي. لكِ محبّتي وثقتي.

ابنتكِ المحبّة دائمًا،

آيمي

t.me/yasmeenbook

الفصل التاسع

القرار الجريء

«أشعر بالقلق على بيث يا جو».

«لماذا يا أمّي؟، لقد تحسّنت كثيرًا منذ أن جاء الأطفال».

«لستُ قلقةً بشأنٍ صحّتها الجسديّة، لكنّني أشعر بالقلق على صحّتها النفسيّة، أنا متأكّدة من أنّ هناك أمرًا ما يدور في ذهنها ويقلقها، وأريدكِ أن تكتشفي ما هو».

«ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك يا أمّي؟».

«تجلس بمفردها كثيرًا، ولا تتحدّث إلى والدها بقدر ما كانت تفعل سابقاً. لقد وجدتها تبكي على الأطفال في اليوم الآخر. إنّها تغنّي أغاني حزينة دائمًا وبتُّ لا أفهم نظرة الحزن التي تعتلي وجهها. هذه ليست بيث التي أعرفها، ولهذا أنا خائفةٌ عليها».

«هل سألتها عن سبب حزنها؟».

«لقد حاولت مرّة أو مرّتين، لكنّها إمّا أن تتهرّب من

أسئلتي، أو أن كآبتها تجعلني أتوقف عن سؤالها. أنا لم أجبر فتياتي قط على أن يثقن بي، ورغم ذلك سرعان ما أنال ثقتهنّ».

ألقت السيّدة مارش نظرةً على جو وهي تتحدّث، لكنّ وجه ابنتها بدا غير واعٍ لقلق الأمّ، لأنّ أختها كانت حينئذٍ محور اهتمامها، وبعدَ التأمّل لدقيقةٍ قالت: «أعتقد أنّها تكبر، لذلك هي تحلم أكثر، ولديها الآن آمالٌ ومخاوف واضطرابات لا تعرف سببها، ولا تقدر على تفسيرها. أصبحت بيث في الثامنة عشرة من عمرها، لكنّنا لا ندرك ذلك، وما زلنا نعاملها كطفلة، متناسين أنّها قد أصبحت بالغة».

ردّت والدتها بحسرة وابتسامة: «أنتِ على حقّ. يا إلهي، أنتنّ تكبرن بسرعة».

«هذا الأمر خارجٌ عن سيطرتك يا مارمي، لذلك يجب ألّا تقلقي بعد الآن، ودعي بناتكِ يتحرّرن واحدةً تلو الأخرى. أعدك ألّا أذهب بعيدًا أبدًا، إن كان هذا يريحك».

«إنّها راحةٌ كبيرة يا جو. أشعر دائمًا بالقوّة عندما تكونين في المنزل، فميج رحلت، وأصبحت بيث ضعيفة جدًا، وآيمي أصغر من أن أعتمد عليها، وأنتِ الوحيدة التي تكون دائمًا على استعداد لمواجهة المصاعب والشدائد».

«لذلك يا أمّي يجب ألّا تقلقي، أنتِ تعلمين أنّ

t.me/yasmeenbook

المهمّات الشاقّة لا تتعبني، ولا بدّ أن يبقى في أسرتنا أحدٌ يتحمّل المسؤوليّات. آيمي فنّانةٌ رائعة أمّا أنا فلست كذلك، لكنّني لا أشعر بالعبء إن كانت جميع السجّادات بحاجةٍ إلى التنظيف، أو عندما يكون جميع أفراد الأسرة مرضى. آيمي تطوّر نفسها خارج البلاد، ولكن إن اشتدّت عليك المصاعب واحتجتِ إلى أيّة مساعدة فأنا في خدمتك».

«إذًا سوف أعتمد عليكِ بشأن بيث، لأنّها ستفتح قلبها الصغير الرقيق لكِ قبل أن تكلّم أيّ شخصٍ آخر. كوني لطيفةً جدًّا معها، ولا تدعيها تعتقد أنّ أحدًا يراقبها أو يتحدّث عنها. لا أتمنّى سوى أن تعود قويّةً جدًّا وسعيدةً كما كانت».

«إذا كان هذا كلّ ما تتمنّينه فأنتِ امرأةٌ سعيدة، أمّا أنا فآمالي كثيرة».

«وما هي آمالكِ يا عزيزتي؟».

«سأقوم بتسوية مشاكل بيث أوّلًا، وبعد ذلك سوف أخبرك عن مشاكلي. إنّها ليست مشاكل كبيرة، لذلك لا بأس إن أجّلتُ الحديث عنها».

ابتعدت جو، وفي عينيها نظرةٌ حكيمة جعلت قلب والدتها يطمئنّ، في الوقت الحاضر على الأقل.

تظاهرت جو بأنّها مُنغمسةٌ في شؤونها الخاصّة، بينما

هي تراقب بيث. وبعد الكثير من التخمينات المُتضاربة، استقرّت أخيرًا على واحدةٍ بدت أنّها تُفسّر التغيير فيها. شاهدت جو حادثةً صغيرة أعطتها مفتاحاً لحلّ اللغز، وساعدها في ذلك خيالها الواسع وقلبها المحبّ. حدث ذلك بعد ظهر أحد أيّام السبت، عندما كانت هي وبيث بمفردهما، وكانت جو غارقةً في الكتابة. ورغم انغماسها في تلك الخربشات، إلّا أنّها أبقت عينها على أختها التي بدت هادئةً على غير عادتها. جلست بيث عند النافذة، والقطعة التي كانت تطرزها تكاد تسقط من يدها بين الحين والآخر، فتسند رأسها على يدها بكآبة وهي تتأمّل جمال الخريف في الوادي. فجأةً مرّ شخص أسفل نافذتها وهو يصفّر مثل طائر الشحرور، ثمّ سُمع صوتٌ يقول: «كلّ شيء هادئ!، سآتي الليلة».

انتفضت بيث، وانحنت إلى الأمام، ثمّ ابتسمت وهي تومئ برأسها مراقبةً ذلك المارّ حتى اختفى مع وقع أقدامه. قالت بحنانٍ كما لو كانت تناجي نفسها: «ما أقوى هذا الفتى العزيز وما أسعده!».

زفرت جو ما بصدرها بتعب، واستمرّت في مراقبة أختها، التي سرعان ما ذبل وجهها، واختفت ابتسامتها، ثمّ سقطت دمعةٌ من عينيها على حافّة النافذة. مسحت بيث دمعتها، ونظرت بقلقٍ إلى جو التي دمعت عيناها شفقةً

t.me/yasmeenbook

على أختها، فخشيت من أن تُكشف مهمّتها، لذلك ذهبت مسرعةً متظاهرةً بأنّها في حاجةٍ للمزيد من الأوراق لمتابعة الكتابة.

جلست في غرفتها الخاصّة وقالت: «يا إلهي، إن بيث تحبّ لوري!». كان وجهها شاحبًا من صدمة الاكتشاف الذي اعتقدت أنّها توصّلت إليه. ثمّ تابعت كلامها: «لم أتخيّل قطّ أن يحدث هذا. ماذا ستقول أمّي؟».

ثمّ توقّفت للحظةٍ عن الكلام وازرقّ وجهها بفكرة مخيفةٍ مفاجئة وقالت:

«كم سيكون الأمر مروّعًا إذا لم يبادلها الشعور. لن أدع هذا يحصل، سوف أجعله يحبّها».

وهزت رأسها مهدّدةً وهي تنظر إلى صورة لوري المعلّقة على الحائط، وقالت: «يا إلهي، لقد كبرنا وتفرّقنا. ميج تزوّجت وأصبحت أمًّا، وآيمي سافرت لتنجح بعيدًا في باريس، وبيث صارت مُغرمة. أنا الوحيدة التي لديها الوعي الكافي للابتعاد عن الأذى».

ثم مسحت جبهتها وكأنّها تزيل الهموم عنها، وأومأت برأسها وهي تقول لصورة لوري: «لا... شكرًا لك يا سيّدي، صحيحٌ أنّك فاتنٌ جدًّا، لكنّك لا تستقرّ على حال. لذلك لا تحتاج إلى كتابة رسائل غراميّة مؤثرة، ولا للابتسام بهذه الطريقة المُغرية، لأنّها لن تفيدك، ولن تؤثّر بي».

ثمّ تنهدت، وظلّت سارحةً في أفكارها التي لم تصحُ منها إلّا حين لاح الغسق، فجمعت الملاحظات التي أكّدت شكّها. على الرغم من أنّ لوري كان يغازل آيمي ويمازح جو، إلّا أنّه كان يعامل بيث بلطفٍ ورقّة، لكنّ الجميع كان يميّز بيث. لذلك لم يخطر ببال أحدٍ أنّ لوري يهتمّ بها أكثر من الأخريات. في الواقع، كان جميع أفراد الأسرة يشعرون مؤخّرًا بأنّ لوري يزداد ولعًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى بجو، والتي لم تكن ترضى بأن تسمع كلمةً واحدة حول هذا الموضوع، وهي تصرخ بعنفٍ في وجه أيّ شخصٍ يتجرّأ على اقتراح أن تقبل بالزواج من لوري. ولو عرفوا الرسائل الغراميّة المختلفة التي أرسلها إليها، لكانوا قد شعروا بالرضا الشديد وقالوا: «ألم نقل لكِ ذلك؟».

لكنّ جو كانت تكره الغزل ولم تسمح به، وكانت حين تشعر بأنّ الأمور على وشك أن تتطوّر وتصبح رومانسيّة أو عاطفيّة، تنهيها بمزحةٍ أو ابتسامة.

عندما ذهب لوري إلى الكليّة في المرة الأولى، كان يقع في الحبّ مرّةً واحدةً في الشهر تقريبًا، لكنّه كان ينتقل من علاقةٍ إلى أخرى بسرعة. فلم يكن يصبر على علاقة حبٍّ واحدة لوقتٍ طويل، ولذلك لم تسبّب هذه العلاقات أيّ ضرر، وكانت جو تبدي اهتمامًا كبيرًا بتقلّبات لوري العاطفيّة التي كان يمرّ بها وهو يقصّ عليها أخباره

t.me/yasmeenbook

في جلساتهما الأسبوعيّة، حيث كان يشعر بالأمل تارةً وباليأس والاستسلام تارةً أخرى. ولكن جاء وقتٌ اعتزل فيه لوري تلك العلاقات، وألمح بغموضٍ إلى شغفٍ واحد يشغل فكره وقلبه، وكانت تنتابه في بعض الأحيان أزماتٌ نفسيّة تحوّله إلى كائنٍ كئيب.

بعدها، تجنّب الحديث في هذا الموضوع الحسّاس، وأخذ يكتب رسائل فلسفيّة إلى جو، وصار يعمل بجدّ، وعزم على التخرّج بتفوّق. كانت هذه الأفعال تناسب جو أكثر من الجلسات الرومانسيّة، واللمسات الرقيقة، والنظرات الغراميّة، لأنّ عقلها نما قبل قلبها، وفضّلت أبطال الخيال على أبطال الحقيقة، لأنّها إن سئمت من أبطال الخيال، يمكنها أن تضعهم في خزانتها وتقفلها إلى أن تشعر أنّها بحاجة إليهم، أمّا أبطال الحقيقة فلن تستطيع التحكّم بهم كما تشاء.

هكذا كانت الأمور في اليوم الذي اكتشفت فيه جو أنّ بيث تحبّ لوري، وراقبته جو في تلك الليلة كما لم تفعل من قبل. لو لم تزرع تلك الفكرة في رأسها، فلم تكن لترى شيئًا غير عاديّ في حقيقةِ أنّ بيث كانت هادئةً جدًا، وأنّ لوري يعاملها بلطف. ولكن بعد أن أطلقت العنان لخيالها الواسع، تخطّى خيالها حدوده ولم يفلح المنطق في إنقاذها بعد أن أضعفته كثرة تأليف القصص.

استلقت بيث على الأريكة كالعادة، وجلس لوري على كرسيٍّ منخفضٍ بالقرب منها يسلّيها برواية الشائعات وأخبار القيل والقال، لأنّها اعتمدت على الأخبار الأسبوعيّة، ولم يشأ أن يخيّب أملها أبدًا. لكن في ذلك المساء، تخيّلت جو أنّ عيني بيث تحدّق في وجه لوري الجذّاب بسرورٍ غريب، وأنّها استمعت باهتمامٍ شديد إلى روايته عن بعض مباريات الكروكيت المُثيرة، على الرغم من أنّه قال أن بعض العبارات لا يفهمها سوى جماهير تلك اللعبة، حتّى إنّ بيث شعرت أنّه يتكلّم بلغةٍ أخرى. وتخيّلت أيضًا أنّ لوري يتصرّف بلطفٍ زائدٍ وبرقّةٍ مع بيث، وأنّه يخفض صوته ويهمس بين الحين والآخر، ويضحك أقلّ من المعتاد، وأنّه كان شارد الذهن قليلًا، وأنّه حين وضع الغطاء على قدميّ بيث، فعل ذلك باهتمامٍ وحنان.

صارت جو تذرع غرفتها ذهابًا وإيابًا وتقول: «من يدري؟، لقد حدثت أمورٌ غريبة، وربّما إذا أحبّا بعضهما فستجعل منه رجلاً حقيقياً، وسيجعل هو حياة فتاتنا العزيزة مبهجة وهنيئة. أعتقد أنّه لن يستطيع فعل ذلك إلّا إذا ابتعدنا عن طريقه».

ونظرًا لأنّها كانت الوحيدة التي تقف في طريقهما، بدأت جو تشعر أنّ عليها الانسحاب بأقصى سرعة، لكن

t.me/yasmeenbook

أين يجب أن تذهب؟. جلست تفكّر في حلٍّ ما في سبيل التضحية الأخويّة.

جلست على الأريكة القديمة الطويلة، والواسعة، والمحشوّةً جيدًا، والمنخفضة، والباهتة اللون لشدّة قِدمها. فهي الأريكة التي كانت تنام الفتيات عليها، ويتردّدن إليها في صغرهنّ ليلعبن عليها، فكنّ يمتطين مسنديها ويختبئن وراءها وينزلن تحتها. وكانت حين كبرن السند الحقيقي لرؤوسهنّ المتعبة، والمكان الذي يغفين عليه، فيحلمن أجمل الأحلام، ويستمعن إلى الأحاديث الرقيقة عليها. لقد أحببنها جميعًا، لأنّها كانت ملجأ العائلة، وأحد أركانها، ومكان الاسترخاء المفضّل لجو دائمًا. ومن بين الكثير من الوسائد التي كانت تزيّن الأريكة الموقّرة، كانت هناك وسائد صلبة مُستديرة، مغطّاةٌ بشعر الخيل الشائك، وأطرافها مزيّنة بأزرارٍ مدبّبة. كانت هذه الوسادة الغريبة من ممتلكات جو الخاصّة، تستخدمها سلاحاً للهجوم، وحصنًا للدفاع، وواقيًا من النوم المفرط.

عرف لوري هذه الوسادة حقّ المعرفة، وكان يبغضها بِشدّة، لكثرة ما تلقّى ضرباتٍ منها في الأيام الخوالي التي كان المرح فيها مسموحًا به، ولأنّها الآن كثيرًا ما تحول بينه وبين جو في ركن الأريكة. وكان لقطعة النقانق، كما اختاروا أن يسمّوا الوسادة، لغة معروفة، فإذا وضعتها جو

نائمةً على الأريكة، فهذا دليلٌ على أنّه يمكنه الاقتراب، ولكن إذا سطّحتها على الأريكة، فويلٌ لرجل أو امرأة أو طفل يتجرّأ على الاقتراب منها!. وفي ذلك المساء، نسيت جو أن تحاصر ركنها، ولذلك لم تمضِ خمس دقائق على جلوسها في مقعدها، إلّا وأحسّت أنّ جسمًا ضخمًا يجلس إلى جانبها، كان ذلك لوري الذي كان يضع ذراعيه فوق الأريكة لجهة الخلف، ويمدّ ساقيه الطويلتين أمامه. قال وهو يتنفس بارتياح: «الآن، هذه جلسةٌ لا تقدّر بثمن».

ردّت جو بغضب:» دعك من هذا الكلام».

ثمّ أخذت الوسادة لتضعها بينهما، ولكنّ محاولاتها باءت بالفشل، فلم يترك لها لوري مكانًا لتضع فيه الوسادة التي سقطت على الأرض واختفت بطريقةٍ غامضة للغاية.

«تعالي يا جو، لا تكوني لئيمة. أنا أستحقّ بعض الدلال بعد أن أنهكت نفسي في الدراسة كلّ الأسبوع، وعليّ أن أحظى بشيء منه».

«أنا مشغولة الآن، اذهب إلى بيث لتدلّلك».

«كلّا لا أريد إزعاجها، لكنّني أحبّ أن أفعل هذه الأشياء معكِ لأنّك تحبّينها، إلّا إذا فقدتِ فجأةً حبّكِ لها. هل كلامي صحيح؟، هل تكرهين فتاكِ، وتريدين أن ترمي عليه الوسائد؟».

t.me/yasmeenbook

نادرًا ما كانت جو تسمع كلامًا مُغريًا كهذا، لكنّها قرّرت أن تحرج «فتاها» بقساوةٍ بسؤالٍ صعب؛ فسألته: «كم باقة أزهارٍ أرسلت إلى الآنسة راندال هذا الأسبوع؟».

«صدّقيني لم أرسل أيّة باقة، إنّها مخطوبة الآن، ولذلك لم أعد أرسل لها الأزهار».

تابعت جو مشاكسته: «أنا سعيدةٌ بذلك، لأنّ عادتك في إرسال الأزهار وغيرها إلى فتياتٍ لا تهتمّ بهنّ هو إسرافٌ لا داعي له».

«الفتيات العاقلات اللواتي أهتمّ لأمرهنّ كثيرًا لا يسمحن لي بإرسال الأزهار وغيرها، فماذا عساي أفعل؟ أنا بحاجةٍ إلى التعبير عن مشاعري بطريقةٍ ما».

«أمّي لا تقبل المغازلة حتى لو كانت بهدف التسلية، وأنت تغازل بغير حسابٍ يا تيدي».

«أنا مستعدٌّ لفعل أيّ شيءٍ، حتى أستطيع اغرائك بأن تفعلي مثلي وتغازليني أنتِ أيضًا. لكن بما أنّني لا أستطيع أن أجيب بهذا الكلام، فسأقول فقط أنّني لا أرى أيّ ضررٍ في هذه اللعبة الصغيرة الممتعة، إن كان الطرفان يدركان أنّها تسليةٌ فقط».

قالت جو ناسيةً أنّها تلعب دور الناصحة: «حسنًا، يبدو أن الغزل مسلٍّ، لكنّني لا أعرف كيف أغازل مع أنّني

حاولت، لأنّ المرء يشعر بالحرج حين لا يستطيع فعل ما يفعله الآخرون، يبدو أنّني لن أنجح في ذلك أبدًا».

«خذي دروسًا من آيمي، فهي موهوبةٌ في هذا الأمر».

«نعم، إنّها تغازل بطريقةٍ جميلةٍ جدًّا دون أن تتخطّى الحدود. أعتقد أنّ بعض الناس يرضون الآخرين دون أيّ مجهود، والبعض الآخر دائمًا يقولون ما لا يجب قوله، ويتصرّفون بطريقةٍ خاطئة في المكان الخطأ».

«أنا سعيدٌ لأنّك لا تستطيعين المغازلة. إنّه لمن الجميل رؤية فتاةٍ رزينةٍ وصريحة، ويمكن أن تكون مرحةً ولطيفةً دون أن تعرّض نفسها للسخرية. أصارحك يا جو: بعض الفتيات اللواتي أعرفهنّ يتعدّين حدودهنّ في الغزل لدرجةِ أنّني أشعر بالخجل منهن. أنا متأكّد أنّهنّ لا يقصدن أيّ ضرر، لكنّني أعتقد أنّهنّ لو عرفن كيف تحدّثنا عنهنّ بعد ذلك فسيتغيّرن».

«تتكلّم الفتيات عنكم من وراء ظهوركم أيضًا، ولأنّ ألسنتهنّ أكثر حدّةً من ألسنتكم، فأنتم الخاسرون، لأنّكم تتصرّفون بالغباء نفسه الذي يتصرّفن به. لو أنّكم أحسنتم السلوك لفعلت الفتيات المثل، لكن بما أنّكم تحبّون هراءهنّ، لن يتغيّرن، ثمّ تلومونهن!!!».

قال لوري مترفّعًا: «أنتِ لا تعرفين الكثير عن الموضوع يا سيّدتي، نحن لا نحبّ الجنون والغزل، على الرغم من أنّنا

t.me/yasmeenbook

قد نتصرّف كما لو كنا نحبّ هذه الأمور في بعض الأحيان. لا نتحدّث عن الفتيات الجميلات المتواضعات أبدًا، إلّا باحترام. بارك اللّه روحك البريئة!، لو كان باستطاعتكِ أنّ تحلّي محلّي لشهر سترين أشياء من شأنها أن تذهلك. أقسم إنّني كلّما رأيت واحدةً من أولئك الفتيات المتهوّرات، شعرت برغبةٍ دائمًا في أن أقول لها مع صديقنا كوك روبن: سحقًا لكِ أيّتها الصفيقة المتبرّجة!».

لم تستطع جو منع نفسها من الضحك على الصراع الذي يدور في نفس لوري، بين رغبته في إظهار شهامته من خلال عدم التحدّث بالسوء عن الجنس اللطيف، وبين كرهه الشديد للحماقات التي تتّسم بها فئة من النساء في المجتمع العصريّ.

عرفت جو أنّ: «لورانس الصغير»، كان يعتبر من أكثر الشباب الذين تتطلّع إليهم كلّ أمٍّ لتزوّجهم ابنتها، وقد ابتسمت له بناتهن كثيرًا، وكان يلقى العطف من السيّدات من مختلف الأعمار فزاده ذلك غرورًا. ولذلك كانت تنظر إليه بغيرة، خشية أن يفسده التدليل والمدح. لكنّها، وعلى الرغم من عدم اعترافها بذلك، إلّا أنّها سُرّت كثيرًا عندما علمت أنّه لا يزال يقدّر الفتيات المتواضعات ويحترمهنّ.

عادت فجأةً توبّخه، فقالت وهي تخفض صوتها: «إذا كان يجب أن «تخرج» مشاعرك يا تيدي، فاذهب وكرّس

نفسك لواحدةٍ من «الفتيات الجميلات المتواضعات» اللواتي تحترمهنّ، ولا تضيّع وقتك مع الحمقاوات».

نظر لوري إليها بمزيج غريب من علامات القلق والفرح على وجهه: «هل تنصحينني حقًّا بهذا؟».

«نعم، لكن من الأفضل أن تنتظر حتّى تتخرّج من الكليّة بشكلٍ رسميّ، وتتفرّغ لإعداد نفسك لهذه المهمّة. أنت لستَ مؤهّلًا للارتباط بتلك الفتاة المتواضعة أيًّا كانت.» وبدت جو غريبة الأطوار قليلًا عندما كادت تذكر اسم الفتاة التي تحدّثه عنها.

أذعن لوري وتعابير الخضوع والاستسلام تظهر على وجهه على غير العادة: «نعم لستُ مؤهّلًا بعد.»

ثمّ خفض بصره إلى الأرض شارد الذهن ومن دون وعيٍ أمسك بزرّ مريول جو، وأخذ يلفّه على إصبعه.

قالت جو لنفسها: «رحمتك يا إلهي، لن ينجح الأمر أبدًا. «وأضافت بصوتٍ عالٍ: «قم وغنِّ لي أغنية، فأنا مُتعطّشةٌ لسماع بعض الموسيقا، وأحبّ موسيقاك».

«أفضّل البقاء هنا، شكرًا لك».

ردّت جو مقتبسةً بعض كلماته: «حسنًا، لا يمكنك البقاء هنا، فالمكان لا يتّسع لكلينا. قم واعمل عملًا نافعًا، بما أنّك أضخم من أن تكون مزخرفًا. اعتقدت أنّك تكره أن تكون مربوطًا بخيطِ مريول نسائيّة».

t.me/yasmeenbook

شدّ لوري على خيوط المريول بجرأةٍ وقال: «هذا يعتمد على من يرتدي المريول؟».

ردّت جو وهي تسحب الوسادة: «ألم أطلب منك أن تذهب؟».

هرب لوري فور رؤيتها تسحب الوسادة وظلّت متمسّكةً بسلاحها حتّى لم يبق للوري أيّ أثر.

بقيت جو مستيقظةً في تلك الليلة، وحين كاد النعاس يغلبها، سمعت صوت بكاء بيث فهرعت إلى سريرها وسألتها بقلق: «ما الأمر يا عزيزتي؟».

قالت بيث والدموع تنهمر على وجنتيها: «اعتقدت أنّكِ نائمة».

«هل هو الألم الذي كنتِ تشعرين به من قبل يا حبيبتي؟».

ردّت وهي تمسح دموعها: «لا، لم أشعر بهذا الوجع قطّ، لكن يمكنني تحمّله».

«أخبريني أكثر عن ألمك ودعيني أعالجه كما عالجت آلامكِ الأخرى في كثيرٍ من الأحيان».

«لا يمكنكِ معالجة هذا الوجع يا جو، لا علاج له».

بعد هذه الجملة تلاشى صوت بيث، وتمسّكت بأختها، وصرخت يائسةً لدرجة أنّ جو كانت خائفة.

«ما الذي يؤلمك؟، هل أنادي أمّي؟!».

«كلّا، كلّا، لا تناديها، لا تخبريها. سأكون أفضل حالًا. استلقي هنا بالقرب منّي، سأهدأ وأنام. أنا متأكّدة من ذلك».

أطاعت جو كلام بيث، ولكن بينما كانت تتحسّس بيدها جبين أختها الساخن وجفونها الرطبة، كان قلبها ممتلئًا بالعطف والحزن، وكانت رغبتها شديدة في معرفة ما بها. ولكن عندما كانت صغيرة، تعلّمت جو أنّ القلوب مثل الزهور، لا تُفتح بالقوّة، بل تنفتح من تلقاء نفسها، لذلك، وعلى الرغم من أنّها اعتقدت أنّها تعرف سبب ألم بيث الجديد، إلّا أنّها قالت لها بحنان: «هل هناك ما يزعجك يا عزيزتي؟».

بعد لحظات، أجابت بيث: «نعم يا جو».

«ألن تشعري بالراحة إن أخبرتني ما هو؟»

«ليس الآن، لم يحن الوقت بعد».

«لن أسأل إذًا، لكن تذكّري يا بيثي أنّ أمّكِ وجو تسعدان دائمًا بسماعك ومساعدتك، إن كان بإمكانهما ذلك».

«أنا أعلم ذلك، سأخبرك بمرور الوقت».

«هل تشعرين بتحسّنٍ الآن؟».

«نعم، أصبحت أفضل بكثير، أنتِ تخفّفين وجعي يا جو وتجعلينِي أهدأ».

t.me/yasmeenbook

«نامي يا عزيزتي، وسأبقى بجانبك».

نامت الفتاتان جنبًا إلى جنب، وفي اليوم التالي بدت بيث بصحّةٍ جيّدة، ففي الثامنة عشرة من العمر لا تتألم الرؤوس ولا القلوب لوقتٍ طويل، وكلمةٌ لطيفةٌ واحدة كفيلةٌ أن تداوي معظم العلل.

لكنّ جو كانت قد اتّخذت قرارها، فبعد التفكير في مشروعٍ لعدّة أيّام، قرّرت أن تحدّث والدتها بشأنه.

بينما كانتا تجلسان معًا بدأت حديثها: «لقد سألتني في اليوم الماضي عن أمنياتي، لذلك سأخبركِ عن إحداها يا مارمي. أريد أن أذهب إلى مكانٍ بعيد هذا الشتاء لأنّني في حاجةٍ إلى التغيير».

ونظرت والدتها إليها نظرةً سريعة، وكأنّ الكلمات التي قالتها توحي بمعنى ثانٍ وسألتها: «لماذا يا جو؟».

أجابت جو وهي تنظر إلى النسيج التي تطرّزه: «أريد شيئًا جديدًا في حياتي. أشعر بحاجةٍ شديدةٍ لرؤية أمورٍ جديدة، والعمل بشكلٍ أفضل والتعلّم أكثر. إنّي أشغّل فكري كثيرًا في شؤوني الصغيرة، وأحتاج إلى تغيير الروتين الخاصّ ونسيان ما يقلقني، وسيمكنني الذهاب هذا الشتاء من تحقيق مرادي، لذلك أودّ أن أطير قليلًا وأجرّب أجنحتي».

«وإلى أين تريدين الطيران؟».

«إلى نيويورك. خطرت لي هذه الفكرة الرائعة بالأمس. أنتِ تعلمين أنّ السيّدة كيرك كتبت إليكِ رسالةً تسألكِ فيها عن شابّة محترمة تخيط ثيابها وتعلّم أطفالها. إنّه مطلبٌ صعب، لكنّني أعتقد أنّ هذه الوظيفة تناسبني».

بدت السيّدة مارش مذهولةً مما سمعته، لكنّها لم تكن مستاءة وقالت: «عزيزتي، هل ستذهبين للخدمة في ذلك المنزل الكبير!».

«إنّها ليست خدمة تمامًا، فالسيّدة كيرك صديقتك، وهي ألطف امرأة عرفتُها، لذلك أنا أؤمن بأنّها سوف تجعل الأمور ممتعةً بالنسبة لي. عائلتها تعيش بمعزلٍ عن النزلاء، ولن يعرفني أحدٌ هناك، ولن أهتمّ إن عرفوني، إنّه عملٌ نزيه وأنا لا أخجل منه».

«وأنا لا أخجل من عملك يا ابنتي، ولكن ماذا عن كتاباتك؟. كيف ستستمرّين في الكتابة؟».

«ستتحسّن كتاباتي بفضل التغيير، لأنّني سأرى أناسًا جدداً وأسمع أمورًا لم أسمعها من قبل، سأحصل على أفكارٍ جديدة، وحتّى إن لم يكن لديّ متّسعٌ من الوقت، فسأجمع أفكاري وأفرّغها في كتاباتي عندما أعود إلى الوطن».

t.me/yasmeenbook

«ليس لديّ شكٌّ في ذلك، لكن أهذه هي الأسباب الوحيدة التي جعلتكِ تفكّرين بهذا السفر المفاجئ؟».

«كلّا يا أمّي».

«هل لي أن أعرف بقيّة الأسباب؟».

توتّرت جو واحمرّ وجهها وقالت ببطء: «قد أكون مخطئةً في قول ذلك، لكنّني أخشى أنّ لوري يزداد ولعًا بي في الأيّام الأخيرة».

سألتها السيّدة مارش بقلق: «إذًا أنتِ لا تهتمّين به بقدرِ ما يهتمّ بك؟».

«رفقًا بي يا أمّاه!. أنا أحبّ الفتى العزيز، ولطالما أحببته، وأنا فخورةٌ به جدًّا، ولكنّني لن أسمح أن تتطوّر الأمور وتزيد أكثر من ذلك».

قالت الأمّ: «أنا سعيدةٌ بذلك يا جو».

فسألتها: «لماذا؟».

«لأنّني يا عزيزتي أعتقد أنّكما غير مناسبين لبعضكما بعضاً. أنتما سعيدان للغاية بصداقتكما، وسرعان ما تنهيان مشاجراتكما المتكرّرة، لكنّني أخشى أنّ تتمرّدا وأن تزيد المشاجرات عن حدّها إذا تزوّجتما وقررتما أن تعيشان سويًّا مدى الحياة. أنتما متشابهان للغاية، وكلاكما مولَعٌ بالحرّيّة، ناهيك عن الانفعالات السريعة والإرادة القويّة،

هذا الأمر لا يصلح في علاقةٍ تتطلّب صبرًا وتحمّلًا لا حدود له، بالإضافة إلى الحبّ، فهذه الأمور هي المفتاح لعلاقةٍ هنيئة».

«هذا هو الشعور الذي كان ينتابني، لكنّني لم أستطع التعبير عمّا في داخلي. أنا سعيدةٌ لأنّكِ تعتقدين أنّه بدأ يهتمّ بي فقط ولم يتمادَ أبعد من ذلك. كنتُ سأتضايق إن كنتُ سببًا في حزنه، لأنّني لا أستطيع أن أحبّ الفتى العزيز بدافع الوفاء».

«هل أنتِ متأكّدة من شعوره تجاهك؟».

ازداد خدّا جو احمرارًا وهي تنظر إلى أمّها نظرةً امتزجت فيها مشاعر المتعة والفخر والألم، شأنها في ذلك شأن الفتيات الصغيرات عندما يتحدّثن عن الحب الأوّل في حياتهنّ، وأجابت:

«أخشى أن يكون الأمر كذلك يا أمّي. لم يقل أيّ شيء، لكنّ الأمر واضح. أعتقد أنّه من الأفضل لي أن أذهب قبل أن تتعقّد الأمور».

«أتّفق معك، وعليكِ الذهاب إن كان السفر سيصلح الأمور».

بدت جو مرتاحة، وبعد سكوتها للحظات قالت مبتسمة: «لا بدّ أن يثير كلامك هذا عجب السيّدة موفا لو عرفت به، وستفرح لرحيلي لأنّ آمال آني بلوري ستزيد».

«لا يا جو، قد تختلف الأمّهات في مسألة زواج

t.me/yasmeenbook

بناتهنّ، لكن جميعهنّ يأملن أملًا واحدًا، وهو الرغبة في رؤية أبنائهنّ سعداء. ميج سعيدة، وأنا راضيةٌ عن نجاحها. سأتركك أنتِ لتستمتعي بحريّتك حتى تسأمي منها، وسيأتي وقتٌ تجدين فيه أنّ هناك ما هو أجمل من الحريّة. سوف أعتبر آيمي محطّ اهتمامي الآن، لكنّ نضجها سيساعدها. أمّا بالنسبة لبيت، فلا آمل سوى أن تكون على ما يرام. بالمناسبة، تبدو مرتاحةً أكثر في اليومين الماضيين. هل تحدّثتِ معها؟».

«نعم، قالت إنّها منزعجةٌ من أمرٍ ما، ووعدتني أنّها ستخبرني عنه مع الوقت. لم أضغط عليها لتفصح عن سبب انزعاجها، أعتقد أنّني أعرف ما بها».

وروت جو قصّتها القصيرة.

هزّت السيّدة مارش رأسها، ولم تتأثّر بالجانب الخياليّ من القصّة، لكنّها بدت شديدة الاهتمام بما سمعته، وكرّرت بأنّ على جو السفر لبعض الوقت من أجل مصلحة لوري.

«لن نخبره أبدًا عن الخطّة إلّا حين نتأكّد من أنّ كلّ شيءٍ جاهز وتحت السيطرة، بعدها سأهرب قبل أن يتمكّن من أن يحتال عليّ ويجعلني أشفق عليه. يجب أن تعتقد بيث أنّني ذاهبةٌ لأستمتع هناك، وهذا ما سيحدث بالفعل، لأنّني لا أستطيع أن أخبرها عن قصّتي مع لوري. ولكن يمكنها تهدئته بعد رحيلي، وبالتالي علاجه من هذا الوهم

الذي يعيشه. لقد مرّ بالكثير من هذا النوع من التجارب، واعتاد على ذلك، وستنتهي قريبًا قصّة الحبّ هذه».

تحدّثت جو بأمل، لكنّها لم تستطع التخلّص من الخوف الذي ينذر بالخطر من أنّ هذه التجربة الصغيرة كما تسمّيها، ستكون أصعب من التجارب الأخرى التي مرّ بها العاشق الصغير، وأنّه لن يتغلب على حبّه بسهولةٍ كما كان يفعل من قبل.

ناقشت العائلة الخطّة أثناء اجتماعها وتمّ الاتّفاق عليها، فلقد قبلت السيّدة كيرك جو بكلّ سرور، ووعدت بتوفير منزلٍ لطيفٍ لها. من شأن التعليم أن يجعلها مستقلّة، وقد يكون وقت الفراغ الذي حصلت عليه مربِحًا من ناحية الكتابة، وستفيدها المشاهد الجديدة والمجتمع الجديد.

أعجبت جو بالفكرة وتحمّست أكثر للرحيل، لأنّ المنزل كان يضيق جدًّا عليها بسبب طبيعتها المضطربة وروح المغامرة التي تمتلكها. عندما تمّت تسوية كلّ شيء، أخبرت لوري بقرارها بخوفٍ وهي ترتجف، فتفاجأ ولكنّه تلقّى الخبر بهدوءٍ شديد. لقد كان رزينًا أكثر من المعتاد في الآونة الأخيرة، لكنّه كان لطيفًا للغاية، وعندما اتّهم على سبيل الفكاهة بفتح صفحةٍ جديدة في حياته، أجاب بوقار: «نعم، لقد قلبت صفحةً جديدة، وإنّني مصمّمٌ على أن تظلّ هذه الصفحة مقلوبة».

شعرت جو بالارتياح الشديد لكلامه، وأعدّت أمتعتها بهدوءٍ وتفاؤل، بعدما رأت أنّ بيث مسرورة ومطمئنّة، وكانت ترجو أن يكون سفرها خيرًا للجميع.

قالت في الليلة السابقة لمغادرتها: «أريدك أن تعتني بشيء واحدٍ من أجلي».

سألتها بيث: «أتقصدين أوراقك؟».

«كلّا، أقصد لوري. أريدكِ أن تعامليه معاملةً حسنة. هل ستفعلين ذلك؟».

«بالطبع، لكنّني لا أستطيع ملء مكانك، وسوف يحزنه شوقه إليكِ».

قالت جو: «لن يحزن على فراقي، لذا تذكّري، ستكونين أنتِ مسؤولةً عن إزعاجه وتدليله والتأكّد من أنّه يسلك الطريق الصحيح».

وعدتها بيث وهي تتساءل عن سبب نظرة جو الغريبة لها: «سأبذل قصارى جهدي من أجلك».

عندما ودّع لوري جو همس في أذنها: «لن يغيّر سفرك من الأمر شيئًا يا جو، فقد اخترتكِ، لذا تدبّري فيما أنتِ فاعلة، وإلّا سألحق بكِ وأعيدكِ إلى المنزل قسرًا».

t.me/yasmeenbook

الفصل العاشر

أخبار جو

نيويورك، تشرين الثاني

عزيزتي مارمي وأختي بيث،

سأكتب إليكما بانتظام، لأنّ لدي الكثير من الأخبار، على الرغم من أنّ رحلتي بسيطة.

عندما غاب عنّي وجه أبي العجوز، شعرت ببعض الحزن، وكنت على وشك البكاء لو لم تصرف الفكرة عن ذهني سيّدةٌ أيرلنديّة معها أربعة أطفالٍ صغار يبكونة بصوتٍ عالٍ، فاستمتعتُ بإلقاء مكسّرات الزنجبيل على المقعد في كلّ مرّةٍ يفتحون أفواههم للصراخ والبكاء.

وسرعان ما أشرقت الشمس، فتفاءلتُ وارتاحت روحي، واستمتعتُ برحلتي من أعماق قلبي.

استقبلتني السيّدة كيرك بلطفٍ كبير حتّى شعرتُ فور

وصولي بأنّني في بيتي، رغم أنّني في منزلٍ كبيرٍ مليءٍ بالغرباء. خُصِّصت لي حجرةً صغيرة في الدور الأعلى فيها موقد وطاولةٌ جميلةٌ تحت نافذةٍ مُشمسة، لذلك يمكنني الجلوس هنا والكتابة متى أردت. وأمامي كنيسة ببرجها الشاهق ومناظر جميلة تعوّضني عن التعب الذي أعانيه أثناء ارتقائي السلّم الطويل. أعجبتني حجرتي منذ الهولة الأولى. أمّا غرفة الحضانة التي أعلّم فيها وأخيط الثياب، فقد كانت غرفةٌ لطيفةٌ مجاورةٌ لحجرة السيّدة كيرك الخاصّة، والفتاتان الصغيرتان جميلتان جدًا، مدلّلتان إلى حدٍّ ما، لكنّهما التصقتا بي بعد أن قصصتُ عليهما حكاية الخنازير السبعة الشريرة، ولا شكّ في أنّني سأصبح مربيّةً مثاليّة.

أخبرتني السيّدة كيرك أنّني لستً مضطرّةً لتناول وجباتي مع الأطفال، ويمكنني تناولها على الطاولة الرائعة إن كنتُ أفضّل ذلك، وفي الوقت الحاضر هذا ما أفعله، لأنّني خجولةٌ على الرغم من أنّ أحداً لن يصدّق ذلك.

قالت لي السيّدة كيرك بحنان الأمّ: «الآن اعتبري نفسك في منزلكِ يا عزيزتي، فأنا مشغولةٌ منذ الصباح حتى الليل، كما قد تتوقّعين مع عائلة كبيرة كهذه. ولكن إن اطمأنّ قلبي أنّ الأطفال بأمان معك، فسأشعر أنّ هموماً زالت عن كتفي. كلّ بيتي مفتوحٌ لك دائمًا، وسأجعل حجرتكِ

t.me/yasmeenbook

مريحةً قدر الإمكان. وإن شعرتِ أنّكِ بحاجةٍ لتتكلّمي مع أحد وتمضي وقتك، قد تجدين الكثير من الناس اللطفاء هنا، وستكون أمسياتك دائمًا خالية من العمل. تعالي إليّ إذا حدث أيّ مكروه، وكوني سعيدةً قدر الإمكان. حان وقتُ الشاي، عليّ أن أسرع وأغيّر ملابسي».

عندها خرجت وتركتني أنظّم شؤوني في حجرتي الجديدة.

عندما نزلت إلى الطابق السفليّ بعد فترةٍ وجيزة، رأيت مشهدًا أعجبني. كانت السلالم طويلةً جدًا في هذا المنزل المرتفع، وبينما كنت أنتظر عند رأس السلّم الثالث مرّت خادمةٌ صغيرة، ورأيت رجلًا نبيلًا أتى خلفها، أخذ حوض الفحم الثقيل من يدها، وحمله طوال الطريق، ثمّ وضعه عند بابٍ قريب، ومشى قائلًا بإيماءةٍ لطيفةٍ ولهجةٍ أجنبيّة: «هذه الطريقة أفضل، فظهرك أصغر من أن يتحمّل مثل هذا الثقل».

ألم يكن ذلك سلوكاً نبيلًا؟، أنا أحبّ مثل هذه التصرّفات، لأنّه كما يقول والدي، تظهر شخصيّة المرء من خلال تصرّفاته الصغيرة. عندما ذكرتُ ذلك للسيّدة كيرك في ذلك المساء، ضحكت وقالت: «لا بدّ أنّه الأستاذ بهاير، إنّه دائمًا يفعل ذلك».

أخبرتني أنّه رجلٌ جيّدٌ من برلين، متعلّم جدًّا، لكنّه

فقير، ويعطي دروسًا لإعالة نفسه وابنيّ أخته الصغيرين اليتيمين اللّذين يقوم بتعليمهما هنا، ووفقًا لرغبات أخته التي تزوّجت أمريكيًّا.

لم تكن قصّةً عاطفيّةً للغاية، لكنّها أثارت اهتمامي، وكنت سعيدةً لسماع أنّ السيّدة كيرك أعارته غرفتها ليستقبل فيها طلّابه. هناك بابٌ زجاجيّ بين تلك الغرفة وبين غرفة الحضانة، وأعني أنّه بإمكاني اختلاس النظر إليه، ثمّ سأخبركما كيف يبدو. إنّه في الأربعين من عمره تقريبًا، لذا لا ضرر في ذلك يا مارمي، لا تقلقي.

بعد شرب الشاي والمرح مع الفتيات الصغيرات، انصرفت إلى سلّة الحياكة الكبيرة، وقضيت أمسيةً هادئة في عملي الجديد. سأكتب لكما رسائل يوميّة، وأرسلها مرّةً واحدة في الأسبوع، لذا تصبحان على خير، وإلى اللقاء غدًا.

عشية الثلاثاء

قضيت وقتًا شاقًّا في الحضانة هذا الصباح، فقد كان الأطفال يتصرّفون بشقاوة، حتّى شعرت لوهلةٍ بأنّني أريد حملهم وهزّهم ليكفّوا عن المشاغبة. لكن خطرت في بالي فكرةٌ مبدعة، وهي أن أحوّل شغبهم إلى رياضة، وبالفعل نفّذتُ خطّتي، وقمنا ببعض التدريبات البدنيّة، وكان

t.me/yasmeenbook

الأولاد سعداء بالأجواء، وأرادوا الاستمرار في التمارين. بعد مأدبة الغداء، اصطحبتهم الخادمة الصغيرة في نزهة، فانتهزتُ الفرصة للقيام ببعض التطريز. كنت أحمد اللّٰه أنّني تعلّمت صنع العُرَى الجميلة عندما سمعتُ أحدهم يفتح باب الغرفة ويغلقه، وهو يترنّم بلحنٍ ألمانيٍّ. أعلم أنّه تصرّفٌ غير لائق على الإطلاق لكنّني لم أستطع مقاومة الإغراء، فرفعت أحد طرفيّ الستارة أمام الباب الزجاجيّ واختلستُ النظر إلى الداخل. كان الأستاذ بهاير هناك، وأثناء قيامه بترتيب كتبه، أمعنت النظر إليه، ووجدتُ أنّه ألمانيٌّ أصيل، ممتلئ الجسم نوعًا ما، له شعرٌ بنيٌّ مشعثٌ، ولحيةٌ كثيفة، وأنفٌ جميل، ولديه أروع عينين رأيتهما على الإطلاق. كان صوته ضخمًا ومجلجلًا يحبّ المرء سماعه بعد الثرثرة الأمريكيّة المبتذلة التي يسمعها يوميًّا. أمّا ملابسه فكانت رثّة، ويداه كبيرتين، ولم يكن في وجهه ميزةٌ جميلةٌ حقًّا، باستثناء أسنانه البيضاء، ومع ذلك فقد أعجبني، لأنّ شكله كان يوحي بأنّه رجلٌ نبيل، على الرغم من معطفه العتيق وحذاءه المرقّع. كان يبدو رصينًا على الرغم من ترانيمه، حتى إنه ذهب إلى النافذة ليوجّه البخور نحو الشمس، ويداعب القطّة التي استقبلته كصديقٍ قديمٍ لها. ثمّ ابتسم، وعندما طرق أحدهم الباب، صرخ بصوتٍ عالٍ: «موجود. تفضّل».

كنت سأذهب، لكنّني رأيت طفلةً تحمل كتابًا كبيرًا، فغلبني الفضول وتوقّفتُ لأرى ما يجري.

أغلقت الطفلة كتابها ثمّ جرت نحو الأستاذ وقالت: «أنا أريد عزيزي بهاير».

حملها الأستاذ عاليًا وهو يضحك وقال لها: «بهاير هنا، تعالي وعانقيه يا تينا».

انحنت الطفلة المحمولة لتقبّل بهاير وقالت: «الآن عليّ أن أذاكر».

لذلك وضعها على الطاولة، وفتح القاموس الضخم الذي أحضرته، ثمّ أعطاها ورقةً وقلم رصاص. جلست تخربش وتقلّب الأوراق بين الحين والآخر، وتمرّر إصبعها الصغير إلى أسفل الصفحة، كما لو كانت تبحث عن كلمةٍ ما. كانت تبدو جديّةً في دروسها لدرجةِ أنّني كدت أفضح نفسي بضحكة، بينما وقف السيّد بهاير يمسح على شعرها الجميل بحنان الأب، حتى يجعلني أعتقد أنّها ابنته، على الرغم من أنّها بدت فرنسيّة أكثر من كونها ألمانيّة.

سمعتُ طرقةً أخرى على الباب وظهرت شابّتانِ أمامه، لذلك عدتُ لمتابعة عملي، وبقيتُ أعمل وسط كلّ الضوضاء والثرثرة التي حدثت في الحجرة المجاورة. ظلّت إحدى الفتاتين تضحك بتصنّع وقالت بدلال: «الآن يا أستاذ.» والأخرى كانت تتكلّم الألمانية بلكنةٍ غريبة صعّبت عليه الصمود في رزانته.

t.me/yasmeenbook

وكان من الواضح أنّ الفتاتين تثيران أعصابه، لأنّني سمعته يقول أكثر من مرّة وبشكلٍ قاطع: «كلّا، كلّا، لا تُلفظ الكلمات بهذه الطريقة. لم تنتبها إلى ما أقوله.» سمعتُ صوت ضربةٍ قويّة، كما لو أنّه ضرب الطاولة بكتابه، متبوعًا بعلامة ثمّ قال بيأس: «يا إلهي!، كلّ شيءٍ سيّئ هذا اليوم».

يا له من رجلٍ مسكين أشفق عليه! وعندما غادرت الفتاتان، ألقيتُ نظرةً واحدةً أخرى لمعرفة ما إذا كان قد تخطّى ما حدث. بدا وكأنه ألقى بنفسه على كرسيّه متعبًا، جلس هناك وعيناه مغمضتان حتّى دقّت الساعة الثانية، حينها نهض بسرعة ووضع كتبه في جيبه كما لو كان مستعدًّا لإعطاء درسٍ آخر، وحمل بهدوءٍ تينا التي كانت قد غفت على الأريكة بين ذراعيه.

أتصوّر أنّه يمرّ بصعوباتٍ في حياته. سألتني السيّدة كيرك ما إذا كنت أريد أن أنزل لتناول العشاء في الساعة الخامسة، كنتُ أشعر بالحنين إلى البيت قليلًا، لكنّني وافقتُ على النزول، فقط لأتعرّف قليلًا على الأشخاص الذين يعيشون معي تحت سقفٍ واحدٍ.

أردتُ أن أبدو محترمة، لذلك رافقت السيّدة كيرك وحاولت التسلّل إلى قاعة الطعام خلفها، ولكن نظرًا لقصر قامتها وطول قامتي، فإنّ جهودي في الاختفاء كانت فاشلة. قدّمت لي مقعدًا بجانبها، وبعد أن هدأت،

استجمعتُ شجاعتي ونظرتُ حولي. كانت المائدة الطويلة ممتلئة، وكان كلّ شخصٍ عازماً على تناول العشاء وخاصّةً الرجال الذين بدا أنّهم يأكلون في الوقت المحدّد، لأنّهم ازدردوا الطعام بينهم بكلّ ما في الكلمة من معنى، وذهبوا بمجرّد انتهائهم. وكان يجلس إلى المائدة بعض الشبّان المشغولين بأنفسهم، والأزواج المنهمكين ببعضهم بعضاً، والسيّدات المتزوّجات اللواتي يرعين أطفالهنّ، والعجائز الغارقون في السياسة. لا أعتقد أنّني سأهتمّ بأحدٍ منهم، باستثناء سيّدةٍ واحدة جميلة المظهر، تبدو أنّها مميّزة وتستحقّ المعرفة.

وكان الأستاذ يجلس في طرف المائدة الآخر، يجيب بصوتٍ عالٍ عن أسئلة رجلٍ عجوزٍ أصَمَّ وفضوليّ للغاية من جهة، ويتحدّث عن الفلسفة مع رجلٍ فرنسيّ من جهةٍ أخرى. لو أن آيمي هنا، لكانت قد أدارت ظهرها له إلى الأبد لأنّ شهيّته كانت كبيرة، وكان يلتهم طعامه بطريقةٍ من شأنها أن ترعب أنوثتها. لم يكن لديّ مانعٌ من رؤيته يتصرّف بتلك الطريقة، لأنّني أحبّ رؤية الناس وهم يأكلون بلذّةٍ كما تقول هانا، ولا بدّ من أنّ الرجل المسكين بحاجةٍ إلى كميّةٍ كبيرةٍ من الطعام بعد تعليم الحمقى طوال اليوم.

عندما صعدت إلى الطابق العلويّ بعد العشاء، كان

t.me/yasmeenbook

اثنان من الشباب يرتّبان قبّعتيهما أمام مرآة القاعة، سمعتُ أحدهما يقول للآخر بصوتٍ منخفض: «من هي تلك الفتاة الجديدة؟».

«إنّها مربيّة، أو شيءٌ من هذا القبيل».

«ولماذا تجلس على طاولتنا؟».

«إنّها صديقة السيّدة العجوز».

«وجهها جميل، ولكنّها سيئة المظهر».

«ليس لديها مظهر على الإطلاق. أشعل لي سيجارتي وهيّا بنا».

شعرتُ بالغضب في البداية، ثمّ قرّرت عدم الاكتراث لحديثهما، لأنّ المربيّة لا تقلّ شأنًا عن الكاتب، وإن لم يكن لديّ أسلوب لكنّني فخورةٌ بذكائي الذي يفتقده الكثير من الناس، نظرًا لما رأيته الآن من هذين الشابين اللذين يدخّنان مثل المداخن الفاسدة. كم أكره التافهين!.

يوم الخميس

كان يوم أمس يومًا هادئًا قضيته في التدريس والخياطة والكتابة في غرفتي الصغيرة الدافئة، بفضل النار المشتعلة في الموقد، ووصلتني بعض الأخبار. تعرّفتُ إلى الأستاذ وعلمتُ أنّ تينا هي ابنة السيّدة الفرنسيّة التي تكوي الغسيل

هنا، وهي بارعةٌ في ذلك. الطفلة الصغيرة متعلّقةٌ بالسيّد بهاير، وتتبعه في المنزل أينما ذهب وكأنّها قطّته الصغيرة، وهو لا يمانع على الإطلاق، بل كانت يسعد للغاية بوجودها لأنّه مغرمٌ جدًّا بالأطفال. وبالمثل تتودّد إليه كيتي وميني كيرك، وتحكيان كلّ القصص عن المسرحيّات التي يخترعها، والهدايا التي يجلبها، والحكايات الرائعة التي يرويها. يبدو أنّ الرجال الأصغر سنًّا يسخرون منه، ويطلقون عليه الكثير من الألقاب: «فريتز العجوز»، و«البيرة الخفيفة»، و «الدبّ الأكبر»، ويطلقون جميع أنواع النكات استهزاءً باسمه. تقول السيّدة كيرك إنّه يتقبّل الأمر على أنّه مزحة، ويتصرّف بلطفٍ شديد لدرجة أنّهم جميعًا يحبّونه على الرغم من عاداته الأجنبيّة.

أمّا السيّدة الأنيقة الجميلة وهي الآنسة: نورتون، فهي امرأةٌ غنيّة، ومثقّفة، ولطيفة. وقد تحدّثت إليّ على العشاء اليوم حين ذهبت إلى المائدة مرّةً أخرى، لأنّني كنت أستمتع بمراقبة الناس، وطلبت منّي الذهاب لرؤيتها في غرفتها. لديها كتبٌ وصورٌ رائعة، وتعرف أشخاصًا مهمّين. شعرتُ أنّها ودودة، لذلك أردتُها أن تحبّني، لأنّني أرغب في معرفة المجتمعات الطيّبة، ولكنّها ليست من الطراز الذي تحبّه آيمي.

كنت في غرفة الحضانة الليلة الماضية، عندما جاء

t.me/yasmeenbook

السيّد بهاير حاملًا بعض الصحف التي أحضرها للسيّدة كيرك. لم تكن هناك، لكنّ ميني، قدّمتني بطريقةٍ جميلةٍ للغاية حتّى بدت وكأنّها امرأةٌ صغيرة، فقالت: «هذه صديقة أمّي، وتدعى الآنسة مارش».

أضافت كيتي الطفلة الرائعة: «نعم، إنّها مرحة ونحن نحبّها كثيرًا».

ضحك كلانا لأنّ أولّ تعارفٍ بيننا كان هزليًّا.

قال بوجهٍ عابسٍ مهدّدًا الفتاتين الماكرتين:» نعم، إنّني أسمع هاتين الشقيّتين وهما تثيران أعصابك يا آنسة مارش، إذا تكرّر هذا الأمر ناديني وسوف آتي فورًا».

فوعدت أنّني سأناديه في المرّة القادمة، ورحل. لكن يبدو أنّه قُدّر لي أن أراه مرّاتٍ عدّة، فأثناء خروجي مررتُ بجانب باب غرفته، وطرقته عن طريق الخطأ بمظلّتي. فتح الباب، ووقف هناك حاملًا جوربًا أزرق كبيراً بإحدى يديه، وإبرةً في اليد الأخرى. لم يبدُ محرجًا من ذلك على الإطلاق، لأنّه عندما شرحتُ له ما حدث وأسرعت، لوّح بيده حاملًا الجورب، قائلًا بطريقته الصاخبة والمبهجة: «إنّه يومٌ جميل للمشي. أتمنّى لكِ رحلةً سعيدة يا آنسة».

كان الموقف مضحكًا، لكنّني شعرتُ بالشفقة على الرجل الفقير الذي عليه أن يرقّع ملابسه. أعلم أنّ الرجال الألمان يطرّزون، لكنّ ترقيع الجوارب أمرٌ بغيضٌ وشاقّ.

لم يحدث اليوم أيّ جديدٍ يستحقّ الكتابة، باستثناء زيارة الآنسة نورتون، التي لديها غرفةٌ مليئةٌ بالأشياء الجميلة. كانت تلك الآنسة في غاية اللّطف معي، فقد أرتني كلّ كنوزها، وسألتني إذا كنت أودّ الذهاب معها كمرافقة لها إلى بعض المحاضرات والحفلات الموسيقيّة. طلبت منّي أن أسدي لها ذلك المعروف، لكنّني متأكّدة من أنّ السيّدة كيرك هي من أخبرتها عنّي، وفعلت ذلك بدافع اللطف. وأنا وإن كنتُ أشدّ كبرياءً من إبليس، لكنّ خدمات كهذه من هؤلاء الناس لا تثقل كاهلي، لذلك قبلت بامتنان.

عندما عدت إلى الحضانة، سمعتُ ضجّةً كبيرة تنبعث من حجرة الاستقبال لدرجة أنّني نظرت لأعرف سببها، فرأيت السيّد بهاير جاثيًا على يديه وركبتيه، وتينا على ظهره، بينما كيتي تقوده بحبل القفز، وميني تطعم صبيّين صغيرين الكعك، بينما كانا يزأران ويتسلّقان أقفاصًا مبنيّةً من الكراسي.

أوضحت كيتي: «نحن نلعب النارجيري».

أضافت تينا متمسّكةً بشعر الأستاذ: «وهذا حصاني».

قالت ميني: «تسمح لنا ماما دائمًا بفعل ما نحبّ عندما يأتي فرانز وإميل بعد ظهر يوم السبت، أليس كذلك يا سيّد بهاير؟».

t.me/yasmeenbook

جلس الحصان، ونظر إليّ بجديّةٍ مثلهم، ثم قال: «إذا تضايقتِ من ضجيجنا، فما عليكِ سوى أن تقولي «صه» وسنهدأ فورًا، أعدكِ يا آنستي!».

وعدته بذلك، لكنّني تركت الباب مفتوحًا واستمتعت بلعبهم بقدر ما كانوا مستمتعين، لأنّني لم أشهد في حياتي مثل هذا المرح. لعبوا لعبة العسكر واللصوص، ثمّ رقصوا وغنّوا، وعندما بدأ الليل يهبط، تجمّعوا كلّهم على الأريكة حول الأستاذ، بينما كان يروي قصصًا خرافيّة رائعة عن طيور اللقلق على قمم المداخن، والعفاريت الصغار الذين يركبون رقاقات الثلج أثناء سقوطها. أتمنّى لو كان الأمريكيّون بسطاء وطبيعيّين مثل الألمان، ألستُ محقّة؟.

أنا مغرمةٌ جدًّا بالكتابة، ولولا العوامل الاقتصاديّة لكنتُ استمررت في كتابة كلّ ما يجول في خاطري، وعلى الرغم من أنّني أستخدم ورقًا رقيقًا وأكتب بخطٍّ دقيق، إلّا أنّني أرتجف عندما أفكّر في الطوابع التي ستحتاجها هذه الرسالة الطويلة. وأرجو أن ترسلوا لي الرسائل التي تكتبها آيمي فور انتهائكم منها. ستبدو أخباري الصغيرة تافهة مقارنةً بأخبارها الرائعة، لكنّني أعلم أنّكم ستحبّونها. هل يدرس تيدي بجدٍّ لدرجة أنّه لا يجد وقتًا للكتابة إلى أصدقائه؟. اعتني به جيدًّا من أجلي يا بيث، وأخبريني كلّ أخبار طفلَيّ ميج، وأرسلي حبّي للجميع.

أختكِ المخلصة،

جو

ملاحظة: بعدما أعدتُ قراءة رسالتي، لاحظتُ أنّني كتبتُ الكثير عن بهاير، لكنّ الشخصيّات الغريبة تجذبني، ولم يكن لديّ حقًّا أمرٌ آخر أكتب عنه.

كانون الأوّل

عزيزتي الغالية،

لمّا كان خطابي هذا أشتاتًا من هنا وهناك، لذلك أوجّهه إليكِ لأنّني أعلم أنّه قد يسلّيكِ، ويعطيكِ فكرةً عمّا يحدث في حياتي، التي وإن كانت هادئة إلّا أنّها لا تخلو من المرح. وبعدما تسمّيه آيمي بالجهود الجبّارة، والتي بذلتها في تنمية القدرة العقليّة والحس الأدبيّ، استطعتُ أن أطلق العنان لأفكاري الصغيرة وأجعل طفلتيّ الصغيرتين طوع أمري فأوجّهها كيفما أشاء. إنّهما ليستا مثيرتين للاهتمام بالنسبة لي مثل تينا والأولاد، لكنّني أقوم بواجبي تجاههما، وهما مغرمتان بي. فرانز وإميل هما فتيان صغيران مرحان، وأحبّهما من كلّ قلبي، لأنّهما خليطٌ من الألمانيّة والأمريكيّة، وهذا يجعلهما في فورانٍ دائم. أمسيات يوم السبت صاخبةٌ دائمًا، سواء قضاها الأطفال في المنزل أم في الخارج، ففي الأيّام السارّة يذهب الجميع

t.me/yasmeenbook

للمشي، وأكون أنا والأستاذ مسؤولَين عنهم، لكنّنا نقضي وقتًا ممتعًا.

صرتُ أنا والأستاذ صديقينِ حميمين، وقد بدأت بأخذ الدروس. كان ذلك خارجًا عن سيطرتي، وقد حدث كلّ ذلك بطريقةٍ هزليّة يجب أن أخبرك بها. سأروي لكِ ما حدث منذ البداية: زارتني السيّدة كيرك ذات يوم، وذلك عندما مررت بغرفة السيّد بهاير حيث كانت تفتّشها.

«هل رأيتِ عرينًا بمثل هذه الفوضى من قبل يا عزيزتي؟، تعالي وساعديني لوضع هذه الكتب في مكانها المناسب، لأنّني قلبت كلّ شيءٍ رأسًا على عقب، محاولةً اكتشاف ما فعله بالمناديل السيدة الجديدة التي أعطيتها له منذ وقتٍ ليس ببعيد».

دخلتُ إلى الغرفة وأثناء عمليّة بحثنا، نظرتُ حولي ووجدتُ أنّها مليئة بالفوضى. كتبٌ وأوراقٌ في كلّ مكان، أشياء محطّمة، ومزمارٌ قديم على رفّ المدفأة، وطائرٌ بلا ذيل على مقعد النافذة، وفي الجانب الآخر صندوقٌ للفئران الأليفة. وبين الكتب والكراسات قوارب لم يتمّ صنعها بعد، وبعض الخيوط. ورأيتُ صفًّا من الأحذية الصغيرة المتّسخة أمام النار، وفي جميع أنحاء الغرفة، آثار الأولاد الظرفاء الذين يشقى من أجلهم. بعد عمليّة تفتيشٍ كبيرة، عثرنا على ثلاثة مناديل، واحد فوق قفص الطيور،

وآخر مغطّى بالحبر، والثالث محترق، بعد أن استُخدم لتنحية الأواني الساخنة عن النار.

وضعت السيدة كيرك المناديل في كيسٍ من القماش وهي تضحك وتقول بلطف: «يا له من رجل!، أفترض أنّه مزّق بقيّة المناديل ليستخدمها في صنع السفن، أو في عمل ضماداتٍ لأصابع الأطفال المجروحة، أو ذيول طائرات ورقيّة. إنّها تصرّفاتٌ فظيعة، لكن لا يمكنني لومه، لأنّه شارد الذهن وقلبه طيّب، لقد سمح لهؤلاء الأولاد بالركوب فوق ضهره بخشونة. وافقتُ على غسل ملابسه وإصلاحها، ولكنّه ينسى إعطاءها لي، وأنا أنسى أن أطلبها منه، وتكون النتيجة وقوعه في مآزق تجلب إليه المتاعب».

قلت لها: «دعيني أصلح ملابسه بنفسي. أنا لا أمانع في ذلك، وليس هناك داعٍ ليعرف بالأمر. أودّ فعل ذلك لأنّه لطيفٌ جدًّا معي، ويُحضّر لي رسائلي، ويعيرني كتبه».

لذلك قمت بترتيب أغراضه، وأصلحتُ زوجين من الجوارب التي أفسدها محاولًا إصلاحها. بقي الأمر سرًّا، وكنت آمل ألّا يكتشف ذلك، لكن في أحد الأيّام من الأسبوع الماضي، علم الأستاذ بالأمر. أثار اهتمامي سماع الدروس التي يعطيها للآخرين لأنّ تينا تركض وتخرج، تاركةً الباب مفتوحًا، فاستطعت سماع دروسه التي أمتعتني كثيرًا لدرجة أنّني أحببتُ التعلّم معهم. كنت جالسة بجوار

t.me/yasmeenbook

الباب، أرثو الجورب الأخير، وأحاول فهم ما قاله لطالبةٍ جديدةٍ غبيّةٍ مثلي. كانت الفتاة قد رحلت، وظننتُ أنّه قد ذهب هو أيضًا، لأنّني لم أعد أسمع أصواتًا. كنت مشغولةً بتصريف أحد الأفعال التي سمعتها، وأتأرجح في مقعدي جيئة وذهابًا بطريقةٍ سخيفةٍ للغاية، عندما جعل مني غراباً صغيراً أنظر إلى الأعلى، فرأيتُ السيّد بهاير ينظر إليّ ضاحكًا، بينما يومئ إلى تينا لتلزم بالصمتِ حتى لا أكتشف أمره.

توقّفتُ وحدّقتُ فيه، فقال: «تختلسين النظر إليّ، وأختلس النظر إليك، لا بأس في ذلك، لكن أرجو ألّا تشعري بأنّني أتطفّل إذا سألتك، هل ترغبين في تعلّم اللغة الألمانيّة؟».

أجبته ووجهي قد احمرّ خجلًا: «نعم أرغب في تعلّمها، لكنّك مشغولٌ للغاية، وأنا غبيّةٌ لدرجة أنّني لا أستطيع أنْ أتعلّم».

«سوف نخصّص الوقت لذلك، وقد تعيننا الحيل في تنشيط أفكارك. يسرّني أن أعطيكِ دروسًا في المساء، لأردّ لكِ الجميل يا آنسة مارش».

أشار بيده إلى الجورب الذي كنتُ أصلحه وقال: «تعتقد السيّدات اللّطيفات أنّني رجلٌ غبيٌّ عجوز لا ألاحظ اختفاء الثقوب التي كانت في جواربي. وكأنّني أعتقد أنّ

الأزرار تنمو من تلقاء نفسها بعد أن تسقط، وأنّ الخيوط تخيط نفسها بنفسها. لكنّني أملك عينًا وأرى الكثير، ولديّ قلب، وأشكر اللّٰه على ذلك. تعالي من وقتٍ لآخر لأشرح لك بعض الدروس في اللغة الألمانيّة».

بالطبع لم أستطع قول أيّ شيءٍ بعد ذلك، ولأنّها حقًّا فرصةٌ رائعة، قبلتُ بالاتّفاق، وبدأنا في تنفيذه. أخذت أربعة دروس، ثمّ علقت بسرعةٍ في مستنقع نحويّ. كان البروفيسور صبورًا جدًّا معي، لكن لا بدّ أنّه كان عذابًا بالنسبة إليه، وبين الحين والآخر كان ينظر نحوي يائسًا فأتحيّر، أأضحك لموقفي أم أبكي لخيبتي؟ لقد جرّبت كلتا الطريقتين، فلم تتحسّن الأحوال، وعندما بلغ غبائي أقصاه، ألقى الأستاذ بهاير بكتاب القواعد على الأرض وخرج من الغرفة. شعرت بالخزي والعار الشديد، لكنّني لم ألُمه على الإطلاق، فجمعت أوراقي، لأهرع إلى الطابق العلويّ وأنا أهزّ رأسي بقوّة، لكنّه جاء ضاحكًا راضيًا كما لو قمتُ بعملٍ مجيد.

«الآن سنجرّب طريقة جديدة. سنقرأ سويًّا بعض القصص المسليّة الصغيرة، بدلًا من استعمال ذلك الكتاب الجافّ القابع في الزاوية، لأنّه يثير المتاعب لنا».

لقد تحدّث بلطفٍ بالغ، وفتح كتاب حكايات هانز أندرسون الخياليّة وطلب منّي أن أقرأ فيه. شعرت بالخجل

t.me/yasmeenbook

منه أكثر من أيّ وقتٍ مضى، فصرت أقرأ ورأسي منخفض ممّا سرّه كثيرًا وزاده غبطةً وانشراحًا. لقد نسيت خجلي، وأقبلت على القراءة بعزمٍ واهتمام، وبذلتُ جهدي في قراءة الكلمات الطويلة محاولةً لفظها بسرعةٍ وبطريقةٍ صحيحة. عندما انتهيت من قراءة صفحتي الأولى، توقّفتُ لالتقاط أنفاسي، فصفّق بيديه وصرخ من كلّ قلبه: «جيّدٌ جدًّا!، الآن نحن نسير في الطريق الصحيح!. سأقرأه أنا الآن باللّغة الألمانيّة، أنصتي إليّ جيّدًا.» أخذ يقرأ الكلمات بصوته القويّ الذي يمتّع الآذان. ولحسن الحظ، كانت القصة التي يقرأها هزليّة، لذا بإمكاني أن أضحك، وهذا ما حصل، رغم أنّني لم أفهم نصف ما قرأه، لكنّني لم أستطع منع نفسي عن الضحك. لقد كان يقرأ بجديّة، وكنتُ متحمّسةً للغاية، فكان الموقف برمّته هزليًّا.

بعد ذلك أصبحنا أفضل، والآن أقرأ دروسي بطريقةٍ جيّدة، وأخذت أتعلّم القواعد اللغوية من خلال الحكايات والشعر شأني في ذلك شأن المريض الذي يعطونه حبّات الدواء في الحلوى، وشعرتُ أنّ هذه الطريقة في الدراسة تناسبني، ولا يبدو أنّ الأستاذ سئم منها حتّى الآن، وهو كرمٌ منه. أنوي أن أعطيه هديّةً في عيد الميلاد، لأنّني لا أجرؤ على أن أهديه مالًا، فاقترحي عليّ هديّةً جميلةً يا أمّاه مارمي.

أنا سعيدةٌ لأنَ لوري يبدو سعيدًا ومشغولًا للغاية، ولأنّه توقّف عن التدخين وترك شعره ينمو. كنتُ أعلم أنّ بيث أقدرَ منّي على قيادته. أنا لست غيورةً يا عزيزتي، ابذلي قصارى جهدك، فقط لا تجعليه مهذبًا أكثر من اللازم، لأنّني أخشى أنّني لن أحبّه بدون بعض الشقاوة. اقرئي له أجزاءً من رسائلي، فليس لديّ وقتٌ للكتابة كثيرًا، لذا سيسرّ بمعرفة أخباري عن طريقك. الحمد للّه على تحسّن صحّتك وراحة بالك.

كانون الثاني

عائلتي العزيزة، والتي تضمّ بالطبع السيّد لورانس وشابًّا اسمه تيدي، أتمنّى لكم جميعًا عامًا جديدًا سعيدًا. لا أستطيع أن أخبركم كم استمتعت بالهدايا التي أرسلتموها، لأنّني لم أحصل عليها حتّى الليل بعدما كنتُ قد فقدت الأمل. وصلت رسالتكم في الصباح، لكنّكم لم تذكروا فيها موضوع الهدايا، ممّا يعني أنّها كانت مفاجأة، والحقيقة إنّ الحيلة انطلت عليّ وشعرت بخيبة أمل، لأنني ظننت أنّكم نسيتموني. جلست حزينةً في غرفتي بعد تناول الشاي، وعندما أُحضِرَت إليّ الحزمة الكبيرة الموحلة ذات المظهر المُتعثّر، قفزت وعانقتها. كان فيها عبير البيت المنعش، فجلست على الأرض أنظر فيها،

t.me/yasmeenbook

وآكل وأضحك وأبكي بطريقتي السخيفة المعتادة. كانت الهدايا مثلما أريد تمامًا وأفضل!، لأنّكم صنعتموها بدلًا من شرائها. راقت لي المحبرة الجميلة التي أرسلتها بيث، وسررتُ كثيرًا بصندوق الفطائر الذي أرسلته هانا. وسأرتدي القمصان اللطيفة التي أرسلتها يا مارمي، وأنا أقرأ بعنايةٍ الكتب التي أرسلها والدي. شكرًا لكم جميعًا على هذه الهدايا الرائعة!.

الحديث عن الكتب يذكّرني بأنّني أصبحتُ غنيّةً بها، ففي يوم رأس السنة الجديدة أعطاني السيّد بهاير كتبًا رائعةً من كتب شكسبير، وهو كتابٌ يقدّره كثيرًا، وكان قد أعجبني للغاية، فلقد كان بهاير يضعه في الصدارة مع كتبٍ أخرى مهمّةٍ بالنسبة إليه، كالإنجيل باللغة الألمانيّة، ومؤلّفات أفلاطون، وهوميروس، وميلتون. لذلك، تخيّلا كيف شعرت عندما أنزله، وأراني اسمي عليه مع إهداء: «من صديقك فريدريش باير».

وقال لي: «غالبًا ما تقولين إنّكِ ترغبين في الحصول على مكتبة. ها أنا أحمل لك واحدة، فبين دفتيّ هذا الغطاء ـ يقصد هذا الغلاف ـ الكثير من الكتب في كتابٍ واحد. اقرئيه جيدًّا وسيساعدك كثيرًا، لأنّ دراسة شخصيّات هذا الكتاب تساعدك على قراءتها في العالم ورسمها بقلمك».

شكرته بقدر ما استطعت، وأتحدّث الآن عن «مكتبتي»، وكأنّ لديّ مئة كتاب. لم أكن أعرف من قبل كم كانت جميلة كتابات شكسبير، فلم يكن بهاير موجوداً في حياتي ليفسّر لي كتاباته. لا تضحكا على اسمه الفظيع، فهو لا يُلفظ كما تعتقدان، فقط الألمان يعرفون كيفيّة نطقه بالطريقة الصحيحة. أنا سعيدةٌ لأنّكما أعجبتما بما أخبركما به عنه، وآمل أن تتعرّفا إليه يومًا ما. ستعجب أمّي بطيبة قلبه، وسيحبّ والدي تفكيره الحكيم. وأنا معجبةٌ بكليهما، وأشعر أنّني غنيّةٌ بمعرفة «صديقي الجديد فريدريش بهاير».

أحضرت عدّة هدايا صغيرة لأنّني لا أملك الكثير من المال، ولا أعرف ما الذي يحتاجه، ووضعت الهدايا في الغرفة حتّى يتفاجأ بها. كانت هدايا مفيدة، وجميلة، وطريفة: تمثالٌ صغيرٌ على طاولته، وآنيةٌ صغيرةٌ لزهوره، لأنّ طاولته لا تخلو من الأزهار ويقول أنّها تنعش الحجرة، وأهديته مقبضًا صنعته بالطريقة التي اخترعتها بيث، ليحمل به الأواني الساخنة حتّى لا يضطرّ إلى استعمال المناديل فيحرقها. سُرّ بهاير بالمقبض كثيرًا، ووضعه فوق رفّ المدخنة كحليةٍ ثمينة وأبى أن يستعمله للغرض الذي صنعته من أجله، لذلك باءت محاولتي في إنقاذ مناديله بالفشل. وعلى الرغم من فقر الأستاذ، إلّا أنّه لم ينس خادمًا

t.me/yasmeenbook

أو طفلًا في المنزل، ولم ينسهُ أيّ كائنٍ حيٍّ هنا؛ بدءًا من عاملة الغسيل الفرنسيّة إلى الآنسة نورتون، وكنت سعيدةً جدًّا بأنّ الجميع يقدّرونه.

أعدّوا حفلةً تنكريّة، وأمضوا وقتًا ممتعًا عشيّة رأس السنة الجديدة. لم أشأ المشاركة في الحفل لأنّني لا أملك لباسًا لائقًا، لكن في اللحظة الأخيرة، تذكّرت السيّدة كيرك تطريزًا قديمًا، وأعطتني الآنسة نورتون الدانتيل والريش. لذا ارتديت ملابس السيّدة مالابروب ونزلتُ مرتديةً قناعًا. لم يعرفني أحد، لأنّني أخفيت صوتي، ولم يحلم أحد بأنّ الآنسة مارش الصامتة والمتغطرسة يمكنها الرقص والمرح والغناء وارتداء الملابس الأنيقة، لأنّ السفهاء يعتقدون أنّني جديّة جدًّا وباردة الطباع. كانت أمسيةً ممتعةً للغاية، واستمتعتُ برؤيتهم يحدّقون في وجهي بعدما أزلنا الأقنعة. سمعت أحد الشباب يقول لشابٍّ آخر: أنّه كان يعلم أنّني كنت ممثلةٌ بارعة، وأنّه يعتقد في الواقع أنّه رآني في أحد المسارح الصغيرة، ستضحك ميج على هذا الحديث. كان السيّد بهاير متنكّرًا في زيّ شخصيّةٍ خياليّة، وتينا كانت في لباس جنيّةٍ صغيرةٍ بين ذراعيه، وعلى حدّ تعبير تيدي، كان منظرهما وهما يرقصان معًا «آيةٌ من آيات الجمال».

في الختام، قضيت عامًا جديدًا سعيدًا للغاية، وعندما

فكّرت في الأمر في غرفتي، شعرتُ كما لو أنّني أتقدّم قليلًا على الرغم من إخفاقاتي الكثيرة، لأنّني متفائلةٌ الآن طوال الوقت، وأعمل بإرادة، وأهتمّ بمن حولي أكثر من ذي قبل، وكلّ هذا يطمئنني.

دعواتي لكم جميعًا.

مُحبّتكم دائمًا

جو

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الحادي عشر

صديق

لا تزال جو تجد وقتًا لكتابة القصص، على الرغم من سعادتها الشديدة في الأجواء الاجتماعيّة التي حولها، وانشغالها الكبير بالعمل اليوميّ الذي يكسبها لقمة عيشها بعرق جبينها.

وكان الهدف الذي تسعى إليه الآن طبيعيًّا لفتاةٍ فقيرة وطموحة مثلها، لكنّها لم تحسن اختيار الوسيلة المناسبة لبلوغه. لقد رأت أنّ المال يمنح الناس القوّة والنفوذ، ولذلك قرّرت طلب المال بقوّته ونفوذه، لا لتنفقه على أغراضها الخاصّة، بل لتحقّق سعادة أحبّائها. كانت تحلم بأن تسود الراحة والطمأنينة المنزل، وأن تمنح بيث كلّ ما تريد، بدءًا من الفراولة في الشتاء، إلى الأرغن الذي تحلم به في غرفة نومها. أمّا لنفسها فلا تتمنّى سوى القدرة على السفر بمفردها، والحصول دائمًا على أكثر ممّا يكفيها، حتّى تستطيع المشاركة في الأعمال الخيريّة، كانت هذه

أماني جو التي راحت تبني عليها قصورًا شامخة في الهواء على مرّ السنين.

وكانت تجربة جائزة القصة تفتح لها طريقًا قد يقودها بعد الجدّ والكثير من العمل الشاقّ إلى القصر المنشود. لكنّ فشل الرواية أطفأت شجاعتها لبعض الوقت، لأنّ الرأي العام أخافها، فحتّى الرجال ترتعش أمام ذلك العملاق الجبّار. بعد المحاولة الأولى التي باءت بالفشل، أخذت جو قسطًا من الراحة كجنديٍّ مهزومٍ يرتاح بعد الحرب، لكن بفضل طموحها وروح المقاومة التي لديها، لم تستسلم، بل نهضت لتلملم بقايا فشلها وتستأنف المسير، وقد أوشكت أن تخلّف وراءها ما هو أثمن وأعظم من حقائب المال.

صارت جو تكتب قصصًا مثيرة، لأنّه في تلك العصور المظلمة كان الأمريكيّون يحبّذون قراءة القصص التافهة. لم تخبر أحدًا، لكنّها ألّفت قصة مثيرة، وذهبت بجرأةٍ إلى السيّد داشوود، محرّر مجلة: «البركان الأسبوعيّ». لم تكن ذات خبرةٍ بأخلاق الناس، لكنّها أدركت بغريزتها الأنثويّة بأنّ الملابس لها تأثيرٌ أقوى من الشخصيّة أو الأخلاق. لذا ارتدت أجمل ملابسها، وحاولت إقناع نفسها بأنّها ليست متحمّسة ولا متوتّرة، ثمّ صعدت بشجاعةٍ السلّم القذر والمظلم لتجد نفسها في غرفةٍ غير مرتّبة، تملؤها

t.me/yasmeenbook

سحابةٍ من دخان السيجار، وثلاثة رجالٍ يجلسون واضعين أرجلهم على الطاولات حتّى أصبحت كعوبهم أعلى من رؤوسهم، ولم يتكلّف أيّ منهم عناء إنزال رجليه احترامًا لها. بعد هذا الاستقبال غير الأخلاقيّ، تردّدت جو عند عتبة الباب، وقالت محرجةً ومرتبكة: «عذرًا، لكنّني أبحث عن مكتب جريدة «البركان الأسبوعيّ»، كنتُ أتمنّى رؤية السيّد داشوود».

عندئذٍ، هبطت أعلى قدمين عن الطاولة، ونهض أكثر الجالسين تدخينًا، وبعد أن وضع سيجارته بعنايةٍ من بين أصابعه، تقدّم نحوها يحييها بوجهٍ لا ينمّ عن شيءٍ سوى الرغبة في النوم. شعرت جو بضرورة الخوض في الموضوع مباشرة، فقدّمت قصّتها، وكان احمرار وجهها يزداد مع كلّ جملةٍ تخرج من فمها. قالت وقد نسيت معظم الخطبة التي كانت قد أعدّتها لهذه اللحظة: «طلبت منّي إحدى صديقاتي أن أقدّم لكم هذه القصة كتجربةٍ فقط. يسرّها أن تعرف رأيكم بها، ويسعدها أن تكتب المزيد من القصص إذا أعجبتكم».

وبينما كانت تزداد خجلًا، أخذ السيّد داشوود القصّة، وكان يُقلّب الأوراق بأصابعه المُتّسخة، ويتأمّل الصفحات من أعلى لأسفل بنظراتٍ فاحصة.

لاحظ أنّ الصفحات مرقّمة ومكتوبة على وجه واحد

فقط، وغير مربوطة بشريط مثلما يفعل المبتدئون، حينئذٍ قال لها: «أعتقد أنّها ليست المحاولة الأولى».

«كلّا يا سيّدي. لديها بعض الخبرة، وحصلت إحدى قصصها على جائزة في مجلّة بلارنيستون».

قال السيّد داشوود بعدما ألقى نظرة سريعة على جو من رأسها حتّى أخمص قدميها مدقّقًا فيما ترتديه: «حسنًا، يمكنكِ تركها إذا كنت ترغبين في ذلك. لدينا الكثير من هذا النوع من القصص، بل أكثر ممّا نحتاج إليه، لكنّني سألقي نظرةً عليها، وسأعطيكِ رأيي في الأسبوع المقبل».

لم ترغب جو في تركها مع شخصٍ مثل السيّد داشوود، لأنّه لم يعجبها على الإطلاق، ولكن في ظلّ هذه الظروف، لم يكن بيدها حيلة سوى أن تحيّيه وتذهب، ورفعت رأسها كعادتها عندما تنزعج أو تغضب، وكانت في تلك اللّحظة تشعر الشعورين معًا، لأن النظرات المتبادلة بين الرجال لم تكن تدلّ إلّا على استهزائهم بقصّتها، وزاد حرجها حين ودّعها رئيس التحرير بضحكةٍ ساخرة تلتها همهمة خافتة.

عادت إلى المنزل، وهي تفكّر بألّا تعود أبدًا إلى هذه المجلّة، وصارت تخيط الثقوب في محاولة لنسيان ما حدث، والتخفيف من مشاعر غضبها، وفي غضون ساعةٍ أو ساعتين أصبحت هادئةً بما يكفي للضحك على ما حدث، والتطلّع إلى الأسبوع المقبل.

t.me/yasmeenbook

عندما ذهبت للمرّة الثانية، شعرت بالسعادة لأنّ السيّد داشوود كان بمفرده. وكان متيقّظًا أكثر من المرّة الماضية ولم يكن مشغولًا بسيجارته، بل كان أكثر مراعاة لدواعي الأدب، لذلك كانت المقابلة الثانية أكثر راحةً من الأولى.

قال داشوود في لهجة رجال الأعمال: «سنأخذ هذا، إذا لم يكن لديكِ اعتراض على بعض التعديلات. النصّ طويلٌ جدًّا، ولذلك سأحذف بعض الفقرات التي أشارت إليها لجعله مناسبًا أكثر».

بالكاد عرفت جو نصّها. بعد أن كانت صفحاته مشوّهة، وفقراته مليئة بالعلامات والأرقام، فانتابها ما ينتاب الأمّ حين يُطلب منها قطع أطراف طفلها، حتّى يمكن أن يتناسب طوله مع طول المهد الجديد، نظرت إلى المقاطع التي ستُحذف وفوجئت أن تجدها الفقرات التي تضمّنت تأمّلاتها وأفكارها، والتي كتبتها بعنايةٍ للحفاظ على توازن القصّة.

«ولكن يا سيدي ينبغي أن يكون لكلّ قصّةٍ مغزى، لذلك حرصت على أن أجعل المذنبين يندمون ويتوبون».

لم يعد السيّد داشوود ملتزمًا بوقار رؤساء التحرير بعد أن نسيت جو أنّها كانت تتحدّث على لسان «صديقتها»، بل تحدّثت كالكتّاب تمامًا، فقال لها مبتسمًا: «يريد الناس الاستمتاع بالقصّة، لا أن يأخذوا المواعظ منها، وفي أيّامنا هذه لا تُباع القصص ذات العظات الأخلاقيّة».

لم يكن قوله صحيحًا تمامًا، فسألته: «هل تعتقد أنّ القصّة ستحقّق نجاحًا إن أجرينا هذه التعديلات؟».

كان ردّ السيد داشوود اللطيف: «نعم، إنّها حبكة جديدة، والصياغة جيّدة، واللغة حسنة وما إلى ذلك».

لم تعرف جو كيف تعبّر عن نفسها، فقالت وهي تتلعثم بالكلام: «وما الذي...؟، ما هي المكافأة؟».

ردّ داشوود بلهجةِ من نسي أمرًا تافهًا، وعادةً ما ينسى رؤساء التحرير الأمور التافهة: «حسنًا، نحن ندفع بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين دولارًا مقابل قصصٍ من هذا النوع، والدفع يتمّ بعد النشر».

كانت جو تتقاضى دولارًا واحدًا مقابل العمل، فسُرّت لمعرفة أنّها ستجني خمسة وعشرين دولارًا مقابل قصّتها، وقالت: «حسنًا، يمكنك أخذها».

ثمّ سألته ناسيةً زلّة لسانها ومتشجّعةً بنجاحها: «هل أقول لصديقتي إنّك ستأخذ قصّةً أخرى إذا كتبتْ شيئاً أفضل من هذا؟».

«حسنًا، سننظر فيها، ولكنّني لا أعدك بأنّني سآخذها. أخبريها أن تجعلها قصيرةً ومثيرة، وقولي لها ألّا تهتمّ بالمواعظ والحكم. وبأيّ اسمٍ تحبّ صديقتك أن تنشر قصّتها؟».

قالت جو وهي تحمرّ خجلًا رغمًا عنها: «بدون اسمٍ لو

t.me/yasmeenbook

سمحت، فهي لا ترغب في أن يُنشر اسمها، وليس لها أيّ اسمٍ مستعار».

سألها السيّد داشوود الذي كان: «حسنًا كما تشاء. سننشر الحكاية الأسبوع المقبل. هل ستزورينا لتأخذي المال، أم أرسله إليكِ؟».

قالت: «سآتي بنفسي، إلى اللّقاء سيّدي».

عندما غادرت، رفع السيّد داشوود قدميه وقال: «فقيرةٌ ومتكّبرة، لكنّها كاتبةٌ لا بأس بها».

غاصت جو في بحر الأدب المثير بعد العمل بتوجيهات السيّد داشوود، واتّخاذ السيدة نورثبوري مثالًا تحتذي به، ولكنّها استطاعت النجاة والعودة إلى شاطئ الأمان بفضل أحد أصدقائها.

كانت تلك الفتاة مثل معظم الكُتّاب الصغار، تختار شخصيّاتها وأمكنتها من خارج البلاد، وظهرت عصابات ولوردات وغجر وراهبات ودوقات على خشبة المسرح، وأدّوا أدوارهم بدقّةٍ وشغفٍ قدر إمكانهم. لم يكن قُرّاؤها مهتمّين بالأمور التافهة مثل القواعد وعلامات الترقيم والاحتمالات، وسمح لها السيّد داشوود بملء أعمدة جريدته بأقلّ الأسعار، مخفياً عنها أنّ السبب الحقيقيّ لكرم ضيافته، هو أنّ أحد أهمّ كُتّابه تركه عندما عرضت عليه جريدةٌ أخرى أجرًا أعلى.

سرعان ما أصبحت مُلمّةً بعملها، فامتلأت حقيبتها بالنقود، وازداد المال الذي كانت تخزّنه لبيث حتّى تستطيع الأخيرة السفر إلى الجبال في الصيف المقبل. لكنّ أمرًا واحدًا عكّر سعادتها، وهو أنّها لم تخبر عائلتها عن عملها الجديد، كانت تشعر بأنّ أهلها لا يوافقون على هذا العمل، لذلك فضّلت أن تبقي الأمر سرًّا في البداية، وبعدها تطلب المغفرة. كان الحفاظ على هذا السر سهلًا، إذ لم يُنشر اسمها في القصص، وعلى الرغم من أنّ السيّد داشوود قد اكتشف ذلك بسرعة، إلّا أنّه وعدها بعدم الافشاء، وكانت مندهشة من حفاظ الرجل على وعده.

اعتقدت جو أنّ هذا العمل لن يسبّب لها أيّة أضرار، لأنّها عزمت بإخلاصٍ ألّا تكتب ولو كلمةً تخجل منها، وكانت تسكّن كلّ وخز للضمير بتوقّع اللحظة السعيدة، اللحظة التي تكشف فيها أرباحها، وتزيح الستار عن سرّها المكتوم ضاحكة.

لكنّ السيّد داشوود رفض أيّ حكاياتٍ غير مثيرة، ولأنّ الإثارة لا يمكن إنتاجها إلاّ عن طريق ترويع القرّاء بالمشاهد المفجعة والمحزنة، كان لابدّ من التنقيب في التاريخ والخيال، والأرض والبحر، والعلم والفنّ، وسجلّات الشرطة ومستشفيات الأمراض العقليّة. وسرعان ما اكتشفت جو أنّ تجربتها البريئة لم تمكّنها

t.me/yasmeenbook

من رؤية سوى لمحاتٍ قليلة من العالم المأساويّ الذي يكمن وراء المجتمع، لذلك شرعت في سدّ هذا النقص بهمّةٍ فائقة. بحثت في الجرائد عن الحوادث والوقائع والجرائم لإيجاد مواضيع تكتب عنها في قصصها، عازمةً على إبرازها في الحبكة ببراعةٍ، إن لم تكن بإتقان. أثارت شكوك أمناء المكتبات العامّة وهي تطلب مؤلفاتٍ عن السموم. درست الوجوه في الشارع، وجميع الشخصيّات الطيّبة والسيّئة واللامبالية التي حولها. بالإضافة إلى ذلك، بحثت جو في غبار العصور عن حقائق أو قصصٍ تقدّمها إلى قرّائها، وأقحمت نفسها في دراسة الحماقات والخطيئة والبؤس، بقدر ما سمحت لها ظروفها.كانت تعتقد بأنها تتقدّم وتتطوّر، لكنّها بدأت في تدنيس بعض أكثر السمات أنوثةً في شخصيّة المرأة دون وعيٍ منها. كانت تعيش في عالمٍ سيّء، وعلى الرغم من أنّه كان عالمًا خياليًّا، إلّا أنّه أرخى ظلّه الثقيل عليها، لأنّها كانت تزرع في القلب والعقل أفكارًا وهميّةً خطيرة تمحو براءتها الجميلة، وتكشف لها عن مساوئ البشريّة التي تُعدّ الجانب المظلم من الحياة، والتي سرعان ما نكتشفها جميعًا.

وبدأت تشعر بهذا الجانب الأسود، لأنّ وصف عواطف الآخرين ومشاعرهم دفعها إلى دراسة عواطفها ومشاعرها الخاصّة والتعمّق بها، وهي تسلية رهيبةٌ لا تنغمس فيها

العقول الشابّة السليمة بإرادتها. فدائمًا ما يجلب الإثم عقابه الخاصّ، وحصلت جو على ذلك العقاب عندما كانت في أمسّ الحاجة إليه.

لا أعرف ما إذا كانت دراستها لشكسبير هي التي ساعدتها على قراءة الشخصيات، أو أنّ الفضل في ذلك يعود للغريزة الطبيعيّة للمرأة التي تدرك الصدق والشجاعة والقوّة، ولكن بينما كانت تمنح أبطالها الوهميّين كلّ الكمال تحت الشمس، كانت جو تكتشف البطل الواقعيّ الذي جذب اهتمامها على الرغم من العيوب البشريّة الكثيرة. نصحها السيّد بهاير في إحدى محادثاتهما، بدراسة شخصيّاتٍ بسيطة وحقيقيّة ولطيفةٍ أينما وجدتها، كتدريبٍ جيّدٍ للكاتب. عملت جو بنصيحته فاستدارت بهدوءٍ ودرسته، وكان من شأن هذا أن يفاجئه كثيرًا لو عرف به، لأنّ الأستاذ الجدير كان متواضعًا بشدّة حتّى في غروره!.

وما حيّرها في البداية هو سرّ حبّ الناس له، فلم يكن غنيًّا ولا ذا شأن، ولم يكن شابًّا ولا وسيمًا، ولا يُعتبَر بأيّ حالٍ من الأحوال فاتنًا أو مهيبًا أو رائعًا، ومع ذلك كان يجذب القلوب، فترى الناس يتجمّعون حوله، ويأنسون بصحبته. كان فقيرًا، ومع ذلك كان يعطي دائمًا شيئًا ما، وعلى الرغم من كونه أجنبيًّا، إلّا أنّه كان صديق الجميع. كان كهلًا لكنّه يمرح ويضحك مثل طفلٍ صغير، وقد كان

t.me/yasmeenbook

جميلًا في عيون الناس الذين كانوا يغضّون النظر عن غرابته، لحبّهم له. كانت جو تراقبه كثيرًا محاولةً اكتشاف السر في جعله محبوبًا، وفي النهاية قرّرت أنّ روح الخير في نفسه هي التي صنعت هذا السحر. كان يكتم آلامه وأحزانه ويلقى الناس بوجهٍ بشوش. ولم تمنع التجاعيد على جبهته حقيقةَ أنّ الوقت قد رفق به لعطفه على الآخرين وحسن معاملته لهم. وانحفرت التغضّنات الصغيرة حول فمه كذكرى الكلمات اللّطيفة والضحكات الصادقة، بينما امتلك عينين بريئتين، ويداً كبيرة كانت قبضتها القويّة أشدّ تعبيرًا من الكلمات نفسها.

حتّى ملابسه كانت وكأنّها تعكس شخصيّته الطيّبة. بدت مرتاحة وتحب راحته: كانت صدريّته الواسعة تدلّ على القلب الكبير القابع تحتها، وكان معطفه العتيق ينمّ عن طابعه الاجتماعيّ، وأثبتت الجيوب الفضفاضة بوضوح أنّ الأيدي الصغيرة كانت غالبًا ما تدخل خاوية وتخرج ممتلئة، أمّا حذاؤه فكان نظيفًا لامعًا، ولم تكن بنيقته صلبةً وخشنة مثل بنيقات الآخرين.

اكتشفت جو مطوّلًا أنّ النيّة الطيّبة والصادقة تجاه الناس يمكن أن تزيد من جمال ومكانة صاحبها، حتّى لو كان مدرّسًا ألمانيًّا يلتهم طعامه بشراهةٍ ويرتّق جواربه بنفسه، ويحمل اسم: بهاير.

كانت تقدّر فاعلي الخير كثيرًا، وفي الوقت نفسه كانت أيضًا تكنّ احترامًا كبيرًا للمثقّفين والأذكياء، ولهذا، ازداد احترامها للأستاذ الذي لم يتحدّث عن نفسه قط، ولم يعرف أحدٌ أنّه كان في بلده الأصليّ كان يحظى باحترامٍ وتقديرٍ كبير لعلمه ونزاهته، وظلّت هذه الحقائق عنه مجهولةً حتّى جاء أحد أبناء بلده لزيارته. وفي محادثةٍ مع الآنسة نورتون كشف ذلك الرجل الحقيقة المثيرة عن الأستاذ بهاير. الآنسة نورتون هي التي أخبرت جو، ما أثار إعجاب الأخيرة به وتضاعف احترامها له لأنّ السيّد بهاير لم يذكر لها ذلك أبدًا. شعرت بالفخر عندما علمت أنّه كان أستاذًا محترمًا في برلين، على الرغم من أنّه أستاذ لغةٍ فقيرٍ في أمريكا، وأحسّت بعد هذا الاكتشاف بأنّ حياته المليئة بالعمل الشاقّ هي حياةٌ جميلة. كما أنها علمت بطريقةٍ غير متوقّعة أنّ لصديقها موهبةً أخرى غير الذكاء، فقد كانت الآنسة نورتون على صلةٍ بمعظم أوساط المجتمع الذين لم يكن لدى جو فرصة لرؤيتهم لولاها، فقد عطفت على جو الطموحة، وقدّمت الكثير من الخدمات لكلٍّ من جو والأستاذ ومنها أنّها اصطحبتهما معها في إحدى الليالي إلى ندوةٍ أدبيّةٍ مختارة أقيمت على شرف بعض المشاهير.

ذهبت جو عازمةً على الانحناء لأولئك العظماء الذين لطالما عشقتهم بحماس الشباب وشغفهم، لكنّ تبجيلها

t.me/yasmeenbook

للعبقريّة تلقّى صدمةً شديدةً في تلك الليلة، واستغرق الأمر بعض الوقت للتعافي من صدمة اكتشاف أنّ أولئك العظماء كانوا في النهاية مجرّد بشرٍ مثلها. تخيّلوا استياءها حين استرقت نظرة إعجابٍ خجولةٍ إلى الشاعر الذي سحرتها أبياته، وجعلتها تتخيّل أنّه مخلوقٌ أثيريّ يتغذّى على «الروح والنار والندى» على حدّ قوله في أشعاره، لتراه يلتهمُ عشاءه بنهمٍ أزال عن وجهه ملامح الرجل الذكيّ المثقّف.

وحين صرفت النظر عن الشاعر الذي كانت تعتبره قدوةً لها، اصطدمت بمشاهد أخرى سرعان ما بدّدت أوهامها وخيالاتها. كان الروائي العظيم يتردّد بانتظام بين قنينتين من الشراب مثل بندول الساعة، وكان يغازل علناً كاتبةً معروفة، كانت تنظر إلى أخرى تسخر منها بعد أن تفوّقت عليها في سرقة قلب الفيلسوف، الذي كان يشرب الشاي وهو شبه نائم. أمّا مشاهير العلم، فلقد تناسوا الرخويّات والفترات الجليديّة، وراحوا يثرثرون عن الفنّ، بينما يتناولون بشغفٍ المحار والمثلّجات. والموسيقار الشابّ الذي كان يسحر المدينة بموسيقاه، كان يتحدّث عن الخيول. ولم يكن بين الحاضرين أحدٌ يتصرّف كمخلوقٍ بشريٍّ عاديّ سوى رجلٍ بريطانيٍّ نبيلٍ جاء للمشاركة في الندوة.

قبل انتهاء السهرة، شعرت جو بخيبة أملٍ كبيرة،

فجلست في الزاوية تجمع شتات نفسها، وسرعان ما انضمّ إليها السيّد بهاير الذي لم يبدُ مستمتعًا. وفي ذلك الوقت، جاء بعض الفلاسفة للجلوس إلى ندوةٍ أدبيّةٍ وأخذوا يتناقشون في أمورٍ لم تستطع جو فهمها، لكنّها استمتعت بها، رغم أنّ أحاديثهم عن الذاتيّة والموضوعيّة سبّبت لها صداعًا شديدًا بعد انتهاء الجلسة. اتّضح لها تدريجيًّا أنّ العالم قد قُسّم إلى أجزاء، وتمّ تجميعه على أسسٍ جديدة، وعلى مبادئ أفضل بكثيرٍ من ذي قبل وفقًا لما قاله المتحدّثون الذين يؤمنون أيضًا بوجوب سيطرة العقل دون الدين. لم تكن جو تعرف شيئًا عن الفلسفة أو الروحانيّات، شعرت بفضولٍ نصف ممتعٍ ونصف مؤلمٍ في آنٍ واحد، وهي تستمع إليهم وكأنّها تائهةٌ بين الزمان والمكان، عالقةٌ بين السماء والأرض كريشةٍ في مهبّ الريح.

نظرت حولها لترى ردّة فعل الأستاذ، فوجدته ينظر إليها بكآبةٍ لم ترَها على وجهه قط. هزّ رأسه وطلب منها المغادرة، لكنّها كانت منبهرةً في ذلك الوقت بحرّيّة الفلسفة التأمليّة، فتشبّثت بمقعدها محاولةً معرفة ما كان السّادة الحكماء يعتزمون الاعتماد عليه بعد أن أبادوا كلّ المعتقدات القديمة.

في ذلك الوقت، كان السيّد بهاير خجولًا وتباطأ في تقديم آرائه وأفكاره الخاصّة، لا لأنّها لم تكن منظّمة

t.me/yasmeenbook

ومنسجمة، بل لأنّها كانت مخلصةً وصادقةً بحيث لا يمكن التحدّث عنها أمام أناسٍ قد لا يقدّرونها. وبينما كان يبعد عينيه عن جو لينظر إلى الشباب الآخرين الذين جذبتهم أساليب الفلسفة البرّاقة، عقد ما بين حاجبيه وتاق إلى الكلام، خوفًا من أن يتأثّر الشباب بالأساليب الفلسفيّة، فيضلّون الطريق الصحيح ويخرجون من تلك الجلسة بنفوسٍ خاوية وقلوبٍ متأذيّة.

كتم ما في قلبه وتحمّل قدر استطاعته، ولكن عندما طلبوا منه إبداء رأيه، انفجر بالكلام بسخطٍ وحماسٍ نابعٍ من أعماق قلبه، وكأنّه يخرج كلّ ما كتمه سابقًا ودافع عن الدين بكلّ بلاغة الحقّ، بلاغة حوّلت لغته الإنجليزيّة الضعيفة إلى موسيقا يأنس بها السامعون، وجعلت وجهه البسيط جميلًا. خاض معركة شرسة، لأنّ الحكماء جادلوه بمهارة، لكنّه لم يعرف معنى الاستسلام، ولم يرضَ بالهزيمة، فنهض كالأبطال وأكمل المعركة. أثناء حديثه، شعرت جو وبطريقةٍ ما بأنّ العالم قد عاد إلى المسار الصحيح، وأنّ المعتقدات القديمة التي صمدت طويلًا بدت أفضل من الجديدة. لم يكن الله قوّةً عمياء كما يزعمون، ولم يكن الخلود خرافةً جميلة، بل حقيقةٌ لا بدّ من تصديقها. وشعرت جو أنّ الأرض تثبت تحت قدميها، وأنّها استعادت توازنها، وعندما توقّف السيّد

بهاير الذي كان قد تفوّق على الجميع وفاز بالنقاش رغم عدم اقتناع أحدٍ منهم، أرادت أن تصفّق له وتشكره، لكنّها لم تفعل شيئاً، غير أنّها أصبحت تكنّ للأستاذ احترامًا كبيرًا، لأنّها كانت تعلم أنّ ذلك الموقف كلّفه مجهودًا، فهو لم يشأ التكلّم، لكنّ ضميره لم يسمح له أن يبقى صامتًا.

بدأت جو تدرك أنّ أثمن ما يملكه المرء ليس المال أو المرتبة أو الفكر أو الجمال، بل الشخصيّة، وأنّه إذا كانت العظمة هي «الصدق، والاحترام، والنيّة الحسنة» كما وصفها أحد الحكماء، فإنّ صديقها فريدريش بهاير لم يكن شخصًا جيّدًا فحسب، بل كان عظيمًا.

كان إيمانها بهذا يزداد يومًا بعد يوم، فكانت تقدّر ميّزاته حقّ التقدير، وتفخر باحترامه، وأرادت أن تكون جديرةً بصداقته، وعندما بلغت هذه الرغبة أقصاها، أوشكت جو على فقدان كلّ شيء، ففي إحدى الأمسيات، جاء الأستاذ ليعطيها درسًا وهو يرتدي قبّعة جنديٍّ ورقيّة على رأسه كانت تينا قد وضعتها ونسي خلعها.

فكّرت جو بابتسامة: «من الواضح أنّه لم ينظر في مرآته قبل أن ينزل».

قال لها: «مساء الخير».

جلست بهدوءٍ غير مدركةٍ تمامًا التناقض المضحك بين

t.me/yasmeenbook

موضوع الدرس وقبّعته، حيث أنّه كان سيقرأ لها: «موت والينشتاين».

لم تعلّق على القبّعة في البداية، لأنّها كانت تحبّ أن تسمعه يضحك من قلبه على المواقف المضحكة، لذلك تركته ليكتشف الأمر بنفسه، واندمجت في قصيدة شيلر حتّى إنّها نسيت موضوع القبّعة. وبعدما انتهت القصيدة، جاء وقت الدرس الذي كان مفعمًا بالحيويّة، لأنّ جو كانت مبتهجةً وسعيدةً في تلك الليلة، وكانت تنظر إلى القبّعة بمرح وكأنّ عينيها ترقصان فرحًا. لم يعلم الأستاذ كيف يتصرّف معها وهي في هذه الحالة، فتوقّف أخيرًا وسألها بدهشة: «آنسة مارش، لماذا تضحكين من أستاذك؟. أتستمرّين في هذا لأنّكِ لا تحترمينني؟».

ردّت جو: «كيف لي أن أحترمك يا سيّدي وقد نسيت أن تخلع قبّعتك؟»

رفع الأستاذ يده إلى رأسه، وتحسّس القبّعة الصغيرة ثمّ خلعها ونظر إليها للحظةٍ وضحك عاليًا من أعماق قلبه.

«جعلتني العفريتة تينا أبدو كالأحمق بقبّعتي. حسنًا، هذه ليست مشكلةً كبيرة، لكنّكِ سترتدينها إذا لم تدرسي بجدّ اليوم».

لكنّ الدرس لم يُستأنف مرّةً ثانية لأنّ السيّد بهاير رأى صورةً مطويّةً على القبّعة ففتحها وقال باشمئزازٍ شديد:

«أتمنّى لو لم تُحضر هذه الأوراق إلى المنزل. يجب على الأطفال عدم رؤيتها، وعلى الشباب عدم قراءتها. إنّ إحضارها إلى هنا خطأٌ كبير، ولا أستطيع تحمّل من يتسبّبون بهذا الضرر».

نظرت جو إلى الورقة، ورأت رسمًا عن مجنونٍ وجثّةٍ وشرّيرٍ وأفعى. لم تعجبها، لكنّ السبب الذي جعلها تقلبها لم يكن الاستياء بل الخوف، لأنّها تخيّلت لوهلةٍ أنّ الورقة كانت من إحدى صفحات جريدة: «البركان الأسبوعيّ» التي تنشر فيها قصصها، لكن من حسن الحظ أنها كانت من جريدةٍ أخرى، وانحسر ذعرها عندما تذكّرت أنّه حتى لو كانت إحدى حكاياتها في الصحيفة، فاسمها لن يكون مكتوبًا لينكشف سرّها. لكنّ جو فضحت نفسها حين احمرّ وجهها، وبدت علامات القلق في عينيها، وعلى الرغم من شرود ذهن الأستاذ الكثير، إلّا أنّه كان يعرف من الأمور أكثر ممّا يتخيّله الناس. كان يعلم أنّ جو تكتب للصحف، ولقد قابلها بين مكاتب الجرائد أكثر من مرّة، لكنّها لم تتحدّث عن ذلك مطلقًا، ولم يطرح عليها أيّة أسئلة على الرغم من رغبته القويّة في رؤية عملها. وانزعج بهاير لأنّه خطر له الآن أنّها كانت تفعل ما تخجل منه. لم يقل لنفسه مثلما يقول بعض الناس: «هذا ليس من شأني، ليس لدي الحقّ في أن أتكلّم.» بل تذكّر فقط أنّها كانت صغيرةً

t.me/yasmeenbook

وفقيرة، وأنّها فتاةٌ بعيدةٌ كلّ البعد عن حبّ الأم ورعاية الأب، وقد تحرّك لمساعدتها، كما يندفع المرء لمدّ يده لإنقاذ طفلٍ غريبٍ من الغرق.

وجالت كلّ هذه الأفكار في عقله في لحظةٍ واحدة، ولم يظهر لها أيّ أثرٍ على وجهه، وبحلول الوقت الذي قُلبت فيه الورقة، وعادت جو إلى إبرتها تُطرّز من جديد، قال لها بهدوءٍ ولكن بجديّة: «نعم أنتِ محقّةٌ في إبعاد هذه الأوراق عنك. لا أعتقد أنّه يجب على الفتيات الصغيرات رؤية مثل هذه الأمور. إنّها ممتعةٌ للبعض، لكنّني أفضّل أن أعطي أولادي البارود للّعب به على أن أعطيهم مثل هذه الأشياء».

قالت جو وهي تطرّز بسرعة: «قد لا يكون كلّ المكتوب سيئًا لكنّه سخيف، وما دام الجمهور يطلبه فلا أرى أيّ ضرر في كتابته. يكسب الكثير من الناس المحترمين عيشًا شريفًا من كتابة ما تسمّى القصص المثيرة».

«يطلب الناس الويسكي، لكنّني أعتقد أنكِ وأنا لا نهتمّ ببيعه، ولو يعرف الأشخاص المحترمون الضرر الذي تسبّبوا فيه، فلن يشعروا أنّ عيشهم شريفٌ، بالإضافة إلى أنّه ليس لديهم الحقّ في وضع السمّ في السكر، والمساهمة في جعل الصغار يأكلونه. يجب أن يفكّروا قليلًا في النتائج قبل أن يتصرّفوا في أمورٍ خطيرةٍ مثل هذه».

كان السيد بهاير يتكلّم بحرارة، وتوجّه نحو النار المشتعلة في الموقد حاملًا بيده الصحيفة بعد أن كوّرها ليرميها ويحرقها. جلست جو ثابتة، وبدت وكأنّ النار قد وصلت إليها، فقد احمرّ خدّاها حتّى شعرت أنّ النيران تأكلهما، وتحوّلت القبعة إلى دخان تسرّب من المدخنة بسلام.

تمتم الأستاذ وهو عائد من جانب الموقد مرتاح النفس: «أودّ إحراق كلّ الجرائد الضارّة كما أحرقت هذه».

فكّرت جو في الحرائق التي ستحدثها كومة أوراقها الموضوعة في الطابق العلويّ، وغدت أموالها التي كسبتها بشقّ الأنفس كالعبء على ضميرها في تلك اللحظة. ثمّ قالت مواسيةً نفسها: «قصصي ليست مثل تلك القصّة، فرغم أنّها سخيفة، إلّا أنّها ليست مؤذيةً أبدًا، لذلك لن أقلق حيال هذا الأمر».

أمسكت كتابها وقالت بوجهٍ تعلوه الرغبة في الدرس: «هل نواصل يا سيّدي؟. سأكون تلميذةً جيّدة ومحترمة الآن».

لم يقل سوى أنّه يأمل ذلك، لكن كانت لكلماته معانٍ أكثر ممّا تصوّرت جو، ونظر إليها نظرةً تنمّ عن الجدّيّة جعلتها تشعر كما لو أنّ «البركان الأسبوعيّ» كُتِبت على جبينها بخطٍّ كبيرٍ وعريض.

t.me/yasmeenbook

فور ذهابها إلى غرفتها، أخرجت أوراقها، وأعادت قراءة كلّ قصّةٍ من قصصها بعناية. كان السيّد بهاير يستخدم أحيانًا نظاراتٍ لعينيه بسبب ضعف بصره، وقد جرّبتها جو مرّةً واحدة، وابتسمت حين رأت كيف تكبّر الحروف الدقيقة المكتوبة في كتابها. وبدت الآن وكأنّها استعارت نظارات الأستاذ العقليّة والخلقيّة، لأنّ أخطاء هذه القصص الحزينة تجسّمت لها بفظاعة وأثارت رعبها.

قالت جو لنفسها: «إنّها قصصٌ سيّئة، وسرعان ما ستصبح أسوأ إذا استمررتُ في كتابتها، لأنّ كلّ قصّةٍ منها أكثر تعاسة من السابقة. لقد عملت دون تفكير، وألحقت الأذى بنفسي وبالآخرين من أجل المال. لا أستطيع قراءة هذه القصص دون أن أشعر بالخجل الشديد من مضمونها، وماذا أفعل إذا ما قرأها من في المنزل أو السيّد بهاير؟!».

مجرّد التفكير في الأمر جعلها تتصبّب عرقًا وتحمرّ قلقًا، فوضعت الحزمة بأكملها في الموقد، ممّا أدّى إلى استعار النار في المدخنة.

قالت وهي تشاهد النيران تأكل قصصها: «نعم، هذا هو أفضل مكانٍ لهذا الهراء. وأعتقد أنّني أفضّل إحراق المنزل بأكمله على أن أكون سببًا في تفجير الآخرين بقصصي الملغومة».

جلست جو على الأرض، وكانت هادئة ومتّزنة بعدما

لم يتبقّ من عملها الذي استغرق ثلاثة أشهر سوى كومةٍ من الرماد في المدفأة، والمال في حجرها، وراحت تتساءل عمّا ستفعل بشأن العيش الذي كسبته من كتابة هذه القصص.

قالت، بعد تأمّلٍ طويل: «أعتقد أنّني لم ألحق الكثير من الضرر بعد، وربّما احتفظ بهذه النقود لأستعين بها على الزمن. أتمنّى لو لم يكن لديّ ضمير، فهو لا يشعرني بالراحة. كنت سأنجح في حياتي لو لم أكن أهتمّ بفعل ما هو صحيح وأتجنّب ارتكاب الخطأ. أتمنّى في بعض الأحيان لو لم يكن لديّ والدان متشدّدان في تربيتي على أن أكون فتاةً ذات أخلاقٍ حميدة».

لكنّها ندمت على التفكير بتلك الطريقة، وشكرت اللّٰه على أنّها تملك أبًا وأمًّا، وشعرت بالشفقة من كلّ قلبها على أولئك الذين ليس لديهم أهلٌ يرشدونهم ويوجّهونهم، ويحسنون تنشئتهم على مبادئ قد تبدو مثل جدران السجن للشباب، ولكنّها تتحوّل لاحقًا إلى أقوى الأسس في بناء الشخصيّة الكاملة.

لم تكتب جو المزيدَ من القصص المثيرة، واقتنعت بأنّ الأجر الذي تتقاضاه لا يفي الجهد الذي بذلته، فانتقلت من النقيض إلى النقيض، شأن مثيلاتها من الفتيات الطيّبات، فصارت تدرس مؤلّفات الكاتبات العظيمات، ثمّ أنتجت

t.me/yasmeenbook

قصّةً ربّما كان من الأنسب تسميتها مقالة أو عظة، لأنّها حوت الفضائل الأخلاقيّة.

كانت جو منذ البداية تشكّ في إمكانيّة نجاحها، لأنّ خيالها الأنثويّ عجز عن التأقلم مع الأسلوب الجديد. أرسلت قصّتها إلى عدّة جهات، لكنّها لم تجد من يشتريها، وبدأت تشعر بأنّها توافق السيّد داشوود بقوله إنّ الجمهور لا يهتّم بالمواعظ الخلقيّة ولا يُقبل على شرائها.

ثمّ جرّبت كتابة قصصٍ للأطفال، كان من السهل بيعها لو لم تكن جشعةً وتطلب أجرًا كبيرًا مقابلها. كان الشخص الوحيد الذي عرض ما يكفي لجعلها تعتقد أن القصّة تستحقّ المحاولة رجلًا نبيلًا شعر أنّ مهمّته هي تبشير الناس بمعتقده الخاصّ. ولكن بقدر ما كانت تحبّ الكتابة للأطفال، لم تستطع الموافقة على تصوير الدببة تأكل جميع أولادها المشاغبين، أو الثيران الهائجة توقِعهم لأنّهم تخلّفوا عن المدرسة يومًا في الأسبوع، ولم تقبل بمكافأة جميع الأطفال الطيّبين بخبز الزنجبيل. لذلك لم تتوصّل إلى أيّةِ نتيجةٍ من هذه التجارب، فأغلقت محبرتها، وقالت مستسلمة:

«لا أعرف ما الذي سأفعله الآن، لكنّني سأحاول مرّةً ثانية بعد أن أقرّر، وإلى أن يحين ذلك الوقت، أفضّل كنس الطرقات، فعلى الأقلّ تلك مهنةٌ شريفة».

وبينما كانت هذه الثورات الداخليّة في عقلها، كانت جو مشغولةً وهادئةً كالمعتاد في حياتها الخارجيّة، وإن بدت أحيانًا قلقةً أو حزينةً نوعًا ما، لم يلاحظ أحدٌ ذلك سوى الأستاذ بهاير. كان يراقبها بهدوءٍ لدرجة أنّها لم تلحظ أبدًا أنّه كان يراقبها ليرى ما إذا كانت ستبدي ردّة فعل لاستنكاره القصص المثيرة، لكنّها صمدت أمام الاختبار، وكان الأستاذ راضيًا على الرغم من أنّه لم يجرِ أيّة محادثاتٍ معها، لأنّه علم أنّها توقّفت عن الكتابة.

لم يخمّن ذلك من مجرّد ملاحظة أنّ الإصبع الثاني من يدها اليمنى لم يعد مغطى بالحبر، بل لأنّها أصبحت تمضي أمسياتها في الطابق السفليّ، ولم تعد تتردّد إلى مكاتب الجرائد، وصارت تدرس بصبر، ممّا أكّد له أنّها كانت عازمةً على إشغال عقلها بما هو مفيد حتّى لو لم يكن ممتعًا.

ساعدها بطرقٍ كثيرة، وأثبت أنّه صديقٌ مخلص. كانت جو سعيدة، فبينما قرّرت التخلّي عن قلمها، كانت تتعلّم دروسًا أخرى غير اللغة الألمانيّة، وتضع أساسًا لقصّة حياتها الخاصّة.

كان شتاءً لطيفًا وطويلًا، لأنّها لم تترك السيّدة كيرك حتّى شهر حزيران، وعندما حان وقت رحيلها، شعر الجميع بالحزن لفراقها، فلم يتمكّن أحدٌ من مواساة

t.me/yasmeenbook

الطفلتين اللتين تعلّقتا بها، وانتصب شعر السيّد بهاير فوق رأسه، فلقد كان من عادته أن يجعّده عندما يشعر بالقلق.

استقبلت جو الأستاذ وأخبرته بأنها أمسيتها الأخيرة هنا، فقال لها بحزن: «ستعودين إلى المنزل إذًا. أنتِ سعيدةٌ لأنّ لديك منزلًا تذهبين إليه».

كانت ستذهب في الصباح الباكر، ولذا ودّعتهم جميعًا في الليل، وعندما جاء دوره، قالت بحرارة: «لا تنسَ القدوم لرؤيتنا يا سيّدي في يوم من الأيام. لن أسامحك أبدًا إذا جئت إلى مدينتي ولم تزر منزلنا، أريدهم أن يتعرّفوا إليك جميعًا».

سألها بشغفٍ لم تلاحظه: «هل حقًّا تريدينهم أن يقابلوني؟ هل يجب عليّ المجيء؟»

«نعم، تعال الشهر المقبل، لأنّ لوري سوف يتخرّج حينئذٍ، وستستمتع في حفل التخرّج».

تغيّرت نبرته حين سألها: «هل تتكلّمين عن صديقك المفضّل؟»

«نعم أتحدّث عن فتاي تيدي. أنا فخورةٌ به جدًّا وأودّ أن تقابله».

رفعت جو رأسها حينها، غير مدركةٍ تمامًا لأيّ شيءٍ سوى سعادتها في احتمال لقاء الأستاذ بعائلتها، لكنّها

عندما نظرت إلى وجه السيّد بهاير، وتذكّرت فجأةً حقيقة أنّها قد تجد لوري أكثر من مجرّد «صديقها المفضّل»، ولم تستطع السيطرة على وجهها الذي بدأ يحمرّ، لأنّها ببساطةٍ كانت تتمنّى ألّا تبدو وكأنّها تخفي سرًّا ما، وكلّما حاولت السيطرة على قلقها، زاد وجهها احمرارًا. لم تكن لتعرف ماذا سيحدث لها لو لم تكن تينا على ركبتها، فلحسن الحظ، تحرّكت الطفلة لعناقها، وتمكّنت من إخفاء وجهها للحظة، على أمل ألّا يراه الأستاذ. لكنّه رآه، فتلاشت آيات القلق عن وجهه، وقال بحرارة: «أخشى أنّ وقتي لن يسمح لي بحضور الحفل، لكنّني أتمنّى لصديقك كلّ التوفيق، ولكم جميعًا السعادة!».

أنهى الأستاذ كلامه وصافح جو بحرارة، ثمّ حمل تينا على كتفيه وذهب بعيدًا.

ولكن بعد أن خلد الأولاد إلى النوم، جلس أمام النار لوقتٍ طويل وعلامات التعب بارزةٌ على وجهه، والحنين إلى الوطن ثقيلٌ في قلبه. تذكّر جو بوجهها الناعم عندما كانت تجلس والطفلة في حضنها، أحنى رأسه على يديه للحظة، ثمّ طاف في الغرفة كما لو كان يبحث عن شيءٍ لا يستطيع إيجاده.

قال لنفسه بحسرة: «إنّها ليست لي، ولا ينبغي أن أتعلّق الآن بالأمل».

t.me/yasmeenbook

ذهب بعد ذلك ليقبّل الطفلين النائمين كما لو كان يوبّخ نفسه على الشوق الذي لم يستطع كبته، وأمسك بغليونه الذي نادرًا ما يستخدمه، ففتح كتاب أفلاطون وجلس يدخّن بصمت.

لقد تصرّف بشجاعةٍ وبذل قصارى جهده، لكنّني لا أعتقد أنّ الطفلينِ السعيدين، أو الغليون، أو حتّى أفلاطون، يعوّضون زوجةً وطفلًا ومنزلًا أرادهم بشدّة.

أتى إلى المحطة في صباح اليوم التالي لتوديع جو على الرغم من أنّها كانت سترحل في وقتٍ باكر، وبفضله حظيت بذكرى ممتعة لوجهٍ مألوفٍ يبتسم مودّعًا، وبباقةٍ من أزهار البنفسج أهداها إيّاها لتؤنسها في وحشتها، وأفضل ما في الأمر الفكرة السعيدة التي جابت في خاطرها.

قالت لنفسها: «حسنًا، لقد مضى الشتاء ولم أكتب أيّ كتاب، ولم أكسب أيّة ثروة، لكنّني اكتسبتُ صديقًا يستحقّ أن أحافظ عليه، وسأحرص على أن تدوم صداقتنا طوال حياتي».

t.me/yasmeenbook

الفصل الثاني عشر

وجعٌ في قلب

درس لوري لهدفٍ ما في ذلك العام، ومهما كان دافعه، فقد تخرّج في الكليّة بامتياز، وألقى خطاب نجاحه باللّغة اللاتينيّة، وقال أصدقاؤه إنّه تكلّم برشاقة فيليبس وبلاغة ديموستينيس. كانوا جميعًا هناك، فلقد حضر جدّه الذي كان فخورًا جدًّا بحفيده، والسيّد مارش وزوجته، وجون وميج وجو وبيث، ابتهجوا جميعهم بنجاحه وكانوا ينظرون إليه بفرحٍ صادقٍ نابعٍ من قلوبهم قد لا يقدّره الأولاد في ذلك الوقت حقّ التقدير، لأنّهم لا يدركون أنّ الفرحة بالنجاح فرحةٌ لا مثيل لها، ولن يأتي ما يشبهها ولو بعد مرور السنين.

قال لوري وهو يودّع الأخوات بعد انتهاء الحفل: «سأبقى اللّيلة هنا لتناول العشاء، لكّنني سأعود إلى المنزل في الصباح الباكر. هل ستأتين لزيارتي كالمعتاد يا فتيات؟».

وجّه الكلام إلى جميّعهن لكنّه كان يقصد جو، لأنّها كانت الوحيدة التي حافظت على العهد القديم، ولم تكن ترفض أيّ طلبٍ لفتاها الرائع الناجح، فأجابت بحرارة: «سآتي يا تيدي، سواء أمطرت السماء أم أشرقت الشمس، وسأمشي أمامك وأعزف على القيثارة أغنية: «لقد جاء البطل... أهلًا بالظافر العظيم».

شكرها لوري ونظر إليها نظرةً أوحت لها بأنّه يريد قول أمرًا ما، فذعرت فجأةً وقالت لنفسها: «يا إلهي!، أعلم أنّه سيتكلّم، كيف سأتصرّف حينها؟».

خفّفت تأمّلات المساء والعمل الصباحيّ مخاوفها إلى حدٍّ ما، واتّخذت قرارًا بأنّها لن تغترّ وتخال بأنّ لوري سيطلب يدها بعدما أظهرت له من خلال تصرّفاتها أنّها سترفضه، فانطلقت لمقابلته في الوقت المحدّد، على أمل ألاّ يفاتحها بالموضوع فتضطرّ إلى إيذاء مشاعره. مرّت في طريقها إلى بيت ميج لزيارتها، وللاستمتاع بمداعبة الصغيرين ديزي وديميجون علّهما ينسيانها قلقها، ويقوّيان عزيمتها على مواجهة خطر مقابلة لوري، ولكن عندما رأته قادمًا من بعيد بجسده القويّ وقامته الطويلة شعرت برغبةٍ قويّةٍ بأنها تريد الهروب إلى البيت.

صاح لوري بمجرّد اقترابه منها: «أين القيثارة يا جو؟».

t.me/yasmeenbook

استعادت جو هدوءها مرّةً أخرى عندما شعرت بأنّ تلك التحيّة لا تنمّ عن الحبّ والغرام، فقالت: «لقد نسيتها».

اعتادت دائمًا أن تتأبّط ذراعه في هذه المناسبات، لكنّها في ذلك اليوم كسرت تلك العادة، ولم يعترض لوري أو يحتجّ على ذلك، وهذا لا يبشّر بالخير. راح يتحدّث بسرعةٍ على غير عادته عن مواضيع متباينة، وعندما عرّجا من الطريق الرئيسيّ إلى الممرّ الضيّق المؤدّي إلى البيت عبر البستان، صار لوري يسير ببطءٍ أكثر، وفقد فجأة فصاحة كلامه وصار يتلعثم ويتوقّف عن الكلام للحظاتٍ ثمّ يكمل حديثه، ما جعل جو تشعر بقلقه. أرادت إنقاذ المحادثة من الصمت المتكرّر فقالت: «ستحظى الآن بإجازةٍ طويلةٍ ممتعة!».

«نعم أنوي ذلك».

لم تشعر جو بالارتياح بعد سماع نبرته الحازمة، فنظرت سريعًا إلى الأعلى لتجده ينظر إليها نظرة أكّدت لها أنّ وقت اللحظة المرعبة قد حان، فمدّت يدها تتوسّل إليه وتقول: «لا يا تيدي، أرجوك لا تتكلّم!».

أجاب لوري بانفعالٍ وقد احمرّ وجهه خجلًا: «بل سأتكلّم، وعليكِ أن تسمعيني. لا فائدة من التهرّب يا جو، علينا أن نناقش هذه المسألة، وكلّما أسرعنا كان ذلك أفضل لكلينا».

قالت جو بصبر: «قل ما تشاء فكلّي آذانٌ مصغية».

كان لوري عاشقًا صغيرًا، لكنّه كان جادًّا. وكان ينوي أن يصارحها بحبّه وكان مستعدًّا للتضحية بحياته في سبيل ذلك، لذا دخل في صلب الموضوع بتهوّرٍ مميّز. وبالرغم من الجهود التي بذلها للحفاظ على ثباته، إلّا أنّ صوته كان يخونه بين الحين والآخر. قال: «لقد أحببتك منذ أن عرفتك يا جو، ليس بيدي حيلة، لقد كنتِ مناسبةً جدًّا لي. حاولت إظهار مشاعري لكِ، لكنّك لم تسمحي لي بالتعبير عمّا في قلبي. الآن أودّ منكِ أن تصغي إليّ، وتعطيني إجابة، لأنّني لا أستطيع تحمّل هذا العذاب بعد الآن».

شعرت جو أنّ الموقف أصعب بكثيرٍ ممّا توقّعت وقالت: «أردت أن أنقذك من هذا العذاب يا لوري. اعتقدت أنّك ستفهم...».

قال لوري مدافعًا عن نفسه بحقيقةٍ لا يمكن نكرانها: «أعلم أنّكِ حاولت، لكنّ الفتيات محيّراتٌ لدرجة أنّ المرء لا يعرف أبدًا ما يقصدن. يقلن لا وهنّ يقصدن نعم، ويخرجن الرجال عن صوابهم لمجرّد الاستمتاع بمثل هذا الموقف».

«أنا لست مثلهنّ، ولم أرغب أبدًا في جعلك تقع في حبّي إلى هذا الحدّ، وسافرت لفترةٍ طويلة لأجنّبك هذا الحبّ ما أمكن».

t.me/yasmeenbook

«لقد توقّعت ذلك، فهذه تصرّفاتك، لكنّك لم تحقّقي غايتك، فبُعدكِ لم يزدني إلّا حبًّا، وعملت بجدٍّ لإرضائك، وحفّزني البعد على بذل جهودٍ أكثر من أجلك، وتخلّيت عن لعب البلياردو وعن كلّ عاداتي التي تكرهينها، وانتظرت ولم أشتكِ أبدًا، لأنّني كنت آمل أن تحبّيني على الرّغم من أنّني لست جيّدًا بما فيه الكفاية، ولا أستحقّ أن أنال فتاةً مثلك.» اختنقت الكلمات في حلقه، فتنحنح بشدّة ليعيد إلى صوته صفاءه العاديّ فقالت جو:

«أنت أفضل منّي، أنت جيّدٌ جدًّا بالنسبة لي، وأنا ممتنّةٌ جدًّا لوجودك في حياتي، وفخورةٌ جدًّا ومتعلّقةٌ بك بشدّة، لا أعرف لماذا لا أستطيع أن أحبّك كما تتمنّى رغم أنّني حاولت، لكنّنا لا نستطيع التحكّم بمشاعرنا، وسأكون كاذبةً إن قلت إنّني أحبّك».

توقّف برهةً مذهولًا، ثمّ أمسك يديها وهو ينظر إليها نظرة لم تستطع أن تنساها إلّا بعد وقتٍ طويل، وقال: «أحقًّا تعنين ما قلتِه يا جو؟».

أجابت: «حقًّا يا عزيزي».

كانا قد وصلا وقتئذٍ إلى الحديقة بالقرب من المنزل، وعندما سقطت الكلمات الأخيرة على مضض من شفتيّ جو، أفلت لوري يديها واستدار كمن يهمّ بالرحيل، ولكن لأوّل مرّةٍ في حياته أحسّ أنّه لن يستطيع اجتياز سور

الحديقة، لذلك ألقى رأسه على العمود المطحلب، ووقف ساكنًا حتّى إنّه أثار خوفها عليه.

صاحت بنبرةٍ تنمّ عن الندم والألم وهي تربّت على كتفه: «أنا آسفةٌ يا تيدي، أعتذر منك بشدّة، يمكنني أن أقتل نفسي لأجعلك ترضى!، أتمنّى ألّا تأخذ الأمر بهذه الحدّة، الأمر ليس بيدي، فكما يقول المثل: «القلب وما يهوى» الناس لا يستطيعون التحكّم بعواطفهم».

صاح لوري من جانب العمود بصوتٍ مبحوح: «بل يستطيعون أحيانًا أن يجبروا أنفسهم على حبّ من يحبّونهم».

جاء جواب جو حاسمًا حيث قالت: «لا أعتقد أنّ هذا النوع من الحبّ أصيل، وأفضّل عدم تجربته».

سكت الاثنان طويلًا، وساد الهدوء على الحديقة التي لم يُسمع في أرجائها سوى صوت طائر الشحرور الذي كان يغنّي على أغصان شجرة الصفصاف، بجانب النهر. ثمّ عصفت الرياح، وحرّكت العشب الطويل، وعندئذٍ قالت جو في رزانةٍ شديدة وهي تجلس على عارضةٍ خشبيّة: «أودّ إخبارك أمرًا يا لوري».

نهض كما لو أصيب برصاصة، ورفع رأسه وصرخ بشراسة: «لا تتكلّمي يا جو، لا يمكنني تحمّل الأثر الذي ستتركه كلماتك في قلبي!».

t.me/yasmeenbook

ذهلت جو لشراسته فسألته: «ماذا تظنّ أنّني سأخبرك؟».

«تودّين إخباري بأنّكِ تحبّين ذلك الرجل العجوز».

سألته جو معتقدةً أنّه يقصد جدّه: «أيّ رجلٍ عجوز؟».

شدّ على يديه وعيناه تلمعان وقال بنبرةٍ تنمّ عن جديّة حديثه: «ذلك الأستاذ الخبيث الذي كنتِ تكتبين عنه دائمًا. إذا قلتِ إنّكِ تحبّينه، فاعلمي أنّ يأسي سيقودني لارتكاب عملٍ شنيع.»

أرادت جو أن تضحك، لكنّها ضبطت نفسها وقالت بحرارة بعدما انفعلت مثله: «لا تقسم يا تيدي!، إنّه ليس كبيرًا في السن، وليس سيّئ الطبع، بل رجلٌ طيّبٌ ولطيف، وأعتبره أفضل صديقٍ لي بعدك. اهدأ ولا تنخدع بالأفكار السيّئة. أنا فتاةٌ لطيفة، لكنّني سأغضب إذا أسأت إلى أستاذي، وهذا لا يعني أنّني أفكّر في حبّه أو حبّ أيّ رجلٍ آخر».

«لكنّكِ ستحبّين رجلًا بعد فترة، ماذا سيحدث لي عندها؟».

«ستحبّ فتاةً أخرى أنت أيضًا، وستنسيك كلّ متاعبك وهمومك، شأنك في هذا شأن كلّ شابٍّ عاقل».

قال وهو يضرب الأرض بقدمه مؤكّدًا على كلماته المفعمة بالحبّ والعاطفة: «لا أستطيع أن أحبّ غيركِ، ولن أنساكِ أبدًا يا جو، أبدًا... أبدًا!».

لم تتوقّع جو أنّ المشاعر تسيطر على المرء إلى هذا الحدّ، فتنهّدت وقالت تحدّث نفسها: «كيف أتصرّف معه؟». ثمّ نظرت إليه وقالت محاولةً تهدئته بإعطائه سببًا أثبت أنّها لا تفقه شيئًا في الحبّ: «لم تسمع ما أردتُ إخبارك به. اجلس وأصغِ إليّ، لأنّني أريد اتّخاذ القرار الصحيح لأجعلك سعيدًا».

بعث قولها بارقة أملٍ في قلب لوري، فألقى بنفسه على العشب تحت قدميها، ووضع ذراعه على العارضة الخشبيّة، ونظر إليها نظرة أمل. لم يكن لوري في حالةٍ تسمح لجو بالهدوء، فكيف يمكنها أن تقول كلماتٍ جارحةً لفتاها وهو ينظر إليها بعينين يملؤهما الحبّ والشوق، ولا تزال أهدابه مبلّلةً بدموع المرارة لقسوتها عليه. أدارت رأسه بلطف بعيدًا عنها، ثم قالت وهي تربّت على شعره المموّج الذي تركه طويلًا من أجلها: «أتّفق مع أمّي في أنّنا غير مناسبَين لبعضنا بعضاً، لأنّنا سنقع في الكثير من المتاعب بسبب سرعة انفعالنا وإرادتنا القويّة، إذا كنّا حمقى لدرجة...».

لم تستطع جو إنهاء جملتها، لكنّ لوري كان جريئًا بما يكفي لقول ما لم تتجرّأ جو على قوله، فقال بحماسٍ وشغف: «لدرجة أن نتزوّج. كلّا، لن نعاني إذا تزوّجنا يا جو!، سأكون فتًى مثاليًّا إن أحببتني، فأنتِ الوحيدة التي تستطيع أن تديرني وتتحكّم بي كما تشاء».

t.me/yasmeenbook

«كلاّ، لا أستطيع. لقد حاولت وفشلت، ولن أخاطر بسعادتنا بمثل هذه التجربة الجادّة. نحن لا نتّفق الآن ولن نتّفق في المستقبل أبدًا، سنبقى صديقين حميمين طوال حياتنا، ولن نخسر صداقتنا بالتهوّر والزواج».

تمتم لوري في عناد: «بل سوف نتّفق، ونسعد إن سنحت لنا الفرصة».

بذلت جو آخر حيلها وقالت: «فكّر بمنطقيّةٍ يا لوري، وخذ الأمور بحكمة».

قال: «لا أريد التفكير لا بمنطقيّة ولا بحكمة، فلا فائدة من ذلك، بل إنّ هذه الطريقة ستعقّد الأمر أكثر. لم أكن أتوقّع أنّكِ فتاةٌ بلا قلبٍ يا جو».

ردّت جو بصوتٍ مرتعش: «أتمنّى لو كنتُ حقًّا كما تقول».

واعتقد لوري أنّ ارتعاش صوت جو فأل خير، فاستدار وقد جمع كلّ ما يملك من قوّة الإقناع، وقال بلهجة إغراءٍ لم تعهده جو قط: «لا تخيّبي أملنا يا عزيزتي!. الكلّ يتوقّع زواجنا وجدّي واثقٌ من قبولك بي، وعائلتك ترغب بحدوث هذا الزواج. لا أستطيع العيش بدونك يا جو. قولي نعم، ودعينا نصبح سعداء ونعيش بهناء. أرجوك قولي نعم يا جو!».

لم تفهم جو إلّا بعد شهور كيف امتلكت الشجاعة للتمسّك بالقرار الذي اتّخذته عندما حكمت أنّها لا تحبّ لوري، ولن تحبّه أبدًا. اتّخذت القرار على الرغم من صعوبته، وهي تعلم أنّ التأخير كان قاسيًا ولا جدوى منه.

قالت بجدّية: «لا أستطيع أن أقول نعم، لأنّني لا أقولها إلّا بصدق. وسترى أنّني اتّخذت القرار الصحيح، وستشكرني يومًا ما».

قفز لوري واقفًا فوق العشب، ثم قال وقد اشتعل غضبًا لمجرّد التفكير بما سمعه: «لن أشكركِ إلى أن أموت!».

قالت جو بإصرار: «بل ستشكرني!، وسوف تتجاوز الأمر بعد فترة، وتجد فتاةً جميلةً وذكيّة، ستعشقك بالمقابل، وستكون ربّة بيتٍ مذهلة لمنزلك الرائع، أمّا أنا فلن أصبح مثلها لأنّني بسيطةٌ وبلهاء وغريبة وكبيرةٌ في السنّ، وستشعر بالخجل منّي، وبالتأكيد سوف نتشاجر!. انظر إلينا كيف نتشاجر الآن!، هذا بالإضافة إلى أنّني لا أحبّ المجتمعات الراقية التي تحبّها أنت، وستكره كتاباتي التي لا أستطيع العيش بدونها. لن نكون سعيدين، وسنندم على زواجنا، وستكون حياتنا مروّعة!».

سألها لوري بعد أن طُعن قلبه بسكاكين تنبّؤاتها: «هل تودّين قول المزيد؟».

«نعم، أعتقد أنّني لن أتزوّج أبدًا، هذا الخبر هو ختام

t.me/yasmeenbook

تنبّؤاتي. أنا سعيدةٌ بحياتي، وأحبّ حريّتي لدرجة أنّني لست مستعدّةً للتخلّي عنها من أجل أيّ مخلوقٍ بشريّ أيًّا كان».

قطع لوري حديثها قائلًا: «أنا أعرف أكثر منكِ!، هذا ما تظنّينه، ولكن سيأتي اليوم الذي ستهتمّين فيه بشخصٍ ما، وستحبّينه كثيرًا، وستعيشين وتموتين من أجله. أنا واثقٌ من كلامي، هذه طريقتك في الحياة، ولن يكون بيدي سوى أن أقف جانبًا وأشاهدك تعيشين حياتكِ بدوني».

ألقى العاشق البائس قبّعته على الأرض بطريقةٍ كانت ستبدو مضحكة، لو لم يكن وجهه حزينًا.

صرخت جو بعد أن نفد صبرها من تيدي المسكين: «نعم، سأعيش وأموت من أجل رجلٍ إذا جاء يومًا وأقنعني بحبه، وعليك أن تحاول قدر المستطاع لتكون هذا الرجل!. انظر إليّ!، لقد بذلت قصارى جهدي، لكنّك لست رجلًا عادلًا يا تيدي، إنّك أنانيٌّ لأنّك تستفزّني لمنحك ما لا يمكنني تقديمه. سأظلّ دائمًا متعلّقةً بك. صدّقني أنا متعلّقةٌ بك جدًّا كصديقٍ يا تيدي، لكنّني لن أتزوّجك أبدًا، وكلّما أسرعت في الخضوع للأمر الواقع كان ذلك أفضل لكلينا!».

جاء كلامها كبارودٍ أشعل فؤاد لوري الذي نظر إليها لدقيقةٍ تائهًا وفي حيرةٍ من أمره، ثمّ استدار عنها منصرفًا وهو يقول بنبرة اليأس: «ستندمين يومًا ما يا جو».

صرخت بعد أن ذعرت لرؤيته بتلك الهيئة: «إلى أين أنت ذاهب؟».

فقال: «إلى الشيطان!».

توقّف قلب جو للحظةٍ عندما رأت لوري يقفز من الضفة نحو النهر، لكنّ انتحار شابٍّ بتلك الطريقة يتطلّب الكثير من الحماقة أو الخطيئة أو البؤس، ولم يكن لوري من الشباب الضعفاء الذين يستسلمون للحياة بعد أول خسارةٍ يتلقّاها، لكنّ غريزته المتهوّرة قادته إلى رمي القبّعة والرداء في قاربه، والتجديف بكلّ قوّته، حتّى إنّ القارب أسرع كما لم يسرع به في أيّ سباقٍ من قبل. أخذت جو نفسًا طويلًا وأرخت يديها وهي تراقب الرجل المسكين وهو يحاول تجاوز المتاعب التي يحملها في قلبه.

سارت بهدوء متوجّهةً إلى المنزل، وهي تشعر بأنّها قتلت شخصًا بريئًا ودفنته في الحديقة. قالت محدّثةً نفسها: «سيكون التجديف خيرًا له، وسيعود إلى المنزل هادئًا نادمًا على ما حدث، لدرجة أنّه لن يُريني وجهه لأيّام. والآن عليّ أن أذهب وأطلب من السيّد أن يعامل فتاي المسكين بلطف. ليته يحبّ بيث، ربّما يقع في غرامها في الوقت المناسب، لقد اكتشفت الآن أنّني كنت مخطئةً بشأنها. يا إلهي!، كيف تتمنّى الفتيات أن يكون لهنّ عشّاقٌ وعندما تمنحهنّ الحياة عشّاقًا يرفضنهم؟. يا له من أمرٍ مروّع!».

t.me/yasmeenbook

توجّهت مباشرةً إلى السيّد لورانس، وروت له بشجاعة القصّة القاسية لأنّها كانت متأكّدةً من أنّ أحداً لا يستطيع أن يقصّ عليه ما جرى مثلها، لكنّها انهارت وهي تبكي بشدّة لرفضها لوري دون رحمة. وأمام هذا المشهد صمت الرجل العجوز اللطيف ولم يعاتبها، على الرغم من خيبة أمله الكبيرة. وجد السيّد لورانس صعوبةً في فهم إمكانيّة أيّ فتاة تجنّب الوقوع في حبّ لوري، وتمنّى أن تغيّر رأيها، لكنه كان يعرف أكثر من جو أنّ الحبّ لا يمكن فرضه، لذا هزّ رأسه بحزنٍ وقرّر إبعاد ولده عن طريقٍ سيسبّب له الأذى، لأنّ كلمات الوداع التي وجّهها لوري لجو أقلقتها بشدّة.

عاد لوري إلى المنزل متعبًا ولكنّه كان هادئًا، وعند وصوله استقبله جدّه كما لو أنّه لا يعرف ما جرى، ونجح بالتظاهر بجهله الموضوع لمدّة ساعةٍ أو ساعتين، لكن عندما جلسا معًا في الوقت الذي اعتادا الاستمتاع به كثيرًا، أي وقت غروب الشمس، كان صعبًا على الرجل العجوز أن يتحدّث كالمعتاد، ووجد الشابّ صعوبةً أكبر في الاستماع إلى جدّه وهو يمدح نجاحه العام الماضي ويثني على الجهود التي بذلها، فقد بدا له الآن أنّ نجاحه ذهب هباءً. كبت مشاعره قدر استطاعته، ثمّ توجّه نحو البيانو الخاصّ به وبدأ يعزف. كانت النوافذ مفتوحة، وكانت

جو تسير في الحديقة مع بيث، وللمرّة الأولى تفهم جو الموسيقا أكثر من أختها، وعلمت أنّ لوري يعزف «سوناتا الحزينة»، وعزفها بمهارةٍ واحترافيّةٍ كما لم يفعل من قبل.

كان قلب السيّد لورانس مُفعمًا بالتعاطف، وكان يتوق لإظهار عطفه لكنّه لم يعرف كيف فقال: «هذا عزفٌ رائع، لكنّه حزينٌ لدرجة أنّه قد يدفع السامع إلى البكاء. اعزف لنا مقطوعةً أكثر مرحًا يا فتى».

بدأ لوري بعزفِ لحنٍ جديد، وعزف بحيويّة لمدّة دقائق، وكان سينهي اللحن لو لم يسمع صوت السيّدة مارش أثناء سكتةٍ قصيرةٍ خلال اللحن وهي تقول: «جو، عزيزتي، تعالي إليّ أريدك».

كانت تلك الجملة هي تمامًا ما يتوق لوري لقوله، لكن بمعنى مختلف!. وبينما كان يستمع، فقد تركيزه، فتوقّف عن العزف، وجلس صامتًا في الظلام.

تمتم الرجل العجوز: «لا أستطيع تحمّل رؤيته في هذه الحالة».

نهض وتوجّه نحو البيانو، ووضع يديه على كتف لوري، وقال برفقِ الأمّ وحنانها: «إنّي أعرف يا ولدي... أعرف».

بقي بلوري صامتًا للحظةٍ ثمّ قال: «ومن أخبرك؟».

t.me/yasmeenbook

أجاب العجوز: «أخبرتني جو نفسها».

قال: «هذه هي النهاية إذًا!».

وأزاح يدي جدّه بعد أن نفد صبره، فعلى الرغم من امتنانه لتعاطفه، إلّا أنّ كبرياءه لا يمكن أن يحتمل شفقة الرجل.

ردّ السيّد لورانس برقّةٍ على غير عادته: «كلّا لم ينتهِ الأمر بعد. أريد أن أقول شيئًا واحدًا، وستكون هذه الخاتمة. أعتقد أنّك لم تعد تهتمّ بالبقاء في المنزل، أليس ما أقوله صحيحًا؟».

قاطعه لوري بتحدٍّ: «لا أنوي الهروب من فتاة. لا يمكن لجو أن تمنعني من رؤيتها. سوف أبقى هنا وسأستمرّ في رؤيتها كما يحلو لي».

«لن يحدث ذلك إن كنتَ رجلًا نبيلًا كما ظننت. أشعر بخيبة أملٍ مثلك يا لوري، لكنّ الفتاة لا تستطيع أن تبادلك المشاعر نفسها، والحلّ الوحيد المتبقّي لك هو الذهاب بعيدًا. إلى أين ستذهب؟».

نهض لوري وهو يضحك باستهتارٍ تأذّى له جدّه وقال: «إلى أيّ مكان، فلا يهمّني ما سيحدث لي».

قال الجدّ: «أرجوك تصرّف كرجل، ولا تتسرّع. لم لا تسافر إلى الخارج كما خطّطتَ في السابق، وتنسى ما حصل؟».

«لا أستطيع».

«لكنّك كنت متشوّقًا للذهاب، وقد وعدتُك بالسفر عندما تتخرّج في الكليّة».

مشى لوري بسرعةٍ في الغرفة ذهابًا وإيابًا بنظرةٍ فريدةٍ لم يرها جدّه لحسنِ حظّه وقال: «لكنّني لم أقصد الذهاب وحدي!».

«أنا لا أطلب منك أن تذهب بمفردك، أعرف شخصًا مستعدًّا للذهاب معك إلى أيّ وجهةٍ في العالم».

توقّف لوري يصغي وسأله: «من هو هذا الشخص يا سيّدي؟».

«أنا».

عاد بسرعةٍ إلى جدّه وقال بصوتٍ أجشّ: «كم أنا أحمقٌ وأنانيّ!، ولكن كما تعلم يا جدّي..».

قال السيّد لورانس ممسكًا بلوري، وكأنّه يخشى أن يفارقه كما فعل والده من قبل: «أعنّي يا اللّٰه. نعم أعلم، لأنّني مررت من قبل بما تمرّ به أنت الآن، مرّةً في أيّام شبابي، ثمّ مرّةً أخرى مع والدك. الآن يا بنيّ العزيز، ما عليك سوى أن تجلس بهدوء وتستمع إلى خطّتي. إنّها خطّةٌ مُحكمة وبإمكاننا أن نشرع في تنفيذها فورًا».

جلس لوري وقال: «حسنا يا سيّدي، أنا أسمعك».

t.me/yasmeenbook

ولم تبدُ في عينيه أو صوته أيّة علامة على اهتمامه بالخطّة.

أجاب الرجل العجوز: «لي أعمالٌ في لندن تحتاج إلى من يشرف عليها، وقد نويتُ أن أوكل هذه المهمّة إليك، لكنّني أجدر منك بها، وستتحسّن الأمور هنا بإدارة بروك. شركائي يتعهّدون بكلّ شيءٍ تقريبًا، وأنا الآن أنتظرك لتستلم منصبي، ويمكنني عندئذٍ أن أتقاعد وأرتاح».

كان لوري ممتنًّا لهذا العرض، لكنّه كان يفضّل في حال سفره، أن يسافر بمفرده، فقال: «لكنّك تكره السفر يا سيّدي. لا يمكنني أن أطلب منك السفر وأنت في هذا العمر».

كان الرجل العجوز يدرك ذلك جيّدًا، وكان يرغب تجنّب الحديث عنه بشكلٍ خاصّ، لأنّ حالة حفيده النفسيّة أكّدت له أنّه لن يكون من الحكمة السماح له بالسفر بمفرده. لذلك، رغم أسفه على وسائل الراحة المنزليّة التي سيتركها وراءه، قال بشجاعة: «حفظك اللّه يا بنيّ. أنا لم أتقاعد بعد، وتعجبني فكرة السفر معك. ستفيدني هذه الرحلة، وستتحمّل عظامي القديمة السفر، لأنّه في الوقت الحاضر أصبح الجلوس على كرسيّ أسهل».

تململ لوري في كرسيّه كأنّه لم يكن مرتاحًا فيه، أو أنّ الخطّة لم تعجبه، فأضاف الرجل العجوز على عجل:

«لا أقصد أن أكون عبئًا، بل أريد مرافقتك لأنّني أعتقد أنّك ستشعر بالسعادة أكثر ممّا لو كنت تركتني وحيدًا هنا. لا أنوي أن أتنقّل معك، سأترك لك حريّة الذهاب حيثما تريد، بينما أستمتع أنا بطريقتي الخاصّة. لديّ أصدقاء في لندن وباريس، وأرغب في زيارتهم. يمكنك الذهاب في ذلك الوقت إلى إيطاليا وألمانيا وسويسرا، حيث ستستمتع بالصور والموسيقا والمناظر الطبيعيّة والمغامرات التي تأسر قلبك».

كان لوري في ذلك الوقت محطّم القلب، وأحسّ أنّ العالم ضاق به وأصبح مجرّد بريّةٍ مقفرة ضاقت عليه، ولكن عندما سمع الكلمات التي صاغها الرجل العجوز ببراعةٍ في جملته الختاميّة، قفز القلب المحطّم، وظهرت واحةٌ خضراء فجأة في تلك البريّة المقفرة. تنهّد لوري ثمّ قال بنبرةٍ محبطة: «كما تحبّ يا سيّدي. لا يهمّ أين أذهب أو ماذا أفعل».

«لكنّ هذا يهمّني، تذكّر ذلك يا فتى. أنا أعطيك الحرّيّة الكاملة، وأنا أثق بأنّك سوف تحسن استغلالها. عدني بذلك يا لوري».

«كما يحلو لك يا سيّدي».

قال الرجل العجوز في نفسه: «حسنًا، أنت لا تهتمّ الآن، ولكن سيأتي وقتٌ سيبقيك فيه هذا الوعد بعيدًا عن الأذى».

t.me/yasmeenbook

كان السيّد لورانس رجلًا قويًا ونشيطًا يعرف كيف يطرق الحديد وهو ساخن، ولذلك نفّذ خطّته قبل أن يتمرّد لوري ويغيّر رأيه. خلال الوقت اللازم للتحضير، تحامل لوري على نفسه كما يفعل الشابّ عادةً في مثل هذه الحالات. كان متقلّب المزاج، وسريع الانفعال. وصار يسرح بأفكاره وفقد شهيته، وأهمل لباسه، وخصّص الكثير من الوقت للعزف على البيانو، وتجنّب جو، لكنّه كان يواسي نفسه بالتحديق بها من نافذته بوجهٍ مأساويٍّ، كان يطاردها في أحلامها ليلًا ويضطهدها بشعورٍ شديدٍ بالذنب نهارًا. وكان لوري على عكس بعض المعذّبين، لا يتحدّث أبدًا عن حبّه الضائع، ولم يسمح لأيّ شخصٍ، ولا حتّى السيّدة مارش، بمحاولة مواساته أو التعاطف معه. كان سلوكه مصدر ارتياحٍ لأصدقائه، لكنّ الأسابيع التي سبقت رحيله، مضت مفعمةً بالقلق والتوتّر. كانوا جميعًا يقولون إنّ الزميل المسكين العزيز سيسافر لينسى متاعبه، ويعود إلى المنزل سعيدًا. ابتسم لأوهامهم، لكنّه استطاع الحفاظ على رباطة جأشه وعدم الردّ على أقوالهم، في تعالي من يدرك أنّ إخلاصه مثل حبّه، لا يتغيّر.

عندما حان موعد سفره، افتعل لوري بعض المرح، لإخفاء عواطفه التي بدأت تفرض نفسها وتظهر أمام الحاضرين. لم تنطلِ حيلته على أيّ شخص، لكنّهم

تظاهروا بتصديقه إرضاءً له. وسارت لحظة الوداع على ما يرام، حتّى إنّ السيّدة مارش قبّلته وهمست في أذنه كلامًا مفعمًا بحنان الأمّ، ثمّ شعر أنّه كان يسير بسرعةٍ كبيرة، فاحتضنهم جميعًا على عجل، حتّى هانا، وركض في الطابق السفليّ كما لو كان يريد أن ينجو بحياته. تبعته جو بعد دقيقةٍ لتلوّح له بيدها إذا ما نظر إليها. وبالفعل، نظر لوري نحوها ووضع ذراعيه حولها وهي تقف على الدرجة التي تعلوه، ثمّ نظر إلى عينيها وقال باستعطافٍ مؤثر: «ألا تستطيعين يا جو؟».

«تيدي...عزيزي... أتمنّى لو أستطيع!».

كان هذا كلّ ما قالته، فسكت لوري للحظةٍ ثمّ اعتدل في وقفته وقال: «لا بأس، لا تقلقي».

ذهب دون إضافة أيّة كلمةٍ أخرى، لكّنه لم يكن محقًّا عندما قال لا بأس، ولم تستطع جو منع نفسها من الاكتراث، فعندما أسند رأسه إلى ذراعها بعد دقيقةٍ من إجابتها القاسية، شعرت كما لو أنّها طعنت صديقها العزيز، وعندما تركها دون أن يلتفت وراءه، علمت أنّ فتاها لوري لن يعود أبدًا.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثالث عشر

سرّ بيث

عندما عادت جو إلى المنزل في ذلك الربيع، صُدمت بتغيّر حال بيث. لم يذكر أحدٌ هذا التغيير في الرسائل التي كانوا يرسلونها لها، ولا يبدو أنّهم على علمٍ به. فقد تغيّرت بيث تدريجيًّا حتّى إنّ الذين يعيشون معها لم يلحظوا الأمر، ولكنّ كان واضحًا جدًّا لعينيّ جو التي جاءت بعد غيابٍ طويل، فضاق صدرها وهي ترى وجه أختها بهذه الحال. لم يكن وجه بيث أكثر شحوبًا فقط، ولكنّه أنحف ممّا كان عليه في الخريف الماضي أيضًا، كما لو أنّ نفسها الفانية قد شفّت، وتسامَى معها نور روحها فوق جسدها النحيل بجمالٍ مثيرٍ للشفقة بشكلٍ لا يوصف!. رأت جو ذلك النور وشعرت به، لكنّها لم تتكلّم عنه في ذلك الوقت، وسرعان ما فقد الانطباع الأوّل الذي أخذته جو عن بيث تأثيره، لأنّ أختها بدت سعيدة، ولاحظ الجميع أنّ حالتها تحسّنت.

انشغلت جو في أعمالها وهمومها، فنسيت مخاوفها، ولكن عندما ذهب لوري، وساد السلام في المنزل مرّةً أخرى، عاد قلقها على بيث وطاردتها الأفكار السيّئة. اعترفت بخطاياها وغُفِر لها، ولكن عندما أظهرت مدّخراتها واقترحت على بيث الذهاب في رحلةٍ جبليّة، شكرتها الصغيرة من كلّ قلبها، لكنّها أبت الابتعاد عن المنزل، فرأت جو أنّ زيارةً صغيرةً أخرى إلى الشاطئ ستناسب أختها أكثر، وبما أنّ السيّدة مارش لا يمكنها الذهاب وترك حفيديها، أخذت جو بيث إلى مكانٍ هادئ، حيث يمكنها أن تستمتع في الهواء الطلق، وأن تسمح لنسائم البحر المنعشة بإضفاء لونٍ على خدّيها الشاحبَين.

وعلى الرغم من أنّ المصيف كان متواضعًا ومليئًا بالناس اللطفاء، إلّا أنّ الفتاتين كسبتا القليل من الأصدقاء، وفضّلتا إمضاء الوقت سويًّا دون الاقتراب من روّاده المرحين. كانت بيث خجولةً جدًا، لذا كانت لا تحبّذ المجتمعات، وكرّست جو نفسها للاعتناء ببيث ولم تكترث لأحدٍ سواها. بقيت الفتاتان سويًّا، غير مدركتين اهتمام الناس الذين حولهما بهما، والذين كانوا يراقبون بعيونٍ متعاطفة الأخت القويّة وهي تلازم أختها المريضة، لا تفارقها، كما لو كانت تشعر بالفطرة بأنّ الفراق الأبديّ بات قريبًا.

t.me/yasmeenbook

شعرت الأختان به، لكنّهما لم تتحدّثا عنه، فغالبًا ما يصعب علينا قول الحقيقة المرّة لأحبابنا. شعرت جو كما لو أنّ حجابًا قد سقط بين قلبها وقلب بيث، ولكن عندما مدّت يدها لرفعه، بدا لها الصمت مقدسًا، فانتظرت بدء بيث في الحديث. تعجبّت كيف أنّ أسرتها لم تلاحظ ما لاحظته هي في وجه بيث، ثمّ حمدت اللّه أنّهم لم يروا ما أصابها كي لا يصابوا بالذعر. وخلال الأسابيع الماضية الهادئة، لم تتكلّم عن الأمر لأهلها، واثقةً من أنّهم سيدركون ذلك بأنفسهم عندما تعود بيث من المصيف. تساءلت جو أكثر عمّا إذا كانت أختها قد أدركت الحقيقة المرّة حقًا، وعن الأفكار التي كانت تدور في ذهنها خلال الساعات الطويلة عندما كانت مستلقيةً على رمال الشاطئ الدافئة، مسندةً رأسها إلى حجر جو، بينما كان النسيم العليل يداعب وجهها والبحر يعزف موسيقاه تحت قدميها.

وجاء اليوم الذي تكلّمت فيه بيث. اعتقدت جو أنّها كانت نائمة، فلقد كانت مستلقيةً على سريرها لا تحرّك ساكنًا، وبعدما وضعت كتابها جانبًا، جلست جو تنظر إليها بحزن، وتحاول أن ترى علامات الأمل على خدّيها الباهتين، لكنّها لم ترَ ما يكفي لإرضائها، لأنّ خديّ بيث كانا نحيفين للغاية، وبدت يداها أضعف من أن تمسك حتّى بالأصداف الورديّة الصغيرة التي كانت الأختان

تجمعانها أثناء تمشّيهما على الشاطئ. شعرت جو الآن بالحقيقةِ المرّة أكثر من أيّ وقتٍ مضى، فأحسّت أنّ بيث كانت تفلت من بين يديها ببطء، وشدّت قبضتها على أغلى كنزٍ كانت تمتلكه. لم تعد ترى للحظةٍ سوى الظلام أمامها، وحين هدأت، رأت بيث تنظر إليها بحنانٍ بالغ، حتّى إنّها لم تكن بحاجةٍ إلى أن تقول: «عزيزتي جو، أنا سعيدةٌ لأنّك تعرفين ما أنا فيه. لقد حاولت إخبارك، لكنّني لم أستطع».

لم تردّ جو على كلامها واكتفت بإسناد خدّها إلى خدّ أختها، وانحبست الدموع في عينيها، فحتّى في أكثر الأوقات حلكةً، تضبط جو نفسها وتتغلّب على عواطفها. كانت حينئذٍ الأخت الأضعف، وحاولت بيث مواساتها ودعمها وهي تضمّها بذراعيها وتهمس في أذنها كلمات رقيقة.

«لقد علمتُ بمرضي منذ فترةٍ طويلةٍ يا عزيزتي، واعتدتُ عليه، لا أجد صعوبةً في التفكير فيه أو تحمّله. حاولي أن تنظري إلى الأمر من هذه الزاوية، ولا تقلقي عليّ أو تحزني من أجلي فأنا الآن أحسن حالًا، كوني واثقة من ذلك».

لم تصدّق جو أنّ حالة بيث تحسّنت، لكنّها كانت مرتاحةً أن لا علاقة للوري بأحزانها، فسألتها: «هل مرضكِ هذا هو ما جعلك غير سعيدةٍ في الخريف يا بيث؟. أكنتِ تشعرين بمرضكِ حينها، وكتمته عنّا طوال تلك المدّة؟».

t.me/yasmeenbook

«نعم، فلقد فقدتُ الأمل في ذلك الوقت، لكنّني لم أشأ أن أستسلم لليأس. حاولت إقناع نفسي بأنّني أتوهّم فقط، لذا لم أشأ إخباركم وإثارة قلقكم. ولكنّني كنت أضعف حين أرى الجميع من حولي أصحاء يستمتعون بحياتهم ويملكون الكثير من الخطط السعيدة. كان صعبًا عليّ أن أشعر أنّني لن أكون مثلكم أبدًا، لذلك بِتُّ بائسةً يا جو».

«آهٍ منك يا بيث!. رغم كلّ المرارة التي شعرتِ بها، لم تخبريني ولم تسمحي لي بتهدئتك ومساعدتك؟!، كيف تمكّنتِ من كتم كلّ هذا، وتحمّل كلّ هذا العبء بمفردك؟».

كانت جو تعاتبها برقّة، وكان قلبها يتألّم عند التفكير في كفاح بيث بمفردها بينما كانت تتعلّم توديع الصحّة والحبّ والحياة، وتتحمّل نصيبها راضيةً به.

«ربّما أخطأت في كتم سرّي، لكنّني كنت أحاول فعل الصواب. لم أكن متأكّدة، ولم يرشدني أحد، وكنت آمل أن أكون مخطئةً في ظنّي. لم أكن سأتصرّف بأنانيّةٍ وأخيفكم جميعًا في حين كانت مارمي قلقةً بشدّة على ميج، وآيمي خارج البلاد، وكنتِ أنت سعيدةً جدًّا مع لوري أو على الأقلّ هذا ما اعتقدته حينها».

صاحت جو: «وظننت أنّكِ تحبّينه يا بيث، وذهبتُ بعيدًا لأنّني لم أستطع أن أحبّه».

كانت جو سعيدةً لقول الحقيقة.

ذُهلت بيث لهذه الفكرة، فابتسمت جو على الرغم من ألمها، وأضافت بهدوء: «إذًا لم تكوني مغرمةً به يا عزيزتي؟، لقد خشيت أن يكون قلبك الصغير المسكين مولّعًا به طوال ذلك الوقت».

أجابتها بيث ببراءة طفلة: «كيف يمكنني أن أُغرم به، في حين أنّه يعشقك؟. أنا أحبّه كثيرًا، وهو يعاملني معاملةً حسنة، فكيف لا أحبّه؟، لكنّه بمثابة أخٍ لي، لا أكثر. وليته يصبح أخًا لي حقًّا في يومٍ من الأيّام».

قالت جو بحزم: «لن يحدث ذلك عن طريقي، لم تبق أمامه سوى آيمي، وأعتقد أنّها تناسبه بامتياز. أمّا أنا فليست لديّ طاقةٌ لمثل هذه الأمور. لا يهمّني ما سيحدث لأيّ شخصٍ غيرك يا بيث، ما يهمّني الآن هو أن تتحسّن حالتك».

«وهذا ما أتمنّاه من قلبي يا جو! إنّني أبذل جهدي، لكنّني أفقد كلّ يوم قليلاً من عافيتي، فيزداد يقيني بأنّني لن أستعيدها أبدًا. إنّه مثل الجَزْر يا جو، ينحسر بطيئًا ولا يستطيع أحدٌ إيقافه».

قالت جو بتمرّد: «يجب أن يتوقّف، يجب أن ينحسر جزرك سريعًا، فما زلتِ في التاسعة عشرة من عمرك، أي في ريعان شبابكِ يا بيث. لن أدعكِ ترحلين، بل سأعمل

t.me/yasmeenbook

وأصلّي وأقاتل ضدّ مرضك، وسأحافظ عليكِ رغم كلّ الصعوبات. لا بدّ من وجود طرائق، لا يُعقل أن يكون الوقت قد فات. إنّ اللّٰه رحيمٌ وآمل ألّا يأخذك منّي».

انهمرت دموع جو بعد هذا الحديث، فلم تكن نفسها قد خضعت بعد كما خضعت واستسلمت روح بيث.

نادرًا ما يتحدّث المؤمنون عن إيمانهم، لأنّه يظهر في تصرّفاتهم لا في أقوالهم، والتصرّفات لها تأثيرٌ أقوى من العظات أو النصائح. لم تستطع بيث أن تفسّر الإيمان الذي منحها الشجاعة والصبر على ترك الأمل بالحياة، وانتظار الموت بتفاؤل. كانت كالطفل الوديع، لم تطرح أيّة أسئلة، لكنّها توكّلت على اللّٰه، لأنّها تعلم أنّ اللّٰه وحده القادر على إرشادنا، وبثّ القوّة في قلوبنا وأرواحنا في الدنيا والآخرة. لم تعتب بيث أختها بالمواعظ، بل ازداد حبّها لها بسبب تعاطفها وحنانها، وتعلّقت أكثر بهذا الحبّ الدنيويّ، الذي علينا أن نتمسّك به لأنّ عطفنا على الناس يقرّبنا إلى اللّٰه. لم تستطع بيث القول بأنّها سعيدةٌ بالرحيل، لأنّ الحياة كانت حلوةً للغاية بالنسبة إليها، ولم تملك خيارًا سوى البكاء ومحاولة الاستعداد للموت، بينما كانت متمسّكة بجو، وحينها أسرهما شبح الفراق الأليم للمرّة الأولى تحت أجنحة الحزن.

وبعد قليل استردّت بيث هدوءها وقالت: «هل ستخبرينهم عن سرّي عندما نعود إلى المنزل؟».

تنهّدت جو وقالت: «أعتقد أنّهم سيدركونه دون أن نخبرهم».

فقد لاحظت أنّ صحّة بيث تتدهور سريعًا كلّ يوم.

ردّت بيث: «وربّما لن يدركوا، فالحبّ يعمي أصحابه أحيانًا عن رؤية المصائب. في حال أنّهم لم يلاحظوا مرضي، فسوف تخبرينهم من أجلي. لا أريد أيّ أسرارٍ يا جو، ومن الأفضل أن يكونوا مستعدّين. لستُ قلقةً كثيرًا على ميج، فباستطاعة جون والأطفال تهدئتها، ولكن عديني أن تقفي إلى جانب أبي وأمّي يا جو».

قالت جو محاولةً التفاؤل: «سأهدّئهما إن استطعت، ولكن يا بيث، أنا لم أستسلم بعد. ما زلت أعتقد أنّه مجرّد وهم، ولن أجعلك تتأثّرين بأوهامك وتصدّقين أنّ صحّتكِ في خطر».

استلقت بيث لبعض الوقت تفكّر، ثم قالت بأسلوبها الهادئ: «لا أعرف كيف أعبّر عمّا في داخلي، ولا يجب أن أحاول ذلك إلّا معك، لأنّني لا أستطيع التحدّث إلّا مع عزيزتي جو. ما أريد قوله لكِ هو شعوري بأنّه لم يكن مقدّرًا لي العيش طويلًا، لستُ مثلكنّ، فأنا لم أخطّط أبدًا لما كنت سأفعله عندما أكبر، ولم أفكّر مطلقًا في الزواج كما فعلتنّ جميعًا، ولم أستطع أن أتخيّل سوى بيث الصغيرة الغبيّة، التي تتجوّل في المنزل، والتي لا فائدة منها في أيّ مكانٍ

t.me/yasmeenbook

آخر. لم أرغب أبدًا في المغادرة، والجزء الأصعب الآن هو تركِكم جميعًا. لست خائفةً من الموت، لكن لديّ شعورٌ بأنّني سأحنّ إلى المنزل وسأشتاق لكم حتّى بعد وفاتي».

انعقد لسان جو، وعمّ الصمت للحظاتٍ طويلة، فلم يُسمع سوى حفيف الرياح وهمسات الأمواج التي كانت تلامس الشاطئ، وحلّق نورسٌ أبيض الجناحين في السماء، ولمع شعاع الشمس على صدره الفضيّ. ظلّت بيث تراقبه بعينيها الحزينتين حتّى اختفى وراء الأفق. ثمّ جاء طائرٌ رماديٌّ صغير يقفز على الرمال ويغرّد، كما لو كان يستمتع بالشمس والبحر. اقترب من بيث، ونظر إليها برقّة ثمّ جلس على حجرٍ دافئ يرتّب ريشه المبلّل. ابتسمت بيث وشعرت بالراحة، لأنّ المخلوق الصغير بدا وكأنّه يعرض عليها صداقته ويذكّرها أنّ للحياة جانبٌ ممتع عليها الاستمتاع به.

«يا له من طائرٍ ظريف!، انظري كم هو أليفٌ يا جو. إنّي أفضّل العصافير على النوارس، فرغم أنّ طيور النورس جامحة وجميلة، إلّا أنّ العصافير تبدو مرحةً ومطمئنةً أكثر. اعتدت أن أناديها طيوري في الصيف الماضي، وقالت أمّي إنّ العصافير تذكّرها بي لأنّها مخلوقاتٌ حيويّة، وتجدها دائمًا بالقرب من الشاطئ، وتغنّي دائمًا تلك الأغنية الصغيرة المرحة. أمّا أنتِ فقويّةٌ وجامحة مثل

طيور النورس يا جو، كما أنّكِ مغرمةٌ بالعواصف والرياح، يسعدك التوغّل بعيدًا بمفردك فوق أمواج البحر، تمامًا كما النورس. أعتقد أنّ ميج أشبه بالحمامة، وآيمي كالكروان الذي تذكره كثيرًا في رسائلها، تحاول أن تطير مثله في الفضاء حتّى تصل إلى السحاب، لكنّها تحطّ دائمًا في عشّها سالمة. عزيزتي الصغيرة طموحةٌ جدًّا، لكنّ قلبها طيّبٌ وحنون، فمهما حلّقت بها آمالها، لن تنسيها ديارها. أتمنّى رؤيتها مرّةً أخرى، لكنّها تبدو لي بعيدةً جدًّا».

قالت جو: «ستعود في الربيع، عليكنّ جميعًا الاستعداد لرؤيتها والاستمتاع بعودتها. وسوف أعمل على استعادة عافيتكِ بحلول ذلك الوقت».

كانت جو تشعر أنّه من بين جميع التغييرات التي حدثت لبيث، كان التغيير في حديثها وطريقة كلامها هو الأعظم، فلم يعد الحديث يكلّفها مجهودًا، ولم تعد خجولة، بل باتت تحكي كلّ ما يجول في ذهنها.

«عزيزتي جو، تخلّي عن الأمل، فلا فائدة منه بعد الآن، أنا متأكّدة أنّني لن أستعيد عافيتي. لن نصبح بائستين، بل سنستمتع بوقتنا معًا أثناء انتظار النهاية. وسوف نحظى بأوقاتٍ سعيدة، لأنّني لا أقاسي الآن ألمًا على الإطلاق، وأعتقد أنّ الجزر سينحسر بسهولة إذا قدّمتِ لي يد العون».

t.me/yasmeenbook

انحنت جو لتقبيل الوجه الهادئ الوديع، وكرّست قلبها، وجسدها وروحها لعزيزتها بيث.

كانت جو محقّة، فعندما وصلت الأختان إلى المنزل، لم تكن هناك حاجةٌ إلى قول أيّ كلمات، لأنّ والديهما استطاعا الآن رؤية المخاوف التي كانا يدعوان اللّه أن يبعدها عنهما. ذهبت بيث إلى الفراش فور وصولها لأنّها كانت مرهقةً من رحلتها القصيرة، وقالت إنّها سعيدةٌ بعودتها إلى المنزل. وعندما نزلت جو، أدركت أنّ الحقيقة اتّضحت لوالديها، وأنّها وفّرت مشقّة إخبارهما بسرّ بيث. وقف والدها مسندًا رأسه على رفّ الموقد ولم يستدر عند دخولها، لكنّ والدتها مدّت ذراعيها كأنّها تطلب المساعدة، فذهبت جو لتهدئتها دون أن تنبس ببنت شفة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل الرابع عشر

أفكار جديدة

في الساعة الثالثة بعد الظهر، يأتي أهل الطبقة الراقية في مدينة نايس إلى: «منتزّه الإنجليز» الذي يعدّ موقعًا ساحرًا، فالممشى الواسع المحاط بأشجار النخيل والزهور والشجيرات الاستوائيّة، يحدّه البحر من ناحية، وشارعٌ فخم تصطفّ على جانبيه الفنادق والبيوت الكبيرة من ناحيةٍ أخرى، وفي الخلف تقع بساتين البرتقال والتلال القريبة.

ويصبح المنتزه كالكرنفال، يتردّد إليه أناسٌ من مختلف الجنسيّات، فتُسمع لغاتٌ عدّة، وتُرى أزياءٌ بتصاميم مختلفة. تجد الإنجليز المُتغطرسين، والفرنسيّين المرحين، والألمان الجدّيين، والإسبان الوسيمين، والروس الأقوياء، والأمريكيّين المتسامحين. جميعهم يركبون عرباتهم أو يجلسون، أو يتسكّعون في أرجاء المنتزّه ويتحدّثون

عن الأخبار، وينتقدون آخر المشاهير الذين وصلوا إلى المدينة، مثل ريستوري وديكنز، وفيكتور عمانويل وملكة جزر ساندويتش. تنوّعت العربات كتنوّع الزوّار، تجتذب قدرًا كبيرًا من الاهتمام، لاسيّما العربات الصغيرة التي تشبه السلّات والتي تقودها السيّدات أنفسهنّ، وتجرّها أمهارٌ جميلة، وقد قبع الخدم في أعلى مقاعدها الخلفيّة.

في يوم العيد، كان يسير على طول الممشى ببطء شابٌّ طويل القامة، واضعًا يديه خلف ظهره، بدا عليه شرود الذهن. كان يبدو إيطاليّ الجنسيّة، ولكنّه يرتدي ملابس إنجليزيّة، ويمشي بالطريقة الأمريكيّة، وجذب هذا المزيج عيون النساء اللواتي صرن يتبعنه بنظرات الرضا والارتياح. أمّا الرجال الذين يرتدون السترات السوداء المخمليّة وأربطة العنق الحمراء، ويزيّنون صدورهم بزهور برتقاليّة، فكانوا يتأمّلونه ثمّ يهزّون أكتافهم حاسدين.

ورغم حضور الكثير من السيّدات الجميلات، لم يلتفت الشابَ إليهنّ كثيرًا، لكنّه كان يلقي نظراتٍ خاطفة بين الحين والآخر على فتاةٍ شقراء ترتدي زيًّا أزرق اللون. وصل الفتى إلى نهاية الطريق ووقف للحظةٍ عند تقاطعه، كما لو كان متردّدًا ما بين الذهاب والاستماع إلى الفرقة الموسيقية في الحديقة العامّة، أو التجوّل على طول الشاطئ باتّجاه «كاسل هل».

t.me/yasmeenbook

وقعُ أقدام مهورٍ سريعة تجرّ عربة صغيرة فيها سيّدةٌ شابّة شقراء، ترتدي زيًّا أزرق اللون، جعله ينظر إلى الأعلى. حدّق في وجهها للحظة، ثم ذُهل، وراح يلوّح بقبّعته بحماس صبيٍّ صغير، وسارع إلى الأمام لمقابلتها.

أسقطت آيمي سير اللجام وصرخت: «أهذا حقًّا أنت يا لوري!. اعتقدت أنّك لن تأتي أبدًا!».

وفي تلك اللحظة، سارعت سيّدة فرنسيّة كانت مارّة من هناك بإبعاد ابنتها، خشية أن تتأثّر الصغيرة بجرأة هؤلاء الأمريكيّين الحمقى، ورعونة تصرفاتهم.

ـ لقد تأخّرت في طريقي إلى هنا، لكنّني وعدت بقضاء عطلة العيد معك، وها أنا قد وصلت».

ـ كيف حال جدّك؟، متى أتيت؟... وأين تقيم؟».

ـ بخير، ووصلتُ الليلة الماضية، وأقيم حاليًّا في شوفين. جئتُ لزيارتك في الفندق الذي تقيمين فيه، لكنّني لم أجدك».

«لديّ الكثير لأقوله، لا أعرف من أين أبدأ الحديث!.

ـ اركب معي ويمكننا التحدث على راحتنا. كنت أتنزّه وأتوق ليشاركني شخصٌ ما النزهة، لأنّ فلو تستريح استعدادًا لسهرة الليلة».

ـ سهرة الليلة؟، أهي حفلة راقصة؟».

قالت آيمي: «يقيم في الفندق الكثير من الأميركيّين الذين ينظّمون اليوم حفلة بمناسبة عيد الميلاد. أتودّ المجيء وحضور الحفلة؟. سوف تسعد العمّة بحضورك».

سألها لوري وهو يرجع إلى الخلف ويطوي ذراعيه: «شكرًا. لكن إلى أين نذهب الآن؟».

فرحت آيمي بتصرّفه، فهي تفضّل القيادة لأنّها كانت تشعر بالرضا حين ترفع مظلّتها وتمسك الأعنّة الزرقاء التي تمتدّ فوق ظهور المهور البيضاء.

انظر: «سوف نذهب إلى المصرف أوّلاً لإحضار البريد، ثمّ إلى كاسل هل، فالمنظر هناك رائعٌ للغاية، كما أنّني أستمتع في إطعام طيور الطاووس. هل سبق لك أن زرت القلعة؟».

ـ لقد زرتها كثيرًا منذ سنوات، لكنّني لا أمانع في إلقاء نظرةٍ أخرى عليها».

ـ قصّ عليّ الآن كلّ أخبارك. آخر مرّة سمعت عنك فيها كانت عندما كتب لي جدّك أنّه ينتظر عودتك من برلين».

ـ نعم. لقد أمضيت شهرًا في برلين، ثمّ التقيت به في باريس حيث استقرّ لفصل الشتاء. لديه أصدقاء هناك ويجد فيها الكثير من الأمور التي تروقه، لذلك كنت أغادر باريس وأعود إليها، وكانت الأمور تسير على ما يرام».

t.me/yasmeenbook

قالت آيمي وهي تشعر أنّ لوري يخفي أمرًا ما عنها: «هذا ترتيبٌ اجتماعيٌّ جيّد».

قال: «يكره جدّي السفر كما تعرفين، وأنا لا أحبّ الاستقرار في مدينةٍ واحدة، لذلك فإنّ هذه اللحظة تُناسب كلينا، ولا تسمح لأحد منّا أن يتأذّى. أمضي معه وقتًا كثيرًا، وهو يستمتع بسماع أخبار مغامراتي، وأحبّ شعور الرضا الذي ينتابني عندما يسعد برؤيتي حين أعود من رحلاتي».

نظر لوري إلى الشارع الذي يؤدّي إلى ميدان نابليون، وقال مشمئزًّا: «يا له من شارعٍ قذر!».

قالت آيمي: «إنّ للقذارة سحرها، لذا لا أمانع من وجودها، ومن خلال هذه المنعطفات، يمكنني أن أمتّع بصري برؤية الأنهار والتلال الخلّابة. والآن علينا أن ننتظر مرور هذا الموكب إلى كنيسة القديس جون».

كان لوري يراقب باهتمامٍ بالغٍ موكب الكهنة بملابسهم الفضفاضة، والراهبات المحجّبات بالأبيض اللواتي يحملن الشموع المضيئة، والصبية من حولهنّ بثيابٍ زرقاء اللون يرتّلون في طريقهم إلى الكنيسة. راقبت آيمي لوري بقلق، لأنّه تغيّر، فلم يعد ذلك الصبيّ ذا الوجه المرح، بل غدا رجلًا كئيبًا. رأت أنّه أصبح وسيمًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ولكن بعد أن تلاشت آيات السعادة والحماس لدى

مقابلتها، بدا مرهقًا ومتعبًا. لم يكن مريضًا أو تعيسًا، ولكنّ الحياة جعلته يبدو أكبر سنًّا وأكثر وقارًا، حتّى إنّ آيمي اعتقدت للحظةٍ أنّها لم تره منذ سنواتٍ طويلة رغم أنّه مضى على فراقهما عامٌ واحد. لم تستطع فهم ذلك التغيير، ولم تجرؤ على طرح الأسئلة، فهزّت رأسها وعادت لقيادة الخيل، بعد أن مرّ الموكب من تحت أقواس قنطرة باجليوني واختفى في الكنيسة.

سألته باللغة الفرنسيّة: «ما رأيك؟».

كان مستواها في اللغة الفرنسيّة قد تحسّن قليلًا منذ مجيئها إلى فرنسا، فعلى الرغم من أنّ لفظها ليس ممتازًا، إلّا أنّها اكتسبت مفرداتٍ كثيرة.

نظر لوري حوله بإعجاب، وانحنى واضعًا يده على قلبه، ثم أجابها: «لقد استفادت الآنسة من وقتها في فرنسا، والنتيجة ساحرة».

سُرّت لما قاله واحمرّ وجهها خجلًا، لكنّ بطريقةٍ ما لم يرضها الإطراء مثلما كان يحدث في المنزل، حيث كان يتجوّل حولها في الأعياد، ويخبرها مبتسمًا وهو يربّت على رأسها أنّ شكلها بأكمله يبدو ظريفًا. لم يعجبها الأسلوب الجديد، فعلى الرغم من نظرة الإعجاب، إلّا أنّ عدم اهتمامه كان واضحًا في نبرته.

شعرت آيمي بخيبة الأمل ولم تكن مرتاحة، وقالت

t.me/yasmeenbook

تحدّث نفسها: «إذا كان هذا ما سيصير إليه عندما يكبر، فأتمنّى لو ظلّ صبيًّا.»

لكنّها في ذلك الوقت كانت تحاول أن تتظاهر بأنّها سعيدة وراضية.

عندما وصلت إلى المصرف، وجدت رسائل عزيزة أرسلت من موطنها، فسلّمت القيادة إلى لوري، وراحت تقرأ الرسائل مستمتعة، والعربة تسير بها في الطريق المظلّل بين الأسيجة الخضراء، حيث ازدهرت الورود كما تزهر في الصيف.

قالت آيمي وهي تقرأ بحزنٍ إحدى صفحات الرسائل: «تقول أمّي إنّ حالة بيث سيّئة للغاية. غالبًا ما أفكّر في العودة إلى المنزل، لكنّهم جميعًا يعارضونني ويطلبون منّي البقاء هنا. لذا أعمل بنصيحتهم، لأنّني لن أحظى أبدًا بفرصةٍ أخرى مثل هذه».

ـ أعتقد أنّكِ على حقّ. لن يفيدك البقاء في المنزل، وسوف يريحهم أن يعرفوا أنّك بخير وسعيدة، وأنّك تستمتعين بوقتك يا عزيزتي».

اقترب منها قليلاً، وعندما أنهى جملته أحسّت أنّ لوري القديم الذي كانت تعرفه قد عاد، وخفّف الخوف الذي كان يثقل أحيانًا على قلبها، لأن نظرته وحنانه وقوله: «عزيزتي»، جميعها أشياءٌ تؤكّد لها أنّها إن وقعت في أيّ مأزق، لن تكون وحيدةً في الغربة.

ضحكت وأظهرت له رسمًا صغيرًا لجو في دفتر خربشاتها، كانت ترتدي فيه قبّعةً بشرائط منتصبة، وتخرج من فمها عبارةٌ تقول: «العبقريّة تحترق!».

ابتسم لوري وأخذها، ووضعها في جيب سترته خشية أن تطيّرها الرياح على حدّ قوله، واستمع باهتمام إلى الرسالة التي قرأتها آيمي.

وقفت بهما العربة بين أنقاض القلعة القديمة، وجاء قطيعٌ من طيور الطاووس الرائعة التي تجمّعت حولهما، منتظرةً إطعامها، فقالت آيمي: «هذا بلا شكّ عيدٌ سعيد بالنسبة لي، ففي الصباح تلقّيت الهدايا، وبعد الظهر حظيت بنزهةٍ معك، واستلمت رسائل عزيزة من أسرتي، وفي المساء ينتظرني حفلٌ رائع».

وبينما كانت آيمي على الضفة التي تعلو لوري تنثر الفتات للطيور الرائعة، نظر إليها كما كانت قد نظرت إليه من قبل، وأخذ يتأمّلها بفضول لمعرفة التغييرات التي أحدثها الزمان والغياب. لم يجد تغييرًا يحيّره أو يخيّب أمله، لكنّه وجد أشياء كثيرة أعجبته، فرغم تصنّعها قليلًا بالكلام والأسلوب، إلّا أنّها كانت مرحةً ورشيقةً كما عهدها دائمًا، ولم يزد عليها سوى أمرٍ واحدٍ لا يوصف، وهو أناقتها. كانت تتميّز دائمًا بالنضج المبكّر، ولقد اكتسبت من رحلتها خبرةً في أسلوب الكلام والمشي، ما

t.me/yasmeenbook

جعلها تبدو امرأةً محنّكةً أكثر ممّا كانت عليه، لكنّ سرعة انفعالها الذي عهدناها به، كان يظهر بين الحين والآخر، وإرادتها القويّة لا تزال صامدة، ولم تتأثّر بأيّ طلاءٍ أجنبيّ.

لم يقرأ لوري كلّ هذه المعاني في وجهها بينما كان يتأمّلها وهي تطعم الطاووس، لكنّه رأى ما يكفي لإرضائه ويشبع اهتمامه، فاحتفظ في قلبه بصورةٍ صغيرةٍ جميلة لفتاةٍ ذات وجهٍ لامع تقف في ضوء الشمس الذي أبرز لون ثيابها، وخدّيها الحمراوين، وشعرها الذهبيّ، مما جعلها أيقونةً في ذلك المشهد الجميل.

عندما صعدا إلى الهضبة الحجريّة أعلى التلّ، لوّحت آيمي بيدها كما لو كانت ترحّب به في مكانها المفضل، وقالت مشيرة هنا وهناك: «هل تتذكّر الكاتدرائية وكورسو، والصيّادون وهم يجرّون شباكهم إلى داخل الخليج، والطريق الجميل الذي يؤدّي إلى فيلا فرانكا، وبرج شوبرت في الأسفل مباشرة، والأفضل من ذلك كلّه، تلك البقعة البعيدة التي تقع وسط البحر، والتي يسمّونها جزيرة كورسيكا؟».

أجاب من غير مبالاة: «أتذكّر كلّ ذلك. لم يتغيّر الوضع كثيرًا».

قالت آيمي: «أعتقد أنّ جو مستعدّة للتضحية بالكثير لرؤية تلك الجزيرة الشهيرة!».

وكانت آيمي أيضًا تتوق لرؤية تلك الجزيرة.

ردّ بكلمة: «نعم»، ولم يزد عليها حرفاً واحداً، لكنّه استدار وأجهد عينيه ليرى الجزيرة التي زاد اهتمامه بها من أجل فتاةٍ أكثر نفوذًا من نابليون نفسه.

قالت آيمي وهي تجلس لتحضّر نفسها لمحادثةٍ جيّدة: «تأمّلها مليًّا من أجل جو، ثمّ تعال وقصّ عليّ أخبارك، وكلّ ما حدث معك طوال هذه الفترة».

لكنّها لم تنل مبتغاها، فبالرغم من أنّ لوري انضمّ إليها وأجاب عن جميع أسئلتها، إلّا أنّها لم تعلم منه سوى أنّه تجوّل في القارّة وذهب إلى اليونان. لذلك، بعد التسكّع لمدّة ساعة، عاد الصديقان إلى المنزل، وبعد أن قدّم لوري تحيّاته للسيّدة كارول، غادر الفندق ووعدهم بالعودة في المساء.

ويجدر بالذكر أنّ آيمي عنيت بتزيين نفسها في تلك الليلة. لقد أثّر الوقت والغياب عليها وعلى لوري، وأصبحت تنظر إلى صديقها القديم من منظورٍ جديد، فلم يعد صبيًّا بعد الآن، بل أصبح رجلًا وسيمًا ترتاح إليه النفس، وأحسّت برغبة في أن تنال إعجابه، كانت تعرف محاسنها، وأظهرت معظمها بذوقٍ ومهارة يشكّلان ثروةً لامرأة فقيرةٍ وجميلةٍ مثلها.

كانت أقمشة الترلتان والتول رخيصةً في مدينة نيس،

t.me/yasmeenbook

لذلك كانت تستعملهما في مثل هذه المناسبات، وتبعًا للموضة الإنجليزيّة الرصينة الخاصّة بالفساتين البسيطة للشابّات، تزيّنت آيمي بزهورٍ جميلة، وبقليلٍ من الحليّ الرخيصة الجميلة. ينبغي الاعتراف بأنّ الفنّ استحوذ في بعض الأحيان على المرأة التي أخذت تتفنّن في تصفيف شعرها، وتتّخذ وقفاتٍ تتشبّه فيها بالتماثيل، وترتدي ملابس كلاسيكيّة. لكنّنا جميعاً نحمل نقاط ضعف، ونجد سهولةً في أن نغفرها للشباب الذين يرضون أعيننا بجمالهم، ويسعدون قلوبنا.

كانت آيمي ترتدي فستان فلو الأبيض الحريريّ القديم، تبرز منه أكتافها ورأسها المتوّج بشعرها الذهبيّ الذي صفّفته بطريقةٍ فنيّة.

قالت تحدّث نفسها: «أريده أن يراني جميلة، ويخبرهم بذلك عندما يعود إلى المنزل».

جمعت خصلات شعرها المموّج وعقدتها فوق مؤخّرة رأسها.

كانت تقول لمن ينصحها بتجعيد شعرها أو جدله: «إنّها ليست الموضة، لكنّني أحبّ تصفيف شعري بهذا الشكل، ولا أريد أن أبدو مخيفة».

ونظرًا لعدم توفّر أدوات الزينة التي تلائم هذه المناسبة المهمّة، فقد ضمّت آيمي أطراف تنانيرها بأزهار الأزاليا،

وزيّنت الأكتاف البيضاء بعناقيد خضراء رقيقة. تفحّصت برضا حذاءها الأبيض المصنوع من الساتان، وراحت تسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا، معجبةً بقدميها الأرستقراطيّتين.

قالت وهي تنظر إلى نفسها في المرآة، ممسكةً بشمعةٍ في كلّ يد: «إنّ مروحتي الجديدة تتطابق مع أزهاري، وقفّازاتي منسجمةٌ وجذّابة، والدانتيل الذي يزيّن منديل عمّتي يضفي جمالًا على ثوبي. لو كنتُ أملك أنفًا وفمًا من الطراز الكلاسيكيّ، لاكتملت سعادتي».

على الرغم من أنّها غير راضيةٍ عن وجهها، إلّا أنّها بدت أجمل وأرشق من المعتاد. اعتقدت أنّ الركض لا يناسبها نظرًا لطول قامتها، لذلك كانت نادرًا ما تركض، فالأناقة واللباقة والرزانة جميعها تناسبها أكثر من الرياضة. خرجت ونزلت إلى الصالة الطويلة تنتظر لوري، ووقفت تحت الثريا التي جعلت شعرها يبدو أكثر جمالًا بإبراز لونه الأشقر الرائع، لكنّها ما لبثت أن تركت مكانها وذهبت إلى الطرف الآخر من الغرفة، كما لو أنّها خجلت من رغبتها الصبيانيّة في أن تكون أوّل من ينظر إليه لوري عند وصوله. ولقد أحسنت التصرّف، فلقد تسلّل لوري إلى القاعة بهدوء حتّى إنّها لم تشعر بدخوله، وبينما كانت تقف عند النافذة البعيدة، أدارت رأسها قليلًا وجمعت أطراف فستانها بإحدى يديها، وانسدلت

t.me/yasmeenbook

الستائر الحمراء فأبرزت قوامها الأبيض النحيل، حتّى بدت لعينيّ لوري كأنّها تمثالٌ جميل.

نظر إليها لوري بنظرة الرضا التي لطالما أحبّت أن تراها في عينيه وقال: «مساء الخير ديانا!».

أجابت وهي تبتسم له: «مساء الخير أبولو».

وبدا مرحًا أكثر من المعتاد، ومجرّد تفكيرها في أنّها ستدخل قاعة الرقص مستندةً إلى ذراع رجلٍ أنيقٍ مثله، جعلها تشفق على النساء الأخريات.

كان يحمل باقة زهورٍ جميلة في ماسكٍ أنيق للأزهار، لطالما أعجبها في نافذة أحد المتاجر أثناء مرورها به يوميًّا، وقال: «هاكِ زهورك. لقد رتّبتها بنفسي، لأنّني ما زلت أذكر كرهك لباقات الأزهار التي ترتّبها المتاجر».

صاحت بامتنان: «ما ألطفك!، لو كنت أعرف أنّك قادم، لكنتُ أحضرت لك هديّةً بالمقابل، وإن كنتُ أخشى أنّها لن تكون بجمال هذه الزهور».

قال لها وهي تشبك الماسك الفضيّ على معصمها: «شكراً لكِ. إنّها أقلّ ممّا يجب، فأنتِ تستحقّين أكثر، لكنّها ازدادت جمالًا الآن».

قالت: «دع عنك هذه الأقوال، أرجوك».

«اعتقدتُ أنّكِ تحبّين هذا الغزل».

«نعم لكن ليس إن كان منك، يبدو غريبًا ومصطنعًا. أنا أفضّل طريقتك القديمة الصريحة».

أجاب بارتياح: «وأنا سعيد بذلك».

ثمّ زرَّ لها قفازيها، وسألها عمّا إذا كانت ربطة عنقه مستقيمة، مثلما اعتاد أن يسأل عندما كانا يذهبان إلى الحفلات معًا في الماضي.

اجتمع المدعوّون ذلك المساء في قاعة الطعام، لا يرى المرء مثل هذه الاجتماعات سوى في أوروبا، فقد دعا الأمريكيّون كلّ معارفهم في نيس، ولم يكن لديهم أيّ تحيّزٍ ضدّ ذوي الألقاب، فدعوا القليل منهم لإضفاء البريق على سهرتهم.

تنازل أميرٌ روسيّ بالجلوس في زوايا الصالة لمدّة ساعة والتحدث مع سيّدةٍ ضخمة الحجم، ترتدي ثوبًا من المخمل الأسود وعقدًا من اللؤلؤ يزيّن رقبتها. وكرّس كونت بولنديّ في الثامنة عشرة من عمره نفسه للسيّدات اللواتي أخذن يمتدحنه برضاً، وكان في القاعة ألمانيٌّ من الأشراف، كان قد جاء لتناول العشاء بمفرده، وأخذ يتجوّل باحثًا عن طعامٍ لذيذٍ يلتهمه. وكان سكرتير البارون: روثستشيلد ذا أنفٍ كبيرٍ يرتدي زوجًا ضيّقًا من الأحذية، ويبتسم دائمًا، كما لو أنّ اسم سيّده قد توّجه بهالةٍ ذهبيّة. وجاء رجلٌ فرنسيٌّ مقدام، كان يعرف الإمبراطور، وأخذ

t.me/yasmeenbook

يرقص بشغفٍ، وزيّنت السيّدة البريطانيّة ليدي دي جونز الحفل بأسرتها الصغيرة المكوّنة من ثمانية أفراد. وبالطبع حضرت الكثير من الفتيات الأميركيّات ذوات الأقدام الرشيقة والأصوات العالية، وفتيات الإنجليز الفاتنات، وعددٌ قليلٌ من الآنسات الفرنسيّات البسيطات وإن كنّ ماكرات، بالإضافة إلى المجموعة المعتادة من السائحين الشباب الذين اندمجوا في الحفل بمرح، بينما اصطفّت الأمّهات من جميع الدول وابتسمن لهم بسرور عندما رقصوا مع بناتهنّ.

يسهل على أيّة فتاةٍ أن تتخيّل مدى سعادة آيمي عندما خطفت الأضواء أمام الجميع في الحفل تلك الليلة، مُتّكئةً على ذراع لوري. كانت تعلم أنّها تبدو جميلةً وأنيقة، وكانت تحبّ الرقص وشعرت بأنّها رقصت بسلاسةٍ ومهارة، واستمتعت بالشعور المبهج بالسلطة، والذي تشعر به كلّ شابّة عندما تكتشف، وللمرة الأولى، المملكة الجديدة والجميلة التي ولدت لتحكمها بجمالها وشبابها وأنوثتها. ولم يمنعها فرحها وكبرياؤها من الشفقة على فتيات ليدي ديفيس البسيطات المُحرَجات، اللواتي لم يجدن رفقاء باستثناء أبٍ محبط، وثلاث عمّاتٍ أكثر إحباطًا منه. انحنت آيمي لهنّ بلطف أثناء مرورها، فتفحّصت الفتيات فستانها بعيونهنّ، وكنّ يتُقن لمعرفة هويّة صديقها المميّز. وحينما

بدأت الفرقة العزف، تورّد وجه آيمي، ولمعت عيناها، وأخذت تنقر الأرض بقدميها بصبرٍ نافد، لأنّها أرادت أن يعرف لوري مهارتها في الرقص. لذلك يمكن تخيّل الصدمة التي تلقّتها والتي يصعب وصفها، عندما قال بنبرةٍ هادئة: «هل لديكِ مانع من أن ترقصي معي؟».

«يرقص الناس عادةً في الحفلات».

ارتبك لوري أمام مظهرها المذهل وإجابتها السريعة، فأصلح خطأه بسرعة، حيث قال: «قصدت الرقصة الأولى. هل لي الشرف؟».

قالت آيمي: «يمكنني إعطاؤك رقصةً واحدة إن استطعت التخلّص من الكونت. إنّه راقصٌ بارع، لكنّه سيعذرني بما أنّك صديقٌ قديمٌ لي».

وكانت تأمل أن يؤثّر كلامها فيه، وأرادته أن يعرف أنّها ليست ممّن يستهان بهنّ.

قال: «إنّه صبيٌّ لطيف، ولكنّه أقصر قامةً من أن يُعتمد عليه».

ثمّ أضاف بيتًا من الشعر يقول:

«إنّها ابنة العظماء

طولها باهر

وجمالها ساحر».

t.me/yasmeenbook

كان هذا كلّ ما قاله في سبيل إرضائها.

كانت المجموعة التي انضمّا إليها كلّها من الإنجليز، واضطرّت آيمي إلى الرقص بهدوءٍ على طريقتهم، مع أنّها كانت ستستمتع أكثر برقص الترنتيلا. سلّمها لوري إلى الصبيّ اللطيف، وذهب للرقص مع فلو، دون أن يحجز رقصةً أخرى مع آيمي للأوقات القادمة من الحفل. ولم تسكت آيمي عن إهماله، بل عاقبته بانشغالها عنه حتّى وقت العشاء، عازمةً على مسامحته إن أظهر لها أيّ علاماتٍ تدلّ على ندمه وتوبته. أطلعته على جدول رقصاتها لتعتذر منه عندما طلب منها رقص البولكا المزدوجة دون حماسٍ وشغف، ورغم محاولاته في إقناعها، لم تعدل آيمي عن قرارها. وعندما ذهبت للرقص مع الكونت، رأت لوري يجلس إلى جانب عمّتها، وملامح الراحة تظهر على وجهه، عندها أدركت أنّه لم يطلب منها الرقص حبًّا بها، بل احترامًا لها.

شعرت أنّ ما فعله لوري خطأ لا يُغفر، فلم تعره اهتمامها لفترةٍ طويلة، واكتفت بتوجيه كلمةٍ أو كلمتين له بين الحين والآخر عندما كانت تأتي إلى عمّتها بين الرقصات لتصلح مشبك ثوبها، أو لتستريح للحظة. وكان لغضبها تأثيرٌ جيّد حين أخفته بوجهٍ مبتسم، فبدت مبتهجة ومتألّقة أكثر من المعتاد، ما دفع عينيّ لوري لمتابعتها بسرور، لأنّها لم

تقفز بخشونة أو تتحرّك ببطء، بل رقصت بشغفٍ ومرح، وأضفت بذلك المتعة على أجواء الحفل. راح لوري يتأمّلها من منظورٍ مختلف، وقبل أن ينتصف الحفل، كان قد أدرك أنّ آيمي الصغيرة ستصبح امرأةً فاتنةً للغاية.

كان مشهدًا مُفعمًا بالحيوية، فسرعان ما سادت الروح الاجتماعيّة لدى الجميع، وجعلت فرحة العيد كلّ الوجوه مُشرقة، والقلوب فرحة، والأقدام رشيقة. عزف الموسيقيّون وزمّروا وانسجموا مستمتعين بالأجواء، فرقص كلّ من يستطيع الرقص، أمّا الذين لا يملكون الموهبة فقد أخذوا يتأمّلون الراقصين بحبّ وحماس. وبينما ظلّت الأجواء مُظلمة وكئيبة مع آل دافيس، رقص آل جونس مثل قطيعٍ من الزرافات. وهرع السكرتير ذو الهالة الذهبيّة عبر الغرفة مثل النيزك، وكانت برفقته امرأةٌ فرنسيّة جذّابة تغطّي الأرض بثوبها الحريريّ الورديّ. ووجد الألمانيّ الشريف مائدة العشاء، فجلس إليها سعيدًا، وأخذ يلتهم الطعام بشراهة، فأثار استياء الخدم بسبب الآثار التي خلّفها. وحقّق صديق الإمبراطور المُجِدّ، إذ شارك في جميع الرقصات، سواءٌ كان يعرفها أم لا، وكان يرتجل في بعض الرقصات التي أربكته فيها الشخصيّات. كان مرحه الصبيانيّ ساحرًا وملفتًا للأنظار، فعلى الرغم من حجمه الكبير، إلّا أنّه كان يقفز ويركض في رقصه مثل كرةٍ

t.me/yasmeenbook

مطاطيّة، فكان وجهه يتوهّج، ورأسه يلمع، تتطاير أطراف سترته بعنف، وقلبه يطير فرحًا. وعندما توقفت الموسيقا، راح يمسح قطرات العرق عن جبينه، ويوزّع ابتساماته على زملائه الرجال.

كانت آيمي وصديقها متميّزين بحماسهما المتساوي ورشاقتهما، ووجد لوري نفسه يتبع بشكلٍ لا إراديّ وقع النعال البيضاء وهي ترتفع وتهبط بلا كللٍ كما لو كانت مُجنّحة. وعندما تخلّى عنها الكونت فلاديمير الصغير أخيرًا، معتذرًا عن اضطراره للمغادرة باكرًا، كانت آيمي مستعدّةً للراحة، ولمراقبة تأثير عقوبتها على فارسها المذنب.

لقد كانت عقوبةً ناجحة، ففي الثالثة والعشرين من العمر، تجد المشاعر البائسة بلسمًا في المجتمع الودود، وتنتعش أرواح الشباب بسحر الجمال والضوء والموسيقا والحركة. نهض لوري ليمنحها مقعده، وهو ينظر إليها نظرة المُتيقّظ، وعندما أسرع ليحضر لها بعض طعام العشاء، قالت تحدّث نفسها وهي تبتسم راضية: «لقد علمتُ أنّ خطّة العقوبة ستنجح!».

قال وهو يلوّح لها بإحدى يديه، ويمسك فنجان قهوتها باليد الأخرى: «تبدين مثل إحدى لوحات بلزاك».

فركت آيمي خدّها اللامع، وأرته قفازها الأبيض وهي تقول ببساطة: «لن يزول هذا الأحمر عن وجهي».

ضحك لوري، وسألها وهو يلامس طرفًا من ثوبها الشفاف الذي حرّكه الهواء نحو ركبته: «ماذا تسمّين هذا القماش؟».

أجابت: «إيليوجن».

«إنّه اسمٌ جميلٌ يناسبه تماماً. أهو نوعٌ جديدٌ من القماش؟».

«بل هو قديمٌ كالجبال. لقد رأيتَ عشرات الفتيات يرتدينه، ولم تكتشف أنّه جميلٌ حتى الآن؟!، يا لك من غبيّ!».

«لم أركِ ترتدينه من قبل، وهذا ما يفسّر خطئي كما ترين».

«هذا الكلام ممنوع. أفضّل تناول القهوة على سماع المجاملات التي تثير أعصابي».

جلس لوري بجرأةٍ منتصبًا، وأخذ بخنوع طبقها الفارغ وهو يشعر بمتعةٍ غريبة بطاعة أوامر «آيمي الصّغيرة»، والتي فقدت خجلها الآن، وشعرت برغبةٍ لا تقاوم في التحكّم به، لأنّ السعادة تغمر الفتيات عندما يُظهر الرجال لهنّ علامات الخضوع.

سألها وهو ينظر إليها نظرةً فاحصة: «أين تعلّمتِ كلّ هذه الأساليب؟».

t.me/yasmeenbook

ردّت آيمي: «بما أنّ جملتك غامضة، أرجو أن توضّح ما تقصده».

وكانت تعلم تمامًا ما قصده، لكنّها أرادت بمكرٍ أن يفسّر ما لا يمكن تفسيره.

قال ضاحكًا ولكن مهزومًا: «حسنًا، قصدتُ الجو العام، والأسلوب، والتملّك الذاتيّ والإيليوجن».

شعرت آيمي بالرضا، لكنّها بالطبع لم تُظهر مشاعرها، وقالت بتردّد: «حياة في الغربة تصقل المرء رغمًا عنه، وأنا أدرس كما ألعب، أمّا هذا الإيليوجن فهو نوعٌ رخيصٌ من التول، ولبسه لا يكلّف شيئًا، وأنا معتادةٌ على الاستفادة قدر استطاعتي من مواردي البسيطة».

ندمت آيمي على جملتها الأخيرة، وخشيت أنّها لم تكن مناسبة، لكنّها زادت لوري حبًّا واحترامًا لها، فلقد وجد نفسه معجبًا بصبرها وشجاعتها في سبيل نيل الفرصة، وبروحها المتفائلة التي غطّت الفقر بالورود. ولم تعرف لماذا نظر إليها لوري بلطفٍ شديد، ولا سبب ملء كتابها باسمه، وتكريس نفسه لها بقيّة المساء بسرور. لكنّ الدافع وراء هذا التغيير المقبول، كان نتيجة الانطباعات الجديدة التي كانا يقدّمانها ويستقبلانها بلا وعي.

t.me/yasmeenbook

الفصل الخامس عشر

على الرف

في فرنسا، تقضي الفتيات الشابّات وقتًا مملًّا حتّى يتزوّجن، عندئذٍ يتّخذن عبارة: «تحيا الحرّيّة!» شعارًا لهنّ. أمّا في أمريكا، فكما يعلم الجميع، توقّع الشابّات مبكرًا على إعلان الاستقلال، ويتمتّعن بحريتهنّ بحماسٍ جمهوريّ، ولكن عادةً ما يتنازلن في مرحلة الأمومة عن العرش للوريث الأوّل، ويعشن في عزلةٍ تشبه الأديرة الفرنسيّة، وإن كانت أقلّ منها هدوءاً. سواء أعجبهنّ الأمر أم لم يعجبهنّ، توضع النساء فعليًّا على الرفّ فور انتهاء مراسم الزفاف، وقد تشتكي معظمهنّ، كما اشتكت امرأةٌ حسناء في ذلك اليوم حيث قالت: «لا زلتُ فاتنةً كما كنتُ في الماضي، ولكن لا يعيرني أحدٌ أيّ اهتمام لأنّني متزوّجة».

لم تعانِ ميج ما عانته بقيّة المتزوّجات، حتّى بلغ أطفالها

من العمر عامًا واحدًا، وبالرغم من أنها لم تكن سيّدةً حسناء ولا أنيقة، لكن في عالمها الصغير سادت العادات البدائيّة، ووجدت نفسها محبوبةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

ولمّا كانت شابّةً مليئةً بالأنوثة، فقد كانت غريزة الأمومة لديها قويّةً للغاية، لذا كرّست نفسها لطفليها فقط، غير مُهتمّةٍ لأيّ أمرٍ ولا لأيّ شخصٍ آخر. كانت تفكّر بهما ليلًا ونهارًا في تفانٍ وقلقٍ لا يكلّان، تاركةً جون لرحمة الخادمة الرقيقة، وهي سيّدةٌ أيرلنديّة تترأّس الآن المطبخ. ونظرًا لكون جون رجلًا يحبّ الحياة العائليّة، فقد اشتاق بالتأكيد لاهتمام الزوجة الذي اعتاد أن يناله، ولكنّ ولعه بطفليه، ساعده على التنازل بكلّ سرور عن راحته لبعض الوقت، مفترضًا بجهلٍ ذكوريّ أنّ السلام سيعود قريبًا إلى منزله. لكن حدث ما لم يكن في حسبانه، فلقد مرّت ثلاثة أشهر، ولم يعرف فيها معنى الراحة. بدت ميج متعبةً ومتوتّرة، فلقد استحوذ الطفلان على كلّ دقيقةٍ من وقتها، فأهملت المنزل، وتركت تدبير شؤونه للطاهية كيتي التي لم تكن تأخذ الأمور بجديّة، وراحت تقدّم لجون أبسط المأكولات. كان يندهش حين يخرج في الصباح من الطلبات الصغيرة للأمّ الأسيرة، وإذا جاء في الليل، متشوّقًا لاحتضان عائلته، تبعده زوجته وتقول: «اصمت!، لقد ناما لتوّهما بعد أن أثارا قلقي طوال اليوم.» وإذا اقترح

t.me/yasmeenbook

بعض التسلية في البيت تنهاه وتقول: «توقّف سوف تزعج الطفلين.» إذا ألمح إلى الذهاب إلى محاضرةٍ أو حفلةٍ موسيقيّة، تردّ عليه ميج بنظرةٍ مؤلمة وتقول: «لن أترك أطفالي من أجل المتعة أبدًا!».

قطع نومه بكاء الرضيع، ورؤية زوجته تسير بصمتٍ كالشبح ذهابًا وإيابًا في ساعات الليل لتطمئنّ على طفليها. ولم يعد يستلذّ بالطعام لأنّ ميج كانت تهجره وتذهب لتتفقّد الطفلين، إذا سمعت أصواتًا آتيةً من مهدهما في الطابق العلويّ. ولم يهنأ في قراءة الصحيفة في إحدى الأمسيات، لأنّ السيّدة بروك كانت تهتمّ فقط بأخبار المنزل وشؤونه، وتلاحقه بمتاعبها، فيختلط المغص الذي أصاب ديمي بقائمة سفن الشحن، ويؤثّر وقوع ديزي على الأرض على أسعار الأسهم.

كان الرجل المسكين غير مرتاحٍ على الإطلاق، لأنّ طفليه حرماه من زوجته، وكان المنزل مُجرّد حضانة، كما جعلته أوامرها المتكرّرة بالسكوت يشعر وكأنّه متطفّلٌ كلّما دخل إلى المناطق المقدّسة في: «أرض الأطفال». تحمّلها بصبرٍ شديد لمدّة ستّة أشهر، وعندما لم تظهر أيّ تغييرات، حاول الحصول على القليل من الراحة في مكان آخر مثلما يفعل أيّ أبٍ مهجور.

كان صديقه سكوت قد تزوّج وأقام في منزلٍ غير

بعيد، فكان جون يزوره لمدّة ساعةٍ أو ساعتين في المساء، وخاصة عندما تخلو غرفة استقباله من الضيوف، وتنشغل زوجته بغناء تهويداتٍ لا تنتهي لطفليها.

كانت زوجة سكوت شابّة جميلة ومرحة، تتصرّف بلطفٍ طوال الوقت، وتؤدّي مهامّها المنزليّة بنجاح. كانت غرفة الاستقبال دائمًا مشرقة، ولوحة الشطرنج دائمًا جاهزة، والبيانو يردّد أجمل الألحان، وتعمّ الأحاديث المرحة البيت، أمّا العشاء فكان قد جُهّز ووُضع بشكلٍ أنيقٍ ومغرٍ.

كان جون يفضّل الجلوس أمام مدفأة منزله، ولكن نظرًا لأنّه سيشعر بالوحدة أمامها، كان ممتنًّا لزيارة صديقه والاستمتاع بصحبته.

في البداية، رضيت ميج بالوضع الجديد، وشعرت بارتياحٍ لمعرفة أنّ جون كان يقضي وقتًا ممتعًا بدلًا من أن يملّ وينعس في غرفة الاستقبال، أو أن يمشي في المنزل ويتسبب في استيقاظ الطفلين. ولكن بمرور الوقت، انتهى قلق نموّ الأسنان، وصار الطفلان يخلدان إلى النوم في الساعات المناسبة، تاركين لأمّهما وقتًا للراحة، عندها بدأت ميج تشتاق لجون، ووجدت سلّة تطريزها مملّة، إذ إنّ زوجها لم يكن جالسًا بقربها كعادته بثوبه القديم، وواضعًا قدميه على حاجز المدفأة. لم تطلب منه البقاء في

t.me/yasmeenbook

المنزل، لكنّها حزنت وكُسِر قلبها، فقد أرادت منه أن يعرف أنّها بحاجةٍ إلى بقائه دون أن تخبره بذلك، متناسيةً تمامًا الأمسيات العديدة التي انتظرها دون جدوى. كانت متوتّرة ومنهكة من التفكير ومن مراقبة عائلتها، ووصلت إلى تلك الحالة السيّئة التي تمرّ بها أقوى الأمّهات أحيانًا عندما تضطهدهنّ الرعاية المنزليّة، وتفقدهنّ الحاجة إلى ممارسة الرياضة سعادتهنّ ومرحهنّ، ويجعلهنّ الإفراط في شرب الشاي ـ الشراب المفضّل للمرأة الأمريكيّة ـ يشعرن كما لو كنّ كتلةً من الأعصاب دون لحمٍ أو عضلات.

كانت ميج تقول وهي تنظر في مرآتها: «نعم، لقد تقدّمتُ في السنّ وأصبحت قبيحة، ولم يعد جون يجدني مثيرةً للاهتمام بعد الآن، لذلك ترك زوجته الباهتة وذهب لرؤية زوجة جاره الحسناء التي تخلو حياتها من الأعباء والمسؤوليّات. لكنّ طفليّ يحبّانني، ولن يهجراني إن كنت نحيفةً وذابلة، وإن لم أملك الوقت لتجعيد شعري، فهما سلواي، وفي يومٍ من الأيّام سيدرك جون أنّني ضحّيتُ بشبابي من أجلهما».

كانت ديزي تردّ على نداء أمّها بصوتٍ رقيق، وديمي يردّ بصيحةٍ عالية، فتنشغل ميج عن أحزانها، وتنسى وحدتها. لكنّ الألم ازداد عندما غرق جون في السياسة، فكان يسارع دائمًا لمناقشة نقاطٍ مثيرةٍ للاهتمام مع سكوت، غير

مدركٍ أنّ ميج تفتقده. ومع ذلك، لم تنبس ميج ببنت شفة، حتّى وجدتها والدتها تبكي يومًا ما، وأصرّت على معرفة السبب، لأنّها لم تستطع تحمّل رؤية دموع ميج الغالية.

قالت ميج وهي تمسح دموعها على مريلة ديزي: «لن أخبر أحدًا غيرك يا أمّي، لكنّني حقًا أحتاج إلى نصيحتك، فإذا استمرّ جون لفترةٍ أطول فقد أصبح امرأة مطلّقة».

سألتها والدتها بقلق: «إذا استمرّ في ماذا يا عزيزتي؟».

أجابت: «يغيب عن المنزل طوال النهار بسبب عمله، وعندما أريد رؤيته في الليل، يتركني ويذهب كلّ ليلة إلى منزل سكوت. ليس من العدل أن أقوم بالعمل الأصعب، ولا أحظى بأيّ تسلية. الرجال أنانيّون للغاية، حتى أفضلهم.»

ـ «شأنهم في ذلك شأن النساء. لا تلومي جون حتّى تدركي خطأك».

ـ «لكن لا يحقّ له أن يهملني هكذا».

ـ «ألم تهمليه أنتِ؟».

ـ «لماذا تدافعين عنه يا أمّي، كنت أظنّكِ ستقفين إلى جانبي!».

ـ «أنا أعطف عليكِ، لذا أنا بجانبك يا ابنتي، لكنّني أعتقد أنّ هذا خطؤك يا ميج».

t.me/yasmeenbook

ـ «وكيف ذلك؟».

ـ «اسمحي لي أن أفسّر لكِ. هل سبق أن أهملكِ جون، عندما عزمتِ على مؤانسته ليلًا في وقت فراغه الوحيد؟».

ـ «لا، لكنّني لا أستطيع السهر معه الآن وفي يديّ طفلان لأعتني بهما».

ـ «أعتقد أنّكِ تستطيعين ذلك يا عزيزتي، وأعتقد أنّه يجب عليك ذلك. سأتحدّث بحريّةٍ تامّة، ولكن تذكّري أنّ أمّك التي تلومك الآن هي التي تعاطفت معكِ في الماضي».

ـ «بالتأكيد يا أمّي!. تحدّثي معي كما لو كنت ميج الصغيرة، فأشعر غالبًا أنّني بحاجةٍ إلى نصائحكِ أكثر من أيّ وقتٍ مضى».

سحبت ميج كرسيّها المنخفض إلى جانب كرسيّ والدتها، ثم تحدّثت الاثنتان طويلًا بحبّ، وكلّ منهما تهزّ في حجرها طفلًا، وشعرت ميج أنّ رابط الأمومة في هذه الجلسة وحَّدهما أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

ـ «لقد ارتكبتِ الخطأ الذي ترتكبه معظم الزوجات الشابّات، فلقد أنساك حبّك لأطفالك واجبك تجاه زوجك، وهذا خطأٌ طبيعيّ يُغفر يا ميج، لكن الأفضل أن تصلحيه قبل أن تتأزّم الأمور. يجب أن يقوّي الأطفال

حبّكما وعلاقتكما لا أن يفرقا بينكما. كما أنّك تتصرّفين كما لو أنّهما طفلاك وحدك، وليس لجون سوى أن يعيلهما وينفق عليهما. لقد لاحظتُ ما يحدث بينكما منذ بضعة أسابيع، لكنّني لم أتحدّث عن الأمر لأنّني كنتُ متأكّدة من أنّ الأحوال ستتحسّن في الوقت المناسب».

ـ «أخشى ألّا يحدث ذلك. إذا طلبت منه البقاء، سيعتقد أنّني أشعر بالغيرة، ولن أهينه بهذه الفكرة. لا يلاحظ أنّني أريده، ولا أعرف كيف أخبره دون أن أحدّثه عن الأمر».

ـ اجعلي أجواء البيت ممتعة وسعيدة، عندها لن يرغب في الخروج. إنّه يتوق إلى منزله الصغير يا عزيزتي، لكنّكِ دائمًا في غرفة الطفلين، ولا يشعر أنّه في منزله بدونك».

ـ «أليس من الضروريّ أن أبقى في غرفتهما؟».

ـ «ليس كل الوقت، إن حبس نفسك فيها هو ما يجعلكِ متوتّرة، ومن ثمّ سوف تصبحين عديمة الفائدة. علاوة على ذلك، واجبك نحو جون يعادل واجبك تجاه الطفلين. لا تهملي زوجك من أجل طفليكِ، ولا تبعديه عن غرفتهما، بل علّميه كيف يساعدك في رعايتهما، فمكانه في الغرفة كمكانك أنت بالضبط، والأطفال بحاجةٍ إليه. دعيه يشعر أنّ لديه دورًا يقوم به، وسيساعدك بكلّ سرورٍ وإخلاص، وسيكون هذا خيرًا لكليكما».

ـ «أهذا ما تعتقدينه حقًّا يا أمّي؟».

t.me/yasmeenbook

ـ «بل أنا متأكدة من ذلك يا ميج، لأنّني جرّبته، وأنا لا أقدّم نصيحة إلّا إن كنتُ متأكّدة من فعاليّتها. عندما كنتِ أنتِ وجو صغيرتين، ارتكبتُ الخطأ نفسه الذي ترتكبينه أنتِ الآن، وشعرتُ أنّني لن أؤدّي واجبي تجاهكما ما لم أكرّس نفسي روحًا وجسدًا لكما. لجأ والدكِ المسكين إلى قراءة كتبه، بعد أن رفضت كلّ عروض المساعدة، وتركني أحاول بمفردي. لقد كافحت قدر ما أستطيع، لكنّ العناية بجو كانت فوق طاقتي، وكدت أفسدها بكثرة التدليل. أمّا أنتِ فكنتِ ضعيفة، وقد قلقتُ عليكِ بشدّة حتّى أعياني الإرهاق. ثمّ جاء والدكِ وأنقذني، فأدار الوضع بهدوء، وكان مفيدًا لدرجة أنّني رأيت خطئي، ولم أعد قادرةً على الاستمرار من دونه منذ ذلك الحين أصبح هذا سرّ سعادتنا المنزلية. لا يسمح والدكِ للعمل أن يمنعه عن الاهتمام بعائلته أو عن تأدية الواجبات الصغيرة التي تؤثّر علينا جميعًا، وبدوري أحاول ألّا أدع المخاوف المنزليّة تشغلني عن اهتمامي به. يقوم كلّ منّا بدوره على انفراد في العديد من الأمور، ولكن فيما يخصّ منزلنا، فنحن نعمل معاً دائماً».

ـ «صدقتِ يا أمّي، وآمل أن أكون لزوجي وأولادي ما كنتِ عليه لأطفالك. أرشديني إلى الطريق، وسوف أعمل بتوجيهاتك».

ـ «لطالما كنتِ ابنة مُطيعة. حسنًا يا عزيزتي، لو كنتُ مكانك الآن، لسمحتُ لجون أن يعتني أكثر بديمي، لأنّ الصبيّ يحتاج إلى التدريب، وهذا هو الوقت المناسب للبدء. ثمّ سأدع هانا تأتي لمساعدتك، كما كنتُ أقترح دائمًا. إنّها مربيّة محترفة، ويمكنك الاعتماد عليها في رعاية طفليكِ أثناء قيامك ببعض الأعمال المنزليّة، وبذلك ستجدين الوقت لممارسة الرياضة، فأنتِ بحاجةٍ إلى التمارين، وسيستعيد جون صحبة زوجته واهتمامها. اخرجي معه أكثر، وابتسمي واسعدي واضحكي، واشغلي نفسك بالعمل».

كانت ميج تهزّ رأسها، وأكملت الأم: «وتذكّري أنّك مصدر السعادة في العائلة، فإذا حزنتِ، ستسود الكآبة على المنزل. حاولِي الاهتمام بما يهتمّ به جون، وتحدّثي معه، ودعيه يقرأ لك، ويبادلك الأفكار، وليساعد أحدكما الآخر. لا تحبسي نفسك أو تحرميها الحياة والمرح فقط لأنّك امرأة، بل تعمّقي فيما يجري حولك، وثقّفي نفسك حتّى تصبحي جزءًا من هذا العالم، فكلّ هذا يؤثر عليك وعلى عملك».

قالت ميج: «إنّ جون رجلٌ مثقّفٌ للغاية، أخشى أنّه سيعتبرني غبيّةً إذا طرحت أسئلةً عن السياسة وغيرها».

ـ «كلّا، لن يعتبرك غبيّة، لأنّ الحبّ يعمي العين عن

t.me/yasmeenbook

العيوب، ومن غير جون يمكنك أن تسأليه هذه الأسئلة؟ جرّبي، وستجدينه يستمتع بصحبتك أكثر بكثيرٍ من الأمسيات مع زوجة السيّد سكوت».

ـ «سأعمل بنصيحتكِ يا أمّاه. مسكين جون!، أخشى أنّني أهملته حتّى أحزنته، كنت أظنّ أنّني أفعل الصواب، ولم يشتكِ لي أبدًا».

قالت الأم: «لقد حاول ألّا يكون أنانيًّا، لكنّه شعر بالبؤس على ما أعتقد. هذا هو الوقت الذي يشعر فيه الزوجان بدواعي الفرقة، وهو الوقت الذي يجب أن يتّحدا فيه، فسرعان ما تفنى المشاعر، ما لم نحرص على الحفاظ عليها. ولا وقت أجمل وأثمن للوالدين من تلك السنوات الأولى التي يرزقون فيها بأطفالٍ يربّيانهم. لا تجعلي جون يشعر بأنّه غريبٌ عن الطفلين، فلا أحد بإمكانه أن يبقيه آمنًا وسعيدًا في عالم مليءٍ بالفتنة والإغراء أكثر منهما، ومن خلالهما ستتعلّمان حبّ بعضكما بعضاً كما ينبغي. والآن وداعًا يا عزيزتي، فكّري مليًّا في نصيحتي، واعملي بها إن رأيتِ أنّها تناسبك، وبارك الله فيكم جميعًا».

وبالفعل، فكّرت ميج في نصيحة والدتها، ورأت أنّها مناسبة، فعملت بها على الرغم من أنّ المحاولة الأولى لم تجرِ تمامًا كما خطّطت لها. بطبيعة الحال، استبدّ الطفلان بها، وحكما المنزل بصراخهما وتخريبهما فور معرفتهما

بأنّ الوالدة لن ترفض لهما أيّ طلبٍ بهذه الطريقة. وأصبحت ميج أَمَةً لنزواتهما، أمّا جون فلم يخضع لهما بسهولة، وأحيانًا كان يُحزن قلب زوجته حين يحاول ترويض ابنه على الطاعة، لأنّ ديمي ورث عن والده شخصيّته الحازمة، وليس العناد، وإذا عزم على فعل أمرٍ أو أخذ أيّ شيء، فلا يمكن لأيّ أحدٍ سلبه منه. اعتقدت ميج أنّ عزيزها أصغر من أن يتعلّم قهر تعصّبه، لكن الوالد كان يرى عكس ذلك، فبدأ بتعليمه حسن السلوك والطاعة والالتزام بالنظام. اكتشف ديمي في وقتٍ مبكّر أنّه كان دائمًا الخاسر في معاركه مع والده. ولذلك أحبّ أباه، وكان يتأثّر عندما يقول له: «لا... لا... لا،» بحزم أكثر من تأثّره بكلّ الدلال الذي كانت تقدّمه له أمّه.

بعد أيّامٍ قليلة من الحديث مع والدتها، قرّرت ميج تجربة سهرةٍ مع جون، لذلك طلبت عشاءً لطيفًا، ورتّبت غرفة الاستقبال، وارتدت ملابس أنيقة، ووضعت الأطفال في الفراش باكرًا، بحيث لا يقاطع سهرتهما أحد. لكن لسوء الحظ، تملّكت ديمي إحدى نزواته، فكان يأبى الذهاب إلى الفراش، وراحت ميج المسكينة تغنّي له وتهزّه، وروت له القصص وجرّبت جميع الحيل التي تساعد على النوم، ولكن دون جدوى، فلم تُغمَض عيناه الكبيرتان. كانت ديزي قد غفت منذ وقتٍ طويل

t.me/yasmeenbook

ببراءةٍ كعادتها، وظلّ ديمي الشقيّ يحدّق في الضوء، وعلى وجهه ما يدلّ على منتهى اليقظة.

سمعت ميج باب الردهة يغلَق بهدوء، وخطوات زوجها تتّجه بخفّةٍ نحو غرفة الطعام، فسألت طفلها: «هل سينام ديمي الطيّب، بينما تذهب ماما لتعدّ الشاي لبابا المسكين؟».

قال ديمي مستعدًّا للانضمام إلى السهرة: «وأنا أريد شاياً!».

«كلّا يا صغيري، لكنّني سأخبّئ لك بعض الكعك للإفطار، إذا كنت ستخلد للنوم مثل ديزي. هل ستنام يا حبيبي؟».

قال: «حاضر!».

وأغمض ديمي عينيه بشدّة وكأنه يتعجّل النوم للقاء اليوم المنشود. انتهزت ميج هذه الفرصة، وسارعت لاستقبال زوجها بوجهٍ مبتسم واضعةً فوق شعرها شريطًا أزرق اللون يحبّه جون كثيرًا. لاحظها جون على الفور وقال بدهشة مسرورًا: «لم كلّ هذه الأناقة يا صغيرة؟. هل تنتظرين ضيوفًا؟».

أجابت: «أنتظرك أنت يا عزيزي».

ـ «أهو عيد ميلاد، أم ذكرى سنويّة، أو أيّ مناسبةٍ أخرى؟».

- «كلّا، لكنّني سئمت من ارتداء الملابس الرثّة، لذا قرّرتُ أن أتجمّل على سبيل التغيير. أنت دائمًا تهتمّ بأناقتك بغضّ النظر عن مدى تعبك، فلمَ لا أهتمّ بنفسي حين أملك الوقت لذلك؟».

قال جون ذو الفكر التقليديّ: «أفعل ذلك احترامًا لكِ يا عزيزتي».

ضحكت ميج وقد استعادت شبابها وجمالها، وقالت وهي تومئ إليه برأسها فوق إبريق الشاي: «وأنا مثلك يا سيّد بروك».

قال: «إنّ الأمر برمّته ممتعٌ تمامًا، ويذكّرني بالأيّام الخوالي، ومذاق الشاي لذيذ، فلنشرب نخب صحّتك يا عزيزتي».

وشرب جون الشاي في نشوةٍ من الرضا كانت قصيرة جدًا، فما إن وضع فنجانه، حتّى اهتزّ مقبض الباب، وسُمع صوت طفلٍ صغير يقول بنفاد صبر: «افتحوا الباب، أنا قادم!».

قالت ميج: «إنّه ذلك الفتى الشقيّ، لقد أخبرته أن ينام بمفرده، وها هو ذا ينزل السلم حافي القدمين على الأرض الباردة».

دخل ديمي مرتديًا ثوب نومه الطويل المُطرَّز، وراح

t.me/yasmeenbook

يقفز حول الطاولة وخصلات شعره تهتزّ فرحًا، ثمّ أخذ ينظر بعينين لامعتين وبحبٍّ إلى الكعك وقال: «هل نحن في الصباح الآن؟!».

قالت ميج: «لا، لم يحن الصباح بعد. يجب أن تذهب إلى فراشك، ولا تزعج ماما المسكينة. بعد ذلك، يمكنك تناول الكعكة الصغيرة المحلّاة».

قال ديمي وهو يستعدّ للجلوس على ركبة والده والاستمتاع بالطعام: «أنا أحبّ بابا».

لكنّ جون هزّ رأسه وقال لميج: «إذا طلبتِ منه البقاء في غرفته، والنوم بمفرده، فعليكِ أن تحمليه على تنفيذ طلبك، وإلّا فلن يتعلّم طاعتكِ أبدًا».

ردت ميج: «نعم، بالطبع. تعال يا ديمي».

وأخذت ميج ابنها، وشعرت برغبةٍ كبيرةٍ في ضرب هذا الماكر الصغير الذي كان يقفز بجانبها، منتظرًا الرشوة التي ستُقدّم إليه فور وصوله إلى غرفته.

ولم يشعر بخيبة أمل، فلقد أعطته ميج قطعةً من السكر بعد أن أغراها قصر نظرها، ثمّ وضعته في سريره، ومنعته الخروج من غرفته حتى الصباح.

قال ديمي: «نعم!»، وهو يمصّ السكر سعيدًا بانتصاره في محاولته الأولى.

عادت ميج إلى مكانها، واستؤنف العشاء بسرور، ولكن سرعان ما عاد الشبح الصغير، وكشف خطأ أمّه حين طلب بجرأة: «أريد المزيد من السكر يا أمّي».

قال جون بحزمٍ للمذنب الصغير: «هذه الطريقة لن تنفع، ولن نعرف السلام أبدًا حتّى يتعلّم هذا الطفل الذهاب إلى الفراش بانتظام. لقد جعلتِ نفسك أمةً له لوقتٍ طويل. علّميه الدرس، وبعدها ستنتهي هذه المعاناة ولن يُتعبك. ضعيه في سريره واتركيه يا ميج».

«لن يبقى في فراشه إلّا إذا جلست إلى جانبه».

قال جون: «سأتولّى أمره».

ثمّ أمره فصاح: «ديمي، اصعد إلى الطابق العلويّ، واذهب إلى فراشك، كما طلبت منك أمّك».

ردّ الطفل المتمرّد، وهو يمدّ يده نحو الكعكة التي اشتهاها، وبدأ يأكلها بتحدٍّ وجرأة فقال: «لا، لن أصعد!».

- «عليك أن تطيع والدك ولا ترفض أوامره. سأحملك رغمًا عنك إذا لم تذهب بنفسك».

اختبأ ديمي خلف والدته محتميًا بها وقال: «اذهب، أنا لا أحبّ بابا».

ولكنّ ذلك الملجأ لم ينفعه، فلقد سلّمته أمّه إلى أبيه وهي تقول: «كن لطيفًا معه يا جون.» خاف الطفل، فعندما

t.me/yasmeenbook

ابتعدت الأم عنه علم أنّ حسابه بات قريبًا. بعد أن حُرم من كعكته.

وبعد أن حملته يد والده القويّة إلى ذلك السرير المقيت، لم يستطع ديمي المسكين كبح غضبه، بل تحدّى والده بجرأة، وصار يركل ويصرخ على طول الطريق في الطابق العلويّ. وفي اللحظة التي وُضِع فيها في السرير، تدحرج إلى الجانب الآخر منه، وحاول الوصول إلى الباب، لكنّ جون قبض عليه وأعاده إلى سريره بيده القويّة، وتكرّرت هذه التمثيليّة حتّى استنفدت قوى الصغير الذي لجأ إلى الصراخ بصوت عال. عادةً ما تتأثّر ميج بهذا الصراخ، لكنّ جون جلس بلا مبالاة كما لو كان أصمّ. لم يكن يربّت على رأسه، ولا يعطيه الكعك المحلّى، ولا يغنيّ له أو يحكي له القصص، حتّى إنّه أطفأ الضوء. وأضاء الوهج الأحمر للنار الغرفة المظلمة، فصار ديمي ينظر إليه بدافع الفضول لا الخوف. هذا النظام الجديد أثار غضبه، فصرخ لأمّه حزينًا يستنجد بها، بعد أن حنّ لرقّتها معه. سمعت ميج نحيبه وصراخه، وشعرت بالشفقة عليه فركضت إلى الغرفة وقالت لزوجها وهي تتوسّل إليه: «دعني أمكث معه، وسيهدأ يا جون».

ـ «لا يا عزيزتي. لقد أخبرته أن ينام كما طلبتِ منه، ولا بدّ له أن يغفو حتّى لو اضطررت إلى البقاء معه طوال الليل».

قالت ميج وهي تلوم نفسها لهجرها طفلها: «لكنّه سيبكي حتّى يمرض».

ـ «لا لن يمرض، بل هو متعبٌ لدرجة أنّه سينام قريبًا وتُحل المسألة، فسيفهم أنّ طاعة الوالدين أمرٌ واجب. لا تتدخّلي أرجوكِ، سأعالج الأمر بنفسي».

ـ «إنّه طفلي، ولا أرضى أن ينفطر قلبه بسبب قسوتنا عليه».

ـ «وهو طفلي كذلك، ولن أفسده بالتساهل معه وتدليله. انزلي يا عزيزتي، واتركي أمره لي».

كانت ميج تطيع زوجها دائمًا إذا ما تكلّم بهذه اللهجة، ولم تندم أبدًا على خضوعها لأوامره.

ـ «أتسمح لي أن أعطيه قبلةً واحدة يا جون؟»

ـ «بالطبع. قُل ليلةً سعيدة لماما يا ديمي، ودعها تذهب وترتاح، فلقد تعبت من الاعتناء بك طوال اليوم».

لطالما أصرّت ميج على أنّ القبلة سلاحٌ يساعدها على الانتصار، فبعد أن أعطت طفلها قبلة، هدأ الصغير أكثر، واستلقى في ركن السرير الذي تبعثر بسبب غضبه.

قال جون يحدّث نفسه وهو يتسلّل إلى السرير، على أمل أن يجد طفله المتمرّد نائمًا: «يا للطفل المسكين. لقد أرهقه البكاء. سأغطّيه ثمّ سأذهب لأطمئن قلب ميج».

t.me/yasmeenbook

لكنّ ديمي لم يكن نائمًا، ففي اللحظة التي اختلس والده النظر إليه، فتح الصبيّ عينيه وبدأ ذقنه الصغير يرتجف، ثمّ رفع ذراعيه وقال نادمًا على البلبلة التي أحدثها: «لقد أصبحت ولدًا طيّبًا».

كانت ميج تجلس على الدرج عندما تساءلت عن سبب الصمت الطويل الذي أعقب الصراخ، وبعد أن تخيّلت كلّ أنواع الحوادث المستحيلة، تسلّلت إلى الغرفة لتهدّئ مخاوفها، فوجدت ديمي نائمًا، محتضنًا ذراع والده وممسكًا بإصبعه، كما لو كان يشعر بالرحمة تنزل فوقه وتهدهده، فغفا مرتاحاً هانئاً. انتظر جون طفله بصبر الأمّ حتّى أرخت يده الصغيرة قبضتها، وأثناء الانتظار غلبه النعاس، كان مُتعبًا من تلك الفوضى أكثر من تعبه خلال عمله.

ابتسمت ميج عندما وقفت لتراقب الوجهين على الوسادة، ثمّ خرجت من الغرفة وهي تقول بنبرةٍ راضية: «لا داعي للخوف من أن يكون جون قاسيًا للغاية مع طفليّ، فهو يعرف كيف يتعامل معهما».

عندما نزل جون أخيرًا متوقّعًا أن يجد زوجته غاضبةً أو قلقة، تفاجأ بميج تطرّز قبّعةً بهدوء، وترحّب به وهي تطلب منه قراءة أخبار الانتخابات إذا لم يكن متعبًا. أحسّ جون للحظةٍ أنّ هناك ثورةٌ غامضة، لكنّه تصرّف بحكمةٍ

ولم يطرح أيّة أسئلة، مع العلم أنّ ميج كانت فتاةً شفّافةً وصريحة، لا تستطيع الاحتفاظ بسرٍّ، وبالتالي ستظهر الحقيقة قريبًا. قرأ جون مناقشةً طويلة بأقصى قدرٍ من الودّ، ثم شرحها بوضوح شديد، بينما حاولت ميج أن تبدو مهتمّةً للغاية، وأن تطرح أسئلةً ذكيّة، وتمنع أفكارها من الاختلاط بين أخبار السياسة وتطريز القبّعة. ومع ذلك، شعرت أنّ السياسة كانت سيّئة مثل الرياضيّات، وبدا لها أنّ مهمّة السياسيّين هي شتم بعضهم بعضاً، لكنّها احتفظت بهذه الأفكار الأنثويّة لنفسها، وعندما توقّف جون عن القراءة، هزّت رأسها بأسلوبٍ دبلوماسيٍّ مبهم وقالت: «حسنًا، أنا حقًّاً لا أرى ما نحن بصدده».

ضحك جون، وراقبها للحظة وهي تحمل بيدها القليل من الدانتيل والزهور لتزيين القبّعة، وتنظر إليها باهتمامٍ كبيرٍ لم تبدهِ أثناء حديثه عن السياسة.

قال جون محدّثًا نفسه: «إنّها تحاول أن تحبّ السياسة من أجلي، لذا سأحاول أن أحبّ القبعات من أجلها، هذا عادل،»

ثمّ قال بصوتٍ عالٍ: «إنّها رائعة الجمال. أهذه ما تسمّونه قلنسوة الصباح؟».

قالت: «هذه قبّعةٌ يا عزيزي، وليست قلنسوة!. إنّها أفضل قبّعةٍ أرتديها للمسارح والحفلات الموسيقيّة».

t.me/yasmeenbook

ـ «أستميحك عذرًا، إنّها صغيرةٌ جدًّا، فظننتُ أنّها واحدةٌ من تلك الأشياء الهفهافة التي ترتدينها في بعض الأحيان. كيف تستطيعين تثبيتها على رأسك؟».

شرحت له ميج بهدوءٍ ورضا وهي تضع القبّعة: «تُربط قطع الدانتيل تحت الذقن بربطةٍ مزيّنةٍ بوردة، هكذا».

قبّل جون وجهها الباسم وأفسد بقبلته الوردة تحت ذقنها، ثمّ قال: «إنّها قبّعةٌ مذهلة، لكنّني أفضّل الوجه الذي في داخلها، لأنّه مفعمٌ بالشباب والفرح».

ـ «يسرّني أنّها أعجبتك، لأنّني أريدك أن تأخذني إلى إحدى الحفلات الموسيقيّة الجديدة ذات ليلة. أشعر أنّني بحاجةٍ ماسّةٍ لبعض الموسيقا لأستعيد انسجامي. أيمكنك أخذي، من فضلك؟»

ـ «بالطبع سآخذك إلى أيّ مكانٍ تريدين الذهاب إليه، ويسّرني ذلك. أنتِ مسجونة في هذا البيت منذ فترةٍ طويلة، وستستفيدين كثيرًا من الخروج، وبدوري سأستمتع بصحبتك. من الذي اقترح عليكِ هذه الفكرة أيّتها الأمّ الصغيرة؟».

ـ «حسنًا، لقد تحدّثت مع مارمي في ذلك اليوم، وأخبرتها عن مدى توتّري وقلقي، فقالت إنّني أحتاج إلى التغيير والراحة، لذلك اقترحَت أن تساعدني هانا في الاعتناء بالطفلين، وطلبت منّي تولّي شؤون المنزل،

وبذلك أحظى بوقتٍ أستمتع فيه قبل أن أصبح امرأةً عجوزًا مضطربة ومحطّمةَ. إنّها مجرد تجربةٍ يا جون، وأريد المحاولة من أجلك ومن أجلي في الوقت عينه، فلقد أهملتك مؤخّرًا وأنا أشعر بالخجل لإهمالي، سأعيد المنزل إلى ما كان عليه، إن استطعت. أتمنّى ألّا تُعارض فكرتي».

لا يهمّنا ما قاله جون، ولا القبّعة التي نجت بأعجوبةٍ من غمرة العناق، كلّ ما يعنينا هو أنّ جون لم يعترض، نظرًا للتغييرات التي حدثت تدريجيًّا في البيت وأهله. وعلى الرغم من أنّ المنزل لم يصبح مثاليًّا، إلّا أنّ أحوال الجميع تحسّنت بعد تقسيم العمل. استطاع الأب رعاية الطفلين بفضل دقّته وثباته اللذين ساعدا في جلب النظام والطاعة إلى مملكة الصغار، بينما استعادت ميج مرحها، وأراحت أعصابها بعد أن أكثرت من ممارسة التمارين الرياضيّة، فهدأت وحظيت بالقليل من المتعة، وبفضل المحادثات الوديّة مع زوجها. عادت الطمأنينة إلى البيت، ولم يعد جون يرغب بالخروج إلاّ بصحبة ميج.

زار آل سكوت منزل آل بروك، ووجد الجميع المنزل الصغير مبهجًا ومفعمًا بالسعادة وحبّ العائلة، وحتّى سالي موفا أحبّت زيارتهم، وكانت تقول:

ـ «إنّ بيتك مؤنسٌ للغاية، ووجودي فيه يريحني يا ميج».

t.me/yasmeenbook

ثمّ تنظر حولها كما لو كانت تبحث عن مواطن السحر كي تستخدمها في منزلها الكبير الذي تسوده الوحدة، حيث لا أطفال أشقياء يضحكون ويمرحون، وحيث نيد يعيش حياةً لا مكان لها فيها.

ولم تأت السعادة دفعةً واحدة، لكنّ جون وميج وجدا مفتاحها، وعلّمهما كلّ عامٍ جديد من الحياة الزوجيّة طرقاً جديدةً لاستخدام هذا المفتاح، وفتح كنوز الحبّ الحقيقيّ والتعاون، التي قد يعرف الفقراء السبيل إليها، ولا يستطيع الأغنياء شراءها بالمال. هذا هو النوع الوحيد من الرفوف الذي تقبل الزوجات والأمّهات أن يوضعن عليه، آمناتٍ من قلق العالم، حيث يجدن حبًّا مخلصًا في أبنائهنّ وبناتهنّ الذين يتشبثون بهم، فتحتمين بهم من الحزن والفقر والشيخوخة، ويتمتّعن برفقة أزواجهنّ الأوفياء، في السرّاء والضرّاء.

إنّ الزوج الطيّب «رباط العائلة» على حدّ قول الأنجلوسكسونيّين، وتعلّمت ميج، أنّ أسعد مملكةٍ للمرأة هي بيتها، وأعلى شرفٍ لها هو حكمها لمملكتها ليس كملكة متوّجة، ولكن كزوجةٍ مخلصة وأمٍّ حكيمة.

t.me/yasmeenbook

الفصل السادس عشر

لوري البليد

ذهب لوري إلى نايس عازمًا على البقاء هناك لمدّة أسبوع، ولكن انتهى به الأمر بالمكوث شهرًا كاملًا. فقد أعياه التجوال وحيدًا، ثمّ إنّ وجود آيمي كان يضفي سحرًا خاصاً من الوطن للأماكن الأجنبيّة الّتي تحيط بهما. وكان قد افتقد الدلال الّذي كان يحظى به، فراح يتلذذ بطعم هذا الشّعور مجدّدًا. فليس من اهتمام يقدمه الغرباء هنا، وبالرّغم من كونه مغريًا في بعض الأحيانً، لكنه لا يُقارَن بالإعجاب الأخويّ الّذي يلقاه من الفتيات في المنزل. لم تكن آيمي تدلّله كما تفعل الأخريات قطّ، ولكنّها كانت مسرورةً جدًّا لرؤيته الآن، حتّى إنّها تشبّثت به بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، وقد خالجها شعورٌ بأنّه يمثّل العائلة العزيزة الّتي كانت تتوق إليها أكثر ممّا قد تعترف. كان كلٌّ منهما يجد السلوان في الآخر، وكانا يقضيان معظم أوقاتهما سويّاً، سواءٌ أكان عند امتطاء الخيول، أو السّير أو الرّقص أو حتى

التّسكّع، إذ أنه لا يمكن لأيّ أحدٍ أن يكون كثير الدّأب عند تواجده في نايس. ولكن، وبينما قد يبدو للنّاظرين أنّهما كانا يستمتعان بوقتهما بلّا مبالاة، فقد كان كلّ منهما يستكشف الآخر ويبني آراءه عنه دون أن يعي ذلك. كانت آيمي ترتقي دائمًا في تقدير صديقها لها، غير أنّ الأخير ما انفكّ ينحدر في نظرها، وأحسّ كلٌّ منهما بالحقيقة قبل أن يبوح أحدهما للآخر بأيّة كلمة. كانت آيمي تحاول ارضاءه وتفلح في ذلك، لأنّها كانت ممتنّة للملذّات الكثيرة التي كان يقدّمها لها، وكانت تردّ له الجميل بالخدمات البسيطة التي كانت النّساء الأنثويّات يعرفن كيف يضفين عليها فتونًا يتعذّر وصفه. لم يكن لوري يبذل ذرّة مجهودٍ على الإطلاق، بل كان يسير مع التيّار على سجيّته بكل الأريحيّة الممكنة، محاولًا النّسيان، وشاعرًا بأنّ جميع النّساء يُدِنّ له بكلمةٍ طيّبة لأنّ إحداهنّ لم تعره بالًا في الماضي. كان كريمًا بطبعه، وكان مستعدًّا لإهداء آيمي جميع الحليّ في نايس لو أنّها تقبلها، ولكن في الوقت عينه كان يراوده شعورٌ بأنّه عاجزٌ عن تغيير الرّأي الذي بدأت آيمي تشكّله عنه، كما أنّه كان يهاب إلى حدٍّ ما العينين الزّرقاوين الثّاقبتين اللّتين كانتا تبدوان وكأنّهما ترمقانه بنظرة دهشة حزينةٍ من جهة، وازدراء من جهةٍ أخرى.

وبينما انضمّت آيمي إلى لوري أثناء تسكّعه الاعتياديّ

t.me/yasmeenbook

عند ظهيرة يومٍ بهيج، قالت: «ها قد رحل الباقون إلى موناكو لتمضيةً يومهم هناك. فضّلت أن أبقى في المنزل لكتابة الرّسائل وقد انتهيت منها الآن، لذا سوف أذهب إلى فالروزا لأرسم، أتودّ المجيء؟».

بدت الصّالة المظلّلة وكأنّها تناشد ذهابه بعد أن أمعن النّظر فيها، فأجاب ببطء: «في الواقع، أجل. ولكن ألا تظنّين أنّ الطّقس حارٌّ للسير كلّ هذه المسافة؟».

أجابت آيمي، مشيرةً بنظرةٍ تهكّميةٍ إلى الأطفال الأنقياء، وهي التي تعرف أنّهم نقطة ضعفٍ بالنّسبة للوري: «سوف نستقلّ العربة الصّغيرة، وبابتيست يسعه قيادتها، لذا لن تضطرّ للقيام بأيّ شيءٍ باستثناء الإمساك بمظلّتك والحفاظ على نظافة قفّازيك».

«إذًا سأرافقك بكلّ سرور.» ثمّ مدّ يده لإمساك كرّاسة الرّسم خاصّتها، ولكنّها سارعت لدسّها تحت ذراعها بحدّة قائلة:

«لا تثقل على نفسك. حملها لا يتعبني، لكن يبدو لي أنّ الأمر لا ينطبق عليك».

رفع لوري حاجبيه وتبعها على مهلٍ بينما هرعت لنزول السّلالم، ولكن حين صعدا إلى العربة، تسلّم اللّجام ولم يترك لبابتيست الصّغير ما يقوم به سوى تكتيف ذراعيه والغفوة في مقعده.

لم يتعارك الاثنان أبدًا. كانت آيمي مؤدّبةً للغاية، أمّا لوري فقد كان أكثر تكاسلًا من أن يفتعل شجارًا في هذه اللّحظة، لذا ما هي إلّا دقيقة حتّى استرق النّظر من تحت قبّعتها بشيءٍ من الفضول. فاستجابت له بابتسامةٍ هادئة وتابع الاثنان رحلتهما بودّ وصفاء.

كانت النّزهة مؤنسة، انقضت بين طرقاتٍ ملتوية تعجّ بالمناظر الطّبيعيّة الخلّابة التي تبعث في النّفس البهجة والسّرور، وتمتّع العيون المحبّة للجمال. فهنا ديرٌ قديمٌ تعالت منه أصوات تراتيل الرّهبان المقدّسة، وهناك جلس على إحدى الصّخور راعٍ عاري السّاقين، يلبس حذاءً خشبيًّا وقبّعةً مدبّبة وسترةً خشنةً غطّت كتفًا واحدًا، وينفخ في النّاي بينما عنزاته تقفز بين الصّخور أو تجثو عند قدميه.

مرّت مجموعةٌ من الدّواب المحمّلة بالسّلال المليئة بالحشائش الخضراء النّديّة، وقد امتطتها فتياتٌ جميلات أو نساء مسنّات يغزلن على العرناس على طول الطّريق. وسارع الأطفال الأبرياء من أكواخهم الحجريّة لتقديم باقات الزّهور ومجموعاتٍ من الأغصان المحمّلة بالبرتقال. اكتست السّفوح بأشجار الزّيتون المتغضّنة المكفهّرة، وتدلّت حبّات البرتقال الذّهبيّة من الأغصان في البساتين، وانتثرت شقائق النّعمان القرمزيّة على جانبي الطّريق، في حين ارتسمت جبال الألب خلف السّفوح

t.me/yasmeenbook

الخضراء والمنحدرات الوعرة، تقف شامخةً بقممها البيضاء التي كادت تلامس سماء إيطاليا الزّرقاء.

كانت فالروزا اسمًا على مسمّى، إذ كانت الورود تتبرعم في كلّ الأرجاء في ذاك المناخ الصّيفيّ المؤبّد، تعانق السّباط وتتلوّى بين قضبان البوّابة وكأنّها ترسل شذاها العطر ترحيبًا بالمارّين، كانت مصطفّة أمام المدخل تتراقص بين أشجار اللّيمون والنّخيل وصولًا إلى الفيلا أعلى التّلّة. كان كلّ ركنٍ فيها ظليلاً، وكانت المقاعد تناشد المارّة بالتوقّف وأخذ قسطٍ من الرّاحة، مكتسية رداءً من البراعم، وكان كلّ كهفٍ بارد يحرسه تمثال لحوريّة تقف مبتسمةً على سدافة من الأزهار، وكلّ نافورة مرآةً للورود القرمزيّة والبيضاء والورديّة الشّاحبة، تنحني مبتسمةً فرحةً بجمالها. وكانت الورود تغطّي جدران المنزل، وتنسدل فوق الأفاريز، تتسلّق الأعمدة وتثور فوق حاجز الشّرفة الواسعة المطلّة على البحر المتوسط الذي تسطع الشّمس فوق سطحه، وتقوم المدينة ذات الجدران البيضاء على شاطئه.

وقفت آيمي على الشّرفة لتستمتع بالمنظر، ولتستنشق العطر الفاخر الذي راح يلوح في الأرجاء، وسألت: «أليس هذا المكان جنّة مناسبة لشهر العسل؟ وهل سبق لك أن رأيت مثل هذه الورود؟».

ردّ لوري وهو يمصّ إبهامه بعد محاولة فاشلة لقطف زهرةٍ قرمزيّة، نمت بعيدًا عن متناول يده: «كلّا، كما لم يسبق لي أن رأيت مثل هذه الأشواك».

قالت آيمي: «حاول أن تصل إلى الورود المنخفضة، واختر تلك التي لا تحمل أشواكًا».

وقطفت ثلاثًا من الورود البيضاء الّتي كانت ترصّع الجدار خلفها، ووضعتها في عروة زرّه كدعوةٍ للتّصافي. فوقف برهة يتأمّلها وقد علت محياه تعابير الفضول، ذلك أنّ الجانب الإيطاليّ في طبيعته كان يخفي شيئًا من التّشاؤم، وها هو الآن تائه في حالة نصف حلوةٍ نصف مريرة من انقباض الصّدر، تلك الحالة التي يلتمس فيها الشّباب الميّالون إلى الخيال، ما يوحي بالرّومانسيّة في الطّعام والأشياء الزهيدة أينما حلّوا. كان يفكّر في جو التي كانت تتزين بها طوال الوقت، حينما كان يهمّ بقطف تلك الوردة الحمراء الشّائكة. أمّا عن الأزهار الباهتة التي قدمتها له آيمي فقد كانت أشبه بتلك الّتي يضعها الإيطاليّون فوق قبور الموتى، لا كتلك الّتي يضعونها في أكاليل الزّفاف، ولبرهةٍ تساءل ما إذا كان نذير الشؤم هذا له أم لجو، ولكن ما هي إلّا لحظة حتّى عاد إليه حسّ المنطق الأمريكيّ، واستولى على عاطفيّته، فانفجر بضحكةٍ قويّة نابعةٍ من قلبه، ضحكة لم تسمع مثيلًا لها منذ مجيئه.

t.me/yasmeenbook

فقالت، وقد ظنّت أنّ كلامها أضحكه: «إنّها نصيحةٌ مفيدة، حريٌّ بك أن تأخذ بها لتَسلَم أصابعك».

فأجابها بعبث: «أشكرك، سوف أفعل.» لكن بعد عدة شهورٍ سوف يجيبها بجديّة.

جلست آيمي على مقعدٍ خشبيّ وسألت: «متى ستزور جدّك يا لوري؟».

قال:

«قريبًا جدًّا».

قالت:

«هذا ما قلته على مدى الأسابيع الثلاثة الفائتة».

ردّ لوري:

«لا بدّ لي من الاعتراف بأنّ الإجابات المختصرة توفّر المتاعب».

قالت:

«ولكنّه ينتظرك، وعليك فعلًا أن تذهب».

قال مستهزئاً:

«يا لك من شخصٍ مضياف!، أنا أعي هذا».

قالت:

«لِمَ لا تذهب إذًا؟».

أجاب:

«أظنّ أنّه عقوقٌ طبيعيّ».

رمته آيمي بنظرةٍ قاسية، وقالت: «بل تقصد بلادة طبيعيّة، كم هذا مشين!».

تمدّد لوري على حافة السور استعدادًا للرقاد، وقال: «ليس الأمر مشينًا بقدر ما تدّعين، فذهابي لن يجلب لجدّي سوى المتاعب، لذا من الأفضل أن أبقى هنا وأزعجك أنت، فأنا أرى أنّك أكثر تحمّلًا. في الواقع، أظنّك مرتاحةً لذلك كلّ الارتياح».

هزّت آيمي برأسها يائسة، وفتحت كرّاسة الرسم بشيءٍ من الاستسلام، ولكنّها عزمت على تلقين ذاك الفتى درسًا لن ينساه، لذا ما هي إلا دقيقة واحدة حتى سألته:

«وما الذي تفعله الآن؟».

قال:

«أراقب السحالي».

قالت:

«لا، ليس هذا ما قصدته، أعني ما الذي تنوي وتتمنّى فعله؟».

قال:

«أنوي أن أدخّن سيجارة، لو تسمحين لي».

t.me/yasmeenbook

قالت:

«يا لك من شخصٍ مستفز! أنت تعلم أنّني أكره السجائر، ولكنّني سأسمح لك بشرط أن تسمح لي برسمك في كراستي، فأنا أحتاج لتمثالٍ أرسمه».

«هذا من دواعي سروري. كيف تريدين رسمي؟، لوحةً كاملة أم ثلاثة أرباع؟، أيجدر بي الوقوف على رأسي أم على قدمي؟. لا بدّ لي أن أقترح عليك، ومع فائق الاحترام، أن ترسميني مُضّجعًا، ولترسمي نفسك إلى جانبي. وأطلقي على اللوحة اسم: (الكسل اللّذيذ)».

قالت آيمي بنبرةٍ حماسيّة: «فلتبق كما أنت، ولتنم إن كان هذا ما يحلو لك. أنا عازمةٌ على بذل قصارى جهدي».

قال لوري: «يا لهذا الحماس المُثير للإعجاب.» ثمّ استند إلى جرّة طويلة وقد علت وجهه تعابير الرضا التامّ.

سألت آيمي بصبرٍ نافد، آملةً أن تؤجّج مشاعره بذكر اسم أختها المفعمة بالحيويّة والنشاط: «ما الذي قد تقوله جو لو رأتك الآن؟».

ضحك قائلًا: «كالعادة، اغرب عن وجهي يا تيدي فأنا منشغلة الآن».

ولكنّ تلك الضحكة كانت مُتزلّفة وتظلّل وجهه بسواد الكآبة، ذلك أنّ التلّفظ بذاك الاسم المألوف قد لامس

الجرح الّذي لم يندمل بعد. اندهشت آيمي للظلّ ونبرة الصوت، إذ كانا مألوفين لديها، ثمّ رفعت رأسها وقد لاحت على وجه لوري تعابير جديدة من الحزن والأسى تفيض بالألم وعدم الرضا والندم. اختفت تلك التعابير قبل أن تتمكّن من دراستها، وعادت إليه قسماته المألوفة البليدة السابقة. فراحت تراقبه من الناحية الفنيّة، وتفكّر كم كان يشبه الإيطاليين وهو مستلقٍ تحت الشمس حاسر الرأس، وقد تاهت نظراته في عالم الأحلام. كان يبدو أنّه نسي وجودها وأصبح سجين تأمّلاته.

قالت بينما كانت ترسم بعناية وجهه، والذي عكس الجدار القاتم خلفه حدّة ملامحه: «أنت تبدو كتمثال فارسٍ صغيرٍ ينام على ضريحه».

قال:

«أتمنى لو كنت كذلك».

قالت:

«هذه أمنية غبيّة، إلّا إن كنت قد أفسدت حياتك. لقد تغيّرت كثيرًا يا لوري، حتّى إنّي أظنّ أحيانًا...». وهنا توقفت آيمي وقد اعتلت وجهها نظرة كئيبة خجولة لم تفسح مجالًا لحديثها الذي لم تكمله.

لاحظ لوري اضطرابها، وأدرك ما ينمّ عنه من مشاعر

t.me/yasmeenbook

تردّدت في البوح بها، فنظر إلى عينيها مباشرة وقال، كما اعتاد أن يقول لوالدتها: «كلّ شيءٍ على ما يرام يا سيّدتي».

أثلج كلامه صدرها وهدّأ من روع الشكوك التي ما انفكّت تقلقها مؤخّرًا. كما لامس قلبها وحرصت على أن تظهر ذلك، فقالت بنبرةٍ وديّة:

«يسرّني ذلك!. لم أحسب أنّك أصبحت فتًى ضالًا، ولكنّني خشيت أن تكون قد خسرت مالك في ذلك المكان الأثيم المدعو بادن، وسلّمت قلبك لغانيةٍ متزوّجة، أو أنّك وقعت ضحيّة للورطات التي يراها الشباب جزءًا أساسيًا من تواجدهم في بلاد الغربة. لا تبقَ تحت الشمس طويلًا، تعال وارقد على الحشائش هنا ودعنا نتصافى، كما كانت جو تقول حين نجلس على الأريكة ونتبادل الأسرار».

ارتمى لوري منصاعًا بين الأعشاب، وراح يلهي نفسه بوضع الأقحوان في شريط قبّعة آيمي الملقاة هناك.

ثمّ رفع رأسه وفي عينيه نظرة فضول مصمّمة وقال:

«كلّي استعدادٌ للأسرار».

قالت:

«ليس لديّ ما أبوح لك به، فلتبدأ أنت».

قال:

«ليس لديّ ما أقوله أيضًا، حسبت أن لديك بعض الأخبار من الأسرة».

قالت:

«لقد سمعت بكلّ ما حدث مؤخّرًا، ألست محقّة؟. ظننت أنّ جو تكتب لك مجلّدات».

قال:

«إنّها منشغلةٌ جدًّا، وأنا دائم التنقّل والتّجوال. لذا من الصّعب تبادل الرّسائل بانتظام».

ثمّ سألها:

«متى تبدئين بعملك الفنّيّ المذهل يا رافائيلّا؟».

محاولًا تغيير الموضوع، وبعد لحظة صمتٍ أخرى تساءل خلالها ما إن كانت آيمي على علمٍ بسرّه، وأرادت استدراجه للتحدّث في الأمر.

فأجابت بقنوط جازمة:

«لن أبدأ أبدًا. لقد سحقت روما كلّ غطرستي، فبعد رؤيتي للعجائب في هذه البلاد شعرت بأنّ لا قيمة لحياتي، وتخلّيت عن جميع آمالي الحمقاء بقنوط».

قال:

«ولم قد تتخلّين عن أحلامك رغم امتلاكك كلّ هذه الطاقة والموهبة؟».

قالت:

«هذا هو السّبب بعينه، لأنّ الموهبة لا تعني العبقريّة،

t.me/yasmeenbook

ولا يمكن لأيّ قدر من الطّاقة أن يغيّر هذه الحقيقة. أريد أن أكون شخصًا عظيمًا أو ألّا أكون. لا أريد أن أغدو فنّانة مبتدئة، لذا فأنا لا أنوي المحاولة بعد الآن».

قال:

«وما الّذي سوف تفعلينه في حياتك الآن إذًا؟. إن جاز سؤالي».

قالت:

«سوف أشحذ قدراتي الأخرى، وأصبح مصدر فخر لمجتمعي إن سنحت لي الفرصة لذلك».

ابتسم لوري، ولكنّه كان معجبًا بالرّوح الرّياضيّة التي كانت آيمي ترحبّ بها بالأهداف الجديدة، وذلك حين تموت إحدى الأهداف القديمة التي تعلّقت بها طيلة حياتها، وأعجبه أنّها لم تكن تضيّع الوقت على ندب حظّها، فقال:

«هذا جيّد! وهنا يأتي دور فريد فون، صحيح؟».

التزمت آيمي الصّمت، ولكن نظرة مرتبكة ظهرت على محيّاها، فما كان من لوري إلّا أن نهض وقال بنبرةٍ جديّة:

«والآن، هلّا سمحت لي بأخذ دور الأخ الأكبر، وأن أطرح عليك بعض الأسئلة؟».

أجابت:

«لا أعدك بأنّني سأجيبك».

قال:

«ولكنّ وجهك سيفضح ما يحاول لسانك إخفاءه. أنت لم تعيشي كامرأةٍ في هذا العالم بقدرٍ يسمح لك بإضمار مشاعرك يا عزيزتي. سمعت إشاعات عنك وعن فريد في السنة الفائتة، وفي رأيي إنّ هذه العلاقة كانت ستتطوّر لو لم يجرِ استدعاؤه إلى بلاده على حين غِرّة، ولو أنّه لم يحتجز هناك طيلة هذا الوقت، ألست محقًّا؟».

وهنا كانت إجابة آيمي المتجهّمة:

«أنا لست مخوّلة للإجابة عن هذا السؤال.» غير أنّ الابتسامة الّتي ارتسمت فوق شفتيها، والوميض الغدّار الذي تلألأ في عينيها، خانا هذا التزلّف وأفصحا عن معرفتها لقوّتها واستمتاعها بهذه المعرفة.

قال:

«آمل أنّكما لستما مخطوبين.» وفجأةً بدا لوري كالأخ الأكبر وكان جديًّا للغاية.

قالت:

«لسنا كذلك».

قال:

«ولكنّكما سوف تصبحان كذلك إن عاد وجثا على ركبتيه أمامك، ألا توافقينني الرأي؟».

t.me/yasmeenbook

قالت:

«على الأرجح».

قال:

«إذن فأنت تحبّين ذاك العجوز فريد؟».

أجابت:

«قد أحبّه، إن حاولت».

قال:

«ولكنّك لست عازمةً على المحاولة إلّا حين تحلّ اللّحظة المناسبة؟. يا للعجب!، يا للحكمة والرّزانة!، إنّه صديقٌ مخلص، ولكنّني لم أحسب يومًا أنّه قد يكون الرّجل الذي تحبّينه».

بادرت آيمي محاولةً أن تحافظ على هدوئها ووقارها قائلة:

«إنّه رجلٌ ثرّي ومحترم وصاحب أخلاقٍ رفيعة.» ثمّ شعرت بالعار من نفسها على الرّغم من صدق نواياها.

قال:

«أتفهّم الأمر. فملكات المجتمع لا يستطعن المضي قدمًا من دون المال، لذا فأنت تنوين الحصول على الرجل المناسب وشقّ طريقك بهذه الصورة؟. ويبدو لي هذا مناسبًا وملائمًا في جميع أنحاء العالم، ولكنّ الأمر يبدو غريبًا حين يصدر عن فتاةٍ مثلك».

قالت:

«ولكنّها الحقيقة على أيّة حال».

جاءت الإجابة المختصرة الحازمة متعارضة مع صاحبتها الشّابّة. أحسّ لوري بذلك، ثمّ استلقى على الأرض ثانيةً، وقد تملّكه شعورٌ بخيبة أمل غريزيّة عجز عن وصفها. صمته ونظراته أقلقا آيمي، كما أقلقها استهجانها الدّاخلي إزاء الموقف الذي أبدته، ما جعلها مصمّمةً على إلقاء محاضرتها دون تأخير.

فقالت بحدّة:

«هلّا أسديت لي معروفًا واستفقت من أحلامك الورديّة؟».

قال:

«فلتوقظيني بنفسك من فضلك».

قالت، وقد بدت أنّها ترغب في إنهاء ذلك بلمح البصر:

«يمكنني ذلك إن حاولت».

ردّ لوري، متلذّذًا بإغاظتها بعد أن سُلبت منه وسيلة تسليته المفضّلة هذه طويلًا، قائلًا:

«فلتحاولي إذًا، لك شرف المحاولة».

قالت:

«لكنّك ستغضب منّي بعد خمس دقائق».

t.me/yasmeenbook

قال:

«أنت تعلمين أنّك لن تتسببي بغضبي البتّة، فإضرام النّار يحتاج إلى حجريّ صوّان، أمّا أنت فباردة وناعمة كالثلج».

قالت:

«أنت لا تملك أدنى فكرة عمّا يسعني فعله، فالثّلج يولّد وميضًا وهّاجًا، وإن أحسنت استعماله كانت له لسعة قاسية. إنّك تصطنع اللّامبالاة وفي وسعي أن أثبت لك ذلك بقليلٍ من الاستفزاز».

قال:

«فلتستفزيني كما تشائين، فأنت لن تتمكنّي من إيذائي، ولعلّ الأمر يسلّيك، حسبما يقوله الرّجل الضّخم حينما تضربه زوجته النّحيلة. لك أن تريني على أنّني زوجك أو بساطٌ، ولتضربيني إلى أن يصيبك الكلل إن كان هذا التمرين يناسبك».

وبينما كانت آيمي هي من أوقعت نفسها في هذا المأزق، وفي أوج رغبتها لإيقاظه من فتوره الذي غيّر فيه ما غيّره، شحذت لسانها تمامًا كما شحذت قلمها وبدأت تقول:

«لقد قرّرنا أنا وفلو أن نطلق عليك اسمًا جديدًا، وهو: لورانس الكسول. هل أعجبك؟».

اعتقدت أنّ ذلك سيزعجه، ولكن جلّ ما فعله كان شبك ذراعيه تحت رأسه ثمّ قال بهدوء:

«لا بأس به. شكرًا لكما يا سيدتيّ».

قالت:

«أتودّ أن تعرف رأيي الصّريح فيك؟».

أجاب:

«أتوق لسماعه».

قالت:

«في الواقع أنا أبغضك».

لو أنّها حاولت قول: «أنا أكرهك» بنبرةٍ نزقةٍ مدلّلة، لضحك منها، ولربّما أعجبه الأمر، ولكنّ لهجتها الجدّيّة الحزينة جعلته يفتح عينيه. فسألها على عجل:

«ولم إذا سمحت؟».

قالت:

«لأنّك وعلى الرّغم من توافر كلّ الفرص الّتي تسنح لك أن تكون شخصًا طيّبًا، نافعًا وسعيدًا، إلّا أنّك اخترت حياة الفوضى والشّقاء والكسل».

قال:

«يا لألفاظك القويّة يا آنسة».

t.me/yasmeenbook

قالت:

«إن كانت تروق لك، ففي وسعي أن أتابع».

قال باهتمام:

«أرجوكَ افعلي، فذلك مثيرٌ للاهتمام».

قالت:

«هذا ما توقعته. فالأنانيّون أمثالك يحبّون التحدّث عن أنفسهم دائمًا».

سألها:

«وهل أنا أنانيّ؟». وانزلق السؤال من فمه لا إراديًّا، إذ كان الكرم هو الفضيلة الوحيدة التي يفخر بها.

أردفت آيمي بصوتٍ هادئ، ناعم كان وقعه في تلك اللّحظة أكثر فعّالية من ثورة الغضب قائلة:

«أجل، أنانيٌّ للغاية. وسأريك كيف اكتشفت ذلك، فقد كنت أدرس أحوالك أثناء مرحنا معًا، ويمكنني القول إنّني لست راضيةً عنك إطلاقًا. فها قد أمضيت حوالي ستّة أشهرٍ في أوروبا ولم ينجم عن ذلك سوى هدرك الوقت والمال وتخييب أمل جدّك أولاً».

قال:

«أو ليس من حقّي الاستمتاع بوقتي بعد كفاحٍ دام أربع سنوات؟».

قالت:

«أنت لا تبدو وكأنّك حظيت بوقتٍ ممتع مطلقًا. وأنا أرى أنّك لا تستحقّ هذه المتعة. أخبرتك عندما التقينا أنّك تحسّنت كثيرًا، وها أنا الآن أسحب كلامي كلّه، ذلك أنّني لا أظنّ أنّك بنصف اللّطف الذي كنت عليه حينما تركتك في الوطن. بل أصبحت بليدًا خاملًا، محبًّا للنّميمة والثّرثرة، وتضييع الوقت على سفاسف الأمور، وتستعيض برخيص الدلال والإعجاب الّذي يمنحك إيّاه المغفّلون عن التّقدير والاحترام النّابعين من الأشخاص العقلاء. ورغم ما منّه اللّه عليك من مال وجاه وموهبة ومكانة وصّحة وجمال..».

حاول لوري فتح فمه بالتدخل، لكنها أسكتته قائلة: «هذا يرضي غرورك، أمحقّةٌ أنا؟. ولكن تلك هي الحقيقة، لذا لا يسعني إلّا أن أقولها، فعلى الرّغم من كلّ هذه النّعم الّتي لا بدّ لك من تسخيرها لصالحك والتّمتع بها إلّا أنّك لا تجيد سوى التسكّع والعبث، وبدلًا من استغلال هذه المزايا كي تصبح رجلًا يُعتمد عليه، فأنت لست سوى...» وهنا توقّفت، وقد أخفت عيناها نظرةً حملت ألمًا وشفقة.

أكمل لوري جملتها بهدوءٍ قائلًا: «رجلٌ سهل التّلاعب به..» ولكنّ حديث آيمي بدأ يأخذ مفعوله، إذ لاح في عينيه

t.me/yasmeenbook

بريقٌ وارتسمت معالم الغضب والألم فوق وجهه لتحلّ مكان اللامبالاة.

قالت آيمي بمرارة: «هذا ما توقّعت منك قوله. أنتم الرّجال تروننا على أنّنا نحن معشر النّساء ملائكة، وتقولون إنّنا نستطيع أن نصنع منكم ما نريد، ولكن ما إن تحين اللّحظة الّتي نرغب فيها صدقًا بالمحاولة، حتّى تسخروا منّا ولا تعيرونا بالًا. وإن دلّ هذا على شيءٍ فإنّه يدلّ على زيف إطرائكم لنا».

ثمّ أدارت ظهرها لصديقها الساخط الرّاقد عند قدميها.

وفي اللّحظة التالية، حطّت يد على صفحة كرّاستها كي تتوقّف عن الرّسم، وجاء صوت لوري كتقليدٍ هزليّ لصوت طفلٍ تائب فقال: «آه سوف أكون فتى طيّبًا، سأكون فتى طيّبًا!».

ولكنّ آيمي لم تضحك، بل كانت جديّة تمامًا، وراحت تدقّ بقلمها على اليد الملقاة فوق كرّاستها، وقالت برزانة: «ألا تخجل من يدك هذه؟، إنّها ناعمةٌ وبيضاء كأيادي النّساء، وتبدو كأنّها لم تُجِد فعل شيءٍ سوى لبس أفخم قفازات متجر: (جيوفاني)، أو اقتطاف الأزهار للنّساء. أشكر اللّه أنّك لست من أولئك الرّجال شديدي التأنق، إذ يسرّني أنّني لا أراك تلبس الألماس أو الخواتم، ولا أراك ترتدي سوى هذا الخاتم الصّغير الّذي

أهدتك إيّاه جو منذ زمنٍ طويل. كم أتمنّى لو كانت معي الآن لتعينني عليك».

قال بشرود:

«وأنا أتمنى ذلك».

واختفت اليد كما حطّت فجأة، وكان صدى أمنية آيمي العامر بالحيويّة لائقًا بها تمامًا. فالتفتت إليه وقد استفاقت في رأسها فكرةٌ جديدة، ولكنّه كان راقدًا وقد أخفت قبّعته وجهه وحجب شاربه فمه، فلم تتمكّن من رؤية شيءٍ سوى صدره يعلو في أنفاس طويلة كانت أشبه بالتنهّدات، واختفت اليد التي تلبس الخاتم بين الحشائش، كأنّه أراد أن يخفي شيئًا عزيزًا يعني له الكثير وهو أثمن من أن يتحدّث عنه. وفي لحظةٍ واحدة، اتّخذت التّلميحات والإشارات أشكالًا ومعانيَ في ذهن آيمي تخبرها بأسرارٍ لم تفصح لها أختها عنها قطّ. فتذكّرت أنّ لوري لم يتحدّث عن جو من تلقاء نفسه حتّى الآن، ثمّ استذكرت الظلّ الّذي غطّى وجهه قبل قليل، والتغيّر في تصرّفاته، وارتداءه لذاك الخاتم الصّغير الّذي لا يصلح كحلية لمثل هذه اليد الأنيقة. وبما أنّ طبيعة الفتيات الحاذقة تُمكّنهن من قراءة الإشارات واستشعار دلالاتها، كان قد انتاب آيمي شكٌّ بأنّ قصّة حبٍّ فاشلة كانت وراء هذا التغيير، أمّا الآن فقد قُطع الشكّ باليقين. وفاضت عيناها الثّاقبتان رأفةً ومودّة وحين

t.me/yasmeenbook

فتحت فمها لتتحدّث ثانية، كان صوتها لطيفًا وناعمًا تعرف كيف تصطنعه حين تريد ذلك.

فقالت: «أعلم أنّني لا أملك الحقّ في التّحدث إليك بهذا الأسلوب، ولولا دماثة خلقك لكنت صببت عليّ نيران غضبك الآن، ولكنّ الحقيقة أنّنا جميعًا نكترث لأمرك ونحبّك ونفتخر بك، ولا أطيق فكرة أن يخيب أمل الآخرين بك في بلادك، على الرّغم من أنّني أعلم أنّهم قد يكونون أكثر تفهّمًا منّي لهذا التّغيّر».

قال لوري بصوتٍ كئيبٍ أجش، وما زالت القبعة تغطّي وجهه: «أظنّ أنّهم سيكونون كذلك».

قالت آيمي متمنيّةً ألّا تخطئ إصابة الهدف هذه المرّة: «كان عليهم إخباري، كي لا يسمحوا لي بمعاتبتك وتوبيخك في الوقت الّذي ينبغي لي فيه أن أكون في قمّة اللّطف والصّبر. أنا لم أستلطف الآنسة راندال تلك قطّ، ولكنّني الآن بتّ أبغضها!».

أزاح لوري القّبعة عن وجهه بعنف، وقد لاحت على وجهه نظرةٌ لم تفسح مجالًا للشّكّ في مشاعره حيال تلك الفتاة، وقال: «سحقًا للآنسة راندال!».

ـ «أستميحك عذرًا، فقد حسبت...»، وهنا خانتها عباراتها.

أشاح لوري بوجهه وقال بنبرته الهوجاء المعتادة:

ـ «كلّا...هذا ليس صحيحًا، أنت تعلمين تمام العلم أنّني لا أكنّ مشاعرًا لأحدٍ باستثناء جو».

ـ «هذا ما ظننته، ولكن بما أنّهم لم يتطرّقوا لهذا الموضوع البتّة، وقد كنت مسافرًا فحسبت أنّني كنت مخطئة، ثمّ إنّني تفاجأت حين علمت أنّ جو كانت تجافيك، كنت أحسبها لطيفةً معك فما السّبب؟. كنت متأكدّةً من أنّها تحبّك من أعماق قلبها».

قال:

ـ «كانت لطيفةً بحقّ، ولكنّ لطفها كان من نوعٍ آخر، ومن حسن حظّها أنّها لم تقع في حبّي إن كنت ذلك الرّجل عديم الفائدة كما تحسبينني. ولكنّ الخطأ خطؤها، وفي وسعك أن تعلميها بهذا».

وهنا عادت تلك النّظرة المريرة القاسية لتضايق آيمي، إذ لم تعلم أيّ بلسمٍ تستخدمه لتطيّب جروحه. فقالت:

«لقد أخطأت في حقّك، كنت أجهل هذا الأمر. أنا آسفة لأنّني لم أر الحقيقة، ولكنّني ظننتك ستتعامل مع رفضها بطريقةٍ أفضل يا تيدي العزيز».

رفع لوري يده لردع آيمي عن متابعة حديثها الّذي شحنته بنبرة جو نصف المعاتبة ونصف الحنونة قائلًا: «إيّاك، فليس لأحدٍ غير جو أن يناديني بهذا الاسم».

t.me/yasmeenbook

ثمّ أردف بصوتٍ هادئٍ وهو يقتلع الحشائش بيده: «انتظري إلى أن تجرّبي هذا الأمر بنفسك».

قالت آيمي بعزيمة شخصٍ لا يعرف شيئًا عن هذه التّجربة: «لو كنت مكانك، لأخذت الأمور بصدرٍ رحب، وحاولت أن أكون جديرةً باحترام الآخرين إن لم أستطع الفوز بحبّهم».

في الحقيقة، كان لوري يزّكي نفسه باحتماله المهيب للصّدمة، وباستغنائه عن الرّحمة أو الشّفقة، عن النّحيب والنّواح وباحتفاظه بعذابه ولوعته لنفسه. ولكنّ حديث آيمي سلّط الضّوء على هذه المسألة من منظارٍ جديد، وللمرّة الأولى في حياته أحسّ لوري أنّ الاستسلام عند أوّل عقبةٍ، والانعزال عن العالم واللامبالاة ينمّ عن الضّعف والأنانيّة. وفجأةً أحسّ وكأنّه استيقظ من حلمٍ عميقٍ، وعجز عن العودة إلى النّوم مجدّدًا. ثمّ نهض وسألَ ببطء: «أتحتقرني جو كما تفعلين؟».

أجابت:

«أجل، إن رأتك الآن بلا ريب فهي تكره الكسالى والخاملين. لِمَ لا تصنع شيئًا عظيمًا وتجعلها تقع في حبّك؟».

قال:

«لقد بذلت قصارى جهدي، ولكنّ دون جدوى».

قالت:

«أتقصد التّخرّج بدرجاتٍ جيدة؟. إنّ ذلك أقلّ ما يمكنك فعله، لأجل جدّك، فمن العار أن تفشل بعد كلّ الوقت والمال الذي أنفقته، والجميع يعلم أنّك أهلٌ لهذه المهمّة».

أسند لوري رأسه إلى يده وقال: «لقد فشلت بالفعل، لأنّ جو لم تقع في حبّي».

قالت:

«أنت مخطئ، فنجاحك كان لصالحك، إذ أثبتّ أنّك تتمتّع بالقدرة على إنجاز شيءٍ إن عقدت العزم عليه. وإن وضعت مهمّةً أخرى نصب عينيك مجدّدًا، فستعود إلى طبيعتك المرحة والمبتهجة، وتنسى بنات أفكارك».

قال:

«هذا محال».

ردت:

«فلتحاول وترى بنفسك. لا داعي أن تهزّ كتفيك وتظنّ أنّني أدّعي الحكمة والمعرفة بهذه الأمور، فتلك ليست غايتي، ولكنّني أراقب ما حولي، وأفقي أوسع ممّا قد يخيّل إليك. أنا مهتمّةٌ بتجارب الآخرين وتناقضاتهم، وعلى الرّغم من أنّني لا أجد لها تفسيرًا إلّا أنّني أبقيها في

t.me/yasmeenbook

ذاكرتي وأستعملها لصالحي. لك أن تحبّ جو بقدر ما تشاء إن كان هذا ما يرضيك ولكن لا تسمح لهذا الحبّ بالقضاء عليك، إذ إنّ تجاهل كلّ أبواب الخير لأنّ بابًا واحدًا سُدّ في طريقك لأمرٌ آثم. هاك، سأقلع الآن عن إلقاء المحاضرات، لأنّني على يقينٍ أنّك سوف تستفيق وتغدو رجلًا رغم أنف تلك الفتاة متحجّرة الفؤاد».

خيّم الصّمت لبضع دقائق، وجلس لوري يلهو بالخاتم الصّغير في إصبعه، وراحت آيمي تضيف اللّمسات الأخيرة على لوحتها التي كانت تعمل عليها أثناء حديثها، ثمّ وضعتها على ركبة لوري وقالت ببساطة:

«ما رأيك؟».

نظر لوري إليها، ثمّ ارتسمت ابتسامةٌ فوق شفتيه لم يتمكّن من كبحها، ذلك أنَّ اللّوحة كانت مرسومةً بحرفيّة عالية: فها هو ممدّدٌ على الحشائش، بعينيه النّاعستين ووجهه الخالي من التّعابير، ويحمل في يده سيجارةً توّج دخانها رأسه الشّارد.

وقال بابتسامةٍ نابعةٍ من القلب وقد أدهشته مهارتها: «يا لك من رسّامةٍ ماهرة!» ثمّ أضاف ضاحكًا: «أجل، هذا أنا حقًّا».

فقالت:

«هذا ما أنت عليه الآن.» ثمّ أتت بصورةٍ أخرى وقالت: «وهذا ما كنت عليه».

لم تكن الصّورة الأخرى تقارن بالأولى، ولكنّها كانت مفعمةً بحيويّةٍ كفّرت عن العديد من الأخطاء فيها، وكان فيها من ذكريات الماضي ما كان كفيلًا بتغيير تعابير الشّابّ في ثوانٍ وهو ينظر إليها. كانت مجرّد رسم أوّليّ للوري وهو يروّض جوادًا، وقد خلع قبّعته ومعطفه، وكان كلّ جزءٍ منها ينضح بالحياة: فها قد خضع الجواد لمدرّبه، ووقف منحني العنق وقد قيّد باللّجام، وراح يضرب الأرض بإحدى قدميه بصبرٍ نافد، ويصرّ أذنيه كأنّه ينصاع لأوامر مروّضه الماهر. وكان في صورة الفارس، مع شعره المتموّج وقامته الممشوقة، من القوّة والبسالة والنّشاط المفعم بروح الشّباب ما يتعارض كليًّا مع خمول الصّورة الّتي أطلق عليها اسم: «الكسل اللّذيذ». لم ينبس لوري ببنت شفة ولكنّ بينما كانت عيناه تتنقّلان بين الصّورتين، لاحظت آيمي معالم الخجل الّتي علت وجهه، ورأته يزمّ شفتيه وكأنّه قرأ لتوّه الدّرس الذي ألقته آيمي قبل قليلٍ وتقبّله أخيرًا. فأحسّت بالرّضا ولم تنتظره كي يتكلّم، بل قالت بأسلوبها المتفائل:

«ألا تذكر ذلك اليوم الذي روّضت فيه هذا الجواد الجامح أمام أعيننا؟. كانت ميج وبيث خائفتين، في حين كانت جو تصفّق لك وتقفز في الأرجاء، أمّا أنا فقد جلست على السّور ورحت أرسمك. لقد وجدت هذه الرسمة

t.me/yasmeenbook

في حافظتي بمحض المصادفة، فأضفت إليها اللّمسات الأخيرة واحتفظت بها لأريك إيّاها».

وقف لوري قائلًا:

«أشكرك بحقّ. ولا بدّ لي من الاعتراف بأنّك تطوّرت كثيرًا منذ ذلك اليوم وأنا أهنّئك على هذا. هلّا سمحت لي بتذكيرك، وبينما نحن في جنّة شهر العسل هذه، أنّ موعد تقديم العشاء في الفندق هو الساعة الخامسة؟».

ثمّ أعاد إليها الصّور بابتسامة وانحنى شكرًا وامتنانًا، ونظر إلى ساعته كأنّه يحاول تذكير آيمي أنّ لكلّ شيءٍ نهاية، حتّى المحاضرات التأديبيّة. حاول لوري أن يستعيد مظهره اللّامبالي، ولكنّه كان مجرّد تصنّعٍ هذه المرّة ليس إلّا، ذلك أنّ الاستفزاز قد أثّر فيه أكثر ممّا قد يعترف به. واستشعرت آيمي البرودة في تصرّفاته، فقالت في قرارة نفسها:

«أعي أنّني أهنته، ولكن إن كان هذا يصبّ في مصلحته فأنا راضيةٌ، وإن زرع الكره في قلبه عليّ فسوف أحزن، ولكنّ ما قلته كانت الحقيقة وليس في استطاعتي أن أسحب كلمةً واحدة منها».

وفي طريقهما إلى المنزل، كان الاثنان يتحدثّان ويضحكان سويًّا، وظنّ بابتيست الصّغير أنّهما منسجمين للغاية، وقال في نفسه: «إنّ السيّد والآنسة متناغمين حقًّاً

هذا اليوم». غير مدركٍ بأنّ كليهما كان يشعر بالقلق في داخله، وأنّ الصّراحة الوديّة قد تعكّرت، وأنّ غمامة قد خيّمت فوق الصّفاء والمحبّة، وبالرّغم من تظاهرهما بالسّعادة إلّا أنّ كليهما كان يحمل في قلبه بعض الغمّ والانزعاج.

وقبل أن يفترقا عند باب منزل عمّتها، قالت آيمي: «هل سنراك هذا المساء يا أخي؟».

«لسوء الحظّ، لديّ موعد. إلى اللّقاء يا آنستي.» ثمّ انحنى كأنّه يهمّ بتقبيل يدها، على غرار الأجانب، الأمر الذي كان يجعله خيرًا من كثيرٍ من الرّجال. ولكنّ آيمي رأت في وجهه ما جعلها تقول بسرعةٍ وحرارة:

«لا، تصرّف على طبيعتك معي يا لوري، ولنفترق كما اعتدنا أن نفعل سابقًا. أفضّل أن نتصافح بحرارةٍ كالإنكليز على جميع التّحيّات العاطفيّة الفرنسيّة».

فقال بنبرته التي تحبّها: «وداعًا يا عزيزتي».

ومع هذه الكلمات، تركها لوري بعد مصافحةٍ كادت تكون مؤلمةً رغم حرارتها.

في صباح اليوم التّالي، تلقّت آيمي رسالةً على غير العادة، رسالة رسمت ابتسامةً على وجهها في استهلالها، وجعلتها تطلق تنهيدةً في ختامها:

t.me/yasmeenbook

«معلّمتي العزيزة،

فلتوصلي تحيّات وداعي إلى عمّتك من فضلك، ولتبتهجي، ذاك أنّ: «لورانس الكسول» قد ذهب إلى منزل جدّه كأفضل الفِتية. أتمنّى لك شتاءً سعيدًا، وأسأل الآلهة أن تمنّ عليك بشهر عسلٍ مباركٍ في فالروزا!. أظنّ أنّ «فريد» سيستفيد كثيرًا من استفزازك. فلتبلغيه ذلك.

مباركتي لكما،

مع جزيل الشّكر».

قالت آيمي بابتسامةٍ راضية:

«يا للفتى المطيع!، أنا مسرورةٌ لذهابه.» ثمّ اغتمّ وجهها في لحظةٍ ونظرت من حولها إلى الغرفة الفارغة، وأردفت بتنهيدةٍ لا إراديّة: «أجل أنا مسرورة ولكنّني سأفتقده بشدّة».

t.me/yasmeenbook

الفصل السابع عشر

وادي الظّلال

حين انقضت مرارة الحزن الأولى، تقبّلت العائلة ما لا يمكن تجنّب حدوثه، وحاول الجميع أن يتكيّفوا مع الأمر بابتهاج وتفاؤل، بالتفاني في إعانة بعضهم بعضاً وبذل فائض المحبّة لشدّ أواصر الأسرة في أوقات الشّدائد. فوضع كلٌّ منهم مأساته جانبًا، وأدّى دوره ليجعل من هذه السنة الأخيرة سنة سعيدة.

وكانت أكثر الغرف انشراحًا في المنزل مخصصّةً لبيث، وفيها كلّ ما تشتهيه الفتاة من زهورٍ وصور، آلة البيانو خاصّتها، وطاولة عملها وقطيطاتها العزيزة. ووضع الوالد أفضل كتبه هناك، أمّا الوالدة فقد أبقت فيها مقعدها المريح، وتركت فيها جو مكتبها، وزيّنتها آيمي بأكثر رسوماتها إتقانًا، كما كانت ميج تأتي بطفليها كلّ يوم لتدخل البهجة والسّرور إلى قلب خالتهما بيث. كان

جون قد خصّص بعض المال ليشتري للمريضة ما تريده من فاكهةٍ تشتهيها نفسها. ولم تدّخر العجوز هانا جهدًا في طهو أطيب الوجبات وألذّها لتغري شهيّتها، وكانت تعدّها وهي تذرف دموع الحزن والألم، ومن خلف البحار، كانت تصلها الهدايا المتواضعة والرّسائل المحمّلة بدفء وعطر أماكنٍ لا تعرف طعم الشّتاء.

هنا جلست بيث، مقدّرةً كقدّيسةٍ في أحد المعابد، مرتاحة البال ومنهمكةً في العمل كعادتها، إذ لا يمكن تغيير طبيعتها الطيّبة الكريمة. حتّى في أيّامها الأخيرة استعدادًا لمفارقة الحياة، كانت تسعى جاهدةً لجعلها أكثر سعادةً للباقين فيها. لم تعرف أناملها الرّشيقة الكسل يومًا، وكان أكثر ما يسعدها هو صناعة تحفٍ صغيرة لأطفال المدارس الذين يمرّون من تحت نافذتها ذهابًا وإيابًا، فكانت تلقي لهم أزواجًا من القفّازات لتدفئة أيادٍ تهرّأت من شدّة البرد، أو كتابًا لتعليم إحدى الأمّهات الصّغيرات حياكة الأثواب لدماها، أو ممسحة أقلامٍ للكتّاب الصّغار التّائهين في غابات الكتابة، أو كرّاسات رسمٍ للعيون المُحبّة للفنّ، وكلّ ما هناك من مبهجات إلى أن شعر روّاد العلم المتردّدون هؤلاء أنّ طريقهم بات مزيّنًا بالورد، وارتأت لهم الفتاة المعطاءة كإحدى الجنيّات، تقبع في الأعلى وتمطر عليهم الهدايا ممّا يشبع رغباتهم ويرضي حاجاتهم. لم تكن بيث

t.me/yasmeenbook

تنتظر مقابلًا لجميلها هذا، ولكنّها كانت تجد مكافأتها في الوجوه المشرقة المبتسمة التي تطلّ عليها من النّافذة، والرّسائل الظّريفة المُفعمة بعبارات الشّكر والامتنان التي كانت تصلها.

مضت الشهور القليلة الأولى سعيدة هانئة، وكانت بيث أغلب الوقت تنظر من حولها وتقول: «كم هذا جميل!» حين كانت جميع العائلة تجتمع في غرفتها المشرقة، وسط صراخ الأطفال وضوضائهم. وكانت أمها وأخواتها يعملن على مقربةٍ منها، وكان والدها يقرأ بصوته الرّخيم من الكتب القديمة الغنيّة بالمواعظ التي ما زالت ضروريّةً حتّى يومنا هذا. كانت الغرفة أشبه بكنيسةٍ صغيرة يلقي فيها الأب ما يجب أن تتعلمه بناته، محاولًا أن ينير بصيرتهنّ ويريهنّ أنّ الأمل موالٍ للحبّ، وأنّ الإيمان يجعل من الاستسلام مُحالاً. كانت خطاباتٍ بسيّطة، أصابت أفئدة المستمعين في صميمها، ذلك أنّ قلب الوالد كان عامرًا بالإيمان، ونبرات صوته المرتعشة تختلج الأنفس وتُزيد كلماته التي يقرؤها أو يلقيها معنى وتأثيرًا.

كانت الأمور على خير ما يرام في تلك الأوقات المسالمة، لكنّها كانت تعدّهم للساعات الحزينة التي تنتظرهم، إذ كانت بيث بين الفينة والأخرى تقول أنّ الإبرة أثقلت أناملها الواهنة قبل أن تلقيها من يدها إلى

الأبد. أصبحت الأحاديث تجهدها، وباتت رؤية الآخرين تقلقها، وغدت سجينة للألم، وضاعت روحها الهادئة في الأشجان الّتي أعدّها المرض دارًا لجسدها النّحيل الواهن. يا إلهي كم كانت أيّامًا قاسية!، كم كانت لياليَ طويلةً أبديّةً، كم كانت أفئدة محبّيها مضنية وكم كانت مناشِدة صلواتهم، حينما عجزوا عن مدّ يد العون لتلك الذّراعين النّحيلتين المتضرعتين، حينما أجبروا على سماع صرخات الاستنجاد المريرة عاجزين تمامًا عن تلبية النّداء. كان وداعًا محزنًا لتلك الرّوح الهادئة، كان صراعًا عنيفًا بين فتوّة الرّوح وجبروت الموت، لكنّ رحمة اللّٰه تدخّلت فتوقّفت ثورة الحياة على الموت في لحظة وشاع السلام مجدّدًا. كانت روح بيث باسلةً قويّة رغم وهن جسدها الضّعيف. ورغم أنّها لم تقل الكثير إلّا أنّ جميع من حولها شعروا أنّها كانت على أهبّة الاستعداد لتلبية نداء اللّٰه، فقرّروا انتظارها على الشّاطئ محاولين رؤية ملائكة النور يستقبلون روحها حين تعبر المضيق إلى حياة النعيم والخلود.

لم تفارقها جو منذ قالت لها بيث: «إنّ وجودك يمدّني بالقوة.» كانت تنام على الأريكة في غرفتها، وتستيقظ بين ساعات الليل لتجديد نيران الموقد، أو لإطعام المريضة وإعانتها، إذ كانت قلّما تطلب المساعدة محاولةً ألّا تثقل على أحدٍ، أو تكون عبئًا عليهم. وكانت جو تلازم الغرفة

t.me/yasmeenbook

طيلة النّهار، تغار من أيّ ممرّضةٍ أخرى، إذ كانت فخورةً لأنّها اختيرت لهذه المهمّة النبيلة، وترى ما تفعله على أنّه أعظم مجدٍ حصلت عليه طيلة حياتها. وكانت تلك السّاعات عزيزةً على قلب جو، وزوّدتها بكلّ ما تحتاجه نفسها من دروسٍ في الصّبر. دروس تلقّتها بحبّ وحنان فكان من المحال لها أن تنساها، زوّدتها بحبّ العطاء وعلّمتها التّسامح وغفران أخطاء الآخرين، علّمتها الولاء الذي يجعل من أصعب الواجبات سهلة التّنفيذ، والإيمان الصادق الذي لا يهاب شيئًا، بل يؤمن بالخير لا محالة.

غالبًا ما كانت جو تستيقظ في اللّيل لتجد بيث تقرأ من كتابها الصّغير العتيق، وتغنّي بصوتٍ خفيضٍ ناعم لتحتال على اللّيالي المؤرّقة، أو تجدها تسند وجهها إلى يديها وعبراتها تسيل من بين أناملها البيضاء، فكانت جو ترقد في مكانها وتراقبها وهي غارقة في أفكارها، فلا يسعها سوى البكاء، شاعرةً أنّ بيث، بطبيعتها البسيطة اللّا أنانية، كانت تحاول أن تنفصل عن هذه الحياة العزيزة عليها، وأنّها تحضّر نفسها للحياة القادمة بكلمات مواساةٍ مقدّسةٍ وصلواتٍ خافتة وموسيقاها المفضّلة.

كانت رؤية ذلك يؤثر في جو أكثر من أشد المواعظ حكمةً والصّلوات حرارة. ذلك أنّها أدركت بعينيها الدّامعتين وفؤادها المنفطر جمال الحياة التي عاشتها

أختها، تلك الحياة الخالية من الطّموحات والمطامع، والمفعمة بالفضائل الصّادقة التي تعبق بشذا طيّبٍ وتزهر في أرضنا القاحلة، وأدركت أنّ نكران الذّات يجعل من أكثر الأشخاص تواضعًا على وجه الأرض أوّل من يُذكرون في الجنّة؛ ولعلّ ذلك أفضل نجاحٍ يحقّقه الإنسان.

ذات ليلة، وبينما كانت بيث تبحث بين الكتب فوق طاولتها لتجد كتابًا ينسيها الإرهاق الذي كاد يكون مجهدًا بقدر تحمّلها للألم، عثرت بين طيّات كتابها المفضّل: «رحلة الحجاج» على ورقةٍ صغيرة كتُبت بيد جو. أسر الاسم نظرها، وأدركت من منظر الخطّ الضبابيّ أنّ الدّموع تساقطت عليها.

استرقت بيث النّظر إلى أختها النّائمة على السجادة، وبجوارها قضيب تحرّك به نيران الموقد بمجرّد أن تستيقظ، وقالت في نفسها:

«يا للمسكينة جو!، إنّها مستغرقةٌ في نومها، لذا لن أوقظها لأستأذنها بالقراءة، فهي تريني كلّ كتاباتها ولا أظنّها ستمانع إن قرأت هذه».

وراحت تقرأ:

إلى عزيزتي بيث

جلست بين الظّلال صابرة

منتظرةً سطوع الأنوار المباركة

t.me/yasmeenbook

يا لها من روح هادئة رائقة
تقدّس بوجودها منزلنا المغموم
الأفراح والأتراح والآمال الدنيويّة
تتحطّم كأمواجٍ صغيرة
على ضفاف النّهر المقدّس
حيث تقف قدماها في عزمٍ لحين
آهٍ يا أختاه، يا من عنّي سترحلين
بعيدًا عن هموم الإنسان وكفاحه
فلتتركي لي هديّة، هذه الفضائل
التي أضفت على حياتك الجمال.
أورثيني يا عزيزتي هذا الصّبر والكمال
أعطني قوّة وثبات
الروح الجذلى التي لا تشتكي
الحبيسة في دارها سجينة الآلام
أثني عليّ، إذ إنّني بحاجةٍ ماسّةٍ
لهذه البسالة والحكمة والرزانة
والتي بها أضحى طريق الواجب
مُخضَرّاً تحت قدميك العازمتين
هبيني طبيعتك النّاكرة للذّات
التي استطاعت بعطاء الأقداس

أن تغفر باسم الحبّ كلّ الأخطاء
أيّها القلب العطوف، اغفر لي ما اقترفت من ذنوب!
وهكذا يهون ألم فراقنا يومًا بعد يوم
وتخفّ على نفوسنا مرارة وقعه الأليم
ومع تعلّمي لهذا الدّرس العصيب
تصبح خسارتي هي فوزي العظيم
إذ إنّ لمسات الأشجان ستحوّل
طبيعتي البريّة إلى رزانة
وتمنح حياتي أجدد الطموحاتٍ
ذات أنغامٍ ورنّات
وثقة جديدة في المجهول
ومن الآن فصاعدًا، في مأمن على ضفّة النهر
سوف أرى وللأبد بين الزهور
روحًا محبّةً عطوفة
تنتظرني على الضفّة المقابلة الرؤوفة
من أحزاني يتوّلد الإيمان والأمل
وتحضر الملائكة الحارسة
مع أختي الرّاحلة قبلي
يرشدونني بأياديهم إلى دّيارها الخالدة.

t.me/yasmeenbook

وعلى الرّغم ممّا أصاب هذه السطور من تلطّخ ومحو، وعلى الرّغم من ركاكتها وضعف لغتها، إلّا أنّها كانت كفيلةً برسم نظرة ارتياح لا توصف على محيّا بيث، ذلك أنّ أسفها الوحيد كان أنّها لم تقدّم في هذه الحياة ما هو جديرٌ بالذّكر، ولكنّ كلمات جو أثلجت صدرها وزرعت الطّمأنينة في قلبها، إذ شعرت بأنّ حياتها لم تكن في الواقع بلا معنى كما حسبت، وأنّ موتها لن يجلب القنوط الذي كانت تخشاه. وبينما كانت جالسةً والورقة مطوية بين يديها، وقعت حطبة في المدفأة، فصحت جو من نومها لتغذّي النّار مجدّدًا، ثمّ اتّجهت إلى جانب السّرير راجيةً أن تجد بيث نائمة.

ولكنّ بيث سألت بتواضع حزين صادق: «لست نائمة، ولكنّني سعيدةٌ يا عزيزتي. كما ترين، لقد وجدت هذه وقرأتها وكلّي ثقةٌ بأنّك لن تمانعي. أحقًّا أعني لك كلّ هذا يا جو؟!».

وضعت جو رأسها فوق الوسادة بجانب أختها وقالت: «آه يا بيث، بل الكثير الكثير».

ردّت بيث:

«إذًا فلن أشعر أنّ حياتي ضاعت هباءً. أنا لست طيّبة كما تصفين ولكنّني سعيت دائمًا لأكون كذلك. والآن، بعد أن فات الأوان حتّى على محاولة تقديم المزيد، فإنّي لأجد

الراحة والسلوان في معرفتي أنّ أحدهم يحبّني بهذا القدر، وأشعر أنّني كنت عونًا لهم».

«أنا أحبّك أكثر من أيّ شخصٍ في هذا العالم يا بيث. لطالما ظننت أنّني لن أستطيع السّماح لك بالذّهاب، ولكنّني الآن أروّض قلبي لأشعر أنّني في الحقيقة لن أخسرك كما يبدو لي، وأدرك أنّ الموت لن يسعه أن يفرّق بيننا، بل ستكونين بقربي أكثر من أيّ وقتٍ مضى».

ـ «أعلم ذلك، وأنا لم أعد أهاب الموت بعد الآن، فكلّي يقينٌ أنّني سأبقى أختك بيث التي أحببتها، والتي ستحبّك بدورها وتساعدك أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لا بدّ لك من الحلول محلّي يا جو، وملء فراغي في حياة أمّي وأبي بعد رحيلي، فهما سوف يعتمدان عليك من بعدي، لذا إيّاك وخذلانهما وحين ينتابك شعورٌ بأنّ العمل بمفردك مشقّةٌ تعجزين عن تحمّل وطأتها، فلتتأكّدي أنّني لن أنساك وأنّ عملك هذا سيملأ حياتك مسرّةً يعجز تأليف الكتب أو الدوران حول العالم عن فعلها، لأنّ الحبّ هو الشّيء الوحيد الذي باستطاعتنا اصطحابه معنا حين يتوجّب علينا الرحيل وهو ما يجعل النّهاية سهلة».

قالت: «سأفعل ما بوسعي يا بيث».

وهكذا تخلّت جو عن طموحها السّابق، ونذرت

t.me/yasmeenbook

نفسها لطموحٍ جديد، طموحٍ أفضل، مقرّةً برداءة الملذّات الأخرى، ومستشعرةً بركة الإيمان بخلود الحبّ.

وهكذا أقبلت أيّام الرّبيع وتوالت، وغدت السّماء أكثر صفاءً، والأرض أكثر اخضرارًا، وتفتّحت الأزهار باكرًا، وعادت الطّيور لتودّع بيث التي تشبّثت بالأيادي التي حملتها وربّتها طيلة حياتها، بينما قادها والدها ووالدتها إلى وادي الظّلال بحنان لتسلّم أمرها إلى اللّٰه.

قلّما يتلفّظ الميت بكلماته الأخيرة، ذلك إلّا في الكتب، وقلّما يرى رؤى أو يرتحل برباطة جأش، وأولئك الذين شهدوا العديد من الأرواح الرّاحلة يدركون أنّ النّهاية تقبل ببساطة وسهولة كالسّبات سواء بسواء. وهكذا، وكما رجت بيث، انقضى التيّار بيسر، وفي الساعات المظلمة الأخيرة قبل الفجر، لفظت أنفاسها الأخيرة بهدوء مستندةً إلى الصّدر الذي استقبل فوقه أنفاسها الأولى، ولم تنبس بكلمة وداع، بل نظرت إليهم بعينين تفيضان حبًّا ثمّ أطلقت تنهيدةً صغيرة.

وبين الدّموع والصّلوات والأيادي الحنونة، أعدّت الأمّ والأخوات بيث للرّقاد الأبدي الذي لن يفسده الألم مجدّدًا، وقد لاحت لهنّ السّكينة التي كست وجهه، وحلّت مكان الصّبر الشّجيّ الذي قطّع نياط قلوبهنّ طويلًا، وقد شعرن بالسعادة لأنّ الموت قد جاء كالملاك المبارك على عزيزتهن الغالية، وليس كشبحٍ مقيت بغيض.

وحين أقبل الصّباح، وللمرة الأولى منذ شهور، كانت نيران الموقد خامدة، وكان مكان بيث شاغرًا، وكانت الغرفة ساكنة. ولكن، حطّ عصفورٌ فوق غصنٍ مبرعم وراح يغرّد، وعلى مقربة منه، لمعت قطرات الثّلج النّضرة عند النافذة، وتدفّقت أشعّة الشّمس الربيعيّة كأنّها تبارك الوجه الهادئ فوق الوسادة، وجه علاه السّلام غير المؤلم. حتّى إنّ أولئك الّذين لطالما أحبّوها ابتسموا وسط عبراتهم وشكروا اللّه أنّ بيث كانت على ما يرام في آخر المطاف.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثامن عشر

تعلّم النّسيان بالحب

أثّرت محاضرة آيمي في نفس لوري أبلغ التأثير، رغم أنّه لم يأخذ برأيها طبعًا إلّا بعد وقتٍ طويل. قلّما ينتصح الرّجال، إذ حين تكون النّساء هنّ النّاصحات، لا ينفّذ مدّعو الرّبوبيّة ما هو مرجوّ منهم، حتّى يقنعوا أنفسهم أنّ النّصيحة التي قُدمّت لهم هي تمامًا ما كانوا ينوون فعله منذ البداية. وحينها فقط يعملون بها، وإن أتت بنتيجةٍ اعترفوا بنصف الفضل للرّكن الأضعف أمّا إن باءت بالفشل، فيستفيضون في إلقاء اللّوم عليهن.

عاد لوري إلى منزل جدّه، وكان قد كرّس نفسه لخدمته لعدّة أسابيع، حتّى إنّ العجوز أعلن أنّ مناخ نايس قد غيّر لوري بشكلٍ مذهل، وأنّه يجدر به تكرار زيارة نايس مجدّدًا. سرّ لوري لسماع ذلك، ولكن لا قوّة في هذا العالم ستتمكّن من إعادته إلى هناك بعد التّوبيخ الذي تلقّاه، فكبرياؤه لا يسمح له. وصار كلّما غمره الشّوق والحنين

إلى ذاك المكان شحن قراره بتكرار أكثر الكلمات الّتي أثّرت فيه:

«أنا أبغضك».

«فلتذهب وتفعل أمرًا مذهلًا يجعلها تقع في حبّك».

غالبًا ما كان لوري يقلّب المسألة في رأسه، حتّى إنّه حمل نفسه على الاعتراف بأنّه كان فعلًا يتصرّف بأنانيّة وخمول. ولكن في المقام الآخر، وحين يحمل الإنسان في قلبه جرحًا عميقًا، لا بدّ له من أن يمرّ بشتّى أنواع التقلّبات المزاجيّة إلى أن يتناسى الألم.

وأحسّ أنّ عواطفه الخائبة باتت الآن فاترة، وبالرّغم من أنّه يجدر به أن يشيّع هذه المشاعر، إلّا أنّه لم يكن يرى داعيًا للتّفاخر بجراحه. صحيحٌ أنّ جو لم تقع في حبّه، ولكنّه قد يكون قادرًا على كسب احترامها وإعجابها، وذلك عن طريق القيام بما يثبت أنّ رفضها الارتباط به لم يقضِ على حياته. لطالما كان ينوي فعل ذلك وكان في غنىً عن نصيحة آيمي. كان فقط في انتظار أن يدفن آماله الخائبة تلك ليس إلّا، وبما أنّ ذلك قد تمّ الآن، فقد شعر بأنّه جاهزٌ لإخفاء قلبه الولهان والمضي قدمًا.

وكما كان «جوثي» يحوّل أفراحه وأتراحه إلى أغنية، وطّد لوري عزمه على إغراق نفسه بحبّه للموسيقا، وقرّر أن يؤلّف ترتيلة جنائزيّة تعذّب نفس جو وتليّن

t.me/yasmeenbook

أفئدة المستمعين. ولذلك، حين وجده جدّه شارد الذّهن ومتقلّب المزاج وطلب منه الرّحيل، شدّ رحاله إلى فيينا حيث التقى بأصدقائه الموسيقيين، وعكف على العمل مصمّمًا على حصد الشّهرة والتألّق. ولكن سواءً كانت أشجانه أعمق من أن تتجسّد بالموسيقا، أم كانت الموسيقا أكثر رقيًّا من أن تخفّف محنته الفانية، فقد اكتشف سريعًا أنّ تأليف ترتيلة كان هدفًا بعيد المنال في هذه اللّحظة. وكان من الواضح أنّ فكره لم يكن مستعدًّا لهذا بعد، وأنّه بحاجةٍ لاستجماع أفكاره وتصفية ذهنه، إذ غالبًا ما كان يجد نفسه شارد الذّهن سارحًا وسط إعداد اللّحن، يدندن لحنًا موسيقيًّا ينعش ذكرى حفل عيد الميلاد في نايس، ولا سيّما ذلك الرّجل الفرنسيّ الضخم، ولذلك قرّر أن يتوقّف عن تأليف الألحان التراجيديّة في الوقت الرّاهن.

ثمّ حاول تأليف الأوبرا، فليس هناك ما يبدو شاقّاً في بداية الأمر، ولكنّه اصطدم مجدّدًا بمصاعب لم تكن في الحسبان. أراد أن يمثّل دور البطولة ولجأ إلى ذاكرته ليستمدّ منها ذكرياتٍ عاطفيّة ورؤيا رومانسيّة عن حبّه. ولكنّ الذاكرة خانته، وأبت إلّا أن تذكّره بعيوب جو وأخطائها وغرابة أطوارها، وكأنّ روح الفتاة قد استعبدت مخيلته فكانت لها تلك المخيلة سمعًا وطاعة، وراحت لا تريه سوى أكثر جوانب جو قباحةً: وهي تضرب رأسها

بالفراش وقد غطّت عينيها بعصابة، أو تغمره بوسادة الأريكة، أو تسكب الماء البارد على عواطفه المتأجّجة، فلم يتمكّن من تمالك ضحكةٍ أفسدت الصّورة التي كان يسعى جاهدًا لرسمها في ذهنه. عندئذٍ أدرك أنّه لا يمكن لجو أن تلعب دور البطلة في هذه الأوبرا بأي شكلٍ من الأشكال، ثمّ مسح هذه الفكرة من رأسه وقال:

«يا إلهي كم عذّبتني هذه الفتاة!».

ثمّ راح يشدّ شعر رأسه فبدا كالمؤلّفين الحائرين.

وحين حاول أن يبحث عن فتاةٍ أخرى أقلّ جموحًا تحيي فكرته، جاءته الذّاكرة بصورتها المُرادة على طبقٍ من ذهب. وكان طيف هذه الفتاة الغامض يتراءى له بأوجه العديد من الفتيات الأخريات، ولكنّ شعرها كان ذهبيًّا دائمًا، وكانت محاطةً بغمامةٍ شفّافة، وتطفو دائمًا في سماء مخيّلته وسط شتاتٍ من الورود الحمراء والطّواويس والأمهار البيضاء، والأشرطة الزّرقاء. ولم يطلق أيّ اسمٍ على هذا الطّيف، ولكنّه اتخذها بطلةً للأوبرا وبالغ في التّعلق بها، فنسب إليها كلّ المحاسن والمواهب في الوجود ورافقها لحمايتها بطريقةٍ كانت ستخنق أنفاس أيّ طيف لامرأةٍ حيّة.

وبفضل خياله، كانت انطلاقته موفّقة لبعض الوقت، غير أنّ عمله بدأ يفقد رونقه تدريجيًّا ونسي أمر التّأليف

t.me/yasmeenbook

الموسيقيّ، بينما كان يجلس متأمّلًا والقلم بين يديه، أو حين كان يجوب المدينة البهيجة لاستلهام بعض الأفكار الجديدة، وقد بدت في حالٍ كدرٍ هذا الشّتاء.

لم يقم بالكثير، ولكنّه استغرق في التّفكير مطوّلًا، وكان يستشعر نوعًا من التّغيير رغماً عنه، فقال في نفسه:

«إنّها تفاعلات العبقريّة، أظنّني سأتركها تأخذ مجراها وأراقب ما ينتج عنها».

وكان في نفسه شكٌّ غامضٌ بأنّ هذه التّفاعلات هي نتيجة لأمرٍ مختلفٍ تمامًا وأكثر شيوعًا ولا تمتّ للعبقريّة بصلة. ولكن مهما تكن، فقد كانت تتوغل في صدره لسببٍ مجهول، إذ أضحى أكثر سخطًا على حياته الفوضويّة، وبدأ يتوق إلى أداء عملٍ ملموسٍ وصادق يبذل فيه من كلّ جسده وروحه، وتوصّل أخيرًا لاستنتاج أنّ ليس كلّ من أحبّ الموسيقا مؤلّفًا.

وبعد أن عاد من إحدى عروض الأوبرا العظيمة لموزارت الّتي أُدّيت في الأوبرا الملكيّة، أعاد النّظر في الأوبرا التي ألّفها، وراح يدرس بعضًا من أفضل مقطوعاتها، ثمّ جلس يحملق في تماثيل الفنّانين أمثال: ميندلسون وبيتهوفن وباخ، والتي بدت بدورها كأنّها تنظر إليه برقّة. وفجأةً، مزّق أوراقه واحدةً تلو الأخرى، وما إن انتهى منها حتّى قال برزانة:

«إنّها محقّة!، الموهبة لا تعني العبقريّة. تلك الموسيقا سحقت غطرستي تمامًا مثلما فعلت روما، وأنا لا أريد أن أحتال على نفسي، فماذا عساي أفعل الآن؟».

بدا ذلك سؤالًا عصيّاً على الإجابة، وبدأ لوري يتمنّى لو أنّ عليه كسب قوت يومه بعرق جبينه. وتذكّر كلامه عن رغبته في: «الذّهاب إلى الشيطان» ذات مرّة، وقد بدت الفرصة سانحةً الآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى، إذ كان يشاع أن الشيطان يوفّر العمل لأصحاب الأيادي الواهنة والجيوب الممتلئة. كانت مغريات كافية، ولكنّه نازعها وصمد أمامها، فعلى الرّغم من تقديره للحرّيّة إلّا أنّه كان أكثر تقديرًا للإيمان والثّقة بالنّفس، وهكذا أبقاه وعده لجدّه ورغبته في النّظر في عينيّ الفتاة التي يحبّها وطمأنتها، آمنًا وثابتًا.

وقد تقول إحدى الثّرثارات أمثال السيّدة جراندي:

«أنا لا أصدق ذلك، فالفتيان لن يتغيّروا. وسوف يسعى الشّبان دائمًا لإشباع ملذّاتهم، وعلى الفتيات ألّا يأملن بالمعجزات».

أنا أعلم أنّك لا تصدّقين يا آنسة جراندي، ولكنّها الحقيقة شئت أم أبيت. فالنّساء يصنعن الكثير من المعجزات، ولديّ إحساسٌ بأنّهن قادرات على صنع معجزةٍ من الرّجال، ورفع الرّجولة إلى المستوى الحقّ عند

t.me/yasmeenbook

رفضهم للتفوّه بمثل هذه الاعتقادات الباطلة. دعي الفتيان يتصرّفون على سجيّتهم، وليشبعوا ملذّاتهم إن شاءوا. ولكنّ الأمهات والأخوات والصّديقات في وسعهنّ أن يساعدوهم على تخطّي مرحلة الطّيش هذه وكبحها، وذلك بإظهار إيمانهم بالقدرة على الولاء للفضائل التي تجعل الرّجال أكثر رجولةً في نظر النّساء. وإن كان يخال لك أنّ هذا الكلام من وحي خيال النّساء، فاسمحي لنا بالتمتّع به ما استطعنا، إذ بدونه تفقد الحياة جمالها ورومانسيّتها، ولولا الخيال لحطّمت المرارة آمال الأولاد الشّجعان الصّالحين الذين ما يزالون يحبّون أمهاتهم أكثر من أنفسهم، ولا يشعرون بالعار من الاعتراف بذلك.

كان لوري يظنّ أنّ نسيان حبّه لجو سوف يستنزف قواه لسنوات، ولكنّه فوجئ باكتشافه أنّ الأمر أضحى أكثر سهولةً يومًا بعد يوم. رفض أن يصدّق ذلك في بادئ الأمر، وغضب من نفسه ولم يتمكّن من فهم ما يجري. ولكنّ قلوبنا هذه فضوليّة ومتناقضة، والوقت والطّبيعة يفعلان ما يحلو لهما على الرّغم منّا. لم يعد قلب لوري يلوّعه، بل ما انفكّ الجرح يندمل بسرعةٍ أدهشته، وبدلًا من محاولة النّسيان كان يحاول أن يتذكّر، ولم يتوقّع انقلاب الموازين هكذا، ولم يكن مستعدًّا له. شعر بالقرف من نفسه، وفوجئ بتلوّن أحواله، وامتلأت نفسه بمزيجٍ من خيبة الأمل وراحة

البال لمعرفته أنّه استطاع الوقوف على قدميه مجدّدًا بعد مثل تلك الضّربة الهائلة، وبهذه السّرعة. وحاول أن يؤجّج شرارة حبّه الضّائع ولكنّها أبت أن تتّقد، ولم ينجم عنها سوى وهج بعث الدّفء في نفسه دون أن يصيبه بالحمّى، وأجبر مكرهًا على الاعتراف بأنّ نيران شغفه الصبيانيّ كانت تخمد تدريجيًّا لتتحوّل إلى إحساسٍ أكثر استقرارًا ولطافة، إحساسٍ يغشاه الحزن رغم ذلك، ولكن لا شكّ في أنّه أيضًا سيزول مع الوقت، ويترك خلفه حبًّا أخويًّا يدوم إلى الأبد.

وبينما جالت كلمة: «أخويّ» في خاطره، نظر باسمًا إلى صورة موزارت التي كانت أمامه وقال:

«الحقيقة أنّه كان رجلًا عظيمًا بحقّ، وحين لم يتمكّن من الفوز بقلب إحدى الأختين، انصرف نحو الثّانية وعاش في سعادةٍ وهناء».

لم ينبس لوري بالكلمات ولكنّها خطرت في باله، ثمّ راح يقبّل الخاتم الصّغير القديم وقال في نفسه: «لا... لن أنسى!. أنا لم أنسَ ولن أستطيع نسيانها أبدًا. وسوف أحاول مجدّدًا وإن فشلت، عندئذٍ..».

ولم يكمل جملته، بل سارع للإمساك بالقلم وانكبّ فوق الورقة يكتب إلى جو، يخبرها أنّه لم يستطع أن يستقرّ على أمرٍ ما دام هناك أملٌ في تغيير رأيها، وأن تعدل عن

t.me/yasmeenbook

رفضها، أما بإمكانها أن تفعل ذلك وتجعله يغود إلى الوطن هانئًا سعيدًا؟، وفي انتظارها للإجابة عن سؤاله، جلس مكتوف اليدين ولكن بنفاد صبر. وفي آخر المطاف وصلته رسالة فاستقرّ فكره على فكرةٍ واحدة، ذلك أنّ جو لن تغيّر رأيها أو تعدل عن رفضها. كانت متأثرة ببيث، وتمنّت ألّا تسمع بكلمة «حبّ» مجددًا. وفي الحاشية، طلبت ألّا يخبر آيمي بأن وضع بيث أصبح أسوأ، إذ كانت تنوي العودة في الرّبيع ولا داعي لتعكير صفو مزاجها خلال الفترة المتبقيّة، ثمّ دعت اللّه أن يمنح بيث فسحة من الوقت لتتمكّن من رؤية أختها، ولكن على لوري أن يراسلها على الدّوام، وألّا يسمح لها بالشّعور بالحنين إلى الوطن والوحدة والقلق.

ثمّ فتح لوري مكتبه وكأنّ مراسلة آيمي كانت النهاية المناسبة للجمل التي عجز عن إنهائها قبل أسابيع: «هذا ما سأفعله. يا للفتاة المسكينة، أخشى أنّ عودتها إلى الوطن ستكون محزنة».

ولكنّه لم يكتب الرسالة في ذلك اليوم، إذ وجد ما غيّر غايته بينما كان يفتش عن أفضل ورقةٍ لديه، في جزء واحد من المكتب بين الفواتير وجوازات السفر ووثائق العمل بمختلف أنواعها، ألا وهو العديد من رسائل جو، وفي حجرة أخرى وجد ثلاث ملاحظات من آيمي، مربوطة بعناية بإحدى شرائطها الزرقاء، توحي باللطف بالورود

الذابلة الصغيرة الموضوعة في الداخل. جمع لوري جميع رسائل جو وقد علت وجهه تعابير نصف تائبة ونصف مستمتعة، ثمّ طواها ومسّدها ووضعها في إحدى دروج المكتب الصّغيرة بعناية، ثمّ وقف دقيقة يلهو بالخاتم في إصبعه غارقًا في أفكاره، نزعه ببطء ووضعه مع الرّسائل، وأقفل الدرج، وخرج لسماع القدّاس في كنيسة سانت ستيفان، يختلجه إحساسٌ بأنّه يحضر جنازة، وعلى الرّغم من أنّ هول الأمر لم يستحوذ عليه، إلّا أنّ ذلك بدا أكثر ملاءمة من قضاء يومه يخطّ الرّسائل للفتيات الفاتنات.

ومع ذلك، كتب الرسالة في وقتٍ قريبٍ جدًّا، وجاء ردّ آيمي على الفور، ذلك أنّها كانت تشعر بالحنين إلى الوطن، وقد اعترفت بذلك في رسالتها بأكثر الأساليب إيجابيّةً وابتهاجًا، وكأنّها تأتمن لوري على مشاعرها. ازدهر الانسجام بينهما، وطارت الرسائل ذهابًا وإيابًا بانتظام لا يفتر طوال أوائل الربيع. باع لوري تماثيله، وأضرم النيران في أوراق الأوبرا، وعاد إلى باريس، على أمل أن يصل شخص ما في وقتٍ قريب. أراد بشدة أن يذهب إلى نايس، لكنّه ما كان ليجرؤ على ذلك حتّى يستدعيه أحدهم، ولكنّ آيمي لم تفعل، لأنّها كانت تعاني من تجارب قليلة خاصّة بها، ما جعلها ترغب في تجنّب عيون صديقنا المثيرة للغيظ.

t.me/yasmeenbook

كان فريد فون قد عاد، وطرح السؤال الذي كانت قد قرّرت الإجابة عليه ذات مرّة بـ: «أجل، أشكرك.» ولكنّها الآن قالت: «لا، أشكرك»، بلطف ولكن بثبات، لأنّه عندما حان الوقت، خذلتها شجاعتها، ووجدت أن هناك حاجة إلى شيء أكثر من المال والمنصب لإرضاء التّوق الذي غمر قلبها العارم بالآمال والمخاوف. وما انفكّ وجه لوري وهو ينطق بكلمات: «فريد رجلٌ صالح ولكنّني لم أتخيل يومًا أن يكون الرّجل الذي تقعين في حبّه،» يحيا في ذاكرتها تمامًا، كما لم تتركها كلماتها التي استعاضت عنها لتقول بنظراتها: «سأتزوّج من أجل المال.» لقد أزعجها أن تتذكّر ذلك الآن، وتمنّت لو أن باستطاعتها التّراجع عمّا قالته إذ لم تكن كلماتها توحي بالأنوثة. لم تكن ترغب في أن يراها لوري شخصًا دنيئًا بلا قلب. لم تعد تهتمّ بأن تصبح ملكة المجتمع الآن بنصف مقدار ممّا كانت تهتمّ بكونها امرأة محبوبة. فرحت أنّ لوري لم يكرهها بسبب الأمور القاسية التي قالتها، بل أخذها بصدرٍ رحب وكان ألطف من أيّ وقتٍ مضى. كانت رسائله مريحة للغاية إذ كانت أكثر إرضاء من رسائل عائلتها التي قلّما كانت تصلها. ولم يكن الردّ عليها من دواعي سرور آيمي فحسب، بل شعرت أنّ هذه المهمّة تقع على عاتقها لأنّ لوري المسكين كان بائسًا وبحاجةٍ إلى المواساة، ذلك أنّ جو أبت إلّا أن تكون

متحجّرة القلب ولم تتمكّن من حبّ لوري، وكان عليها أن تبذل بعض الجهد في سبيل حبّه، كانت آيمي واثقةً من أنّ الأمر ما كان ليكون بهذه الصّعوبة، لا بدّ من أنّ العديد من الفتيات سيسررن ويفتخرن بوجود فتى مثل لوري يهتمّ لأمرهنّ، ولكنّ جو لم تكن تتصرّف مثل بقية الفتيات، لذا لم يكن أمامها خيارٌ سوى أن تعامله بلطف وأخويّة.

لو أن جميع الإخوة حظوا بالمعاملة التي كان يُعامل بها لوري في هذه الفترة، لكانوا أكثر أهل الأرض سعادة. لم تلقِ آيمي المحاضرات في رسائلها قطّ، بل كانت تسأل لوري عن رأيه في جميع الموضوعات، وكانت مهتمّة بكلّ ما يفعله، وتُقدّم له هدايا صغيرة ظريفة، تراسله مرّتين في الأسبوع رسائل مليئة بالنميمة المُفعمة بالحيويّة، والثقة الأخويّة، ورسومات آسرة للمشاهد الجميلة عندها.

ومع أنّ الأخوات تُعرَفن بحمل رسائل إخوتهم في جيوبهنّ، وقراءتها وإعادة قراءتها بجدّ، والبكاء عندما تكون قصيرة، وتقبيلها لفترات طويلة، والاعتزاز بها، لكنّنا هنا لن نُلمِّح إلى أن آيمي قد ارتكبت أيّاً من هذه الحماقات والتّفاهات. لكنّها بالتأكيد باتت شاحبة قليلاً وشاردة في ذلك الربيع، وفقدت الكثير من استمتاعها بالمجتمع، وكثيرًا ما كانت تخرج للرّسم بمفردها. غالبًا ما كانت تعود إلى المنزل خالية الوفاض، ولكنّني أجرؤ على القول إنّها

t.me/yasmeenbook

كانت تدرس الطّبيعة بينما كانت تجلس مكتوفة اليدين لساعات، على الشرفة في فالروزا، أو ترسم أيّ صورةٍ تخطر لها في خيالها، كصورة فارسٍ مغوار منحوتة على قبر، أو شابٍّ راقدٍ على العشب تغطّي القبعة عينيه، أو فتاةٍ ذات شعر مُجعَّد، تتغنّى في قاعة رقص بين ذراعيّ رجل نبيل ممشوق القدّ، وكان كلا الوجهين مطموسين دائمًا وفقًا لآخر صيحات الفنّ في ذلك الوقت، الأمر الذي كان آمناً ولكنّه لم يكن مُرضياً تمامًا.

اعتقدت عمّتها أنّها ندمت على رفضها فريد، ووجدت أن الإنكار عديم الجدوى والتفسيرات مستحيلة، تركتها آيمي لتفكّر كما يحلو لها، وحرصت على أن يعرف لوري أن فريد قد رحل إلى مصر. كان هذا كلّ شيء، لكنّه فهم ذلك، وبدا مرتاحًا، كما قال في قرارة نفسه:

«كنت على يقين من أنّها ستفكّر في الأمر بشكل أفضل. مسكين هذا الرّجل!، لقد ذقت مرارة العذاب الّذي يمرّ به الآن ويسعني أن أتعاطف مع حاله».

ثمّ تنهّد تنهيدةً عميقةً، وبعد ذلك، كما لو أنّه قد أدّى واجبه تجاه الماضي، وضع قدميه على الأريكة ومتّع نفسه برسالة آيمي إلى أقصى حدّ.

بينما كانت هذه التغييرات تجري في الخارج، ظهرت مشاكل في الداخل. لكنّ الرسالة التي تفيد أنّ حالة بيث

كانت تتدهور لم تصل إلى آيمي بتاتًا، وعندما وصلتها الرّسالة التّالية في فيفاي، لأنّ الحرارة دفعتهم للسفر من نايس في شهر أيّار إلى سويسرا، عن طريق جنوة والبحيرات الإيطاليّة. تحملت آيمي النّائبة بالطريقة المثلى، واستسلمت بهدوء لرأي أسرتها الذين رأوا أنّه لا يجدر بها اختصار مدّة زيارتها، نظرًا لأنّ القطار قد فاتها لتوديع بيث، كان من الأفضل لها البقاء، وترك الغربة تخفّف وطأة الأمر عليها وتسلّيها عن أشجانها. لكنّ قلبها كان مُثقلًا بالأسى، وكانت تتوق لأن تكون في المنزل، وفي كلّ يوم تنظر بحسرة عبر البحيرة، في انتظار مجيء لوري ليؤنسها.

جاء سريعًا، لأنّ البريد نفسه قد جلب الرسائل لكليهما، لكنّه كان في ألمانيا، واستغرق الأمر عدّة أيام للوصول إليه. في اللحظة التي قرأ الرسالة، حزم حقيبته، وأعطى أوامره للمشاة ثم انطلق في طريقه للوفاء بوعده، وقد فاض قلبه بهجةً وحزنًا، وأملًا قلقًا.

كان يعرف فيفاي كراحة يده، وبمجرّد أن مسّت سفينته رصيف الميناء، سارع إلى البرّ مُتجهًا إلى مبنى: «لافور»، حيث يقيم آل كارول. قابله الخادم مشدوهًا، وأخبره أنّ الجميع قد انصرف للتنزّه عند البحيرة باستثناء الآنسة الشقراء التي ربما تكون في الحديقة، ورجا السيّد أن يتفضّل بالجلوس حتّى يعلمها بمجيئه، ولكنّ السيّد

t.me/yasmeenbook

قد نفد صبره ولم يسعه الانتظار، فغادر مسرعًا للبحث عن الآنسة بنفسه.

وعلى حدود البحيرة الجميلة، تجلّت الحديقة كقطعةٍ من الجنّة، تكتنفها أشجار الكستناء في الأعلى وشجيرات اللبلاب في كلّ مكان، تعكس صفحة المياه الساطعة ظلّ البرج القاتم. وفي أحد أركان الجدار العريض، كان هناك مقعدٌ غالبًا ما كانت آيمي تجلس عليه كي تقرأ أو تعمل، أو تواسي نفسها بجمال الطبيعة من حولها. كانت جالسة هنا في ذلك اليوم، تريح رأسها بيدها، وقد فاض قلبها حنينًا إلى الوطن وأثقلت الدموع عينيها، كانت تفكّر في بيث وتتساءل لِمَ لَمْ يحضر لوري. لم تسمع وقع خطواته وهو يعبر الفناء وراءها، ولم تره يتوقّف في الممرّ الذي يقوده عبر طريقٍ تحت الأرض إلى الحديقة. وقف دقيقةً يرمقها بنظرةٍ جديدة، ويرى ما لم يسبق لأحد أن يراه من قبل، الجانب الرقيق من شخصيّة آيمي. كان كلّ ما يتعلّق بها يشير بشكل صريح إلى الحبّ والأسى، والرسائل الممزّقة في حضنها، والشريط الأسود الذي ربط شعرها، والألم الأنثويّ والصبر المُتجلّيان في وجهها، حتّى الصليب الصغير من خشب الأبنوس الذي كانت تزيّن به رقبتها بدا مثيرًا للشفقة بالنسبة لوري، إذ كان هو من أهداها إيّاه، وقد اختارت أن يكون الحلية الوحيدة التي تلبسها اليوم. وإذا

كانت لدى لوري أيّ شكوك حول الاستقبال الذي ستقدّمه له، فقد تبخرت كلّها في اللحظة التي رنت فيها آيمي إلى الأعلى ولمحته، لأنّها رمت كلّ شيء وهرعت إليه، وهي تصرخ بنبرة اعتراها الحبّ والشوق الذي لا لبس فيه...

«آه يا لوري!. لوري!، كنت واثقةً من حضورك».

وجاءت لحظات الصمت المقبلة أبلغ من الكلمات، فوقفا معًا صامتين، مع انحناء الرأس المُظلم لأسفل بشكل وقائيّ فوق رأسها الذّهبي، شعرت آيمي أنّه لا يمكن لأحد أن يريحها ويحافظ عليها مثل لوري، وأيقن لوري أنّ آيمي كانت المرأة الوحيدة في العالم التي يمكن أن تملأ مكان جو، وتجعله سعيدًا. لم ينبس بالكلمات، لكنّها لم تشعر بخيبة أمل، لأنّ كلاهما استشعر الحقيقة بكامل الرضا، وقرّرا ترك ما تبقى، ليكمل الصمت ما بدأته لغة العيون.

وبعد قليل، عادت آيمي إلى منزلها، وبينما جفّت دموعها، جمع لوري الأوراق المتناثرة، ووجد في منظر الرسائل المتهالكة والرسومات الإيحائيّة نذيرًا جيّدًا للمستقبل. عندما جلس بجانبها، شعرت آيمي بالخجل مرّة أخرى، وتورّد وجهها على ما بدر منها لحظة لقائهما من اندفاع نحو الفتى، وقالت بعبثٍ محاولةً استعادة رزانتها:

«لم أستطع كبح نفسي، إذ كنت في حالة من الحزن

t.me/yasmeenbook

والشوق المريرين، وكنت سعيدةً للغاية برؤيتك. لقد أسعدني أن أحتاجك وأجدك، تمامًا بينما بدأت أخشى أنّك لن تأتي».

«لقد جئت في اللحظة التي سمعت فيها الخبر. أتمنّى أن أقول ما يريحك لفقدان عزيزتك بيث، لكنّي لا أستطيع إلاّ أن أشعر، و...». لم يستطع المضي قُدمًا، وخانته عباراته لأنّ الخجل تملّكه فجأةً بدوره. كان يتوق إلى إسناد رأس آيمي على كتفه، وأن يطلب منها أن تبكي، لكنّه لم يجرؤ، لذا اكتفى بإمساك يدها بدلًا من ذلك، وضغط عليها بعطفٍ كان أبلغ من كلِّ الكلمات.

قالت بهدوء: «لا داعي لقول أيّ شيء، هذا يريحني. بيث بخير وسعيدة، ويجب ألّا أتمنّى لها العودة، لكنّني أخشى الرجوع إلى المنزل رغم شوقي لرؤيتهم جميعًا. دعنا من هذا الحديث لأنّه يثير شجوني، أودّ أن نستمتع بوقتنا معًا أثناء إقامتك. لست مضطرًّا إلى العودة فورًا، هل أنا محقّة؟».

ـ «لست مضطرّاً إن كنت تودّين بقائي إلى جانبك يا عزيزتي».

ـ «أنا أرغب في بقائك. لن أنكر عطف عمّتي وفلو، ولكنّني بحاجة ماسّة إلى تواجدك بجانبي، ذلك أنّك بمثابة فرد من الأسرة بالنسبة إليّ، وسيريحني وجودك للغاية».

تحدّثت آيمي وبدت وكأنّها طفلةٌ أعياها الحنين للوطن، كان قلبها ممتلئًا لدرجة أن لوري نسي خجله على الفور، وراح يسكب عليها فائضًا من الدلال الذي لطالما اعتادت عليه، والملاعبة التي كبرت عليها، والمحادثة المرحة التي احتاجتها، فقال:

«يا للصغيرة المسكينة، تبدين وكأنّ الحزن أسقمك!. سوف أعتني بك، لذا لا تذرفي الدّموع بعد الآن، لنتمشَ قليلًا يا عزيزتي، فالرياح شديدة البرودة ولا يستحبّ جلوسنا هنا طويلًا».

ثمّ أمسك ذراعها وراحا يسيران سويًّا ذهابًا وإيابًا في الممرّ المشمس تحت أغصان شجرات الكستناء. شعر لوري براحة أكبر بساقيه، ووجدت آيمي أنّه من الجيّد أن يكون لديك ذراع قويّة تتكئ عليها، ووجهٌ مألوفٌ يبتسم لك، وصوتٌ لطيفٌ يخاطبك أنت فقط.

لقد سبق وأن آوت الحديقة القديمة العديد من العاشقين، ولكنّها في ذلك اليوم بدت وكأنّها سُخّرت خصّيصًا لهما، فكانت مشمسة ومنعزلة، ولم يكن هناك شيء سوى البرج الذي يطلّ عليهما، والبحيرة الواسعة تردّد صدى كلامهما، ومضت ساعةٌ وهما يسيران ويتحدّثان، أو يستريحان على السّور يستمتعان بالتأثيرات اللطيفة التي أضفت مثل هذا السحر للزمان والمكان، وعندما حذّرهما

t.me/yasmeenbook

صوت ناقوس يدعوهما لعشاء غير رومانسيّ بعيد، شعرت آيمي كما لو أنّ وطأة الوحشة قد انزاحت عن صدرها، وأنّها تركت أشجانها خلفها في تلك الحديقة.

وما إن رأت السيّدة كارول وجه آيمي، وما علا ملامحه من تغيّر في التعابير لا يخفى للعيان، حتّى اتّقدت في ذهنها فكرة جديدة. فقالت بدهشة محدّثةً نفسها:

«لقد فهمت الآن كلّ شيء!. كانت الفتاة تتوق لرؤية لورانس طيلة هذا الوقت!، الرّحمة يا اللّه، لِمَ لَمْ تخطر هذه الفكرة ببالي؟»

تجاهلت وأخفت السيّدة الطيّبة ما رأت، وتكتّمت على سرورها وغبطتها بما فهمت، لكنّها حثّت لوري بحرارة على البقاء، وطلبت من آيمي أن تستمتع بصحبته بعد ما عانته من الانزواء والعزلة. وكانت آيمي مثالًا يحتذى به في طاعتها لعمّتها، وقد ساعدها انشغال عمّتها بفلو على الاستمتاع برفقة لورانس، فراحت ترحّب به وتحيّيه بمنتهى الحماس.

في فيفاي، كان لوري مختلفًا كليًّا عن الشّخص الذي كان عليه في نايس. فبعد أن كان شخصًا خمولًا كسولًا، أصبح نشيطًا مُجدًّا لا يكلّ ولا يملّ، فتراه يمشي أو يركب الخيل أو يجدّف في قاربه أو منكبًّا على الدّراسة باجتهاد، وكان يعزو تبدّل حاله هذا إلى المناخ المغيّر في فيفاي،

وكانت آيمي تستغلّ عذره هذا لتتذرّع به مفسّرةً هي الأخرى تحسّن صحّتها النّفسيّة وارتفاع معنويّاتها.

وبالفعل كان الهواء المنعش مفيدًا لكليهما على حدٍّ سواء، كما أفادتهما التمارين الرّياضيّة فتحسّنت صحّتهما العقليّة والجسديّة. ويبدو أنّهما اكتسبا نظرةً أفضل عن الحياة والواجب هناك بين ربوع التلال الأبديّة. فبدّدت الرياح العاتية الشكوك اليائسة، والأوهام المُضلّلة، والضباب المتقلّب المزاج، وجلبت شمس الرّبيع الدافئة كلّ أنواع الأفكار الطموحة والآمال الطيّبة والأفكار السعيدة. بدت البحيرة وكأنّها تزيل متاعب الماضي، وأطلّت الجبال الشّاهقة وكأنّها تهمس في أسماعهما قائلة:

«أيّها الطفلان الصّغيران، فلينم الحبّ في قلبيكما».

وعلى الرغم ممّا أصابهما من مصاب بيث، غير أنّ الوقت مضى في سعادةٍ وهناء، حتّى إنّ لوري لم يجرؤ على إزعاج آيمي بكلمةٍ واحدة، فقد أدهش الفتى شفاؤه السّريع من هيامه الأوّل. فراح يعزّي نفسه، ويعزو عدم ولائه لحقيقة أنّ أخت جو كانت تقريبًا هي جو نفسها وإلّا لما انشغل قلبه بحبّها. كان حبّه الأوّل عاصفًا، وكان يراه على أنّه سلسلة من الأحداث التي تبعث في نفسه شعورًا من العاطفة يخالطها النّدم، ولكنّه لم يكن يخجل من الأمر، بل كان يعتبره إحدى التجارب الحلوة المريرة التي

t.me/yasmeenbook

يستعيدها المرء في ذاكرته مبتسمًا بعد أن تندمل الجراح وتسكن الآلام.

أمّا حبّه الثّاني، فقد قرّر أنّه يجب أن يكون هادئًا وبسيطًا، فلا حاجة لإحداث بلبلة ولا حاجة له للإفصاح عن مشاعره لآيمي، إذ كانت قد أدركت ما يكنّه لها منذ فترةٍ طويلة، وأدلت بإجابتها له منذ وقتٍ طويل. وسرت الأمور على نحو طبيعيّ وهادئ وكانا كلاهما موقنين أنّهما سيعيشان في سعادةٍ وهناء، وأنّ الجميع سيسرّ لسعادتهما بما فيهم جو نفسها. ولكن حينما يُسحق الحبّ الأول، فإنّه يميل إلى توخّي الحذر في خوض تجربةٍ ثانية، لذلك ترك لوري الأيّام تمرّ مستمتعًا بكلّ لحظة، وترك للظّروف أن تحدّد الفرصة المناسبة التي يبوح فيها بالكلمة التي سوف تغيّر مجرى الأحداث في علاقته الرّومانسيّة الجديدة.

وكان يخيّل إليه أنّ الخاتمة ستتمّ في الحديقة تحت ضوء القمر، ولكنّ الواقع كان مخالفًا لذلك تمامًا، فكانت الخاتمة عند البحيرة ظهرًا بكلماتٍ صريحةٍ صادقة: كانا يتنزّهان في القارب طيلة الصباح تقريبًا، من سانت جينجولف القاتمة إلى مونترو المشمسة، مع جبال الألب من جهة، وجبل «سانت برنارد» و «دينت دو ميدي» من جهة أخرى، وفيفاي الجميلة تتوسّط الوادي، ولوزان على الجانب الآخر خلف التّلال، ومن فوقهما سماء زرقاء

صافية، ومن تحتهما بحيرة زرقاء، تنتشر فيها القوارب الخلّابة التي تشبه النوارس بيضاء الأجنحة.

كانا يتحدّثان عن بونيفارد، عندما مرّا عبر شيلون ثمّ ذكرا روسو وهما يمران بكلارنس، حيث كتب هيلواز قصّته. ولم يكن أيٌّ منهما قد قرأ تلك القصّة، ولكنّهما أدركا أنّها كانت قصّة حبّ وتساءلا في قرارة نفسيهما ما إن كانت تحمل نصف متعة قصّتهما. كانت آيمي تغرق يدها في الماء حين خيّم الصّمت بينهما، وحين رفعت رأسها، كان لوري يتّكئ على مجدافيه وفي عينيه تعبير جعلها تقول على عجل:

«لا بدّ أنّك متعب، فلتسترح قليلًا ودعني أجدّف عنك، فأنا لم أقم بشيء منذ مجيئنا وقد كنت متوانيةً جدًّا في الآونة الأخيرة».

ردّ لوري كما لو أنّ الفكرة ترضيه:

«لست متعبًا في الواقع، ولكن لك أن تجدّفي إن أردت فهناك مساحةٌ تكفي كلينا، ولكن من الضّروري أن أجلس في الوسط كي لا يدور بنا القارب».

شعرت آيمي بأنّها لم تصلح الأمور فعلًا، ولكنّها قبلت ثلث المقعد الذي عرضه عليها، ثمّ أزاحت شعرها عن وجهها وتناولت مجدافًا وراحت تجدّف بمهارة، وعلى الرغم من أنّها استخدمت كلتا يديها في حين أنّ لوري

t.me/yasmeenbook

استخدم يدًا واحدة، فقد تناغمت قوّة المجدافين وشقّ القارب طريقه في الماء بسلاسة.

وقطعت آيمي حبل الصّمت قائلة:

«ما أمهرنا في تسيير القارب سويّة!».

فردّ بحنان:

«أوافقك!، وأتمنّى لو نركب القارب نفسه مدى الحياة، فهل توافقين؟».

فقالت بصوتٍ خفيض:

«أجل يا لوري!».

ثم توقّف كلاهما عن التجديف، وأضافا بلا وعي لوحة صغيرة جدًّا من الحبّ البشريّ والسعادة إلى المناظر المتلاشية المنعكسة في البحيرة.

t.me/yasmeenbook

الفصل التاسع عشر

وحدة تامّة

من السهل على المرء الوعد بإنكار الذات حين تكون الذات مُندمجةً بشخصٍ آخر، يراه مثالًا يُحتذى به في طهارة القلب والرّوح. ولكن ماذا يحدث حين يغيب هذا الشّخص؟، ويختفي صوته إلى الأبد. هنا وجدت جو أنّ الوفاء بوعدها صعبٌ للغاية. كيف لها أن تعزّي والديها في حين أنّ فؤادها يتحرّق شوقًا لأختها؟، كيف لها أن «تجعل المنزل بهيجًا» بينما يبدو أنّ كلّ نوره ودفئه وجماله قد هجره عندما غادرت بيث دار الدّنيا إلى دار الآخرة؟ وأين يمكن أن تجد في كلّ العالم «أعمالاً مفيدة وسعيدة تفعلها»، ومن شأنها أن تحلّ محلّ الخدمة المحبّبة التي كانت تؤدّيها لأختها الراحلة؟

حاولت جو بطريقةٍ عمياء يائسة أن تودّي واجبها على أكمل وجه، ولكنّها وجدت أن سلب مسرّاتها القليلة المحدودة، وثقل أعبائها لم يكن عادلًا، وأنّه من الظلم أن

تشتدّ مصاعب الحياة عليها في حين كانت تبذل قصارى جهدها في الكفاح. ليس من العدل أن يجد الناس نعيم الحياة وإشراقة الأمل في هذا العالم في حين لا يحصل الآخرون سوى على الظلام والظلال الموحشة.

فقد حاولت أن تكون فتاةً طيّبةً صالحة أضعاف ما فعلت، آيمي ولكنّها لم تنل سوى المتاعب والشقاء.

كانت هذه الأيام المظلمة بالنسبة لها كما اليأس، عندما فكّرت في قضاء حياتها كلّها في ذلك المنزل الهادئ، مكرّسة نفسها للرعاية الرتيبة وبعض الملذّات الصغيرة، والواجب الذي بدا أنّه أصبح أصعب من أيّ وقت مضى.

وحين باءت مساعيها الأولى بالفشل، سقطت ضحيّةً الاستسلام الذي يتولّد حين تضطرّ الإرادة القويّة أن تخضع مرغمةً أمام واقع الأمور الحتميّة، وقالت محدّثةً نفسها:

«لا يمكنني فعل ذلك. لم يكن من المفترض أن أعيش حياة كهذه، وأنا أعلم أنّني سأرتكب فعلًا طائشًا إذا لم يمدّ لي أحدهم يد العون،»

لكنّ شخصًا ما جاء لنجدتها، على الرغم من أنّ جو لم تتعرّف إلى ملائكتها الطيّبين في الحال لأنّها تجلّت لها بأشكالٍ مألوفة، وكانت تستخدم التعاويذ البسيطة الأكثر ملاءمة للإنسانيّة الفقيرة. غالبًا ما كانت تنهض ليلًا وقد خيّل لها أن بيث نادتها، وإذ بمشهد السرير الصغير الفارغ

t.me/yasmeenbook

يعيدها للواقع فتبكي بحرقةٍ ناجمة عن حزنٍ دفين لا يذعن، «أوه، بيث، عودي!... تعالي!». ولم تكن تمدّ ذراعيها عبثًا إذ إنّ والدتها كانت تسمع نحيبها على الفور، تمامًا كما كانت تسمع تأوّهات بيث وأنينها، فتأتي لتهدئتها، لا بالكلمات فقط، وإنما بالحنان الحليم الذي يهدّئ النفوس بلمسةٍ واحدة، ودموعٍ تكشف عن حزنٍ أعمق من حزن جو، وهمساتٍ متقطّعةٍ كانت أكثر بلاغة من الصلاة لأنّ تسليمها لقضاء اللّه لم يخل من أملها في رحمته. وفي تلك اللحظات المقدّسة، وحين يخاطب القلب قلبًا آخر في صمت الليل؛ يتحوّل البلاء إلى نعمة تؤدّب الحزن وتقوّي المحبّة. عند الشعور بهذا، بدا عبء جو أسهل في تحمّله، وأصبح الواجب أكثر حلاوة، وبدت الحياة أقلّ مشقّة حين تنظر إليها من خلال الملجأ الآمن بين ذراعي والدتها.

وحين سكنت آلام القلب قليلًا وهدأت هموم العقل بعض الشيء، ذهبت جو إلى مكتب والدها وحنت رأسها على رأسه الأشيب الطيّب تحيّيه بابتسامةٍ هادئة، وقالت بتواضعٍ شديد:

«أبي، هلا حدّثتني كما كنت تتحدّث إلى بيث، أرى أنّني بحاجة إلى حديثك اليوم أكثر من بيث، فأنا غارقة في الأخطاء من رأسي إلى أخمص قدميّ».

فأجابها بصوتٍ خفيض:

«لا شيء يبعث في نفسي الراحة أكثر من ذلك.» ثمّ ضمّها بين ذراعيه كأنّه هو الآخر بحاجةٍ إلى مساعدتها ولا يخجل أن يطلبها منها.

بعد ذلك، جلست جو على كرسيّ بيث الصغير القريب منه، وراحت تقصّ عليه أشجانها ومتاعبها، وحزنها الشديد لرحيل أختها، وجهودها غير المثمرة في محاولتها لتخطّي هذا الحزن، وتزعزع إيمانها الذي جعل الحياة تبدو قاتمة للغاية، وكلّ حيرتها التي جعلتها ضحيّة للإحباط واليأس. لقد منحته الثقة الكاملة، وقدّم لها بدوره المساعدة التي احتاجتها، ووجد كلاهما العزاء في الآخر. لقد حان الوقت الذي يمكنهما فيه التحدّث معًا ليس فقط كأب وابنته، ولكن كرجل وامرأة قادرين على مساعدة بعضهما بعضاً بالتعاطف والحبّ المتبادلين. كانت لحظاتٍ سعيدةً في ذلك المكتب القديم الذي أطلقت عليه جو اسم: «كنيسة العضو الواحد»، والتي خرجت منها بشجاعة جديدة وقد استعادت بهجة وروحاً أكثر خضوعًا. وهكذا تعاون الوالدان اللذان علّما طفلة كيف تواجه الموت دون خوف، على تعليم فتاة أخرى مواجهة الحياة دون يأس وقنوط، وانتهاز فرصها الجميلة بعزم وامتنان.

كما ساعد جو إدراكها للملّذات البسيطة التي كانت تراها في أداء الواجبات والتي تعلّمت كيف تتقبّلها وتقدّرها

t.me/yasmeenbook

مع الأيّام. فلم تعد المكانس وغسل الصحون تغيظها كما كان يحدث سابقاً، لأنّ بيث كانت المسؤولة عن كلا المهمّتين، وبدا أنّ شيئًا من روح ربّة منزلها الصغيرة بقي حول الممسحة، وفوطة الصحون القديمة، والتي لم تُرمَ في القمامة أبدًا. وفي أثناء استخدامها، وجدت جو نفسها تترنّم بالأغاني التي اعتادت بيث ترنيمها، وتقلّد طرقها المُنظَّمة، وتضفي لمسات صغيرة هنا وهناك ليبقى كلّ شيء منعشًا ومريحًا، وكانت تلك الخطوة الأولى نحو جعل المنزل سعيدًا دون أن تشعر. ولم تدرك ما كانت تضفيه على المنزل من خيرٍ وسعادة حتّى ضغطت هانا على يدها بفخر وتقدير قائلة:

يا لك من فتاةٍ ذكيّة يا جو!، يبدو أنّك مصمّمة على ألّا تضيع جهود فقيدتنا الراحلة عبثًا فقمت بكلّ المهامّ التي كانت من نصيبها!. صحيحٌ أنّنا لا نقول الكثير لنشكرك ولكنّنا نرى كلّ شيء. بارك الرب في جهودك».

وأثناء جلوسهما للخياطة معًا، لاحظت جو مدى تحسّن أختها ميج وتوسّع معرفتها في حديثها عن أفضل الدوافع الأنثويّة، ومدى تقديرها لشريك حياتها وأطفالها، وكيف أنّ كلاهما يتعاونان معًا في سبيل تحقيق الهناء المنزليّ. فقالت وهي تصنع طائرة ورقيّة لديمي في حجرة الأطفال التي انقلبت رأسًا على عقب:

«هذا تمامًا ما تحتاجين إليه لإظهار جانبك الأنثويّ الرقيق. أنت يا جو، كثمرة الكستناء: خشنة في ظاهرها، لكنها ناعمة كالحرير في داخلها، كنواة حلوة المذاق لا تنتظر سوى أن تصل إليها يد أحدهم فتسقط تلك القشرة الخشنة ويظهر لبّكِ الحلوِ الجميل».

ردّت جو، وهي تحاول أن تصلح طائرة ديمي التي لن تحلّق في الوقت القريب، وذلك بعد أن تعلّقت بها ديزي:

«لا أودّ، يا سيّدتي، أن أكون كثمرة الكستناء. فالصقيع يحدث النتوءات في قشرتها. ولا بدّ من هزّة قويّة تسقطها عن غصنها، ثمّ إنّني لا أريد أن يسعى خلفي الأطفال ويضعونني في حقائبهم».

ضحكت ميج وقد اغتبطت لرؤية بصيص من روح جو القديمة، لكنّها شعرت أنّه من واجبها أن تقنع أختها برأيها من خلال كلّ الحجج، ومهما كلّف الثمن، ولم تذهب محاولاتها هباءً، خاصة وأن اثنتين من أكثر حجج ميج فاعلية كانتا متعلقتين بالأطفال الذين أحبّتهم جو من كلّ قلبها. الحزن هو أفضل مفتاحٍ لبعض القلوب، وكانت جو ثمرةً قد شارفت على النضوجِ، ولم يكن ينقصها سوى المزيد من أشعة الشمس لتبلغ ذروتها. ثم إنّ ثمرة جو لم تكن تحتاج لهزّة صبيٍّ لجوج، بل إلى يد رجلٍ جسور قويّ، يعرف كيف يمدّ يده برفقٍ لإخراجها من قسوة أشواكها

t.me/yasmeenbook

المحيطة بها، وإيجاد صوتها العذب. ولو اشتبهت جو في هذا لكانت قد صمتت وأظهرت أشواكها أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ولكنّها ولحسن الحظّ لم تكن تفكّر في نفسها، لذا حين حان الوقت، سقطت ثمرتها الناضجة دون أن تشعر.

لو أنّ جو كانت بطلة إحدى القصص الأخلاقيّة، لكانت أصبحت قدّيسة في هذه الفترة من حياتها وتخلّت عن العالم، وملأت جيوبها بالكتب الدينيّة. لكنّها لم تكن بطلة، بل كانت مجرد فتاة عاديّة تكافح كغيرها من المئات، تتصرّف على سجيتها متقلّبة المزاج بين الحزن والغضب، والهمّة والفتور. من الفضيلة أن نقول إنّنا سنكون صالحين، لكنّ ذلك لا يتحقّق بين ليلة وضحاها، بل يستغرق الأمر عناءً ومشقّة ومعونة من الجميع قبل أن يتمكّن أحدنا من أن يضع قدمه على الدرب الصحيح، وينطلق فيه. وكانت جو قد وصلت إلى الطريق الآن، وكانت تتعلّم القيام بواجباتها وكيف تربط سعادتها بها، ولكن القيام بذلك كان يبعث السرور في نفسها. ولطالما قالت إنّها تودّ القيام بعملٍ عظيم مهما بلغت صعوبته، وها قد تحقّقت رغبتها، فلم تجد ما يسعدها أكثر من تكريس حياتها لإسعاد والديها في شيخوختهما، ومحاولة بثّ الراحة والبهجة في أرجاء المنزل مثلما بذلا ما في وسعهما لإسعادها في طفولتها. وإن كان لا بدّ من المشقّات والصعاب لزيادة روعة

الجهد، فما الذي يمكن أن يكون أصعب على فتاة طموحة مضطربة من التخلّي عن آمالها وخططها ورغباتها والعيش لإسعاد الآخرين بكامل رضاها؟.

لقد أحاطت بها العناية الإلهيّة. فأظهرت لها مهمّة جديدة خانت توقّعاتها، ولكنّها كانت أفضل لأنّ ذاتها المُتطرفة لم يكن لها دور فيها. ويبقى السؤال: أهي أهْلٌ لهذه المهمّة؟. قرّرت أنّها سوف تحاول، وفي محاولتها الأولى وجدت المساعدة التي كانت تنتظرها في عون والديها، وفي محاولتها الثانية عُرضت عليها مساعدة أخرى فقبلتها لا كمكافأةٍ تستحقّها، بل كوسيلة لتعزية نفسها.

فقد قالت والدتها ذات مرّة عندما كانت جو غارقة في ظلمات القنوط:

«لِمَ لا تكتبين؟، ألم تكن الكتابة تشعرك بالسعادة؟».

أجابت:

«قلبي لا يطاوعني على ذلك. حتّى وإن فعلت، فأنا لا أظنّ أنّ أحدًا سيعير بالًا لما أكتب».

قالت الأمّ:

«ولكنّنا نهتمّ. فلتكتبي من أجلنا، ولا تعيري بالًا لبقية العالم، سوف نسعد جدًّا بكتابتك، وكلّي يقين أنّ ذلك سيفيدك أيضًا».

t.me/yasmeenbook

قالت:

«لا أظنّ أنّني أستطيع ذلك».

ولكنّها ذهبت إلى مكتبها وراحت تنظم مخطوطاتٍ قديمة لم تنهها.

وبعد ساعة، ألقت والدتها نظرة خاطفة إلى الداخل ووجدتها منكبّةً على الكتابة وقد ارتدت بزّتها السوداء، وعلت محيّاها تعابير الاهتمام والتركيز، الأمر الذي جعل السيّدة مارش تبتسم وتنسحب بعيدًا، مسرورة بنجاح اقتراحها. لم تعرف جو أبدًا كيف حدث ذلك، لكنّ شيئًا ما دخل في تلك القصّة مباشرة إلى قلوب الذين قرؤوها، لأنّه عندما ضحك أهلها وبكوا بسببها، أرسلها والدها رغمًا عنها إلى إحدى المجلّات الشعبيّة، ولما فيها من الدهشة المطلقة، لم تتلقّها المجلّة بالإعجاب فقط بل ودُفع ثمنها. وانهالت على جو رسائل من أشخاصٍ عظماء يُعتبر مديحهم شرفًا عظيمًا، ونشرتها الصحف، وأعجب بها الغرباء والأصدقاء. وحقّقت نجاحًا باهرًا رغم كونها شيئًا بسيطًا، وكانت جو مندهشة أكثر ممّا كانت عليه عندما تمّ الثناء على روايتها وإدانتها مرّة واحدة.

فقالت، في حيرةٍ شديدة:

«أنا لا أفهم. ما الذي وجده الناس في قصّة بسيطة كهذه ليجعلهم يمتدحونها بهذا الشكل؟».

فقال والدها:

«إليك السرّ يا ابنتي، لقد وجدوا فيها صدق المشاعر الواقعيّة. فأنت حين كنت تكتبينها لم تفكري في حصد المال والشهرة، بل صببت فيها من حزنك ومرحك ما أضفى إليها حيويّة بالغة، وبأسلوبٍ في منتهى الروعة والكمال. لقد تذوّقت طعم المرارة يا عزيزتي، وها قد آن الأوان لتستمتعي بالحلاوة أخيرًا!. فلتبذلي قصارى جهدك يا جو ولتفرحي بنجاحك كفرحنا به».

قالت جو وقد تأثّرت بكلمات والدها أكثر من أيّ قدرٍ من مديح العالم بأسره: «أنا أعزو نجاحي في كلّ ما أكتبه لك ولوالدتي ولبيث، فالفضل يعود لكم».

لقد تعلّمت جو من الحبّ والحزن أمورًا كثيرة، فكتبت قصصها الصغيرة، وأرسلتها بعيدًا لتكوين صداقاتٍ لنفسها ولقصصها، ووجدت العالم بارّاً جدًّا بمثل هؤلاء المتجوّلين المتواضعين، فقد تمّ الترحيب بهم وإرسالهم برفقٍ إلى منزل أمّهم المريح في صورة تقدير جميل.

عندما كتب لوري وآيمي لإنباء الأسرة عن خطوبتهما، خشيت السيّدة مارش أن تجد جو صعوبة في تقبّل الأمر ببهجة وسرور، ولكن سرعان ما تلاشت مخاوفها، فعلى الرغم من أنّ جو أظهرت ردّة فعلٍ قوية في البداية، إلّا أنّها ما لبثت وتقبّلت الأمر بهدوء شديد، وراحت

t.me/yasmeenbook

تشغل نفسها بإعداد مشروعاتٍ للخطيبين الصغيرين على الفور. وكانت الرسالة أشبه بمبارزةٍ غراميّة، حيث يمجّد كلّ منهما الآخر ويشيد بحبيبه، وكانت ممتعة جدًّا لمن يقرأها، ومُرضية لمن يفكّر فيها، ولم يكن لدى أيّ شخص أيّ اعتراض.

قالت جو، بينما وضعوا الأوراق على الطاولة بعناية ونظرت إلى والدتها:

«أأنت راضية يا أمّي؟».

قالت:

«نعم، لطالما أملت أن تؤول الأمور إلى هذا، فلقد أحسست منذ أن أنبأتني آيمي بخبر رفضها لفريد أنّها اكتشفت شيئًا أفضل ممّا تسميه بـ: «الروح المرتزقة». واستشعرت في رسائلها من التلميحات ما جعلني أشعر بأنّ لوري وحبّه سيظفران في هذه المعركة اليوم».

قالت جو:

يا لشدّة ملاحظتك وذكائك يا أمّي!، ويا لشّدة صمتك!. لقد نجحت في التكتم على الأمر فلم تتلفّظي بكلمةٍ واحدة!».

قالت الأمّ:

«على الأمّهات اللواتي ينوين تربية فتيات أن يتمتّعن

بألسنة رصينة وعيونٍ ثاقبة، ثمّ إنّني كنت أخشى أن أضع الفكرة في رأسك فتسرعي في تهنئتهما قبل الأوان».

قالت جو:

«لم أعد تلك الفتاة الطائشة يا أمّي. بل أصبحت واعية رزينة، ويمكنني أن أصون أسرار الآخرين حتّى من أقرب المقرّبين إليّ».

قالت الأم:

«أنت كذلك بالفعل يا عزيزتي. ولكنّني لم أتمكّن من أن أبوح لك بما كان يدور في خلدي، لأنّني خشيت أن تتألّمي إن علمت أن عزيزك تيدي قد أحبّ فتاةً غيرك».

قالت جو:

«أتعتقدين يا أمّي أنّ في وسعي أن أكون أنانيّة وغبيّة بعد أن رفضت حبّه حين كان في أوجِه؟».

قالت الأمّ:

«أعلم أنّك كنت صادقةً في مشاعرك يا جو، ولكنّني بتّ أعتقد مؤخّرًا أنّ إجابتك سوف تتغيّر الآن. سامحيني يا عزيزتي إذ لا يسعني سوى استشعار وحدتك ووحشتك، ولا تخفى عليّ النظرة الجائعة في عينيك، إنّها تحطّم فؤادي، ظننت أنّه إن عاد لطلب يدك مجدّدًا فستوافقين ويملأ فراغ قلبك».

t.me/yasmeenbook

قالت جو:

«لا يا أمّي!، أنا سعيدة بخياره وسعيدةٌ لأنّ آيمي أحبّته، ولكنّك محقّة في أنّني أشعر بالوحدة ولربّما وافقت على عرض لوري لو عاد ثانيةً، ليس لأنّني أحببته، بل لكوني مهتمّة بأن أكون محبوبة أكثر من ذي قبل».

قالت الأمّ:

«سعيدةٌ بقولك هذا يا جو!، فإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على التقدّم الذي أحرزته. الجميع من حولك يحبّونك، فلتتنعّمي بحبّ الوالدين وأخواتك والأصدقاء، وسوف يأتي الحبيب المثاليّ الذي يجازيك خير جزاء».

قالت جو:

«إنّ الأمّهات أفضل المحبين في هذا العالم، لكنّني لا أنكر أنّني أرغب في أن أهمس في أذنك يا أمّاه أنّني أتوق لتجربة جميع أنواع الحبّ. إنّه أمر فضوليّ للغاية، ولكن كلّما حاولت إرضاء نفسي بكلّ أنواع العواطف الطبيعيّة، زاد توقي للمزيد. ولم يكن لديّ أدنى فكرة في أنّ القلوب بوسعها أن تتحمّل كلّ هذا. قلبي في غاية المرونة، ولطالما كنت راضيةً بحبّ أسرتي، ولكنّني أشعر أنّ هناك فراغًا في قلبي لا أفهم سببه».

ابتسمت السيّدة مارش بينما انحنت جو لتعيد قراءة ما كتبته آيمي عن لوري وقالت:

«ولكنّني أفهمه».

وقرأت جو رسالة آيمي:

«إنّه لشعورٌ جميل أن يجد الإنسان من يحبّه كما يحبّني لوري، إنّه ليس شخصًا عاطفيًّا ولا يقول الكثير عن الحبّ، لكنّي أرى وأستشعر كلّ ذلك في أقواله وأفعاله، وهذا يجعلني سعيدةً جدًا لدرجة أنّني أشعر أنّني لم أعد الفتاة نفسها التي كنت عليها. كنت أجهل إلى هذا اليوم كم كان طيبًّا وكريمًا وحنونًا، لأنّه يسمح لي بقراءة قلبه فأجده مليئًا بالدوافع النبيلة والآمال والأهداف، وأنا فخورةٌ جدًّا بكونه ملكي. يقول إنّه يشعر كما لو أنّه: (يمكنه القيام برحلة مزدهرة الآن معي على متن المركب كصاحبي). أنا أحبّ قبطاني الشجاع من كلّ قلبي وروحي ولن أتخلّى عنه أبدًا، طالما يتيح لنا اللّٰه أن نكون معًا. أوه يا أمّي، لم أكن أعرف أبدًا أنّه يمكن لهذا العالم أن يصبح جنّة، عندما يحبّه شخصان ويعيشان من أجله!».

وضعت جو الأوراق بعناية جانبًا، كما تطوي كتب قصص الحبّ الجميلة، تلك القصص التي تأسر القارئ حتّى النهاية ثمّ يجد نفسه وحيدًا وسط مشاغل العالم مرّة أخرى.

t.me/yasmeenbook

وقالت:

«أهذه حقًّا أختنا المتحفّظة الهادئة؟. إنّ الحبّ يصنع المعجزات حقًّا!، ولا بدّ أنّهما سعيدان للغاية».

طافت جو في أرجاء البيت في طريقها إلى الطابق العلويّ لأنّ الجوّ كان مطيرًا، ولم تستطع المشي. فاستحوذ عليها ذاك الشعور القديم مجدّدًا، ولكنّه لم يكن مريرًا كذي قبل، بل كان أشبه بأصداءٍ حزينة يردّد أسئلة جالت في بالها: تحصل أختٌ على كلّ مرادها، في حين لا تحصل الأخرى على أيّ شيء؟. كانت جو مدركةً أنّ تفكيرها بهذه الطّريقة لم يكن صائبًا، وحاولت أن تتخلّص من هذا الشّعور دون جدوى، فقد كان تعطّشها إلى من يحبّها يتملّكها، وها قد أيقظت سعادة آيمي توقها إلى إيجاد ذلك الشخص قلبًا وقالبًا، إلى من تتشبّث به حتّى تفرّقهما إرادة اللّه. في الحجرة، حيث انتهت رحلات جو الهادئة، وجدت أربعة صناديق خشبيّة صغيرة مصفوفة، كلّ منها يحمل اسم صاحبته، وكلّ منها مليء بآثار الطفولة التي انقضت من حياتهنّ جميعًا. ألقت جو نظرة خاطفة عليها، وعندما وقع بصرها على صندوقها، أسندت ذقنها إلى حافته، وراحت تحدّق به، حتّى لفتت انتباهها مجموعة من الكرّاسات القديمة. سحبتها للخارج وقلّبت صفحاتها، وعادت بذاكرتها إلى ذلك الشتاء اللطيف مع السيّد كيرك.

كانت قد ابتسمت في البداية، ثم بدت شاردة وحزينة، وعندما عثرت على رسالة صغيرة مكتوبة بيد الأستاذ، بدأت شفتاها ترتعشان وانزلقت الكرّاسات من حجرها، وراحت تنظر إلى الكلمات الوديّة التي اتّخذت معانيَ جديدة ولامست مساحة حسّاسةً في قلبها:

«انتظريني يا صديقتي، قد أتأخّر قليلًا ولكنّني سأحضر بلا ريب».

وقالت محدّثةً نفسها:

«آه كم أتمنّى أن يفعل!، لقد كان شخصًا حنونًا طيّبًا وصبورًا. لم أكن أقدّره بما يكفي حين كان، ولكن كلّي شوقٌ لرؤيته الآن بعد أن تخلّى عنّي الجميع وبقيت أسيرة وحدتي».

وضمّت الورقة بقوة وكأنّها وعدٌ لم يوفَ به بعد، ثمّ وضعت رأسها على وسادةٍ مريحة، واغرورقت عيناها بالدموع التي بدت منافسةً للمطر المنهمر على السّطح.

أكان كلّ هذا رثاءً لحالها؟، أم كان شعورها بالوحدة؟، أم أنّه انهيار روحها المعنويّة؟، أم لعلّه استيقاظ شعور دفين كان قد تأخّر وقته؟. ترى من يدري؟.

t.me/yasmeenbook

الفصل العشرون

مفاجآت

كانت «جو» تجلس وحدها في الغسق مستلقيةً فوق الأريكة القديمة، سارحةً في أفكارها تنظر إلى النار. وكانت تلك طريقتها المفضلة في تمضية وقت الغسق. تستريح هناك حيث لا يزعجها أحد، وعلى وسادة بيث الحمراء الصّغيرة كانت تخطّط لقصصٍ جديدة أو تجول في عالم أحلامها، أو تفكّر بحزنٍ في أختها التي لم تبدُ بعيدة. ولاحت معالم التّعب والحزن على محياها إذ تذكّرت أنّ يوم غدٍ يصادف يوم عيد ميلادها، فراحت تفكّر كيف انقضت الأيّام بلمح البصر وكيف تقدّم بها العمر ولم تأت بعملٍ قيّمٍ جديرٍ بالذّكر. لقد انقضت خمس وعشرون عامًا وليس لديها ما تفخر به. واكتشفت لاحقًا أنّها كانت مخطئة، وأنّها في الواقع فعلت الكثير وكانت ممتنّةً لذلك.

«هذا هو مصيري، أن أكون عانسًا عجوزاً. أنا مجرّد

عانس أديبة، زوجي هو القلم وأطفالي هم قصصي. وقد يستغرق الأمر عشرين عامًا حتّى أحصد لقمةً من الشّهرة، ولكن ما الجدوى من ذلك عندها؟. سوف أكون مجرّد عجوزٍ ولن يسعني الاستمتاع بها، وحيدةٌ في حياة مستقلّةٌ لا أحتاجها. حسنًا، لا داعي لأن أصبح قدّيسةً لاذعة اللّسان ولا خطيبة أنانيّة، وأجرؤ على القول إنّ العوانس يبدون مرتاحاتٍ جدًّا وراضيات بواقعهنّ ما إن يعتدن على الأمر، ولكن... ». وهنا تنهّدت وكأنّ الصّورة التي كانت ترسمها لم تكن مرحّبًا بها.

وفي البداية يبدو سنّ الثلاثين خاتمة كلّ شيءٍ. ولكنّ الأمر ليس بهذا السّوء، ويمكن للمرء أن يشعر بسعادةٍ تامّة إذا كان لديه من الذّكريات ما يمنّي به النّفس ويطيّب الخاطر. في عمر الخامسة والعشرين، تبدأ الفتيات بالتّحدث عن كونهنّ عوانس على الرّغم من أنهنّ يعزمن في قرارة أنفسهنّ على أنهنّ لن يصبحن كذلك أبدًا. وفي عمر الثّلاثين، يقلعن عن الحديث بالأمر ويتقّبلنه بهدوءٍ ورضا، وإن كان ذلك منطقيًّا، يعزّين أنفسهنّ بتذكّر أنّ أمامهنّ عشرين عامًا لتعلّم كيف يمضين مع الأيّام بأمان. لا تضحكن من العوانس أيّتها الفتيات العزيزات، لأنّ الرومانسيّة المأساويّة غالبًا ما تكون دفينةً في القلوب التي تنبض بهدوء تحت العباءات الوقورة، والعديد من

t.me/yasmeenbook

التضحيات الصامتة للشباب والصحّة والطموح والحبّ نفسه هي ما تجعل تلك الوجوه الشّاحبة جميلةً في عيني اللّه. حتّى الأخوات الحزينات يجب أن يتلقّين معاملةً حسنة، إذ فاتتهن الحياة بأحلى أجزائها. ولتنظرن إليهن نظرةً عطوفة لا ازدراء فيها، على الفتيات في زهرة شبابهنّ أن يتذكّرن أنّهن أيضًا قد يفوتهن موسم القطاف.

تلك الخدود الورديّة لا تدوم إلى الأبد، وستظهر الخيوط الفضيّة في الشعر البنيّ، وعندها يصبح الحبّ والاحترام منافسين للحبّ والإعجاب.

أيّها السادة، وأعني بكلامي الأولاد، عليكم بالأدب في تعاملكم مع العوانس، بغضّ النظر عن مدى فقرهنّ ودمامتهنّ وغطرستهن، لأنّ الفروسية الوحيدة التي تستحقّ الفخر بها هي احترام العجائز وحماية الضعفاء وخدمة الجنس البشريّ، بغضّ النظر عن الرتبة أو العمر أو اللون. فلتتذكّروا قلقهنّ الثّائر عليكم وعظاتهنّ النّاصحة التي لم تلقَ شكرًا في كثيرٍ من الأحيان، والورطات التي ساعدنكم على الخروج منها، والنصائح التي قدمنها لكم من خبراتهنّ المتواضعة، وإصلاحهنّ ثقوب ملابسكم بأصابعهنّ الواهنة، والخطوات التي اتّخذتها أقدامهنّ العازمة، ردّوا الجميل لهؤلاء السيّدات وفّوهنّ حقّهن بتلك المعاملة اللّطيفة التي تحبّ النّساء أن يتلقّينها طيلة

حياتهنّ. تلك المعاملة الحسنة التي لا تخفى على أنظار الفتيات المشعّة بالآمال، وحين يفرّقكم الموت، ألا وهو القوة العظمى الوحيدة القادرة على التّفريق بين أمّ وابنها، فستجد مثلًا أنّ العمّة بريسيلا العجوز قد احتفظت بأدفأ بقعةٍ في قلبها العجوز لأفضل ابن أختٍ في هذا العالم.

لا بدّ أنّ جو قد استسلمت للنوم ـ وأجرؤ على القول إنّ القارئ قد غطّ في النّوم أيضًا بعد هذه العظة الطويلة ـ إذ فجأةً بدا شبح لوري يقف أمامها، شبح حقيقيّ نابض بالحياة، يتكّئ عليها بالمظهر نفسه الذي كان يبدو عليه حين كان فؤاده يفيض مشاعرَ وكان يحاول إخفاء ذلك.

وبقيت مستلقيةً تحدّق بصمتٍ بالفتى حتّى انحنى وقبّلها.

وهنا عرفت أنّه لم يكن مجرّد وهم، وقطع الشكّ باليقين ونهضت من رقادها وراحت تصيح بسعادة:

«عزيزي تيدي!، عزيزي تيدي!».

فقال:

«عزيزتي جو، أرى أنّك مسرورةٌ لرؤيتي إذًا؟».

قالت:

«مسرورة؟!. تعجز الكلمات عن وصف مدى سعادتي يا ولدي المحبوب!، أين هي آيمي؟».

t.me/yasmeenbook

قال:

«إنّها مع والدتك في منزل ميج. لقد توقّفنا هناك قبل المجيء إلى هنا، وبالمناسبة لم أستطع أن أنتزع زوجتي من مخالبهم».

نطق لوري بتلك الكلمتين بشيءٍ من الاعتزاز والرضا فاضحاً أمره فصاحت جو:

«أقلت زوجتك؟».

فقال وقد بدا في صوته شعور بالذّنب والندم:

«ويحي!، لقد كشفت سرّي عن غير قصد!».

أردفت جو بسرعة:

«لقد تزوّجتما حقًّا!».

ثمّ جثا على ركبتيه وشبك يديه كمن يطلب المغفرة وقد علت وجهه تعابير البهجة والانتصار:

«أجل!، ولكنّني لن أفعل ذلك مرّةً أخرى!».

قالت:

«هل تزوّجتما حقًّا؟».

قال:

«أجل!، بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى».

قالت جو وقد ارتمت على مقعدها تلهث:

«الرّحمة يا اللّه! ما هذا الأمر الذي سوف تقدم عليه؟».

ردّ لوري وهو لا يزال جاثيًا متضرّعًا ولكنّه بدا مبتهجًا:

«أرى أنّ طريقتك في التّهنئة لم تتغيّر، رغم أنّها ليست مشجّعةً تمامًا، أهنّئك».

قالت:

«ما الذي تنتظره من أحدهم حين تخطف أنفاسه وتفاجئه بتسلّلك كاللّصوص، ثمّ تمطر عليه الأنباء المفاجئة بهذا الأسلوب؟. انهض أيّها الفتى السّخيف وأخبرني كلّ شيء».

قال:

«لن أنبس بكلمةٍ واحدة إلّا أن وعدتني بالسماح لي بالجلوس في مكاني دون أن تقيمي حاجزًا مدرّعًا بيننا».

ضحكت جو كما لم تفعل منذ وقتٍ طويل، وربّتت على الأريكة وقالت بنبرةٍ وديّة:

«الوسادة القديمة في العليّة ونحن لا نحتاجها الآن. لذا اجلس واعترف يا تيدي».

قال:

«ما أجمل سماعك تناديني تيدي. لا أحد يناديني بذلك سواك».

ثمّ جلس إلى جانبها بسرورٍ وابتهاج.

t.me/yasmeenbook

قالت:

«وبماذا تدعوك آيمي إذًا؟».

قال:

«مولاي».

قالت وقد خانتها نظراتها فقد رأت أنّ فتاها صار أكثر ظرافةً من ذي قبل:

«هذا يليق بها، ولكنّه يليق بك أنت أيضاً».

اختفت الوسادة التي كانت تفرّق بينهما، وحلّ مكانها حاجزٌ آخر أقامه الزّمن والغياب وتغيُّر القلوب وأحسّ كلاهما بذلك، ونظر أحدهما إلى الآخر لمدّة دقيقة كما لو أنّ هذا الحاجز غير المرئيّ قد ألقى بظلالٍ قليلةٍ عليهما، لكنها ما لبثت أن انقشعت، إذ قال لوري في محاولةٍ عابثة لاصطناع الوقار:

«ألا أبدو لك كرجلٍ متزوّجٍ وربّ أسرة؟».

أجابت:

«لا على الإطلاق. قد تكون كبرت وازددت وزنًا بعض الشّيء، لكنّك ما تزال الشخص نفسه الذي عهدته».

شرع لوري يقول وقد كان مستمتعًا بالحديث إلى أقصى الحدود:

«بربّك يا جو!، عليك أن تعامليني بمزيدٍ من الاحترام».

أجابت جو بابتسامتها القديمة المعتادة:

«كيف لي ذلك حين تكون فكرة زواجك واستقرارك مضحكةً بشكلٍ لا يقاوم؟، حتّى إنّني بالكاد أستطيع تمالك نفسي».

وكانت ابتسامة جو معديةً لدرجة أنّ كلاهما انفجرا بالضّحك مجدّدًا، ثمّ استعادا هدوءهما وتابعا حديثهما بالطريقة المعتادة المحبّبة.

قال:

«لا داعي لخروجك في هذا الطقس البارد للقاء آيمي، فالجميع في طريقهم إلى هنا. لم يسعني الانتظار فسبقتهم. أردت أن أكون أول من يخبرك بالمفاجأة الكبرى، وأن أحصل على: (الملعقة الأولى) كما كنّا نفعل حين كنّا نتشاجر على القشدة».

قالت:

«لا عجب في ذلك فقد أفسدت قصّتك باستهلالك بالخاتمة. والآن فلتبدأ مجدّدًا وأخبرني كيف حدث هذا كلّه. أنا متشوّقة لمعرفة التفاصيل».

قال وفي عينيه بريقٌ أدهش جو:

«حسنًا، لقد فعلت ذلك إرضاءً لآيمي».

قالت:

t.me/yasmeenbook

«ها هي الكذبة رقم واحد. بل آيمي فعلت ذلك لإرضائك. والآن تابع ولتلتزم بالحقيقة رجاءً يا سيّدي».

قال لوري وكأنّه يخاطب النيران:

«أليس من الممتع سماعها؟. ها قد بدأت أستثيرها».

فتوهجت النيران وتألّقت كما لو كانت متّفقة تمامًا. ثمّ تابع قائلًا:

«الأمر سواءٌ كما تعلمين. كنّا قد خطّطنا للعودة إلى الوطن مع أسرة العمّة كارول، منذ شهر أو أكثر، لكنّهم غيّروا رأيهم فجأة، وقرّروا قضاء شتاء آخر في باريس. لكنّ جدّي أراد أن يعود إلى المنزل علمًا أنّه لم يغادر سوى لأجلي، حسنًا، لم أستطع السماح له بالذهاب بمفرده، وفي الوقت عينه لم أستطع أن أترك آيمي هناك وحيدة، وكانت السيّدة كارول متمسّكة بالمفاهيم الإنجليزيّة عن المرافقة ومثل هذا الهراء، ولم تشأ أن ترافقنا آيمي. لذا اقترحت أن نتزوّج وحينها يمكننا أن نفعل ما يحلو لنا».

قالت:

«بالطّبع فأنت دائمًا تفعل ما يناسبك».

قال:

«ليس دائمًا.» وقد استشعرت جو في صوته ما جعلها تقول على عجل:

«كيف استطعت الحصول على موافقة عمّتك؟».

«كانت تلك مهمّة عسيرة ولكنّنا تمكّنّا من الانتصار عليها، إذ كان لدينا العديد من الحجج القويّة في صفّنا. لم يكن من وقتٍ كافٍ لاستئذانكم، ولكنّنا أدركنا كيف رحّبتم جميعًا بفكرة خطوبتنا، ولذا لم يحتج الأمر سوى إلى خطوةٍ واحدة ليتمّ الأمر كما تقول زوجتي».

قاطعته جو وكأنّها تخاطب النار بدورها، واللهيب الذي اتّقد في تلك العينين وحلّ محلّ الحزن الذي رأته في آخر مرّة:

«ألا يبدو أن أحدهم يحبّ قول تلك الكلمة ويفخر بها؟».

أجاب:

«أحيانًا... لعلّ السبب يعود لكونها امرأةً صغيرةً آسرة لا يمكن للمرء سوى أن يفتخر بها. على أيّ حال، تولّى العمّ والعمّة أمرها كوالديها، كنّا غارقين في الحبّ لدرجة شعرنا بأنّنا قد نفارق الحياة لو افترقنا، ثمّ إنّ زواجنا كان من شأنه أن يسهّل العديد من الأمور، وهكذا تمّ الأمر».

سألت جو وقد تملّكتها حمى الفضول الأنثويّ، فأرادت أن تعرف كافّة التفاصيل:

«متى؟، أين؟، كيف؟!!».

t.me/yasmeenbook

أجاب:

«قبل ستّة أسابيع، في القنصليّة الأمريكيّة في باريس. كان حفل زفافٍ هادئٍ بالطّبع فنحن لم ننس مصابنا في بيث حتّى في يوم فرحنا».

شبكت جو يدها بيده حين قال ذلك، وراح لوري يداعب الوسادة الحمراء القديمة الّتي لم تفارق ذاكرته.

وبعد صمت لم يدم سوى دقيقة، سألت جو بنبرةٍ أكثر هدوءًا:

«ولم لم تخبرنا بعد ذلك؟»

قال:

«أردنا مفاجأتكم. ظننّا في بادئ الأمر أنّنا سنعود إلى الدّيار على الفور ولكنّ جدّي العجوز رأى أنّه لن يكون مستعدًّا للعودة قبل شهر على الأقلّ، لذا أرسلنا لقضاء شهر العسل أينما يحلو لنا. وقد سبق أن أطلقت آيمي على فالروزا لقب موطن شهر العسل، لذا ارتحلنا إلى هناك وغمرتنا السعادة كما لم تغمر أحدًا من قبل. يا الله!، كم كان حبًّا مفروشًا بالورود».

ولوهلة، بدا لوري وكأنّه نسي جو، الأمر الذي أسعدها، فقد أخبرها بكلّ هذه الأمور بمحض إرادته وأثلج صدرها بعفوه عنها ونسيانها. حاولت أن تسحب يدها، غير أنّ

لوري أمسكها بسرعة وكأنّه تنبّأ بما دفعها لمثل هذا الفعل اللا إراديّ، وقال بجاذبيّة رجوليّة لم يسبق لجو أن رأتها فيه من قبل:

«عزيزتي جو، أودّ أن أقول لك شيئًا واحدًا ولن نتطرّق إلى هذا الموضوع ثانية. كما أخبرتك في رسالتي التي أعلمتك فيها عن مدى اللّطافة التي تعاملني بها آيمي، أنا لن أتوقّف عن حبّك أبدًا، ولكنّ هذا الحبّ تغيّر ولقد تعلّمت مع الوقت كيف أدرك أنّ الأمور أفضل كما هي الآن، وأن أتقبّل ذلك بصدرٍ رحب. لقد تبادلت وآيمي المنازل في قلوب بعضنا بعضاً، هذا كلّ ما في الأمر. أظنّ أنّ الأمور يجب أن تكون على هذه الحال، وأنّها كانت ستؤول إلى هذه الحقيقة في نهاية المطاف لو أنّني انتظرت كما حاولت إخباري، ولكنّني لم أتمكّن من التّحلي بالصّبر إطلاقًا فأصبت بألمٍ في قلبي...

كنتُ صبيًّا طائشًا وعنيدًا حينها، وقد كلّفني الأمر درسًا عسيرًا لأعي خطئي، أجل كان خطأً يا جو كما قلت، وقد اكتشفت ذلك بعد أن جعلت نفسي أبدو كالأحمق. أقسم أنّني كنت تائهًا جدًّا في حيرتي حتّى إنّني لم أكن أعرف أيّكما أقرب إلى قلبي، أنت أم آيمي. وحاولت أن أشاطركما الحبّ سواءً ولكنّ محاولتي باءت بالفشل. ولكن حين قابلتها في سويسرا، اتّضحت عواطفي على

t.me/yasmeenbook

الفور. لقد وصلت كلٌّ منكما إلى مكانها الصّحيح، وأيقنت أنّني شفيت من الحبّ القديم قبل أن أخطو أولى خطواتي في قصّة حبٍّ جديدة، وأنّني أستطيع أن أشارك قلبي بصدقٍ مع الأخت جو والزّوجة آيمي، وأن أحبّهما من أعماقه. هل ستصدّقين قولي وتسمحين لنا بالعودة إلى الأيّام الخوالي التي عرف فينا أحدنا الآخر للمرّة الأولى؟».

قالت:

«سأصدّق ذلك، من كلّ قلبي. ولكن اعلم يا تيدي أنّنا لن نستطيع العودة إلى تلك الأيام، ولن نكون فتاةً وفتى مرّةً أخرى. لا يمكن أن تعود تلك الأيّام السّعيدة وليس علينا أن نأمل ذلك. أنا وأنت الآن، امرأة ورجل، علينا واجباتٌ نتمّها لأنّ وقت اللّهو قد ولّى، وعلينا أن نتخلّى عن المرح. أنا متأكّدة أنّك تشعر بالأمر ذاته. أنا أرى التغيير الذي طرأ عليك، وستجد التغيير نفسه في أعماقي. سأفتقد فتاي الصّغير، ولكنّني سأحبّ الرّجل أكثر لأنّ ذلك يعني أنّك حقّقت ما كنت أتمنّاه. لا يمكننا أن نكون رفيقي لعب صغيرين بعد الآن، ولكنّنا سوف نكون أخوين، ونحبّ بعضنا بعضاً، ويساند أحدنا الآخر طيلة الحياة، أليس كذلك يا لوري؟».

لم ينبس لوري ببنت شفة، لكنه قبّل اليد التي قدمتها له، ووضع وجهه عليها لمدّة دقيقة، وشعر أن صداقة جميلة

وقويّة نشأت من قبر العاطفة الصبيانيّة لمباركة كليهما. قالت جو بمرح، غير راغبة في أن تكون عودتهما للمنزل مناسبةً تعيسة:

«لا يسعني استيعاب فكرة أنّكما تزوجتما حقًّا أيّها الطفلين وأنّكما ستتوليان أمور منزلٍ بأكمله. إذ يبدو أنّه في الأمس القريب كنت أثبت أزرار آيمي في مريلتها وأشدّ شعرك حين تضايقني. الرّحمة يا إلهي!، الوقت يمرّ كالرّيح».

قال لوري وقد وجد تصنّعها الأمومة طريفًا:

«بما أنّ أحد الطفلين أكبر منك سنّاً فلا داعي لتتكلّمي كما الجدّة. أنا أعتزّ أنّني رجلٌ نبيلٌ راشد كما يقول بيجوتي في دايفيد، وحين تنظرين إلى آيمي ستجدين أنّها رضيعةٌ في مقتبل النّضج».

قالت:

«قد تكبرني ببضعة سنوات ولكنّي أكبر منك في المشاعر يا لوري، تلك حال النّساء دائمًا يا تيدي. ثمّ إنّ السنة المنصرمة كانت عصيبة لدرجة أشعر أنّني صرت في الأربعين من العمر».

قال لوري وهو يشدّ شعره أسفًا:

«مسكينة يا جو!، لقد تركناك لتتحمّلي كلّ شيء بمفردك

t.me/yasmeenbook

في حين رحنا نطارد مسرّاتنا. أجل أنت أكبر منّي، أنا أرى التّجاعيد في وجهك وعيناك حزينتان ما لم تبتسمي، وحين لمست الوسادة الآن وجدت دمعتك عليها. أرى أنك تحمّلت أعباءً جسيمة واضطررت لتحمّلها بمفردك. كم كنت وحشًا أنانيًّا!».

ولكنّ جو استدارت إلى الوسادة الخائنة وأجابت بنبرةٍ حاولت أن تجعلها أكثر ابتهاجًا:

«لا، كان أبي وأمّي إلى جانبي مع أطفال ميج ليؤنسوني، وكان يعزّيني معرفتي أنّك وآيمي تعيشان بهناءٍ وسعادة، وهذا ما جعل مشاكلي أسهل لتحمّلها. أنا أشعر بالوحشة في بعض الأحيان ولكنّني أجرؤ على القول بأنّ ذلك أفادني..».

قاطعها لوري واضعًا ذراعه حولها كأنّه يحميها من كلّ شرّ:

«لن تكوني وحيدةً مرّة أخرى. فأنا وآيمي لا نستطيع أن نستمرّ من دونك. لذا عليك أن تأتي وتعلّمي هذين الطّفلين كيف يحافظان على المنزل تمامًا، كما اعتدنا أن نفعل. وأن تسمحي لنا بمداعبتك وأن نعيش سويًّا بودٍّ وسعادة».

أسندت جو رأسها إلى كتفه تمامًا كما كانت تفعل منذ سنين عديدة حين أخبرها أن تتمسّك به عندما مرضت بيث في فراشها، وقالت:

«سيكون ذلك ممتعًا إن لم أشكل عائقاً في طريقكما. ها قد بدأت أشعر أنّني أصغر سنًّا بالفعل، إذ يبدو لي أنّ مجيئك قد بدّد كلّ مشاكلي. لطالما كنت مؤنسي يا تيدي».

نظر إليها لوري متسائلًا ما إذا كانت جو تتذكّر ذلك الوقت، ولكنّها كانت تبتسم لنفسها كما لو أنّ مشاكلها قد اختفت حقًّا مع مجيئه، وقال:

«ما زلت جو التي عهدتها، تذرف الدّمع في لحظة وتضحك في لحظةٍ أخرى. تبدين شرّيرةً بعض الشيء الآن. ما الخطب أيّتها الجدّة؟».

ـ «كنت أتساءل كيف تسير الأحوال بينك وبين آيمي».

أجاب:

ـ «مثل الملائكة!».

سألت جو:

ـ «لا أشكّ في ذلك، ولكن من الذي يملي أوامره؟».

ـ «لا مانع لديّ في إخبارك أنّها هي المسؤولة الآن. على الأقلّ هذا ما أوهمها به، فذلك يرضيها كما تعلمين. ولكنّنا سنتبادل الأدوار مع الوقت إذ إنّ الزواج، كما يقال: ينقص حقوق المرء إلى النصف ويضاعف واجباته».

قالت:

t.me/yasmeenbook

ـ «بل من شبّ على شيءٍ شاب عليه، وستحكمك آيمي ما حييت».

ـ «حسنًا، لربّما تفلح، ودون أن أعي ذلك، لكنني لن ألتفت للأمر كثيراً. إنّها من النّساء اللواتي يعرفن كيف يحكمن جيّدًا. في الواقع، أنا أحبّ ذلك لأنّها تجعل المرء رهن إشارتها، وتلفّه حول إصبعها كخصلةٍ حريريّة، وتشعرك بأنّها تسدي لك صنيعًا طيلة الوقت».

رفعت جو ذراعيها عاليًا وصاحت قائلة:

«يجب أن أعيش إلى اليوم الذي أراك فيه مستمتعًا بذلك!».

كان من الجيّد رؤية لوري يفرد كتفيه ويبتسم باحتقارٍ ذكوريٍّ لهذا التلميح، ثمّ أجاب بنبرةٍ متغطرسة قويّة:

«إنّ أخلاق آيمي لا تسمح لها بهذا، وأنا لست من أولئك الرّجال الذين يخضعون لمثل هذه الأفعال. أنا وزوجتي نحترم أنفسنا ونقدّر بعضنا بعضاً أكثر من أن يستبدّ أحدنا بالآخر أو يتشاجر معه».

أعجبت جو بذلك، وبما رأت في الفتى من كرامة النّفس واختلط ندمها بسرور لدى رؤية فتاها يصبح الرّجل الذي لطالما تمنّته:

«أنا واثقةٌ من ذلك. فأنت وآيمي لم تتشاجرا قطّ، على

خلافنا. فهي الشّمس وأنا الرّيح، أتذكر في القصّة كيف أنّ الشّمس هي من استطاعت أن تروّض الرّجل.؟»

ضحك لوري قائلًا:

«قد تدفّئ الشّمس المرء وقد تحرقه. لن أنسى تلك المحاضرة التي تلقّيتها في نايس ما حييت!. صدّقيني حين أخبرك أنّها كانت أسوأ من كلّ توبيخاتك بأشواط، لقد استثارتني بكلّ سهولة. سأخبرك بكلّ التّفاصيل يومًا ما، فهي لن تتحدث بالأمر أبدًا لأنّها، وبعد أن أخبرتني كم تبغضني وتشعر بالعار بسببي، فقد قدمت قلبها للطّرف الآخر وتزوّجت هذا الرّجل عديم الفائدة».

قالت:

«يا للحقارة!. اسمع، إن أساءت إليك فلتلجأ إليّ وسأدافع عنك».

قال لوري:

«أبدو أنّني أحتاج دفاعك، صحيح؟».

ثمّ وقف وتغيّرت ملامحه من الصّرامة إلى المرح عندما سمع صوت آيمي وهي تنادي:

«أين هي؟، أين عزيزتي جو؟».

بدأ التقبيل والعناق من جديد بين أفراد الأسرة. وبعد عدّة محاولاتٍ عبثيّة، تمكّن المتجوّلون الثلاثة من الجلوس أخيرًا ليمتّع الجميع أنظارهم بهم:

t.me/yasmeenbook

ما زال السيّد لورانس حسنَ النيّة، طيّبًا ورقيقَ الحاشية كعادته، ويبدو أنّ رحلته إلى الخارج قد أفادته كما أفادت الآخرين تمامًا. إذ يبدو أنّ القشرة الصّلبة قد اختفت تقريبًا، وأصبح ألطف من أيّ وقتٍ مضى، وازدادت سخريته في التّرحيب تهذيبًا وكياسة. كان من المُرضيّ رؤية وجهه يشرق كلما نظر إلى «أطفاله»، كما كان يحبّ أن يدعو العروسين الشّابّين. والأفضل من ذلك كان رؤية آيمي تعمل على تلبية طلباته بواجب الابنة الودودة التي استحوذت على قلبه كلّ الاستحواذ. والأفضل من كل هذا، كان رؤية لوري يمتّع نظره بكليهما وكأنّه لا يملّ من جمال الصّورة التي يرسمانها معًا.

في اللحظة التي وقع فيها نظرها على آيمي، أدركت ميج أن فستانها يخلو من الطّابع الباريسيّ، وأنّ السيّدة لورانس ستتفوّق على السيّدة موفا في الأناقة واللّباقة، وأنّ قيادتها الأنثويّة كانت أكثر روعة. قالت جو في قرارة نفسها وهي تراقب الزّوجين: «يا لجمالهما معًا!. لقد كنت محقّة!، ها قد وجد لوري الفتاة الجميلة التي ستكون مصدر فخر واعتزاز، وملاذًا أفضل من تلك العجوز الخرقاء جو، وستضمن سعادته لا شقاءه وعذابه. ابتسمت السيّدة مارش وزوجها لأنهّما رأيا أنّ أصغرهم قد أبليا بلاءً حسنًا، لا في الأمور الدنيويّة وحسب، بل حصدا ثروة هائلة من الحبّ والثّقة والسّعادة.

كان وجه آيمي مشرقًا بالإحسان النّابع من قلبٍ عامرٍ بالسلام، وكان في صوتها عذوبة جديدة، وحلّت روح الوقار مكان جمودها وبرودها السابق، الأمر الذي زادها حسنًا وجمالًا. وكان انسياب تصرّفاتها الحلو أكثر جاذبيّة من الجمال الجديد أو الرشاقة القديمة، وكان من الجليّ أنّها غدت الامرأة التي لطالما حلمت أن تصبح.

قالت والدتها بهدوء:

«لقد غيّر الحبّ طفلتنا الصّغيرة».

همس السيّد مارش ملقيًا نظرةً محبّة إلى الرأس الذي علاه الشيب بجانبه قائلًا:

«كان لها مثال يحتذى به طيلة حياتها يا عزيزتي».

وجدت ديزي أنّه من المستحيل إبقاء عينيها بعيدًا عن: «خالتها الشرّيرة»، فراحت تتبعها من مكانٍ لآخر كجرو صغير..

أمّا ديمي فقد توقّف لبرهةٍ للنظر في العلاقة الجديدة قبل أن يفسد نفسه بالقبول المتسرّع للرشوة، والتي اتّخذت شكلًا مغريًا فكانت عائلة من الدببة الخشبيّة. وضعف ديمي أمام الإغراء فاستسلم بحركةٍ سريعةٍ من لوري الذي كان يعرف نقاط ضعفه دائمًا.

قال لوري:

t.me/yasmeenbook

«أيّها الشّابّ، حين تشرّفت بمعرفتك للمرّة الأولى، قمت بصفعي وها أنا الآن أطالب بتحيّة تليق برجلٍ شهمٍ من أمثالي».

وراح العمّ يداعب ابن أخيه الصّغير بأسلوبٍ أفسد وقاره الفلسفيّ بقدر ما أسعد روحه الصّبيانيّة.

همست هانا وهي غير قادرة على تمالك نفسها من إلقاء نظراتٍ خاطفة من خلف الجدار بينما كانت تعدّ الطّاولة قائلة:

«فليباركهما الله!. أرى أنّها ترتدي الحرير من رأسها إلى أخمص قدميها، أليس من الرّائع أن نراها تسلب القلوب بوقارها وأن نسمع الناس ينادون الصّغيرة آيمي بالسيّدة لورانس؟».

الرّحمة يا إلهي!، كيف راح هؤلاء يتبادلون أطراف الحديث فيبدأ الأوّل ويتبعه الآخر ثمّ ينفجرون في الكلام معًا جميعًا محاولين سرد أحداث ثلاث سنواتٍ في نصف ساعة. لحسن حظّهم أنّ الشّاي كان قد أصبح في متناول يدهم ليوفّر لهم الهدوء والانتعاش.

ثمّ انتقل الرّكب السعيد إلى حجرة الطعام الصّغيرة!. واصطحب السيّد مارش ابنته السيّدة لورانس بفخرٍ واعتزاز، في حين اتّكأت السيّدة مارش على ذراع ابنها لوري. وأخذ العجوز جو هامسًا في أذنها:

«ستكونين ابنتي من الآن.» فألقت جو نظرةً إلى الزّاوية الفارغة بجوار النّار، وهمست بدورها:

«سأحاول ملء مكانها يا سيّدي».

وقف التّوءمان خلف الحضور، وقد راودهم شعورٌ بأنّ الحظّ حليفهم حيث كان الجميع منهمكين في الاحتفاء والتّرحيب بالوافدين الجدد، وتُركا ليسرحا ويمرحا على سجيّتهما، ولعلّهما انتهزا الفرصة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. فراحا يسرقان رشفاتٍ من أكواب الشّاي ويفركان أسنانهما بكعك الزّنجبيل والبسكويت الساخن، ويحشيان جيوبهما الصغيرة ببقايا الحلوى التي التصق فُتاتها فكشف أمرهما وتعلّما أن الحلوى والطبيعة البشريّة متلازمتان.

وقد أثقلهما تأنيب الضمير من فعلتهما، وخشيا من أن تخترق عينا دودو الحادّة القماش الرقيق الذي يخفي غنائمهما، ولكنّه لم يكن يرتدي نظاراته. لذا راحا يحتميان بجدّهما.

وعادت آيمي التي كانت تتنقّل بين أيدي الحضور ككؤوس المرطّبات مستندةً إلى ذراع السيّد لورانس. وعاد الآخرون في فِرقٍ من اثنين، الأمر الذي ترك جو وحيدةً مجدّدًا ولكنّها لم تمانع وحدتها في الوقت الرّاهن، لأنّها كانت منهمكة في الإجابة على تساؤلات هانا الحماسيّة:

t.me/yasmeenbook

«تُرى هل تركب آيمي العربات المقفلة؟، وهل تستخدم الصحون الفضيّة المخزّنة في القصر؟».

ردّت جو بكامل الرّضا:

«لن أتعجّب إن ركبت عربةً تقودها ستّة جياد بيضاء، ولا أن تستعمل صحونًا من الذّهب أو أن ترتدي الدانتيل وتلبس الألماس كلّ يوم. فلوري لا يرفض لها طلباً».

سألت هانا:

ـ «ما الذي تريدون تناوله على المائدة؟، السمك أم اللّحم؟».

أجابت جو وهي تغلق الباب، شاعرةً بأنّ الوقت لم يكن مناسبًا لمناقشة مثل هذه الأمور:

ـ «لا يشكّل ذلك فرقًا لديّ».

ثمّ وقفت لبرهةٍ تراقب الحضور يختفي في الطابق العلويّ، وما إن اختفت أرجل ديمي النّحيلة عند آخر درجة في السلّم حتّى اعتراها إحساسٌ طاغ بالوحدة، فاسودّت الدنيا في عينيها في محاولة إيجادها لَمن تتكّئ عليه، فقد هجرها الجميع حتّى تيدي.

ولو أنّها كانت على علم بما يخفيه لها القدر في يوم عيد الميلاد هذا مع كلّ دقيقةٍ تمرّ، لما حدّثت نفسها قائلة:

«سأذرف دموعي حين أخلد إلى الفراش، فلا داعي لأن

أكتئب الآن.» ثمّ مسحت عينيها بيدها إذ كان من عاداتها الصّبيانيّة أن تنسى دائمًا أين تضع منديلها، وإذ بابتسامةٍ ترتسم على شفتيها مع صوت طرق أحدهم باب الشّرفة.

فتحت الباب بسرعة مضيافة، ولكنّها ارتعبت كما لو أن شبحًا آخر قد فاجأها. إذ وقف أمامها رجلٌ طويلٌ ملتحٍ لاح لها في الظلام كالشّمس في منتصف اللّيل.

صرخت جو وهي تتشبّث به وكأنّها تخشى أن يبتلعه اللّيل قبل أن تتمكّن من إدخاله:

«آه، السيّد بهاير!، أنا سعيدةٌ برؤيتك!».

قال الأستاذ، وقد توقّف لبرهةٍ حين وصلت إلى مسامعه أصوات الحاضرين ووقع أقدامهم وهم يرقصون:

«وأنا أيضًا مسرورٌ برؤيتك يا آنسة مارش، ولكن لا ـ، يبدو أنّ لديكم حفلة».

قالت:

«بل إنّها الأسرة وحسب. فقد عادت أختي وأصدقاؤنا لتوّهم إلى الوطن والسعادة تغمرنا. تعال!، تعال وانضمّ إلينا».

وعلى الرّغم من كونه رجلًا اجتماعيًّا، أراد السيّد بهاير أن يعتذر عن الانضمام بشكلٍ لائق، وأن يعود في وقتٍ لاحق، ولكن كيف له أن يفعل ذلك وقد أغلقت جو الباب

t.me/yasmeenbook

خلفه وأخذت قبّعته؟. وربّما تكون السّعادة التي علت وجهها هي السبب، فلم تستطع إخفاءها بل أظهرتها بصدقٍ لم يقاومه الرّجل الذي لقي ترحيبًا تجاوز أكثر آماله جرأة.

قال:

«إن لم أكن سأثقل عليكم، فيسرّني أن أقابل الجميع».

وبينما كانت جو تعلّق معطفه، أضاء النور وجهها فرأى الرّجل ما طرأ عليه من تغيّرات، فجاء سؤاله مفاجئًا:

«أكنت مريضةً يا صديقتي؟».

«لا، ولكنّني متعبةٌ وحزينة، فقد انصبّت علينا المشاكل منذ أن رأيتك آخر مرّة».

قال:

«آه أجل، لقد وصلتني أنباؤكم وقلبي يعتصر حرقةً لمصابكم».

ثمّ راح يصافحها مجدّدًا وفي وجهه من معالم المواساة، ما جعل جو تشعر بأنّ لا مواساة في العالم بأسره تناهز نظرة عينيه الحنونتين ودفء يديه الكبيرتين.

قدّمت صديقها لوالديها وقالت بنبرةٍ من الفخر وكأنّها أرادت أن تنفخ له المزامير وتفرش البساط الأحمر لو استطاعت:

«أبي، أمّي، إليكما صديقي، السيّد باير».

وقد هدّأ الترحيب الوديّ الذي لقيه صديقنا الغريب من روع الشكوك التي كانت تنتابه حول استقبالهم له. فحيّاه الجميع بلطف من أجل جو في بادئ الأمر، ولكن سرعان ما أحبّوه لشخصه. لم يتمكّنوا من تمالك أنفسهم إذ بدا وكأنّه يحمل التّعويذة التي تفتح جميع القلوب، فانصاعت له هذه القلوب البسيطة في الحال، وشعروا أنّه كان أقرب إليهم لأنّه كان فقيرًا والفقر يغني النّفوس التي تترفّع عنه وتعيش بودٍّ ومحبّة.

جلس السيّد بهاير ينظر حوله كأنّه مسافرٌ يطرق بابًا غريبًا ليجد نفسه بين الأهل والأحباب. وسارع إليه الطّفلان كما يطير النحل حول جرّة من العسل، واتّخذ كلٌّ منهما إحدى ركبتيه وشرعا بتفتيش جيوبه وشدّ لحيته وتفحّص ساعته بجرأة الأحداث.

تبادلت النساء نظرات الرّضا. وفتح السيّد مارش خزانة معارفه لضيفه وقد أحسّ أنّه وجد روحًا تآلفت مع روحه، في حين جلس جون بهدوء واستمتع بالحديث، ولكنّه لم ينبس ببنت شفة وأحسّ السيّد لورانس أنّه من المحال أن يخلد إلى النوم.

ولو لم تكن جو منشغلة بطريقةٍ ما لأضحكها سلوك لوري، إذ أنّ شعورًا لاذعًا وأقرب للغيرة، قد جعله يقف منعزلاً بادئ الأمر، ويراقب الوافد الجديد بحذرٍ أخويّ.

t.me/yasmeenbook

ولكنّ ذلك لم يدم طويلًا ووجد نفسه منخرطًا في الحديث بدوره دون أن يعي ذلك، وانضمّ إلى دائرة المجتمعين.

وكان حديث السيّد بهاير ساحرًا منحه حقّه كاملًا. نادرًا ما توجّه للوري بالحديث، ولكنّه كان ينظر إليه كثيرًا، وقد تظلّل وجهه وكأنّه يرثي لشبابه الضّائع وهو يشاهد الشابّ في أوج عطائه. ثمّ كانت عيناه تتّجهان إلى جو وقد أسرهما حزنٌ عميق ينمّ عن تساؤلاتٍ صامتة، ولا شكّ في أنّ جو كانت ستجيبها لو أنّها رأتها. ولكنّها كانت منشغلةً في إخفاء نظراتها وكانت تشعر بأنّها لا تثق بها، فأبقت عينيها متسمّرتين على الجورب الصّغير الذي كانت تحيكه كي لا يستشفّ الحضور ما ينطوي في قلبها من مشاعر أرادت التكتّم عليها.

وكانت، بين الفينة والأخرى، تختلس نظراتٍ تنعش قلبها كرشفاتٍ من الماء العذب بعد نزهةٍ مضنية، إذ كانت تكشف لها بشائر واعدة. كان وجه السيّد بهاير قد انجلت عنه تعابير الشرود، ورأت جو أنّه كان يبدو في هذه اللحظة مفعمًا بالحياة، بل كان يبدو شابًّا ووسيمًا متجاهلةً مقارنته بلوري كما اعتادت أن تفعل دائمًا مع الرّجال الغرباء، الأمر الذي كان يضرّه كثيرًا. ثمّ بدا عليه الإلهام، على الرّغم من أنّ عادات دفن القدماء، الموضوع الذي جرّت إليه أذيال الحديث لم يكن بالمبهج. وأشرقت جو بنصرها حينما

هزم لوري في خضمّ الجدال، وفكّرت في نفسها وهي تراقب وجه والدها المُلِمّ بالمحادثة كلّ الإلمام:

«كم سيستمتع والدي بوجود رجلٍ مثل أستاذي للتّحدث معه يوميًّا!».

كان السيّد بهاير يرتدي بدلةً سوداء جديدة فكان يبدو وكأنّه رجلٌ نبيل. وكان قد قصّ شعره الكثيف وسرّحه ولكنّه لم يبق مرتّبًا لوقتٍ طويل، إذ كان من عادته أن يعبث به بطريقةٍ لطيفة متى تحمّس، وكانت جو تفضّل شعره على هذه الحال لأنّها رأت أنّه يبرز نعومة جبينه.

مسكينةٌ جو!، فهي تجلس هناك بعيدًا تمجّد ذلك الرّجل البسيط، ولم تترك شيئًا يفلت منها، ولا حتّى حقيقة أنّ السيّد بهاير يضع أزرارًا ذهبيّة على أكمام معصمه.

قالت محدّثةً نفسها:

«يا للصّديق العزيز!، أتى متأنّقًا وكأنّه جاء في يوم خطبته.» وإذ بالفكرة المفاجئة التي ولّدتها كلماتها تورّد وجهها خجلًا، فأسقطت كرة الصّوف وسارعت خلفها لالتقاطها، راجيةً أن تخفي وجهها عن الحاضرين.

ولم تنجح مناورتها كما توقّعت، وعلى الرغم من أنّ السيّد بهاير كان في خضم الحديث عن كيفية إشعال النار في المحارق الجنائزيّة، إلّا أنّه ترك كلّ شيءٍ جانبًا ولاحق

t.me/yasmeenbook

الكرة على أمل التقاطها، ولكنّ رأسه اصطدم بقوةٍ برأس جو، ثمّ رفع كلاهما رأسيهما ضاحكين ناسيين أمر الكرة وقد تمنّيا لو أنّهما لم يغادرا مقعديهما.

لم يشعر أحدٌ كيف مضى الوقت، لأنّ هانا انصرفت بالطفلين في ساعةٍ مبكّرة، وذهب السيّد لورانس ليستريح في منزله. وجلس الباقون حول النار يتسامرون غير عابئين بمرور الوقت، حتّى أعلنت ميج رغبتها في عودتها إلى المنزل إذ خشيت بعاطفة الأمومة أن تكون ديزي قد تعثّرت من السرير، أو أن يكون ديمي قد أضرم النار في ثوبه وهو يركّب عيدان الثقاب.

قالت جو وقد شعرت أنّ بعض الصّياح سيكون بمثابة تنفيس آمن وممتع لمشاعر روحها المبتهجة:

«فلنغنّ بطريقتنا المعهودة بنا، فقد اجتمعنا جميعًا من جديد».

وعلى الرّغم من أنّهم لم يكونوا جميعًا موجودين ولكن لم يجرؤ أحدٌ على الشكّ في صحّة تلك الكلمات، لأنّ روح بيث كانت بينهم رغم غيابها، ولأنّ الموت لا يستطيع أن يفكّك روابط أسرةٍ محبّة. لم يغادر الكرسيّ الصغير مكانه ومازالت السلّة القديمة المليئة بالحياكات غير المنجزة عندما باتت الإبرة ثقيلةً على أصابعها الواهنة فوق رفّها المعتاد.

ولم يتحرّك البيانو من مكانه، والذي نادرًا ما تمّ لمسه بعد رحيلها، وفوقه صورة بيث بوجهها المبتسم الهادئ وكأنّها تنظر إليهم بمحبة قائلة:

«فلتكونوا سعداء، فأنا بينكم».

قال لوري مفتخرًا بتلميذته الواعدة:

«اعزفي لهم مقطوعةً ما يا آيمي، وأريهم كم تحسّنتِ في الموسيقا».

ولكنّ آيمي همست وقد اغرورقت عيناها بالدموع بينما كانت تدير المقعد الباهت:

«ليس هذه اللّيلة يا عزيزي».

لكنّها كشفت عمّا هو أفضل من الذكاء أو المهارة، وراحت تغنّي أغاني بيث بصوتٍ رقيق يفشل في تعليمه أفضل الأساتذة. ولامس صوتها قلوب المستمعين فاستحوذ عليهم أفضل من أيّ إلهامٍ آخر.

كانت الغرفة هادئةً للغاية عندما همس صوتها الوضّاح الترنيمة الأخيرة من البيت الأخير المفضّل لدى بيث:

«لا حزن في الأرض تعجز السماء عن شفائه».

والتفتت آيمي إلى زوجها الذي كان واقفًا خلفها، وقد اعتراها شعورٌ بأنّ الترحيب كان ناقصًا من دون قبلة بيث.

قالت جو قبل أن يصبح الموقف مؤلمًا:

t.me/yasmeenbook

«فلنختتم بأغنية مينيون، فالسيّد بهاير يجيد غناءها».

وتنحنح السيّد باير متّجهاً إلى الزاوية حيث وقفت جو وقال:

«هلا شاركتني الغناء؟. فصوتانا ينسابان جيّدًا معًا».

والحقيقة أنّ جو لم تكن تعرف عن الموسيقا أكثر ممّا قد يعرفه الجندب. ولكنّها ما كانت لتردّ طلبًا لأستاذها ولو اقترح عليها غناء أوبّرا كاملة.

وراحت تغنّي بسرورٍ غير مباليةٍ بالنشاز والتوقيت، فذلك لم يكن مهمًّا إذ أنّ السيّد بهاير غنّى بحماسة الألمانيّ المُتقنة، وسرعان ما تحوّل صوت جو إلى همهماتٍ وترنيماتٍ خافتة، وراحت تمتّع مسامعها بصوت السيّد بهاير العذب الذي بدا وكأنّه يغنّي لها وحدها:

«أتعرفين تلك البلاد حيث تزهر أشجار الليمون؟».

وكان هذا البيت هو المفضّل لدى الأستاذ لأنّ هذه البلاد المقصودة كانت ألمانيا، ولكنّه صبّ جلّ اهتمامه وحنانه في الأبيات التي تقول:

«هناك، نعم هناك، أيمكننا أن نكون معًا».

وقد شعرت إحدى المستمعات أنّها تتوق لإخباره أنّها تعرف تلك البلاد، وأنّها سترتحل معه إلى هناك بكلّ سرور ومتى أراد.

ولاقت الأغنية إعجابًا من الجميع، ولكن ما هي إلا لحظات حتّى نسي الأستاذ أخلاقه كليًّا وراح يحدّق في آيمي وهي تلبس قبّعتها، إذ إنّ جو عرّفته إليها على أنّها أختها، ولم يخاطبها أحدٌ على أنّها زوجة لوري منذ مجيء السيّد بهاير، ثمّ نسي ما كان يفعله حين قال لوري بلباقة قبل مغادرته:

«لقد سررت وزوجتي بمقابلتك يا سيّدي. اعلم أنّك مرحّبٌ بك دائمًا متى شئت».

ثم شكره البروفيسور بحرارة وقد أشرق وجهه بارتياح، حتّى ظنّ لوري أنّه من أظرف الأشخاص الذين قابلهم في حياته.

وقال الأستاذ وهو يخاطب السيّدة مارش وعيناه على جو:

«لا بدّ لي من الذّهاب أيضًا، ولكن يسرّني أن أزوركم مجدّدًا إن لم يكن في ذلك مانعٌ يا سيّدتي. إذ سأضطر للبقاء في المدينة لبعض الوقت بسبب بعض الأعمال».

وجاء ردّ الأمّ بموافقة وديّة عكست ما رأته في عينيّ ابنتها، فالسيّدة مارش لم تكن غافلةً عن مصالح ابنتها كما تفترض السيّدة موفا.

بعد رحيل آخر ضيف، قال السيّد مارش بهدوء من مكانه في الموقد:

t.me/yasmeenbook

«أظنّ أنّه رجل حكيم».

وأردفت السيّدة مارش وهي تملأ الساعة قائلة:

«أعلم أنّه شخصٌ طيّب».

واكتفت جو بقولها:

«كنت على يقينٍ من أنّك سوف تحبّه».

ثمّ انسحبت إلى غرفتها وتساءلت عن العمل الذي جاء بالسيّد بهاير إلى المدينة، وقرّرت أخيرًا أنّه قد عيّن لمهمّةٍ عظيمة وكان أكثر تواضعًا من أن يذكر التفاصيل. ولو أنّها رأت وجهه حين اختلى بنفسه في غرفته وهو ينظر إلى صورة فتاةٍ شابّةٍ صلبة، كثيفة الشعر والتي كانت تبدو وكأنّها تراقب المستقبل باكتئاب لأدركت بعض الحقيقة، ولا سيّما بعد أن أطفأ النور وطبع قبلةً على الصورة في الظلام.

t.me/yasmeenbook

الفصل الحادي والعشرون

مولاي ومولاتي

في اليوم التالي، دخل لوري فوجد زوجته جالسةً في حجر والدتها، كما لو أنّها عادت طفلةً تتوسّل أن تُعامل كالأطفال مجدّدًا، فقال:

«أرجوك يا سيّدتي الأمّ، هلّا أقرضتني زوجتي لمدّة نصف ساعة؟، لقد وصلت الأمتعة، وكدت أفسد أقمشة آيمي الباريسيّة في محاولتي العثور على بعض الأشياء التي أريدها».

قالت السيّدة مارش وهي تضغط برفقٍ على اليد البيضاء التي لبست خاتم الزواج، وكأنّها تطلب العفو عن شغفها الأموميّ:

«بالتأكيد، اذهبي يا عزيزتي. لقد نسيت أنّ لك منزلًا غير هذا».

قال لوري:

«ما كنت لأستدعيها لولا حاجتي إليها، ولكن ما باليد حيلة إذ إنّني لا أستطيع أن أفعل شيئًا من دون امرأتي الصّغيرة، وأشعر وكأنّني... كأنّني..».

وأكملت جو جملته قائلةً حين توقّف مبتسمًا:

«طاحونة بلا رياح».

كانت قد استعادت بعضًا من سلاطة لسانها منذ عودة لوري.

قال:

«تمامًا، لأنّ آيمي تجعلني أشير إلى الغرب في معظم الأوقات مع لفتةٍ عرضيّةٍ نحو الجنوب بين الفينة والأخرى، وأنا لم أتّجه للشرق منذ أن تزوّجت. وأجهل أيّ شيءٍ عن الشمال، ولكنّني دائمًا في حالٍ جيدّة، أليس كذلك يا سيّدتي؟».

قالت آيمي بصوتها الرقيق الذي يسعد زوجها:

«الطقس في غاية الجمال حتّى اللّحظة. لا أدري إلى متى ستدوم هذه الحال، ولكنّني لا أخشى العواصف لأنّني تعلّمت كيفية الإبحار بسفينتي. فلنعد إلى المنزل يا عزيزي، وسأجد حقيبة أمتعتك. أظنّ أنّ هذا ما كنت تبحث عنه بين أشيائي. إنّ الرجال قليلو الحيلة يا أمّي».

سألت جو وهي تزرّر معطف آيمي كما اعتادت في الماضي

«ماذا ستفعلان بعد أن تستقرّا؟».

قال لوري:

«لقد خطّطنا لبعض الأمور ولكنّنا لا نرغب بالإفصاح عنها الآن، ما زال كلّ شيءٍ جديدًا علينا ولكنّنا لا ننوي أن نجلس عاطلين عن العمل. أنا أبذل ما في وسعي وأعمل بإخلاصٍ لأثبت لجدّي أنّني لست مُدلّلًا. وأحتاج إلى عملٍ يثبت جدّيّتي، فقد سئمت من الخمول، لذا سأعمل كرجل».

سُرّت السيّدة مارش لكلام لوري وعزيمته، وقالت سائلةً آيمي:

«وماذا عنك يا ابنتي؟».

قال لوري ملقيًا نظرة خاطفة على آيمي:

«بعد انتهائنا من شتّى واجبات المجاملات وتقديم أفضل ما لدينا، سوف ندهشكم بما سوف نقدمه في قصرنا، والصورة الرائعة التي سنرسمها عنا وما سننشره في العالم من تأثيرٍ مفيد. أليس كذلك يا سيّدة ريكامبيه؟».

قالت آيمي وفي نيّتها أن تكون زوجةً صالحة قبل أن تفتح صالونها كملكة للمجتمع:

«سيكون الوقت كفيلًا بإظهار كلّ شيء. وكفاك وقاحةً أمام أسرتي، ولا تصدمهم بمناداتي بأسماءٍ غريبة».

بعد انصراف الزوجين الشابّين، قال السيّد مارش وقد وجد صعوبةً في التركيز في كتاب أرسطو:

«يا لسعادتهما معًا!».

أضافت السيّدة مارش بارتياح ربّان قاد سفينته إلى برّ الأمان:

«أجل، وأعتقد أن سعادتهما ستدوم».

قالت جو متنهّدة:

«أنا واثقةٌ من ذلك».

ثمّ أشرق وجهها حين فتح الأستاذ بهاير الباب بدفعةٍ متعجّلة.

وفي وقتٍ لاحقٍ من المساء، وبعد أن اطمأنّ قلب لوري لحقيبة الأمتعة قال لزوجته فجأة:

«ربّاه!، يا سيّدة لورانس، إنّ هذا الرجل يعتزم الزواج من عزيزتنا جو؟».

أجابت:

«أنا آمل ذلك، ألا تشاركني الشعور نفسه يا عزيزي؟».

قال:

«بلى يا حبيبتي فأنا أعتبره ورقةً رابحة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، ولكنّني أتمنّى لو كان أصغر سنًّا وأكثر ثراءً».

t.me/yasmeenbook

قالت:

«بربّك يا لوري، لا تكن مفرط الحساسيّة، كفّ عن التفكير بالأمور الدنيويّة. فالحبّ لا يعرف العمر أو الثّروة. ولا ينبغي للنساء أن يتزوّجن من أجل المال».

وأفلتت هذه الكلمات الأخيرة من لسانها، ثمّ نظرت إلى زوجها الذي ردّ بخبث:

«بالتأكيد لا، على الرغم من أنّ المرء كان يصادف في حياته فتياتٍ فاتنات يتفوّهن بمثل هذا الكلام، إن لم تخنّي الذّاكرة. فقد قلت ذات مرّة أنّك أردت الزواج من رجلٍ ثريّ، وربّما هذا يفسّر زواجك من رجلٍ عديم الفائدة مثلي».

أجابت:

«آه يا حبيبي، لا، لا تقل ذلك!. لقد غفلت عن فكرة أنّك ثريّ عندما وافقت على الزواج بك. كنت سوف أتزوّجك حتى وإن لم تكن تملك فلسًا واحدًا كما أنّني أتمنّى في بعض الأحيان لو كنت فقيرًا حتى أتمكّن من إظهار مدى حبّي لك.» وكانت آيمي، وهي المحترمة في العلن والمولعة في السرّ، قد قدّمت أمثلةً حيّة على صدق كلامها.

ثمّ أردفت قائلة:

«أنت لا تظنّ حقًّا أنّني ما أزال تلك المرأة الماديّة التي كنت عليها فيما مضى، أليس كذلك؟. سينفطر فؤادي إن لم تصدّق أنّني سأركب معك القارب نفسه بكلّ سرور، حتّى لو كنت تكسب قوت يومنا بالتجديف في البحيرة».

قال:

«أأحمق أم وحش أنا؟. كيف لي أن أفكّر بذلك حين رفضت رجلًا أكثر ثراءً من أجلي ولم تسمحي لي بإعطائك نصف ما أريده من هدايا رغم أنّني أملك الحقّ في ذلك؟. الفتيات المسكينات يتزوّجن من أجل المال كلّ يوم وفي ظنّهن أن ذلك هو سبيلهن الوحيد للخلاص. وعلى الرّغم من أنّني خفت عليك من هذا التفكير في وقت ما، إلاّ أنّ أملي لم يخب فقد كنت وفيّة لتعاليم والدتك. لقد أخبرتها بذلك أمس وقد غمرتها سعادة وكأنّني أعطيتها شيكًا بقيمة مليون دولار لتنفقه في الأعمال الخيريّة».

ثمّ توقّف لوري مؤقّتًا وقد أحسّ بأن آيمي لا تركزّ في كلامه، ورأى في عينيها آثار الشرود على الرغم من أنّها لم تشح بناظريها عن وجهه.

تابع قائلًا:

«أراك لا تستمعين لموعظتي الأخلاقيّة يا سيّدة لورانس؟».

t.me/yasmeenbook

أجابت:

«بل كلّي آذانٌ مصغية، ولكنّني في الوقت عينه لا يسعني سوى أن أتأمّل الشامة على ذقنك. لا بدّ لي من الاعتراف بأنّني فخورةٌ بوسامة زوجي أكثر من ثرائه».

ثم لمست طابع الحسن برقّة وقالت:

«لا تضحك منّي، ولكنّ أنفك يبعث الراحة في نفسي».

كان لوري قد تلقّى وابلًا من الإطراء في حياته، ولكن لم يبلغ أيّها في نفسه ما بلغته كلمات آيمي، فبان عليه الفرح بوضوح وراح يضحك من ذوق زوجته الغريب.

قالت آيمي ببطء:

«هل لي أن أطرح عليك سؤالًا يا عزيزي؟».

«بالطّبع يمكنك».

ـ «ما رأيك في زواج جو من السيّد بهاير؟».

«أهذا كلّ ما في الأمر؟، ظننت أنّ في غمّازاتي ما لا يروقك. سأكون أسعد مخلوقٍ على وجه الأرض بزواجها، وسأرقص في حفل زفافها بقلبٍ يفيض بهجةً وسرورًا. ألديك شكٌّ في هذا يا عزيزتي؟».

نظرت إليه آيمي وكانت راضية. واختفى خوفها الغيور إلى الأبد وشكرته وقد علت وجهها سيمات الحبّ والثقة.

تأبّط لوري ذراع آيمي، وراحا يذرعان الغرفة جيئة وذهاباً

لما في الأمر من إحياء لذكريات المشاعر التي خالجتهما في حديقة القصر.

قال:

«ليتنا نستطيع القيام بشيءٍ ما لأجل ذاك الأستاذ العجوز. أليس في وسعنا أن نخلق له قريبًا غنيًّا قضى حتفه في ألمانيا فيرث ثروةً بسيطة؟».

قالت آيمي:

«ستكتشف جو أمرنا حتمًا وتفسد كلّ شيء. فهي شديدة الفخر به على حاله وقد قالت البارحة أنّها تجد الفقر أمرًا جميلًا».

قال: «بارك اللّه في قلبها!، لقد تغيّر رأيها حين أصبح متوّجباً عليها أن تعيل زوجًا أديبًا وعديدًا من صغار الأدباء والأديبات. لن نتدخّل في الوقت الراهن ولكنّنا سنغتنم الفرصة السانحة ونحوّل حياتها رغماً عنهما. أنا مدينٌ لجو بجزءٍ من تحصيلي العلميّ، وهي تؤمن أنّه يجب على المرء أن يوفّي ديونه، لذا سأحرص على فعل ذلك بهذه الطريقة».

قالت آيمي:

«أليس من الرائع أن يكون المرء قادرًا على مدّ يد العون للآخرين؟. لطالما حلمت أن أكون قادرةً على العطاء بلا مقابل، وقد تحقّق هذا الحلم بفضلك».

t.me/yasmeenbook

قال:

«آه، سنقوم بالكثير من الأعمال الخيريّة معًا. هناك نوعٌ محدّدٌ من الفقر، وأحرص كلّ الحرص على مساعدته بشكلٍ خاصّ. فعادةً ما تمدّ يد العون للمتسوّلين العاطلين عن العمل، ولكنّ الحياة تعصف بأولئك الفقراء أصحاب الكرامة ممّن لا يجرؤون على طلب المساعدة، ولا يجرؤ الناس على تقديم الصدقات لهم. ومع ذلك، هناك ألف طريقة لمساعدتهم دون المسّ بكرامتهم، وعلى المرء أن يعرف كيف يقوم بذلك كما يجب. لا بدّ لي من الاعتراف أنّ مساعدة أحد هؤلاء أحبّ إلى قلبي من مساعدة متسوّلٍ محترف. ولعلّ في كلامي هذا شيءٌ من الخطأ، ولكن تلك هي الحقيقة المُرّة رغم كون هذه المهمّة أكثر مشقّة».

أضافت آيمي معجبة بكلام زوجها قائلة:

«لأنّ ذلك يتطلّب رجلًا نبيلًا».

قال:

«أشكرك، وأخشى أنّني لا أستحقّ إطراءك هذا. ولكنّني كنت على وشك أن أقول إنّي رأيت العديد من الشبّان الماهرين الذي يقدّمون التضحيات حين كنت في الخارج، كانوا يجابهون الصّعاب في سبيل تحقيق أحلامهم. يا لهم من شبّانٍ مذهلين!، بعضهم يعمل كالأبطال، يصارعون الفقر دون صديقٍ يساندهم، ولكنّهم كانوا يمضون ببسالة

وشجاعة، يعينهم الصّبر والطموح، حتّى إنّني شعرت بالعار من نفسي وشعرت أنّني أتوق لأدفع بهم إلى الأمام. هؤلاء هم الأشخاص الذين نجد في مساعدتهم شعورًا بالرّضا، لأنّهم إن كانوا على عبقريّة حقّة فمن الشرف خدمتهم، أمّا إن لم تكن تلك هي الحال فمواساة هؤلاء البائسين تبعث في النفس السعادة».

قالت آيمي:

«أنت محقّ، وهناك طبقةٌ أخرى ممّن لا يجرؤون على السؤال ويعانون بصمتٍ. أنا أعرف ما أتحدّث عنه لأنّني كنت أنتمي لهذه الطبقة قبل أن تجعلني أميرة، كما في القصص الخياليّة. تواجه الفتيات الطموحات أوقاتًا عصيبةً يا لوري، وغالبًا ما يتحتّم عليهنّ رؤية شبابهنّ وصحتهنّ والفرص الثمينة تنزلق من بين أصابعهنّ لمجرّد أن يد المساعدة لم تمدّ لهنّ في اللحظة المناسبة. لطالما عاملني الناس بلطف، وكلّما رأيت فتياتٍ يعانين ما عانيت وددت أن أمدّ لهنّ يد العون وأن أساعدهنّ تمامًا كما تلقّيت المساعدة».

قال لوري وقد أشرق وجهه حماسًا عاقدًا العزم على فكرة تأسيس مؤسّسةٍ لمساعدة الشابّات ذوات الميول الفنيّة:

«هذا عين الصواب. يا لك من ملاك!، لا يحقّ

t.me/yasmeenbook

للأثرياء أن يجلسوا مكتوفي الأيدي ويتنعّموا بما لديهم، أو أن يكدّسوا أموالهم ليهدرها غيرهم من الورثة. بل من الأفضل أن يستغلّ الإنسان ماله بحكمةٍ ويسعد بها غيره. سوف نحظى بأوقاتٍ سعيدة ونضيف طعمًا آخر لسعادتنا بمشاركتها مع الآخرين. فهل لك أن تكوني كآلهة الإغريق الصغيرة دوركاس وتفرغي سلّة الراحة لتملئيها بالأعمال الحسنة؟».

قالت:

«هذا من دواعي سروري، فهلّا كنت كالقدّيس مارتن وتوقّفت في منتصف نزهتك لتعطي معطفك لأحد المتسوّلين؟».

قال:

«اتّفقنا والمكسب معنا».

وهكذا تصافح الزوجان الشابّان لاتّفاقهما، ثمّ تابعا سيرهما وشعرا أنّ نورًا جديدًا شاع في منزلهما لأنّهما أملا أن ينيرا منازل الآخرين، مؤمنين أنّ الطريق أمامهما ستكون أقلّ وعورةً إن عبّدوا الطريق للآخرين، وشاعرين بأنّ قلبيهما متّصلان بحبّ لا ينسى أولئك الذين لم يحالفهم الحظّ مثلهما في الحياة.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثاني والعشرون

ديمي وديزي

لن أشعر أنّني أدّيت واجبي كمؤرّخةٍ متواضعةٍ لعائلة مارش ما لم أكرّس فصلًا واحدًا على الأقلّ لأهمّ وأغلى عضوين فيها. فقد وصل ديمي وديزي الآن إلى سنّ الفهم والإدراك، وفي عصر السرعة هذا، يؤكّد الأطفال ذوو الأربعة أو الثلاثة أعوام حقوقهم، ويحصلون عليها أفضل ممّا يفعل العديد من الكبار.

إن كان هناك توءمان كسبا تدليلًا مُفرطًا مُفسدًا بفعل حبّ الأبوين فهما توءما بروك. وممّا لا شكّ فيه أنّهما كانا من أكثر الأطفال في العالم ممّن يدعون للإعجاب. وسيبدو ذلك واضحًا عندما أذكر أنّهما خطوا خطواتهما الأولى في شهرهما الثامن، وكانا يتحدّثان بطلاقة في عمر السنة. وتمكّنا من الحصول على مكانيهما على مائدة الطعام والتصرّف بلباقةٍ أذهلت الجميع في الثانية من عمرهما. حين بلغت الثالثة من عمرها، طلبت ديزي إبرة

ونجحت في خياطة حقيبة بأربع غرزاتٍ فقط. كما اهتمّت بتدبير شؤون المنزل وترتيب خزانة الطعام، كما وأدارت موقد الطهي بمهارة أثارت دموع الفخر في عيني هانا. أمّا ديمي، فقد تعلّم كتابة الرسائل مع جدّه الذي ابتكر طريقةً جديدة في تعليمه الحروف الأبجديّة بذراعيه وساقيه. وكان الطفل منذ نعومة أظفاره قد أظهر إلمامًا بالأمور الميكانيكيّة، الأمر الذي سرّ والده وأقلق والدته، فقد كان يحاول تقليد أيّ آلةٍ يراها، وجعل بهذا حجرة الأطفال في حالٍ يرثى لها!، حيث كان يقلّد آلة الخياطة بمجموعةٍ غامضةٍ من الخيوط والكراسي ومشابك الغسيل!، كما علّق سلّة على ظهر الكرسيّ، وحاول أن يضع فيها أخته المطيعة، التي ضربت رأسها، وبقيت على هذه الحال حتّى جاء من ينقذها، فقال المخترع الصغير بسخط:

«لماذا يا ماما، هذا دلوي وأنا أحاول سحبه».

وبالرغم من اختلاف شخصيّتيهما إلّا أنّ انسجام التوءمين لم يكن يخفى على أحد، كانا نادرًا ما يتشاجران، ليس أكثر من ثلاث مرّاتٍ في اليوم. ولا بدّ من القول أنّ ديمي كان يستبدّ بديزي ولكنّه كان أيضًا يدافع عنها ببسالةٍ ضدّ أيّ معتدٍ آخر. في حين كانت ديزي تنصاع لأوامر أخيها باعتباره الشخص المثاليّ الوحيد في العالم.

كانت ديزي ذات روحٍ مشرقةٍ مُحبّة، وجدت طريقها

t.me/yasmeenbook

إلى قلوب الجميع واستقرّت فيها. كانت واحدة من أولئك الأطفال الآسرين الذين يغني المرء نفسه بتقبيلهم وتدليلهم، وكانت تتمّ استشارتها لإعطاء موافقتها في جميع المناسبات الاحتفاليّة. ولرَفعتها فضائلها إلى مرتبة الملائكة لولا هفوات الأطفال التي ربطتها بعالم البشر. كان الطقس معتدلًا في عالمها كلّ يوم، وكانت تسارع كلّ صباحٍ إلى النافذة وما زالت في قميص نومها، فتقول بغضّ النظرِ ما إذا كان الجوّ مطيرًا أم مشرقًا:

«يا له من يومٍ بائس!، يا له من يومٍ بائس!».

كانت قد اتّخذت الجميع أصدقاء لها، وسبق أن عرضت قبلاتها على الغرباء الأمر الذي يُليّن أكثر القلوب صلابة، ويجعل من محبّي الأطفال عبيداً مخلصين.

وقد قالت ذات مرّة وهي تفتح ذراعيها، وكانت في إحدى يديها ملعقة وفي الأخرى كوب:

«أنا أحبّ الجميع».

وكلّما كبرت ديزي، كانت والدتها تشعر بأنّ طيور الحمام ستنعم بوجود ابنةٍ محبّةٍ هادئة وما تبعثه من روحها الحلوة من سعادة في أرجاء المنزل القديم. وكانت تصلّي متضرّعةً إلى الله ألّا يصيبهم فيها من مكروهٍ كما أصاب ملاكهم بيث، التي علّمتهم كيف يعيشون في بركة فخُطفت من بينهم على حين غرّة. غالبًا ما كان جدّها يناديها: «بيث»،

وكانت جدّتها تراقبها بتفانٍ لا يعرف الكلل، كما لو أنّ في نظراتها محاولةً للتكفير عن خطأ من الماضي لا يعرف به سواها.

أمّا ديمي، فكان طفلًا أمريكيًّا بكلّ معنى الكلمة: كان فضوليًّا، كثير الأسئلة، يزعجه عدم الحصول على إجابات وافية مُرضية لسؤاله الدائم: «لماذا؟».

كان يتمتّع بميولٍ فلسفيّ سرّ جدّه الذي اعتاد الخوض في أحاديث سقراطيّة معه، يتصرّف فيها الطفل تصرفات لا تفشل في إرضاء النساء.

وبينما كان الفيلسوف الشابّ يستريح بعد ليلةٍ من المرح، راح يتأمّل ساقيه يتحرّكان فسأل جدّه:

«ما الذي يجعل ساقيّ يتحرّكان يا جدّي؟».

أجاب الجدّ الحكيم مداعبًا شعر الفتى الأشقر باحترام:

«إنّه عقلك الصغير يا ديمي».

سأل الطفل:

«وما هو العقل الصغير؟».

«إنّه ما يجعل جسدك يتحرّك تمامًا كما يحرّك الزمبرك العقارب في ساعتي التي فتحتها وأريتك ما بداخلها».

«فلتفتحني إذًا لأرى كيف يتحرّك عقلي».

«لا أستطيع فعل ذلك، تمامًا كما لا يمكنك أنت أن

t.me/yasmeenbook

تفتح الساعة. فهذه من صلاحيّات اللّٰه الذي خلقك وله وحده أن يوقفك بمشيئته».

وأشرق في عيني الفتى البنيّتين الكبيرتين وهجٌ حادٌّ من الفكرة الجديدة التي جالت في ذهنه، فقال:

«وهل أُملأ أنا كما تُملأ الساعة؟».

قال:

«أجل، ولكنّني لا أستطيع أن أوضّح لك كيف يتمّ ذلك، فلا يمكنني أن أريك».

وراح ديمي يستشعر ظهره وقد توقّع أن يكون كظهر الساعة، ثمّ قال بجرأة:

«أظنّ أنّ اللّٰه ملأني حين كنت نائمًا».

ثم راح الجدّ يشرح بعناية، وأنصت له الفتى بكلّ حواسه حتّى إنّ جدّته قالت في قلق:

«عزيزي، أتظنّ أنّه من عين العقل أن تحدّث الطفل بمثل هذه الأمور؟».

فأجاب الجدّ:

«إن كان واعيًا كفاية لطرح السؤال، فأنا أرى أنّه واعٍ كفاية لسماع الجواب. لست أنا من يزرع هذه الأفكار في رأسه، بل أساعده وحسب على كشف تلك الأفكار الموجودة في ذهنه بالفعل. هؤلاء الأطفال يفوقوننا حكمة، وكلّي يقينٌ

أن هذا الطفل قد فهم كلّ كلمةٍ قلتها. هيّا يا ديمي، قل لي أين تحتفظ بعقلك؟».

ولو أن الطفل أجاب كما أجاب أحد تلاميذ سقراط الذي قال: «واللّه لا أعرف يا سقراط.» لما اندهش الجدّ كلّ هذ الاندهاش، ولكنّه وقف على ساقٍ واحدة كطائر اللقلق وأجاب بقناعةٍ بنبرة هادئة:

«في بطني الصغير».

ولم يستطع الجدّ إلّا أن يشارك الجدّة ضحكتها، ويعلن انتهاء حصة الميتافيزيقيا هذه.

ولربّما كانت والدة ديمي ستقلق بفعل الأمومة، لو أنّ الطفل لم يثبت أنّه طفل طبيعيّ كسائر الأطفال رغم ميوله الفلسفيّة، إذ غالبًا ما كان يعود لمقالب الأوغاد المشاغبين، فيهدّئ مخاوفها ويرفع من معنويّاتها، بعد محادثةٍ كانت تبعث التشاؤم في نفس هانا فتقول في حسرة: «هذا الطفل لا ينتمي لهذا العالم».

كانت ميج قد وضعت الكثير من القواعد الأخلاقيّة، وحاولت المحافظة عليها، ولكن أيّ الأمهات تستطيع أن تمنع مراوغة الأطفال وشغبهم والتصدّي لمقالبهم وحيلهم؟. وهكذا عجزت ميج عن كبح طفليها الذين أظهرا مراوغاتهما في سنٍّ مبكّرة.

t.me/yasmeenbook

وكانت ميج تقول عندما كان يقف في المطبخ لتقديم الخدمات في أيّام صنع الفطائر:

«لا مزيد من الزبيب يا ديمي وإلّا مرضت».

فيجيبها:

«ولكنّني أحبّ أن أمرض».

فتردّ عليه قائلة:

«ولكنّني لا أريدك أن تمرض، لذا هيّا اذهب وساعد ديزي في صنع الكعك».

فكان يغادر على مضض، ولكنّ هفواته كانت تشعره بتأنيب الضمير، وحين تتسنّى له فرصة التكفير عنها كان يتفوّق على أمّه بمساوماته الماكرة.

وبعد أن تطمئنّ ميج لفطائرها، كانت تقود مساعدَيها الصغيرين إلى الدور العلويّ وتقول:

«لقد كنتما طفلين مطيعين، لذا سأنفذّ لكما أيّ طلبٍ تريدان».

ويقول ديمي بعد أن يعصر ذهنه وتخطر له أفكارًا جنونيّة:

«حقًّا يا ماما؟».

فتجيب الوالدة الساذجة وقد أعدّت نفسها للغناء: «القطيطات الثلاث الصغيرة». مئة مرّة، أو لتصطحب أسرتها لشراء الكعك.

«بالطبع يا عزيزي».

فينتهز ديمي الفرصة ويقول:

«إذًا فلنذهب ونتناول كلّ الزبيب».

كانت الخالة دودو رفيقة اللعب وصديقة الطفلين الأوفى، وكان الثلاثيّ كفيلًا بقلب المنزل رأسًا على عقب. كانت الخالة آيمي ما تزال مجرّد اسمٍ في ذهنيهما، وسرعان ما تلاشت الخالة بيث في ذكرى مبهمة مبهجة. ولكن الخالة دودو كانت حلمًا يتحقّق وقد استفادوا من وجودها إلى أبعد الحدود، وكانت بدورها ممتنّة بذلك للغاية. ولكن عندما جاء السيّد بهاير، أهملت جو زميلي اللعب فدبّ الخوف والفزع في نفسيهما. فقد فقدت ديزي التي كانت مولعة بإعطاء القبلات أفضل زبائنها وأفلست. وسرعان ما اكتشف ديمي بدهاثه الطفوليّ أنّ دودو تفضّل اللعب مع الرجل الدبّ على اللعب معه، ولكنّه كان يخفي معاناته رغم الألم، لأنّه لم يحمل نفسه على إهانة منافسه، والذي كان يحتفظ بمنجم من الشوكولا في جيب صدره، وساعةً يسهل إخراجها من علبتها والعبث بها كما يحلو له.

وربّما يرى بعض الأشخاص أنّ هذه الحرّيّات التي يتمتّع بها ديمي على أنّها رشوة، ولكن ديمي لم يكن يرها في هذا الضوء. وراح يفرط في تدليل الرجل الدبّ ورعايته، في حين صبّت عليه ديزي عواطفها في زيارته

t.me/yasmeenbook

الثالثة، فاتّخذت كتفه عرشًا لها وذراعه ملجأ، ورأت في هداياه كنوزًا قيّمة.

أحيانًا يشعر الرجال المحترمون بحبٍّ مفاجئ للأقارب الصغار الذين ينتمون لأسرة المرأة التي يقدّرونها، ولكنّ هذه النزعة الفلسفيّة ما تلبث أن تزعجهم ولا تخدع أيّ شخصٍ مطلقًا. غير أنّ تفاني السيّد بهاير كان صادقًا وفعّالًا، فالصدق هو السياسة الأفضل في الحبّ كما في القانون. وكان يبدو أنّه يحبّ مجالسة الأطفال. كما كانت أعماله تبقيه منشغلًا فلا يستطيع الحضور إلّا مساءً. ولا بدّ من القول إنّ إصرار السيّد مارش على مجيئه كان ما يدفع به للقدوم. فقد جاهد الأب مكافحًا في ظلّ الوهم تبدو عبارة مقحمة الذي كان يعيشه، فراح يستمتع بمناقشاتٍ طويلة مع الروح التي ألفها ولكنّ ملاحظة حفيده الذكيّة تفوّقت عليه وأنارت بصيرته...

جاء السيّد بهاير في إحدى الأمسيات، ولكنّه عند عتبة المكتب اندهش لما رأته عيناه. كان السيّد مارش مستلقيًا أرضًا رافعًا ساقيه في الهواء، وإلى جانبه كان ديمي يحاول تقليد الموقف بساقيه القصيرتين اللتين غطتهما جوارب قرمزيّة. وكان كلاهما غافلين عن المتفرّجين إلى أن أطلق السيّد بهاير ضحكةً رنّانة فصاحت جو في استنكار:

«أبي، أبي، ها قد حضر الأستاذ».

فأنزل الوالد ساقيه ووقف على قدميه وقال بوقار:

«مساء الخير سيّد بهاير. اعذرني للحظة فنحن على وشك إنهاء درسنا. والآن يا ديمي ارسم الحرف واذكر اسمه».

وبعد جهدٍ جهيد، اتّخذت ساقا الطفل شكل إبرة البوصلة فصرخ التلميذ الذكيّ منتصرًا:

«عرفته يا جدّي عرفته!، إنّه في إنه حرف: F!».

وضحكت جو بينما كان ابن أختها يحاول الوقوف على رأسه كطريقته الوحيدة في التعبير عن سعادته بانتهاء الدرس.

فالتقطه السيّد بهاير وسأله:

«ما الذي فعلته اليوم أيّها المشاكس؟».

فقال:

«ذهبت لرؤية ماري الصغيرة.».

قال:

«وماذا فعلت هناك؟».

فقال ديمي بصراحة متهوّرة:

«لقد قبّلتها».

فسأله السيّد بهاير محاولًا استجواب الشابّ الذي

t.me/yasmeenbook

وقف على ركبتيه وراح يعبث بجيب الصدريّة باحثًا عن الحلوى:

«ألست صغيرًا على مثل هذه لأمور؟. وماذا فعلت ماري الصغيرة؟».

فقال ديمي والحلوى تملأ فمه:

«لقد أحبّت ذلك، فقبّلتني هي. ألا يحبّ الأولاد الصغار الفتيات الصغيرات؟».

فسألته جو مستمتعةً بمجون الطفل البريء بقدر استمتاع أستاذها به:

«أيّها الكتكوت الصغير، من وضع ذلك في رأسك؟».

ظنّ ديمي أن جو كانت تشير إلى الحلوى لا إلى الفكرة، فأجاب وقد مدّ لسانه قائلًا:

«ليست في رأسي بل هي في فمي».

قال السيّد بهاير:

«لا تنس أن تحتفظ ببعض الحلوى لصديقتك الصغيرة، فالحلوى للحُلوين».

ثمّ قدّم إلى جو بعضًا منها وفي عينيه نظرة أشعرتها بأنّ الشوكولا كانت رحيق الآلهة. ولم تَخف ابتسامتها على ديمي فسأل الأستاذ:

«وهل يحبّ الفتيان الكبار الفتيات الكبيرات يا أستاذ؟».

وعجز السيّد بهاير عن الكذب، فأدلى بإجابةٍ غامضة بنبرةٍ جعلت السيّد مارش يترك فرشاة الملابس التي كان يحملها، ويلقي نظرةً خاطفةً إلى وجه جو، ثمّ يرتمى في كرسيّه وقد بدا له أنّ هذا الكتكوت الماكر قد أضاء في ذهنه فكرةً كانت حلاوتها بقدر مرارتها.

وتراكمت في ذهن ديمي أسئلة كثيرة لم يجد لها إجابات شافية: لِمَ عانقته الخالة دودو حين وجدته بعد نصف ساعةٍ من الحادثة في الخزانة حتّى كادت تعتصر جسده الصغير وتزهق أنفاسه؟، وذلك بدلًا من أن توبّخه على وجوده هناك!. ولماذا كافأت فعلته هذه بالخبز والمربّى؟. وبقيت هذه الأسئلة وغيرها تجول في ذهن ديمي الصغير دون أن يجد لها إجابة أبدًا.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثالث والعشرون

تحت المظلّة

بينما كان لوري وآيمي يتجوّلان فوق السجّاد المخمليّ وهما يرتّبان منزلهما، ويخطّطان لمستقبلٍ سعيد، كان كلّ من السيّد باير وجو يستمتعان بنزهاتٍ من نوع آخر، على طول الطرق الموحلة والحقول الرطبة.

قالت جو محدّثةً نفسها:

«دائمًا ما أذهب للتنزّه في المساء، ولا أدري لِمَ عليّ أن أتخلّى عن ذلك، فقط لأنّه يحدث أن أصادف الأستاذ في طريق عودتي؟.» إذ كانت قد التقت به مرتين أو ثلاث مرّات بالرغم من وجود طريقين يؤدّيان إلى منزل ميج، ولكنّها كانت واثقةً من أنّها كانت ستلتقي به أيًّا كان الطريق الذي ستسلكه؛ إمّا في ذهابها أو في إيابها. كان دائمًا يسير وهو في عجلةٍ من أمره، ولم يبد أبدًا أنّه كان يتعرّف إليها إلّا حين يراها عن قرب، وكان يبدو أنّه يفشل في التعرف إليها

حتّى تقترب منه. فيسألها عن وجهتها، فإذا كانت ذاهبةً إلى ميج، يقول إنّ في جعبته هدايا للطفلين، وأمّا إن علم أنّها عائدة إلى منزلها، فإنّه يدّعي أنّه كان ينوي زيارتهم بعد أن انتهى من رياضته عند النهر ما لم يسأموا لكثرة تردّده إليهم.

ولم تستطع جو إلا أن ترحّب به وتدعوه للدخول. فحتّى لو كانت قد سئمت من زياراته، فقد كانت تخفي ذلك بمهارةٍ تامّة، بل وتهتمّ لضرورة وجود القهوة للعشاء لأنّ فريدريك، أعني السيّد بهاير، لا يحبّ الشاي.

ولم يمض الأسبوع الثاني إلّا وكانت الأمور واضحة للجميع، وعلى الرغم من ذلك فقد حاولوا أن يبدوا غافلين عن الحقيقة والتغيّرات الطارئة في وجه جو. فلم يتساءلوا أبدًا عن سبب غنائها أثناء القيام بأعمالها المنزليّة، أو لم تسرّح شعرها ثلاث مرّات في اليوم، أو لماذا كانت تعود مشرقة الوجه بعد رياضتها المسائيّة. كما لم يساور أحدهم أدنى شكّ في أنّ السيّد بهاير، أثناء حديثه الفلسفيّ مع الوالد، كان يحاول أن يعطي الفتاة دروسًا في الحبّ.

لم تتمكّن جو من الاستسلام لعواطف قلبها، ولكنّها كانت تحاول أن تكبح مشاعرها بلا جدوى ممّا جعل حياتها مضطربة. كان يتملّكها الخوف من أن يسخر الجميع منها لاستسلامها بعد تصريحاتها العديدة بالاستقلال. وكان لوري هو أكبر مخاوفها، ولكنّه بفضل نصائح آيمي، راح

t.me/yasmeenbook

يتصرّف بلباقة جديرة بالثناء، حتّى إنّه أقلع عن مناداة السيّد بهاير بـ: «الزميل العجوز» في الأماكن العامّة، ولم يُلمِّح مُطلقًا عن تحسّن مظهر جو أو يُبدي تفاجئه من تردّد السيّد بهاير المتكرّر إلى منزل أسرة مارش كلّ مساءٍ تقريبًا. ولكنّه كان يخفي مشاعره لخلوته، ويتوق إلى الوقت الذي يتسنّى له أن يهدي جو درعًا من الصفيح منقوشًا عليه صورة دبّ كرمزٍ للعائلة.

وتردّد الأستاذ إلى المنزل يوميًّا على مدار أسبوعين كاملين، حاله في ذلك حال العشاق. ثمّ اختفى لمدّة ثلاثة أيّام كاملة ولم يظهر له أثر، ممّا شغل بال الجميع الجميع، وجعل جو في بادئ الأمر تشرد في أفكارها ثمّ شعرت بالأسف على نهاية قصّتها الرومانسيّة.

وبينما كانت متأهّبةً للخروج ذات مساء، قالت محدّثةً نفسها وهي تنظر بأسى إلى البوابة:

«لا بدّ من أنّه شعر بالاشمئزاز وعاد فجأة من حيث أتى. لا يشكّل الأمر فرقًا عندي بالطبع، ولكنّني ظننت أنّه قد يأتي ليودّعنا قبل ذهابه كأيّ رجل نبيل».

قالت والدتها وقد لاحظت أن ابنتها ترتدي قبّعتها الجديدة دون أن تتطرّق لذلك:

«من الأفضل لك أن تأخذي مظلّتك يا عزيزتي، فالجوّ ينبئ بهطول المطر».

ردّت جو متذرّعةً بإصلاح ملابسها أمام المرآة كي تتجنّب النظر إلى والدتها:

«حسنًا يا أمي، أتريدين أيّ شيءٍ من المدينة؟، عليّ أن أذهب لأحضر بعض الأوراق».

قالت الأمّ:

«أجل أريد إبرًا نمرة تسعة، ومترين من الشريط البنفسجيّ الرفيع. هل ارتديت حذاءك السميك وملابس ثقيلة تحت معطفك؟».

أجابت جو بذهنٍ شارد:

«على ما أظنّ».

وأضافت السيّدة مارش:

«إن حدث وصادفتِ السيّد بهاير فقومي بدعوته لاحتساء الشاي معنا، فقد اشتقنا لرؤية ذلك الرجل الطيّب».

سمعت جو ذلك، ولكنّها اكتفت بتقبيل والدتها والانصراف على عجل. وقد فاض قلبها امتنانًا رغم الألم وقالت محدّثة نفسها:

«كم هي حنونة عليّ!. تُرى كيف تتصرّف الفتيات اللواتي لا يملكن أمّهات يساعدنهنّ على تخطّي الصعاب؟».

لم تكن محلّات بيع الأقمشة في الأحياء نفسها التي

t.me/yasmeenbook

تتواجد فيها متاجر بيع الجملة، أو المصارف، أو دور المحاسبة، حيث يجتمع السادة المحترمون عادة، ولكنّ جو وجدت نفسها في ذلك الجزء من المدينة قبل أن تبدأ بالتسوّق أو شراء أيّ شيء، وراحت تتسكّع كما لو أنّها تنتظر شخصًا ما، وتتفحّص أدوات الهندسة من خلف إحدى الواجهات، وعيّنات الصوف من خلف واجهة أخرى باهتمامٍ بارد، وتحشر نفسها بين البراميل التي يفرغها العمالُ الذين كانوا يبدون وكأنّهم يتساءلون: ما الذي أتى بفتاةٍ مثلها إلى هنا. ثم شعرت بقطرة مطرٍ سقطت على خدها، فسارعت تفكّر في شرائط قبّعتها الجديدة لأنّ المطر بدأ ينهمر بغزارة، ولما كانت امرأة أوّلاً وعاشقةً ثانيًا، وعلى الرغم من أنّ الأوان قد فات على إنقاذ حبّها، إلّا أنّها أرادت إنقاذ قبّعتها. وفجأةً تذكّرت المظلّة الصغيرة التي نسيت أن تأخذها حين غادرت في عجلةٍ من أمرها، ولم تجد فائدة من التأسّف، ولم يكن أمامها سوى استعارة مظلّة من أحدهم أو أن تتقبّل حقيقة أنذها ستبتلّ. رفعت رأسها تنظر إلى السماء ثم إلى الشرائط القرمزيّة التي اسودّ لونها بفعل قطرات المطر، ثم ألقت نظرةً إلى الطريق الموحل الممتدّ أمامها، ومن ثمّ التفتت إلى الوراء ونظرت إلى مستودعٍ قذر كتب على واجهته: «هوفمان شوارتز وشركاؤهما»، وقالت محدّثة نفسها بنبرةٍ عتاب:

«أستحقّ هذا!، ما الذي دفعني لارتداء أفضل ما لدي والمجيء إلى هنا أملًا في رؤيته؟. ويحك يا جو، يا للعار!، لا، لن أذهب إلى هناك لاستعارة مظلّة أو لأسأل أصدقاءه عن مكانه. عليّ أن أعود لشراء ما طُلب منّي تحت هذا المطر وإن تسبّبت بهلاكي أو إفساد قبّعتي فسيكون ذلك جزائي العادل».

وهكذا انطلقت مسرعةً في الطريق بتهوّر حتّى إنّها بالكاد نجت من عربةٍ كادت تدهسها، فوجدت نفسها في أحضان رجلٍ عجوزٍ وقور قال:

«أستميحك عذرًا يا سيّدتي.» على الرغم من أنّه بدا مستاءً للغاية. بدأ الخوف يتسلّل إلى نفس جو فوضعت المنديل فوق شرائط قبعتها وأكملت سيرها بسرعة والرطوبة تزداد حول كاحليها، ومظلّات المارّين تصطدم برأسها. ولفتت انتباهها مظلّة زرقاء باهتة بقيت ثابتةً فوق رأسها، فرنت إلى الأعلى لترى السيّد بهاير ينظر إليها فقال:

«شعرت برغبةٍ في معرفة تلك السيّدة الشجاعة التي تذرع الطريق تحت أنوف الخيول ووسط الوحل. ماذا تفعلين هنا يا صديقتي؟».

قالت:

«أنا أتسوّق».

ابتسم السيّد بهاير وهو يلقي نظرةً خاطفة إلى مصنع

t.me/yasmeenbook

المخلّل من جهة، ومتجر بيع الجملة من جهة أخرى، ولكنّه اكتفى بالقول بأدب:

«أنت لا تحملين مظلّة. هل لي أن أرافقك وأحمل عنك أغراضك».

«أجل، أشكرك».

وتورّد خدّا جو بلون شرائطها القرمزيّة، وراحت تفكّر في رأي الأستاذ بها، ولكنّها سرعان ما تجاهلت هذه الفكرة، إذ شعرت أنّ الشمس أشرقت مجدّدًا، وأنّ العالم أصبح بخيرٍ، وأنّ امرأةً في قمّة السعادة كانت تسير تحت الأمطار في ذلك اليوم، فقالت على عجل وهي تعلم أنّه ينظر إليها وأنّ قبعتها لم تكن واسعةً كفاية لتحجب وجهها، وكانت تخشى أن يرى سرّ سعادتها في بريق عينيها:

«ظننت أنّك سافرت».

فسألها بنبرة معاتبة:

«وهل تظنّين أنّ رجلًا مثلي يسافر دون توديع أولئك الذين منّوا عليه بعطفهم ولطفهم؟».

قالت جو من صميم قلبها وقد شعرت أنّها أهانته في حديثها:

«لا بل كنت أعلم أنّك مشغولٌ بأمور خاصّة، ولكنّ الجميع يفتقدك ولا سيما أبي وأمّي».

سألها:

«وماذا عنك؟»

«تسرّني رؤيتك دائمًا.» وفي قلقها للحفاظ على هدوء صوتها، بدت إجابة جو باردة خالية من المشاعر، فتلاشت ابتسامته وقال بجديّة:

«أشكرك. سأحضر لزيارتكم مرّة أخيرة قبل رحيلي».

فقالت جو:

«أأنت راحلٌ حقًّا؟».

«أجل، فقد أتممت أعمالي هنا ولم يعد لي ما يسوّغ بقائي».

«آمل أن يكون كلّ شيءٍ قد تمّ على خير ما يرام.» وقد شعرت بما في ردّه المقتضب من مرارة خيبة الأمل.

قال:

«أظنّ ذلك. فقد تيسّرت لي طريقة أستطيع أن أكسب فيها قوت يومي ومساعدة الأطفال الصغار».

قالت جو بلهفة:

«أخبرني من فضلك!، أودّ أن أعرف كلّ شيءٍ عن الأطفال الصغار!».

قال:

«لطفٌ منك أن تهتمّي ويسرني أن أخبرك. لقد وجد لي

t.me/yasmeenbook

أصدقائي وظيفة في إحدى الجامعات حيث أقوم بالتدريس كما كنت أفعل في بلادي، وأن أكسب ما يكفي لتوفير عيشٍ رغيد لفرانز وإميل. ألا يجب أن أكون ممتنًّا لهذه النعمة؟».

صاحت جو متذرّعةً بسعادة الفتيان لتسوّغ سعادتها التي لم تستطع إخفاءها:

«بلى هي كذلك!، كم هو رائع أن تتمكّن من القيام بعملٍ تحبّه، وأن تكون قادرًا على قضاء مزيد من الوقت مع أطفالك!».

«ولكنّني أخشى أنّنا لن نتمكّن من اللقاء كثيرًا، فهذه الجامعة تقع في مكانٍ بعيد في الغرب».

قالت جو تاركةً تنانيرها لمصيرها وكأنّها لم تعد تعبأ بما يصيبها أو يصيب ملابسها:

«كم هي بعيدة!».

كان السيّد بهاير ضليعًا في لغاتٍ عديدة، ولكنّه كان جاهلًا بلغة النساء. كان يطري نفسه لمعرفة جو معرفةً جيّدة، ولذا فقد أدهشته التناقضات التي لمسها في صوتها ووجهها وأسلوب كلامها، والتي توالت عليه في تتابعٍ سريع ذاك اليوم، فقد تقلّبت بين ستّ أحوالٍ مزاجيّة مختلفة خلال نصف ساعة. فقد بدت منذهلة حين التقت به، على الرغم من أنّه لم يحمل نفسه على قطع الشكّ

المهيب في أنّها كانت قد أتت إلى هنا آملةً في الالتقاء به. وحين أعطاها ذراعه نظرت إليها بعينين تفيضان بهجةً وسرورًا، ولكن حين سألها عمّا إذا كانت تفتقده أجابته ببرودة زرعت اليأس في نفسه، وحين أخبرها بالوظيفة كادت تطير من الفرح وتصفّق بيديها. فهل كانت غبطتها هذه للأطفال وحدهم؟. وأخيرًا حين سمعت بمكان عمله أجابت بنبرةٍ يائسة حملته إلى قمّة الأمل وقد أزعجها بعد المكان. ثم ما هي إلّا دقيقة حتى أذهلته بقولها:

«سأشتري لوازمي من هنا فهل سترافقني؟، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا».

والحقيقة أنّ جو كانت تفخر بمهارتها في التسوّق، وأرادت في ذلك الوقت إثارة إعجاب مرافقها برشاقتها واندفاعها في إنجاز المهمّة، ولكنّ الاضطراب الذي أصابها قبل قليل دهور الأمور. فأوقعت الإبر ولم تتذكّر أنّ والدتها تريد قماشاً منقوشاً إلّا بعد أن قُصّ القماش، وأخطأت في دفع الثمن، وكانت تحاول أن تخفي ارتباكها بشراء الأشرطة ولكنّها طلبتها من بائعة الأقمشة الصوفيّة. كان السيّد بهاير يقف جانبًا ويراقب خجلها وهفواتها. وهدأت حيرته فقد بدأ يرى أن بعض النساء كالأحلام يفسرن بعكس ما يبدو منهنّ.

عندما خرجا وضع السيّد بهاير الطرد تحت ذراعه

t.me/yasmeenbook

بابتهاج، وراح يدوس في البرك كأنّه مستمتعٌ بها، ثمّ توقّف أمام واجهة متجر يقدّم الفاكهة والزهور، وقال:

«ما رأيك أن أشتري للأطفال بعض الأشياء لأحتفل في منزلكم اللطيف بزيارتي الأخيرة؟».

سألت جو متجاهلة الجزء الأخير من خطابه، ومستنشقة الروائح الزكيّة التي فاحت في الجوّ عند دخولها:

«ماذا نشتري؟».

سأل السيّد بهاير بنبرة أبويّة:

«ماذا عن التين والبرتقال؟».

قالت:

«إنّهما يأكلانها حين يستطيعان الحصول عليها».

سألها:

«أتحبّين الجوز؟».

ـ «مثل السنجاب».

ـ «ماذا عن عنب هامبورغ؟، إنّه يذكرني بالوطن، سنشرب نخبه الليلة».

قطّبت جو جبينها لبذخه في الشراء، وتساءلت لماذا لم يشتري صندوقًا من البلح وبرميلًا من الزبيب وكيسًا من اللوز وينهي الأمر؟. وأخرجت حقيبتها لتهمّ بالدفع، ولكنّ السيّد بهاير صادرها وأخرج خاصّته، وأنهى تسوّقه بشراء

عدة أرطال من العنب، ووعاء من أزهار الأقحوان، ووعاء آخر من العسل. ودس المشتريات في جيوبه في حين ناولها الأزهار لتحملها، ثم حمل مظلّته القديمة وتوجّه كلاهما للخارج.

وبعد أن قطعا مسافة قصيرة، قال الأستاذ:

«آنسة مارش، أودّ أن أطلب منك معروفًا».

وراح قلب جو يخفق حتّى إنّها خشيت أن يسمع طرقاته، فقالت:

«أجل يا سيّدي؟».

قال:

«لدي ما يكفي من الجرأة لأطلب منك ذلك رغم هذا الجوّ المطير ولكنّ الوقت يداهمني».

قالت جو وهي تضغط على الإناء حتّى كادت تسحقه:

«أجل يا سيّدي».

ـ «أريد أن أشتري فستانًا للصغيرة تينا، وأنا أجهل التصرّف في هذه الأمور. فهلا رافقتني وتفضّلت بمساعدتي بشراء شيء فيه من الذوق ما قد يعجب الصغيرة؟».

قالت وقد شعرت بالبرد فجأة:

«نعم يا سيدي».

ـ «وقد نبتاع شالًا لوالدة تينا أيضًا، فهي فقيرة وسقيمة

t.me/yasmeenbook

وزوجها يحتاج للكثير من الرعاية. أجل، أجل، فلنشترِ شالًا سميكًا ودافئًا نهديه لأمّ الطفلة».

قالت جو:

«بكلّ سرور يا سيّد بهاير».

ثم قالت في نفسها: «أنا أتعجّل الأمور، والمسكين يزداد لطفًا مع كلّ دقيقة.» ثمّ هزّت رأسها لتصفّي ذهنها وهمّت بالعمل بحيويّة وسرور.

وتركها السيّد بهاير تتولّى زمام الأمور فاختارت ثوبًا جميلًا لتينا، ثمّ راحت تبحث عن شال. وقد أبدى البائع، كونه رجلًا متزوّجًا اهتمامًا بالزوجين اللذين كانا يبدوان وكأنّهما يتسوّقان للعائلة.

فقال وهو يضع شالًا رماديًّا مريحًا على كتفي جو:

«قد تفضّل سيّدتك هذا. فهي قطعة ممتازة ذات تصميمٍ أنيق ولون مرغوب فيه».

سألت جو وقد أدارت له ظهرها في امتنان لفرصة إخفاء وجهها:

«أيناسبك هذا يا سيّد بهاير؟».

أجاب الأستاذ:

«إنّه ممتاز، سوف نبتاعه.» وابتسم لنفسه وهو يدفع ثمنه، في حين شغلت جو نفسها في تقليب البضائع.

ثمّ سألها وكأنّ الكلمات ترضيه:

«أنذهب إلى المنزل الآن؟».

فأجابت جو:

«أجل فقد تأخّر الوقت وأنا مرهقة للغاية.» وقد بدا صوتها مثيرًا للشفقة أكثر ممّا لاحظت.

وفجأةً غابت الشمس وغرق العالم في الكآبة من جديد، وأحسّت للمرّة الأولى ببرودة في قدميها وصداع في رأسها، وأنّ قلبها متجمّدٌ أكثر من السابق. كان السيّد بهاير راحلًا عنها، ولم يكن يهتمّ بها إلّا كصديقة، وكانت مخطئة في تقدير شعوره نحوها، كان عليها أن تنهي هذا الأمر فورًا. وبينما كانت هذه الأفكار تجول في نفسها، أشارت إلى مركبة عامّة بإيماءة سريعة طارت بفعلها أزهار الأقحوان التي كانت تحملها وتعرضت لأضرار بالغة.

قال الأستاذ مشيرًا إلى المركبة بالانصراف وقد انحنى ليتلقّف الأزهار:

«هذه ليست مركبتنا».

ردّت جو وهي تسبل عينيها لإخفاء دموعها، فقد كانت تفضّل الموت على أن تمسحها في العلن:

«أستميحك عذرًا، فأنا لم أر الرقم بوضوح. ولكن لا تقلق في وسعي أن أعود سيرًا على الأقدام، فأنا معتادةٌ على المشي في الوحل».

t.me/yasmeenbook

رأى السيّد بهاير عبراتها على خديها رغم أنّها أشاحت بوجهها، فلامس المشهد قلبه. انحنى فجأة وسأل بنبرة الاهتمام:

«لم تبكين يا أعزّ الناس إلى قلبي؟».

لو لم تكن هذه الأمور جديدة بالنسبة إلى جو لأنكرت أنّها كانت تبكي، أو لتذرّعت بأنّها أصيبت بنزلة برد أو جاءت بأيّ كذبةٍ أخرى تفيد في هذا الموقف. ولكنّها بدلًا من ذلك، أجابت هذا الرجل الكريم بمشاعر عجزت عن كبتها:

«لأنّك سترحل».

صاح السيّد بهاير وهو يضمّ ذراعيه على الرغم من أنّه يحمل المظلّة والمشتريات:

«هذا عظيم!. جو، ليس لدي ما أمنحك إيّاه سوى الكثير من الحبّ. وقد حضرت لأرى إن كنت ستهتمّين بذلك، وانتظرت لأتأكّد من أنّني أكثر من مجرّد صديقٍ بالنسبة لك. فهل أنا كذلك؟، أيمكنك أن تفسحي في قلبك مكانًا صغيرًا للعجوز فرينز؟».

قالت جو متمسّكة بذراعه:

«أجل بالتأكيد!». ونظرت إليه بعينين كشفتا سعادتها بمتابعة مسيرة الحياة إلى جانبه، وأن مظلّته القديمة كانت خير مأوى ما دام ممسكًا بها.

كانت خطبة تكتنفها الصعوبات بلا أدنى شكّ، إذ لم يكن السيّد بهاير قادرًا على الركوع على ركبتيه، وإن رغب في ذلك بسبب الوحول ولم يكن قادرًا على إعطاء يده لجو إلاّ مجازًا، لأنّ كليهما كانا محمّلان بالأغراض، كما أنّه لم يستطع أن ينخرط في تصرّفات غراميّة في منتصف الطريق، على الرغم من أنّه أوشك على ذلك. ولم يبق أمامه سوى أن يظهر نشوته بالنظر إليها بتعبير أنار وجهه، حتّى بدا أنّ القطرات العالقة في لحيته أظهرت أقواس قزح. ولو أنّه لم يكن يحبّ جو إلى هذا الحدّ، فلا أظنّ أنّه كان يستطيع أن يقوم بأيّ شيءٍ من ذلك حينها، لأنّها كانت في حالٍ يرثى لها بحذائها المتّسخ وقبّعتها الفاسدة. ولكن لحسن الحظّ، كان السيّد بهاير يراها أجمل امرأةٍ في العالم. وكانت هي أيضًا تراه أقرب إلى الآلهة من أيّ وقتٍ مضى رغم قبّعته المبتلّة وقفّازيه الممزّقين.

ولربّما اعتقد المارّة أنّهما زوج من المجانين، فقد نسيا أمر المركبة تمامًا وراحا يتمشّيان على مهل، غير عابئين بحلكة الغسق وكثافة الضباب. ولكنّهما لم يكونا مهتمّين كثيرًا بالناس، فقد كانا مستمتعين بلحظات السعادة التي لا تأتي سوى مرّة في العمر، تلك اللحظة تمنح المسنّين شباباً والدميمين جمالاً والفقراء ثروةً، وتهب قلب الإنسان طعمًا جديدًا.

t.me/yasmeenbook

كان الأستاذ يبدو كما لو أنّه غزا الدنيا وحصل على كلّ ما فيها من نعم. في حين كانت جو تسير إلى جانبه متسائلة كيف لها أن تختار زوجًا غيره. كانت أول من قطع حبل الصمت وتحدّثت بشكلٍ مفهوم مخالف للملاحظات العاطفيّة التي عقبت تهوّرها فقالت:

«فريدريك لماذا لم...؟».

فصاح الأستاذ متوقّفًا في بركة صغيرة ينظر إليها بفرح ممتنّ:

«يا إلهي!، إنّها تناديني بهذا الاسم الذي لم أسمعه منذ وفاة أمّي».

فقالت:

«أنا أناديك بهذا الاسم دائمًا حين أحدّث نفسي، ولكنّني سأقلع عن ذلك إن لم يكن يعجبك».

فقال:

«يعجبني؟، أنّه أحلى من أن أصفه. ولا بدّ لي من القول إنّ لغتك تكاد تكون بجمال لغتي».

«أنت تحبّ الكلمات العاطفيّة أليس كذلك؟».

فقال بنبرة جعلته يبدو كطالب عاشق أكثر من أستاذ رصين:

«العاطفيّة؟، أجل!. نحن الألمان نؤمن بالمشاعر، فنحافظ بها على شبابنا».

سألت جو معاتبة:

«لماذا لم تخبرني بذلك من قبل إذًا؟».

ـ «سوف أكشف لك الآن عن كلّ ما في قلبي بكلّ سرور، لأنّني سأكون ملكك من الآن وصاعدًا. اسمعي يا عزيزتي جو، آه يا له من اسمٍ لطيف حبيب... في الواقع كنت أريد أن أخبرك بشيءٍ ما عندما ودّعتك في نيويورك، ولكنّني ظننت أنّك مخطوبة لصديقك الوسيم، ولذا قرّرت ألّا أتكلّم. أكنت وافقت حينها لو سألتك؟».

فأجابت:

«لا أدري. لا أظنّ ذلك لأنّ قلبي لم يكن يريد الحبّ حينها».

فقال:

«أنا لا أصدق هذا. بل كان قلبك يغطّ في سباتٍ عميق حتّى جاء الأمير من خلف الغابات وأيقظه. حسنًا... ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل، ولكن هذا أكثر ممّا توقعته».

قالت جو في لهفة لتصحيح خطأ الأستاذ:

«أجل!، إنّ الحبّ الأوّل هو الأفضل، ولكن اطمئن فأنت حبّي الأوّل. تيدي كان مجرّد صبيّ طائش وقد استطاع أن يتخطّى وهمه بسرعة».

«هذا جيّد لقد طمأنتني. وأنا على يقين أنّك ستمنحينني

t.me/yasmeenbook

حبّك كلّه. لقد انتظرت طويلًا حتّى إنّني أصبحت أنانيًّا كما ترين يا أستاذتي».

صاحت جو سعيدة باللقب الجديد:

«يعجبني ذلك!، والآن أخبرني ما الذي أتى بك وأنا في أمسّ الحاجة إليك؟».

فقال السيّد بهاير وهو يخرج من جيبه ورقةً بالية وقال: «هذا ما أتى بي إليك».

فتحت جو الورقة وذهلت لكونها إحدى مساهماتها لمجلة دفعت المال للحصول على قصيدة، ممّا جعل جو تجرّب حظّها، فسألت جاهلة ما يقصد:

«وكيف لهذه القصيدة أن تأتي بك؟».

فقال:

«لقد وجدتها بمحض المصادفة. وقد عرفتها من الأسماء التي وردت فيها ووجدت فيها بيتًا بدا كأنّه يناشدني. اقرئي وحاولي أن تجديه».

في العليّة
أربعة صناديق صغيرة مصفوفة
علاها الغبار وأتلفتها الأيام
صُنعت وملئت منذ وقتٍ طويل

بأيدي أطفالٍ أصبحوا شبابًا
أربعة مفاتيح معلّقة جنبًا إلى جنب
بشرائط بالية، سعيدة وشجاعة
ربطها الأطفال بفخر طفوليّ
منذ وقت طويل في يومٍ ماطر
أربعة أسماء، كلّ منها على غطاء
حفرتها يدٌ بريئة
وتحتها اختبأت
ذكريات عصابة سعيدة
كانت قد لعبت ووقفت هناك
لسماع أنغام جميلة
عزفها فوق الأسطح
هطول أمطار صيفيّة
على الغطاء الأول، حفر اسم الجميلة «ميج»
فنظرت بحبٍّ إلى
ما جمعته من ذكرياتٍ حلوة
ربطت هناك بعناية
فيها سجل حياةٍ هادئة
وهدايا للفتيات والفتيان الأبرياء

t.me/yasmeenbook

فستان زفاف لعروس
وحذاء صغير وخصلة شقراء
لم يبق في الصندوق الأوّل ألعاب
إذ جمعتها الفتاة جميعها
حين بلغت من العمر رشدًا لتضمّها
لأوقات لعب صغارها.
آه يا لها من أمّ سعيدة! أنا أدري
أنّك تسمعين أنغامًا حلوة
لتهويداتٍ لطيفة هادئة
مع هطول الأمطار الصيفيّة.
وعلى الغطاء الثاني اسم «جو»، باهت
وفيه مجموعة عجيبة
من دمى بلا رؤوس وكتب مدرسيّة ممزّقة
من عصافير وحيوانات هالكة
وتحف جاءتها من عالم الخيال
أحلام مستقبل ضائع
ذكريات ماضٍ جميل
قصائد لم تنتهِ وقصص محمّسة
رسائل نيسان، الدافئة والباردة

يوميّات طفلة طموح
ملامح امرأة عجزت باكرًا
امرأة في منزل موحش
تسمع لحنًا حزينًا يقول:
«كوني جديرة بالحبّ، يأتِك».
مع هطول الأمطار الصيفيّة.
عزيزتي بيث! نحن نكنس الغبار دائمًا
عن الغطاء الذي يحمل اسمك
بعينين محبّتين
وأيادٍ حانية حذرة.
لقد رسم الموت لنا قدّيسة خالدة
أقرب إلى الآلهة من البشر
وما زلنا نحفظ لها رغم الدموع
أجمل الذكرى في هذا المنزل الصغير
الجرس الفضيّ الذي قلّما يدقّ
العباءة الصغيرة التي ارتدتها آخرًا
وأغانٍ غنّتها بلا دموع
سجينة آلامها
تتمازج إلى الأبد

t.me/yasmeenbook

في الأمطار الصيفيّة.
وفوق الغطاء الأخير نقشت
أسطورة باتت حقيقة
صورة فارس مقدام وعلى درعه نُقش
اسم: «آيمي» بحروف زرقاء وذهبيّة
وفي داخل الصندوق ربطات شعرها
وخفّين رقصت بهما آخرًا
زهور ذابلة وضعت بعناية
ومراوح انتهى عهدها
رسائل غراميّة فرحة
وتحف صغيرة كان لها دورها
في آمال الفتاة ومخاوفها وأخطائها
سجل قلب فتاة عذراء
تتعلّم الآن مفاهيم أفضل وأقرب إلى الواقع
تسمع أنغامًا شجيّة
في أمطار الصيف المنهمرة.
أربعة صناديق صغيرة مصفوفة
علاها الغبار وأتلفتها الأيام
أربع نساء علّمهن الفرح والألم

كيف يحببن ويعملن في زهرة العمر
أربع أخوات لا يفترقن لأكثر من ساعة
لم تضِع إحداهنّ، إنّما سبقتهن أوّلًا
خلّدها الحبّ برابط سحريّ
وأصبحت أقرب إلى القلوب ممّا مضى
وحين تعرض كنوزنا هذه
لمرأى الله
عسى أن تنفعنا في وقت الجزاء
كحسنات طيّبة تنير
حياة من ذكراهم العطرة لن تتلاشى
وكأنّها تحرّك أعماق الروح
أرواح لا بدّ لها من الغناء بفرح
تحت أشعة الشمس بعد انجلاء المطر.

قالت جو وهي تمزّق الورقة التي احتفظ بها الأستاذ ككنزٍ ثمينٍ طيلة هذه المدّة:

«إنّه شعر سيّء للغاية، ولكنّ مشاعري كانت صادقة حيت نثرته. فقد كنت أشعر بالوحدة ذات يوم وبكيت بحرقة فوق كيس من القماش. ولكن لم يخطر في بالي أبدًا أنّها قد تصل إليك».

t.me/yasmeenbook

قال الأستاذ بهاير محدّثًا نفسه وهو يبتسم لرؤية الأجزاء تتناثر مع الريح:

«انسي الأمر، فقد أدّت هذه القصيدة واجبها، وسأحصل على غيرها عندما أقرأ ذلك الكتاب البنّي الذي تخفي فيه أسرارها».

ثمّ أضاف قائلًا:

«أجل!. لقد قرأت هذه القصيدة وفكّرت أنّك تعانين من الحزن والوحدة، وأنّك ستجدين الأنس في الحبّ الحقيقيّ. وكنتِ قد غزوتِ قلبي بأكمله. فلمَ لا آتي وأقول لك:

«إن لم يكن هذا القلب يكفي لما أرجو أن أناله فلتأخذيه باللّه عليك.»؟!

همست جو قائلة:

«وهكذا جئت لتجد أنّه أثمن ما كنت أحتاجه».

«لم أكن أجرؤ على الإيمان بذلك في البداية، بالرغم من حفاوتك وترحيبك بمجيئي. ولكنّ الأمل بدأ يزهر في نفسي شيئًا فشيئًا وبعدها قلت لنفسي...

وهنا صاح بإيماءة متحدّية: «سأحصل على هذه الفتاة ولو على جثّتي وهذا ما سأفعله!».

وكأنّ الضباب المحيط بهما كانت حواجز عليه أن يتغلّب عليها أو يهدمها ببسالة.

رأت جو أنّ ذلك مذهلٌ وعقدت العزم على أن تكون جديرةً بفارسها، على الرغم من أنّه لم يُقبِل على جواد أبيض.

سألت جو ولم تستطع أن تبقى صامتة، إذ رأت أنّ الوقت مناسبٌ لطرح أسئلة شخصيّة والحصول على إجابات تسرّ خاطرها:

«ما الذي أبقاك بعيدًا طيلة هذه المدّة؟».

«لم يكن الأمر سهلًا عليّ، ولكنّ قلبي لم يطاوعني أن آخذك من ذلك المنزل السعيد، حتّى أتمكّن من أن أؤمّن لك المثل، ولعلّي أنجح في ذلك بعد الكثير من الجهد والوقت. كيف لي أن أطلب منك التخلّي عن كلّ ما لديك لأجل فقيرٍ عجوز مثلي لا يملك من الثروة سوى القليل من المعرفة؟»

قالت جو في عزم:

«أنا سعيدةٌ لأنّك فقير. ما كنت لأتحمّل زوجًا غنيًّا».

ثم أضافت بنبرة أكثر رقّة:

«لا تخش الفقر. لقد ذقته لوقتٍ طويل وتعلّمت ألّا أهابه. وأن أعمل لأجل من أحبّ، ولا تدعُ نفسك بالعجوز فعمر الأربعين هو زهرة الشباب اليانعة. وما كنت لأستطيع إلّا أنّ أحبّك حتّى وإن كنت في السبعين من عمرك!».

t.me/yasmeenbook

كان وقع تلك الكلمات في نفس الأستاذ مؤثّرًا للغاية، حتّى إنّه تمنّى لو أحضر منديله لمسح دموعه. فراحت جو تمسح عبراته بمنديلها وقالت وهي تأخذ اللفائف من بين يديه ضاحكة:

«قد أكون فتاةً قويّة العزيمة، ولكن لا يمكن لأيّ أحدٍ أن يقول إنّني خارج إطار عملي الآن. إذ إنّ مهمّة المرأة هي مسح الدموع وتحمّل الأعباء».

ثمّ أردفت بحزم تقول في حين كان الأستاذ يحاول استعادة حمولته:

«سأحمل ما استطعت منها يا فريدريك. فلترض بذلك وإلّا فلن أدعك وشأنك أبدًا».

«سنرى بهذا الشأن. أتتمتّعين بالصبر ما يكفي للانتظار طويلًا يا جو؟، لا بدّ لي من الرحيل والقيام بعملي وحيدًا. لا بدّ لي من مساعدة أطفالي أوّلًا لأنّني لن أنكث وعدي لمينا ولا حتّى لأجلك. أيمكنك مسامحتي على ذلك وأن تنتظريني بسعادة وأمل؟».

«أجل، أعلم أنّني أستطيع لأنّنا نحبّ بعضنا بعضاً، وهذا ما يجعل كلّ شيءٍ يهون. لديّ واجبات أقوم بها أنا أيضًا. ولن يرتاح لي بالٌ إن أهملتها ولا حتّى إن كان ذلك من أجلك. لذا لا داعي للاستعجال أو فقدان الصبر. في وسعك أن تنجز أعمالك في الغرب، وسأنجز أعمالي هنا.

ويمكن لكلينا أن ينتظر بهناء على أبواب الأمل، وأن نترك المستقبل لمشيئة اللّٰه».

فصاح الأستاذ متأثّرًا:

«آه أنت تمنحينني الكثير من الأمل والشجاعة، في حين لا أملك ما أمنحك إياه سوى قلبي الفائض حبًّا ويديّ الفارغتين».

لن تتعلّم جو أبدًا كيف تكون فتاةً لبقة، إذ بعد سماعها ما قاله، وضعت يديها في يديه وهمست في أذنيه برقّة:

«لم تعودا فارغتين الآن.» ثمّ انحنت وقبّلت فريدريك تحت المظلّة. وكان تصرّفها مشينًا، وما كانت لتعدل عن فعلتها حتّى وإن تحولت صفوف العصافير إلى بشر فقد قطعت شوطًا طويلًا بالفعل، ولم تكن تكترث سوى لسعادتها الحاضرة. وكانت تلك أفضل لحظةٍ في حياة كليهما على الرغم من بساطتها، فقد تحوّلا من الظلام والعواصف والوحدة إلى النور والدفء والسلام في انتظار أن يرحّب بهما أهل البيت الذين كانوا في انتظارهما. وقادت جو حبيبها إلى داخل المنزل وأغلقت الباب قائلة: «أهلا بك في منزلك».

t.me/yasmeenbook

الفصل الرابع والعشرون

موسم الحصاد

انقضى عام، عمل فيه كلّ من جو وأستاذها وانتظرا، بحبّ وأمل. كانا يتقابلان بين الفينة والأخرى ويخطّان الرسائل الطويلة التي رأى لوري أنّها تسبّبت في ارتفاع سعر الورق. وبدأ العام الثاني بجوٍّ من الحزن، إذ ماتت العمّة مارش بشكلٍ مفاجئ وقد تسبّب ذلك بالحزن لجميع أفراد الأسرة، فقد كانت لها مكانة في قلوبهم رغم سلاطة لسانها، ولمّا انقشعت السحابة السوداء هذه، وصلتهم الأنباء السارة بأنّ العمّة تركت قصرها لجو، ممّا فتح أمامها بابًا للكثير من المسّرات.

قال لوري وهم يسوّون الأمور بعد عدّة أسابيع:

«إنه منزلٌ قديم جميل، وسيجلب لك ثمنًا محترمًا، فأنا متأكّدٌ من أنّك تريدين بيعه».

وجاءت إجابة جو حازمة وهي تداعب الكلب السمين الذي ورثته عن عمّتها:

«أنت مخطئ».

فسألها متفاجئاً:

«أتنوين العيش هنا؟».

«أجل».

فقال:

«ولكن يا عزيزتي إنّه منزلٌ كبيرٌ فسيح، ويحتاج للكثير من المال لتدبّر أموره. فالبستان والحديقة وحدهما يحتاجان إلى قوّة رجلين أو ثلاثة، وأنا أراهن أنّ الزراعة ليست من اختصاص بهاير».

«سيحاول أن يرى ما يستطيع فعله إن اقترحت عليه».

ـ «أتنوين العيش من محصول هذا المكان؟، هذا يبدو كالعيش في الجنّة، ولكنك ستجدين العمل بالغ المشقّة».

ضحكت جو قائلة:

«ولكنّ مرابحنا سوف تتحقق بالرغم من ذلك».

ـ «ومن أينّ تلك المرابح يا سيّدتي؟».

ـ «الفتيان. أنا أنوي افتتاح مدرسة للصغار، مدرسة ذات طابع أسريّ يبعث الراحة في النفوس، وسأتولّى أمر الاعتناء بهم وأترك مهمّة التدريس لفريتز».

صاح لوري مُشجّعًا الآخرين الذين بدَوا متفاجئين مثله:

t.me/yasmeenbook

«هذه الخطّة تليق بجو كما عهدتها!، أليس كذلك؟».

قالت السيّدة مارش:

«يعجبني ذلك».

فأضاف زوجها مرحّبًا بفكرة انتهاز فرصة محاولة تطبيق أسلوب التعليم السقراطيّ على الجيل الجديد وقال:

«وأنا كذلك».

قالت ميج مداعبة شعر ابنها المنشغل بنفسه:

«ولكنّ العبء سيكون ثقيلًا على جو».

صاح السيّد لورانس الذي كان يتوق لمدّ يد العون لجو وحبيبها، وبالرغم من معرفته أنّهما سيرفضان المساعدة:

«إنّ جو أهلٌ لهذه المهمّة، وستكون سعيدة بتأديتها. إنّها فكرة عظيمة. أخبرينا التفاصيل».

قالت جو:

«كنت واثقة من تأييدك لي يا سيّدي، وكذلك آيمي. يسعني أن أرى الرضا في عينيها على الرغم من أنّها تفضّل أن تقلّب الفكرة في رأسها قبل أن تنطق بكلمةٍ واحدة. حسنًا يا أحبائّي. أرجو أن تفهموا أنّني لم آت بهذه الفكرة حديثًا، إنّما هي خطّة لطالما تمنّيت تحقيقها. قبل مجيء فريتز، كنت أفكّر في رغبتي في استئجار منزلٍ ضخمٍ حين أحصد بعض المال، وحين يصبح جميع من في المنزل في

غنى عن خدماتي، وأن آتي بالأطفال الفقراء اليتامى، وأن أعتني بهم وأدخل السرور إلى قلوبهم قبل فوات الأوان. فأنا أرى كثيرًا من الأطفال الذين يتدمّرون لأنّ المساعدة لم تصلهم في الوقت المناسب، وأنا أرغب في تقديم تلك المساعدة، وأن ألبّي رغباتهم وأتعاطف معهم، آه... سوف أعتني بهم وأغدق عليهم حبّ الأمّ العطوف».

مدّت السيّدة مارش يدها لابنتها فأمسكت بها، وارتسمت ابتسامة فوق شفتيها واغرورقت عيناها بالدموع، وراحت تتكلّم بطريقتها المتحمّسة المعهودة التي لم يسمعها أحد منذ وقتٍ طويل.

فقالت جو:

«لقد أخبرت فريتز بخطّتي هذه ذات مرّة، ووافق على المحاولة، حين يجمع ثروة طائلة. بارك اللّه في قلبه، فقد كان يفعل ذلك طيلة حياته. وأنا لا أقصد محاولة أن يصبح ثريًّا، فهو لن ينجح في ذلك أبدًا، بل أقصد مساعدة الأطفال. يكاد المال لا يبقى في جيبه. ولكن الآن، بفضل عمّتي العجوز الطيّبة، والتي منحتني حبًّا أكثر ممّا أستحق، فقد غدوت ثريّة ويمكننا العيش في قصر: «بلومفيلد» بهناء إن ازدهرت مدرستنا. إنّ المكان مناسبٌ للفتيان تمامًا، فالمنزل كبير والأثاث بسيط وذو نوعيّة جيّدة. وفي وسعهم المساعدة في أعمال الحديقة والبستان، فهذا العمل مفيد

t.me/yasmeenbook

للصحّة أليس كذلك يا سيّدي؟. ثمّ إنّ فريتز يستطيع أن يدرّبهم ويعلّمهم بطريقته، وسيساعده والدي في ذلك. بإمكاني أن أطعمهم وأعتني بهم وأوبّخهم وستكون أمّي قدوتي. لطالما حلمت في إنجاب كثيرٍ من الفتيان، والآن في وسعي تحقيق هذا الحلم. ما أسعدني بهذا الترف!، قصر أملكه وجيش من الأولاد أرعاهم!».

ولوّحت جو بيديها ثمّ أطلقت تنهيدة هانئة، وراح الجميع يهنّئها وانفجر السيّد لورانس ضاحكًا.

فقالت حين خفّت قهقهاته:

«أنا لا أرى ما المضحك في الأمر. لا شيء خارج عن الطبيعة في افتتاحي لأستاذي مدرسة، وفي تفضيلي الإقامة في وطني».

قال لوري وقد رأى في الأمر دعابة مضحكة:

«ها قد بدأ الغرور يتسلّل إلى نفسها. ولكن هل لي أن أسألك كيف تنوين دعم مؤسّستك ماديًا إن كان جميع التلاميذ أولادًا فقراء؟. أخشى أنّك لن تحقّقي ربحًا وفيرًا يا سيّدة بهاير».

«لا تثبّط عزيمتي يا تيدي. فسيكون هناك من بين تلامذتي من أبناء الأثرياء ولعلّي أبدأ بهم أوّلًا. وحين أخطو خطواتي الأولى، سأتبنّى منهم واحدًا أو اثنين لأرضي نفسي. غالبًا ما يحتاج أبناء الأثرياء إلى الرعاية

والاهتمام شأنهم شأن الفقراء. لقد رأيت عديدًا منهم تُترَكُ أمورهم للخدم. وبعضهم يصبح شقيًّا بفعل الإهمال وسوء المعاملة، وبعضهم الآخر يخسرون أمّهاتهم. ثمّ إنّ جميعهم يمرّ بسن المراهقة، وهو الوقت الذي يحتاجون فيه للكثير من اللطف والصبر. يسخر الناس منهم ويستبدّون بهم محاولين إخفاءهم عن العيون، ثمّ يتوقّعون أن يتحوّلوا من أطفال وسيمين إلى رجالٍ صالحين. إنّ هؤلاء الأطفال المساكين لا يتذمّرون كثيرًا، ولكنّهم يشعرون بما يقع عليهم من ظلم. لقد مررت بأمرٍ مشابه وأنا أعلم ما أتحدّث عنه. أنا مهتمّة بالأولاد الصغار أمثال هؤلاء، وأودّ أن أريهم أنّني أعلم بقلوبهم الدافئة الحنونة رغم طيشهم وتهوّرهم. أنا أملك الخبرة الكافية إذ أذكر أنّني ربّيت طفلًا بات فخر عائلته؟».

قال لوري بنظرة الامتنان:

«لا بّد لي من أن أشهد أنّك حاولت ذلك».

ـ «وقد حقّقتُ نجاحًا فاق توقّعاتي، إذ ها أنت ماثل أمامي وقد غدوت رجل أعمال ناجحاً، تستثمر أموالك في فعل الخير، وتحصد بركة فعلك بدلًا من المال. ولكنّك لست مجرّد رجل أعمال، بل أنت شابّ محبّ للخير والجمال فتتمتّع بنصف ما تملك، وتُمتّع الآخرين بالنصف الآخر، تمامًا كما كنت تفعل في الأيّام الخوالي. أنا فخورة

t.me/yasmeenbook

بك يا تيدي لأنّك تصبح أفضل مع مرور الأيّام، والجميع يشعر بذلك، على الرغم من أنّك لن تسمح لهم بالإقرار بالأمر. أجل، وحين أحصل على تلاميذي سأشير إليك وأقول: هذا الرجل قدوتكم».

لم يعلم المسكين لوري أين يذهب بنظراته، فعلى الرغم من أنّه أصبح رجلًا إلّا أنّ موجة من خجله القديم اجتاحته، أمام الثناء الذي أُمطِر عليه، فجعلت الجميع ينظرون إليه برضا.

بدأ يقول بلهجته الصبيانيّة المعهودة:

«أرى يا جو أنّك تبالغين إلى حدّ ما. فلقد قدّمتم لي جميعًا من الخير ما لن أستطيع أن أوفّيكم حقّه أبدًا، إلّا ببذل قصارى جهدي لئلّا أخذلكم. لا بدّ لي من القول إنّك هجرتني بعض الشيء مؤخّرًا يا جو، ولكنّني تلقّيت مساعدة عظيمة في جميع الأحوال. لذا إن تمكّنت من إحرازٍ تقدّم ما فأنا أعزوه لهذين الاثنين.» ثم وضع إحدى يديه على رأس جدّه والأخرى على رأس آيمي إذ كان ثلاثتهم لا يفترقون أبدًا.

صاحت جو في انشراحٍ على غير عادتها:

«أنا أظنّ أنّ العائلة هي أفضل نعمة في هذا العالم.» ثمّ أضافت بصوتٍ خفيض:

«وحين أؤسّس عائلتي أتمنّى أن نعيش بسعادة تمامًا

كثلاثتكم. لو أنّ جون وحبيبي فريتز كانا هنا الآن فسيكون هذا المكان جنّة على الأرض».

وبعد أن انصرفت إلى غرفتها تلك الليلة بعد مساءٍ سعيد قضته مع عائلتها تشاركهم خططها وآمالها وتستشيرهم في أمرها، كان قلبها يفيض بالسعادة ولم تستطع أن تهدّئه إلّا بالرقود إلى جانب السرير الفارغ الذي لم يفارق غرفتها وتستعيد أرق ذكرياتها مع بيث.

كان هذا العام، إجمالًا فريدًا من نوعه في التطوّر السريع لأحداثه وطريقة تقدّمه التي تسعد النفس. وقبل أن تدرك ذلك، وجدت جو نفسها متزوّجة ومستقرّة في قصر بلومفيلد. وما لبثت الأسرة أن ضمّت ستّة أو سبعة أولاد، ازداد عددهم بسرعة مفاجئة من أولاد الأغنياء والفقراء على حدٍّ سواء، إذ كان السيّد لورانس دائمًا ما يجد أطفالًا يحتاجون للرعاية، ويسأل آل بهاير أن يرأفوا بهم، وكان يدفع نفقاتهم بكلّ سرور. وبهذه الطريقة، كان الرجل الطيّب يراوغ دون أن يخدش كبرياء جو.

وبالطبع كان العمل شاقًّا في بادئ الأمر، وارتكبت جو أخطاءً فادحة، غير أنّ الأستاذ الحكيم كان يهدّئ من روعها حتّى تمكّنا من فرض سلطتهما على أكثر هؤلاء التلاميذ تمرّدًا. وكم كانت جو مستمتعةً بجموح الأولاد، وكم كانت العمّة مارش المسكينة سوف ترثى لحال أراضي قصرها

t.me/yasmeenbook

المقدّسة، ولو امتدّ بها العمر لترى كيف غزتها أقدام توم وديك وهاري، لما تجرّأت على ترك القصر لجو. ولعلّ القدر كان يحاول تحقيق العدالة، فقد كانت العمّة الراحلة مصدر رعب لهؤلاء الأطفال على بعد أميال، أمّا الآن فقد كانوا يأكلون الخوخ كما تشتهي أنفسهم، ويركلون الحصى بأحذيتهم، ويلعبون الكريكيت في الحقل الكبير، حيث يتّخذون البقرة المزعجة ذات القرن المنكمش طعمًا لجذب الشبان المتهوّرين للحضور والقبض عليهم. وأصبح المكان نوعًا ما جنّةً للأطفال، واقترح لوري أن يطلقوا على المدرسة اسم: «روضة بهاير» تيمّنًا بسيّدها وكان ذلك يليق بسكانها.

لم تكن مدرسة عصريّة أبدًا، ولم يحصد الأستاذ أيّ ثروة، ولكنّها كانت كما أرادتها جو تمامًا: «مكاناً سعيداً وعائليّاً» للأطفال الذين احتاجوا التعليم والرعاية والحنان، وسرعان ما امتلأت كلّ غرف المنزل الواسع، وسرعان ما أصبح لكلّ قطعة أرضٍ صغيرة في الحديقة مالكها. وكانت الحيوانات الأليفة مسموحاً بها، فتحوّلت الحظيرة والسقيفة إلى حديقة حيوانات. وكانت جو تبتسم لفريتز حين تجلس ثلاث مرّات في اليوم إلى المائدة التي اصطفّت إلى كلتا جانبيها وجوه الأطفال السعداء، والذين كانوا يلتفتون إلى جو ليرمقوها بنظرات الحبّ، ويأتمنوها

على أسرارهم ويعبروا عن امتنانهم للأمّ باير. وكانت الآن تملك ما يكفي من الصبية، ولم تكن تملّ منهم، أو تكلّ بالرغم من أنّهم لا يمتّون إلى الملائكة بصلة إطلاقًا، حتّى إنّ بعضهم كانوا يسببون المتاعب للأستاذ وزوجته. ولكنّ إيمانها بالومضة وبالمساحة الطيّبة الموجودة في قلوب أكثر الصعاليك شقاءً وإزعاجًا كان يمنحها القوّة والصبر والمهارة، ويؤدّي إلى نجاحها في مهمّتها مع الوقت، ذلك أنّه ليس هنالك طفل في هذا العالم يستطيع الصمود أمام نظرات الأب بهاير الدافئة، وتسامح الأمّ بهاير معه وافرًا من المرّات. وكان أعزّ ما إلى قلب جو الصداقة التي تجمع الأولاد وكلماتهم التائبة وبكاءهم بعد ارتكاب الأخطاء، وحماسهم وآمالهم وأحلامهم المرضية حتّى قلّة حيلتهم التي كانت تجعلهم محبّبين إليها أكثر فأكثر.

وهناك المختلفون والخجولون من بين الأطفال، أولادٌ ضعفاء وغيرهم مشاغبون كما كان من بينهم أطفال يتلعثمون أو يتأتئون، وكذلك أعرج أو اثنان، وزنجيّ لم يُقبل في أيّة مدرسةٍ أخرى ولكنّ «روضة بهاير» رحبّت به رغم اعتقاد البعض أنّ قبوله سيفسد سمعة المدرسة.

أجل كانت جو في غاية السعادة هناك، بالرغم من مشقّة العمل والقلق والضجيج الصاخب. كانت تستمتع بتصفيق الأطفال لها وترى فيه ما هو أكثر إرضاءً من أيّ ثناء في هذا

t.me/yasmeenbook

العالم، وتوقّفت عن سرد القصص إلّا لحالميها الصغار المتحمّسين. ومع مرور السنين، رزقت بطفلين أضافا حبورًا جديدًا لحياتها. فسمّت الأوّل روب على اسم جدّه، والثاني تيدي وهو طفل مرح بدا وكأنّه ورث مزاج والده الصافي وروح أمّه الحيويّة. وكيف تمكّن الطفلان من النجاة وسط ضجيج الصبية ما زال لغزًا بالنسبة لجدّتهما وخالتيهما، ولكنّهما أزهرا كأزهار الربيع تحت رعاية أولئك السيّدات القويمات.

وقد تخلّل الحياة في بلومفيلد العديد من العُطَل، كان أبهجها موسم قطاف التفاح السنويّ. إذ كانت أسرة مارش ولورانس وبروك وبهاير يجتمعون معًا ويحتفلون سويًّا. وبعد مرور خمس سنوات على زواج جو، جاءت إحدى هذه الاحتفالات في يوم من أيّام شهر تشرين الأوّل، وكان الهواء منعشًا تتراقص له الدماء في أوردتها. اكتسى البستان ثوبَ العطلة. وراح سنجاب يقفز بخفّة بين الأعشاب، وغنّت الصراصير، وكانت كلّ شجرة في الحديقة على أهبة الاستعداد لإفراغ حمولتها من التفّاح الأحمر والذهبيّ مع أولّ هزّة.

كان الجميع هناك، يضحكون ويغنّون ويرقصون. واستسلم الجميع لمتعتهم البسيطة، كما لو أنّهم نسوا وجود الأحزان في هذا العالم وأقرّوا أنّ هذا اليوم كان مثاليًّا وأنّ هذا المكان هو الأفضل للاستمتاع.

تجوّل السيّد مارش بهدوء يقتبس من أقوال توسير وكولي وكولوميلا للسيّد لورانس الذي كان يحتسي الجعة.

كان الأستاذ بهاير يقطع الأرض الخضراء ذهابًا وإيابًا لمراقبة التلاميذ وتوجيههم وكأنّه بقامته الطويلة يحمل عصا بدل الرمح. وكرّس لوري نفسه للصغار منهم، ووضع ابنته الصغيرة في عربة السلال، ورفع ديزي لترى أعشاش الطيور، ومنع روب المغامر من كسر رقبته. جلست السيّدة مارش مع ميج بين أكوام التفّاح تفرزانه، في حين انصرفت آيمي إلى رسم كلّ مجموعة من الأطفال، وقد علت وجهها تعابير الأمومة. وكانت تلقي نظرة خاطفة بين الحين والآخر إلى طفل شاحب جلس يراقبها واضعًا عكّازه جانبًا.

كانت جو على طبيعتها ذلك اليوم، إذ تندفع في الأرجاء وقد شمّرت فستانها وأضاعت قبّعتها، وتيدي طفلها تحت ذراعها وقد كان جاهزًا لأيّ مغامرة قد تظهر له. كان تيدي الصغير يعيش حياة ساحرة، إذ كان بمأمن من كلّ الأخطار، ولم يصبه مكروهٌ قط ولم تشعر جو بأيّ قلق حين كان أحد الصبية يحمله إلى أعلى الشجرة، أو حين يركب على ظهر آخر، أو حين يقدّم له والده الحمضيّات والمخلّلات، ظنًّا منه أنّ معدة الأطفال تهضم كلّ الأطعمة. كانت تعلم أنّ الصغير تيدي سيعود إلى والدته في الوقت المناسب، آمنًا

t.me/yasmeenbook

وسعيدًا وكانت تستقبله دائمًا بترحيب حارّ لأنّ جو كانت تحبّ أولادها من صميم قلبها.

عند الساعة الرابعة، ساد الهدوء وظلّت السلال فارغة في حين استراح جامعو التفّاح، يقارنون ما جمعوا من أجور أو ما أصابهم من كدمات. وبعدها، تعاونت جو وبيث لتقديم العشاء على العشب لأنّ احتساء الشاي في الهواء الطلق كان دائمًا الفرحة التي تتوّج اليوم.

كانت الأرض تعمر بالحليب والعسل في هذه المناسبات، لأنّ الأطفال لم يكونوا مجبرين على الجلوس إلى المائدة، وكان يسمح لهم بتناول المرطّبات كما يحلو لهم، فالحريّة هي أفضل صلصة تحبّها الروح الصبيانيّة. وقد استفاد الأطفال من هذا الامتياز الذي نادرًا ما يحصلون عليه، إذ كان آخرون يحاولون أن يشربوا الحليب وهم يقفون على رؤوسهم، وغيرهم أضاف سحرًا للعبة الوثب فراحوا يتناولون الفطائر خلال استراحات اللعب.

كان بعضهم ينثر الكعك على الأرض أو يصفّون التفاح على الأغصان، كأنّها طيور من نوع جديد. أقامت الفتيات حفل شاي خاصّ وكان تيدي يتنقّل بين الأطعمة كما يحلو له.

وحين شبع الجميع، اقترح الأستاذ شرب النخب الأوّل في ذكرى العمّة مارش رحمها اللّه. كان نخبًا قدمه بقلب

رجل صالح لم ينس أبدًا كم يدين لها، وشربه الأولاد بهدوء وقد تعلّموا كيف يبقون ذكراها حيّة.

وراحوا يهتفون:

«إنّه عيد ميلاد الجدّة مارش الستّون!. تعيش الجدّة، تعيش تعيش».

وما إن بدأ النخب حتّى صعُب إيقافه. فتوالت الأنخاب في صحّة الجميع من السيّد لورانس والذي كان يُعدّ راعي المدرسة، إلى الأرنب الذي خرج من حجره بحثًا عن صاحبه. وقدّم ديمي بصفته الحفيد الأكبر هدايا كثيرة لجدّته نُقلت بعربة يدويّة إلى مسرح الاحتفال لكثرتها. وكانت الهدايا مضحكة ولكنّها أدخلت السرور إلى قلبها، لأنّ الأطفال هم من صنعوها بأنفسهم. وكانت كلّ درزة صنعتها ديزي في المنديل الذي أهدتها إياه، أحبّ إلى السيّدة مارش من الأعمال ذات الطراز الرفيع. أمّا عن صندوق الأحذية الذي صنعه ديمي فكان معجزة، رغم أنّه لم يستطع إغلاق غطائه!. وأمّا كرسيّ روب الذي كانت أرجله غير متساوية فقد كان مريحًا إلى أقصى حد!، وكان في الكتاب الذي قدّمته آيمي أثمن صفحة على الإطلاق، وهي تلك التي كتبت عليها: «إلى جدّتي العزيزة من الصغيرة بيث».

خلال الاحتفال، اختفى الأطفال في ظروف غامضة،

t.me/yasmeenbook

وحين كانت السيّدة مارش تشكر أطفالها وعيناها مغرورقتان بالدموع وتيدي يمسحها، بدأ الأستاذ بالغناء فجأة. ثمّ أخذت الأصوات تنضمّ إلى صوته وتتعالى حتى وصلت إلى الأشجار التي ردّدت صدى موسيقا الجوقة الخفيّة، وراح الأطفال يغنّون من صميم قلوبهم الأغنية البسيطة التي كتبتها جو ولحّنها لوري، وقد درّب الأستاذ الأولاد على تقديم أفضل تأثير. وكان هذا شيئًا خارجًا عن المألوف، حقّق نجاحًا كبيرًا لأنّ السيّدة مارش لم تستطع أن تتغلّب على دهشتها، فما كان منها إلّا أن سارعت لاحتضان كلّ فتى شارك في الاحتفال من فرانز وإميل إلى الزنجيّ الصغير صاحب أجمل صوت على الإطلاق، وبعد ذلك، تفرّق الأطفال تاركين السيّدة مارش مع بناتها تحت شجرة الاحتفال.

قالت السيّدة بهاير وهي تمسك بيد تيدي الصغيرة التي أغرقها في وعاء الحليب بحماس:

«لا أظنّ أنّني سأطلق على نفسي لقب جو غير المحظوظة عندما تحقّقت لي أعظم أمانيّ».

سألتها آيمي وهي تبتسم لرؤية لوري وجون يلعبان الكريكيت مع الأولاد:

«وعلى الرغم من ذلك فإنّ حياتك مختلفة جدًّا عن تلك التي تصوّرتها من قبل. أتذكرين القصور التي كنّا نبنيها في الهواء؟».

قالت جو وهي تتحدّث بطريقة أموميّة:

«كم أحبّهم!. يسعدني أن أراهم ينسون العمل ويستمتعون بيومهم.» ثم تابعت تقول:

«أجل!، أذكر ذلك ولكنّ الحياة التي أردتها تبدو لي أنانيّة وموحشة وباردة الآن. لم أتخلّ عن أملي في كتابة كتاب جيّد بعد، ولكن يسعني الانتظار، فأنا واثقة أنّ الانتظار هو أفضل ما أقوم به كي يسعني أن أتنعّم بمثل هذه اللحظات والمناظر».

وكانت جو تشير إلى الأطفال وهم يستندون إلى ذراع الأستاذ، بينما يسيرون ذهابًا وإيابًا تحت أشعة الشمس، منغمسين في أحاديثهم التي كانوا يحبّونها كثيرًا. ثم أشارت إلى والدتها تجلس كالملكة بين بناتها وأطفالُهنّ في حجرها، أو راقدون عند قدميها وكأنّهم جميعًا يجدون السلوان في ذلك الوجه الذي لن يملّوا منه.

وضعت ميج يدها على رأس ولدها وعلى وجهها علامات سعادة عارمة وقالت:

«كان قصري أقرب ما يكون إلى الحقيقة. صحيحٌ أنّني طلبت أثمن الأشياء، ولكنّني في قرارة نفسي كنت أعلم أنّني سأرضى بحصولي على منزل صغير أقيم فيه مع جون وأن أرزق أطفالاً كهذين. وقد حصلت على كلّ ما تمنّيته، والحمد للّه فأنا أسعد امرأة على وجه الأرض».

t.me/yasmeenbook

قالت آيمي:

«قصري مختلف كثيرًا عمّا خطّطت له، ولكنّني ما كنت لأغيّره لأنّني، مثل جو، لم أتخلّ عن آمالي الفنيّة ولم أكرّس نفسي لمساعدة الآخرين في تحقيق أحلامهم. فقد بدأت بصناعة تمثالٍ لابنتي، ويرى لوري أنّه أجمل ما صنعت وأنا أوافقه الرأي، وأريد أن أصنعه من الرخام وهكذا سأحتفظ بصورة لطفلتي تخلدها».

وبينما كانت آيمي تتكلّم، سقطت من عينها دمعة على شعر ابنتها الذهبيّ، فقد كانت تحمل طفلتها الراقدة بين ذراعيها لأنّها كانت ضعيفة البنية، وكان خوف فقدانها هو غمامة الحزن التي تحجب النور في حياة آيمي المشرقة. وكان هذا الشعور يقرّب الأمّ والأب من بعضهما إذ كان الحبّ نفسه والخوف نفسه يوطّدان علاقتهما. كانت آيمي قد أصبحت أكثر رقّة ولطفًا وأكثر حنانًا، أمّا لوري فقد غدا أكثر صرامة وحزمًا وقوّة، وكان كلاهما يتعلّمان أنّ الجمال والشباب والحظّ وحتّى الحبّ، لا يمكن أن يجنّباهما الألم...

لأنّ المطر سينهمر في حياة الجميع...

ولا بدّ من أن تكون بعض الأيّام حالكة وحزينة ومخيفة.

قالت السيّدة مارش حين نهضت ديزي من حجرها لتضع وجهها المتورّد على وجه ابنة خالتها الشاحب:

«إنّ حالها يتحسّن يا عزيزتي. لا تفقدي الأمل، بل تمسّكي به وابقي سعيدة».

أجابت آيمي بلطف:

«لن أفقد الأمل أبدًا ما دمت بقربي لتشجّعيني، وما دام لوري يتحمّل نصف الأعباء معي. فهو لا يسمح لي برؤية قلقه، بل يعاملني بفائق اللطف والصبر ويتفانى في رعاية بيث، ويبعث في نفسي الراحة على الدوام، حتّى إنّني لن أوفّيه حقّه أبدًا مهما أحببته. لذا، وعلى الرغم من مصيبتي، فيمكنني أن أقول مع ميج إنّني امرأة سعيدة والحمد للّه».

أضافت جو وهي تلقي نظرات خاطفة إلى زوجها وأطفالها وهم يلعبون بين الحشائش بقربها:

«لا داعي لأن أقول شيئًا، فأنا أظنّ أن الجميع .يرون أنّني نلت سعادة أكثر ممّا أستحق. إنّ فريتز يزداد سمنة ومشيبًا، وقد أصبحت نحيلة كالظلّ، وها أنا في الثلاثين من عمري. ربما لن نصبح أثرياء أبدًا، وقد تندلع الحرائق في بلومفيلد في أيّ ليلة، لأنّ تومي بانجز لا يعدل عن تدخين السجائر تحت الملاءات، على الرغم من أنّه أحرق نفسه ثلاث مرّات بالفعل. ولكن، ومع هذه الحقائق البعيدة عن الرومانسيّة، لا أرى داعيًا للتذمّر، فأنا لم أكن أكثر سعادة في حياتي منّي في هذا الوقت».

t.me/yasmeenbook

قالت السيّدة مارش وهي تطرد صرصارًا أسود كبيرًا كان يحدّق بتيدي:

«أجل يا جو وسيكون محصولك طيّبًا على ما أظنّ».

صاحت جو:

«ولكنّه لن يضاهي جودة محصولك يا أمّاه. فها نحن دليل حيّ ولن نستطيع أن نوفّيك حقّك من الشكر لصبرك منذ غرست البذور حتّى جنيت ثمارها».

قالت آيمي بلطف:

«أتمنّى أن نحصد مزيدًا من القمح، وتبنًا أقلّ كلّ سنة».

وأضافت ميج بصوتها الحنون:

«إنّها سنابل ريّانة يا أمّي، ولا شكّ في أن قلبك يتّسع لها جميعها».

وتأثّرت السيّدة مارش، فما كان منها إلّا أن مدّت ذراعيها، وكأنّها أرادت أن تضمّ بناتها وأحفادها إلى صدرها وتقول بوجه وصوت يملؤه حبّ الأمومة والامتنان:

«آه يا بناتي!. مهما أمدّكن اللّه بالعمر فأنا لن أرجو لكنّ أكثر من هذه السعادة الغامرة!»

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

نساء صَغيرات

صورةٌ بانورامية للحياة الأسريّة في القرن التاسع عشر قرأها الصغار والكبار لأجيال. قصة أربع أخوات يواجهن أثناء مرورهن من الطفولة إلى الأنوثة تحديات الحياة.

بينما كان والدهم بعيداً في الجبهة، ترعى والدتهم الأسرة متحملةً مصاعب العوز في زمن الحرب. نشاهد الأخوات يدعمن بعضهن البعض منتظرات عودة والدهم. على طول الطريق ثمة مغامرات لا تنسى.

صنفت الرواية بأنها "بروفايل المرأة الأمريكية" عبر شخصيات لا يمكن للقارئ نسيانها.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

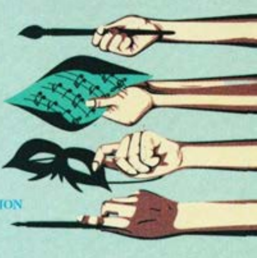

HEMINGUAY
BOOKS

ISBN 978-9922-691-21-3
9 789922 691213

CLASSICS
ABRIDGED VERSION
GREAT IDEAS

Designed by Maher Adnan

t.me/yasmeenbook